مجموعة من المؤلفين

بإشــراف: د. جان كلود دافيد
وتنسيق د. محـمـد الدبـيــات

أوغاريت- شهبا- أفاميا- تدمر- دمشق - حلب جرش - الرحبة - بص

المدينة في سورية وأقاليمها:
المـوروثـات والـمتـحـولات

" مداخلات ندوة "المدينة في سوريا
دمشق ١٩٩٩

ترجمة: د. محمد الدبيات

دار الجندي

2004
568
صفحة

مجموعة من المؤلفين

بإشراف: د. جان كلود دافيد

د. محمد الدبيات

المدينة في سورية وأقاليمها

الموروثات والمتحولات

ترجمة: محمد الدبيات



إلى الدكتور العزيز
محمود حريتاني
مع خالص الود
والتقدير
محمد الدبيات
حلب ١٢/٨/٢٠٠٥

المدينة في سورية وأقاليمها
الموروثات والمتحولات

العنوان الأصلي للكتاب

La ville en Syrie et ses territoires:
héritages et mutations

نشر هذا الكتاب
بدعم من المركز الثقافي الفرنسي بدمشق
ومساعدة وزارة الخارجية الفرنسية

Cet ouvrage est publié
avec le soutien du Centre Culturel Français de Damas
et le concours du Ministère français des Affaires Etrangères

• العنوان: المدينة في سورية وأقاليمها
الموروثات والمتحولات
• المؤلف: مجموعة من المؤلفين
تحت إشراف: د. جان كلود دافيد
د. محمد الدبيات
• ترجمة: د. محمد الدبيات
• الطبعة الأولى 2004
• الناشر: دار الجندي للنشر والتوزيع
سورية، دمشق، ص.ب: 33418
هاتف: 3317019 ـ فاكس: 3317008

* Titre: La ville en Syrie et ses territoires:
héritages et mutations
* Coordonné par: Jean-Cloude David
Mohamed Al Dbiyat
* Traducteur: Mohamed Al Dbiyat
* Premiere édition: 2004
* Les Edition Dar Al Joundi
Syrie, Damas, B. P. 33418
Tél: 3317019, Télécopie: 3317008

الفهرس

الهلنسة؟ الأنماط العمرانية الجديدة في العصرين الهلنستي والروماني

من المدينة البيزنطية إلى مدينة الإسلام، الهلنسة على المحك

المدينة وأقاليمها في سورية

الموروثات والمتحولات

مدخل

دومينيك ماليه Dominique Mallet

المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق IFEAD

إن القراء الذين نفذ صبرهم بسبب التأخر في النشر الذي سببته مجلة الدراسات الشرقية حالياً سيجدون فيها مهدئاً لقلقهم: فالإصدار الحالي للمجلة يمزج أحد عشر ألفاً من السنوات، فما قيمة بضعة أشهر من الانتظار أمام هذا القدر من آلاف السنين؟ فمن المستحيل إدراج زمن طويل بهذا القدر بين صفحات هذه المجلة، والذي يفصل بين تأسيس أولى التجمعات البشرية عن آخر التطورات التي تعرفها مدينة حلب، زمن طويل يحمل ندبات عشرات الزلازل، والاحتلالات العسكرية، وتأسيس العديد من المدن وتدمير المئات منها، دون أن يؤثر بشكل أو بآخر على هذا الانبعاث. إن المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق بتقديمه اليوم لتحليلاته ولنتائج هذه التحليلات، يتابع تقليده المعروف في دراسات القرون الوسطى والحديثة والمعاصرة عن المدن في سورية. ولقد استطاع الباحثون خلال تجوالهم في سورية التي رحبت بهم، من أنطاكية إلى دمشق (بحماماتها ومقابرها ومساجدها وتوسعها خارج الأسوار) مروراً بحلب واللاذقية، بحمص وحماه دون أن ننسى السخنة ودير الزور ومدن أخرى عديدة، استطاعوا جمع معلومات غنية لَم تنشر بكاملها بعد. ويغذي جزء منها المجلة كل عام. إنها تندرج هذه المرة بين دراسات أخرى تصف تشكل وتطور ظاهرات عمرانية تبتعد عن الانشغالات المعتادة للمعهد. ذلك أنها تعود إلى فكرة ما قبل التاريخ. إن هذا العدد من المجلة ثمرة لقاء بين علماء تفرغوا لدراسة فترات متباعدة جداً عن بعضها بعضاً، ولكنها تجمع مصلحة مشتركة بالنسبة «للمدينة». فشكراً لهم جميعاً، ونشكر من بينهم على وجه الخصوص جان كلود دافيد ومحمد الدبيات اللذين

نظما بمهارة وإخلاص هذه التظاهرة العلمية التي كانت أصل هذا المؤلف، واللذين وقفا أيضاً على رعاية ما تلا ذلك من عمليات تحضير للنشر وكذلك لإضافتهما مساهماتهما الخاصة. كما نشكر المؤسسات التي استقبلت هؤلاء الباحثين وشجعتهم. لقد سميت في الصف الأول منها، تلك التي عملت على أن يُعقد الملتقى، الذي أعطى هذا المؤلف، في دمشق وفي المعهد الفرنسي في الفترة الواقعة بين الخامس والعشرين والسابع والعشرين من شهر كانون الثاني من عام ألف وتسعمئة وتسعة وتسعين، وهي: المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى، مجموعة البحوث حول المتوسط والشرق الأوسط (التابعة لبيت المشرق المتوسطي والمركز الوطني للبحوث العلمية في فرنسا).

وهكذا أصبحت المدينة بمثابة منزل يضم جمعاً من الاختصاصات العلمية. وسيكشف استقصاء في أحدث المطبوعات كم هناك من مراصد عمرانية في الدراسات التاريخية، كم هناك من دراسات معمارية في الأرشيفات المصورة، ومن دراسات أثرية عمرانية وكتب عن الآثار وصولاً إلى المخططات العمرانية المستقبلية، كم تجمع المدينة، مثلما يقول السيد دو لا باليس De La Palice . من هنا يأتي ما يبدو لنا اليوم كموضوع مُوحَّد، من هنا يأتي كل هؤلاء الباحثين، من علماء عصور ما قبل التاريخ، ومؤرخين وجغرافيين ومعماريين ورسامين وأنتروبولوجيين ومصورين وعلماء آثار ومخططين عمرانيين، الذين يعتمدون عليها ويستقصونها؟ كيف لا يذكرنا هذا الاهتمام المتبادل بعجلة الأطباء للذهاب إلى سرير المريض؟ الصورة تذكر بأفلاطون الذي يعبر عنها في كتابه الجمهورية الذي يوجه التهمة إلى «مجتمع تنخره حمى الأمزجة» (الجمهورية الفاضلة 11، 377 e). مَنْ غير هذا المعلم بإمكانه أن يقدم أفضل الأعمال التي سنقرؤها، هو الذي يقترح قائلاً: «والآن [...] إن كنا شهوداً بفضل الفكر على ولادة مجتمع سياسي؟ حسناً، فبالفكر، انطلاقاً من البداية، سنشكل مجتمعاً سياسياً». (الجمهورية، 11، 369 a و c). يكتب أفلاطون أنه سيلتقي ـ بالمصادفة؟ ـ أربعة أو خمسة رجال على الأكثر. وبعد ذلك يجب أن يكونوا «مختلفين قليلاً عن بعضهم بعضاً». لا شيء هنا غير مألوف: «فسقراط يذكرنا بأن لا أحد منا

يشبه الآخر، ولكن [...] على العكس من ذلك هذا الطبع يميزه عن غيره (b-a 370). أخيراً يتوجب على كل امرئ: أن يعطي، بالإضافة إلى هذا الاختلاف الأولي البسيط، إمكانية «أن يعلن للآخر عن شيء ما» (c 369). سيلتقي أربعة رجال إذن. هكذا هي الطبيعة «فتنفيذ المهام المختلفة يحتاج إلى رجال مختلفين» (المرجع السابق و a 374). فالأول يزرع الأرض بشكل أفضل من غيره، والثاني يبني جدرانه بشكل أفضل من غيره، والثالث ينسج ثيابه بشكل أفضل، وربما يكون الرابع أمهرهم في صنع حذائه. وأديمانت الذي يرد على سقراط، يوافق على أنه سيكون «أيسر» لكل واحد منهم أن يشغل وقته بتزويد نفسه وبتزويد الآخرين، بالنسبة لأحدهم بكل أحذيتهم، بالنسبة للآخر بكل جدرانهم إلخ. فليس مطلوباً من كل واحد أن يخصص ربع جهده في صناعة كل شيء من الأشياء التي يحتاجها بحسب حاجاته الشخصية الاتساع المتبدل لمهارته. وهكذا سيتفق الأربعة: الأول سيزرع للثلاثة الآخرين، والثاني سيبني الجدران للجميع، وسينسج الثالث ألبستهم، وجميعهم سيسيرون منذ الآن بأحذية يدينون بها لصناعة الرابع، وهكذا وبسرعة... سيفرض آخرون كثر أنفسهم، من مربي البقر ورعاتها ورعاة آخرون، وحدادون، ونجارون، تجار، باعة مفرق، موظفون – ممن يربون الدواب التي ستجر المحراث أو التي ستمنح جلودها من أجل النعال، والذين سيجهزون المعدن للمحراث أو هيكل السقف الخشبي. سيساعد هؤلاء كثيرا الرواد الأربعة الأوائل، بالخمر والحلوى المصنوعة من طحين الشعير التي تقدم على حصر من الأسل (b 372) وبفرُش من بقايا أعشاب اللبلاب والريحان، وبالأطعمة المطبوخة، وبالصديقات والحلوى، وبالمربيات والحلاقين – «وفي مقدمتهم الفنانون، والمطرزات! وسيكون لديهم الذهب والعاج...» (a 373) – وهكذا شيئاً فشيئاً فإن مدينة الضرورات القصوى فقط ستتحول إلى مجتمع من القذرين «تنخره حمى الأمزجة» (e 372) وسرعان ما ستنهال عليها ضربات متتالية من جيوش ستنتعش على مزبلة المعارك! (b 375).

وفي المحصلة فإن المجتمع السياسي الذي منح اختلاف اللغات – مع أنها جميعاً واحدة – سيتكون، ولكنه سيتكون كما يقول أديمنات Adminate

بحسب الاتجاه السهل وليس بحسب ضرورة الجوهر: ستذهب الطبيعة لغاية اللوغوس* والاختلاف الذي لا شأن له، وستتوقف عند المدينة. فالجماعة من قبل الصدفة والمدينة من فعل التوفيق والتكيف، إنها عقلانية لكنها هشة، بسبب اتفاق بين حريات كاملة ووفق قواعد ليس ممنوعاً أبداً الرجوع عنها.

عندما لخص ابن رشد «الجمهورية» ، أخذ هذا النص وألف الرواية الأفلاطونية مع مبدأ أتى به من عمل آخر (من السياسة لأرسطو)، والذي يتحدث هذه المرة عن جوهر وتخلف الإنسان المنعزل: «يبدو بوضوح أن بمقدور الإنسان الوحيد التوصل إلى إحدى الفضائل ليملكها لوحده دون أن يساعده في ذلك ناس آخرون، أعني بذلك أن المرء بحاجة للآخرين لكي يمتلك فضيلته الخاصة»[1]. هذه السطور تذكر بالتأكيد بالجمهورية II 369 b: «هناك برأيي ولادة للمجتمع ذلك لأن كل منا، بعيداً عن أن يكفي نفسه، بحاجة لعدد كبير من الناس...». ومع ذلك فإن ابن رشد لا «يختصر هذا الرأي»: إنه يضخمه ويحول اتجاهه ليفجر منه الفحوى الأول، التقديري، إلى ما هو أكثر أهمية في طبيعة الأشياء. إنه يضيف أرغونا آخر على كبار أرغونات الفيزياء ويؤلف مبدأ الاختلاف الصغير الشأن ومبدأ عدم الاكتفاء العابر للفرد: «إن كان كل فرد قد تهيأ بالقوة اللازمة لكل الكمال البشري، فإن أفلاطون لم يكن ليقول شيئا، وستكون الطبيعة قد صنعت شيئا ليس ذا قيمة. كذلك من السخف أن يكون شيء ما ممكنا بينما إنجازه مستحيل»[2].

---

* اللوغوس: عقل أول، وهو كائن يفصل بين الخالق والكون في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة. (المترجم).

1 لقد ضاع النص العربي لابن رشد لكنه ظل موجودا بالعبرية. ولقد أعدت كتابة هذا المقطع بالاعتماد على ترجمتين، إحداهما بالإنكليزية والأخرى عربية وهي حديثة جدا ومترجمة عن العبرية Averroes on Plato's Republic, translated with an introduction and notes by Ralph Lerner, Cornell Paperbacks, 1974 والدكتور أحمد شحلان «الضروري في السياسة» (سلسلة التراث الفلسفي العربي، مؤلفات ابن رشد، 4، بيروت 1998). الجزء الأول ص. 4 من ترجمة ليرنر Lerner، وص. 74 من ترجمة شحلان. التشديد من قبلي.

2 المرجع السابق ص. 6 من ترجمة ليرنر وص. 75-76 من الترجمة العربية لشحلان: «لو كان كل إنسان مهيأ لتلقى كل الكمال البشري، فإن الطبيعة ستكون قد قامت بعمل سخيف (لكانت الطبيعة قد ارتكبت محالا... ليرنر قرأها حماقة عوضا عن محالا)، مادام من المستحيل أن يكون بالإمكان وجود شيء لكنه ممنوع من التفعيل في الوقت نفسه».

وعن الطبيعة السياسية للإنسان، لا يقول أفلاطون شيئاً. إنها استعادة حرفية تقريبا لمؤلف سياسي للفارابي، وهو ما سمح لابن رشد بهذه الإعادة في صياغة النص الأفلاطوني. إن «المدينة الفاضلة» تجعل السياسة مسألة جوهرية. وهناك رواية تقول إن الفارابي قد كتب في نص مفقود لسوء الحظ (تعليقه العظيم، من الأخلاق إلى نيكوماك). يذهب فيه إلى حد التأكيد: «بأنه ليس هناك سعادة سوى السعادة السياسية» ـ [وفي صياغة أخرى: «السعادة الدنيوية»] وأن كل ما يقال خلاف ذلك ليس سوى هوس وحكايات عجائز!». ومنذ الآن فصاعداً ودوماً ستلتزم الطبيعة بالمدينة، والمدينة ستلتزم ـ ومن جديد ضد أفلاطون (373 d ـ 374) بالنسبة للأطروحات التي يقول ابن رشد بأنه يفضل عليها أطروحات أرسطو التي أخذها عن الفارابي ـ بحروب الفتح العادلة! هل يجب أن تكون هاتان النقطتان هامتين ـ الطبيعة السياسية للبشرية وشرعية حروب الفتح[3] ـ لكي تدفعا العرب إلى حد مطالبة نص لا يعرفونه (لم يترجم أبداً كتاب السياسة لأرسطو) بأن يهديهم إلى ذاك الذي تقع عليه أعينهم!

هناك بعد شاسع بين اللقاء الصدفوي، عند زاوية حقل زيتون، بين أربعة رجال ذوي مهارات مختلفة، اختاروا بطيش أن يجمعوا اختلافاتهم ليطبقوا وصفاتهم الفاشلة... بعد شاسع بين هذا اللقاء الصدفوي وطبيعة متبصرة تماماً تضع في الجوهر الأساسي لكل منا، وكذلك في جوهر الفرد المبهور بالشمس، أسواقا ومعابد، صروحاً ومناهل، بوابات وشوارع، حمامات وملاعب «ناهضة». لكي تتسكع فيما بينها طوال حياتها وبدونها لن يكون بمقدور هذا الجوهر الأساسي أن يكتمل (أو أن الطبيعة ـ أمر مخيف ـ ستكون قد أزاحت من قعر بوتقته القوة والفعل)... هناك بعد شاسع بين الجمهورية التي «اختصرت» على هذا النحو، والمحافظة كيفما كان على إتمام محتمل للإنسان ضمن هذا التقشف الزهدي في داخله: إنها رواية معاكسة تماماً تستمر بترويج فكرة أن أفلاطون «كان مولعاً بالأماكن المهجورة، بالصحاري وبالعزلة، وأنهم كانوا يعرفون المكان الذي يعتكف فيه

---

3 مرجع مذكور سابقاً، ص. 12 من ترجمة ليرنر.

بفضل صرخات البكاء التي كانت تُسمع حتى مسافة ألفين عبر السهول والصحاري»[4]. إن هذا المخطط العقاري بمثابة شجب للروح والذي صار خيوط الزخرفة المعدنية لمباركة عمرانية تماماً.

إن أولى تجمعات الصيادين في صباح السياسي، والمستودعات الباكورية، والانتقال غير المحسوس من الأكواخ الدائرية إلى المساكن المربعة، والمدن المدروسة المتفق بشأنها، الإرادوية، المرسومة، القطرية الخطوط، المقامة بشكل مسرحي وتلك التي جاءت إلى هنا مثل الأعشاب الضارة التي تبني لنفسها أماكن سرية كالمغائر بين العطفات غير المتوقعة للشوارع الضيقة، كل ذلك سيتم تناوله في النصوص التالية. ربما يكون التغيير الخفيف للجمهورية الفاضلة في مراياها العربية معبراً عنه في فلسفة المدن الشرقية عندما تعرف أيضاً، بتعاملها مع كل الأفكار، أن تنجز سياسة النفوس الوحيدة ــ هذا التعبير معنى آخر لعنوان لابن بجّه.

[4] ابن أبي أصيبعة: «عيون الأنباء» الجزء الأول، ص. 79.

المدينة في سورية وأقاليمها: موروثات وتحولات

مقدمـــــة

جان كلود دافيد Jean-Claude David

بيت المشرق المتوسطي ــ المركز الوطني للبحوث العلمية ــ فرنسا

محمد الدبيات

المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق

يجمع هذا الكتاب المداخلات التي قدمت في الطاولة المستديرة التي عقدت في دمشق في كانون الثاني من عام 1999، وذلك في ترتيب مختلف قليلاً مع بعض النصوص الإضافية[1].

ما هي المدينة؟ يبدو السؤال عادياً، لكننا نعطيه معنىً خاصاً واضعين إياه في ظرف إقليمي دقيق: سورية «التاريخية». نأمل بشكل خاص أن نفهم كيف تنتج المدينة أقاليمها وبالعكس. ونأمل أن ندرك على المدى الطويل كيف يمكن لفضاء إقليمي، معبور أو مغلق بحدود، مستقرة، متبدلة أو واهية، أن يكون مهيكلاً بشكل مختلف بحسب العصور، ينتظم إما من حول مركز وحيد قد تحل مكانه شبكة عمرانية متسلسلة، أو من حول مراكز عديدة

1 لقد أعدت مقالة برنار جيير : «الحركة والأقاليم في المناطق الهامشية الجافة من سورية الشمالية» لكي تنشر في منشورات أخرى، لذلك لم ننشرها هنا. يمكن الرجوع إلى المقالتين التاليتين:

B. Geyer. «Des fermes Byzantines aux palais omayyades ou l'ingénieuse mise en valeur des plaines steppiques de Chalcidique», Aux origines de l'archéologie aérienne A. Poidebard (1878-1955), PUSJ, Beyrouth, 2000, p. 109-122; B. Getyer et M.-O. Rousset, à paraitre, «Les steppes arides de la Syrie du Nord à l'époque Byzantine ou la ruée vers l'Est», TMO, Lyon.

متنافسة أو متكاملة، دائمة أو سريعة الزوال. وسنهتم على التوازي بتنظيم الفضاءات العمرانية، المنزلية والخاصة، ولا سيما العامة والمركزية، التي تم تطويرها من أجل تأمين وظيفة الاحتكاك والمبادلات المتنوعة مع الأقاليم والشبكات. إن هذه الإنشاءات الإقليمية، أقاليم المدينة، والأقاليم ضمن المدينة، تخضع كثيراً لألاعيب السلطات.

لا يدعي تقديمنا هذا الشمول وليس هدفنا دراسة كل المدن في كل العصور من تاريخ سورية، وإنما طرح بعض التساؤلات حول الظاهرة العمرانية وحول ما يمكن اعتباره خاصاً بهذه المنطقة.

لقد احتفظنا من أجل هذا الكتاب بإطار زمني (يتوافق غالباً مع موضوع معين) يسمح بمقاطعة المعطيات الإقليمية مع مسيرة التاريخ.

البرزخ الشرق أوسطي، أرض، حدود أو تقاطع طرق؟

يعتبر الشرق الأوسط برزخاً ترسخ من خلاله أكثر التماسات مباشرة بين أفريقيا وآسيا وأوربا. إنه أيضاً أقرب الأمكنة إلى البحار التي تحيط بالعالم القديم. إن أهم العناصر في هذا المجموع، والعمود الفقري لسورية التاريخية، هو مُركب التضاريس والمنخفضات على المحور الأوسط الذي يصاحب الشاطئ المشرقي ولا سيما أحدوره الداخلي، الخصب والعامر بالسكان، الذي يتحول إلى بادية وصحراء باتجاه الشرق. ويمتد هذا المجموع نحو الشمال الشرقي نحو ما بين الرافدين عبر أقدام جبال طوروس. إن هذا الجزء من الهلال الخصيب هو بامتياز مجال المدن والقرى، فضاء العالم المستقر. هو أيضاً حزمة من خطوط التماس بين البحر المتوسط والمشرق. فالبادية والصحراء في الشرق اللتان تبدوان خاويتين، تشكل نواة ينتظم من حولها الفضاء الذي يثير اهتمامنا. ففي هذا الوسط النابذ تطور نمط حياة بدوي، لم يعد بالضبط ذاك الذي سبق ولادة القرى والمدن. فقد عرفت مجموعات أصبحت البدو وقبائل الغنامة، ثم الجمالة فيما بعد، كيف تتأقلم مع ما هو غير مستقر وكيف تعثر على الدخل الإضافي، الأكثر انتظاماً، من خلال السيطرة على المبادلات عبر الصحراء و«حماية» المستقرين

المجاورين، سكان الواحات والمناطق الزراعية الدائمة. لقد شكلت الصحـراء وهوامشها منذ آلاف السنين فضاءً للاحتكاك بشبه الجزيـرة العربيـة فـي الجنوب، وخزاناً لا ينضب لحياة الترحال وللحياة القبلية. معبورة كـانت أم ملتف من حولها، فهي أيضاً عقدة العلاقات مع الوحدات الجغرافية الثـلاث والثقافات المجاورة، الأكثر انسجاماً واستقراراً من الناحية النسبية: مصر وما بين الرافدين والأناضول.

في هذا الكل المتناقض الذي يتجاوز حدود سورية «التاريخية» يمكـن تلمس تناقضات أساسية، من جهة بين مدن عملت باستمرار تقريباً كمـدن ــ دول، مدن المحور الداخلي كحلب وحماه وحمص ودمشق (أو حتى إيبـلا)، وبعض مدن الفرات الأوسط كماري (انظر بحث جـان كلـود مـارغرون ص 73) أو مدن الساحل مثل أوغاريت، (انظر مقالة إيف كالفيـه ص 115)، ومن جهة أخرى في خارج المنطقة السورية، حيث نجد غالباً مدنـاً غازيـة ومسيطرة استطاعت أن تقوم بدور عواصم الإمبراطوريات، كمـدن وديـان الأنهار الكبرى دجلة والفرات والنيل، فهل كان بإمكان هذه المدن أن تكـون مهيمنة مختلفة في أعماق طبيعتها أو أنها اكتسبت ميزتها الخاصـة بسـبب العلاقات التي تنسجها مع الأقاليم؟ إن اختلافات العلاقة مع موضوع الميـاه والوسائل التي أوجدت من أجل إدارة استثمارها تبدو عوامل هامة في تعريف السلطات والقدرات على استيطان وإدارة أقاليم واسعة لمدة طويلة إلى حد ما.

لو أردنا تحاشي إغراءات أساسية، يمكن أن يكون من الهام ملاحظـة هذه الخصائص على مدى فترة طويلة من الزمن، وقياس مدى رسوخ البنيـة في مختلف العصور. هل يمكن اعتبار مدن البرزخ الشرق أوسطي منـذورة بشكل خاص للانفتاح، للتبادل والاحتكاك، وبمثابة مدن ضعيفـة الاسـتعداد لإنتاج أو لإيواء السلطات المهيمنة؟ وعندما كانت سورية في قلب إقليم واسع ــ المملكة السلوقية وعاصمتها أنطاكية، الخلافة الأموية وعاصمتها دمشق ــ كيف نفسر حينذاك انعكاس هذا الميل؟

ألا يمكن للفضاء الذي تقع فيه المدن التي تـهمنا أن يعـرَّف بشـكل أساسي، كنظام معقد للروابط والعقبات، كفضاء متنازع عليه غالباً بين اثنين،

أحياناً يُدمج بعالم البحر المتوسط، وأحياناً أخرى بالشرق، وقادر على المشاركة بحزم وإصرار مع كلا الاثنين؟

يبدو أن القرب من المتوسط والانفتاح نحو الغرب لم يكن لهما رسوخ لحظة ولادة المدن الأولى في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. فإن كانت المبادلات البعيدة عاملاً أساسياً في نمو وحتى في تعريف الظاهرة العمرانية فيبدو أن هذه المبادلات كانت تتم بشكل أساسي على طول الفرات، من الخليج حتى القوس الجبلي الشمالي الغربي. وكذلك في وادي النيل. يبدو أن العمران قد شمل بسرعة أقاليم مختلفة، ملحقة بهذه الاتجاهات الكبرى. كالمناطق الخصبة في شمال سورية حيث حصلت فيما بعد عمليات الاستقرار الأولى، وتربية الحيوانات الرعوية والزراعة، وهو كذلك فضاء وسيط للوصول إلى المواد الأولية، لا سيما الحجر والخشب من الجبال المجاورة. لم يعد الأمر يتطلب سوى بضعة قرون كي يتم أخيراً الانفتاح نحو المتوسط، الذي سمح بحرية حركة أكبر بكثير، وسهل التبادل مع القطب الآخر للحضارة ولتطور المدن، أي مع وادي النيل، ومع أماكن أقل أهمية بكثير كالجزر والبلاد البعيدة التي تنتج المواد الأولية، وكذلك مع حضارات مكملة لحضارات الشرق الأوسط. إن الانفتاح نحو الشرق الأبعد، نحو حضارات الهند النهرية، أساسي بلا شك، لكن العلاقات الأولى مع هذه المناطق التي تبدو أجنبية أكثر، ما زالت غير معروفة جيداً.

أصل واستمرارية المدن في الشرق الأوسط

سورية بلد المدن، وهي تعتبر أحد مهاد الظاهرة العمرانية. فمدينة حبوبة كبيرة[2]، الواقعة على الضفة اليمنى للفرات، إحدى أقدم المدن التي تم التعرف إلى هويتها ونقبها الأثريون، قد تأسست كمدينة جديدة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. لكن الموقع العمراني (الحضري) الأول المعروف هو مدينة أوروك في منطقة ما بين الرافدين، التي ولدت في وقت أبكر بقليل وفي ظرف جغرافي آخر، في وادي الفرات الأسفل، من حول نظام أنظمة

---

2 هذا الموقع الهام مذكور أيضاً في مقالة ج. ك. مارغرون.

زراعية تعتمد على الري. ودوماً في سورية، تعتبر ماري مدينة جديدة تأسست في مطلع الألف الثالث، في وسط فراتي، وسط أقنية للري وللنقل (انظر ج. ك. مارغرون، ص 73). وبعد زمن قليل بلا ريب، ونحو منتصف الألف الثالث تطورت مع إيبلا المدن الأولى على أطراف البادية، في وسط سوري نموذجي للزراعة البعلية ولتربية المواشي. أما أقدم مدن الساحل السوري، كأوغاريت (انظر إيف كالفيه ص 115) فقد ظهرت بعد زمن قليل أيضاً. ويذكر ميشيل المقدسي التأسيس أو إعادة التأسيس لمدن جديدة في سورية الوسطى في عصر البرونز الأوسط (2000 ــ 1600 قبل الميلاد)، وكأنها تترافق مع تنظيم إقليمي جديد. ومنذ الأصل، كانت مواقع المدن وأسباب ولادتها ووجودها كثيرة التنوع.

إن كان الأثريون يركزون أحياناً على عملية التأسيس والفعل الإرادي لإنشاء بعض المدن فوق موقع تم اختياره من قبل، (حبوبه، ماري، إلخ.) فيبدو أن هناك مدناً أخرى قد ولدت من عملية تطورية انطلاقاً من تجمع قروي (إيبلا، أوغاريت، إلخ).

ومع ذلك فغالباً ما تقول المدن بأنها مؤسسة وبأنها ترث، فإن لم يكن لها تاريخ. فهناك على الأقل أساطير تأسيس، أي فكرة انقطاع مع الماضي غير المديني.

لا بد من تضافر عوامل مختلفة في ظرف خاص كي تولد المدينة. أليس أحد العوامل الأساسية في نشوء المدن هو الإمساك الخاص بعلاقات بين تجمع للسكان من جهة، والأقاليم الخارجية للعلاقة والتبادل من جهة أخرى؟ إن التراكم الذي يصاحب انبعاث المدينة يمكن أن يكون من أصل زراعي، لوحده أو بشكل مفضّل، أو مؤسساً على المبادلات التجارية. ومن اللافت للنظر أن انبعاث المدن الأولى كأوروك، في بلاد سومر، يبدو وكأنه يتوافق مع نمو حاجات جديدة وشبكة من العلاقات تسمح بتأمين هذه الحاجات: «فقد كان تجار سومر يبحثون بلا توقف عن المواد الأولية الأساسية لاقتصادهم، غير الموجودة على أراضيهم»[3]. يمكن إذا التساؤل إن

---

3 P.Matthiae, Aux origins de la Syrie, Ebla retrouvée, 1996, p. 37.

لم تكن المدن الأولى قد ولدت مما ينقصها أكثر مما هو من ثروتها. ألا تصبح مدناً بفضل نمو حاجاتها غير المتوفرة ومن أجل الإشباع بهذه الحاجات؟ وفي لحظات أخرى وأماكن أخرى، لا بد أن المدينة هي ثمرة ظروف أخرى.

يمكن لمسألة أخرى تتعلق بالأصول أن تحل على التوازي، وذلك بخصوص العملية التطورية الحالية لتحول القرى إلى مدن: ما هي العوامل التي تسبب هذا التحول؟ متى ولماذا يمكن القول بأننا نتعامل مع مدينة وليس مع قرية؟ هناك سؤال مرافق وهو المتعلق بالروابط الممكنة بين مدينية ونمط حياة بدوي: إن تاريخ المنطقة متأثر بعمق بهذه العلاقات القاسية بين عالم الحضر وعالم الريف، والعلاقات الأكثر إشكالية أيضاً، وتقريباً المخالفة للطبيعة، بين المدينة والبداوة. سنعود إلى ذلك لاحقاً.

طوال هذا التاريخ ذي الألفيات العديدة، تختفي بعض المدن بذات السرعة التي خرجت بها من الأرض تقريباً، في حين أن مدناً أخرى تستمر: فدمشق وحلب وحماه وحمص موجودة منذ آلاف السنين. في حين أن مدناً أخرى كالحسكة والقامشلي ودير الزور والرقة ومنبج وسلمية، وغيرها، بالإضافة إلى مدن أصغر مثل السفيره أو إعزاز في منطقة حلب، كلها عبارة عن مدن قديمة جداً، عادت وأصبحت «مدناً» من جديد.

هل لأسباب هذه الانبعاثات علاقة ما مع الماضي؟ يقبع السؤال في خلفية تساؤلنا عن تنظيم الفضاءات الإقليمية: المدن التي تختفي تعوّض بأخرى، تدمج أقاليمها في مجموعات أخرى، أكثر اتساعاً، ومستقطبة لمدن أخرى. إن حركة اختفاء ونمو المدن هي التعبير الأوضح عن هذه التبدلات في تنظيم الأقاليم السورية.

من جهة أخرى، إن طول عمر أو استمرارية بعض المواقع العمرانية وهمي جزئياً، وليس بالضرورة انعكاساً لاستمرارية حقيقية. فعلى ماذا تعتمد ديمومة قيمة المواقع، كمواقع المدن الكبرى؟ هل عوامل الحيوية متماثلة طوال تاريخ المدينة أم أن الأمر يتعلق بتتابع عوامل يتوافق كل منها مع فترة معينة؟ فأي معنى يمكن إعطاؤه لإعادة استخدام الجدران، والأبنية والفضاء

العمراني في العديد من هذه المدن كدمشق أو بصرى وغيرها (مثل قنوات التي يذكرها ك. س. فرايبرغر ص 199). أية استمرارية تمر عبر هذه الممارسات، أهي استمرارية روحية، أم رمزية، يمكن أن تحمل أيضاً بعضاً من معالم الهوية، أم استمرارية وظيفية بكل بساطة. ومن نوع إعادة الاستخدام والاستفادة. لقد استطاع سوفاجيه أن يوضح هذه المسألة في مقالاته وكتبه، لكن دون أن يتوصل ربما إلى طرح الأسئلة الحقيقية، فقد كان عمله محصوراً بنظرته الانتقائية لماضي المدن. فمن الواضح أن الماضي ليس دون أهمية وكذلك الموروث المادي الذي يذكر به. فمنذ الأصول تحتاج المدن إلى تاريخ أو إلى أساطير ذكريات قديمة تملك نوعاً من الاستمرارية. فالمراحل الانتقالية وفترات الاضطرابات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تصيب مواقع عمرانية مشغولة بلا انقطاع، هي لحظات أساسية لفهم الانقطاعات والاستمرارات الحقيقية لهذه المدن. فهل المراحل الانتقالية هي حيث نعتقد أننا نراها أو لا يمكن للاستمراريات أن تخفي انقطاعات؟

فضاءات التبادل والانفتاح ضمن المدينة: من الآغورا إلى السوق

إن اختفاء الآغورا أو الميدان، وتوضع النشاطات الاقتصادية على طول الشارع الرئيسي، ومراحل تحوله إلى سوق. ترتبط بلا شك بتغيرات في عمل السلطات[4] وكذلك باختفاء العربة التي حل محلها الحمّال (الذي استفاد هو نفسه من التغيرات الثقافية وربما أيضاً، بحسب تيري بيانكي، من ندرة الخشب المخصص للنجارة). فهي أحداث أساسية، من بين أحداث كثيرة أخرى. وقعت إبان الفترة البيزنطية وفي مطلع الفترة الإسلامية. إن التحولات العميقة للفضاء العمراني تؤدي إلى ولادة نمط آخر من تنظيم الفضاء، يميز المدينة في العصر الإسلامي، ولكن ليس تمييزاً كلياً، المدينة التي هي ليست جديدة تماماً ولكنها ربما تنشط من جديد بعض خصائص المدن السابقة للعصر الهلنستي. إن قرية ذات الكحل العربية أو الفاو، التي نقبها الأثريون السعوديون منذ عام 1972،

4 من بين الأعمال التي توضح العلاقة بين ما هو سياسي والأشكال العمرانية في الشرق الأوسط من بيزنطة حتى الإسلام، يمكن أن نذكر هيغ كينيدي Huge Kennedy. «City Planning from classical Antiquity to early Islam», Sciences Sociales et Phénomènes Urbains dans le Monde Arabe (dir. M. Naciri et A. Raymond). 1997, Casablanca.

أقدم من الإسلام بعدة قرون. وهي نشيطة بشكل خاص وقــد تركـت آثــاراً معمارية معبرة وذلك بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الرابع بعد الميلاد. وهي معاصرة للوجود الهلنستي والروماني في الشرق الأوسط ولكنها خــارج أراضيهما، وهي تتميز بتنظيم مختلف كلياً عن ذاك الذي تعرفه المدن الهلنستية أو المتأثرة بروما، غير أن التأثير الثقافي والفني للغرب واضح تمامــاً فيــها. يبدو أن المدينة تكونت من كتلتين منفصلتين بواسطة فضـــاء قليـل الأبنيــة ومشغول جزئياً بمقبرة. فمن جهة، نجد مجمعاً يجاور المعابد والأسواق المغلقة المسورة تقريباً والتي يسميها الأثريون السوق، ومن الجهة الأخـــرى، نجــد منطقة سكنية تضم قصوراً وأماكن للعبادة. وليس هناك أي أثر لشوارع معمدة أو لآغورا أو لميدان حتى وإن كان هناك بعض الأشكال لشوارع ولســاحات ذات مسار غير منتظم[5].

وإن عدنا إلى نقطة انطلاق الظاهرة العمرانية، إلى مدن معروفة نســبياً بشكل جيد بفضل أعمال التنقيب، مثل حبوبة كبيرة ومــاري وإيبــلا وكذلــك أوغاريت. فإننا نلاحظ غياب أحد الأقطاب الإقليمية والوظيفية الأساسية لمـدن أحدث، قطب معقد يمكن أن نعرفه بأن واحد معاً كفضاء عام وفضاء تجاري، تم التعبير عنه بشكل واضح وفي وقت متأخر بالسوق. إن كان جــان كلــود مارغرون يشير إلى وجود أحياء حرفية وبعض النشاطات التجارية بلا ريــب في مدينة ماري الأولى، فذلك لا يعني فضاءات مركزية تُهيكل المدينــة. وإن كان إيف كالفيه يذكر ويحدد موقع ساحة واسعة وشارع عريض في أوغاريت، فلا نعرف فعلاً إن كانت هذه الفضاءات شيئاً آخر غير توسيعات تمت بالصدفة مرافقةً تطور المدينة، أو أن لها وظيفة محددة. فقد كانت الطوابق الأرضيــة لمنازل أوغاريت مخصصة لنشاطات متنوعة «المدخــل، أمــاكن التخزيــن، التجارة...»، لكن هذا الغياب الظاهر لتمركز نشاطات التبادل وهذا الخليط من

---

5. هناك مدينة أخرى «عربية» تقع على أطراف مناطق الاحتلال اليوناني ــ الروماني ونفــوذه وهي حترا، التي تقع حاليا في العراق، في منطقة قريبة نسبياً من سورية. وتشبه حترا إلى حــد ما تدمر مع بعض الاختلافات الأساسية، في الأشكال العمرانية والمعمارية. إنها تشكل جزءا من محاولات تطوير المدن العربية قبل الإسلام، التي تخلصت جيداً إلى حد مــا مــن التــأثيرات التقليدية المهيمنة في مناطق الاحتلال المركزية.

الوظائف المنزلية والتجارية يبدو غريباً في الوسط الشرقي.إن كتابات فريق باولو ماتييه عن إيبلا واضحة في هذا الخصوص: فالمدينة تختلف كلياً في تلك العصور عما سنعرفه فيما بعد، بمعنى لا نستطيع تعريفه فيها، كما يبدو من فضاءات عامة حقيقية، ساحة أو شارع رئيسي يجمع النشاطات والخدمات الجماعية، بالإضافة إلى فضاءات النشاطات المرتبطة بالمعبد والقصور: «فضاءات الاتصالات بين المدينة المنخفضة والقصر، فساحة الاجتماعات فضاء عمراني غير شائع، يبدو أنه كان في الوقت نفسه البلاط والساحة العامة، أي فضاء داخلي وخارجي في آن واحد»[6]. كان الجزء الأكبر من الإنتاج والمبادلات الاقتصادية التي تمر عبر المدينة تُدار من القصر، فهي تخزن وتوزع، حتى أنها تحول تحت سلطته: المدينة ملحق للقصر: «تقدم إيبلا نموذجاً لمركز إداري تحتل فيها مساكن الملك والموظفين الكبار كامل مساحة المدينة، [...] كانت هذه البنية تضم بالمعنى الإداري والطبوغرافي أماكن العبادة. فالجزء الأكبر من السكان المقيمين كان يعمل لدى الإدارة»[7] وبالتأكيد، لا يوجد هنا أيضاً السوق أو الفضاء العام، فالوظائف العمرانية الوحيدة المعرّفة جيداً هي السكن والمواصلات، والمجمعات متعددة الوظائف التابعة للقصر ولأماكن العبادة. وبلا شك، وُجدت وبسرعة تجمعات غير نظامية من «الحوانيت»، بالقرب من أبواب السور، في الضواحي، عند أبواب المعابد والقصور، ولكن هنا أيضاً تُعرّف بشكل سيء الأحداث والعوامل والفاعلون التي تحرض، انطلاقاً من هذه النويات، الولادة والتطور الحاسم للفضاءات المخطط لها والتي خصصت للتجارة وشجعت لقاء «الاختلافات»، بين حضر وأجانب وبين مجموعات متنوعة من المدنيين على هامش السلطة والدين. هل هذا النمط من التنظيم العمراني هو نتاج لصيرورة تطور محلية؟ وهل كان ضرورياً وجود تأثير ثقافات أخرى، تقدم ما عندها أو كعامل تنشيط فقط؟ ما هو الدور الذي لعبته الثقافات المتوسطية أو الشرقية في هذا التطور؟ لأسباب عديدة لم يتم التعرض إلى هذه المسائل بشكلٍ وافٍ في ملتقانا؟

---

6 P. Matthiae, 1996 p. 77.

7 A. Archi, in P. Matthiae, 1996 p. 139.

غير أن مسألة السوق قد طرحت بطريقة مثيرة للاهتمام من قبل م. رودونسون M. Rodinson في مقدمته لكتاب المؤرخ بيدرو شالميتا Pedro Chalmeta[8]. فبحسب رودونسون، إن الكلمة الأكادية سوقو، ذات الجذر السامي الذي يعني الضيّق، تعني «بشكل مبهم» الشوارع ومجموع الطرق العامة. «لكن عندما بدأ مترجمو الإسكندر اليونانيون بترجمة التوراة العبرية، في القرن الثالث قبل الميلاد، فقد ترجموا كلمة السوق، ثلاث مرات من أصل أربعة، بكلمة آغورا...»، «ذلك لأنه يبدو أن اللغات السامية في الشرق الهلنستي، لا سيما اللهجات الآرامية، قد اختارت كلمة سوق لترجمة المفهوم الهلنستي والروماني للآغورا ـ الميدان [...]. ومن الواضح أن كلمة سوق قد أخذت لصالحها مجموع المعاني التي كانت الآغورا قد كسبتها طوال عملية تطور طويلة: المركز العصبي للحياة البلدية، مركز العلاقات التجارية، مكان التقاء سكان المدينة، موجز الحياة خارج المنزل، بما في ذلك معانٍ محرَّفة ومجازية [...]. فمن الخطأ إذاً ترجمة الآغورا بـ «ساحة السوق» كما يحصل غالباً في نصوص الشرق السامي كما هو الحال بالنسبة للإنجيل (العهد الجديد) حيث يمكن أن نشكك بأن الكلمة المحلية المستعملة كانت السوق».

هل يمكن أن نذهب أبعد من رودنسون وأن نعتبر أنه إن كانت كلمة سوق قد ترجمت بآغورا في القرن الثالث، في الظروف المذكورة، فذلك لأنه قبل الاحتلال الهلنستي وقبل تراكم معاني متنوعة للآغورا، كانت تعني بامتياز تجمع النشاطات التجارية في المدينة؟ فرضية كهذه ستعيد أصل هذا المفهوم للكلمة إلى أكثر من ألف سنة قبل الفتح العربي الإسلامي. ولقد أخذ تييري بيانكي بأفكار رودنسون، عندما كتب مقالته عن السوق في الطبعة الثانية من موسوعة الإسلام، وهو يصر خصوصاً (ص. 821) على المعنى الإيجابي للنشاطات التجارية في الإسلام وبالتالي على الأهمية الاستثنائية للفضاءات التجارية وللأسواق في مدن العالم الإسلامي. «إن آليات «الأسواق»، بالمعنى الواسع لهذا المصطلح، لها دور أساسي، [...] «تعترف الأيديولوجية بأن للسوق تأثيراً قوياً على الحياة الدنيا» كما يكتب رودنسون

---

8 El señor del zoco en España: Edades mediay moderna, Madrid, 1973

ذاكراً الغزالي الذي يضع على قدم المساواة السوق الروحية والسوق المادية». إذاً علينا الاعتراف بالأهمية الأساسية للنشاطات التجارية والأسواق في هذا النمط من المدن، مع القبول في الوقت نفسه بوجودها كعناصر مركزية قبل الإسلام بوقت طويل. وفي الوضع الحالي لمعارفنا، نحن غير قادرين على تأريخ، أصل هذا التمركز، حتى على وجه التقريب، أو تحديد مراحل صيرورة تطورية.

وبشكل عام جداً أليس بالإمكان تلخيص هذه الصيرورة بثلاث مراحل:

- في عصر قديم يجب تحديده، حصل تركز تدريجي للنشاطات التجارية ولأماكن التبادل، صاحبه استقلال عن المعابد والقصر.
- مع الغزو الهلنستي، زادت وظائف الآغورا ـ السوق وأُنشئت أشكال عمرانية جديدة مدموجة جيداً إلى حد ما في الفضاءات والوظائف القديمة.
- في العصر الإسلامي، تم الانتقال إلى المخطط الأول للسوق، كنموذج اقتصادي وأيديولوجي وكقطب لتنظيم الفضاءات العمرانية، صيرورة تؤكد تطور الأشكال الفضائية والتنظيم العمراني الذي رسمت خطوطه الأولى في الفترة البيزنطية؟

إن التحولات في الأشكال العمرانية ترافق بشكل عام تطور علاقات المدينة مع الخارج. إذاً يجب العمل بقدر الإمكان، في كل العصور، على الصلات بين المناطق ضمن المدن ومناطق المدن (أقاليمها)، وعلى تطور التنظيم العمراني والأقاليم المرتبطة بها، أي إدراك كيف تتدرج الروابط السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والهجرة، وبشكل أوسع الحركات، ضمن المدينة وكيف تُنظِّم المدينة بالذات من أجل تشجيع بعض أشكال الانفتاح والتماس، إنما الهيمنة أيضاً.

المدينة، السلطة والإقليم: أقاليم المدن

إذا نظرنا إلى الإقليم من علو، فإن المسألة التي تصبح أساسية هي مسألة الحدود والتخوم. لكن أليست الخرائط التاريخية المنشورة في بعض الأطالس خرائط وهمية؟ إنها تعطي صورة ثابتة لحالة عابرة وغالباً خاطفة

جداً. أليست هذه الخرائط نتاج طرق عصرية، تلك التي قادت رسم حدود الدول القوية، معطية قساوة أكبر للحدود عوضاً عن المركز، وأهمية أكثر للحاوي الذي يجب ملؤه مما تعطي للمحتوى الذي عرّف حدودها بفضل ديناميته. يجب الحديث أيضاً عن التيارات. عن أقاليم وعن حدود ذات طبيعة ثقافية أكثر، تلك التي يمكن أن يعرفها مؤرخو الفن أو العقليات، التي تغطي بلا ريب حقائق اجتماعية واقتصادية أكثر ملاءمة من حدود سياسية كثيرة. إن فن البدايات في ماري وإيبلا وأوغاريت قريب جداً من الإنتاج المعاصر في ما بين الرافدين: إن هذا التشابه ذو معنى بالتأكيد أكثر من كثافة استثنائية في المبادلات، مع أن هذا الكل الواسع لا يشكل قطعاً وحدة سياسية[9]. إن تاريخ الحدود بحاجة لإعادة كتابة، ليس فقط حدود هذه الإمبراطورية أو تلك أو انتقالاتها، وإنما تاريخ طبيعة ومعاني الحدود بالذات، وكيف ينظر لها، ولمدى كتامتها أو شفافيتها.

إن سورية الحالية أرض بحدود حديثة، مقتطعة من مناطق نفوذ قديمة وتضم مناطق كانت ترتبط سابقاً بمراكز أخرى. لقد شكلت بشكل عام جزءاً من كل أوسع، على مستوى الشرق الأوسط أو البحر المتوسط، كانت تحتل فيه موقعاً مركزياً أو هامشياً. إن استقطاباتها القديمة يمكن أن تطبع تنظيم الأقاليم والمبادلات على المدى الطويل: وهكذا فبعض الروابط التي نسجت إبان الفترات المملوكية أو العثمانية قد ظلت نشيطة لزمن طويل أو أنها ما زالت ملموسة حتى الآن.

---

9 يمكن أن نتحدث أكثر عن نماذج أخرى عديدة للتيارات المعبرة عن الروابط أو الحدود. وهكذا ففي عهد أحدث بكثير، يمكن أن نهتم بالأصل وبانتشار فكرة الإيوان والاكتشاف الذي حصل في حترا في العراق لإيوانات منزلية تسبق ولادة الإسلام بعدة قرون، وتشبه أشكالها كثيراً إيوانات البيوت في مدينة حلب أو دمشق، يمكن أن تسمح بتطور وهجرة هذا النمط من العمارة إلى أوساط عمرانية عربية قبل الإسلام بزمن طويل. إن دراسات مقارنة منهجية للأشكال المعمارية والعمرانية في مدن في هامش وخارج المناطق ذات الحضور اليوناني والروماني القوي ستسمح بلا ريب بتوضيح وجود مدن عربية ووجود خصائص للمدن العربية أقدم من الإسلام وشبيهة جداً بما اعتدنا تسميته بـ«المدينة الإسلامية». يجب بالتأكيد أن نأخذ بالحسبان الأعمال التي جرت في تدمر أو أفاميا (ج. ش. بالتي)، التي تبدو أنها تأثرت بعمق بالهلنستية، وذلك لكي نعرف جيداً ونحدد التأثيرات الغربية والمتوسطية في العمارة المنزلية الإسلامية في سورية.

إن الأسئلة التي يطرحها الأثريون والمؤرخون، في هذا الميدان، ليست غريبة عن تلك التي يمكن أن يطرحها الاختصاصيون المعاصرون، من جغرافيين وأنتروبولوجيين واقتصاديين وحتى سياسيين. فمنذ ولادة الظاهرة العمرانية، يمكن أن نؤكد وجود التسلسل، والشبكات، والمنظومات العمرانية التي تفصل فيما بينها مدناً يمكن أن تكون وظائفها وأقاليمها متكاملة: فحبوبة كبيرة يمكن أن تكون نوعاً من تأسيس استعماري لأوروك، مع أنها تقع على بعد عدة مئات من الكيلو مترات. وهناك بعض المؤشرات التي تجعلنا نفكر بوجود أشكال من الإقطاع حول ماري وإيبلا وأوغاريت. إن مسألة السيطرة على الأقاليم وإقامة التسلسل هي أيضاً مسألة القدرة على تجاوز مقياس إقليم مدينة، ومدينة ــ دولة وشبكاتها، مشكلة إمبراطوريات حقيقية واضعة تحت تبعية العاصمة مدناً عديدة أو ممالك. إن إحدى أقدم تطورات تشكيل إمبراطورية بواسطة الغزو وإقامة حكومة مركزية، قد أطلقها سارغون أكاد بحدود عام 2450. وعلى النقيض من ذلك، فإن هذه الإمبراطورية، التي تركزت في البداية فيما بين الرافدين، لتسيطر على بابل وسومر لتمتد إلى الشمال السوري والأناضول ولتصل إلى المتوسط في عهد نارام سين بن سارغون، قد أسستها شخصية لم تكن حضرية قديمة من ما بين الرافدين، وإنما سامية من الغرب ذات أصل بدوي. لقد حلت هذه الإمبراطورية مؤقتاً مكان نظام المدن-الدول الذي لم يختف والذي سيظل مسيطراً في المنطقة لعدة آلاف من السنين أيضاً.

التبادل والإقصاء: الانفتاح والخوف من الغريب

يمكن لمجموعات إقليمية واسعة وقوية أن تسيطر إلى حد ما بفعالية على مناطق عديمة التجانس كثيراً، تتميز بخصوصيات قوية، وعلى العكس من ذلك. فإن المدن ــ الدول، وفيما بعد المدن-المراكز الإقليمية وحتى تكوين الدولة السورية الحديثة، لا تسيطر دوماً على كل الإقليم، وإنما يتوقف نفوذها بشكل عام على أقاليم منسجمة نسبياً، تميزها روابط قوية وتكافل قوي. أليست الأقاليم الواقعة في هامش المناطق العمرانية سوى مخلفات بسيطة، وأراضٍ خاوية، أو على العكس من ذلك الأقاليم ذات الأنظمة البشرية

والاجتماعية والثقافية والاقتصادية المستقلة نسبياً عن المدن والتي لا تقيم معها سوى علاقات مؤقتة؟ كان من المهم التفكير بتنظيم المجتمعات قبل ولادة المدن، وكذلك على التواجد المحتمل في الألفيات الأولى لتنظيمات بشرية تعمل بشكل متكافل مع المدن والمنظومات المستقلة نوعاً ما عن المدن. هل نجحت المدن من خلال زيادة نفوذها باستقطاب مجموع التنظيمات البشرية؟ فالمجتمع البدوي الذي انتشر في العالم العربي قبل الإسلام بزمن طويل، ربما أثناء النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، مع تدجين الإبل والذي استمر حتى أيامنا هذه على هامش المدن، أليس هو مجتمعاً غير حضري منسجم يطور أكبر استقلالية ممكنة تجاه المدن، ناسجاً معها في الوقت نفسه علاقات قوية؟ إن العلاقات بين هذين المجتمعين اللذين يبدوان متخاصمين، قد تطورت وتبدلت بالتأكيد: فالمدن «العربية» قبل الإسلام وخلال عصور مختلفة بعد الفتح الإسلامي، كان لها علاقات متنوعة جداً مع رجال الصحراء، ولكن أيضاً مع تعريف قبلي للانتماءات.

لا شك أن مدن المشرق هي بشكل أساسي أماكن للاحتكاك وللتبادل. ففي العصر العثماني كانت الفضاءات العمرانية منظمة لتأكيد الحضور والمزج المؤقت وليس الدمج. إذ يبدو أن المدن في تلك الفترة لم تقم بعمل البوتقة. فالسلطات في ذاك الظرف لم تكن قادرة بالتأكيد على القيام بهذا الدمج ولم تكن تملك الإرادة لفعل ذلك. في هذه المدن، أو أماكن تعايش الاختلافات، كان دور الفضاء العام المركزي أساسياً: فالسوق، والفضاءات الأخرى هي أماكن للقاء وللتبادل للأفراد وللجماعات غير المتجانسة، فضاءات لبناء ولإظهار هوية حضرية مشتركة. إن التزاوج بين المجموعات المكونة للمجتمع الذي يحدد عند الحاجة في تعريف طائفي للأحياء، هو ميزة أساسية أخرى لهذا النمط من المدن. هل كانت هذه الخصوصيات للمدينة الشرقية الإسلامية موجودة قبل الإسلام؟ ربما تستطيع دراسة فترة طويلة من الزمن أن توضح ديمومة هذه الميزات والخصائص، وإظهار، في العصور التي يبدو أنها اختفت بسبب النفوذ اليوناني – الروماني. إظهار استمرارية حضور المجموعات المحلية، ونمط حياتها الخاص. وفضاءاتها على هامش النظام العمراني الهلنستي – الروماني المهيمن. (جان ماري دانتزر، ص. 159).

التراث في سورية: موروث حي. الوعي والإحساسات الحالية بالماضي

إن سورية كيان حديث وقديم في آن واحد: لقد نشأت الدولة الوطنية السورية بين نهاية القرن السابع عشر وأيامنا هذه مع انهيار الإمبراطورية العثمانية. تعتبر سورية التاريخية بنظر الأثريين والمؤرخين المتخصصين بالفترات الرومانية والهلنستية والبيزنطية فضاء معبراً وبالغ الأهمية نسبياً من الناحية التاريخية والثقافية والسياسية. فقد كانت سورية في العصر الأموي مركزاً لأرض شاسعة، تتجاوز بلاد الشام بكثير. وتقطعت المنطقة في عصور أخرى وتفتت إلى أقاليم تتبع أقاليم محيطة.

لا شك أن الهدف الأساسي لهذا الكتاب هو ليس إعطاء تعريف لسورية الوطنية أو التاريخية، أو أن نعرض المطالب المحتملة لهذا أو ذاك من الأقاليم المفقودة، أو أيضاً التفكير بنمط للمدينة، يمكن أن يكون «المدينة السورية»،استطاع أن يحافظ عبر القرون وآلاف السنين على خصوصيات هذا الكيان. لكن من المفيد المحاولة بتعيين كل ما استمر ودام والذي بمقدوره المشاركة بتكوين هوية عمرانية في سورية. إن الأشكال الفضائية الهلنستية أو الرومانية أو أحياناً الأقدم قد تركت بعض المعالم التي ما زالت مرئية في المدن الميتة* أو التي ما زالت «حية» (حلب، دمشق، اللاذقية، أنطاكية إلخ). لقد شاركت في تكوين أشكال عمرانية لاحقة كانت مراحل لتكوين مدينة الحاضر. لكن هل لهذه الأشكال حالياً معنى آخر غير أثري أو تراثي؟ ومن جهة أخرى فإن الأشكال التي تعتبر نموذجية بالنسبة للمدينة العربية أو الإسلامية قد عُرِّفت غالباً ضمن إطار متناقض أساسي مع الماضي اليوناني ــ الروماني بإزالتها لأي أثر لهذا الموروث. ففي أي مجال انطبعت بالماضي الأشكال العمرانية السورية الحديثة وتوضعها الوظيفي والعادات الاجتماعية؟ سنحصل بالتأكيد على بعض المؤشرات عن ما هو أو عن ما ليس هو بلاد الشام وعن هوية تقريبية للمدن في سورية.

---

* يطلق عليها في سورية اسم المدن المنسية وهي تقع في جبل الزاوية وجبل سمعان ومنطقة عفرين. (المترجم)

هل يمكن اعتبار سورية أحد أماكن تكوين المدينة «العربية» أو «الإسلامية»، التي بعد أن تطورت ونمت على أطلال المدن السابقة راحت وانتشرت في معظم أراضي الإسلام؟ وبماذا يتجلى هذا التجسيد السوري لهذا «النموذج العمراني»؟ يجب على هذا التحليل للخصوصيات المحلية أن يقودنا إلى البحث عن الاختلافات التي تسمح باستخدام أوضح لمفهوم المدينة «العربية» أو «الإسلامية» بل حتى «الشرقية»[10].

إن للمدنيين (الحضر) الحاليين سلوكاً متنوعاً جداً بخصوص التعبيرات المادية للماضي (فضاءات عمرانية وعمارة) وتعبيراته المعاشة، أي عاداتهم الخاصة. فمنذ بضع سنوات أو عقود من السنوات، بدؤوا بتأمل هذا الماضي عبر ما كان قد عرف بـ «التراث»، تراث بعيد إلى حد ما أو معاش، تراث عمراني وتراث عادات. أتى من ماضٍ أزلي أو ألفي، بإمكانهم إلغاء جزء من هذا الماضي الذي يرغبون بمحيه. بإمكانهم أن يختاروا جزءاً منه، كمرجع للهوية، القومية أو الطائفية، العائلية أو الشخصية. وتشكل العادات الاجتماعية تراثاً حياً أيضاً، تراثاً ينشط الفضاء العمراني ويمنحه الحياة، داخل الأحياء القديمة وحتى في المناطق الجديدة والحديثة. أليست البصمة

---

10 انكب كثير من الباحثين على مسألة تعريف «المدينة العربية الإسلامية». لقد كانت هذه المسألة محط الاهتمام منذ بضع سنوات، والنتائج التي اقترحها أندريه ريموند أو إيغن فيرت قد سمحت لحسن الحظ بالانفتاح على آفاق أخرى. على عملية ترتيب زمني بالغ الأهمية. فإشكالية قائمة على فكرة «المدينة الشرقية» تسمح بالتأمل بأسئلة أكثر أهمية وبالتفكير على سبيل المثال، وأبعد من الاستمرارية التي يعبر عنها هذا المفهوم، بالتأثيرات الخارجية المدمجة جزئياً، لاسيما تلك التي أتت من المدينة الهلنستية أو الرومانية أو المتوسطية.

من بين المقالات التي نشرها إ. فيرت E. Wirth حول هذا الموضوع يمكن أن نذكر بشكل خاص:

- «Die orientalische Stadt. Ein Uberblick auf Grund jungerer Forschumgen zur materialen Kultur», Saeculum, 26. 1975, p. 45-94.
- «Villes islamiques, villes arabes, villes orientales? Une problématique face au changement», in A. Bouhdiba et D. Chevallier (Dir.), La ville arabe dans l'islam. Histoire et mutations, 1982, p. 193-225.
- «Esquisse d'une conception de la ville islamique. Vie privée dans l'Orient islamique par opposition àla vie publique dans l'Antiquité et l'Occident», Géographie et cultures, n 5, 1993, p. 71-90.

A. Raymond fait son proper bilan de la question dans: «Ville musulmane, ville arabe: mythes orientalistes et recherches récentes», Sociétés, espaces, temps, Panoramas urbains. Situation de l'histoire des ville. Coordonnateur: J.-L. Biget et J.-C. Herve. ENS, 1995, p. 309-336, reprise d'un article en anglais de 1994.

الحقيقية للماضي على الحاضر، في الظرف الثقافي الذي يهمنا، هي بصمة روحية أكثر من كونها مادية؟ إن التفكير بالتراث يقع في صميم البحث عن العلاقة مع الماضي الأثري.

إن مسارات البحث التي تعرضنا إليها بسرعة بلا نهاية تقريباً، حتى وإن كانت في مجال محدود كمجال المدن في سورية. ومن المؤكد أن هذا الكتاب لا يطمح إلى إعطاء نتائج نهائية، وإنما إلى المحاولة قدر الإمكان لتحديد المسائل، ولبعث الإشكاليات الفعالة، في وسط من تعدد الاختصاصات العلمية وتشاركها وخلال فترة تاريخية طويلة.

المدن الأولى

عوامل العمران

تشكيل الأقاليم وأشكالها

قبل المدينة

مساهمة الثقافات النيوليتية في سورية

دانييل ستوردر Danielle Stordeur

معهد ما قبل التاريخ الشرقي، مركز البحوث الفرنسي.

لقد جمعت المائدة المستديرة حول موضوع المدن في سورية مجموعة من الباحثين: علماء آثار، مؤرخين، إتنوغرافيين، إلخ. من أجل نقاش غني وكثيف. لقد تحاوروا جميعاً حول المدينة، وتعريفها ومفاهيمها المختلفة وتنظيمها، وتنوع أشكال الظاهرة العمرانية عبر الزمان وبحسب الثقافات. ولا تعبر مشاركة باحثة متخصصة بفترة ما قبل التاريخ في أي حال من الأحوال عن الرغبة في إرجاع ولادة المدينة إلى ما قبل اكتشاف الكتابة والمعادن والإدارة المعقدة للدول. إن الهدف من هذه المشاركة هو، على العكس من ذلك، تقديم نتائج البحوث حول المعارف المعمارية لسكان الشرق الأدنى قبل المدينة إلى هذا التفكير الجماعي حول المدينة.

وبشكل أدق، يتعلق الأمر بتقويم الكيفية التي كانت عليها الخصائص المعمارية، والتقنية والبنيوية المكتسبة من قبل خلال الألفيات الأخيرة من فترة ما قبل التاريخ والتي ستستدعى أثناء تأسيس المدن الأولى، فقد كانت كلها ضرورية لكي تنشأ المدينة. لقد ظهرت هذه الخصائص في لحظات وظروف مختلفة من فترة ما قبل التاريخ المحلي الحديث. فمنذ ظهور أوائل المنازل المبنية بالمواد الصلبة، منذ ما يقارب الـ 12000 سنة، وحتى ظهور القرى الكبيرة المنظمة والمعممة في الألفية السادسة، بدا لنا مفيداً أن نتتبع تطور التحكم بالفضاء المبني والعلامات الواضحة أكثر فأكثر عن الإدارة الجماعية للسكن، وأخيراً المؤشرات المتنامية عن تخطيط وتنظيم التجمعات السكنية.

وكي نحقق هذا الجرد للمعطيات الذي ما زلنا نعتبره ناقصاً ومؤقتاً فقد استخدمنا العديد من المقالات والمؤلفات: «البيت الشرقي»، إنجاز عظيم قام به أوليفييه أورانش (1981)، ويبقى هذا العمل أساساً ممتازاً لنا بالإضافة للمعجم (1977) للمؤلف نفسه. إن خلاصات جان كلود مارغرون (1991)، وجان لويس هيو (1994) وجاك كوفان (1994)، دون أن ننسى العودة الضرورية إلى أطروحات ج. تشيلد (1957-1964) التي شكلت الهيكل الأساسي لقراءاتنا. أخيراً فقد تم تحضير هذا العمل من خلال تأمل قدمه جاك كوفان في عام 1998 في لشبونة (قيد الطبع) وأيضاً من خلال عمل أولي قام به م. موليست (موليست وستوردر قيد الطبع).

لقد تمحورت دراستنا بشكل خاص حول الاكتشافات الحديثة (ما بعد عام 1995)، لا سيما تلك التي حصلت في وادي الفرات، والتي بفضلها تتعدل الصورة التي كوناها عن المجموعات ما قبل التاريخية في بدايات الزراعة وتربية الماشية، ولا سيما في ميدان العمارة وتنظيم القرى. وهكذا سنشدد هنا أكثر على الفترة الحاسمة لبداية التحكم بالعناصر الطبيعية أكثر مما سنشدد على الجماعات المتأخرة التي تسبق قراها مباشرة بناء المدن الأولى.

كيف بدأ كل هذا؟ فلكي نبني المدينة علينا أن نبني المنازل أولاً.... فلأي تاريخ تعود المساكن الأولى «المبنية بالمواد الصلبة» في الشرق الأوسط وما هي خصائصها؟ هذا ما سوف نتعرض له في البداية.

أول المساكن وأولى تجمعات المستقرين السكنية في الشرق الأوسط

الأبنية الأولى

إن العلامات الأولى للبناء في الشرق الأوسط تعود للعهد الكباري، وهو الفترة الانتقالية التي تقع في النهاية القصوى للعهد الباليوليتي، أي بحدود 15000 قبل الميلاد. تم التعرف عليها في فلسطين، في موقع عين جيف (ستيكلس وبار يوسف، Stekelis & Bar Yosef – 1915) على سبيل المثال، حيث عثر على كوخ قطره 5 م شبه مطمور على حافة رابية. وإن كان قد تم الحديث هنا مسبقاً عن بناء فذلك لأن الخندق الذي حفر من أجل استقبال هذا

المأوى قد تم دعمه بواسطة جدار استنادي مبني من الحجر يغطي جوانبه على ارتفاع لا يقل عن 40 سم، وفي الفترة نفسها وفي مغارة جعيتا II «تمثل بقايا جدار صغير من التراب المدكوك، المبني فوق أساس من الحجارة الملساء والمستندة على جوانب المغارة، تمثل أحد الشواهد القديمة المعروفة في الشرق عن تنظيم السكن الذي يؤمن إقامة مديدة نوعاً ما» (هورس Hours، 1994، ص 559). إن هذا النمط من الأبنية، المعزولة والبدائية جداً، ستكون وحدها الحاضرة خلال 2000 عام أيضاً.

القرى الأولى

لم تظهر التجمعات السكنية الأولى، وتجمعات المستقرين السكنية الأولى (الضيَع) سوى بحدود عام 12000 قبل الميلاد، وذلك في العهد النطوفي (الفترة الأولى من البيت الشرقي، أورانش O. Aurenche وزملاؤه، 1981). مع أننا ما زلنا بعيدين عن عهد إنتاج المواد المعيشية. إذاً لم يكن استقرار الجماعات البشرية في ما قبل التاريخ في قرى صغيرة نتيجة لممارسة الزراعة وتربية المواشي، وإنما قد تم للمرة الأولى في ظرف اقتصادي من عهد الصيد والالتقاط (بيرو Perrot،1968).

سيكون هناك إذن ولفترة تمتد طيلة 2000 عام، بين عامي 12000 و 10000 تقريباً، قرى صغيرة للصيادين وصيادي السمك واللقاطين، والذين يعود إليهم الفضل في العثور على الأماكن المناسبة لحياة الاستقرار، أي المناطق التي تتميز بوقوعها في بيئة غنية بموارد متنوعة في مختلف الفصول، (جاك كوفان 1978). لكن هذا النمط من الحياة المستقرة استدعى كما يبدو ليس فقط وجود جزء من المجموعة يتنقل بحثاً عن موارد غذائية إضافية، ولكن أيضاً اضطرار معظم السكان المنتمين إلى هذه الثقافات للعيش بطريقة الترحال، والتنقل بحثاً عن الموارد المتوفرة في الطبيعة. وقد كان التبادل قائماً بين المجموعتين بشكل مؤكد. هناك حالياً نمطان يفسران السكن في القرى النطوفية.

النمط الأول يعتبر السكان مستقرين فعلاً، وإنهم قد أسسوا مراكز مستقرة للسكن لمجموعة من السكان المتجولين. أما النمط الثاني فهو ليس إلا

مخيمات أساسية لسكان لم يكونوا سوى أنصاف مستقرين (بيرل وفيليب Perls et Phillips 1991).

كيف بنيت تلك القرى الأولى؟ إن منازلها دائرية أو شبه دائرية، وهي نصف مطمورة على غرار تلك العائدة للعهد الكباري لكنها أوسع، غير أنها لا تتجاوز قط مساحة 20 م^2. لقد استعمل الحجر من أجل تسليح الجوانب المطمورة. ففي ملاّحة (Valla 1991) يوجد جدار داعم ارتفاعه متر واحد كان مبنياً بمساعدة كتل حجرية. كان الخشب جزءاً من المواد المستعملة على شكل عوارض أو أعمدة.

إننا ندين للنطوفيين بالعديد من التجديدات التقنية، فأولها هو اكتشاف الطوب، لكن لم يكن سوى طوب مقولب يدويا (ولن يصبح مصنوعاً بالقوالب إلا في وقت متأخر، انظر لاحقاً) فعلى سبيل المثال نعثر في بيدها (Kirkbride, 1967)، على جدار من الطوب غير المشوي والمقولب باليد مرفوع فوق أساس من الحجارة. ربما يكون لدينا هنا الجدار الأول المبني بالطوب والقائم دون أن يكون مبنياً بالحجارة. كما أننا ندين إلى النطوفيين بالاستخدام الأول للملاط الجداري. لقد اكتشف هذا الأخير في أقدم مراحل ملاحة. إنه مصنوع من الكلس المسحوق وعليه أحياناً آثار للتلوين (مرجع مذكور Valla).

تنظيم الفضاء المبني

قلما نكشف عن تنظيم خاص للمساكن وبشكل أقل عن تنظيم للقرية النطوفية. فإن كانت الخلايا السكنية تتراصف، فإن موقعها لا يترجم سوى تنظيم فرضته المصاطب الطبيعية (Valla 1991 P 115). لكن يجب مع ذلك التنويه إلى أن هذه المصاطب قد دعمت أحياناً بجدران استنادية (Aurenche, 1981, P. 32) تم تحديدها في العديد من المواقع. هذه الوثائق، المرفوضة أحيانا، يصعب أن تهمل كلياً وتبدو لنا ذات أهمية كبيرة. فهي تشكل في الواقع في الشرق الأوسط أقدم الشهادات عن الأعمال الجماعية المنظمة على مستوى الجماعة لتحضير بناء الخلايا السكنية. أخيراً تظل مساحة هذه القرى محدودة فليس هناك أية مستوطنة تتجاوز مساحة نصف هكتار.

قرى المزارعين الأوائل: تنظيم الفضاء المسكون والمباني الجماعية بين عامي 9500 و 8200 قبل الميلاد (CAL)

لقد تم الكشف بين عـــامي 9500 و 8200 قبـل الميــلاد عــن أولــى المحاولات الزراعية في ثلاث من الحضارات المعاصرة التي ربما قامت كـل واحدة منهن بهذه القفزة النوعية بشكل منفرد (Willcox 1999). لقد تم الكشف عن الثقافة الأسودية من قبل هــ .دو كونتانســـون (H. de Contenson) في غوطة دمشق (Contenson, 1995)، أما الثقافة السلطانية التي تمـيز جنـوب المشرق فقد تم تحديد هويتها في أريحا (Kenyon, 1957). أما المريبطية التي تهمنا هنا فقد تم تعريفها في المريبط من قبل جان كوفان (J. Couvin, 197). لقد تم إغناء الوثائق العائدة لهذه الثقافة حديثاً بفضل التنقيب في موقع جديـــد. جرف الأحمر، وهو موقع محفوظ جيداً بشكل خاص.

إننا نكتشف في هذا الموقع علامات واضحة عن التنظيم الاجتماعي فـي ذلك العهد، هذا إذا اعتمدنا على مجموعتين من المؤشـــرات التـــي يقترحــها أورانش (Aurenche, 1991): التنسيق المسبق لوحدات مبنية وتأسيس الأبنيـــة الجماعية. ومن المناسب هنا قبل أن نحللها أن نتفحص التجديدات المعماريـــة التي ندين بها للمريبطيين: إنها عديدة وعلى قدر كبير من الأهمية.

إن الحجر والخشب وتربة البناء تتراكب كلها في أبنية المريبطين مـــع بعض التنويعات المرتبطة بالبيئة المحلية. .هكذا نجد أن الحجارة تتدخل قليـلاً في المريبط بينما تلعب دوراً أساسياً في جرف الأحمر.

ففي هذا الموقع الأخير، تتشكل قواعد الجدران من الدبش الخام المكـون من الكلس المتفتت القاسي، في حين أن ما يعلوه مكون من الحــوار المنتظـم المشذب على شكل سيجار وكل طبقة موضوعة على طبقة من الملاط الصلب المركب من حصى وطين.«يلتصق» هذا الملاط كنوع من البيتون الطبيعـــي، وهذا ما يفسر بشكل أساسي بقاء هذه الجدران قائمـــة بارتفـــاع كبــير[1] . إن

---

[1] إن اختراع هذا «البيتون الطبيعي» قد حدث بعد زمن قليـل فـي العـراق ونـيرمك. (س. كوزلوفيسكي، S. Kozlowski,1990)

مجموع الجدران الحجرية مغطاة من كلا الجهتين باللياسة الطينية الغنية بالبقايا النباتية، لاسيما التبن الخفيف الآتي من الشعير بشكل أساسي (بحسب ج. ويلكوكس G. Willcox). تلعب الحجارة إذن دور الهيكل المخصصة لتسليحه. يقوم بهذا الدور نفسه في المريبط شبكة من الخشب (أ. أورانش، 1980).

إن «الحجارة الشبيهة بالسيجار»، التي أشار إليها للمرة الأولى في المريبط فان لون (1968)، تستحق اهتماماً خاصاً[2] . إنها ذات أشكال متناظرة ومشذبة فردياً من الصفائح الحوارية المنتزعة من جرف قريب. إن شكلها منتظم في كل وحدة معمارية. وتلاحظ أكبرها وأفضلها صنعاً في أخفض طبقات الجدران وفي الجدران الخارجية. لدينا هنا إذن أقدم شهادة عن استعمال المواد المسبقة الصنع بشكل موحد تقريباً. هذه الحجارة ليست في الواقع متطابقة فيما بينها مثل الأجر المقولب الذي سيظهر بعد زمن قصير (انظر فيما بعد) لكن إرادة إعطائها حجماً دقيقاً فهي أمر مؤكد. وفي الوقت نفسه، وفي المشرق الجنوبي ، في أريحا على سبيل المثال (كينيون، 1957 Kenyon) استمر العثور على الآجر المقولب الذي ، هو أيضاً، له أشكال وأبعاد منتظمة. أخيراً إنها الحالة نفسها في العراق، في موقع معليفات حيث تستجيب آجرات على شكل سيجار إلى المعايير الدقيقة نفسها ويصل طولها إلى 70 سم (ديتيمور، Dittemore, 1983).

إن أشكال ونمط بناء الغماءات* يشهد عليها قطع من لياسة السطح المقسّاة، التي أصابها الحريق. إنها تشير إلى وجود الأسطح المستوية (لكن ليست أفقية بالضرورة)، مع حواف مرفوعة قليلاً ومطوية. لقد تم مد الطين على نوع من الأرضية المصنوعة من جذوع الأشجار التي يصل فيما بينها الخشب المنشور ذو السماكات غير المنتظمة[3]. من ناحية أخرى ، نجد الأمر نفسه في المريبط.

---

[2] لقد درسها ميشيل برونيه M. Brenet بالتفصيل ، ونأخذ منه هنا بعد الملاحظات من بعد موافقته.

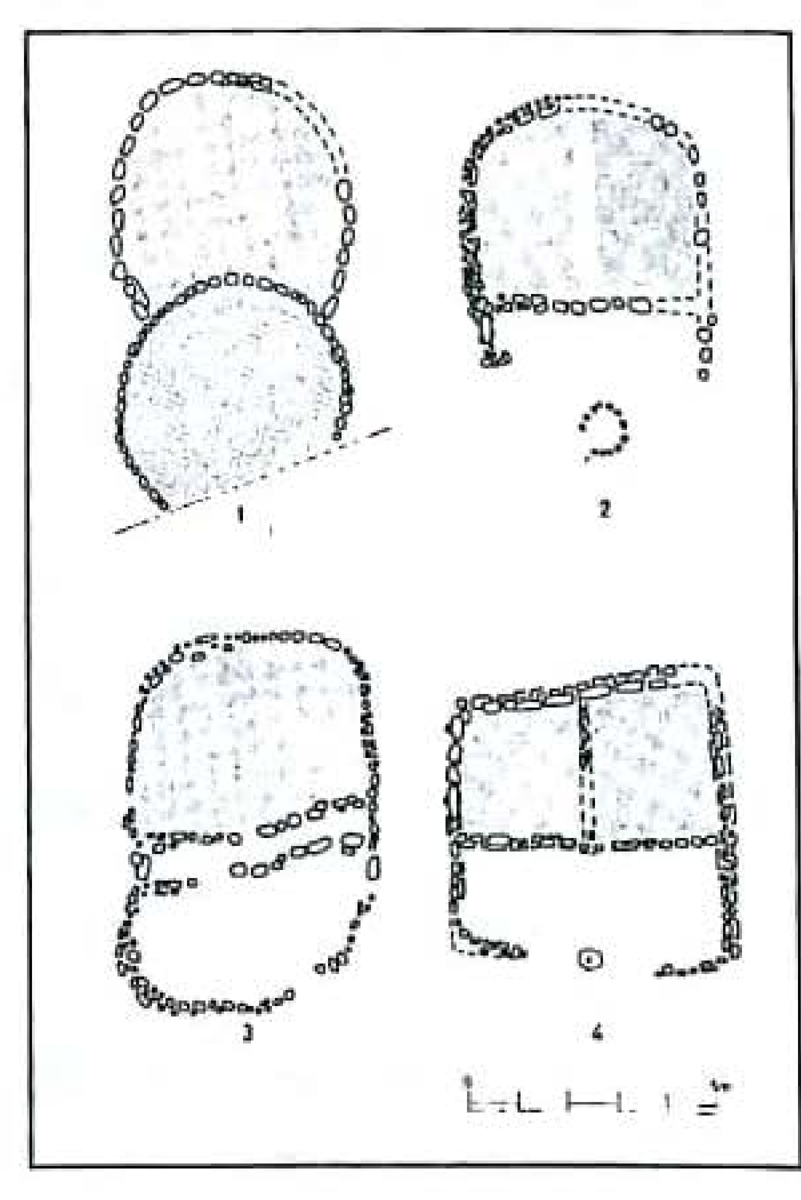
* غماء : هو مجموع مايسقف به البيت. (المترجم)

[3] ملاحظات ندين بها لـ س. مارتونيز S. Martenez، وهو طالب دكتوراه مكلف بدراسة طين البناء في الموقع.

من الدائري إلى المستطيل

إن المكتسب الذي ندين به للمريبطيين في منطقة الفرات هو الانتقال من البيوت الدائرية، المستعملة كما رأينا منذ البدايات، إلى البيوت المستطيلة التي لم تتوقف لاحقاً عن أن تكون أكثر النماذج استخداماً. ولقد تمكنا من تتبع هذا التطور في جرف الأحمر مرحلة مرحلة (الشكل 1)، من خلال تحليل ستين منزلاً . إن خصوصيته الأساسية هو أنه صيرورة تراكمية بحيث أن اختراع النماذج الجديدة لا يقود قط، كما سنرى لاحقاً، إلى التخلي عن الأشكال القديمة.

أما من الناحية التقنية، فقد لوحظ اختراع الطريقة التي تسمح ببناء زوايا عمودية متماسكة من الحجر قبل أن يطبق المخطط الزوايا. فمن أجل دعم المفصل بين الجدران الداخلية التي تفصل بين الغرف، والجدران الخارجية، نلاحظ للمرة الأولى إدخال تقنية الأساسات، فالحجارة تتداخل بالتناوب في الجدارين عند نقطة التقائهما. يتعلق هذا التطور التقني بالمنازل التي ما زالت زواياها الخارجية مقوسة والتي تعود للمستوى الخامس من الاستيطان انطلاقاً من القاعدة. ولا تظهر الزوايا العمودية الأولى للجدران الخارجية إلا في المستوى السابع.



الشكل 1: جرف الأحمر، 9000 قبل الميلاد: الانتقال من المنازل الدائرية إلى المنازل المستطيلة.
1: بيت دائرية متلاصق.
2: بيت ذو أعمدة.
3: بيوت متلاصقة مع جدار مستقيم فاصل.
4: بيوت مستطيلة بأعمدة مع فناء وطنف.
(رسم ج، دير أبراهاميان G. Dre Aprahamian).

التنوعات المعمارية للوحدات السكنية

كلما تقدمنا في الزمن، قدمت القرى المتتابعة التي توضعت فوق بعضها بعضاً في جرف الأحمر تنوعاً معمارياً غنياً، كما لو أن الجماعة كانت تكتسب تدريجياً نماذج جديدة، وكانت لديها خيارات كثيرة ومتنوعة، وهذا كان يلائمها. ومن بين هذه النماذج يمكن أن نلفت الانتباه إلى نموذج سائد سنعثر عليه في فترات أكثر تأخراً. إنه البيت ذو العمود والإفريز الذي يسمح بوجود فضاء وسيط، الفناء الواقع بين الفضاء الخاص وفضاء الجماعة. يمكن الاعتقاد أن كل نموذج من هذه النماذج كان يتعلق باستعمال مختلف أو بمعايير اجتماعية محددة. ومن المستحيل حالياً كشف معايير واضحة بما فيه الكفاية لتوجيه هذا النوع من التفسير، على كل حال يلاحظ أن الوحدات السكنية ليست فقط متباينة ولكنها غير متساوية بالحجم أيضاً. وهكذا ففي إحدى قرى جرف الأحمر (الشكل 2). القائمة على ثلاث مصاطب، نجد أن أكبر البيوت وأفضلها من حيث البناء تقع عند أسفل المنحدر، وقريبة قدر الإمكان من بناء ذي استخدام جماعي (انظر سابقاً). لقد قيل غالباً أن عدم المساواة قد بدأ مع الزراعة (هيو Huot 1994). ويبدو بالنسبة لنا أن هذه المسألة الأساسية لا يمكن أن تعالج من الناحية النظرية فقط ولكن يجب اختبارها باستعمال كل المعطيات المتاحة[4].

إننا نقترح تفسير هذه النماذج المعمارية، بطريقة تخلو من المجازفة ومضمونة، على أنها بمثابة علامة على تنظيم اجتماعي لا يلزم بعد باعتماد قسري لنموذج واحد. فعملياً، إن هذا التنوع سيختفي بسرعة فاسحاً المجال لتماثل المساكن. إن ذلك في الواقع بداية لهذا الاتجاه الذي نلاحظه في الموقع بالذات (انظر سابقاً)

المشاريع الجماعية: منشآت جماعية وتنظيم الأبنية.

تنظيم الفضاء المبني

إن موقع جرف الأحمر هو في الواقع الموقع الوحيد الذي تم تنقيبه على

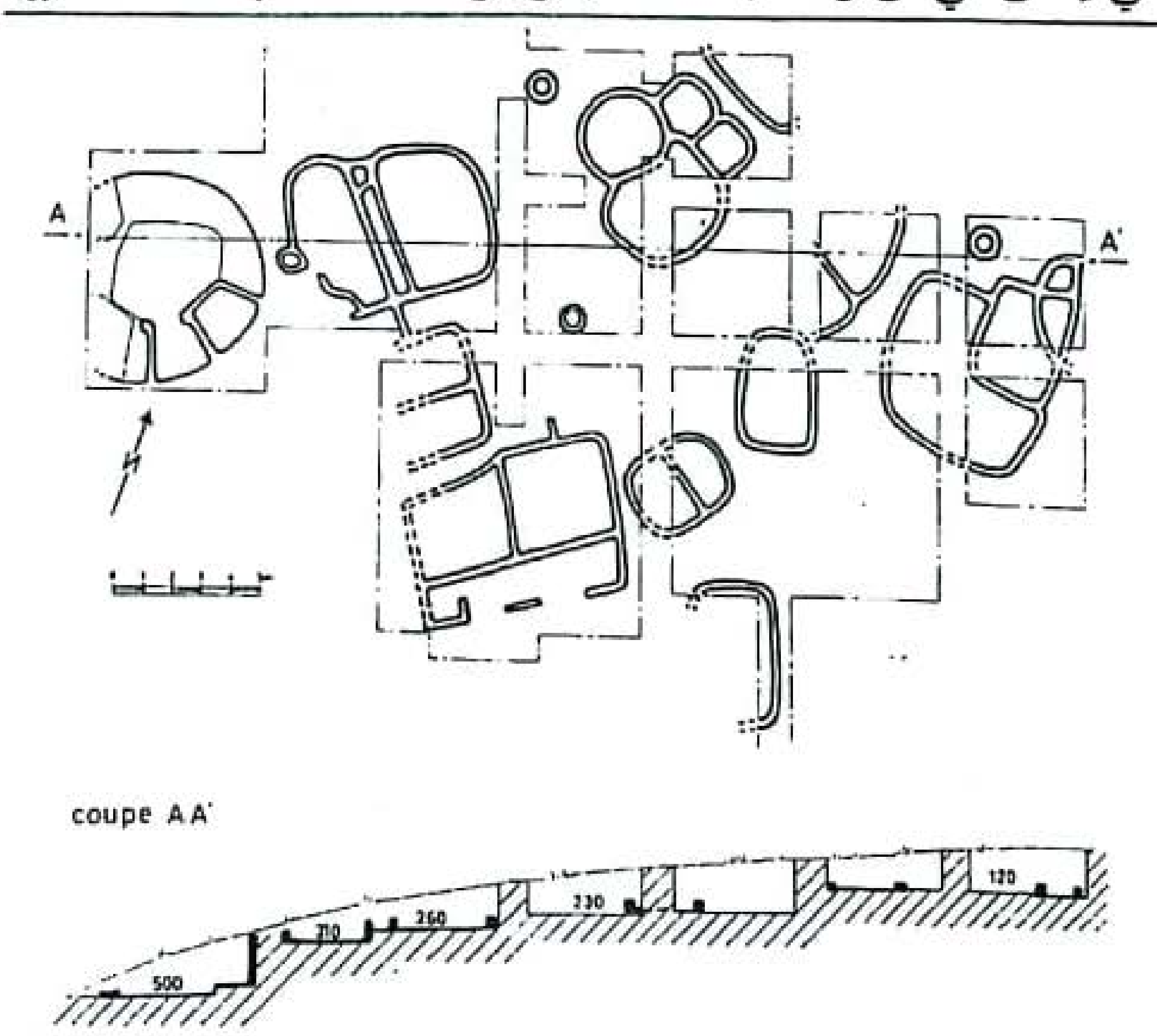
---

[4] إن الإغناء الحديث للمعطيات المتعلقة بهذه الفترة والتقدم الذي تم تحقيقه، إن كان من حيث المنهجية الميدانية أو في التحليلات التكميلية، يسمح بالأمل بحصول تقدم في هذا الاتجاه.

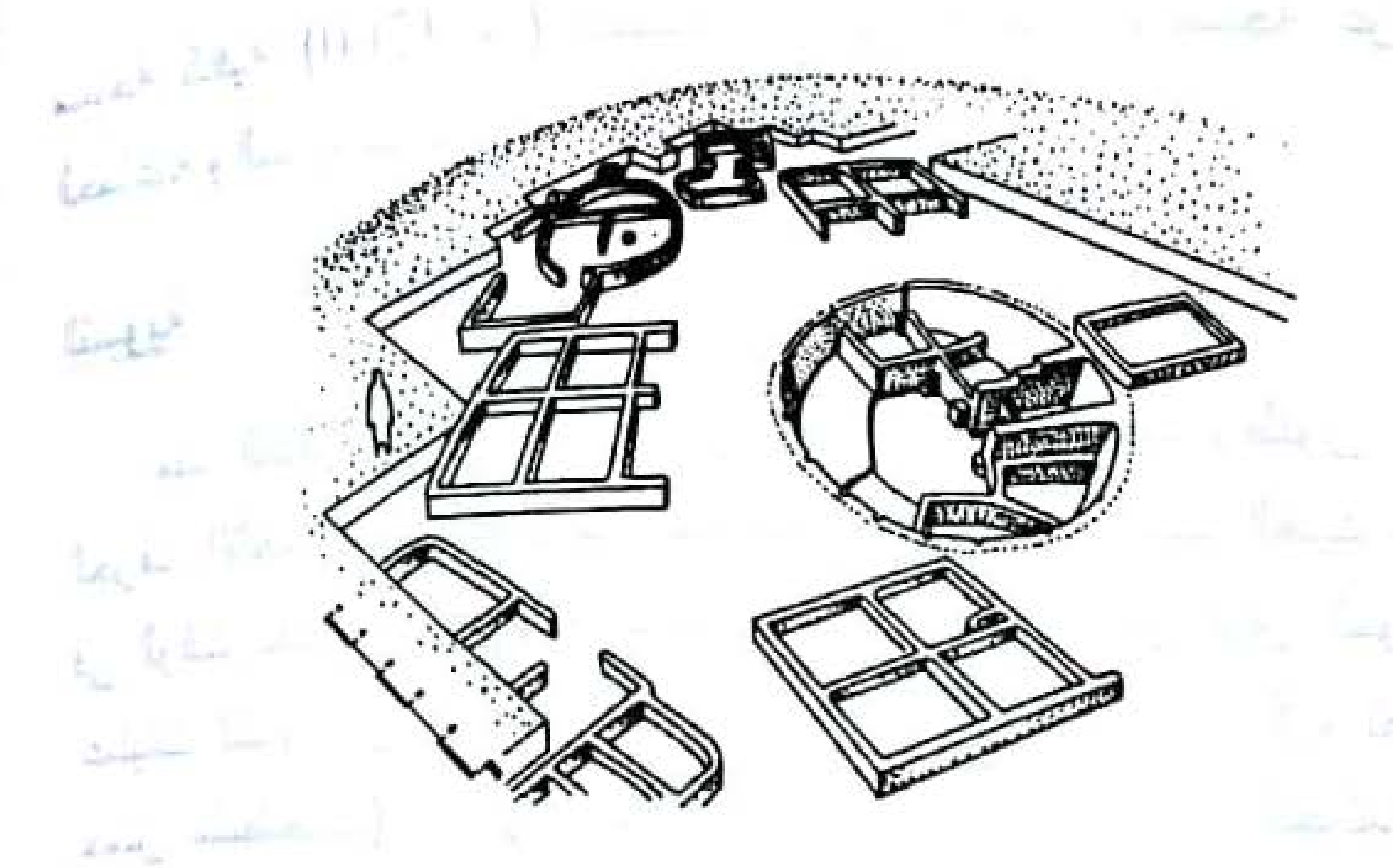
مساحة كافية (1200 م²) للحصول على علامات واضحة عن المشاريع الجماعية والمدروسة والمتفق عليها للأبنية.

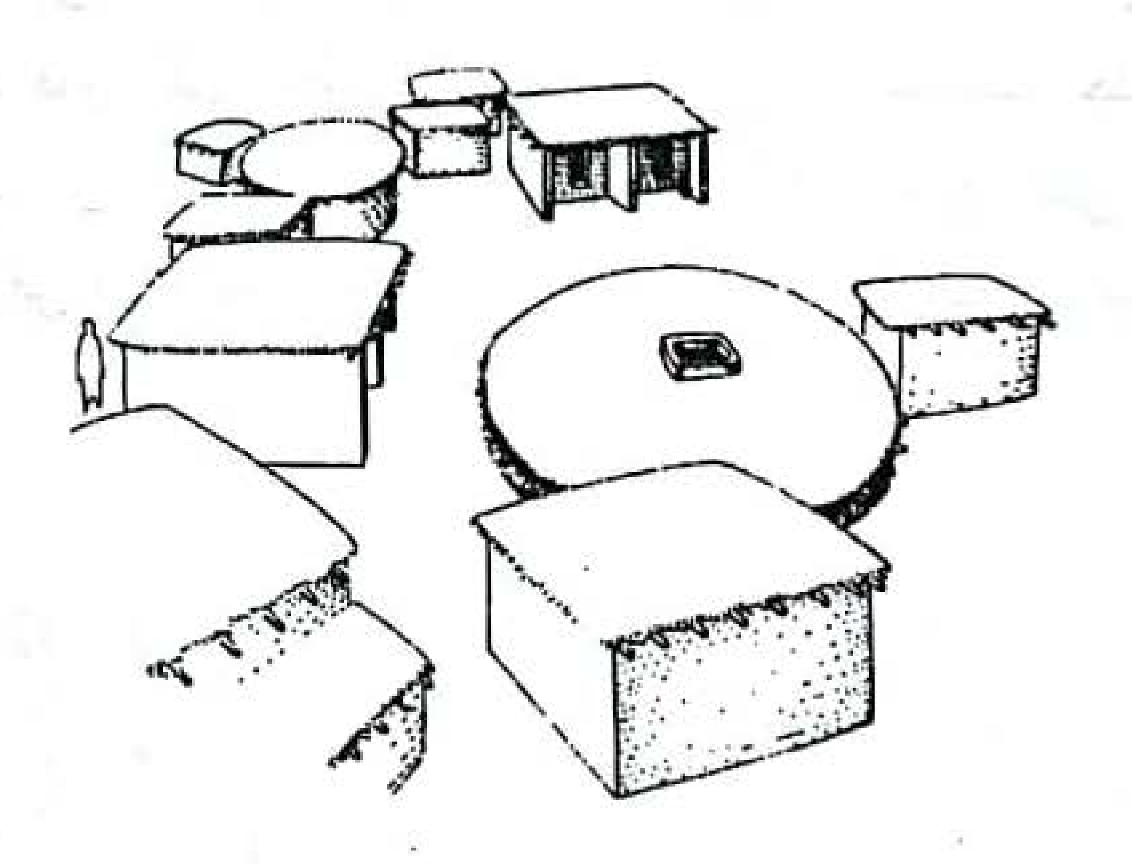
التسوية

منذ البداية عرفت التلة التي سيسكن فوقها المستوطنون الأوائل في الجرف الأحمر عملاً جماعياً لتسويتها. وهكذا فقد بنيت العديد من المنازل في الوقت نفسه فوق سطح مسوى. ومع تتابع القرى فوق الموقع ازدادت عمليات التسوية إن كان من حيث الارتفاع (إذ وصلت إلى 5 م تضم أربع أو خمس مسطحات) أم من حيث الاتساع. فالقرية السابعة الجاثمة على التلة الواقعة إلى الشرق الأقصى من الموقع (الشكل 2) تكشف عن سلسلة من الأبنية المشيدة فوق كل سطح. ويدعم جدران المصاطب جدران صغيرة معقودة مع جدران البيوت الخارجية، وهذا دليل قاطع على وجود نشاط جماعي يتعلق في آن واحد بالمصاطب وبالوحدات السكنية القائمة عليها.



الشكل 2: جرف الأحمر ، 9000 قبل الميلاد: قرية ذات مصاطب. مخطط أولي ومقطع (رسم ج. دير أبراهاميان G.Der.Aprahamian).





الشكل 3: جرف الأحمر: 9000 قبل الميلاد: قرية تحيط ببناء جماعي مطمور مشهد عام ومحاولة لإعادة تصور البناء، رسم ج. دير أبراهميان).

تنسيق الوحدات السكنية على شكل قوس دائري حول مبنى جماعي

هناك نموذج آخر عن التنظيم الجماعي للفضاء المبني تقدمه لنا مزرعة صغيرة (المستوى II، أقصى الغرب الشكل 3) وهي تبين بشكل واضح بنية منظمة حيث تتوضع المساكن على شكل قوس دائرية (250) حول بناء جماعي. يلعب هذا الأخير دور المركز بالنسبة لقرية تتكون على الأقل من اثني عشر منزلاً شديدة التنوع في مخططاتها، لكنه يقع في الوقت نفسه على الهامش الجنوبي من القرية المبنية. ولا يدل على وجود السكن في هذا الاتجاه سوى المساحات الواسعة من القمامة والفضلات المتنوعة.

المنشآت الجماعية

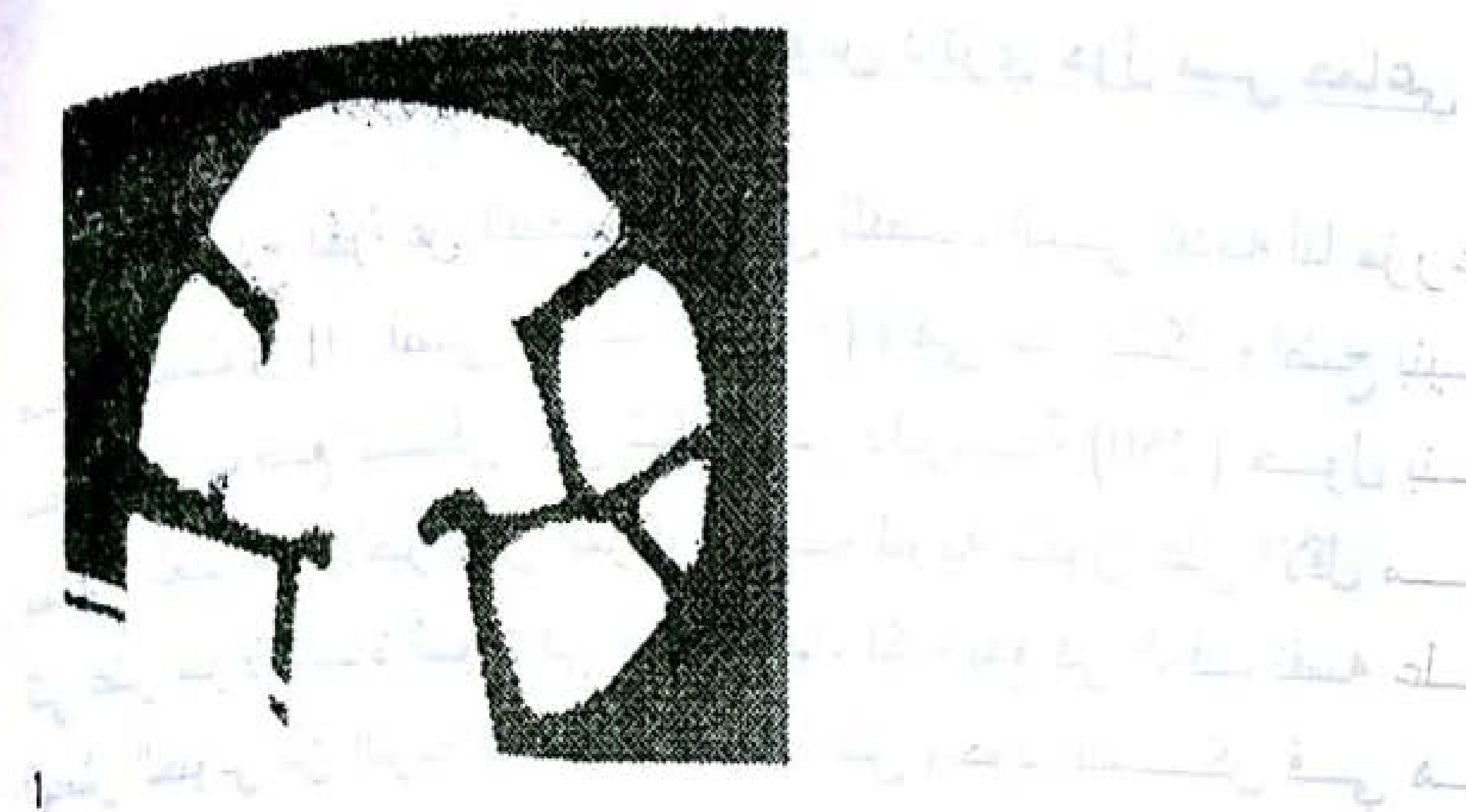
الجدارن الداعمة

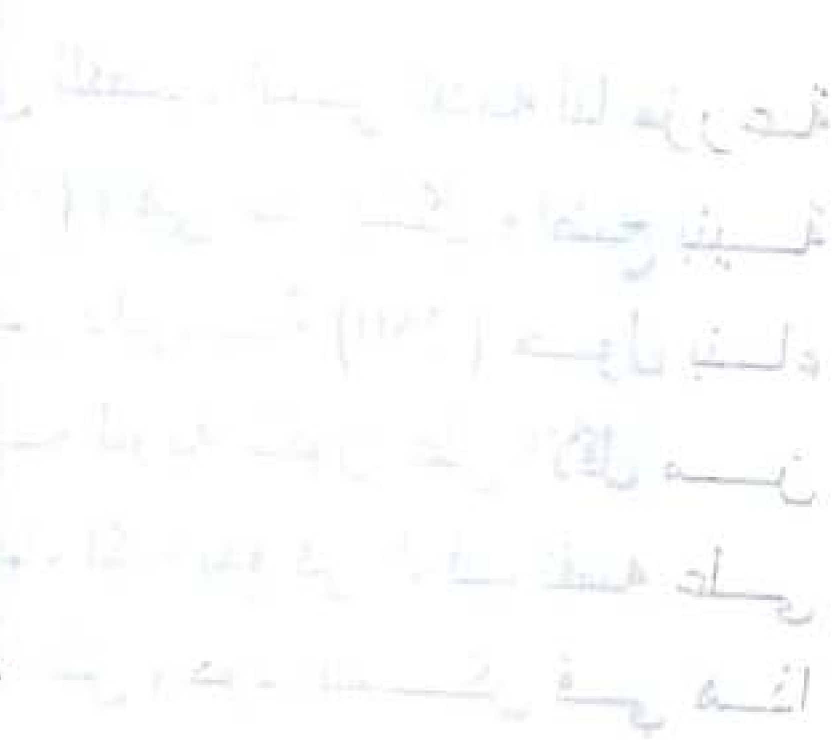
في فلسطين وفي أريحا بالذات، نجد أن إنشاء الصرح الكبير الذي اعتبر في أول مقالة عنه كبرج ذي استخدام دفاعي (كانيون Kenyon 1957)، يبين بشكل واضح وجود الإنشاءات الجماعية. إنه في الواقع بلا جدار داعم كبير. أما بالنسبة للبرج فقد كان ذا وظيفة خاصة، من الصعب تحديدها بدقة.

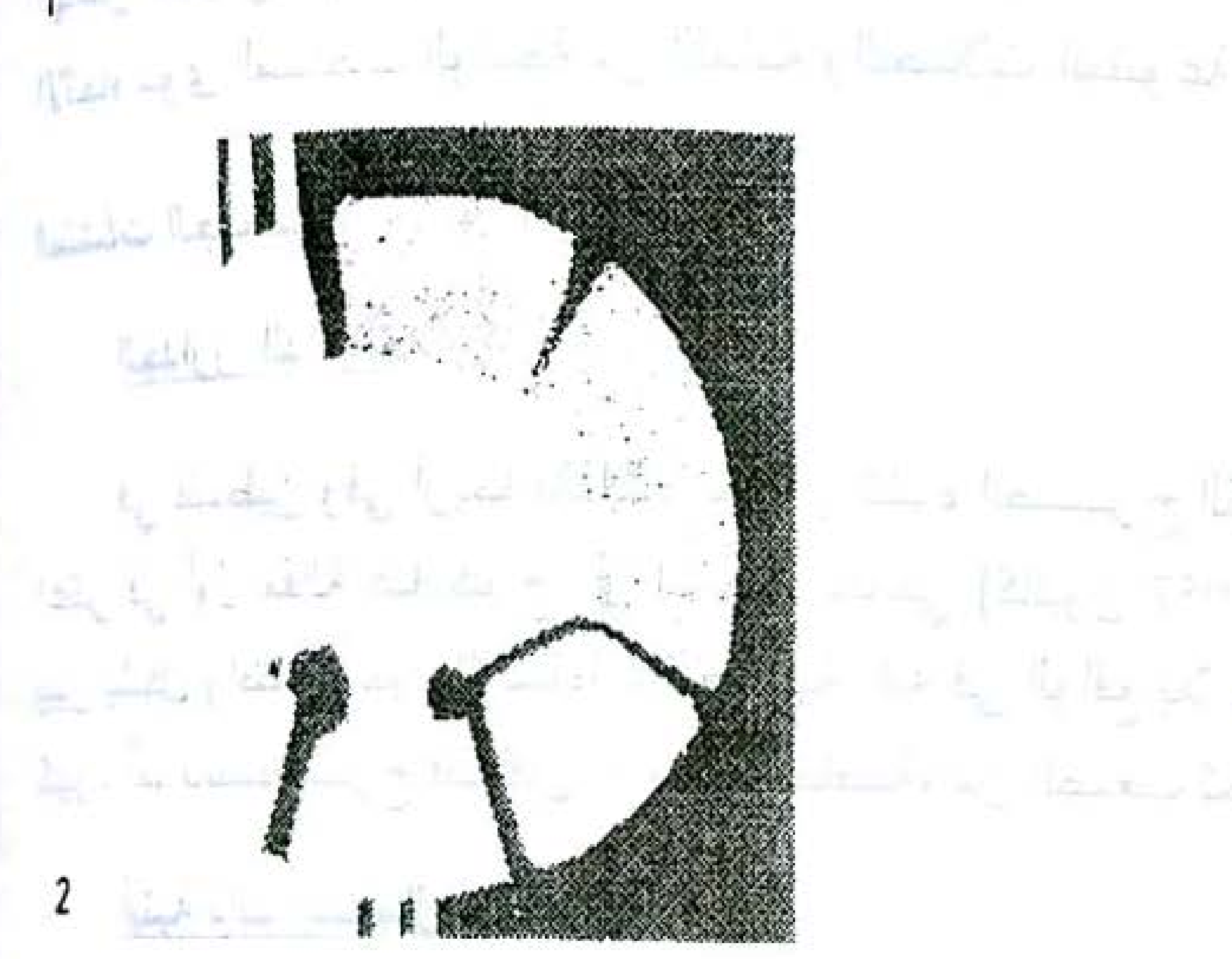
أبنية ذات استعمال جماعي

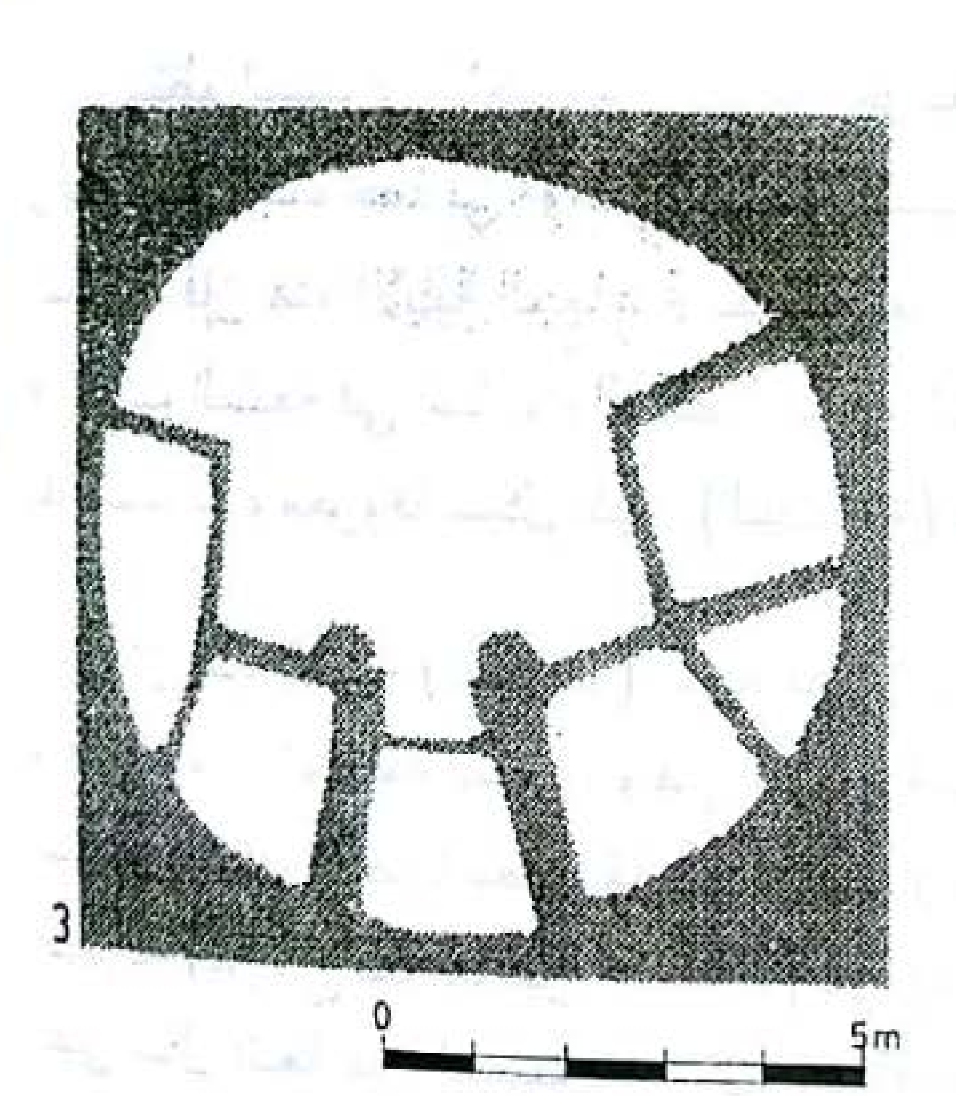
ينتظم المستوى الأخير من القرى المريبطية في جرف الأحمر كما رأيناه، حول بناء جماعي. وعلى خلاف التنوع الملاحظ في الوحدات السكنية، فإن هذه الأبنية الجماعية تخضع لقواعد صارمة في تنفيذها، فالتقنيات المتبعة في البناء، والمخططات والأبعاد كلها واحدة وتشبه في كل تفاصيلها بناءً معروفاً بشكل كبير (البيت 47) لموقع مريبط المرجعي.

إن هذه الأبنية (الشكل 4) مبنية في آن واحد معاً على محور التناظر وعلى هامش المنطقة المبنية. وهي مطمورة بشكل كامل في حفر مدعومة بجدران متينة، وأحياناً مضاعفة بجدار بجدار للواجهة. وتقطع المخططات الدائرية (يتراوح قطرها بين 6 و 8 م) في الداخل بجدران مستطيلة تنطلق على شكل أشعة من المحيط. ويشكل ثلثا الفضاء المقطع خلايا صغيرة مثلثية









الشكل 4: ثلاثة أبنية جماعية مطمورة تشبه المريبطي.
1 ــ المريبط: البيت 47.
2 ــ جرف الأحمر: EA7.
3 ــ جرف الأحمر: EA30.
تستعمل هذه الأبنية دون شك في استخدامات عديدة، للتخزين وللاجتماعات بشكل خاص. (رسم ج. دير أبراهميان، الذي كان أول من لاحظ التشابه بين المخططات لا سيما بين مباني المريبط وجرف الأحمر).

أو أشباه منحرف مغلقة. بينما يحتل الثلث الأخير مقاعد عريضة (دكـــة). ويشكل مجموع هذه التقسيمات في المركز فضاء صغـــيرا مضلعـــا. ولا تبدو الغرف الصغيرة صالحة للسكن، ولا بـــد أنـــها كـــانت مخصصـــة للتخزين[5].

إن حجم هذه الأبنية والعمل الذي لزم لبنائها، كما هو الحـــال بالنســبة لموقعها، قد قادنا إلى اعتبارها كمنشـــآت جماعيـــة مخصصـــة لاســتعمال الجماعة المتنوع ويبدو أن تقدير الحجم المخصص للتخزين غير متوافق مـــع الاستعمال الفردي. فربما كان يخـــزن فيـــها محـــاصيل القريـــة. والمقـــاعد العريضة (المصطبة) والغرفة المركزية كلـــها مجـــهزة للاجتماعـــات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار، بالإضافة إلى ما سبق، وجود بعـــض المـــواد الغريبـــة (أدوات، بقايا حيوانات) ولا سيما البقايا البشرية (مجموعـــة مـــن الجمـــاجم، هياكل عظمية بلا رأس ممددة في الغرفـــة المركزيـــة)، وأخـــيرا يمكـــن أن نفترض بأن نشاطات اجتماعية ورمزية كانت تدور في هذه الأبنية. ويجـــب أن نشير أخيرا إلى أننا نعرف حتى الآن بالنسبة لتلك الفـــترة، أربعـــة أبنيـــة من هذا النمط (اثنان في جرف الأحمر، يرتبط كل واحد منها بقرية محـــددة، واثنان في المريبط) تتشابه بشكل مطلـــق (ســتوردر 1998). وهكـــذا إذن، فعندما كانت العمارة المنزلية تبنى بأشكال شـــديدة التنـــوع، كـــانت الأبنيـــة الجماعية تخضع لقواعد دقيقة جدا. إن كان من حيث هندســـتها أو أبعادهـــا. ويستدعي هذا الموضوع التفكير العميق، ولا سيما إذا أخذنا بعيـــن الاعتبـــار بعد الموقعين عن بعضهما لمسافة 60 كم. ويذكرنـــا ذلـــك بـــدور الذاكـــرة الجماعية والحاجة التي تقربها الجماعة لأن تبني تبعا لنموذج معقـــد ودقيـــق المكان الذي يجمعها. ونتساءل أيضا عن المعنى المقصود من خاصية القبـــو في الوقت الذي تم التخلي عن عادة الأبنية المطمورة منذ مـــا يقـــارب الـــ 2000 عام[1].

---

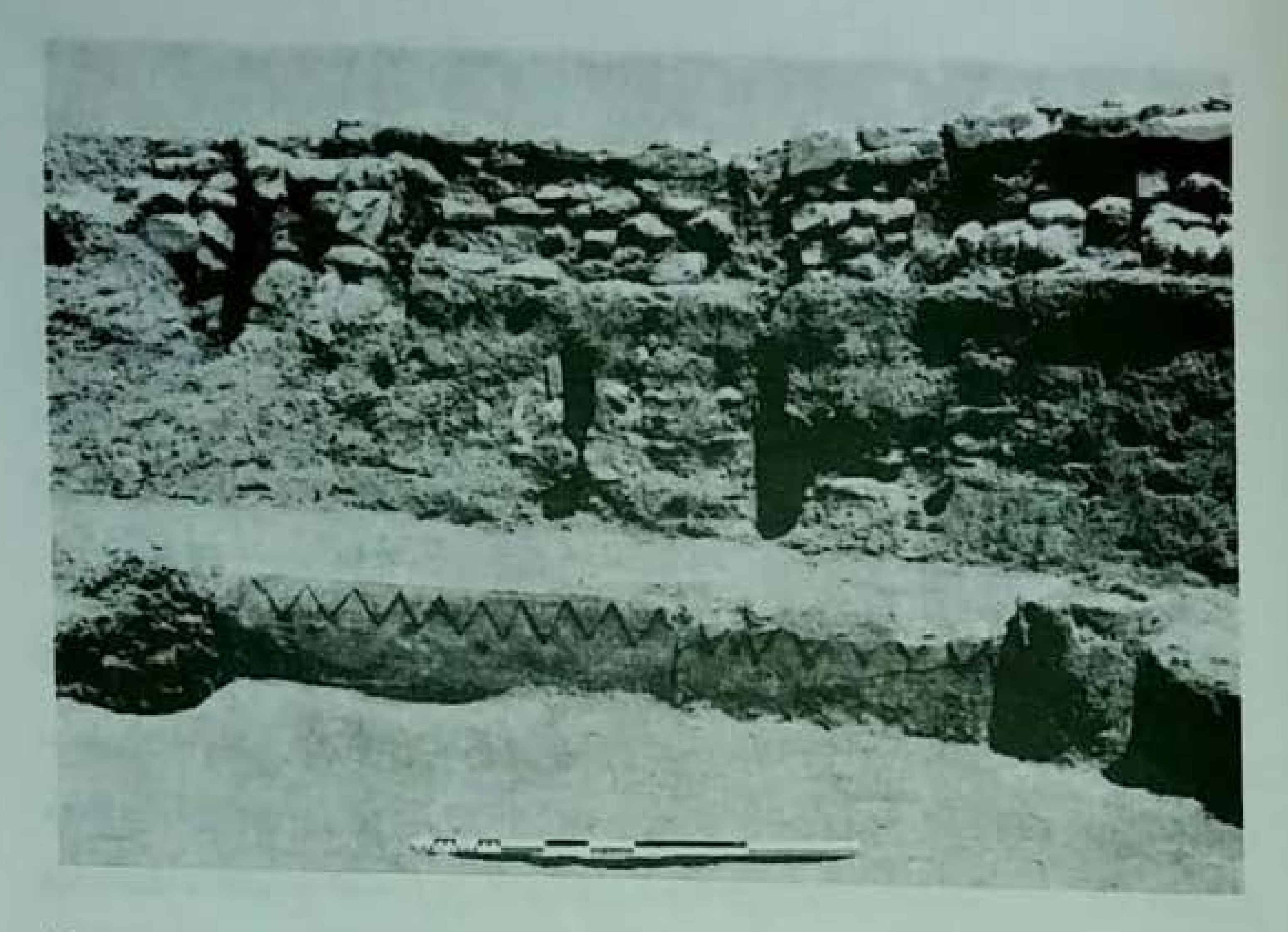
[5] مثلما يؤكد ذلك وجود كوة. إن التماثل مع مستودعات الحبوب الصغيرة الحالية مثير للدهشة.

[6] لا يمكن إلا أن نتذكر هنا الكيفا Kiva وهي الأبنية المطمورة والدائرية لـــدى الـــهنود Pueble المخصصة للنشاطات الاجتماعية والشعائرية في آن واحد (دون أن ننسى أن الأمر لا يعنـــي سوى مطابقة يقصد منها الحث على التحليل الأثري)

وستغدو الخاصية الرمزية للأبنية الجماعية أكثر وضوحاً أثناء الإشغال الأخير للموقع قبل هجرانه. إن هذه الأبنية الجماعية الدائرية والمطمورة (الشكلان 5 و 6) التي يبلغ قطرها 8 م تقدم خصائص جديدة تماماً بالنسبة للقرويين الذين بنوها والذين تشهد بيوتهم الفردية عن ضعف في التنوع المعماري بل حتى في تنفيذها. وللمرة الأولى يظهر الارتباط السنبلي للحجارة في بناء جدران الواجهة المبنية على الجدران الداعمة التي بني جزء منها فوق سطح الأرض. وكان الهدف من جدار الواجهة أن يضم ما يقارب الثلاثين عموداً خشبياً. وكان المجموع أي الجدار والأعمدة الخشبية مغطى بطبقة سميكة من الملاط الطيني المستخدم في البناء. ولم يكن هذا البناء مقطعاً إلى أقسام. والتنظيم الوحيد الذي كان يميزه هو المصطبة الداخلية، المستندة إلى الجدار والتي تحيط بشكل كامل بالبناء من الداخل. وترسم بعرضها الذي يبلغ 8 م مسدساً متساوي الأضلاع تماماً والذي يرتبط بانسجام كبير مع دائرة البناء. وعند كل زاوية من زوايا المسدس زرع عمود خشبي كبير مغطى بالطين من أجل حمل السقف.



الشكل 5: جرف الأحمر، 9000 قبل الميلاد: بناء جماعي مطمور، مكان للاجتماع مع مصطبة مزينة ببلاطات منقوشة.



الشكل 6: جرف الأحمر، 9000 قبل الميلاد: بناء جماعي، مكان للاجتماع مع مصطبة مزينة ببلاطات منحوتة : تفاصيل.

إن هذه المصطبة مزينة الواجهة ببلاطات كبيرة من الحوار، وهي مزخرفة بطريقة قصد منها أن تكون الزخرفة كاملة أمام المشاهد (مثلثات وخطوط منكسرة) ولا تقطعها الأعمدة التي يغطيها زخرف الملاط كي يؤمن التواصل.

تبدو وظيفة هذا البناء واضحة. إنه مكان مخصص بلا شك للاجتماعات فقط، إن كانت ذات طبيعة اجتماعية أو رمزية أو الاثنتين معاً.

تأتي أهمية هذا الاكتشاف من وضعيته في إطار التسلسل التاريخي. فهذا الصرح الجماعي المتخصص قد صمم في الوقت الذي كان يتم فيه الانتقال[2] نحو ثقافة جديدة ازدهرت ابتداءً من عام 8700 قبل الميلاد، والتي

---

[7] يتعلق الأمر تماماً بطور من التحول يتميز بتبدلات مقتصرة على بعض قطاعات النشاط في حين أن معظم العادات استمرت قائمة. وبحسب ف. آبس F.Abbes (لقاء شخصي) فإن التقنيات

أطلق عليها اسم «PPNB القديم» (عهد ما قبل الفخار النيوليتـــي ب)، الـــذي اعتبر حتى الآن العهد السباق في تصميم المعابد أو الأبنية المخصصة حصراً للنشاطات الروحية أو الرمزية «بيت الموتى» في جعد المغارة، في الفــــرات الأوسط، أحد الشهود (كوكينيــــو، Coqueugniot ، 1998)، بالإضافــة إلـــى المعابد الصغيرة في نحوبكلي أو نيفالي صوري (شميدت، Schmidt، 1995). ويبدو الآن بشكل واضح أن هذا التصور الجديد لمكان «مقدس» قد بدأ ينضج في نهاية الثقافة المريبيطية عندما كانت هذه الأخيرة في طور التحول.

لن نعود إلى عهد الــ «PPNB القديمة» هـــذه، إذ أن الوثـــائق التـــي تتحدث عنها ما زالت قليلة في سورية (كوكينيو، 1998)، نذكـــر فقـــط بأننـــا مدينين له باختراع الطوب المقولب (الذي عرف في الأناضول، لا سيما فـــي موقع كفر حيوك: موليست Molist وكوفان Couvin ، 1991) والذي شـــهدنا فيه اختفاء التنوع المعماري الذي حل محله في الوقت الحاضر بـــدء تعميـــم النماذج المعمارية. إنها على سبيل المثال حالة الــ «Obbled Paved Plan» في كيونو Cayonu (أوزدوغان Ozdogan، 1995).

المساحة

كان أقصى امتداد لموقع جرف الأحمر يبلغ تقريباً ثلاثة أرباع الهكتار فـــي حين أن موقع المريبط، مثلما أريحا في جنوب المشرق، كان أكثر اتساعاً ومـــن المحتمل أن مساحة بعض المواقع العائدة لذلك العهد كانت تصل إلى 3 هكتار.

قرى المزارعين ومربي أنواع الماشية المدجنة: 8200 ـــ 7500 قبل الميلاد.

تتوافق هذه الفترة التي تدعى «PPNB الأوسط» مع تحولات اجتماعيـــة واقتصادية كبيرة. إذ تم في تلك الفترة «تدجين» الزراعة وتربيـــة الماشـــية، بأنواع متحولة الأشكال يمكن تمييزها تماماً عن أسلافها البرية. وزادت أهمية

المتبعة في صنع الأدوات الصوانية تكشف بشكل خاص، وبوضوح تام، عن الأســـاليب التـــي تطورت لاحقاً.

هذين النشاطين أكثر فأكثر في الحياة الاقتصادية للقرى التي زاد حجمها كثيراً وبدأت تنتظم بشكل واضح.

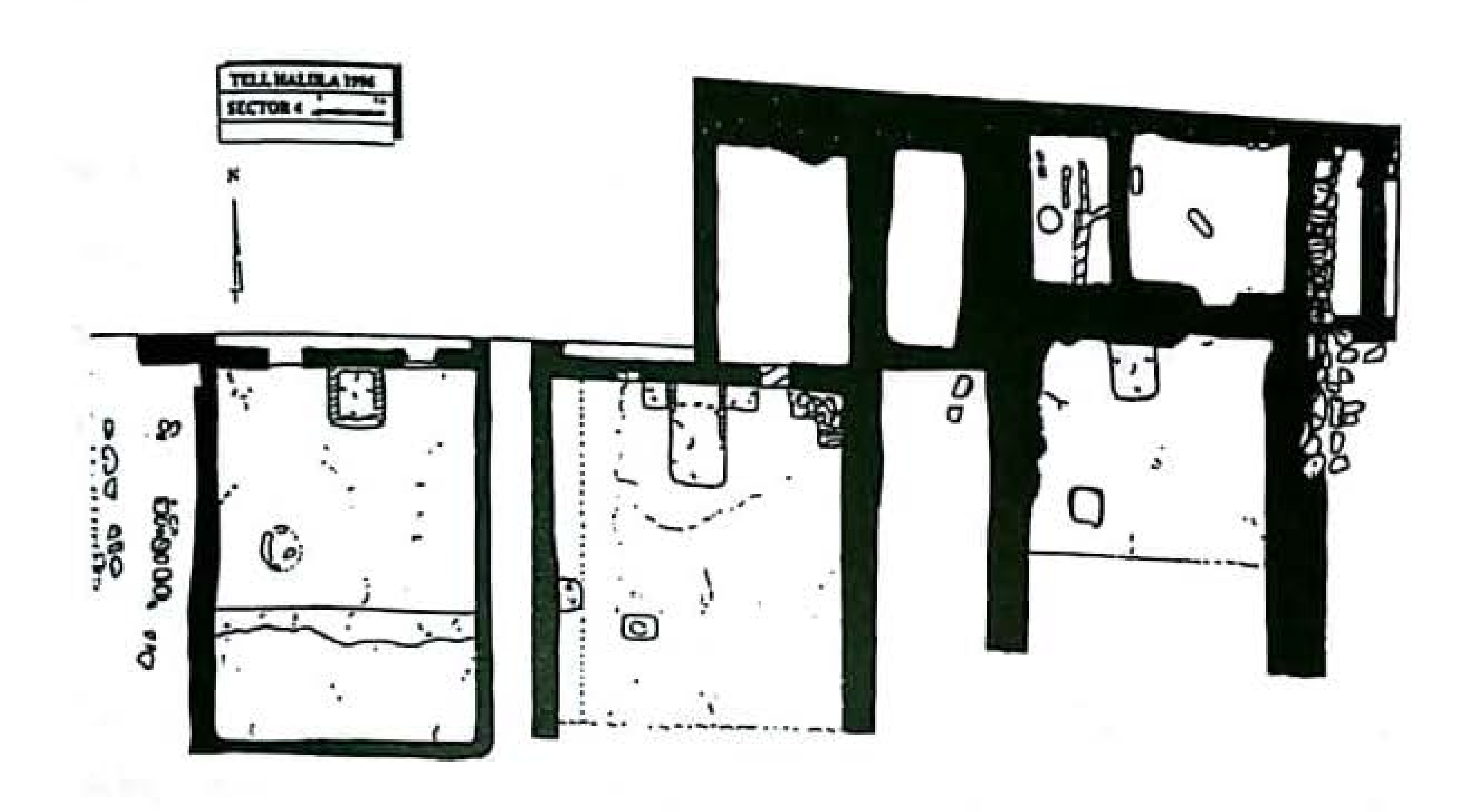
استعمال الطوب المقولب وتعميم النماذج المعمارية

سيكون لتبدلين تقنيين تأثيرات هامة على تصميم المساكن وهما: انتشار استعمال الطوب النيء، الذي عممت قوالبه، واستعمال الجص أو الكلس الحي لطلي الأرضيات والجدران الداخلية. لقد ازداد حجم هذه المساكن، كما يلاحظ في مواقع سورية الشمالية: حالولا (موليست Molist، 1998) وأبو هريرة (مور وآخرين Moor et *al*، 1975) على سبيل المثال، كما هو الحال في المواقع الأناضولية.

وكما نرى في حالولا (الشكل 7) في الفرات الأوسط (موليست، 1998). أن المساكن تبعاً لمخطط نموذجي معمم. والمنازل مستطيلة ذات نموذج خاص معقد، أي أنها تسمح بالمرور داخلها (أورانش Aurenche، 1981). تتألف، في حالولا كما في أبو هريرة، من عدة غرف تصل إلى خمس أحياناً ويمكن لمساحتها أن تبلغ 40 م^2. وتصل مساحة الغرفة الرئيسية في أحد بيوت حالولا إلى 25 م^2، وهي مطلية بعناية بالجص ومجهزة بفرن وموقد. وهي تتصل بغرف أصغر بواسطة نوافذ.

تنظيم الفضاء المبني

لقد تم التعرف بشكل أوضح في سورية على تنظيم هذه القرى بفضل موقع حالولا (موليست، 1998). فالمنازل مبنية بشكل متناسق، موازية لبعضها، تفصلها شوارع ضيقة باتجاه العرض. ويوجد أمام كل صف من المنازل، نحو الجنوب، فضاء أكثر اتساعاً بشكل فسحة حقيقية للعمل يضم تجهيزات مألوفة (مستودعات، حبوب، حفر، مواقد... الخ.). هذه الفسحات هي إذن مناطق للنشاط الجماعي (ولكننا نجهل حجم هذا النشاط)، والمنزلي (تقصيب الحيوانات، طهو المواد الغذائية) والتقني (ميادين تصنيع الأدوات الصوانية).

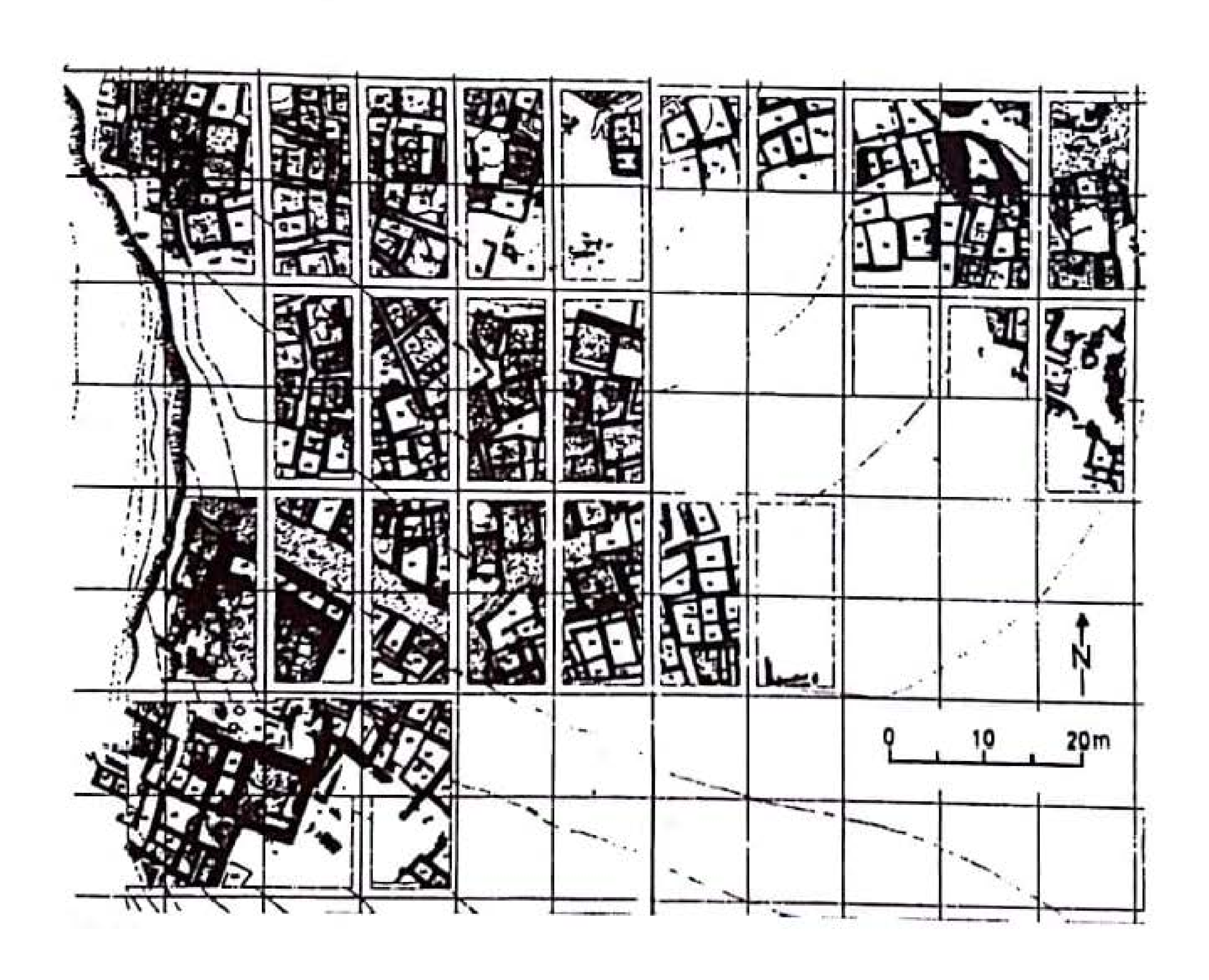


الشكل 7: حالولا (بحسب موليست 1998) تناسق المنازل في قرية تعود للـ PPNB الوسيط.

ففي موقع آسيكلي في الأناضول (إيسان Esin، 1998) نجد أن الفضاء المبني متراص. ويشكل كيانه عنصران أساسيان للمرة الأولى: الشارع والتنظيم على شكل أحياء متناسقة (الشكل 8).

المنشآت الجماعية

تتميز في حالولا (موليست، 1998) بعض المباني، دون أن تتميز بالكبر، عن المساكن من خلال مخططها الذي يضم ما يشبه المحراب وتخصصاً جنائزياً جماعياً بكل تأكيد. إذاً، يتعلق الأمر ثانية بتصميم يقدم إضافة جديدة لما نعرفه عن الفترة السابقة. يمكن تعميم الملاحظات نفسها على الأناضول.



الشكل 8: آسيكلي Asikli (بحسب إيسان، 1998): القريـــة المهيكلـــة بواســـطة الطـــرق والمكونة من منازل متراصة.

المساحة

مثلما كنا قد ذكرنا مباشرة ونحن نتعرض لهذه الفـــترة، فإننـــا نلاحـــظ ظهور القرى الكبيرة التي يمكن أن تصل مساحتها إلى 6 هكتار، وإننا نشـــدد

على مسألة أن هذا النمو للتجمعات السكانية القروية يجب تحليله من خلال علاقته مع تطور تقنيات إنتاج القوت، إن كان الأمر يتعلق بالزراعة أو بتربية مختلف أنواع الماشية المدجنة. فبالنسبة للسيد موليست (موليست وستوردر، قيد الطباعة)، نجد أن القرى الكبيرة على غرار حالولا وأبو هريرة كانت تلعب دوراً إقليمياً (ولكننا نجهل طبيعة هذا الدور). إن التفحص الدقيق للمعطيات المتوفرة يسمح لنا في المستقبل القريب بالتوصل إلى الدرجة التي كانت تتميز بها تلك الفترة بفضل التبدلات الجذرية في ميدان تنظيم المجتمعات.

اكتمال الطور النيوليتي: تكثيف الاستيطان البشري ونمو القرى بين عامي 7500 و 7000 قبل الميلاد (النحاسي)

تنظيم الفضاء المبني

أثناء مرحلة تدعى «PPNB الحديث» بلغت المعالم التي تشهد على تنظيم صارم للتجمعات السكانية، حدها الأقصى من القوة، في حين أن المستوطنات كانت تزداد عدداً في كل مكان لا سيما في سورية. وقد لعبت بوقراس غالباً دور المثال لكي توضح تنظيم القرية النيوليتية في هذه الفترة وبعد تفحص دقيق للتواريخ[3] يبدو لنا بشكل واضح أن المستوى الذي منحها الشهرة أكثر تأخراً ، سنتحدث عن ذلك لاحقاً.

المنشآت الجماعية

لقد غدت الإنجازات ذات الوظيفة الجماعية كبيرة الحجم. فقد بني في حالولا (موليست، 1998) أثناء تلك المرحلة، جدار كبير من الحجر الجاف. حيث يتراوح ارتفاع الجزء المحفوظ بين 3.20 و 3.80 م. فدقة العمل واضحة من القاعدة، وترتيب الحجارة الكبيرة غير المشذبة التي تكونه معتنى

---

[8] لقد أظهرت دراسة في تطابق التواريخ (مقالة لستوردر، قيد الطباعة) أنه آخر استيطان لموقع بوقراس، وقد تم الكشف عنه بكشط بسيط للطبقة السطحية على مستوى كامل القرية. يتعلق الأمر إذن بمستوى يضم فخاراً يعود تاريخه للفترة المحصورة بين 6900 و 6500 (العصر النحاسي).

به جيداً على وجهها الشرقي في حين أن وجهها الغربي غير منتظم. تسمح هذه الملاحظات بتعريفه كجدار داعم كبير لمنطقة رفعت ونظمت على شكل مصطبة لكي تتوضع عليها الأبنية الفردية.

المساحة

نلاحظ تضخماً للمساحة التي تشغلها القرى. ففي أبو هريرة على سبيل المثال (مور وآخرون، Moore et al، 1975). تطورت المساحة لتبلغ 12 هكتار. وفي حالولا نجد أن المساحة المبنية تساوي أو تزيد قليلاً عن مساحة المستوى PPNB الأوسط.

تنوع أنماط الحياة والمستوطنات البشرية بين 7000 و 6500 قبل الميلاد (نحاسي)

بدأت لوحة ما قبل التاريخ تتعقد في الشرق الأوسط، أي في سورية، ابتداءً من 7000 قبل الميلاد. ويعود هذا التعقيد إلى حقيقة أن الاختلافات في الخيارات التقنية أو الخيارات المتعلقة بنمط الحياة، ستميز مجتمعات متعاصرة تتقاسم جميعاً القاعدة الثقافية نفسها. إذ نلتقي بمجموعات تنتج الفخار وأخرى لا تنتجه (ولا تستعمله أيضاً)[4]. وبعض المستوطنات تعود لمستقرين، وأخرى لرحل مع كل ما يؤدي إليه ذلك من عدم استقرار هذين النظامين، من تراجعات ومن إحياء النماذج القديمة. إن هذا التنوع لإيقاعات الاستيطان في المكان المسكون (من الثبات إلى الترحال) سيخلق بالتأكيد أشكالاً مختلفة من المستوطنات البشرية. لن يتوقف أبداً التكامل عن تمييز العلاقة بين الرحل والمستقرين في المناطق الجافة في الشرق الأوسط. وهكذا فإننا نملك هنا للمرة الثانية التجسيد لما سيأخذ شكله بدقة أكثر في المراحل العمرانية (الحضرية).

---

[9] من هنا جاء اضطراب الأثريين في مسألة إعطاء تسمية عامة لهذه الفترة. إن المواقع الخالية من الفخار تقع كلها تقريباً في البادية والصحراء، وهي تسمى PPNB أخير أو PPNC . وأولئك الذين يصنعون الفخار نجدهم قرب ساحل المتوسط أو على ضفاف الفرات وينتمون لثقافات متنوعة: ما قبل حضارة حلف، PNA، إلخ.

تنظيم الفضاء المبني

إن تل بوقراس (الشكل 9) هو أحد المواقع القليلة في الشرق الأوسط التي نعرف مخططها العمراني الكامل. إن توضع مختلف الوحدات المأهولة متراص بشكل عام مع بعض الشوارع وبعض الفضاءات المفتوحة الأكثر اتساعاً والتي يحتمل أن تكون ذات استخدام جماعي، وهي موزعة ضمن كامل شبكة المنازل، التي تكشف عن ترتيب متعامد بشكل واضح، وهو تنظيم يستجيب بالتأكيد لمشروع جماعي مخطط. أضف إلى ذلك، وكما أشار إليه أوليفيه أورانش O.Aurenche (1981)، ليس هناك سور، لكن البيوت الواقعة عند حدود التجمع السكاني تلعب دوراً يشبه الجبهة الموحدة وذلك بفضل التتابع المستمر للجدران الصماء.

ولكي نبرز الخاصية المزدوجة التنظيم لموقع بوقراس، من المفيد ربما أن نقارنه بموقع خيروكيتيا Khirokitia في قبرص، وهو معاصر للسابق ومكون من منازل دائرية (لوبران Le Brun ، 1989 و 1994). إن هذا الموقع محاط بسور وينظمه شارع رئيسي وأحياء. ومع ذلك فإن ترتيب المنازل داخل الأحياء لا يبدو أنه منظم[5]. ففي بوقراس نجد أن تنظيم البيوت متعامد في داخل الأحياء كما بالنسبة للتجمع السكاني ككل

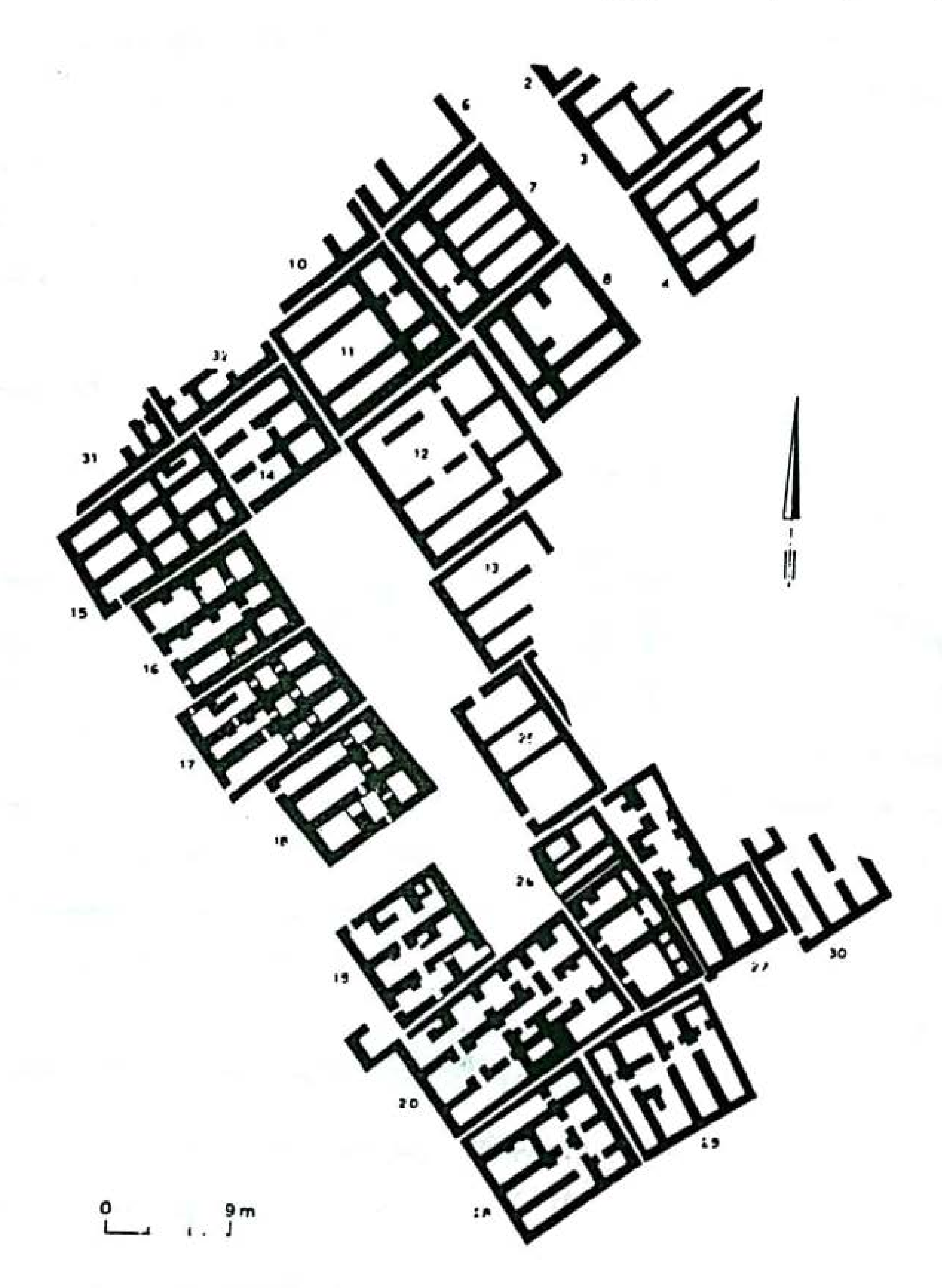
أما بالنسبة للموقع الشهير كاتال هويوك Catal Huyuk (ميلارت Mellaart، 1967) فهو يقدم تتابعاً لمجموعات عديدة من المنازل المتراصة التي تحيط بمساحات واسعة. ولا نلاحظ أبداً شوارع في هذه الشبكة المتراصة من المساكن التي لا بد أن الوصول إليها كان يتم عبر الأسطح.

كيف يمكن أن نفسر أن موقعاً يتميز في الفترات السابقة بإدارة صارمة للفضاء المبني يمكن أن يكون، في الفترة التي تهمنا، منظماً بطريقة عشوائية؟ مع العلم أنها حالة موقع حالولا (موليست، 1998) الذي يتميز، في عهد ما قبل حلف، بسكن متبعثر، مؤلف في آن واحد معاً من مساكن مستطيلة لا تملك، في معظم الحالات، سوى أرضيات من الطين المرصوص

---

[5] كما هو مألوف في وصف المدن العربية (دانزر، Dentzer، 1985).

(إذ كان الكلس في تراجع) وبناء مقبب مطلي بالكلس. وفي الوقت نفسه كـانت المنشآت الجماعية «الضخمة» والتنظيمات الدقيقة تمنع تصور أي تراخٍ فـــي البنيات الاجتماعية كما سنرى.



الشكل 9: بقراس (بحسب أكيرمانس وآخرين Akkermans et *al*, 1984) تبين القرية التـــي كشفت بكاملها ترابط قطري واضح مع الشوارع والساحات والأحيـــاء. وتتمـــيز بعـــض المباني من خلال مخططها وحجمها، فلا بد أنها كانت تملك وظيفة ذات طابع جماعي.

منشآت جماعية

أسوار أو تحصينات جدارية

يُصادف أكثر فأكثر هذا النوع من المنشآت في المواقع الأثريـــة. ففـــي حالولا يبرز جدار سور كبير على قاعدة جدار داعم أقدم. وبالنســـبة للســيد موليست فإن هذا الجدار المتين جداً لم يكن يملك بالتأكيد وظيفة دفاعية فقــط أو للحماية وإنما له دور رمزي يرتبط بالهيبة وبنــوع مــن إثبــات الســلطة (موليست وستوردر، قيد الطباعة).

أبنية خاصة

توجد هذه الأبنية في كل المواقع تقريباً، ويبدو من السهل أحيانـــاً ربــط وظيفتها بالمجال الديني، في حين أنه في بعـــض الحـــالات يكـــون التفســير أصعب. ففي جبيل، يوجد بيت ذو محراب (عبرت عنه أبنية أقدم كما رأينـــا في سورية) من المفروض أن تكون له وظيفة خاصـــة، ومما يدعـــو إلـــى افتراض ذلك مفروشاته وكثافة المنحوتات من حولها (جاك كوفان J. Couvin ، 1972). وفي موقع الكوم 2 في بادية تدمر، يتجاور نمطان من البنـــاء فـــي المستويات الأحدث: عديد من المنازل الصغيرة متعددة الخلايا المعقدة، غـــير خاضعة لأي تعميم، وبناء كبير مستطيل ذو غرفة مركزية على شكل حـــرف T ومخطط متناظر بشكل واضح على محوره الطولي تعـــبر عـــن الأبنيـــة الجماعية العائدة لفترة عُبيد (الشكل 10) (ستوردر، 1990)

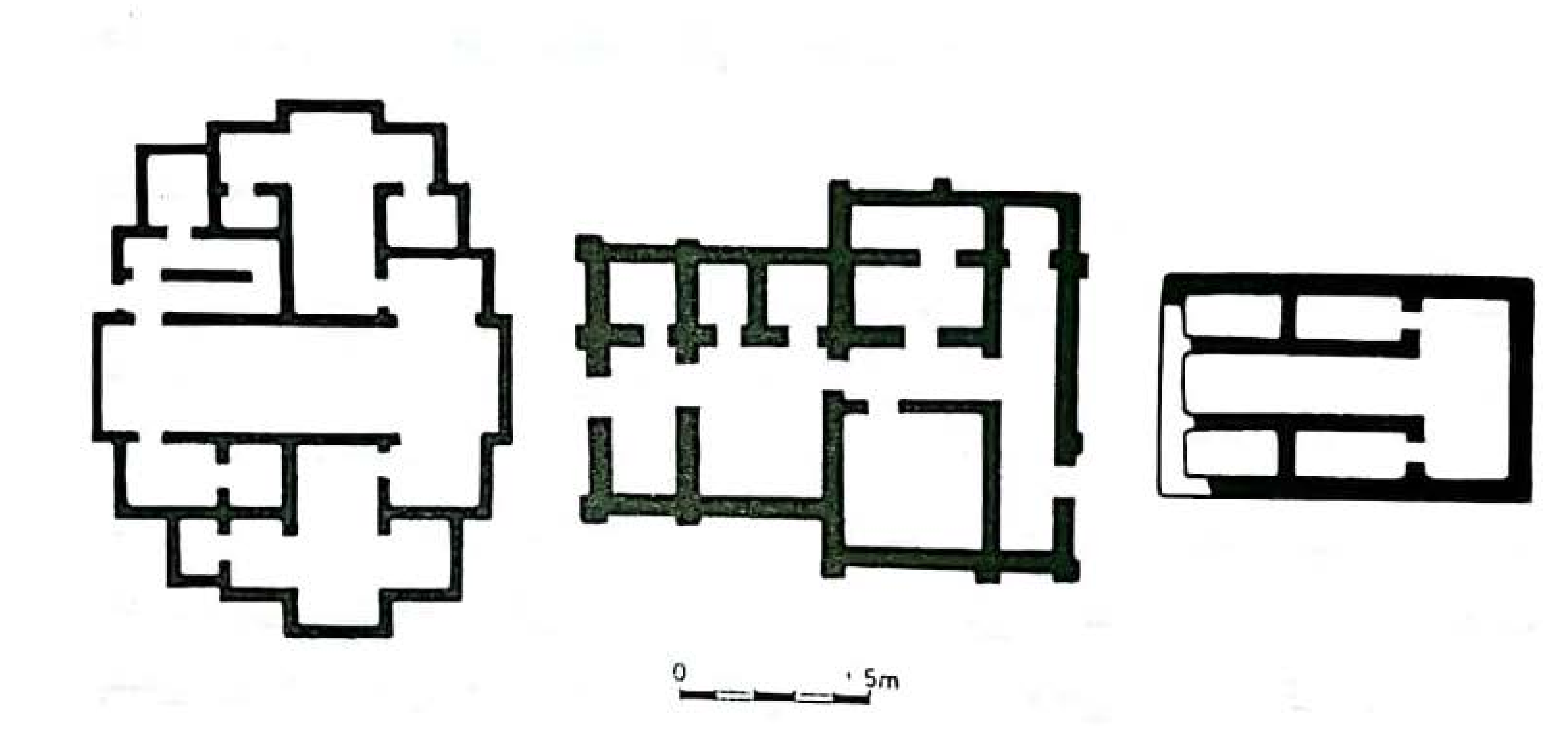
شبكة المياه المنزلية وفي التجمع السكني

يمكن أن ينسب تجديد هام يميز هذا العهد إلى مواقع «فخارية» كـــانت (ما قبل حلف في حالولا) أو «فخارية» (PPNB أخير في الكوم).

تنظيم داخلي مرتبط بدورة المياه

تملك المنازل الصغيرة المستطيلة في موقع الكوم 2 (د. ستوردر، كتــلب قيد الطباعة) دورة مياه داخلية تقع في المستويات الحديثـــة وهـــي مجـــهزة

بفتحات تصريف، وعتبات متقوبة، وقنــوات صغــيرة مطمــورة موصولــة بسواقٍ، وكل هذه التجهيزات ترتبط بعمل مقصود أريد منه جعل الماء يجـري ويدور داخل المنازل، وربما حتى بين غرفة وغرفـــة، ثــم تصريفــه إلــى الخارج. وجميع هذه الإنشاءات مطلية بعناية بالجص مثل الأرضيات وقواعـد الجدران التي أنشئت ضمنها.



الشكل 10: مخطط بناء مؤلف من أقسام ثلاثة مع تناظر طولي في الكوم (ستوردر، كتاب قيد الطباعة) مقارن مع بناء في صوان A III (ياسين، 1970) و خيط قاسم III (فورسـت Forest، 1986).

جريان المياه ضمن التجمع السكاني

في موقع الكوم (ستوردر ، كتاب قيد الطباعة)، ودومــاً فــي مســتوى حديث، أنشئت ساقية خارجية بعناية في وسط شارع ضيق (ضيق جداً يســمح بالمرور بلا شك). وهي قليلة الصيانة، وقد انسدت بسرعة بسبب الفضـــلات

التي يمكن أن تبلغ في هذه المنطقة سماكة تصل إلى 50 سم. ونستنتج دون عناء أن صيانة الشارع لا يمكن أن تنسب إلى النيوليتيين في ذلك العهد.

إن هذا النمط من التجهيزات قد تم وضعه على مستوى أهم في حالولا (موليست، 1998). فهناك قناة خفيفة الانحدار حفرت في وسط ممر يقود إلى خارج الموقع، وجوانبها مطلية بعناية بالغضار، وأرضيتها مرصوفة بسرير من الحجارة المغموسة بالطين.

كانت هذه القناة مغطاة ببلاطات كبيرة متراكبة. إن كان بالإمكان الحديث في حالة الكوم عن إنشاء قام به السكان لمنزلين متجاورين دون أن يكون من الضروري ذكر أعمال جماعية حقيقية، فمن الصعب تفسير قنوات حالولا بشكل آخر غير التنظيم على مستوى الجماعة.

المساحة

مثلما كنا قد عبرنا على الفور، يصبح من الصعب تعميم الكلام ابتداء من هذه الفترة. إذ ندرك أن الخصائص التي تميز المواقع ترتبط بأنظمة العمل، وبوضعيات مختلفة. ولسوء الحظ فإن القليل جداً من أعمال التنقيب التوسعية فقط قد نفذت، ولذلك فإن من المبكر جداً قياس الفاصل الفعلي الذي يفصل بين المجتمعات في ذلك العهد عن تلك التي سبقته. إن مساحة المواقع يمكن أن تصل في بعض الحالات إلى 18 هكتاراً، وهي مساحة كبيرة[6].

ماذا حصل من جديد بين عام 6000 قبل الميلاد وتأسيس المدن الأولى بحدود عام 3000 قبل الميلاد؟

سنكتفي هنا بالتعرض في بضعة أسطر إلى الألفيات الثلاثة التي تفصل القرى الكبيرة التي تناولناها سابقاً عن تأسيس المدن الأولى. ولقد دفعنا إلى

---

[6] شريطة أن تكون المستوطنة قد سكنت فعلاً ، في لحظة على الأقل من تاريخها، على مساحة كهذه. وقد لاحظ أ. أورانش، وهو محق بذلك، أنه وعلى العكس مما يمارس غالباً في البحث الأثري، لا يمكن بالضرورة أن لا نستطيع حسم مساحة المستوطنة من مساحة التل الذي يحيط بها.

هذا الخيار أسباب عديدة. فقد كان علينا أن نلاحظ، في ما نلاحظ، الغياب الحالي للمعطيات ذات الصلة الوثيقة بالموضوع لكي نعالجها في إطار الحالة السورية، فالوثائق المتوفرة والأكثر تعبيراً ما تزال مجمعة بشكل رئيسي في منطقة ما بين الرافدين العراقية. لذلك فإن التعرض لها مطولاً سيؤدي إلى خروجنا من المنطقة التي يغطيها هذا الكتاب، ومحاولة التوسع بدراستها سيعرضنا إلى مشاكل متعلقة بالتفسيرات، فالمجال معقد وخصوصاً أنه موثق بأعمال قديمة، على الرغم من أن العديد من التنقيبات كانت واعدة، ولا سيما في الأناضول الشرقي. أمام هذا الكل، لم نقم سوى باستخلاص ما بدا لنا وثيق الصلة بالموضوع (ولا سيما الكل) من خلال بعض النتائج التي يعود الفصل بينها إلى باحثين آخرين (لا سيما هوو Huot، 1994 ومارغرون Margueron، 1991).

من نهاية الألفية السابعة إلى مطلع الألفية الخامسة

ولدت ثقافة لامعة في سورية وبدأت تنتشر بشكل واسع نحو الشرق، إنها ثقافة حلف التي تم التأكد منها في حالولا (موليست، 1998) على شكل سكن مبعثر مركب (كما في ما قبل حلف) من قبب دائرية وأبنية مستطيلة، إن هذه الثقافة معروفة جيداً على نهر الخابور بفضل أعمال التنقيب في موقع صبي أبيض (آكرمان Akkermans ودويسترمات Duistermaat ، 1997). هذه المواقع صغيرة بشكل عام وتطرح بشأنها دوماً مسألة إيقاعات استيطانهم، ذلك لأن نمط نصف المستقرين قد طرح مراراً. لا شيء جديد حقاً يمكن استخلاصه بالنسبة للعمارة ولكن الاقتراح (فورست وبرينيكي Brenuquet، المذكوران لدى قبل هوو، 1994) القائل بتفسير تنظيمهم كجمع من «الصناديق» على الطريقة الإفريقية مشكلين «مجمعاً» يبدو تفسيراً مهماً.

ففي العراق كان ذلك العهد هو عهد ثقافة سامراء والمراحل الأولى من ثقافة عبيد، ويتعلق الأمر في الحالتين بجماعتين زراعيتين صغيرتين. إذ يبدو أن قرية مثل صوان III لم تكن تضم أكثر من عشرة منازل، لكنها محاطة بسور (وهو أمر ليس بجديد) وخندق (الأمر الذي لم نلاحظه من قبل). فمنذ بدايات عهد عبيد، تميزت المنازل الكبيرة بتوزيع طولي ثلاثي الأقسام من

الغرف وبوجود غرفة مركزية على شكل T. لقد رأينا أن المخطط الأكثر قدماً من هذا النمط قد شوهد في الكوم 2 (الشكل 10، ستوردر، 1990، وكتاب آخر قيد الطبع)، وسيكون له مستقبل لامع، بما في ذلك في الفترات التاريخية.

الألفيتان الخامسة والرابعة

لقد تكون خلال هاتين الألفيتين، بحسب علماء ما قبل التاريخ العاملين في منطقة ما بين الرافدين العراقية، الوسط الاقتصادي والاجتماعي الذي ستولد فيه المدن (هوو، 1994). ففي إريدو Eridu، تنتصب صروح كبيرة فوق بعضها بعضاً، من مرحلة إلى أخرى فوق المصاطب. لها كلها مخطط ثلاثي الأقسام يضم قاعة مركزية وغرف صغيرة جانبية، وقد اعتبرت لزمن طويل كمعابد، وقد تم الاعتراض حديثاً على هذا التفسير، لا سيما من أ. أورانش 1981 الذي يعتبرها بالأحرى بمثابة «قاعات استقبال لشيخ القبيلة لكي يجمع رجال عشيرته». ونشير هنا، كما فعل جان لويس هوو J.L. Huot، إلى أن المقدس والدنيوي كانا شديدي الارتباط في ذلك العهد. وهناك يعود مفهومان للظهور بانتظام حول تلك الفترة: مفهوم «الزعامة» لتعريف نمط التنظيم الاجتماعي ومفهوم التسلسل المتنامي للمجتمعات، الذي يمكن قراءته مباشرة في عظمة وتعقيد «منازل الجماعة». فمستودعات ومخازن الغلال مذكورة أيضاً للتشديد على القدرات الجماعية أو الفردية في مجال التخزين في ذلك العهد.

مباشرة قبل المدن الأولى...

إن الميل المذكور سابقاً يتأكد. فالآن نجد أن «الأبنية الخالصة» الدائرية قد بنيت فوق أكروبول حقيقي (كما هو الحال في غورا XI - VIII) مع بقائها مقسمة بحسب المبدأ الثلاثي المألوف. وستحاط هذه الصروح بمنازل صغيرة في نهاية استيطان الموقع. وهكذا فإن العديد من المؤلفين يتحدثون عن ظهور أرستقراطية حقيقية تتنافر مساكنها الفاخرة الثلاثية الأقسام مع المنازل الصغيرة التي تحيط بها.

خلاصة

إن عناصر الخاتمة التي سنقترحها هنا هي بالتأكيد قابلـة للنقـض. إن هذه الحقيقة الأساسية يدركها سائر العلماء. وربما يجب أن نعيد ونذكـر بـها في ميدان ما قبل التاريخ الذي يتعرض للتعديل المتزايد فـي أسسـه بسـبب التطور الحالي لأعمال التنقيب المتسعة وللمناهج المتبعة.

إن تعميم النماذج المعمارية قد فرض نفسه من خلال التحكم بالزاويـة العمودية، على إثر نوع من الانفجار الخلاق على المستوى المعماري. كـان يعتقد أنه كان مرتبطاً مباشرة بإنتاج مواد البنـاء ذات النمـاذج المنتظمـة، صحيح أن ظهور الآجر المقولب يتطابق تماماً مع اختفاء التنوع المعمـاري، المدهش جداً في الفترة المريبيطية. ومع ذلك يجب إظهار الفرق الدقيق عنـد الحديث عن هذا التطابق لأنه بسيط جداً عندما نتذكر أن نموذج الحجارة على شكل السيجار، الذي يميز هذه الفترة الأخيرة، هو منتظم جداً. إذ برأينا لم نعـد نستطيع تأكيد وجود توافق بسيط بين تعميم مواد البناء من جهة والمخططـات العمرانية من جهة أخرى.

أما فيما يتعلق بإنشاء المنشآت الجماعية، فإن الجـدران الداعمـة منـذ الـ PPNA (في أريحا بالإضافة إلى برجها) التي أصبحت كبيرة جـداً فـي الألفية الثامنة (PPNB حديث). قد تحولت بشكل طبيعي، كما هو الحال فـي حالولا، إلى سور. ومن المحتمل أن القصد مـن المبـاني المبنيـة جماعيـا والمستخدمة على مستوى الجماعة هو تعدد المهام في البدايـة (P PNA في جرف الأحمر)، ولكن يبدو أنها قد تخصصت فيما بعد لا سيما في وظـائف جنائزية ورمزية.

بالنسبة للوقت الحالي لا يوجد إثبات للتنظيم الجماعي للفضـاء سـابق للألفية العاشرة قبل الميلاد. لذلك يمكن أن ننسبه للمزارعين الأوائل، وتحديـد أقدم تعبير معروف عنه في الفرات الأوسط. فـالمريبيطيون الذيـن كـانوا يسكنون حينئذٍ تلك المنطقة، قد سووا على شكل مصاطب وبشـكل جمـاعي التلال (الطبيعية أو الصناعية) التي كانوا يسكنونها. فعندما كانوا يقيمون علـى أرض مستوية، كانوا يعطون لترتيب منازلهم وضعية منتظمة، تتمركز حـول

بناء جماعي. لقد أصبح تنظيم السكن صارماً وقاسياً أكثر فأكثر وذلك مع ظهور المنازل المتراصفة منذ الألفية التاسعة ـ الثامنة (في مرحلة الـ PPNB الوسيط في منطقة الفرات السوري). وسوف يتحقق تنظيم التجمع السكاني في الأناضول على شكل أحياء تفصلها الشوارع في العهد نفسه.

وابتداءً من الألفية السابقة، سيبدو واضحاً تنوع أنماط الحياة والاختلافات المحلية في طريقة البناء وفي تنظيم السكن. سنجد قرى كبيرة منظمة بشكل قطري تضم الشوارع والساحات والأحياء، وهي تذكر بالمدن الصغيرة، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار لوجود نوع من التشويش الممكن. وهكذا فإن الأمر يتعلق تماماً، كما هي حالة بوقراس، بقرى نيوليتية كبيرة، كانت نشاطاتها الاقتصادية ضعيفة زراعياً وتعتمد بشكل أساسي على تربية الماشية. وقد بدأت تنكشف في العهد نفسه مواقع لأنصاف الرحل تكاد تكون مبنية وتتألف بشكل خاص من مغامغائر صغيرة (قدير). وتتواجد في المناطق التي تضمها مستوطنات كبيرة للمستقرين مثل الكوم 2 في البادية الصحراوية التدمرية. ونجد هنا تفرعاً ثنائياً (كان قد لوحظ سابقاً في جرف الأحمر بالنسبة لأشكال أخرى) يبين مباني كبيرة ذات مخطط معمم وأبنية صغيرة أكثر تنوعاً. سيكون للمخطط المعمم مستقبل عظيم، ويتعلق الأمر بمخطط تلاقي الأقسام على المستوى الطولي (الشكل 10) سنعثر عليه في عصر عبيد وحتى عصر المدن الأولى.

ما الذي سنعثر عليه من جديد إذا ما تجولنا في الألفيات الثلاثة الأخيرة التي تفصل المراحل التي جئنا على ذكرها عن انبعاث المدن الأولى؟ يبدو لنا أن الأمر يتعلق بشكل رئيسي بدعم تدريجي للرموز التي تتطابق مع عملية فصل مضاعفة. الأول وقع مسبقاً منذ الألف التاسع وهو يسمح بتميز المجال الفردي عن الجماعي. وفي الوقت الحاضر فإن «البيت الجماعي»، مكان الاستقبال، مكان الطقوس الدينية، والاثنان في آن واحد معاً، مرتبطان بالسلطة الحاكمة، لقد أصبح كبيراً، ويعلو أكثر فأكثر (عوضاً عن أن ينطمر في الأرض، كما كان يتصوره الفلاحون الأوائل). والثاني هو بلا شك جديد تماماً، إنه الفصل بين الطبقات الاجتماعية، وولادة النخبة، وتشييده في مكان منفصل عن بقية المساكن.

بالنسبة لغوردون تشيلد Gordon Childe المدينة هي: تنظيم المنطقة المبنية، والأبنية المتخصصة، والسور، والشوارع والأحياء. كل ذلك سيتم تشييده في المجتمعات ما قبل العمرانية، ضمن إطار تطور يأخذ مصدره منذ الألف التاسع، أما بالنسبة للعناصر التي تقسم السكان وتمنح الرمزية للاختلافات واللا مساواة الداخلية، فهو متأخر جداً. ومع ذلك فإن المداخلات المقدمة في هذه المائدة المستديرة، مثلما في خاتمتها، قد كشفت بشكل كبير بهذا الخصوص أنه يجب أن يكون هناك محرك آخر لكي تكون المدينة مدنية. إن ثقافات ما قبل التاريخ، قد جددت، واخترعت، وتنظمت بشكل أكثر فأكثر تعقيداً وقد أدمج هذا التنظيم في تصميم منازلهم وقريتهم. لقد أوجدوا الشروط الضرورية لتكون هناك مدينة، وأن الشروط الكافية تبقى للمستقبل.

BIBLIOGRAPHIE المراجع

AKKERMANS (J.A.K.) ET AL.

1983 « Bouqras revisited : Preliminary Report on a Project in Eastern Syria»,Proceedings ofthe Prehistoric Society 49, p. 335-372.

AKKERMANS (P.M.G.G.) et duistemaat (K.)

1997 « Of storage and nomads. The sealings from Late Neolithic Sabi Abyad, Syria », Paléorient, 22/2, p. 17-44.

AIRENCHE (O.)

1977 Dictionnaire illustré multilingue de l'architecture du Proche-Orient ancien, Collection de la Maison de l'Orient n° 3, Lyon, Maison de l'Orient.

1980 « Un exemple de l'architecture domestique au VHP millénaire : la maison XLVII de Mureybet », J.-C. margueron (éd.), Le Moyen Euphrate, zone de contacts et d'échanges, p. 35-54, Leiden, E. J. Brill.

1981 La maison orientale, 3 vol., Paris : Geuthner. airenche (O.), cauvin (J.), cauvin (M.-C.), copeland (L.), hours (F.), sanla ville (P.)

1981 «Chronologie et organisation de l'espace dans le Proche-Orient de 12 000 à 5 600 av. J.-C. », J. cauvin, P. sanlaville (éds), Préhistoire du Levant, p. 571-601, Paris, Éditions du C.N.R.S.

BAR YOSEF (O.), VALLA (F.R.) (ÉDS)

1991 The Natufian culture in thé Levant, Ann Arbor : International Monographs in Prehistory, Archaeological Séries 1.

CAUVIN (J.)

1972 Religions néolithiques de Syro-Palestine, Paris, Jean Maisonneuve

1977 Les fouilles de Mureybet et leur signification pour les origines de la sédentarisation au Proche-Orient » : Annuals ofthe American School of Oriental Research, 44, p. 19-48.

1978 Les Premiers villages de Syrie-Palestine du IXe au VIIe millénaire avant Jésus-Christ, Collection de la Maison de l'Orient n° 4, Série archéologique 3, Lyon, Maison de l'Orient.

1994 Naissance des divinités, naissance de l'agriculture, Paris, CNRS Éditions.

(sous presse) Du village à la ville dans le Proche-Orient préhistorique, Arqueilogo Portuges

CHILDE (G.)

1957 What happened in History, London, Pélican book

1964 La naissance de la civilisation, Paris, Gangier.

CONTENSON (H. de) (éd.)

1995 Aswad et Ghoraïfé, sites néolithiques en Damascène (Syrie) aux IXe et VIIIe millénaires avant l'ère chrétienne, Beyrouth, IFAPO (BAH 87).

COQUEUGNIOT (E.)

1998 « Dja'de el-Mughara (Moyen-Euphrate), un village néolithique dans son environnement naturel à la veille de la domestication », M. fortin, O. aurenche (éd.), Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (Xe-IIe millénaire av. J.-C.), actes du Colloque tenu à l'Université Lavai (Québec) du 5 au 7 mai 1997, Toronto, Canadian Society for Mesopotamian Studies (Bull. 33), Lyon, Maison de l'Orient Méditerranéen (TMO 28), p. 109-114.

DENTZER (J.-M.)

1985 « Les villages de la Syrie romaine dans une tradition d'urbanisme oriental », huot, yon et calvet (éd) De l'Indus aux Balkans, (Recueil à la mémoire de J. Deshayes, p. 213-248.

DITTERMORE (M.)

1983 « The soundings of M'iefaat », L. S. braidwood, R. J. braidwood et al., Prehistoric Archeology along thé Zagros Flanks, Chicago, OIP n° 105, p. 671-692.

ESIN (U.)

1998 « The Aceramic site of Asikli and its Ecological conditions based on its floral and faunal remains » : Tuda Ar, p. 95-103.

HOURS (F.)

1994 « Jiita (Liban) », A. leroi-gourhan, Dictionnaire de la Préhistoire, Paris, PUF, p. 559-560.

HUOT (J.-L.)

1994 Les premiers villageois de Mésopotamie. Du village à la ville, Paris, Armand Colin.

KENYON (K.M.)

1957 Digging up Jéricho, London, Ernest Benn.

1981 Excavations at Jéricho, Vol. III : The Architecture and Stratigraphy of the Tell, London, British School of Archaeology in Jérusalem.

KIRKBRIDE (D.)

1966 « Five seasons at the Pre-Pottery Neolithic Village of Beidha in Jordan. A summary », Palestine Exploration Quaterly 98/1, p. 8-61.

1975 « Umm Dabaghiyah 1974 : a fourth preliminary report » : Iraq 37, p. 3-10.

KOZLOWSKJ (S.K.)

1990 Nemrik 9. Prepottery neolithic site in Iraq, Varsovie, Wydawnictawa University Warsawskiego

LE BRUN (A.) (éd.)

1989 Fouilles récentes à Khirokitia (Chypre) : 1983-1986, Paris, Éditions Recherche sur les Civilisations.

1994 Fouilles récentes à Khirokitia (Chypre) : 1988-1991, Paris, Éditions Recherche sur les Civilisations (Etudes néolithiques).

MARGUERON (J.-C.)

1991 Les Mésopotamiens, Paris, A. Colin (coll. Civilisations), 2 tomes.

MELLAART (J.)

1967 Catal Hùyùk. A neolithic town in Anatolia, London, Mortimer Wheeler.

MOLIST (M.)

1998 « Espace collectif et espace domestique dans le néolithique des IXe et VIIIe millénaires B.P. au nord de la Syrie : apports du site de Tell Halula (vallée de l'Euphrate) », M. fortin et O. aurenche (éd), Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (10-2e millénaires av. J.-C), Actes du Colloque tenu à l'Université Lavai (Québec) du 5 au 7 mai 1997. Toronto, Canadian Society for Mesopotamian Studies (Bull. 33), Lyon, Maison de l'Orient Méditerranéen (TMO 28, p. 115-130).

MOLIST (M.) ET CAUVIN (J.)

1991 « Les niveaux inférieurs de Cafer Hôyùk (Malatya, Turquie). Stratigraphie et architectures (fouilles 1984-86) », Cahiers de l'Euphrate 5-6, p. 85-113.

MOLIST (M.) et STORDEUR (D.)

Sous presse « Le Moyen Euphrate syrien et son rôle dans la Néolithisation. Spécificité et évolution des architectures » , International Symposium on thé Archaeology ofthc Upper Syrian Euphrates (Tishrin Dam Area), Barcelone, janvier 1998.

MOORE (A.M.T.), HILLMAN (G. C.), LEGGE (A. J.)

1975 « The excavations at Tell Abu Hureyra in Syria : a preliminary Report» , Proceedings ofPrehistoric Society, 41, p. 50-77.

OZDOGAN (A.)

1995 « Life at Cayônû during thé Pre-Pottery Neolithic Period », Readings in Prehistory, Istanbul,Yazarlar, p. 41-60. (Mélanges H. Cambel).

PERROT (J.)

1968 Préhistoire palestinienne, Supplément au Dictionnaire de la Bible 43, p. 286-446.

SCHMIDT (K.)

1995 « Investigations in thé Upper Mesopotamian Early Neolithic : Gôbekli Tepe and Gûrcùtepe » , Neo-Lithics, 2, p. 9-10.

STEKELIS (M.), BAR YOSEF (O.)

1965 « Un habitat du Paléolithique à Ein Guev. Note préliminaire », L'Anthropologie, 69, p. 176-183.

STORDEUR (D.)

1990 « El Kowm 2-Caracol et le PPNB » , O. aurenche, M.-C. cauvin, P. sanlaville (éd), Préhistoire du Levant, Paléorient, Paris, p. 424-432.

STORDEUR (D.) AVEC LA PARTICIPATION DE T. margueron

1998 « Espace naturel, espace construit à Jerf el-Ahmar sur l'Euphrate », M. fortin et O. aurenche (éd), Espace naturel, Espace habité en Syrie du Nord (10e-2e millénaire av. J.-C.), (Colloque de Québec, mai 1997), p. 93-108.

STORDERU (D.)

1999 « Organisation de l'espace construit et organisation sociale dans le Néolithique de Jerf el-Ahmar (Syrie, Xe-IXe millénaire av. J.-C.) » , F. braemer, S. cleuziou et A. coudart (éd.), Habitat et Société, XIXe Rencontres Internationales et d'Archéologie et d'Histoire d'Antibes. Antibes, APDCA., p. 131-149.

sous presse El Kowm 2 Caracol. Une île dans le désert. Syrie, Néolithique, 8000-7500 BP, Paris, C.N.R.S. Éditions.

VAN LOON (M.)

1968 « The Oriental Institut Excavations at Mureybit, Syria : preliminary report on thé 1965 campaign », Journal ofthe Near Eastern Studies, 27, p. 265-290.

WILLCOX (G.)

1999 « Archaeobotanical évidence for thé beginnings of agriculture in south-west Asia », The Origins of Agriculture and Crop Domestication, éd A. damania, J. valkoun, G. willcox, C. qualset, ICARDA, Aleppo.

ولادة الحواضر والعمران المنظم في منطقة الفرات السورية في الألفين الرابع والثالث

جان كلود مارغرون Jean-Claude Margueron

المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، باريس

يسمح لي هذا العنوان الطويل بأن أحدد لدى دخولي الميدان؛ أهدافي وحدودها. إنه يوضح أن هناك نقاطاً ثلاثاً تشد اهتمامي:

- ظهور الحواضر الأولى في الألفين الرابع والثالث.
- في عالم الفرات السوري.
- من خلال اعتماد نظام عمراني يقدم كل خصائص العمران المنظم.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو معرفة إن كان يوجد وراء تنظيم المدينة العقلاني، أي العمران المنظم، تخطيط عمراني إرادي، الأمر الذي يؤدي، ما أن يحدد تعريف ماهية المدينة، إلى طرح التساؤلات التالية:

1 ــ متى بدأنا نرى في هذا مدناً؟

2 ــ هل ظهور المدن عفوي أم مقصود؟

3 ــ هل يشكل الفرات وروافده اليسرى، بين مخرجه من منطقة الأناضول ووصوله إلى السهول اللحقية في ما بين الرافدين، مركز توليد عفوي، أو علينا اعتبارهما كمنطقة وسيطة بين هذين القطبين وبالتالي خاضعة للتأثيرات الخارجية؟ أو بشكل آخر، أيمكن فصل العمران في الفرات السوري عن الحركة العامة التي تشمل كامل الشرق الأوسط أم يجب أن نرى في ذلك ظاهرة خاصة بهذه المنطقة؟

وهكذا، فإننا نلاحظ أن الرهان ليس بسيطاً ويقود إلى التساؤل إن كان

هناك خصوصية سورية في الظاهرة العمرانية.

نميل في البداية إلى الإجابة بنعم، طالما أن الوثائق الأساسية قد أتت من هذه المنطقة، لكن الضعف العام للمراجع عليه أن يدفعنا للحذر.

نحو تعريف للمدينة والقرية

ليس من أهدافي أن أنطلق في البحث عن تعريف إضافي جديد، أضف إلى ذلك التعقيد في مواقف عدد كبير من علماء الآثار والناجم عن أنهم مازالوا لا يعرفون ما هو المقصود من المدينة أو الحاضرة، وأن المصطلحين الإنكليزيين بين حاضرة ومدينة (City - Town) لا يتطابقان تماماً مع المصطلحين الفرنسيين (Ville - Cité).

سأعتمد من جهتي التعريف الذي يقدمه العمراني ر. مانيان R. Magnan[1] لأنه يندرج في مستوى مفهومّي يسمح بالمواجهة مع القرية. في حين أن هدفنا هو تماماً معرفة متى وكيف تم الانتقال من القرية إلى المدينة وبالتالي ما الذي يجمع أو يفصل بين هاتين المؤسستين. ولا يمكن دراسة هذا العبور بالنسبة لعلم الآثار إلا انطلاقاً من البقايا المادية التي خلفتها وراءها الجماعات القديمة، وهي بقايا قاومت جزئياً أضرار الحت. وهكذا يمكن ترتيب هذه البقايا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في المراتب المعتمدة من قبل ر. مانيان.

«المدينة نظام معقد مكون من مجموعات من المؤسسات المختلفة: عناصر طبيعية، تجهيزات مادية، وعناصر بشرية»: يقدم الأولى لنا الجغرافي، والثانية من نتائج التنقيب، والأخيرة من خلال تحليل الآثار المادية باعتبارها من صنع الإنسان. لا شك أن المصطلح المعقد في هذا التعريف هو «النظام المعقد». ذلك لأننا إن درسنا القرية نجد بشكل طبيعي «العناصر الطبيعية، والتجهيزات المادية، والعناصر البشرية». لكن لا يوجد في الصيغة الأساسية إلا نمط واحد من التجهيزات المادية

[1] انظر الموسوعة العالمية Encyclopaedia Universalis: «Ville» ص 823.

(البيت وأثاثه اليومي) الذي يكرر نفسه، أما فيما يتعلق بالعنصر البشري الذي يمثل هذا العتاد فهو يبقى نفسه، أي المزارع. قد يكون هناك تنظيم فضائي للقرية مثلما هو بالنسبة للمدينة، لكن هذا التنظيم لا يقود إلى الخلط بين هذين النمطين للجماعة.

أخيراً، كيف يمكن لعلم الآثار أن يدرك أنه أمام مدينة أو في وضع انتقالي بين الطور القروي والطور العمراني؟

تُعرف القرية من خلال خاصية تكرار نموذج السكن وغياب التميز بين وحدة وأخرى: النشاطات الاقتصادية متماثلة، متجاورة، واستثمار الفضاء محدود بعمل الإنسان في الحقول التي تحيط بالقرية.

أما المدينة، فهي تقدم أشكالاً معمارية متنوعة ومنظمة بحسب نمط معين، جزء منها متسلسل، بحيث أن التنسيق يكشف عن تنظيم داخلي للفضاء، وغالباً ما يترجم ذلك من خلال فصل النشاطات والوظائف. ولكن! نلاحظ إلى جانب النشاط الزراعي الأساسي وملحقاته (الحرف، التبادل على مستوى متواضع، الدفاع، وجود نشاطات متخصصة، حرف متنوعة ومتخصصة، الجنود، الكهنة، التجار ...) ولكن الحدث الأهم هو نفوذ المدينة الإقليمي، فلم يعد مجالها محصوراً بإقليم متواضع يحيط بالمركز المبني والمسكون، لا بل تعداه ليضم من جهة سلسلة كاملة من الجماعات الفردية التي يقودها المركز العمراني ولصالحه، وليشمل من جهة أخرى شبكة واسعة من العلاقات التبادلية تمتد لمئات الكيلومترات.

وأثناء العبور من الجماعة الفردية إلى الجماعة الحضرية، يمكن أن نشهد كل المراحل الانتقالية، كظهور نموذج ثانٍ ثم ثالث من التجهيزات المادية التي تضاف إلى الأول، وهذا علامة تطور.

إن طريقة علم الآثار هذه لمعالجة مسألة المدينة ونشوئها، لا تهدف إلى أن تكون تفسيراً، فهي ليست سوى ملاحظة يراد منها أن تساعدنا على إضافة شيء من الوضوح للمشكلة.

تطور الوثائق الأثرية

الملاحظة الأولى: يعرّف عنواني المنطقة المعتمدة في هذه الدراسة على أنها منطقة الفرات. إذاً يمكن التفكير في أنني لا أقصد سوى دراسة النصف الشمالي الشرقي من سورية، أي المثلث الذي تحتله الشبكة النهرية، وأنني أترك جانباً معرفة النصف الجنوبي الغربي كأنه ينتمي إلى إشكالية أخرى. في الواقع سندرك تماماً أن الفرات يبدو كعامل أساسي في التحولات وأنه لهذا السبب يركز عليه عنواني ، ولكن يجب أن يكون واضحاً منذ البداية أنه حتى الآن، تعتبر منطقة الفرات الوحيدة التي قدمت الوثائق المتعلقة بهذه المسألة. ومع ذلك، إن لم يكن هناك أي شيء منتظر من البادية أو من الواحات التي تمتد خلف الجبال الساحلية، فإن المسألة لا تعتبر محسومة نهائياً بالنسبة للشريط الساحلي.

إن الكتابات الأثرية[2] قد اهتمت في الآونة الأخيرة كثيراً بنشوء المدن.

---

[2] أرجو أن تعذروني لأنني لم أعط ضمن إطار هذه المقالة المتواضعة كامل المراجع (البيبلوغرافيا) المتعلقة بهذه المسألة، ولأنني لم أذكر سوى الدراسات ذات العلاقة المباشرة بالموضوع المطروح. لنذكر بعض الدراسات الحديثة، حتى وإن كان البعض منها يجعل النقاش غامضاً أكثر ويقوده إلى دروب خاطئة. يجب أن ندع جانباً كتاب شارل ديلفانت Ch. Delfante،
«التاريخ المفضل للمدينة من ما بين الرافدين إلى الولايات المتحدة الأمريكية»، دار أ. كولان، 1997 ، ذلك لأنه يخلط بين المواقع (فقد وضع مخطط خراسآباد على أنه مخطط مدينة نينوى) فهو لا يقوم بتحليل حقيقي، ويوضح الحكايات المختلفة بشكل ضعيف جداً. والتحقيق الذي قام به هـ . فايس H. Weiss : أصول المدن في سورية البعلية والفرات في الألف الثالث قبل الميلاد المنشور عام 1986، هو عبارة عن جمع لدراسات مختلفة تجاوزت مضمون بعضها أعمال التنقيب التي جرت في العشرين سنة الأخيرة، ولكن ما زلنا نجد فيه بعض المعلومات الهامة. أما كتاب ج. ل. هوو J.L.Huot و ج.ب. تالمان J.P.Thalmann ود. فالبيل D. Vallbelle: ولادة المدن، دار ناتهان، 1990 ، فهو عبارة عن مقدمة عامة جيدة لجمهور مثقف. وهناك مقالة نستفيد من دارستها، ولكن دون أن نتفق مع كاتبها على كل النتائج التي قدمها وهي مقالة ج. م. شفارتس G.M. Schwartz «ما قبل إيلا: نماذج التنظيم السياسي لما قبل الدولة في سورية وما بين الرافدين الشمالي» الصفحات 153ــ 174، منشورة في Chiejdoms والدول المبكرة في الشرق الأدنى: دينامية التنظيم وتعقيداته، نشره جيل ستان Gil Stain وميتشل س. روثمان Mitchell S. Rothman ، ومقالة «التخصص الريف الاقتصادي والعمران المبكر في وادي الخابور في سورية» ص 19-36 في كتاب:

ففي البداية كانت تركز على بلاد السومريين وبلاد سوزا، ثم وبشكل متواضع أدخلت منطقة ما بين الرافدين الأوسط ضمن الخطاب الأثري. وبرزت المسألة فيما بعد مع اكتشاف حبوبة كبيرة في سورية منذ نحو ثلاثين عاماً. ومنذ ذلك الحين حاولنا التحقق من اللحظة التي ظهرت فيها المدن وتحديد ماهية التبدلات في اللقى الأثرية التي تسمح بتعريف التحولات.

فما هي أهمية الوثائق التي تسمح لنا بدراسة هذه الظاهرة اعتماداً على هذا الإنتاج العلمي؟

موقع حبوبة كبيرة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد[3]

كان لخبر اكتشاف هذه المدينة، أثناء حملة المحافظة على آثار الفرات، وقع كالقنبلة، لأنه أصبح لدينا للمرة الأولى مخطط لمدينة، غير معروفة حتى ذلك الحين، ولكنها تثبت حقيقة وجود الظاهرة العمرانية في الألف الرابع. ولا نملك حتى الآن كتاباً منشوراً عن هذا التنقيب الأثري، ولكن العديد من الدراسات الجزئية تقدم صورة دقيقة لهذه المدينة في فجر العصر العمراني.

«وجهات نظر أثرية من الريف، الجماعات الفردية في المجتمع المعقد الأول»، نشره ج. م شفارتس و س.إ. فالكونر S.E. Falconer، ومؤسسة سميثسيتان للنشر. ومقالة ر. دولس R. Dolce «مدينة المؤسسة أم مؤسسة المدينة؟» ص 131-164 في كتاب Nuove Fondazioni nel vicino oriente antico –realta e ideologia أشرف على نشره س. مازوني S.Mazzoni، جياردان Giardin ، 1994. إن مقالة ب. ليوني B. Lyonnais الحديثة «استيطان الجزيرة الغربية في مطلع الألفية الثالثة، المدن الدائرية والنشاط الرعوي: أسئلة وفرضيات» ص 179-193، في مجلة Subartu I – IV ، حول Subartu ، دراسات مخصصة لما بين الرافدين الأعلى، الجزء I، شاهد، آثار، استيطان. بريبولس Brepols ، 1998، لم تقم سوى بإضافة التشويش للمسألة من خلال إدخال معطيات لا علاقة لها بالعمران.

[3] مقالة أولية منشورة في MDOG ومقالة إ. سترومنجر E. Strommenger: حبوبة كبيرة مدينة عمرها 5000 عام Von Zabern، منيتس Mainz، 1980.

وقد تم تنقيب مواقع متزامنة مع حبوبة كبيرة في محيطها المباشر مثل جبل عارودا، وشيخ حسن، ومن الجانب التركي هناك موقعا أرسلان تيبي وهاسك هويوك. وهي تسمح بإكمال الوثائق، ولكن المعطيات التي تقدمها لا توفر في الواقع عناصر للتفكير بكتلة عمرانية.

مدينة ماري في مطلع الألف الثالث[4]

كان اكتشاف الخمسة عشر سنة الأخيرة، هو أن مدينة ماري قد أسست في مطلع الألف الثالث، كمدينة جديدة لا كقرية نمت وتطورت تدريجياً نحو المصاف العمراني. ومن ثم ومع تناوب فترات من الازدهار والتقهقر عاشت المدينة لفترة تزيد قليلاً عن الألف عام. لا شك أن الخرائب قد تراكمت وتكدست طوال هذه الفترة لدرجة أن الوصول إلى المستوى الأصلي قد أصبح عسيراً، وكذلك دراسته في بعض المساحات. وقد تم الوصول في الوقت الحالي إلى المستوى الأصلي في 8 أو 9 حفر اختبارية، وتم التأكد من تأسيس الموقع الأصلي بشكل كامل في اللحظة نفسها. لكن التنظيم التفصيلي لهذه المدينة الأولى ما زال غامضاً، على الرغم من أن ظروف تأسيسها معروفة بشكل معقول. لذلك ما زالت مسألة المقاربة الأثرية تطرح نفسها والمعلومات التي بين أيدينا ليست من طبيعة المعلومات نفسها التي قدمتها مدينة حبوبة.

وبالنظر إلى فقر الوثائق التي نملكها، فربما من المستحسن أن يتكامل مصدرا المعلومات، ولكن كنا نتمنى وجود تقاطع جزئي، لأننا لا نستطيع حتى الآن تقدير مقدار التشابهات والاختلافات على المستوى العمراني حصراً.

هل يمكننا أن نأمل بإكمال هذه المعلومات من مصادر مجاورة؟

---

[4] لا يوجد كتب حديثة تتعرض لمسألة أصل المدينة، وهناك عرض شامل قيد الكتابة لصاحب هذه السطور والذي يمكن أن يصدر في عام 2001/2000. وبانتظاره يمكن العودة إلى التقارير الأولية الصادرة في دورية M.A.R.I. الأعداد 1–8 لا سيما المقالة المنشورة في العدد 5: «الوضع الحاضر للبحوث حول العمران في ماري-1» ص 483–498 وج. كلود مارغرون: «ماري، انعكاس للعالم السوري الفراتي في الألف الثالث قبل الميلاد». في دورية Aukadica، لعام 1998 ص 11–25.

ماذا تقدم المناطق الشمالية؟

على إثر الاكتشافات التي تمت في موقع تل شويرا[5] عند أقـدام جبـال طوروس بين نهري البليخ والخابور، أعار علماء الآثار اهتماماً كبـيراً إلـى سفوح جبال طوروس، وهم محقون بذلك، وإلى منطقة نهر البليخ ولا سـيما إلى سهل وادي الخابور.

وقد بدا منذ ذلك الحين أن هذا الكل الإقليمي قد لعب دوراً كبـيراً فـي الألفين الرابع والثالث.

وقد كشف تل براك[6] حديثاً عن أهمية حضارة أوروك في المنطقة كمـا أن التنقيبات الأثرية التي جرت في تل شويرا، وتل ليلان وتل بَيْدَر، قد شـددت على الظاهرة العمرانية في هذه المنطقة في الألف الثالث.

لكن ملاحظة هذه الظاهرة لا تعنى أن هناك وثائق أساسية قـد جـاءت لتكمل معلوماتنا فلم يتم التوصل في هذه الأبحاث إلى أي كشـف ذي أهميـة بالنسبة لأصل المدينة، إن كان في شويرا أو في ليلان، ولا حتى في بيـدر. إذ أننا أمام تنقيبات اختبارية محدودة، وفي الغالب غير واضحة.

من المحتمل تماماً، أن يكون هناك بعض المواقع التي تم التعرف عليـها في أعمال المسح الأثري، لكن في قطاعات مختلف عليها وبالتـالي يصعـب تنقيبها، تأوي معلومات أساسية من السهل الحصول عليـها لأن المسـتويات الهامة موجودة عملياً فوق السطح. أما الآن فعلينا أن نعترف بجهلنا المطبق.

هل يمكن للتوضيح أن يأتي من وثائق جنوب ما بين الرافديـن مـن سومر وسوزا؟

لقد كان موقعا أرك وسوزا أول من سمح بالحديث عن العمران، وقـد دفعت نتائج التنقيب علماء الآثار للتساؤل عن هذه الظاهرة. ففي أرك كما فـي

---

[5] انظر تلخيصاً عن الوثائق في دراسة ڤ. أورتمان W. Orthmann ، تل شويرا، 1995

[6] تقارير أولية في دورية العراق Iraq.

سوزا تم الترقي إلى المستوى العمراني في نهاية الألف الرابعة إن لم يكن أبكر قليلاً.

لكن كيف تعرف هذه المدن؟ لا أحد يعرف: ليس لدينا أية إشارة عن مخطط هذه المدن، أو عن تنظيمها، وبنيتها في الفضاء الذي تشغله. ليس لدينا مخطط لأي حي، ولا حتى لأي بيت، ولا شيء حول النظام الدفاعي. إن معلوماتنا مقصورة على الأبنية الدينية أو العامة.

إن كانت المدينة قد ولدت في جنوب ما بين الرافدين، فعلينا أن نعترف أننا نجهل كل حدث عمراني في هذه المنطقة.

ضمن هذا الوضع في فقر الوثائق، لماذا الحديث عن العمران؟

ولماذا يصر الكتّاب على تجلي هذه الظاهرة في ما بين الرافدين في الألف الرابع، وسرعان ما تبع ذلك إصرارهم أيضاً على امتدادها إلى ما بين الرافدين الأوسط ثم انبعاثها في الألف الثالث في كل مكان ولا سيما في سورية الشمالية؟

في الحقيقة، لقد فرضت بديهية هذه الظاهرة نفسها بشكل غير مباشر. فقد قادت ملاحظة الوقائع الجديدة في أعمال التنقيب إلى التفكير في هذا الميدان كما أن التحليل العقلاني هو الذي أدى أكثر مما هي الاكتشافات المادية إلى هذه النتيجة انطلاقاً من ست ملاحظات أساسية:

1 ـ لقد فوجئ المنقبون بظهور عمارة عالية المستوى في أوروك أثناء المراحل المختلفة من السوية الرابعة: صروح ثلاثية الأجزاء وفاخرة، تطور كبير في الديكور، مصاطب على أعمدة، إلخ. وهي التي أعطت الانطباع بأصالة كبيرة وخصوصاً بحداثة كبيرة. في الواقع، إن الجهل الذي كان يلفنا فيما يتعلق بصروح عهد عُبيد هو الذي يمكن أن يعطي هذا الإحساس. لأنه إن كان عهد أوروك يعبر عن أمور جديدة في ميدان العمارة، فإن المبادئ الأساسية تبقى في السياق والصيرورة المنطقية لعمارة الألف الخامس.

2 ـ إن الرقم الأولى تحمل علامات كتابة تعود إلى تلك اللحظة والأختام الأسطوانية تظهر أيضا في هذا الظرف. إنهما تجليان لتحول جذري في نمط إدارة الاقتصاد: في الواقع أصبحت علامات المحاسبة والملكية ضرورية مع ولادة الأراضي الزراعية التي ترتبط بمركز عمراني وليس فقط بقرية، ومع نمو حركات التبادل بين مركز الانتاج ومركز القرار، وأخيرا مع الحاجة للعثور على المواد في مناطق أخرى بعيدة أو تصديرها إليها، مع الانشغال بإثبات ملكيتها.

لقد أدى حجم هذه الظاهرة إلى تعميم التنظيم الإداري والمالي.

3 ـ كذلك ظهور الفخار المقولب، كالأقداح ذات الشفاه المشدوفة، والذي لفت الانتباه إلى فكرة الإنتاج الكبير. إذ نجد في الواقع وفي سائر أنحاء الشرق الأوسط أقداحا من هذا النمط مع تنوع في الشكل. والتي بشأنها تمرس بإسهاب خيال علماء الآثار. لسنا هنا بصدد الوقوف إلى جانب هذا الطرف أو ذاك فيما يتعلق بالوظائف المفترضة، ولكن فقط للإشارة إلى أن هذا التشابه يدل إما على الانتشار الاستثنائي لمجموعة سكانية ما أو بالأحرى على اعتماد سمات ثقافية خارجية من قبل سكان متجذرين تماما، أو ربما كلا الحالتين. دعونا من الحديث عن العولمة، أو الاقتصاد العالمي، ولكن لنعترف أنها المرة الأولى الذي تلاحظ فيها ظاهرة بهذا الحجم تكشف عن تحول عميق في البنيات الاقتصادية والاجتماعية.

4 ـ إنها أيضا اللحظة التي اخترعت فيها العجلة. لا يهتم عادة كثيرا بهذا الاكتشاف الذي لا يعرف تاريخ ظهوره بشكل دقيق تماما. ومع ذلك فخلال عهد أوروك بدأنا نشاهد العجلات على الأختام الأسطوانية، وهي تحل محل مزالج العربات، إنه اكتشاف أساسي ليس فقط من الناحية التقنية والميكانيكية وإنما أيضا من ناحية النقل، إذ سيوضع قريبا قيد الاستعمال، بالتوازي مع القوارب أو النقل على الظهر، والعربات، وبالتالي لن يظلوا بعد الآن أسرى للطرق المائية.

5 ـ إن مسألة تهجين حيوانات الذبح، المرتبطة بشكل وثيق مع مسألة النقل، تبدو أنها قد عرفت تحولا كبيرا في ذلك العهد. من المحتمل أن العجل قد هجن أبكر من ذلك، ولكنه جرار وليس حمالا (حتى وإن استعمل لهذا

الغرض أحياناً) ولن تصبح له أهمية كبيرة إلا مع تطور العجلة. وفي المقابل يبدو أن الحمار قد هجن في بداية أو خلال الألف الرابع قبل الميلاد وأنه قد عرف أهمية ازدادت أكثر فأكثر في التبادل قبل الألف الثالث.

6 ـ أخيراً، إنها اللحظة التي عرف بها تعدين النحاس والبرونز تطوراً يصعب تقدير أهميته بسبب الكمية القليلة للبقايا التي عثر عليها أثناء التنقيب، ولكن طبيعته تؤدي إلى تحولات عميقة في ميدان العمل والتأثير على المادة. لا يمكن أن نقلل من دوره في التبدلات القائمة.

إنها إذن فترة نرى فيها ازدياد الوقائع الجديدة للحضارة. وقائع ليس لها أي معنى في إطار الحضارة القروية. ولا بد من أن نلحظ، في هذه التجليات المختلفة للنشاط البشري، مؤشرات التحولات الجذرية التي أصابت بمجملها الاقتصاد والبنية الاجتماعية. إن التقنيات الجديدة (البناء، التنظيم الإداري والتجاري، النقل، تحويل المادة، إلخ.) تستدعي تحولاً في التنظيم السياسي.

تقع المدينة بشكل طبيعي في مركز هذا التحول وتأسيسها يترأس كل المستجدات الأخرى.

حين تأكدت الظاهرة العمرانية، كيف تم تفسيرها؟

ليس بإمكاني أن أعالج، ضمن إطار هذه المقالة، كل التفسيرات التي اقترحت من أجل إدراك هذه الظاهرة. سأكتفي إذن بالتذكير بشكل عام، ودون ذكر المؤلفين (لأنهم قدموا مواقف مختلفة قليلاً)، بالخطوط العريضة التي تبقى بشكل عام هي نفسها.

إن معظم النظريات تعتبر النمو الزراعي الكبير هو المسؤول الحقيقي عن العمران. فبسببه كان نمو الإدارة ضرورياً، وازدادت الحاجة للاتصالات البعيدة، الأمر الذي أعاد الحديث عن المفاهيم والممارسات التي أصبحت قديمة، لعلامات التعريف (الختم الأسطواني) وتبادل المعطيات الحسابية (الكتابة).

لقد ارتبط نمو الزراعة مع توسع شبكة الري، إن أولى البحوث عن تهجين المياه قد بدأت في العصر النيوليتي من أجل الحاجات الزراعية: لقد بدا من الطبيعي أن نموها الكبير في الألف الرابع قبل الميلاد يدل على توسع في المساحات المزروعة. وهكذا فقد اعتقد بوجود اقتصاد تعاوني بشكل أو بآخر، مع توزيع الحصص من أجل تغذية الناس المرغمين على العمل في الحقول وغيرها، إن مقياس الحصة قد تم الحصول عليه بالقصعة الشهيرة ذات الحافة المشدوفة.

وتطورت حينئذ مراكز إدارية، وأصبحت تدريجياً وبشكل طبيعي مدناً.

نلاحظ تماماً كم يدين هذا التفسير للفكرة التي تعتبر أن الزراعة هي مقياس التغيرات الكبرى التي حصلت في الشرق الأوسط. إن خلق المدن ليس إذاً سوى الانمساخ النهائي لاكتشافها، وهو في الحقيقة نوع من نتيجة حتمية سمحت إدارة نظام الري بدفعها إلى ذروتها.

لقد بحثنا من خلال النمو الزراعي أيضاً عن سبب ظهور المدن في وادي الخابور ، مع تأخر لبضعة قرون مقارنة بمنطقة ما بين الرافدين الجنوبية. لم يكن الري ضرورياً هناك، حتى وإن كان قد استخدم في بعض الأحيان: لاحظنا إذن تطور زراعة بعلية، ومكثفة، وكان يمكن للأسباب نفسها مع بعض التأخر أن تنتج التأثيرات نفسها، مادام هناك مراكز إدارية قد ولدت وتحولت إلى مراكز عمرانية اعتباراً من هذه اللحظة، أي بحدود نهاية النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد.

أخيراً هناك طرح جديد يقترح تفسيراً لمرتبة خاصة جداً من المدن التي نصادفها في وادي الخابور والتي يجب أن تضاف إليها ماري[7]. إن هذه المدن ذات المخطط الدائري، التي تدعى غالباً كرانز هوغل Kranzhugel يمكن أن تكون قد اكتسبت شكلها من وظيفة أساسية كزرائب للماشية. إذاً إن تربية المواشي، ذلك الجانب الخاص من النشاط الزراعي، والذي تعتبر ممارسته مقتصره على البدو الرحل، هي التي أنجبت هذه المدن.

---

[7] على العكس مما يقول ب. ليوني B. Lyonnet، 1998، ص 180، من المستحيل تشبيه ماري بسلسلة كرانز هوغل : فلا ، يسمح بذلك لا الأبعاد ولا البنية ولا الوسط الجغرافي.

نلاحظ مسبقاً التناقض الذي ينتج عن هذا التفكير بأن الرحل سيكونون مؤسسي المدينة[8]، ولكن من جانب آخر نتساءل كيف يمكن لزريبة ماشية أن تمتلئ بالمنازل وتتهيكل لتعطي المدينة وأنظمتها. ولكن لنقل الحق، ليس هناك أي كرانز هوغل قد نقب بما يكفي في منطقة الخابور كي نستطيع أن نتحدث الآن عن أصوله، وتقدم ماري دحضاً صريحاً لهذا الطرح الذي لا يعتمد، ويجب ذكر ذلك، على أي حجة أثرية جدية.

أخيراً، إن الذي يتيح إقصاء معظم هذه الأنظمة، هو أنهم لا يعتمدون في الواقع على نموذج لأية مدينة من منطقة ما بين الرافدين في سورية. سنعود إلى ذلك لاحقا.

يبدو لي أن هذه الأطروحات تحث على بعض التعليقات. لست من أنصار فكرة الاقتصار الكلي لدور الزراعة، لكنني لا أعتقد أن بإمكاننا اعتبارها المحرك الرئيسي للثورة العمرانية. إن دورها هو في الواقع غير مباشر.

مسألة الفائض

تتكرر مسألة الفائض بشكل دائم في التفسيرات. لكن هل تم تناولها من الجانب الصحيح؟

لأنه، وفي خاتمة المطاف، إن كان بالإمكان إدخال تطور شبكة الأقنية في بلاد سومر (انظر لاحقاً) لتفسير القفزة النوعية والكمية التي سمحت بالمرور من مرحلة الإنتاج القروي إلى إنتاج ذي صفة رأسمالية مع فائض للتصريف، فلا شيء من هذا القبيل يتواجد في سهل الخابور.

ألا يجب التساؤل عن الطريقة التي تم المرور فيها في لحظة ما من الإنتاج الضروري والكافي للجماعة إلى إنتاج يزيد عن حاجات هذه الجماعة لدرجة يتطلب فيها خلق إدارة لتوجيه هذا الفائض؟ كيف يمكن لنظام إنتاج اقتصادي قائم على الاكتفاء الذاتي والاستهلاك الذاتي (زراعة ـ ماشية)، نظام قائم منذ آلاف السنين دون أن يخلق مدناً، أن يؤسسها فجأة دون أن

[8] حتى وإن كان التاريخ يقدم لنا نماذج خاصة جداً لا يمكن أن تعتبر في أي حال من الأحوال معيارية.

يتغير وأن يتوصل إلى إنتاج زائد وإلى ولادة ظاهرة معقدة كظاهرة المدينة؟ أو بشكل آخر، هل تكفي نهضة الإنتاج، دون دافع واضح، إلى تغيير المعطيات؟

ألا يجب فعلاً اعتبار أن زيادة واضحة في الإنتاج هي في الواقع رد يتوافق مع حاجة أخرى؟ وبالتالي ألا يجب التساؤل عن هذا الأمر الذي دفع بالمزارعين إلى اعتماد الزيادة في الإنتاج بالمقارنة مع حاجاتهم الآنية، إن لم يكن هناك ضرورة للدفع، أي للتبادل؟

يمكن لنهضة الإنتاج الزراعي أن تكون قد استجابت للسعي عن وسائل الدفع للحصول على مواد أخرى كانت منطقة ما بين الرافدين بأشد الحاجة إليها.

مسألة الأقنية

هناك أمر آخر يلعب أيضاً دوره في كل التفسيرات، إنه النمو الكبير للقنوات المائية في الفترة التي صاحبت أو سبقت بقليل ولادة المدن.

لماذا هذا النمو؟ إن التفسير المعتاد هو أن الأقنية قد جلبت الماء إلى الحقول وبالتالي سمحت بزيادة المساحات المزروعة.

لكن يبدو لي أن هذا التفسير غير كاف. فعلينا أن ندرك أن القناة قد لعبت دوراً أساسياً في عملية النقل ونموه في الوقت الذي لم تكن فيه العجلة موجودة. لقد كانت الطريق المائية أساسية في نظام التبادل. ويلاحظ أنه عندما تكون المعطيات كافية أن الطريق المائية ليست حاضرة فقط في عملية ولادة المدن الأولى، ولكنها عنصر أساسي وحاسم أيضاً. ومن جهة أخرى نعرف تماماً أن ولادة المدن في أوربا القروسطية، في القرنين العاشر والحادي عشر، قد ارتبطت بشكل مباشر بالشبكة الهيدروغرافية.

ومع ذلك يوجد هناك استثناء كبير: تبدو إيبلا كمركز تجاري هام في منتصف الألف الثالث ق.م، في حين أنها لا تقع على نهر وتجارتها كانت تتم

بواسطة قوافل الحمير. لا مجال هنا للحديث عن هذه الحالة السابقة للمدن التي تهمنا.

أتساءل ببساطة إن كان يجب اعتبار إيبلا كمدينة في حين أننا لا نعرف بالنسبة لهذه الفترة سوى قسم من القصر: ألا يمكن أن يكون هذا البناء، مع أنه ينتمي إلى عمارة القصور في ذلك العهد، بالأحرى مركزاً بسيطاً لإدارة القطعان التي ترتحل في البادية المجاورة، أو مركزاً لانطلاق القوافل وليس عنصراً من مركز عمراني عادي؟ ربما تسمح بقية الاكتشافات في هذا الموقع بتأكيد أو نفي هذه الفرضية.

على كل حال من المناسب أن نتذكر أن القرية كانت تحتاج في العهد النيوليتي لمصور مائي. من أجل تأمين حاجياتها اليومية أولاً، ولحقولها عندما تكون خارج مجال الزراعة البعلية، وأخيراً، وبشكل عارض فقط، كطريق للنقل لأن التبادلات لم تكن قد تطورت بعد وكانت مقتصرة بشكل عام على استعمال طرق النقل الطبيعية.

وبالتالي إن نمو شبكة الأقنية الكبيرفي الألف الرابع لا يلبي فقط هدفاً زراعياً، وإنما أيضاً حاجات المبادلات.

وفي نهاية هذه المقاربة، الطويلة قليلاً، مع أنها ضرورية حتى لا ننقل إلى ما يتبع من أقوالنا أطروحات ضعيفة الأساس، هل بالإمكان تحديد الأسباب التي أدت إلى تحول القرية إلى مدينة؟ ربما يكون الجواب ضمن الدراسة القليلة التفاصيل للوثائق الأثرية التي نملكها حول حبوبة كبيرة وماري.

حالة حبوبة (الشكل 1):

حبوبة ليست حالة استثنائية، مادام قد نمى من حولها كما رأينا في نفس العهد مراكز مثل شيخ حسن وجبل ارودا.

لكن هناك اختلاف كبير جداً بين هذه المراكز: فحبوبة، وإن كانت لم تُكشف كلياً، يمكن أن تعتبر من نواح عديدة كنموذج.

ليس هناك مجال هنا لتحليل مفصل ولكن للتذكير بكل بساطة بالعلامات الرئيسية للموقع، تلك التي تؤكد خصوصيتها.

1 ــ إنها مدينة مؤسسة وقد عرفت منذ البداية التنظيم الذي عرفناها به.

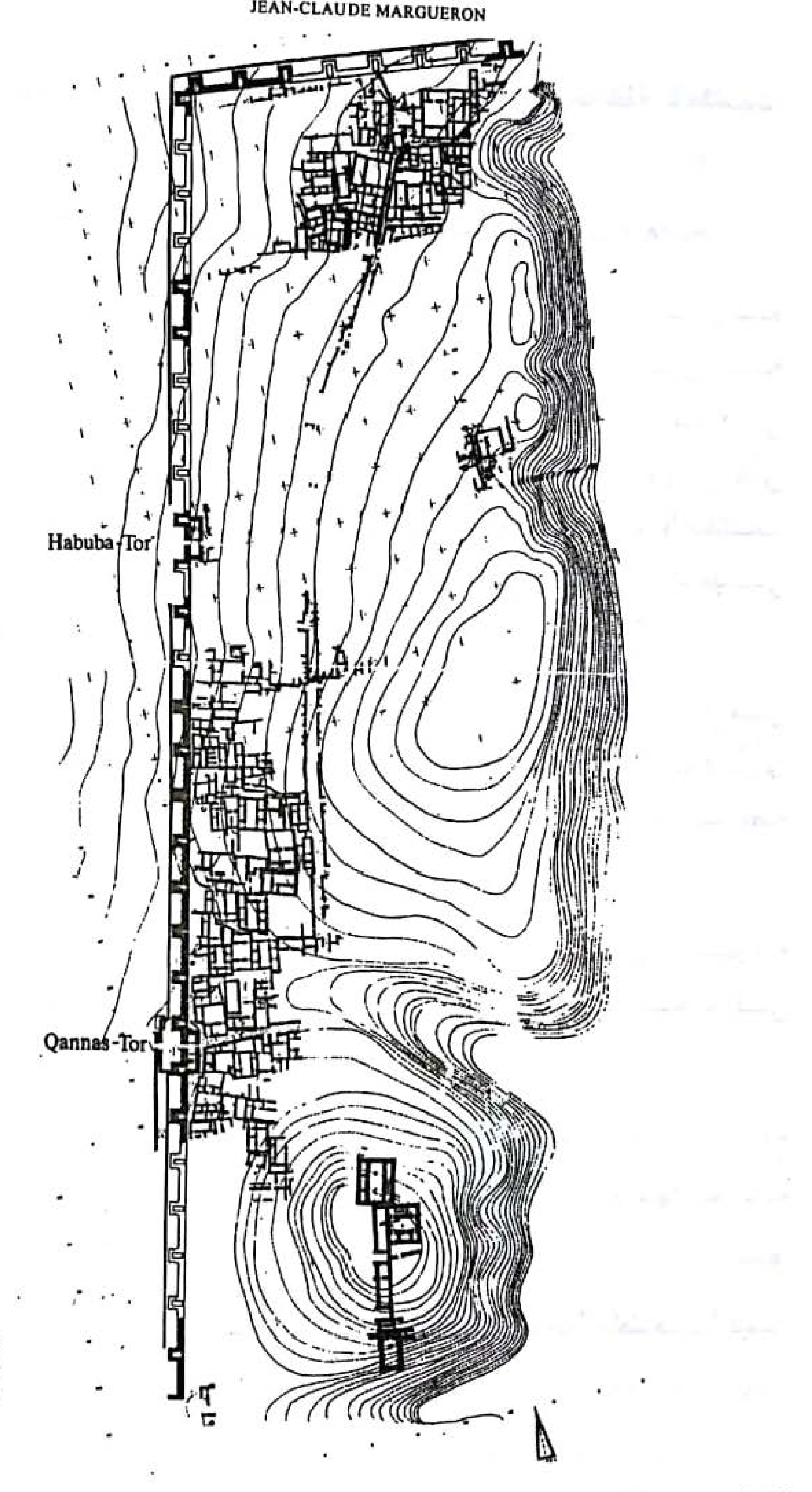
2 ــ وفيما يتعلق بالبنية العامة، حتى وإن كان المخطط الداخلي لم يرسم بشكل منتظم. فإننا أمام نظام متناسق منظم حول محور رئيسي يتجه شمال-جنوب، لقد فكر البعض أن الحالة المكشوفة بالتنقيب لا تقدم في الواقع الحالة الأساسية، إنها نقطة لا تبدو أكيدة على الإطلاق، ولكن في جميع الحالات، إن كان هناك تطور، فإن الوضعية الأخيرة لا تختلف كثيراً عن الأصلية. فهناك شوارع ثانوية تتصل بالمحور الرئيسي للشوارع وتخدم بيوت السكن أو أبواب المدينة.

3 ــ وباتجاه الجنوب هناك قطب يسيطر بشكل واضح، إنه نوع من أكروبول صغير: ويعتقد عموماً أنه معبد المدينة. أما أنا فأرى بالأحرى، ولأسباب لا أستطيع أن أتعرض لها هنا، أنه مركز السلطة حيث لا شيء يثبت أنه ذو طبيعة دينية.

4 ــ يلعب النهر بشكل واضح دوراً هاماً: إنه يحتل كامل الخاصرة الشرقية حيث كما يبدو كانت القوارب تستطيع أن ترسو ومن ثم تسحب إلى الشاطئ. إنه يعطي أيضاً اتجاهه للهيكل الأولي.

5 ــ إن المدينة محمية من جانبها الشمالي والغربي بسور كبير وأبراج منتظمة، والكل مسبوق بجدار بسيط، وهناك بابان على الواجهة الغربية كانا يؤمنان العلاقات مع الخارج.

6 ــ إن بيوت السكن غير متجانسة، ويمكن أن نبين تسلسلاً واضحاً فيما بينها.



الشكل 1: حبوبة كبيرة.

كيف يمكن أن ندرك هذه القسمات؟

- إن تسلسل السكن يفترض تسلسل المجتمع.
- إن الشوارع المتسلسلة مؤشر لهيكلة مقصودة للفضاء.
- تعبر الأسوار عن حقيقة نظام دفاعي جماعي، ربما كان يسيطر عليه فرقة متخصصة.
- يعبر النهر وأبواب المدينة عن اللقاء بين شبكة للاتصالات يشارك بها في الوقت نفسه الطريق المائي والطريق البري، وهنا تجد التجارة أقوى تعبير لها.
- الأكروبول هو مركز السلطة أياً كانت طبيعته.

ها هي الخصائص الأساسية للمدينة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وهكذا علينا ألا ننسى أن حبوبة هي في آن واحد أقدم مدينة منقبة ومعروفة، ولكنها أيضاً مدينة مؤسسة. وبشكل آخر، أقدم نموذج عن العمران المنظم.

من الواضح، وهنا نحن أمام خاتمة على قدر كبير من الأهمية: أن التصور العمراني متكون مسبقاً في المجتمع في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. فقد كان سكان أوروك مدركين تماماً ما كانوا يريدونه عندما بنوا هذه المدينة على ضفاف الفرات، وربما بعيداً عن قاعدتهم.

نموذج ماري

سيكون التقديم سريعاً هنا أيضاً، ومن أجل تحليل دقيق ومفصل يجب العودة إلى الدراسات المتخصصة[9]. مظهران سيقدمان على التتابع.

في البداية سنتعرض للمدينة نفسها (الشكل 2). لا بد من التذكير أنها تقع في وسط جاف، فلا تتلقى ماري أكثر من 140مم من التهطال سنوياً، إذاً نحن بعيدين عن الـ 250 مم الضرورية لممارسة زراعة بعلية. وبالتالي فإن

---

[9] انظر ما سبق رقم 4.

شروط اختيار هذا الموقع بالذات تطرح مشكلة.

لقد سمحت البحوث الأثرية بتعريف البعض من هذه الخصائص الأصلية.

1 ــ إنها مدينة ذات مخطط دائري. وهو مشوه حالياً لأن الحت والتعرية قد قطعا منه ما يقارب الثلثين.

2 ــ إنها مدينة مؤسسة بشكل إرادي (المخطط والتنظيمات الجماعية تؤكد ذلك، دون أي تردد) بحدود نهاية السلالة القديمة (DAI)، وربما في بداية المرحلة اللاحقة (DAII)، أي نحو 2900–2800 ق.م.

3 ــ إنها بعيدة بوضوح عن النهر، ولكنها ترتبط به بقناة وصل، كلها مصطنعة بالتأكيد. تقع المدينة في الواقع على المصطبة الهولوسينية* التي لزم حفرها بعمق للسماح بإنشاء القناة.

4 ــ المدينة محمية بواسطة حاجز دائري منح شكله للمدينة وأبعادها (قطره 1.9 كم).

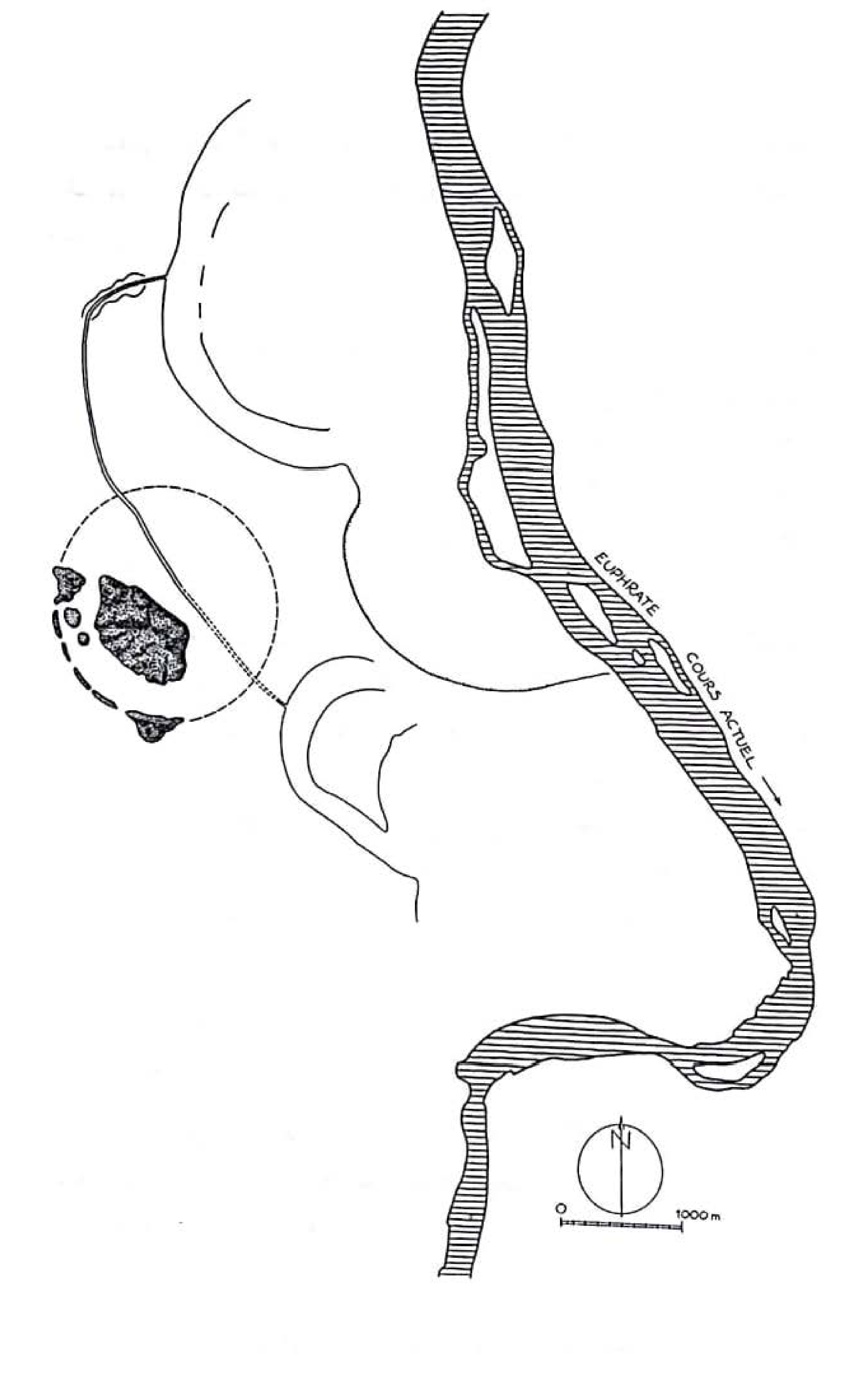
5 ــ هناك سور عريض جداً مؤسس على ركيزة من الحجارة يبلغ ارتفاعه من 1.6 إلى 2 م وسماكته بحدود 8 م، وهو يحيط بالمدينة الداخلية مما يسمح بوجود فضاء إكليلي بين السور والحاجز، فضاء يمكن أن يكون قد استخدم للبساتين، وحتى للأكواخ.

6 ــ لم يتم أي كشف كبير لهذه المدينة الأولى، ما عدا أسفل معبد عشتار، لكن هناك حُفر اختبار أخرى قد كشفت عن السوية الأصلية.

لقد كشفت أعمال التنقيب المختلفة عن بعض بيوت السكن المجزأة بالأحرى، والمخطط الناقص للأساسات الحجرية لصرح كبير (تحت معبد عشتار) وفضاء واسع مخصص للنشاطات الحرفية ولا سيما التعدين تحت الفضاء المركزي للنطاق المقدس.

---

* آخر فترة من العهد الجيولوجي الرباعي. (المترجم)



الشكل 2: موقع مدينة ماري بالنسبة للفرات.

نتمنى الحصول على معلومات أكثر حول هذه المدينة الأولى التي ما زالت موثقة بشكل محدود جداً، ولكن مع ذلك يمكن استخلاص صفتين مميزتين:

1 ـ إنها مدينة مؤسسة، إذن فهي منشأة بشكل مصطنع كلياً، ضمن إطار برنامج تنظيمي كبير، فالمدينة وحدها فقط قد احتاجت لأعمال إنشائية هائلة استخدم فيها آلاف الرجال. لقد احتاج الأمر في الواقع إلى رفع الحاجز المحيط بها، وربما تم بناء جدار فوقه، بارتفاع 3 م وعلى مسافة تبلغ 8 كم تقريباً، وتأسيس سور المدينة، أي كتلة الحجارة والطوب السميك الذي يبلغ ارتفاعه 8 م وعلى طول 5.65 كم تقريباً. وأخيراً حفر قناة تتصل بالنهر بطول 8 أو 10 كم.

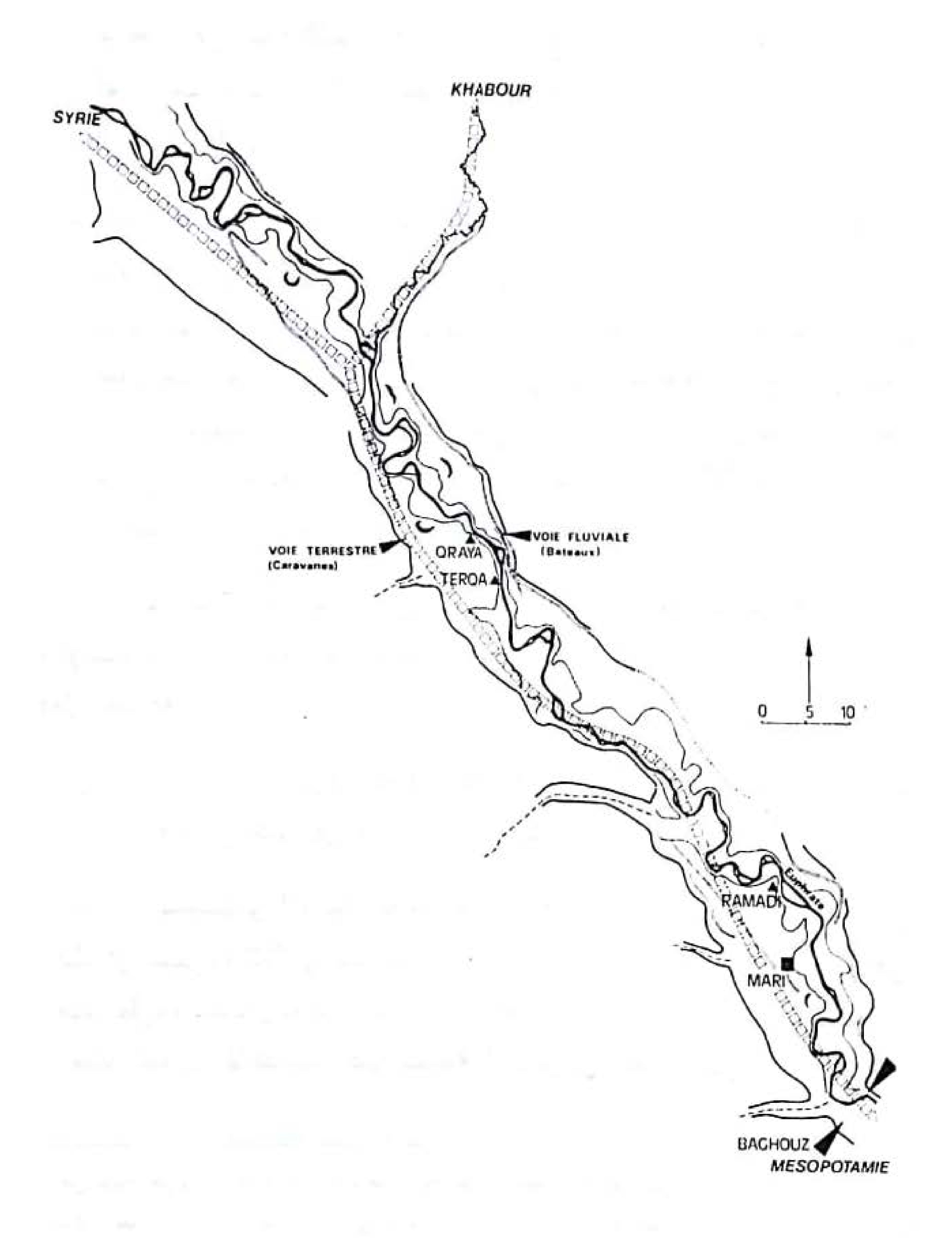
2 ـ إنها مدينة تضم نشاطاً حرفياً هاماً تشهد عليه بآن واحد الأفران والمواقد التي تم الكشف عنها تحت النطاق المقدس فوق سماكة بحدود 4 م. أي فوق كامل وجود هذه المدينة الأولى، والمنشآت التي تم التعرف عليها بالقرب من السور، ويأتي النشاط التجاري ليدعم الحرف، لأنه كان لا بد من استيراد المعدن والفحم الخشبي الضروريين للتعدين، بينما يشهد الاتصال المقام مع الفرات عن العلاقات التجارية أيضاً وحاجة المدينة لأن ترتبط بشدة بالنهر، وأخيراً من أجل معيشة سكانها كان لا بد من إنشاء شبكة للري في الوادي.

تلاحظ أهمية هذه المدينة الواقعة على هذا الشريط الأخضر مدركين حجم الأعمال التي لزمت لتأسيسها. كان لا بد لهذا الرهان أن يكون عظيماً!

إن موقعها على الفرات يستدعي وجود مراكز اقتصادية على قدر معقول من الأهمية في عالية النهر، أي في سهل الخابور، وأيضاً بلا شك في سورية الغربية. إن كانت هذه المراكز لم تكتشف بعد فهذا لا يلغي الخاصية الأساسية لهذا الاستنتاج.

لكن أهمية ماري في مطلع الألف الثالث لا تُستقرأ فقط في تحليل معالمها العمرانية بالمعنى الحصري للكلمة. ففي الواقع، إن المسح الأثري

الذي قام به أفراد البعثة الأثرية التي يديرها برنار جـــاير B. Geyer وجـــان إيف موشامبير J. Y. Mochambert قد سمحت بقيـــاس الدرجـــة الاســـتثنائية للاندماج بالنسبة لمدينة جديدة في وسط سبق إعماره.



الشكل 3: الطرق النهرية والبرية في منطقة ماري.

لقد ركزت اكتشافات المسح الأثري بشكل أساسي على نقطتين (الشكل 3):

1 ـ إنشاء قناة للري على الضفة اليمنى كانت تتزود بالمياه بحسب كل الاحتمالات من بحيرة سد مقام على وادي السواب وكانت تعمل بشكل عرضي في نهاية الشتاء وفي بداية الربيع. إن وجود السكان الحضر الذين يجب تأمين غذائهم وشبكة الري لخدمة أغراضهم يبرر تماما هذا التنظيم المائي.

2 ـ وجود قناة للنقل المائي، بطول 120 كم، موصولة بنهر الخابور وتلتقي بالفرات على مسافة لا تبعد كثيرا عن حاجز بوغوز / أبو كمال. ومما يؤكد أنها قناة للنقل، هو أن عرضها، الذي يبلغ 11م، هو نفسه على طول مسارها. ليس هناك ما يساعد على تثبيت موثوق لتاريخ تأسيسها، ولكننا نتمسك بفكرة أن هذه القناة هي العنصر الوحيد الذي يبرر إنشاء ماري. وإن لم نعتمد عليها، فلا نعرف كيف نفسر التأسيس الإداري لمدينة في وسط معاد بشكل خاص.

إن حاولنا تأسيس علاقة بين بعض المعالم الطبوغرافية للوادي والإنشاءات البشرية، فسوف نصطدم بوجود بعض الروابط التي لم تنتج عن فعل الصدفة:

- إن موقع العشارة / طرقة يقع في موضع يتضيق فيه الوادي نسبيا بحيث أن مراقبة عبور النهر في هذا الموضع أسهل من الأماكن الأخرى.

- يوجد عند مستوى البوكمال حاجز حقيقي: فجرف باغوز يجاري الشاطئ الشرقي للنهر، وتتلاشى الهضبة الغربية عند ضفته الغربية. ومن السهل في هذه الظروف بشكل خاص القيام بالمراقبة عند هذا المكان حيث، بسبب انعدام المجال، لا بد لقناة على الضفة اليسرى أن تلتقي بالنهر[10].

---

[10] من جهة أخرى وانطلاقا من هنا، من جهة أخرى يصبح الوادي أكثر جفافا وضيقا، الأمر الذي ينقص إمكانيات عمليات الري المثمرة: فليس هناك ما يكفي من الفضاء لتأمين زراعة لصالح سكان حضر ذوي كثافة معينة. سيكون من المفيد معرفة إن كانت هناك أقنية موازية للنهر قد نبتت ما بعد حاجز باغوز، لكن البحوث لم تتوجه بعد بشكل كاف إلى هذه المنطقة.

إن هذه الملاحظات تسمح كما أعتقد باقتراح السياق التاريخي التالي ضمن إطار نظام للعلاقات التبادلية الفعالة تستخدم المحور النهري بين منطقة ما بين الرافدين وسورية:

1 ــ لقد تم تأسيس رقابة أولى على النقل في طرقة بسبب الشروط المناسبة للمراقبة، فهذه المدينة تقع على مسافة قليلة قبل الالتقاء مع نهر الخابور. تتوافق هذه المرحلة بالتأكيد مع طور كانت تسيطر فيه العلاقات مع الخابور.

2 ــ ربما استدعى الأمر تنظيماً للمجرى النهري بسبب نمو حركة النقل، فإنشاء القناة لا يتضمن سوى المنافع:

- تنقيص مسافة الطريق (120 كم عوضاً عن 160-170 كم).

- صعود سهل بسبب اختفاء الأكواع النهرية التي كانت عائقاً جدياً، إذ كان لا بد من تبديل الضفة عند منتصف كل كوع، مع خسارة جزء من الجهد في كل عملية تبديل، هذا الجهد الذي تحتاجه عملية سحب القارب.

- إمكانية تجميع المياه في فترة تناقص المياه الصيفية، هذه المياه التي كانت تنزع إلى التشتت في المجاري الصغيرة العديدة.

3 ــ كان لا بد من نقل مركز المراقبة بسبب طول القناة المنشأة التي لم يعد من السهل مراقبتها من موقع طرقة: وهكذا كان تأسيس مدينة ماري الواقعة في مكان حيث يسمح القرب من باغوز ــ مكان هو على الأغلب مركز للمكس* والمراقبة ــ بإرسال القوارب التي تسبب المشاكل إلى العاصمة. أضف إلى ذلك أن موقع المركز الجديد يساعد على مراقبة مرور القوافل التي كانت لأسباب عملية تفضل الضفة اليمنى.

في هذه الظروف، يبدو تأسيس ماري وكأنه وثيق الارتباط بتيار كثيف للتبادل بين ما بين الرافدين وسورية، لكن هذا النظام قد تطور مع الزمن:

---

* مكان على طريق للمراقبة ولتحصيل رسم المرور أو العبور. (المترجم)

- في البداية، إن العلاقات المسيطرة هي تلك القائمة مع منطقـــة الخـابور، وعلى الأغلب بسبب هذا التيار أسست مدينة ماري الأولى.

- ثانياً، لا بد أنه أضاف إلى مجال الخابور التجارة مع سورية الغربية، حيث اكتسبت إيبلا أهمية كبيرة، لكن مدينة ماري الثانية هـــي المعنيـــة بذلـك وليست الأولى.

صورة مدينة مشرقية بين عامي 3500 و 2800 ق. م

بالاعتماد على الخصائص التي قدمتها لنـــا حبوبـــة كبـيرة ومـاري، المدينتان الوحيدتان المعروفتان، نستطيع أن نقترح هذه المقاربة الأولى، مـع كثير من الحذر ومع التشديد على أن أي اكتشاف جديد مأمول! قد يؤدي إلـى تعديل هذه الرؤية.

ففي العهد الذي ولدت فيه المدن وأثناء «انتشار»[11] الظاهرة:

- كانت المدينة نتيجة لفعل تأسيسي، فالنماذج الأثرية تبين أنها ليست قريـــة تتغير نحو الصّفة العمرانية، لكن هذا لا يعني أن ليس هنـــاك أيـــة قريـــة تتحول، ــ باغورا XII[12] ــ من قبل، يمكنها أن تضعنا أمام حالة وسـيطة، غير أن الوثائق الأثرية لم تعط بعد نماذج موثوقة. لا سيما في الفترة التـي تهمنا.

- تتحصن المدينة محيطة نفسها بنظام من التحصينات.

- تصنع المدينة مواد أولية جلبتها من أماكن بعيدة.

- المدينة في وضعية تسمح لها بالمساهمة في التبادلات، وفي الواقع هذا هـو السبب الأول لولادتها.

- تضم سكاناً متسلسلين

- إنها مهيكلة حول قطب إداري يملكه صاحب السلطة، وهو متكافل بشدة مع

[11] هل هناك حقاً انتشار؟ أليس من الأحرى أن نفكر أن الظاهرة قد برزت للوجود تقريباً في كـل مكان حيث تكون الظروف الاجتماعية والاقتصادية قد نضجت؟

[12] انظر أ.ج. توبلر A.J. Tobler تنقيب في تيب غاورا، الجزء الثاني، 1950، اللوحة 8.

العالم الديني، لكن ليس بالضرورة أن تختلط السلطة بالدين.

- إنها تسيطر على مجال وإقليم نوعاً ما، إن طول القناة في ماري الذي يبلغ 120 كم يعطي الأبعاد الدنيا للمملكة مع الهيمنة على منطقة لقاء الخابور مع الفرات، في الواقع، يبدو أن السيطرة الإقليمية لمدينة ماري كانت تمتد إلى أبعد من ذلك، لكن ليس لدينا أي وسيلة لتقدير ذلك، أما فيما يتعلق بحبوبة، فإن أهميتها كبيرة لدرجة أننا نستطيع القول مسبقاً بأنها لابد كانت تسيطر على كل إقليم الفرات المنعطف وأن مواقع المنطقة كانت خاضعة لسلطتها على الأقل في أوج قوتها.

هناك بعض الملاحظات التي تسمح بالإحاطة بالظاهرة العمرانية التي تعبر عنها حبوبة كبيرة وماري في بدايات العهد العمراني:

* يمكن أن نذكر على سبيل المثال، عدم وجود أي تردد في وضع مخطط هاتين المدينتين الذي يتطابق دوماً مع منظور واضح للتقسيم المجالي.
* تتوضح الوظائف الرئيسية بجلاء، لأنه في هذه المدينة أو تلك يتعلق الأمر بلا ريب بعملية تأسيس وأن الأهداف معرّفة بشكل واضح بالإضافة إلى الوظائف.
* إذاً من الممكن وضع معادلة نموذجية: تأسيس إرادي يعطي وظائف إرادية.
* يمكن أن نذكر أيضاً أن كل موقع قد اعتمد شكلاً هندسياً مختلفاً: المستطيل والدائرة. يشدد هذا التنوع على غياب القوالب المتكررة، حتى وإن كانت بعض النماذج قد تم تفضيلها في لحظة ما.
* أخيراً، من الواضح أن تأسيسات كهذه لا يمكن تفسيرها إلا ضمن حضارة حيث المدينة مدمجة عقلياً بكاملها.

كل هذه العلامات تدفعني في الاتجاه نفسه: إنها إشارات لاندماج الظاهرة العمرانية في النفسية الجماعية. وفي هذا برأيي خلاصة جوهرية إن أردنا أن ندرس بطريقة فعالة مسألة ولادة المدن.

مع ذلك، تترجم هذه المدن على الأغلب أوضاعاً مختلفة، ودون أن نكون

واثقين من هذه النقطة، يمكن أن تكون حبوبة كبيرة نوعاً من التأسيس الاستعماري تم تخفيفه انطلاقاً من مراكز أوروكية جنوبية، وفي هذه الحالة، لا يبرهن هذا النموذج أن العمران قد شمل سورية بشكل طبيعي في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. في المقابل، يبدو تماماً أن تأسيس ماري قد كان نتاجاً للوسط، الذي يتميز بتلاقي الخابور مع الفرات، أي أنها إنتاج محلي.

لكن على كل حال، فلا الزراعة ولا تربية الماشية في منطقة الفرات هما اللذان أوجدا الظاهرة العمرانية، إنهما بالتأكيد نشاطان أساسيان وضروريان في نظام تنموي معقد، لكنهما لا يخلقان المدن. سأجمع في ثلاثة فئات النتائج الأساسية التي تعرضنا لها نوعاً ما وبطريقة مبعثرة في هذه الصفحات.

نماذج خلق مدينة في أصول العهد العمراني

إن الوثائق التاريخية الأثرية، التي لا تقدم لنا سوى نموذجين للمدينة في فجر العهد العمراني، تبين بوضوح أن المدينة تظهر إما بترحيل السكان إليها وتأسيسها، وإما بواسطة نضوج داخلي، بالإضافة إلى عملية تأسيس في هذه الحالة.

أين يمكن التعرف على حالة الترحيل؟ لا ريب في عملية تأسيس حبوبة كبيرة إن كانت أوروك ومنطقتها هما الفاعلين.

إن تمت الموافقة على المخطط التاريخي المقترح لمنطقة الفرات الأوسط، فربما يمكن الاعتراف بوجود تأسيس تم بنقل السكان من طرقة.

لكن هذا التصور شكلي جداً بلا ريب ونحن في الحقيقة أمام نموذج لنضوج داخلي، لكنه يغطي فترة طويلة من الزمن: فطرقة بالذات يمكن أن تكون مدينة مؤسسة كما يشير إلى ذلك على الأغلب وجود الأسوار منذ بدايات المدينة[13]، ربما أن هدفها، بالإضافة إلى وظيفتها كميناء في الوقت

[13] CF. Buccellati G. et Kelly – Buccellati M., «Terqa Preliminary report n 6: the third Season, Introduction and the Stratigraphic Record», Syro – Mesopotamian Studies 2-6, Malibu, Undena Publications, 1978, P. 19-22, fig. 7; G. Buccellati, Terqa Preliminary Report 10, the Fourth Seasons: Introduction and the Stratigraphic Record, Bibliotheca Mesopotamica, 1979, P. 76 et pl.19.

نفسه، كان بلا شك مراقبة النقل البحري. فيبدو من المحتمل تماماً أنها كانت ثمرة لاستثمار المنطقة، في فترة لاحقة على إثر الأعمال التنظيمية للمنطقة وبناء قناة النقل المائي على الضفة اليسرى، إنها المدينة الأولى التي تأسست في الوادي، أي طرقة، والتي أسست ماري، لأن موقعها لم يعد يناسب المتطلبات الإقليمية الجديدة. إذاً كان هناك عملية تكوين متسلسلة مثلما التوسع الاستعماري الإغريقي الذي يعطينا أمثلة عديدة عن ذلك. لكن القدرة الخلاقة كانت على ما يبدو منطقة ماري بالذات، وفي هذه الحالة يمكن الحديث عن صيرورة محلية.

هناك ملاحظة أخرى أيضاً: يتطلب تأسيس ماري وجود مدن في مناطق أخرى، لأن الثقافة العمرانية لم تستطع الظهور إلى الوجود في ظروف مثل ظروف ماري، فأثناء تأسيسها كان هناك مدن في عالية النهر وأسفله، لأنه كان يوجد في تلك الفترة مراكز عمرانية في وادي الخابور: يجب إذاً العثور عليها.

إن علاقات التبادل هي التي أوجدت حبوبة كبيرة وماري، فلا الزراعة، ولا تربية الماشية هما اللتان أوجدتاهما. فإن تفحصنا وضع كل منهما وبيئتيهما فإننا سنتوصل إلى ملاحظتين:

1 ـ تبين الأولى: أن الظروف الخاصة بالعطفة الكبيرة للفرات لا تسمح بالتفكير أن هناك رجالاً قد استطاعوا المجيء من بلاد سومر لاستيطان هذا الجزء من الوادي بهدف الاستثمار الزراعي. من المؤكد أن الهضاب المجاورة لا تتناقض مع نشاط كهذا، شريطة أن يكون التهطال منتظماً كفاية، لكن ليس لشروط الإنتاج أي تشابه مع تلك الموجودة في سومر. إذاً، إن مجيء «المستوطنين»، حتى وإن كان ضمن صيرورة طويلة الزمن، كان له دوافع أخرى. زيادة على ذلك، إن اعتقدنا أن المدينة لم تكن نتيجة لتدفق بشري جنوبي، وإنما نتيجة لإنتاج محلي متأثرة بحضارة أوروك، فلماذا لم نعثر على مساكن لهؤلاء المزارعين حول المدينة، ولا سيما فوق الهضبة؟

2 ــ أما بالنسبة لمنطقة ماري، فسيكون من العجيب أن يأتي إليها سكان جنوبيون لإنشاء المزارع، في حين أن الري في السهل يختلف كثيراً عن الري في وادٍ مغلق بين جرفين، وإن حصل وجاء مستوطنون زراعيون من الشمال (من وادي الخابور أو من الغرب، أي من مناطق لا ضرورة للري فيها)، فلماذا اختاروا نخروب ماري تاركين ما تبقى من الوادي بلا استثمار في حين أن بعض القطاعات ــ كمنطقة التقاء الخابور بالفرات ــ كانت أكثر قابلية للاستخدام؟

كل شيء يوحي باستيطان زراعي، ربما أنه كان هناك بشر في هذا الوادي وكان لا بد من إطعامهم، فمن المؤكد أنه قد حصلت بشكل طبيعي تنمية لزراعة مروية متلائمة مع المنطقة: إنها إذن ليست السبب في الاستقرار البشري، وإنما نتيجة له، وإننا لا نرى كيف تمكن هذا النشاط من توليد نهضة عمرانية.

يجب العودة إلى مفاهيم بسيطة إن أردنا إدراك تطور هذه المناطق. فالاقتصاد النيوليتي قد نما في بيئة محلية وتأثيره محلي. فالمجتمع القروي قد أنتج مخزوناً غذائياً بحسب حاجته واستهلكه مع الوقت، والمجال المعني بهذا الإنتاج يتواجد عند حدود القرية لسبب بسيط وهو مسألة النقل، فليس هذا الاقتصاد هو القادر على توليد المدن.

إن الانتقال إلى المستوى العمراني يتطلب عوامل تغيير، وهناك عاملان اثنان يفرضان نفسيهما:

1 ــ نهضة الري، لصالح الزراعة أصلاً، والذي أصبح عامل تنمية وتبادل في عالم يجهل كما رأينا العجلة ولم يستعمل حيوانات الجر إلا في وقت متأخر ، فالمحور النهري هو الاتجاه الطبيعي تماماً للتبادل[14].

[14] J. – CL. Margueron, «Problèmes de transport au début de l'âge du bronze» in *Reflet des deux fleuves*, M. Lebeau et P. Talon ed., Peeters, Louvain, 1989, p. 119 – 126.

2 ـ ضرورة الاستيراد في بلاد ما بين الرافدين، للمواد المتعلقة بضروريات الحياة غير المتوفرة، ومنذ ذلك الوقت برز تطور للحاجات. لن أذكر الآن سوى ثلاث فئات من المواد: الخشب الذي كانوا يحتاجونه كثيراً، وكان الماء فقط، نهراً أو قناة، هو الذي يسمح بنقل جذوع الأشجار من مناطق الغابات التي كانت تمتد على أطراف الحوض النهري (إن دراسة معبد أوروك الكلسي قد كشف عن الكميات الهائلة الضرورية في الألف الرابع لمبنى واحد)[15]. والمعادن التي كانت تأتي أيضاً من الجبال المحيطة ومعظمها تقع في منطقة الأناضول. ومن المحتمل أيضاً الفحم الخشبي الضروري للتعدين.

إن المزدوجة ري–نقل بحري التي تستعمل المحور نفسه قد كانت مسؤولة بشكل أساسي عن إطلاق مسيرة العمران. وهذا لا يدعو للدهشة عندما نفكر بالتأثير الكبير الذي لعبته على الوسط.

العمل التأسيسي كإجراء طبيعي في الخلق العمراني؟

إن هذه الخلاصة الأخيرة تساؤلية أكثر مما هي تأكيدية. إنها تريد إطلاق عملية تفكير معمق أكثر مما هو كذلك حتى الآن، في أوساط المستشرقين، في مسيرة الخلق العمراني.

أليس السؤال الذي يجب طرحه هو في النهاية: لكي يكون هناك مدينة ألا يجب أن يكون هناك عملٌ تأسيسي؟

وبشكل آخر، هل تحول القرية النوعي والكمي يكفي لتوليد المدينة؟ هل يمكن للمدينة أن تنبعث في عالم لا يضم إيديولوجيا شيئاً من أسسها؟

هذا السؤال يبرر نفسه على إثر الملاحظتين المذكورتين من قبل:

[15] J. – CL. Margueron, «le bois dans l'architecture: premier essai pour une estimation des besoins dans le bassin mésopotamien» in *Bulletin on Sumerian Agriculture*, vol. VI, Cambridge, 1992, p. 79-96

1 ـ لم نتمكن من ملاحظة أي نموذج عن التحول التدريجي لقرية أصبحت مدينة.

2 ـ إن النموذجين الأولين المعروفين هما لمدينتين تأسستا كمدن وليستا نتيجة لتحول بطيء.

إن لم أكن أعرف من جهتي أية قرية تحولت إلى مدينة، ففي المقابل أعرف العديد من نماذج المدن المؤسسة، المسرد لم يكتب بعد، لكن مؤتمرات حديثة قد أكدت ذلك[16]. وهكذا فإنني أتساءل إن لم يكن علينا أن نستكشف بطريقة منهجية أكثر مفهوم تأسيس وتشييد المدن. لقد تم القيام بذلك فيما يخص المدينة الإغريقية. فلماذا لا يهتم البحث بهذه المسألة التي هي أساسية في المشرق؟[17]

---

16 J. – L. Huot éd., *La ville neuve, une idée de l'Antiquité?* Errance, 1988; s. Mazzoni, éd, *Nuove fondazioni nel vicino oriente antico: realta e ideologica*, Giardini, 1994.

17 Le Center de Culure Contemporain de Barcelone annonce une exposition et un colloque pour l'an 2000 sur les rites de fondation des cités: on peut espérer l'amorce d'une première réponse à cette question.

ملاحظة بشأن الممسخين

تجمع سكني على أهداب البادية

ميشيل المقدسي

المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية

يقدم موقع الممسخين الواقع على الطرف الغربي للبادية السورية حالة استثنائية، في هذا الجزء من الشرق، لمستوطنة بشرية في منطقة شبه جافة.

يقع هذا التجمع على مسافة خمسين كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من دمشق في مواجهة السطح الغربي لكتلة القلمون الوسطى، وعند أسفل السفح الشرقي لجبال المساخين وسميقات.

وصف الموقع[1]

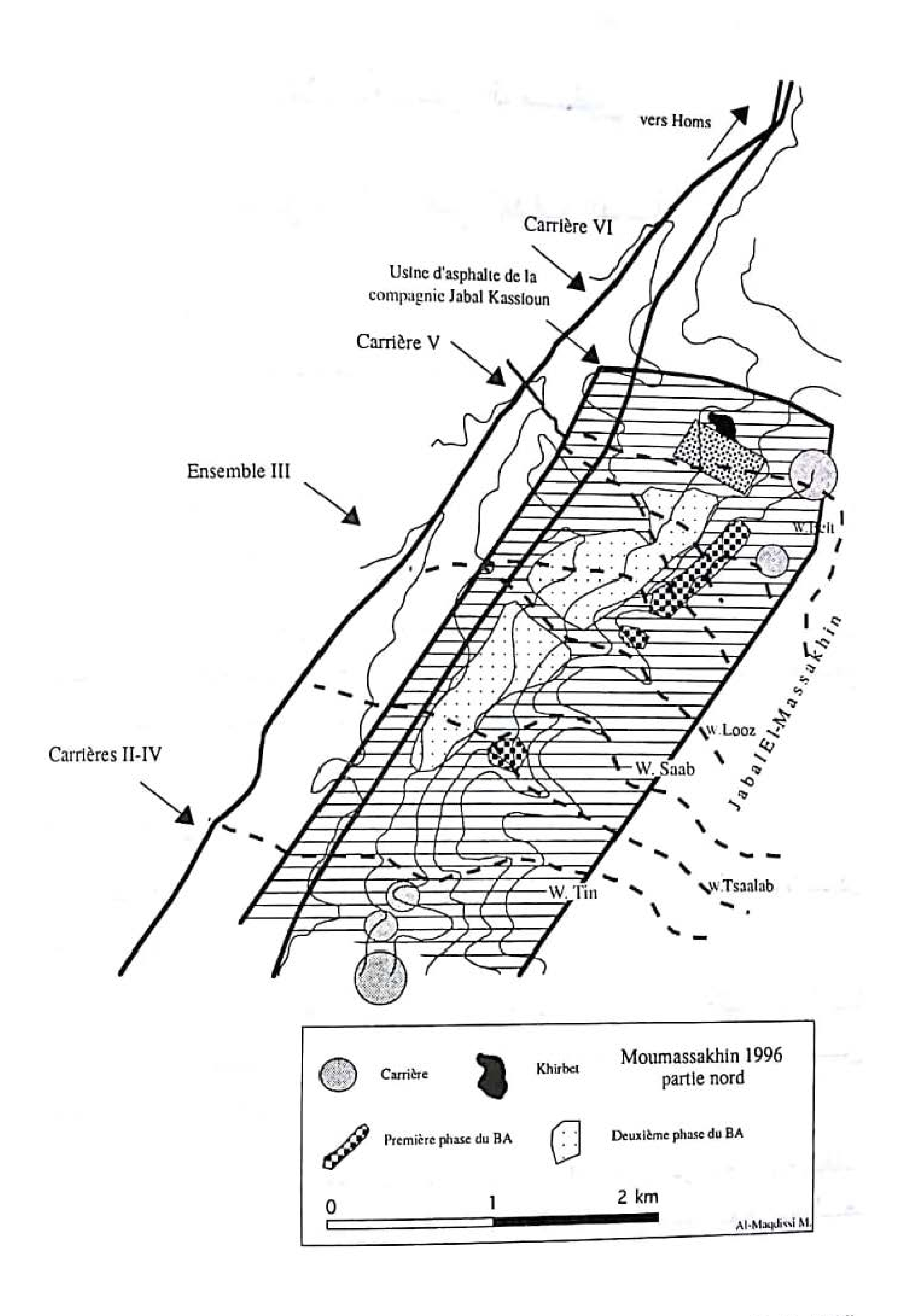
تمتد المنطقة المبينة بكاملها على مسافة تبلغ 7 إلى 7.5 كم وتشكل عملياً شريطاً يتراوح عرضه بين 250 و 400 م (الشكل 1).

يعبر المنطقة الأثرية من الشرق إلى الغرب ما يقارب الثلاثين وادياً وشعباً، مجارية اتجاه انحدار السفح، الأمر الذي يقطّع الموقع إلى العديد من القطاعات الواضحة تماماً.

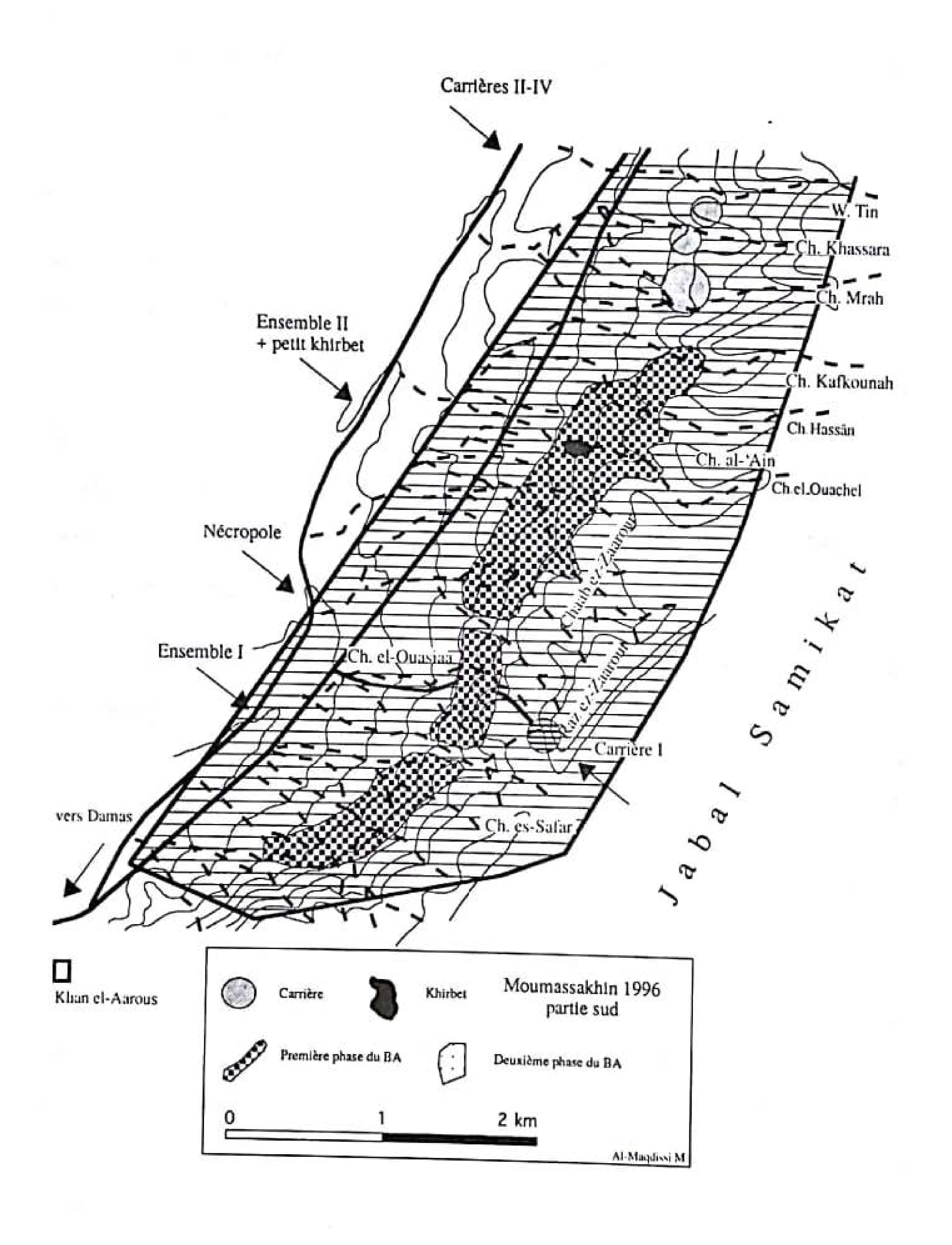
وقد تضمن برنامج العمل بين 1994 و 1996، إجراء دراسة أولية للبقايا الأثرية، أي وضع العناصر الأثرية الملاحظة على السطح فوق مخطط طبوغرافي (اللوحتان 1 و 2).

---

[1] بالنسبة لكل البحوث انظر: عدنان البني، 1998 وعدنان البني وميشيل المقدسي، 1992.



الشكل 1: الممسخين، مخطط عام للقسم الشمالي.



اللوحة 2: الممسخين، مخطط عام للقسم الجنوبي.

هناك ثلاث مجموعات معمارية يمكن رؤيتها:

- **المجموعة أ:** تقع في القسم الجنوبي من المنطقة الأثرية. إنها تحتل عملياً موقعاً هامشياً نسبياً مع عشرات من الوحدات المعمارية المحفوظة بشكل سيئ جداً، والتي تمتد على مسافة 2 كم ولا يتعدى عرضها الـ 250 م. لنذكر هنا وجود بنيتين دائريتين في النصف الشمالي من هذا القطاع، يمكن أن تكون بقايا لتلتين اثنتين. ويبلغ عرض هذين المدفنين 2.5 م للأول و 4 م للثاني.

- **المجموعة ب :** تحتل هذه المجموعة موقعاً متوسطاً تقريباً في هذا التجمع السكني. إنها محفوظة على مسافة 2.2 كم بعرض 500 م. إن البنى السكنية تقدم عدة سلاسل معمارية مفصولة بفضاءات فارغة. ونلاحظ في النصف الشمالي من هذا القطاع وجود بناء كبير مكون من عشر حجرات تترافق بفخار من القرون الوسطى.

- **المجموعة ج :** إن المجموعة الأخيرة، الواقعة في الجزء الشمالي من التجمع السكني محفوظة على مسافة 2.8 كم وبعرض 650 م.

إنه يشتمل على مرحلتين من مراحل التطور المعماري. الأولى، وهي الأقدم، كانت قد بنيت في الشرق وتتوافق مع مناطق ثلاث لتركز البنيات السكنية التي يقع أهمها على مصطبة عالية مسطحة إلى الشمال من وادي اللوز.

أما المرحلة الثانية من البناء، التي نفذت إلى الغرب من السابقة، فهي تحتل مساحة مبنية هامة طولها 2.5 كم وعرضها 500 م. وتتكون من قسمين يفصلهما عن بعضهما وادي اللوز. إن التنظيم المعماري لهذه المرحلة الثانية أكثر تطوراً بالمقارنة مع ما تبقى من التجمع السكني لأننا نستطيع أن نؤكد وجود صفين مستقيمين من البيوت التي ترسم شارعاً شمال-جنوب بعرض لا يتجاوز الـ 3.50 م.

إن تفحص المخططات المختلفة للبيوت، التي تم رفعها أثناء الأعمال الأثرية، يسمح بالتعرف على نمط بسيط للبناء لغياب التطور المعماري عملياً.

الشكل 1: الممسخين، مشهد عام باتجاه الغرب.

الشكل 2: الممسخين، بيت يشاهد من الغرب باتجاه الشرق.

الشكل 3: الممسخين، باب أحد المنازل يشاهد من الشمال باتجاه الغرب.

الشكل 4: الممسخين، جدار أحد المنازل يشاهد من الجنوب باتجاه الشمال.

في الواقع، يتضمن المخطط الأساسي للبيت بشكل رئيسي حجرة مستطيلة تتراوح أبعادها بين 8 و 10 م طولاً و 4 و 6 م عرضاً (الشكل 2). وتكون هذه الحجرة مقسمة أحياناً إلى مكانين بواسطة دكة.

ويقع المدخل، الذي لا يتجاوز عرضه 80 سم، على الواجهة الشرقية (الشكل 3). وهو مؤلف من ركيزتين ومن كتلة حجرية واحدة غير منحوتة.

ونلاحظ في الفضاء الواقع بمواجهة المدخل وجوداً مألوفاً لحظيرة ذات مخطط منتظم، مخصصة على الأغلب لحجز المواشي[2].

إن مواد البناء المستعملة هي الحجارة المحلية غير المنحوتة إنما هي مشذبة بشكل بدائي (الشكل 4). وهي موضوعة عموماً بشكل عرضي لكي تشكل جدراناً غير منتظمة القواعد.

لم نستطع التعرف على شكل الأسطح، ولقد دفعتنا بعض المعالم المتوفرة، إلى افتراض وجود سقف مستو مصنوع بمواد خفيفة وقابلة للتفسخ.

يقع مصدر هذه الحجارة على مسافة تقارب 100 م إلى الشرق من التجمع السكني، فقد حددنا أثناء المسح الأثري موقع العديد من المقالع في قمة جبلي المسّاخين وسميقات مع بقاء كتل حجرية في هذه المقالع مجهزة كي تنقل نحو الأسفل.

التأريخ

إن كل اللقى الفخارية التي جمعت من البنيات السكنية ومن الفضاء الخالي حول المنطقة المبنية تضم أنماطاً متجانسة، يعود تاريخها للبرونز الرباعي القديم، وأشكالاً لأجزاء من كؤوس مطلية[3]. ويبدو لنا ممكناً أن نعيد تاريخ الموقع إلى فترة تمتد بين القرنين الأخيرين من الألف الثالث قبل الميلاد.

---

[2] لقد تم التأكد من وجود العديد من حظائر الماشية. وهي تقع أحياناً في مناطق معزولة عن المناطق المسكونة.

[3] ميشيل المقدسي، 1989 ، ص 37 و 1990 ص 254

وهكذا يبدو لنا أن تاريخ تشييد هذا التجمع السكني يجب أن يكون بحدود 2200 قبل الميلاد. ويتعلق الأمر على الأغلب بتشييد تدريجي في المرحلة الأولى ثم تبعتها على الفور مرحلة ثانية.

إن مخطط هذه المستوطنة بسيط نوعاً ما. فهو يضم ثلاث مجموعات أساسية تمتد على عدة كيلومترات دون أي نظام للحماية. وما يجب ملاحظته في هذه الأثناء، هو أن مدة حياة هذا التجمع السكني كانت قصيرة نوعاً ما وبالتالي فإننا، وبحسب الملاحظات على السطح، نرجح وجود الهجران الكلي قبل مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

مرحلة نحو نمط الاستقرار؟

إن تجمع الممسخين السكني، الواقع على الطرف الغربي للبادية في منطقة شبه جافة يتميز بتربة جافة لا تسمح بإقامة اقتصاد زراعي، وهو يقدم نموذجاً للاستيطان البشري الذي قامت به مجموعات، أو بالأحرى قبائل غنامة في طور الاستقرار. إنه يضم العناصر التي تذكر بمخطط مضارب الخيام الكبيرة في البادية[4].

أ : موقع جغرافي خاص عند أقدام السلاسل الجبلية التي تحدد خصوصاً الخط الفاصل بين منطقتين. جافة إلى الشرق وشبه جافة إلى الغرب. إن هذا التوضع في هذه المنطقة الفاصلة يؤمن انتقالاً سريع نسبياً بين مجالين للرعي الفصلي[5].

ب : مساحة شاسعة سهلية، غير محصنة، مفتوحة بشكل واسع نحو الغرب مع تنظيم الفضاء السكني على مسافة عدة كيلو مترات دون وجود أي محور منتظم للنقل.

ج : ترسم الوحدات السكنية بنى مستطيلة، منتظمة نوعاً ما، ووحيدة الخلايا

---

[4] حول مضارب البدو والتجمعات التي تمثل عملية الاستقرار انظر (: Bianquis 1985 . (Desfarges. Jarno. Roumi et Taha. 1982 : Jarno . 1984 et Lemarie . 1984.

[5] البادية في الشتاء والربيع، والمنطقة الواقعة بين فتحة حمص وغوطة دمشق في الصيف والخريف. من أجل المقارنة مع نمط السكن البدوي الحديث، أنظر داكر Daker ، 1984

تحيط بها حظائر مخصصة للماشية[6].

د : إن الوحدات السكنية مفصولة عن بعضها بواسطة مساحات واسعة خالية مناسبة لحركة قطعان الماشية لحظة الانطلاق إلى المرعى أو العودة منه.

وبشكل آخر، يقدم هذا التجمع السكني نموذجاً عن المرحلة الأولى للانفصال عن حياة الترحال، وهي مرحلة مؤقتة محدودة بالزمن ولا بدّ أن تفضي إلى الانتقال إلى عالم ينتمي إلى نظام مستقر مرتبط بتنظيم إقليمي.

في الواقع، ومن أجل استخلاص نتائج هذه الفترة المحددة[7]، يبدو لي أنه من المنطق اعتبار ممسخين بمثابة تجمع مؤقت للاستقرار في منطقة هامشية في مرحلة تسبق الانتقال نحو الاستقرار النهائي في المنطقة العمرانية.

وبهذا الخصوص يجب التأكيد بأننا عرضنا في ثلاث مراحل، خلال بضعة القرون التي سبقت ظهور الممالك العمورية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، الاستقرار التدريجي لقسم من القبائل الرحل[8]. وتسير هذه المراحل الثلاث بحسب المخطط التالي:

- الاستقرار التدريجي جداً، ابتداءً من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد مع تأسيس إنشاءات مجهزة ببنى كبيرة في منطقة البادية تجاور مضارب مؤقتة[9].
- إن هذا التعمق باتجاه القطاعات التي يسكنها المستقرون في عصر البرونز الرباعي القديم AIV يمكن أن تتميز بسلسلة من المواجهات[10]. وعلى هذا المنوال، نلاحظ التواجد المتزايد للمنشآت على الطرف الغربي للبادية، والمجهزة بنظام دفاعي أحياناً[11].

---

[6] Cf. A ce propos Daker, 1984, p. 53/ fig. 2 et p. 55/fig.3 pour des comparaisons actuelles : et Braemer, Echallier et Taraqji, 1996, p. 119/fig. 3 – 4 et Hanburu – Tenison , 1986, fig. 18 pour des comparaisons avec le Bronze ancien.

[7] قرن أو قرنين.

[8] يتعلق هذا المخطط بالطرف الغربي للبادية السورية فقط.

[9] إن خربة الدياب في الصفا هي التعبير الوحيد حتى الآن. انظر (Braemer, Echallier et Taraqji, 1996, p.124)

[10] تستند هنا بشكل خاص إلى الصراعات مع الامبراطورية الأكادية.

[11] موقع خربة الأمباشي وجاوا ولبوة: انظر (Braemer, Echallier et Taraqji, 1993, 1996, 1997; Al – Maqdissi, 1984 et Betts, 1991)

- أثناء المرحلة الثالثة، التي تعود للبرونز القديم IV B، يأخذ شكل استقرار هذه القبائل مظهراً متطوراً أكثر، لأننا نستطيع أن نؤكد هذه المرة وجود مواقع أقرب إلى مناطق الاستقرار، وبعيدة نسبياً عن البادية ولكنها قريبة دوماً من المناطق الجافة. وتتبنى هذه المواقع أحياناً، مثلما في ممسخين، مخطط المضرب البدوي أو بكل بساطة مخطط التجمع العمراني مع مركز هام محاط بمنطقة سكنية محصنة بواسطة سور. ولكي نوضح هذه النقطة الأخيرة، سأذكر التجمع السكني المحصن الذي يدعى تل سفيرات الواقع في منطقة حمص على مسافة 39 كم إلى الشرق من تل النبي مند[12].

كان الضغط الذي تمثله هذه القبائل الرحل في نهاية الألف الثالث يتم بشكل مباشر على المراكز العمرانية. كانوا يهجرون البادية نهائياً ليستقروا في المدن والقرى. وهكذا بدأت في مطلع الألف الثاني، مرحلة جديدة تتميز بظهور سلسلة من الممالك (يمحض، قطنا، أمورو، آبوم) كان ملوكها من زعماء هذه القبائل.

وفي الختام، نستطيع أن نؤكد أن القرون التي تفصل الانتقال التدريجي من حياة البداوة إلى الاستقرار كانت الشاهد على التحولات الجذرية في العقلية البدوية. إنها تلاحظ على مستوى تنظيم الفضاء العمراني. وفي الواقع نميز في مطلع عصر البرونز الوسيط إقامة مخطط جديد للاستيطان، ولنمط جديد من المستوطنات البشرية المتميزة بتشييد أو بإعادة تشييد التجمعات السكنية ذات الميزات المتماثلة[13]:

- أكروبول في الوسط تقريباً.
- مدينة منخفضة واسعة حول الأكروبول تضم عدة فئات من الأحياء (دينية، إدارية، سكنية، إلخ...).
- نظام دفاعي ذي مخطط منتظم مع حاجز كبير محاط بخندق عميق وفيه أبواب عديدة.

---

[12] انظر بهذا الخصوص ميشيل المقدسي، 1995.

[13] أنظر بهذا الخصوص موقع تل مرديخ والمشرفة وتل سفينة نوح وتل السور. وبالنسبة للمواقع غير المنقبة : تالون، 1956 و Tallon 1957 .

BIBLIOGRAPHIE المراجع

AL-MAQDISSI (M.)

1984 «Compte rendu des travaux archéologiques dans le Ledja en 1984», Berytus, XXXII, p. 7-17.

1989 «Essai préliminaire de classification de la poterie de Moumassakhin», NCS, 5.

1990 «La poterie de Moumassakhin (note explicative à propos du décor)», Au Or, 8, p. 25 1-254.

1995 «Tell Sh'airat (région de Homs)», Syria, LXXII, p. 196-198 (= CAAS II, 1.1.7).

AURENCHE (O.) (éd)

1984 Nomades et sédentaires, perspectives ethno-archéologiques, Paris.

BETTS (A.) (éd)

1991 Excavations at Jawa 1972-1986 stratigraphy, Pottery and other Finds, Edinburgh.

BIANQUIS (Th.)

1985 «Remarques sur les campements de nomades de la région de l'Euphrate», De l'Indus aux Balkans, Recueil à la mémoire de Jean Deshayes, éd. J.-L. HUOT, M.YON et Y. CALVET, Paris, p. 238-239.

BOUNNI (A.)

1988 «Découvertes archéologiques récentes en Syrie», CRAI, p. 361-378.

BOUNNI (A.) AL-MAQDISSI (M.)

1992 «Al-Moumassakhin, site du IIIe millenaire au nord-est de Darnas», Von Uruk nach Tuttul, eine Festschrift für Eva Strommenger, Studien und Aufsätze von Kollegen und Freunden, éd. B. HROUDA, S. KROLL et P. Z. SPANOS, Munehen, Wien, p. 33-36.

BRAEMER (F.), ECHALLIER (J.-C.) et TARAQJI (A.)

1993 «Khirbet el-Umbashi. 1991 et 1992», Syria, LXX, p. 415-430.

1996 «Khirbet el-Urnbashi (Syrie), rapport prélirninaire sur les carnpagnes 1993 et 1994», Syria, LXXIII, p. 117-127.

1997 «Khirbet el-Urnbashi, rapport 1991 et 1992», Chronique Archéologique en Syrie. I, p. 54-58.

DAKER (N.)

1984 «Contribution à l'étude de l'évolution de l'habitat bédouin en Syrie», in Nomades et sédentaires, perspectives ethno-archéologiques, op. cit., éd. O. AURENCHE, p.51-79

DESFARGES (P.), JARNO (R.), ROUMI (M.) et TAHA (A.)

1982 «Travaux de la RCP 624 dans La region d'El-Kowrn en Syrie», Lettres d'Information, Archéologie Orientale, 5, p. 85-98.

HANBURY-TENSION (J.-W.)

1986 The Late Ghalcolithic to EarlyBronzel, Transition in Palestine and Transfordan, Oxford JARNO

1984 «Tente et maison, le jeu annuel de la sédentarisation à Qdeir (Syrie)», in Nomades et sédentaires, perspectives ethno archéologiques, op. cit., éd.O. AURENCHE, p. 19 1-229.

LEMARIE (M.)

1984 «Une maison du village de Mussaifna (Bassin d'Eski-Mossoul, Iraq), préliminaire a une enquête ethno-archéologique dans la vallée du Tigre au nord-ouest de Mossoul», in op. cit., O. AURENCHE., p. 109-122.

TALLON (M.)

1956 «Une nouvelle enceinte antique en Emésène», AAAS, VI, p. 51-62.

1957 «Le camp retranché de as-Sour», MUSJ, XXXIV, p. 241-245.

ABREVIATIONS اختصارات

AAAS . Annales Archéologiques Arabes Syriennes.

Au Or: Au/a Orientalis.

GRAI: Comptes rendus de l 'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.

NCS: Notes de Céramologie Syrienne.

GAAS: Chronique des activités archéologiques en Syrie.

MUSJ: Mélanges de l'Université Saint-Joseph.

مدينة أوغاريت وإقليمها في عصر البرونز الحديث

ما بين القرن الثالث عشر
ومطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد

إيف كالفيه Yves Calvet

باحث في المركز الوطني للبحث العلمي- فرنسا

يقع تل رأس شمرا الأثري على شاطئ البحر المتوسط على مسافة 10 كم إلى الشمال من مدينة اللاذقية[1] وتعود أكثر المستويات قدماً إلى العصر النيوليتي (العصر الحجري الحديث، أواسط الألف الثامن) واستمر استيطان التل منذ ذلك الحين لغاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، حين كانت المدينة وإقليمها معروفين باسم أوغاريت. كانت المدنية تضم سلطة مركزية لمملكة من المشرق، ولقد عاشت هذه الدويلة، المحصورة بين إمبراطوريات كبيرة: الحثية والآشورية والمصرية، فترة مزدهرة بفضل التجارة الدولية، ولكن هذا الازدهار انهار في مطلع القرن الثاني عشر بسبب الغزو الذي تعرضت له أوغاريت ممن تسميهم النصوص المصرية في ذلك العصر بـ «شعوب البحر». إذ أحرقت المدينة وقصرها الملكي. وهجر التل تدريجياً ولم يعرف بعد ذلك أي استطيان بشري جديد ذي أهمية، باستثناء قرية صغيرة في أعلاه تعود للعصر «الفارسي» (بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد) بالإضافة إلى بعض المزارع الصغيرة الهلنستية والرومانية.

كشفت عمليات التنقيب الأثري التي تمت منذ عام 1929 في مدينة البيضاء،

[1] للإطلاع على دراسة شاملة عن الاكتشافات التي تمت في رأس شمرا، انظر يون، Yon 1997، وحول جغرافية المنطقة، انظر فوليرس، Weulersse 1940.

وهي ميناء أوغاريت، وفي رأس شمرا بالذات (الشكل 1، خارطة المنطقة والتل) عن العديد من الآثار التي يعود تاريخها بشكل رئيسي إلى الفترة الأخيرة من إشغال الموقع، أي في نهاية عصر البرونز الحديث (القرن الثالث عشر- مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد). إن أكثر الصروح أهمية هي القصر الملكي الواسع الواقع إلى الغرب من المدينة والذي يتمتع بتحصين مستقل وممر خاص به، وهو ممر المعبدين القائمين على أعلى جزء من التل (الأكروبول) المخصصين للإلهين بعل وادغان. وقد كشف أيضاً عن العديد من المنازل الخاصة، وهي عبارة عن مساكن ذات أبعاد متنوعة، فبعضها كبير جداً كمنزل يبنينو الذي عرف أيضاً باسم «القصر الجنوبي» (أكثر من 1000 م2)، لكن معظمها مساكن ذات أبعاد عادية تصطف على طول الشوارع الضيقة والملتوية في مختلف أحياء المدينة. يقع أحد المعابر الرئيسية للسكان في جنوب المدينة حيث تعبر الطريق جدولاً مائياً صغيراً، وهو نهر الدلبة، مستعينة بجسر تم العثور على أحد أعمدته في موقعه الأصلي[2]. ولقد تم الكشف عن علامات على هذا العمود تبين طريقة بناء السد المصنوع من عوارض مكدسة فوق بعضها بعضاً[3]. ولقد أصبح تحت تصرف السكان بفضل هذه المنشأة خزان للماء، على الأقل من أجل اللحظات الأولى من فصل التحاريق. ولا بد أن بعض المنشآت الحرفية التي تتطلب المياه (مصانع الفخار، المصابغ، المذابح... إلخ) كانت توجد على أطراف الخزان، حتى وإن لم يعثر على أي أثر لها حتى الآن، ذلك لأن هذه المنطقة مغطاة بغطاء نباتي كثيف وبلحقيات سميكة وببساتين حديثة.

إن الآثار المرئية لبيوت أوغاريت لا تسمح اليوم بالتعرف سوى على الطابق الأرضي وعلى الكهوف الجنائزية الواقعة تحت الأرض. ولكن بفضل دراسة الآثار[4]، يمكن تصور البناء الأصلي الذي كان يضم طابقاً علوياً في كل مكان مخصص للحياة المنزلية العائلية، في حين أن الطابق الأرضي كان مخصصاً للمدخل وللتخزين وللأعمال المنزلية المرتبطة بالمياه[1] (غسيل الألبسة ــ والأواني المنزلية إلخ.) وهناك بعض الأبنية التي تضم أيضاً محلات تجارية ودكاكين.

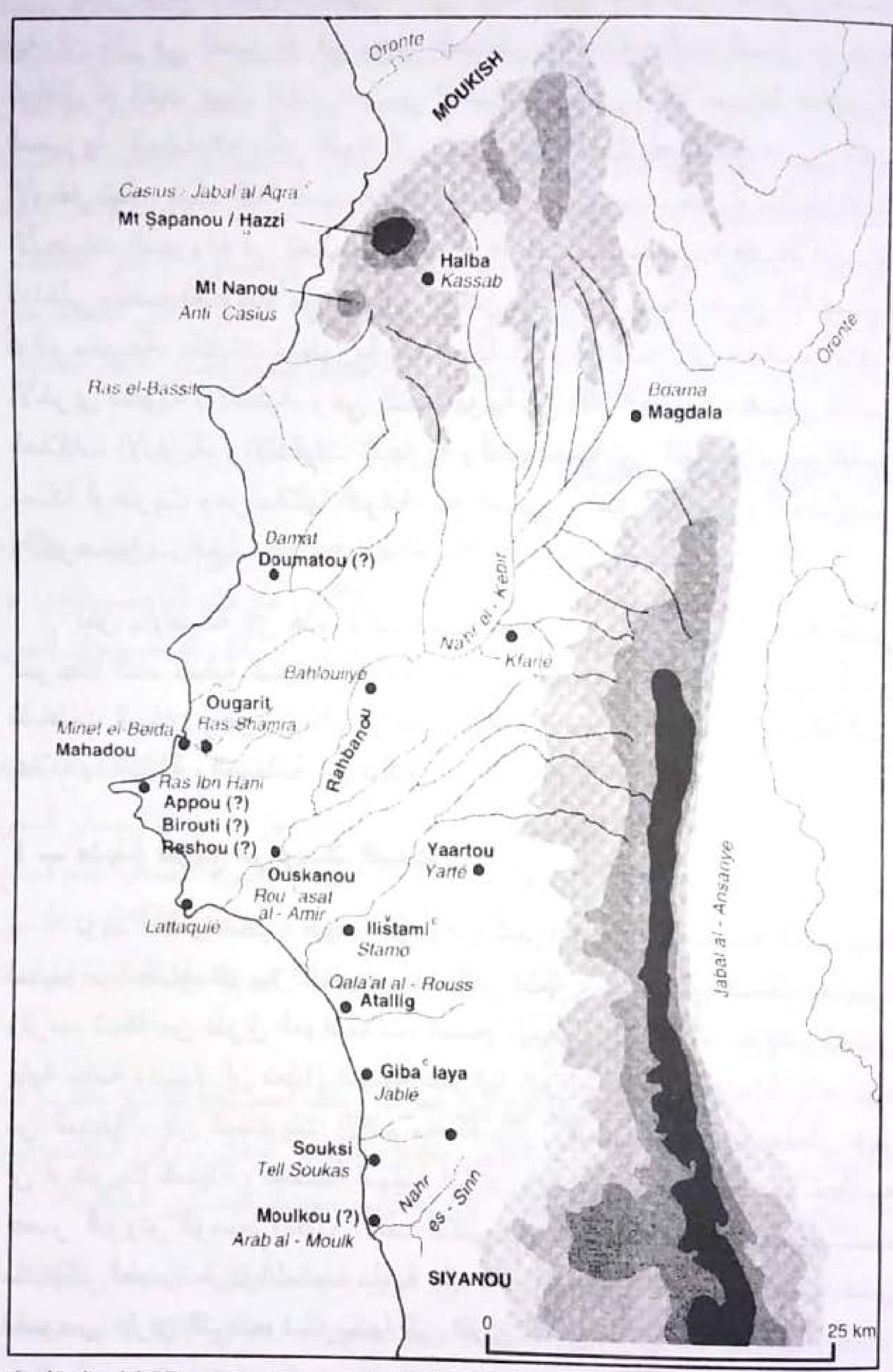
---

[2] كالفيه وجاير، Calvet et Geyer 1992

[3] كالفيه، Calvet 1987

[4] كالو، Callot 1994

[1] Calvet et Geyer, 1987



الشكل 1: خارطة لمنطقة رأس شمرا ــ أوغاريت (بحسب يون Yon، 1997، الشكل 6، ص 21).

يدين موقع أوغاريت بشهرته إلى آلاف الرقم الغضارية التي وجدت فيه، إن كان في القصر أو في بعض المساكن الخاصة. وقد ثبت أن هذه الوثائق قد كتبت بست لغات على الأقل: الأكادية (لا سيما البابلية)، المصرية، الحثية إلخ. لكن اللغة التي تمثل أكثر اللغات أصالة هي اللغة الأوغاريتية . فهذه اللغة السامية مكتوبة بعلامات مسمارية تمثل أقدم الأبجديات المعروفة في العالم. إن رقم أوغاريت مخصصة فقط للتبادل الداخلي وتضم نصوصاً موجهة إلى السكان المحليين: نسخاً عن الأبجدية، قوائم متنوعة، حكايات أسطورية، نصوصاً أدبية، إلخ. إن معظم الرقم الأخرى مكتوبة بالأكادية، وهي اللغة الدولية في ذلك العصر، وهي تذكر العلاقات الإدارية، والاتفاقيات التجارية والدبلوماسية بين الملوك وموظفي مملكة أوغاريت ومراسلاتها الدولية، مع الحثيين والحوريين والمصريين والقبرصيين... إلخ.

لكن بالإضافة إلى هذه الاكتشافات اللغوية، فإن اللقى الأثرية التي أخرجت أثناء عملية التنقيب، غنية ومفيدة بوجه خاص. فهي تشهد على نشاطات السكان وعن الإمكانيات الصناعية التي يعبرون عنها، بالإضافة إلى علاقاتها الكثيفة والمنتظمة مع البلدان المجاورة.

1 ـ مدينة تتربع في وسط إقليمها

تؤكد أعمال التنقيب الحالية في رأس شمرا عن الخاصية العمرانية لمدينة من عصر البرونز الحديث، تلك التي تظهر آثارها على السطح حالياً وترسم شبكة من طرق المواصلات، تسمح بالدخول إلى أحياء سكنية وإلى أبنية عامة ودينية. إن تحليل المدينة عمرانياً غير ممكن إلا للمرحلة الأخيرة من المدينة[6]. لأن المستويات الأقدم مغطاة بآثار الأحدث. ولكن ما يطمئن هو أن أوغاريت كمدينة وعاصمة لمملكة في آن واحد، على الأقل منذ مطلع عصر البرونز الوسيط (مطلع الألف الثاني قبل الميلاد)، كانت قد أصبحت منذ ذلك العصر مركزاً لسلطة ملكية وقد ذكر قصرها الفخم خصوصاً في نصوص ماري التي يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

---

[6] كالو وكالفيه، Callot et Calvet 2000

تُعرَف المدينة بشكل خاص من خلال تخصص بعض الأحياء، وبوجود أبنية واسعة وضخمة البنيان حيث تقيم السلطة، أي القصور، وبوجود أبنية دينية في الأماكن المرتفعة غالباً، كما أن السور هو في معظم الأحيان، ولكن ليس دوماً، إحدى الخصوصيات العمرانية، وأخيراً بالطرق العامة وشبه العامة أو الخاصة التي تؤمن الذهاب والإياب. وقد استجابت مدينة أوغاريت إلى هذه المعايير في نهاية عصر البرونز الحديث. إن مستوى أواخر عصر البرونز الوسيط لم يكتشف بكامله في أوغاريت، لكن الأسطح التي كشفت منه حتى الوقت الحاضر (تقريباً 1/6 التل) تسمح مسبقاً بتقديم بعض الاقتراحات.

طرق الوصول إلى المدينة

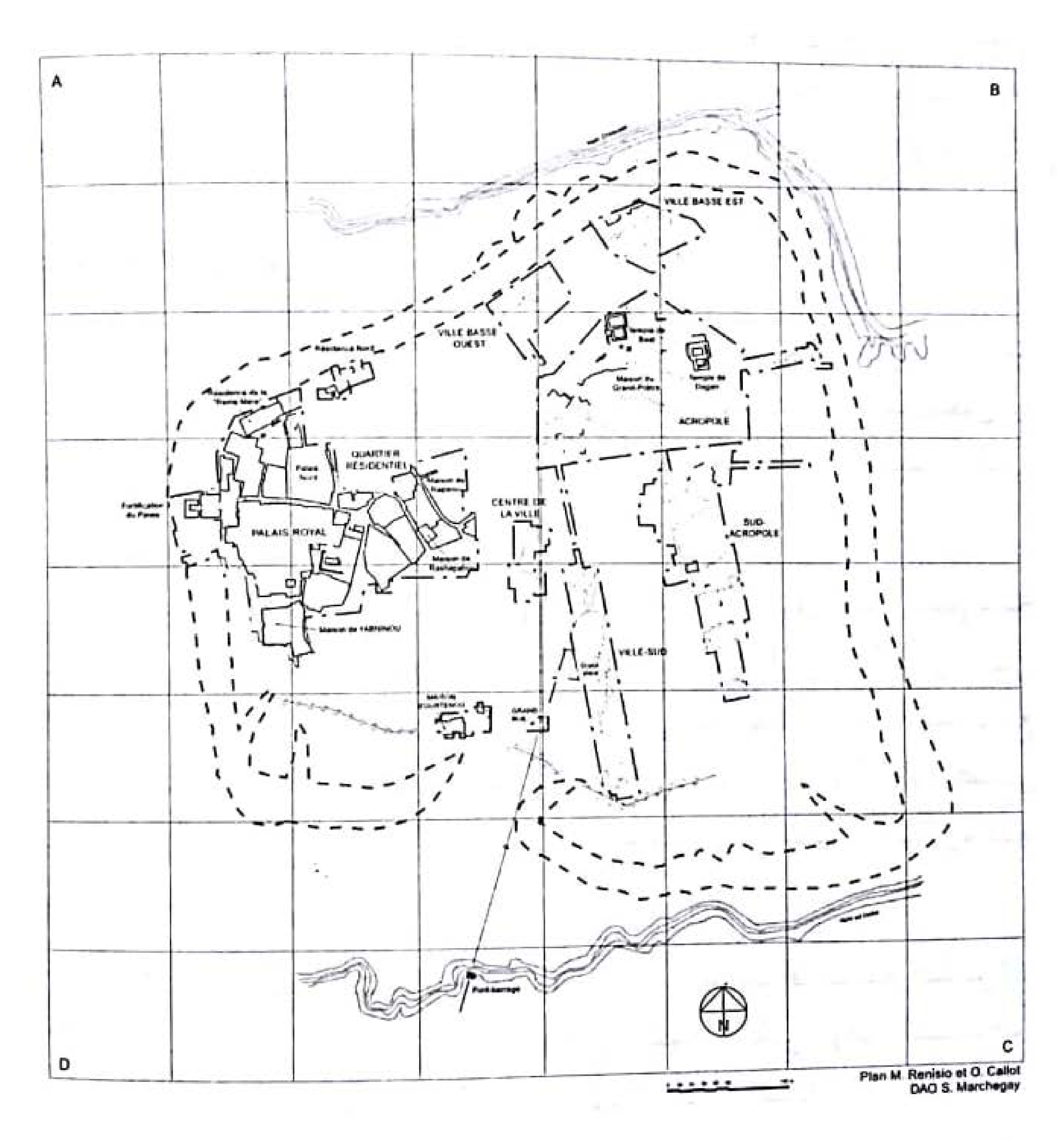
يتمتع رأس شمرا بوضع جغرافي متميز، فهو يقدم في آن واحد ميزات عملية وصفات معيقة، وكان لا بد لسكانه أن يتأقلموا مع هذه الخصائص أو أن يؤقلموها على هواهم لكي يحلوا على الخصوص مشاكل الوصول إلى مدينتهم.

إن الشكل الحالي للتل (الشكل 2) مختلف عن ذاك الذي كانت تتمتع به في الماضي. إذ أن التل قد تعرض لحت شديد حمل جزءاً من الآثار إلى الشمال أو الشرق. وهكذا فإن البيوت الواقعة على الخاصرة الشمالية للموقع هي حالياً مقطوعة إلى منتصفها (المسكن الشمالي ، بيت «الملكة الأم» على سبيل المثال) كما أن أي أثر للسور، إن كان موجوداً في هذا المكان، قد اختفى بالطبع.

ولا تزال التحصينات مرئية إلى الغرب وذلك لمسافة تبلغ عشرات الأمتار، ولكنها تعود إلى نظام دفاعي خاص بالقصر الملكي. وفي الجنوب، لا يمكن التعرف على حد المنطقة الأثرية لأنها مغطاة بالبساتين الخاصة.

ليس هناك إذاً أي يقين على وجود سور يحيط بالمدينة نفسها في نهاية عصر البرونز الحديث. فمن المحتمل وجود سور ما هناك، لكننا لا نستطيع إثبات ذلك في الوقت الحاضر. وضمن هذه الفرضية، علينا أن نصل إلى المدينة عبر الأبواب. إننا نعرف ذلك الباب الذي يسمح بالوصول إلى حرم

القصر، ولكنه مخصص فقط لسكان القصر ولزواره. أما الأبـــواب الأخـــرى فهي موجودة حول المدينة كلها ولكن من المستحيل معرفة أو تصور عددهـــا. لا بد أن أحدها كان يقع في الجنوب بشكل يتطابق مع محور الجســـر القديـــم الذي كان يعبر نهر دلبة.



الشكل 2: مخطط عام لتل رأس شمرا.

كتلة القصر

إن إحدى خصوصيات أوغاريت، هي أن القصر الملكي وملحقاته لا تقع في قلب المدينة، وإنما في طرفها الغربي. فهو يتمتع إذاً بمدخل خاص بدءاً من خارج المدينة، ويختلف عن المواقع السورية الأخرى، أو مواقع ما بين الرافدين المعاصرة لأوغاريت، بأن مقر السلطة الملكية يحتل مكاناً ضخماً في وسط المدينة.

إن الحي الملكي (الشكل 3) معزول عن باقي المدينة بواسطة نظام من الأبواب المجهزة بوسائل دفاعية. فأحدها ينفتح في الغرب على الشارع المؤدي إلى القصر، إنه المعبر الطبيعي للسكان الذين يحتاجون لدخول القصر والاحتكاك بسكانه. ويسمح مركز للحراسة بتنظيم الدخول وبمنعه عند الحاجة.

وهناك معبر آخر للوصول إلى الحي الملكي يقع في الجنوب الغربي في طرف شارع شمالي جنوبي موازٍ للحد الغربي للمدينة. وهناك جدار سميك يغلق هذا الشارع وهو مزود بباب لا بد أنه كان يشكل معبراً ثانوياً للحي الملكي. وفي الواقع لا يوجد في هذه الجهة مركز للحراسة كما في شارع القصر.

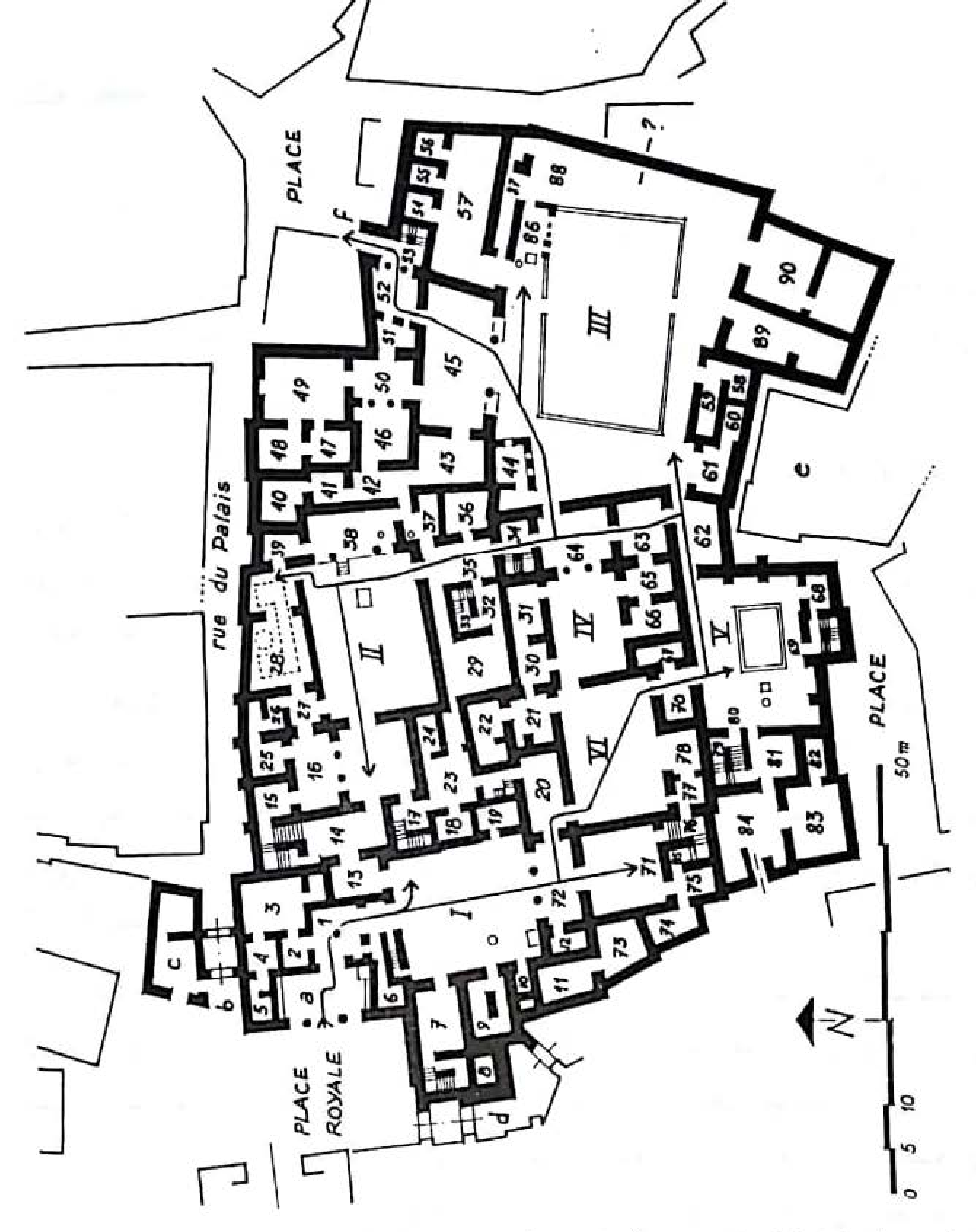
من أجل دخول القصر بالذات بعد الدخول إلى الحي الملكي، لا بد من المرور عبر البوابة التي تؤدي إلى الساحة الملكية. ليس هناك من مجال الآن للحديث عن حركات الانتقال الداخلية في القصر والتي هي موضوع مشروع بحث قيد الإنجاز[7]. ويظل هناك تفسير يجب إعطاؤه لباب مستور يؤدي مباشرة إلى خارج الحي الملكي، في شارع يقع في الجنوب الغربي (الشكل 3، الغرفة 83)[8] ولا يوجد أي نظام دفاعي لهذه البوابة. ومن المحتمل أنه لم يكن يفتح أبداً في الأوقات العادية، وهناك مجرور لتصريف مياه الأمطار في القصر يمر تحت عتبة هذا الباب قبل أن يأخذها إلى مجرور كبير جامع يبدأ عند مستوى الساحة الملكية[9].

---

[7] كالو ومارغرون Callot et Margueron، قيد الإنجاز

[8] إن «الباب» الذي يظهر في الشمال الغربي في الغرفة 54 ليس هو إحداها (يون، Yon، 1997، الشكل 20، ص. 47) إنها فتحة في الجدران للزوار الحاليين.

[9] كالفيه 1989، Calvet.



الشكل 3: المنطقة الملكية وقصر أوغاريت (رسم. كالو Callot).

يمكن الوصول بسهولة في كل مكان إلى نظام شبكة الصرف في القصر وذلك إن دعت الحاجة إلى تنظيفه أو معالجة أي انسداد فيه. ربما من أجل تسهيل هذه العملية هناك هذا الباب ذو الموقع الغريب.

كما يوجد في الحي الملكي بالإضافة إلى القصر الملكي أبنية مصطنعة على طول التحصينات في الغرب. إنها منقبة جزئياً إنما لم تدرس بعد. فهل هي أبنية للخدمة؟ لكن إحداها يضم كهفاً جنائزياً جميلاً. ونحو الشمال قليلاً،

ودوماً في الحي الملكي، هناك معبد (معبد حوري) وبناء واسع يتميز في ما يتميز بقاعة واسعة لها سقف محمول على أعمدة.

وفي المقابل، هناك في الجنوب الغربي أبنية خدمة ترتبط بالقصر وهي تقع خارج الحي الملكي. ويغذي بئراً يقع في إحداها الحوض الموجود في «الفناء7» وهو الذي يفسر اليوم على أنه قاعة الترفيه عن النفس[10].

يشكل المجمع الملكي في أوغاريت على هذا النحو مدينة ضمن المدينة، ولا سيما بنظام عمله الخاص به والمرتبط بالسلطة السياسية الاقتصادية للملك.

معبدا الأكروبول

إن المعبدين (أحدهما منذور للإله بعل والآخر للإله داغان من دون شك)، اللذان يبدوان حتى الوقت الحاضر أكثر المعابد أهمية، يقعان في منطقة مرتفعة من قلب المدينة، فهما ليسا في مركز. ولكنهما مع ذلك بعيدان نسبياً عن الحدود المفترضة للمدينة، ويجب السير قليلاً في طرقها قبل بلوغهما. وعلى عكس ما يلاحظ في مدن سورية أخرى أو مدن ما بين الرافدين المعاصرة، فهما بعيدان عن الحي الملكي. إن دورهما الرئيسي هو بالتأكيد ديني. إنهما بيت للآلهة وفيهما تتم الطقوس المخصصة لها.

إن الآثار التي يمكن مشاهدتها حالياً تسمح بالتأكيد على أنهما عبارة عن برجين حقيقيين يرتفعا إلى علو يتراوح بين 15و 20 متراً. إنهما يطلان ليس فقط على المدينة وإنما كل محيطها القريب. فمن قيمتيهما يمكن بسهولة رؤية كل السفن التجارية أو الحربية التي تقترب من الساحل بالإضافة إلى حركة القوافل أو القوات الأرضية. وهكذا كانا يلعبان دور المرصد بالنسبة لأشخاص من أوغاريت كانوا يملكون الحق بالصعود إلى السطح، وأيضاً دور نقاط العلام بالنسبة للرحالة القادمين من البحر أو من الداخل.

---

[10] مارغرون Mongueron 1995

الأحياء السكنية

يضم ما تبقى من مدينة أوغاريت أحياء سكنية ، بالمعنى الواسع للكلمة أي مساكن خاصة ومحترفات، ومتاجر، ومعابد صغيرة... إلخ. باختصار كل ما يكون المدينة التي يمكن تخيلها دائبة الحركة وتعج بمختلف النشاطات لقد بينت عمليات التنقيب التي تمت في هذه الأحياء أن نمط المساكن قد كان متنوعاً إن كان في أبعادها أو في تصميمها، حتى وإن كان النمط المعماري الأوغاريتي يخضع بالتأكيد إلى خطوط عريضة عامة يمكن ملاحظتها في الآثار التي حفظت وتم الكشف عنها. فالبيوت الكبيرة والمنازل الصغيرة تتجاور، ويبين غنى المواد التي أخرجت منها من بعضها أن الحجم الصغير للمنزل لا يعني بالضرورة وصفاً اجتماعياً متواضعاً لقاطنيه كما يشهد على ذلك بيت راشا بابو على سبيل المثال. إن الرقم المسمارية التي عثر عليها في هذا المنزل الصغير (108 م2) تشهد على أهمية الشخصية التي كانت تقيم فيه (تاجر غني قريب من السلطة الملكية بلا ريب).

إن مجموعة الرقم الفخارية التي عثر عليها في المنازل نادرة، وذلك بالنسبة لعدد المساكن التي تم تنقيبها. لا شك أن الذين يعرفون القراءة والكتابة كانوا قليلي العدد في أوغاريت. إنهم على الخصوص تجار أو موظفون مرتبطون بالسلطة الملكية (وهكذا فإن معظم النصوص هي باللغة الأكادية)، أو شخصيات لها علاقة بالممارسات الدينية أو السحرية (مكتبة الكاهن الأكبر في الأكروبول، بيت الكاهن الساحر في المنطقة الجنوبية من الأكروبول، إلخ).

لقد سبق وأشرنا إلى أن الحياة المنزلية كانت تدور ليس فقط في الطابق الأرضي وإنما أيضاً في الطوابق العلوية. ففي الطابق الأرضي نجد المدخل وأماكن التخزين والمتاجر والنشاطات المرتبطة بالماء مع مثابات* الآبار والأحواض الموجودة في عدد كبير من المساكن. ففي القبو، عند مستوى القواعد وتحتها،توجد مغائر جنائزية وآبار وحفرة التنظيف[11].

---

* مثاب: حجر منقور مثبت حول فوهة البئر. (المترجم)

[11] حول هذه المسائل المائية، انظر كالفيه وجاير 1995، Calvet et Geyer

تتجمع بيوت أوغاريت على شكل مجموعات، باستثناء حالة المنازل الكبيرة (منزل يبنينو، المسكن الشمالي...) وتفصل الشوارع بين هذه المجموعات كما تسمح بالوصول إليها.

طرق المرور

تسمح المساحة المنقبة بتقديم بعض الفرضيات منذ الآن حول شبكة الشوارع في عصر البرونز الحديث. إنها تتكون بشكل أساسي من شوارع يتراوح عرضها وسطياً بين 2 و3.5 م، لكن هناك أيضاً العديد من الشوارع المسدودة التي تقود إلى أبواب مستورة نوعاً ما. إن بعض هذه الشوارع المسدودة عبارة عن شوارع قديمة. تمت خصخصة بعضها أو بني فوقها أثناء إعادة بناء المنازل لا سيما النسيج العمراني، ولا بد أن ذلك قد نتج عن النمو السكاني. ففي المساكن الواقعة على المنحدرات، تستطيع الشوارع الوصول إلى مستوى المرور بواسطة درجات أو حتى بواسطة أدراج حقيقية، كما هو الحال بالنسبة للدرب الذي يقود إلى معبد الإله بعل وفق «الأكروبول».

إن الساحات الحقيقية نادرة، إنها في الأغلب ساحات صغيرة أو تقاطع شوارع واسعة، مثل ذاك الذي نراه على سبيل المثال جنوب الحي السكني، في الطرف الأقصى من المنطقة المنقبة من الشارع العالي للقصر. وتقدم «الساحة الكبيرة»، التي تشاهد في وسط شارع «المدينة الجنوبية»، حالة خاصة ونادرة لفضاء خال في قلب مساكن متراصة[12]، ينطبق الشيء نفسه على الأرض الخالية الواقعة إلى الشمال الغربي من البناء المسمى «وعاء الحجارة» في الحي السكني في موقع «بيت الأفران»، الذي تمت تسويته بالأرض أثناء المرحلة الأخيرة من إشغال المدينة. إن بعض المساحات غير المبينة ليست ساحات حقيقية، مثل الأرض الخالية التي تغطي خرائب «القصر الشمالي».

وتمثل الساحة الواقعة أمام المدخل الرئيسي للقصر حالة خاصة أيضاً،

---

[12] كالو Callot .1994

ذلك لأنها تقع في قطاع ليس بمتناول الجمهور مباشرة، وإنما في داخل الحي الملكي.

وإذا ما نظرنا إلى مخطط المدينة بكامله، كما يبدو في المناطق المنقبة، فإننا نلاحظ شيئاً من الانتظام في شبكة الطرق العمرانية، فبعض المحاور مستقيمة مثل شارع «القصر الملكي» الذي يحاذي هذا البناء من جهة الشمال، و«شارع السور» الذي يخدم «المدينة المنخفضة» شمال التل، أو مثل المحور الذي يتوغل في المدينة الذي يمكن تصوره في الجنوب. يعبر هذا المحور نهر الدلبة فوق الجسر الذي ذكرناه من قبل، ونجده من جديد عند التقاطع المسمى «الشارع الكبير» الواقع جنوب التل، وهو يفضي إلى «الساحة الكبيرة» عن طريق «المدينة الجنوبية». ويمكن أن نعيد إنشاء شبكة من الشوارع المتحدة المركز المتوازية التي تخدم المجموعات السكنية المختلفة. يقع مركز هذا التنظيم بعيداً في الواقع نحو الجزء الشمالي الشرقي من التل فوق الأكروبول بالقرب من مكان معبد بعل. من الصعب القول أننا أمام مشروع عمراني مقصود أو أننا بكل بساطة أمام ظاهرة طبيعية تهدف إلى إنشاء شوارع شعاعية صاعدة من جهة، ومن شوارع متحدة المركز تتبع بشكل تقريبي منحنيات التسوية في التل وذلك بحسب الشكل الذي كانت تقدمه في عصر البرونز الحديث.

أياً كان الأمر، فإن المدينة كانت لحظة تدميرها العنيف، في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، في أوج حيويتها، من خلال تكثيف المساكن في بعض الأحياء، ولكن أيضاً من خلال إنشاء الفضاءات العامة الخالية، ولا سيما من خلال مشاريع إعادة البناء في منطقة «القصر الشمالي».

2- دولة أوغاريت

إن الوثائق الخارجية المكتوبة التي تشير إلى أوغاريت ومملكتها (لقى ماري (تل الحريري)، وآلالاخ والعمارنة وحتوشه (بوغاز كوي) تذكر أنها عبارة عن دولة بكل معنى الكلمة منذ مطلع عصر البرونز الوسيط (بين نهاية الألف الثالث ومطلع الألف الثاني). أي أن العاصمة كانت موجودة

كمركز للسلطة خلال ما يقارب ألف سنة وذلك حتى تدميرها في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد تم تأكيد هذا الدور في الوثائق التي عثر على عدد كبير منها في موقع المدينة والذي يتعلق بنهاية عصر البرونز الحديث. إن قائمة التسميات القديمة للمملكة طويلة، ولكن تلك التي يمكن التعرف عليها من خلال المواقع الأثرية التي تم تحديدها تشكل جزءاً زهيداً من البيان المعروف.

الحدود الطبيعية

تمتعت دولة أوغاريت بموقع جغرافي متميز، كما أشرنا سابقاً. فقد منحها الظروف المناسبة جزئياً للاستقرار البشري منذ غابر الزمان. كما أن المناخ المتوسطي والطقس المشمس ووفرة التهطال (اكثر من 800/مم) وطبيعة التربة... إلخ. قد ساعد على ممارسة الزراعة وتربية الماشية على مستوى كبير وهي الحالة نفسها اليوم، حتى وإن كانت الظروف قد تحسنت مع الزمن. كما يجب إضافة الموارد الطبيعية الهامة للعيش وصناعة السكان: أرض (عمارة، فخار، أدوات) مقالع الحجارة (عمارة، أدوات)، خشب الغابات (عمارة، بناء السفن، الوقود)، الإسفلت في وادي نهر الكبير (لاصق، ملاط)، إلخ.

إن موقع اوغاريت والأقليم التي كانت تمنحها جزءاً من وسائل العيش ملائم جداً للنمو ولرخاء سكانها أيضاً. في الواقع، هناك وحدة واضحة لهذه المنطقة الساحلية ذات الحدود الطبيعية: البحر المتوسط من الغرب، جبل الأقرع من الشمال (ارتفاعه 1780م) والسلسلة الساحلية إلى الشرق (متوسط الارتفاع 1000م). ويتطابق إقليم أوغاريت تقريباً مع محافظة اللاذقية الحالية، أي ما يقارب 2000 كم2. وفي الجنوب لا يشكل نهر السن، بسبب أبعاده المتواضعة، عقبة طبيعية هامة ولكنه يشكل الحدود الطبيعة لمملكة أوغاريت.

ومع ذلك فإن هذه الحدود، باستثناء القمم العالية، لا تمثل عناصر عزلة. ففي الواقع يعتبر البحر وسيلة اتصال مميزة مع البلدان المجاورة وذلك بواسطة النقل البحري. فازدهار التجارة البحرية في المنطقة في عصر

البرونز يشهد على ذلك، وهكذا أصبحت أوغاريت منطلقاً للمبادلات التجارية بين بلدان البحر المتوسط من جهة (مصر، العالم الإيجي، قبرص، الأناضول الساحلية، الخ...) وداخل الشرق الأوسط من جهة أخرى (سورية الداخلية، ما بين الرافدين، إيران، آسيا الوسطى، إلخ.).

من المؤكد أن الدور التجاري للمنطقة كان، منذ نهاية العصر النيولوتي، عنصر مؤسس بالنسبة للمؤسسات اللاحقة لدولة تنتظم حول عاصمتها وحول سلطة مركزية، حتى وإن كانت قد خضعت لتأثيرات متعاقبة من جاراتها الإمبراطوريات الكبيرة (المصريين، الميتانيين، الحثيين، الخ.).

الطرق البحرية

تقدم الواجهة البحرية لمملكة أوغاريت قليلاً من الموانئ الطبيعية أو الشواطئ الرملية المحمية التي تسمح بإيواء الزوارق. لكن السكان الأوائل استطاعوا أن يستفيدوا من بعض المواقع المناسبة مثل مينة البيضاء، أقرب ميناء إلى العاصمة، أو رأس البسيط في الشمال، أو أيضاً خلجان اللاذقية أو جبلة في الجنوب، كما أن مصبات الأنهار تسمح بإيواء الزوارق (كمصب نهر السن على سبيل المثال).

كانت التجارة البحرية تعتمد على الإبحار بين المرافئ على طول الساحل من مصر وهي تتبع الساحل المشرقي الجنوبي لتصل إلى ما بعد أوغاريت نحو شطآن الأناضول. وما يزال حطام سفينة الأولوبورون موجود ليشهد على ذلك[13]. كان علىهذه السفينة، التي تحمل حمولة متنوعة من المنتجات المشرقية والقبرصية، أن تتبع هذا الخط الساحلي معتمدة على تبادل البضائع على طول سواحل البلدان كانت تمر قبالتها. لكن الإبحار في عوض البحر كان يمارس أيضاً وذلك باتجاه قبرص وكريت وجزر بحر إيجه، وربما أبعد من ذلك نحو الغرب.

كانت الطريق البحرية تناسب بشكل خاص نقل البضائع الثقيلة (نحاس

[13] Pulak et Bass. 1997

قبرص، خشب الأناضول، الجرار المليئة بالمواد الغذائية المختلفة الخ.)، لكن الأدوات الخفيفة كانت تشكل أيضاً جزءاً هاماً من المبادلات التجارية. يكفي أن نلاحظ حول هذا الموضوع الكمية الكبيرة من الأشياء المصرية، والقبرصية والميسينية التي أخرجت أثناء عمليات التنقيب في أوغاريت ومينة البيضاء أو رأس ابن هاني.

طرق القوافل

استطاعت مملكة أوغاريت من خلال موقعها كمركز انطلاق للتجارة في المشرق أن تمارس بشكل طبيعي تجارة ناشطة مع البلدان المجاورة أو الأبعد نحو الشمال والشرق والجنوب. كانت حركة البضائع تتم بواسطة حمّالين أو بواسطة قوافل الحمير، الحيوان الوحيد المدجن في ذلك العصر من أجل نشاط هكذا.

كانت حركة المرور ناشطة من قبل داخل دولة أوغاريت، لاسيما بين الموانئ والمراكز الداخلية. لقد كانت الطريق القصيرة (أقل من 1 كيلومتر) التي تربط بين مينة البيضا والعاصمة تدب بحركة ذهاب وإياب لا تتوقف من قبل القوافل التي تحمل البضائع اللازمة لحياة السكان أو العابرة نحو اتجاهات أخرى. وينطبق الشيء نفسه على الطريق التي كانت تربط بين أوغاريت والمقر الملكي في رأس ابن هاني.

لقد كان هناك العديد من طرق القوافل التي تربط بين مملكة أوغاريت وجيرانها المباشرين. طريق يتجه نحو الشمال يقود إلى دولة موكيش وآلالاخ عبر الممر الواقع إلى الشرق من كتلة جبل الأقرع (منطقة كسب الحالية). وكان وادي نهر الكبير في الشرق يسمح للقوافل بالوصول إلى وادي نهر العاصي الأوسط، ومن ثم إلى الفرات، إلى أهم تقاطع للطرق في المنطقة، إلى إيمار (مسكنة)، ومنها كانت القوافل تأخذ الطريق النهري في الفرات لكي تصل إلى منطقة ما بين الرافدين، وهناك كانت تلتقي أيضاً بطرق القوافل التي تقود إلى ميتاني وآشور. وقد كانت العوائق الجغرافية أقل أهمية إلى الجنوب مما سمح للطرق المحلية بإقامة علاقات مع دولة سيانو المجاورة

لمملكة أوغاريت وأوشانتو (تل داروك) ودولة أمورو (تل كازل)، ثم قادش ومن وراءها فلسطين والمدن الكنعانية في المنطقة.

كانت هذه العلاقات التجارية تتعرض لمشاكل أمنية بسبب وجود القراصنة في البحر («شعوب البحر» كانوا يشكلون خطراً كبيراً على هذه العلاقات، منذ مطلع البرونز الحديث بلا شك). ولم تكن الطرق البرية بمنأى عن الصعوبات في نقل البضائع بسبب الغزوات التي كانت تقع على القوافل التجارية. ويبدو أن تجار أوغاريت والملك كانوا يرغبون بالحصول على حماية القوى العظمى المجاورة مثل المصرية في مطلع عصر البرونز الحديث والحثية لاحقاً.

لقد منحت كل هذه العلاقات لأوغاريت دوراً دولياً من خلال وجود العديد من الأجانب في دولتها لا سيما في العاصمة، فلا تحسب الأسماء الحورية المؤكدة في أوغاريت (أورتينو، آغا بشاري، الخ.) بشكل مستقل عن المخزون المحلي من الأسماء السامية.

لكن هناك أيضاً القبارصة والحثيين والمصريين والسيلسيين الخ. كما تشهد التحالفات الملكية، كذلك التحالف بين الملك منيكمادو الثالث مع أميرة مصرية، على الروابط الوثيقة بين أهالي أوغاريت والأجانب.

خلاصة

لم تكن أوغاريت في عصر البرونز الحديث مدينة جديدة على غرار بعض مدن ما بين الرافدين (معسكر مثل هارادوم / خربة الدينيية على الفرات، أو ميناء نهري مثل إيمار / مسكنة أو عاصمة مثل دورشاروكين/ خرسبادا في آشور)[14]. فقد تشكلت المدينة تدريجياً خلال عصر البرونز على موقع أكثر قدماً. ولقد فرضت المنتجات الزراعية والنشاطات الاقتصادية والتجارية بشكل طبيعي إدارة جيدة للموارد البشرية، كما يقال اليوم. لقد

[14] Huot, Dir. 1988

ساهم في هذا التنظيم سلطة مركزية وتسلسل إداري، تنظيم يدور في فلك عاصمة مملكة أوغاريت.

لعبت المدينة دور العاصمة من خلال سلطة مركزية، قامت بدور المحاور المتميز مع الدول المماثلة في المنطقة بالمعنى الواسع لهذا المصطلح. وتؤكد على ذلك من جديد النصوص التي عُثر عليها في السنوات الأخيرة في المسكن الكبير في جنوب المدينة وهو البيت الذي ينسب إلى شخص يدعى أورتينو[15]، وهو تاجر على علاقة بالسلطة الملكية، وتذكر هذه النصوص المبادلات مع قبرص في الغرب، وصيدا في الجنوب، ومصر البعيدة أو الإمبراطورية الحثية. يمكن أن نذكر على سبيل المثال الألبسة التي خيطت في حثي والتي نقلتها قافلة إلى أوغاريت كي تصبغ فيها، ثم أرسلت من جديد إلى حثي، المكان المحتمل لاستعمالها.

لقد ولدت مدينة أوغاريت من خلال الحاجة لتنظيم اجتماعي وازدهرت بفضل التجارة. ولقد حافظت على مركزها الهام حتى تدميرها النهائي في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وذلك بفضل موقعها الجغرافي المناسب والظروف الطبيعية الملائمة ونمو سكانها المضطرد.

إن السؤال الذي يطرح نفسه دوماً هو الخاصية النهائية لهجرة هذه المدينة[16]. فهذه الهجرة لا تبرر بسبب تدمير شبه كامل من فعل البشر، فليس من المستحيل إعادة البناء. وهناك الكثير من الأمثلة لمدن تولد من دمارها بعد مضي بعض الوقت. كما أنه لا يوجد أي مؤشر عن تبدل مناخي أو استهلاك للتربة مجاور يسمح بتفسير هذا الهجران ، كما هو الحال في ما بين الرافدين أو أقرب من هناك في منطقة المدن المنسية (أو الميتة) في سورية الشمالية. في الواقع لقد ظلت المنطقة بحد ذاتها مزدهرة في الفترات اللاحقة وما زالت كذلك حتى الوقت الحاضر.

---

15 Yon et *al*. 1995

16 Liverani. 1979

BIBLIOGRAPHIE المراجع

CALLOT (O.),

1994 Ras Shamra-Ougarit X, La tranchée Ville-Sud, ERC, Paris.

CALLOT (0.) et CALVE'F (Y.),

2000 «Rues et places à Ougarit au Bronze recent», Actes du 1er Congrès International sur l'Archéologie du Proche Orient ancien (mai 1998), Rome.

CALVET (Y.)

1989 «La maitrise de l'eau à Ougarit», Gomptes rendus de l'Académie des inscriptions et Belles-Lettres, p. 308-326.

1990 «Un barrage antique à Ras Shamra», Techniques et pratiques hydro-agricoles tradjtjonnelles en domaine irrigué, B. Geyer dir., Colloque Damas 1987, p. 487-499.

CALVET (Y.) et GEYER (B.),

1987 «L'eau dans l'habitat», Ras Shamra-Ougarit IIL Le Centre de la Ville, 38e-44e campagnes, M. Yon, dir., ERC, Paris, p. 129-157.

1992 Barrages antiques de Syrie, CMO 12, Lyon, p. 69-75.

1995 «Environnement et ressources en eau dans la région d'Ougarit», Ras Shamra-Ougarit XI, Ougarit autour de 1200 avant J.-C., M. Yon, M. Sznycer et P. Bordreuil éd., Colloque Paris 1993, p. 169-12.

HUOT (J.-L.) dir.,

1988 La ville neuve, une idée de l'Antiquité ?, éditions Errance, Pans.

LIVERANI (M.),

1979 Supplémentau Dictionnaire de la Bible, fascicule 52-53,s.v. «Ugarit : III-Histoire», col. 1295-1348.

MARGUERON (J.-C.),

1995 «Notes d'archéologie et d'architecture orientales 7 : Feu le four à tablettes de l'ex-«cour » du palais d'Ougarit», Syria 72, p. 55-103.

PULAK (C.) et BASS (G.), article «Uluburun»,

1997 The Oxford Encyclopedia of the Archaeology in the Near East, p. 266-268.

SAADE (G.),

1979 Ougarit, métropole cananéenne, Beyrouth.

WEULERSSE (J.),

1940 Le pays des Alaouites, Tours.

YON (M.),

1997 La cité d 'Ougarit sur le tell de Ras Shamra, ERC, Paris.

YON (M.), BORDREUIL (P.) et MALBRAN-LABAT (F.),

1995 «La maison d'Ourtenou dans le quartier sud d'Ougarit (fouilles 1994)» et «Les archives de la maison d'Ourtenou», Gomptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, Paris, p. 427-45 1.

الهلنسة

أنماط عمرانية جديدة في العصرين الهلنستي والروماني

الظاهرة العمرانية في سورية الهلنستية

بيير لوريش Pierre Leriche

مدير بحث في المركز الوطني للبحوث العلمية ــ فرنسا

أهمية الظاهرة

عندما أسس سيليقوس الأول في عام 312 إمبراطوريته على كامل القسم الآسيوي من إرث الاسكندر، صار لسورية[1] وضع خــــاص. لقــد أصبحــت النافذة المتوسطية للشرق الإغريقي، والرابط الذي أصبحـــت بفضلــه آســيا الأنهار الكبيرة والبوادي جزءاً مــن الأرض الهلنســتية، وصــارت الــهدف المفضل للنشاط السياسي وللاستيطان وللعمران الذي قــاده الســلوقيون إلــى كامل المناطق التي خضعت لهم.

وهكذا فقد تأسس العديد من المدن الجديدة في قلب المناطق الزراعيـــة، أو على الواجهة البحرية، التي رافقها في الوقت نفسه قلاع عسكرية (فروريــا Phrouria وأوخوروماتا Okhuromata) لتحمي المدن الجديدة ولتراقب محاور الطرق الرئيسية. ولكي تجذب المستوطنين القادمين من اليونان، ومن مقدونيــا أو من المدن الإغريقية في آسيا الصغرى، جُهزت هــذه المــدن بمؤسســات منقولة عن النموذج الهيليني. وقد أُعطيت هذه المدن الجديدة أسماء ملكية مثل سلوقيا، أنطاكية، لاوديسيا أو أفاميا، وأسماء مدن أو قرى في مقدونيــا مثــل أوروبس، وإيديسيا أو بيرويا. ولقد أصبحت سورية الشمالية موطناً للعاصمــة، سلوقيا بييري في البداية ومن ثم أنطاكية. وكان عدد المدن المؤسســة كبــيراً

[1] أقصد بسورية، سورية التاريخية، التي كانت قائمة في العصر السلوقي.

لدرجة أن المنطقة سُميت تكراراً ومراراً في زمنها بـ «مقدونيا الصغيرة»[2].
وهكذا تأسس هيكل لتنظيم إقليمي إداري واقتصادي جديد في البلاد، فاتحاً لسورية عهداً طويلاً من الازدهار. لقد طويت نهائياً صفحة الإخميديين

إن هذا النشاط التأسيسي القوي لملوك السلوقيين قد أدهش المؤرخين والجغرافيين القدماء. فديودور، وستاربون وبلين، وأبيين أو مالالاس[3] قد احتفلوا بهذه العملية الواسعة، التي برروها بحسب رأيهم بإرادة التحضير وذلك بهلنسة شعوب هذه الامبراطورية الواسعة.

إن معظم هذه المدن الجديدة عبارة عن مستوطنات عسكرية، والأخرى بعضها ليس سوى إعادة تأسيس لمدن كانت موجودة سابقاً (حلب-بيوريا، حماه-إيبيفانيا، دمشق) التي توسعت وأحيطت بأسوار جديدة. والبعض الآخر عبارة عن خلق حقيقي دفعة واحدة، وفي هذا الاتحاد، وحتى لو كان هناك من قبل تجمع سكني صغير، فقد اختفى هذا الأخير تاركاً المكان لمدن حقيقية ذات شكل وأبعاد تميز تماماً ذلك العصر. ونجد بين هذه الأخيرة مدن رباعي الأقطاب السوري[4] التي اكتسبت تألقاً مؤكداً وأصبحت العاصمة أنطاكية من المواطن الأساسية للحضارة الهلنستية.

ثم عرفت بعض هذه المدن الازدهار حتى القرون الوسطى واستمر بعضها بالحياة حتى أيامنا هذه (أنطاكية، اللاذقية). وانتهت مدن أخرى أصغر بالاندثار ولم يبق منها سوى ذكر بسيط في قوائم المدن أو النقوش الكتابية الأثرية. وفي النهاية، اختفت مدن أخرى في فترة وجيزة نوعاً ما واندثرت ذكراها أيضاً إلى حين اكتشافها الحديث.

---

[2] حول أهمية سورية بالنسبة للسلوقيين انظر: (Voir H.Seyrig, «Séleucus et la fondation de la monarchie syrienne», *Syria* XLVIII, 1970, p. 290 – 311. J'ai moi-meme discuté cette question dans « Urbanisme defensif et occupation du territoire en Syrie hellénistique», *societes urbaines, sociétés rurales dans l'Asie Mineure et la Syrie hellénistiques et romaines*. Strasbourg, 1987, p. 57 - 79)

[3] حول صورة هذا الاستيطان عند الكتاب القدماء انظر (P. Chuvin, «Les fondation syriennes de séleucos Nicator dans la Chronique de Jean Malalas» in P – L. Gatier, B. Helly, J. – P. Rey – Coquais éd., *Géographie Historique au Proche – Orient*. Paris, 1988, p. 99 –110.)

[4] سلوقيا بييري، أنطاكية، لاوديسيا البحرية وأفاميا السورية (أو بيلوس).

الأبحاث القديمة

منذ درويسون الذي كتب خلاصته العظيمة للمصادر القديمة حول هـذا الموضوع، فإن المؤرخين لم يترددوا عن التشديد على أهمية وأصالـة هـذه السياسة «One of the most amazing works of the ancient world» بحسب تارن Tarn. وعلى الرغم من تشكيك البعض[5]، فالعديد منهم قد سعى للعثـور على آثار هذه المستوطنات السلوقية التي كانوا يأملون أن يـروا فيـها «[...] كماً كبيراً من المراكز التي تشع منها الهلنستية، [...]، تشبه جزراً إغريقيـة هزتها أساطيل بحر همجي[6]».

كانت الجغرافية التاريخية هي المقاربة الأولى المعتمـدة علـى مقابلـة المعطيات التي تم الحصول عليها من المصادر ومن التسميات ومن روايـات الرحالة. لقد سمحت نتائج هذه الطريقة، منذ نهاية القرن التاسع عشر بوضـع خارطة للمدن الهلنستية الرئيسية[7] (الشكل 1). وفيما بعد قدمت سلسـلة مـن المسوح الأثرية بتعريفات جديدة وضع مسردها دوسو Dussaud فـي عـام 1927[8].

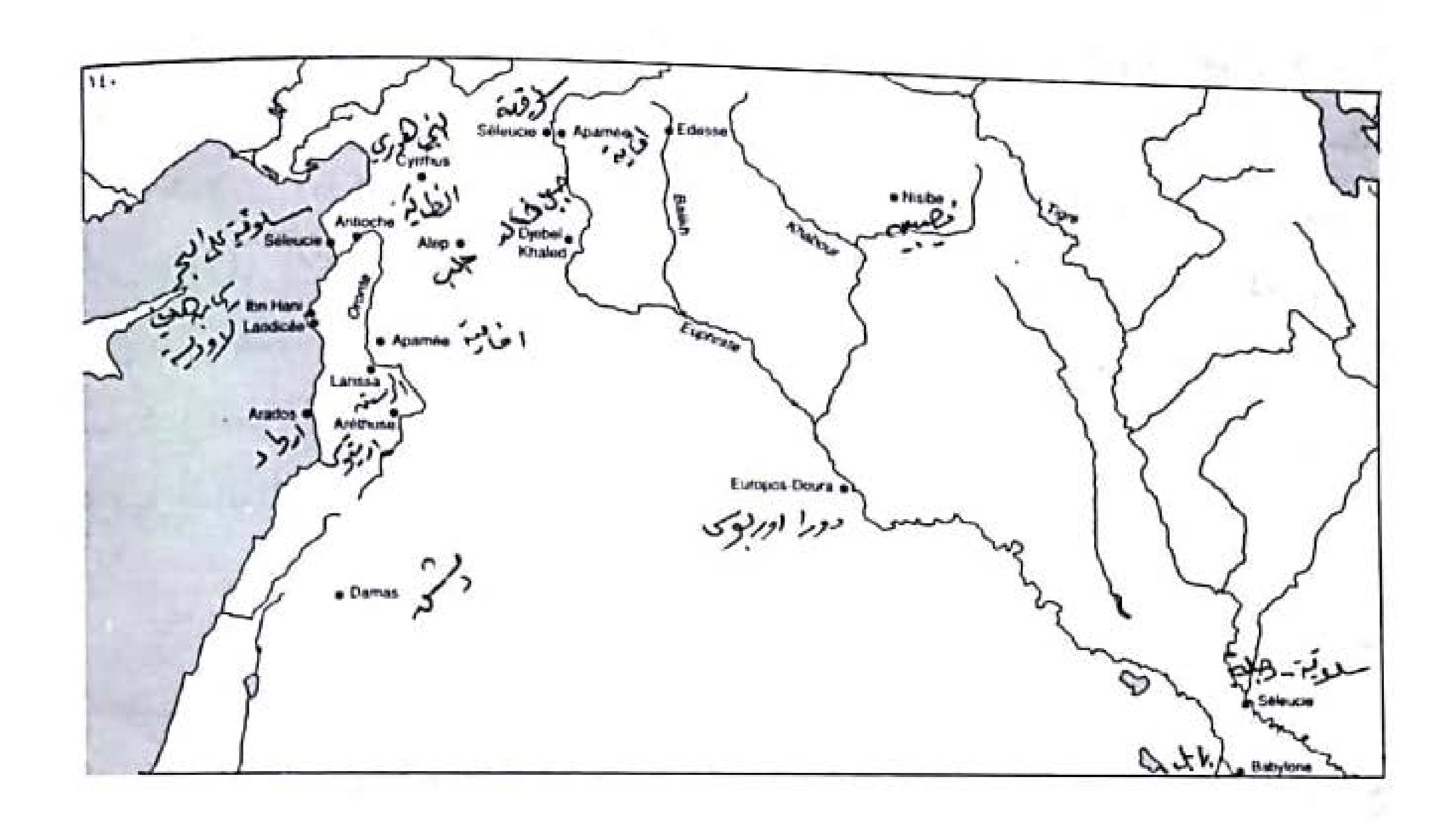
---

[5] «لكي ننهي عرض الوضع المعقد نوعا ما الذي خلفه سيليقوس لوريثه، يجـب تعـداد جميـع المستوطنات التي زاد من عددها الملك العجوز خلال ثلاثين سنة والتي أضيفت إلى تلك التـي شيدها الاسكندر» ... « لدى المؤرخ ما هو أفضل من البحث عن آثار هذه المراكز العمرانيـة التي تحمل أسماء متجانسة ونظيرة للاسكندريات التي نشرها الاسكندر والتي لم تكن أحياناً سوى تغيير في الاسم الذي أطلق على مدن موجودة من قبل»، أ. بوشـي–لوكلـيرك A. Bouché-Leclercq، تاريخ السلوقيين (بالفرنسية). باريس، 1913-14، ص. 57 – 58.
أضف إلى ذلك أن هناك باستثناء بعض المقاطع لبوليب Polybe، جزء كبير من الوصف يعـود تاريخه لفترات لاحقة بشكل واضح للعهد الهلنستي، وأحيانا مشكوك فيه. كما هو الحال بالنسـبة للألقاب التي تتزين بها بعض مدن الديكابول (ائتلاف عشر مدن) المشغولات بالعودة بأصولهن إلى العصر الهلنستي (هي الشهرة، وإرداة تأكيد الاستقلال الإرادي).

[6] J. Sauvaget. Alep: *Essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX siécle*. Paris, 1941, p. 35.

[7] R. Kiepert. «Syria. Mesopotamia. Assyria. Armenia Major». *Recueil de cartes*, 1 éd. 1893, vol. sur la Syrie et la Mésopotamie.

[8] R. Dussaud. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*. Paris. 1927. Pour les résultats des prospections ulterieures: J. – D. Grainger. The Cities of Seleukid Syria. Oxford. 1990.



الشكل 1: خارطة سورية الهلنستية (م. تجولان M. Gelin)

ومع قيام الانتداب[9]، تم تشجيع البحث الأثري من قبل السلطات في سورية. وهكذا قامت بعثات أثرية عديدة باستكشاف الآثار المهجورة لمدن هلنستية، فمنذ عام 1922 كشف التنقيب في مدينة دورا–أوروبوس وللمرة الأولى عن معالم مدينة سلوقية، وكانت مشوشة بشكل أو بآخر بسبب ما يقارب أربعة قرون من الاحتلال الفارسي والروماني. وللأسف كانت النتائج في أماكن أخرى محدودة أكثر أيضاً. ففي أفاميا السورية وسلوقيا البيرية كانت أعمال التنقيب تركز في الواقع بشكل أساسي على الفترات الرومانية وفي حماه لم تظهر المستويات الهلنستية، التي جرفها الحت، سوى على شكل بقايا بائسة، وأخيراً هناك مواقع ليست أقل أهمية (لاوديسيا، سيرهوس، سلوقيا، وأفاميا الفرات) قد أهملتها كل البحوث الأثرية. أما بالنسبة للتنقيبات العمرانية، فإن نموذج أنطاكية ــ حيث كانت المستويات الهلنستية مدفونة تحت 11 م من

[9] M. Gelin, *L'archéologie en Syrie et au Liban à l'époque du Mandat* (1919 - 1946). (sous presse).

طبقات الاستيطان العائدة لفترات أحدث ــ كان كافياً ليثبط همتهم[10].

وهكذا، وفي مقاربة لا مثيل لها، حلل المستشرق جـــان ســـوفاجيه J. Sauvaget مخطط مدينة لاوديسيا وحلب ودمشق وكشف من خـــلال شـــبكة الشوارع عن بقاء نظام هيبودامي (شطرنجي)[11]، وعثر على آثـــار جـــدران الأسوار (الشكل 2) وأعاد كل هذه العناصر إلى العصرِ الهلنســـتي[12]. ومنـــذ ذلك الحين، لم يُعَد النظر بشكل عميق في نتائج هذه الدراسة اللامعة[13].

إذن تظهر نتائج هذه البحوث أنها محدودة، وحتى زمن قريب جداً كـــان يعتقد[14] أن مدن العصر السلوقي قد شيدت بالأصل دفعـــة واحـــدة دون أيـــة شخصية متميزة بحسب مخطط هيبودامي منهجي ورتيب[15]. مـــع العلـــم أن الدراسات المتعلقة بالمدن الهلنستية قد اكتفت، حتى زمـــن قريـــب، بالنتـــائج العامة جداً للملخص الذي قدمه سوفاجيه (الشكل 3) وظلت محصـــورة كليـــا بالوثائق الأدبية والكتابية، برغم غناها بالثغرات، وذلك من أجل كتابة تـــاريخ الاستعمار السلوقي[16].

---

[10] GL. Downey. *A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest*. Princevon. 1961; J. Lassus. Les portiques d'Antioche. Princeton. 1974; G. Poccardi. «Antioche de Syrie. Pour un nouveau plan urbain de l'ile de l'Oronte (Ville Neuve)». MEFRA. 106/2. 1994. p. 993 – 1023 et J. Lebalanc et G. Poccardi. «Etude de la permanence des traces urbain et ruraux antiques a Antioche sur l'Oronte». Syria LXI. 2000 (a paraitre).

[11] مبدأ لتوزيع الأرض على شكل مقاسم مربعة متماثلة، مفصولة عن بعضها بشوارع متعـــامدة الزوايا. ويعود هذا الاسم إلى المعماري هيبوداموس من ميلي، الذي قام في النصف الأول مـــن القرن الخامس قبل الميلاد بوضع مخطط تنمية عمراني في بيريه Piree يعتمد علـــى توزيـــع وظيفي للأحياء الجديدة.

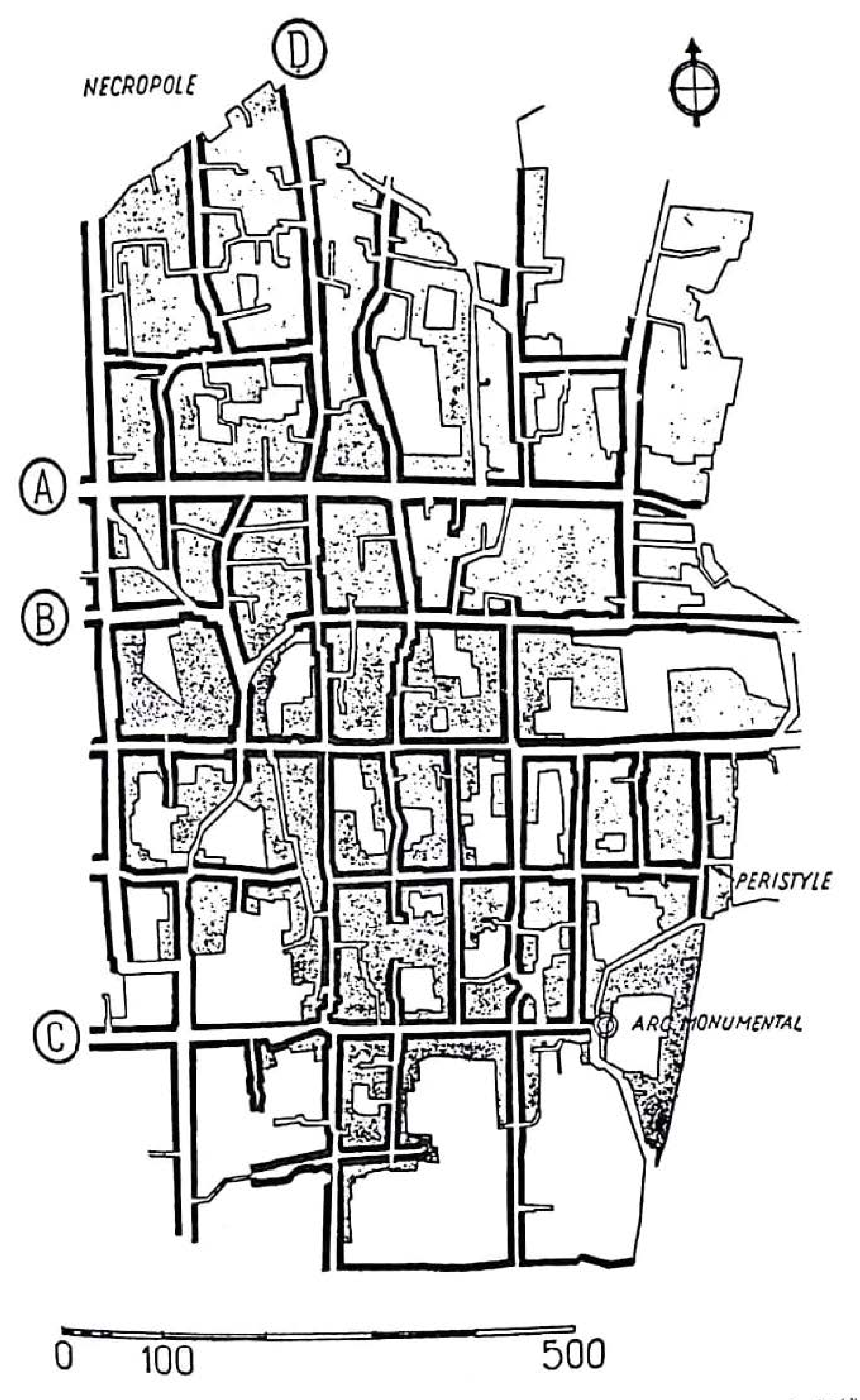
[12] J. Sauvaget. «Le plan de Laodicée sur mer», *Bulletin d'Etudes Orientales* IV. 1934. p. 81 – 114.

[13] لقد أعيد استخدام هذه الطريقة مؤخرا بالاعتماد على تحليل الصور الجوية مع إدخال دراســـة المخططات العقارية للشورى chora في المدن المعنية. انظـــر دودينيـــه Dodinet ، لوبـــلان Leblane، وفالا Vallat.

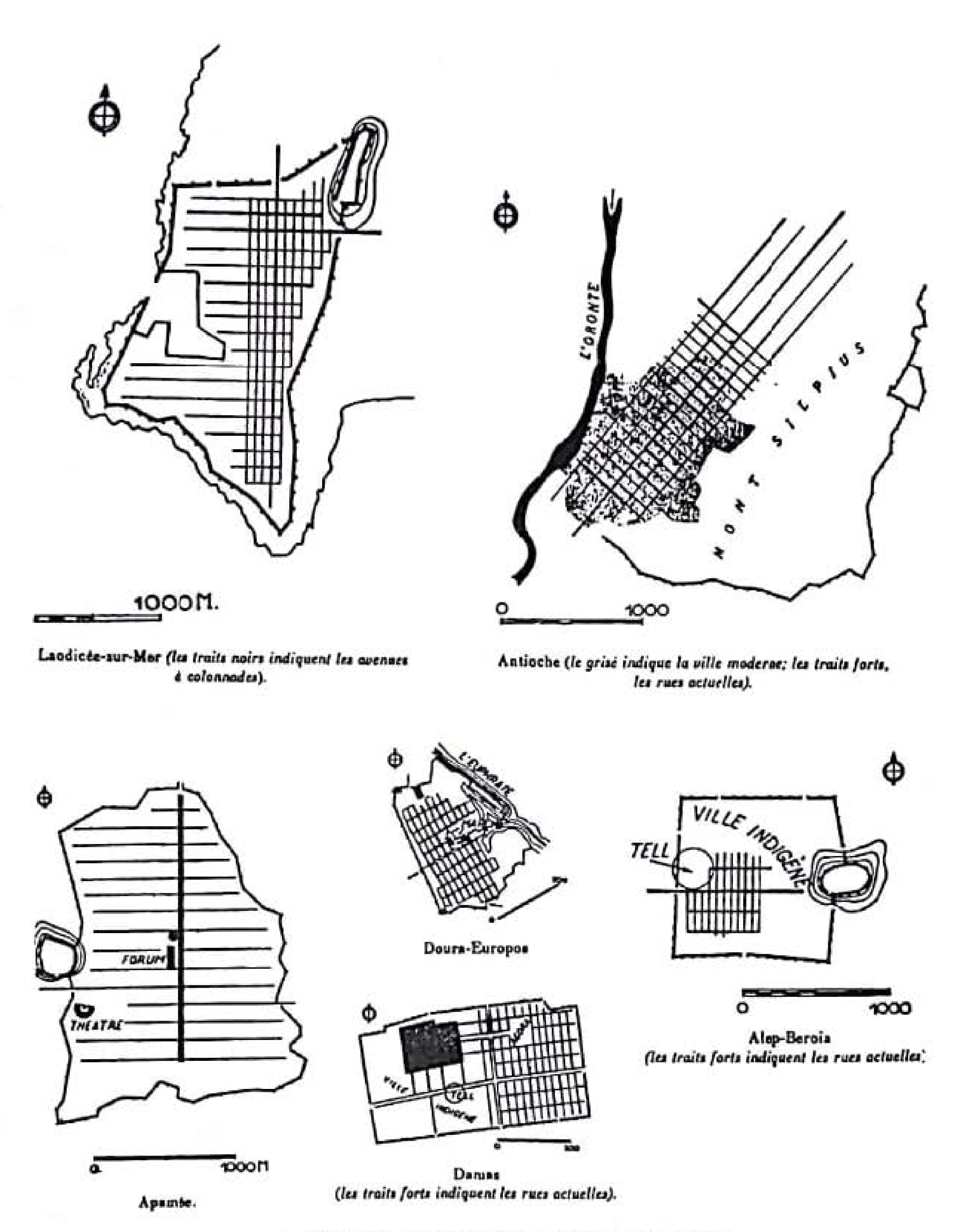
[14] A. Von Gerkan. Griechische Städteanlagen. Berlin – Leipzig. 1924; Lavedan. *Introduction à une histoire de l'architecture urbaine*. Paris. 1926; R. Martin. *L'urbanisme dans la Grèce antique*. 2 éd.. paris. 1982.

[15] انظر مؤخرا W. Hoepfner et E. – L. Schwandner. *Haus und Stadt im Klassischen Griechenland*. Berlin. 1986.

[16] وعلى سبيل المثال أيضا S. Sherwin White et A. Kuhrt. *From Samarkhand to Sardis. A New approach to the Seleucid empire*. Berkeley. 1993.



الشكل 2: استمرارية شبكة الطرق الهلنستية في مخطط لاوديسيا البحرية بحسب سوفاجيه J. Sauvaget.



الشكل 3: مخطط المدن الهلنستية في سورية بحسب ج. سوفاجيه J. Sauvaget

تجديد المعطيات

لقد تغير هذا الوضع جذرياً إبان الربع الأخير من القرن العشرين، وذلك بسبب التطور المفاجئ للبحث الأثري. ويعود ذلك أولاً إلى ظهور وتنقيب موقعين من العصر الهلنستي كان وجودهما مجهولاً حتى ذلك الحين: ابن هاني على الساحل إلى الشمال من اللاذقيه، وجبل خالد في الفرات

الأوسط[17]. ومن ثم بعد ذلك، في أفاميا السورية، تركز التوجه الجديد للأعمال لدراسة التحصينات والحالات القديمة للمدينة، وتكوين بعثة جديدة في دورا-أوروبوس، التي تركزت بحوثها الأثرية على دراسة الحالات الأولى للمدينة. ومنذ عدة سنوات نشط الاستكشاف الأثري في الموقعين التوأمين: سلوقيا-زوغما وأفاميا الفرات، المعرّضين، على الأقل في جزء منهما، للاختفاء تحت مياه بحيرة السد.

وبفضل نتائج هذه البحوث الأثرية الجديدة، فقد اغتنت وتجددت وتوضحت صورة المدن الهلنستية في سورية بشكل كبير. فمن خلال الاستكشاف الدقيق للتحصينات (السور العمراني والقلعة)، تم التمكن من وضع حدود هذه التشييدات، إن كانت مواقع عسكرية عادية أو مدناً حقيقية، وعُرف تاريخها. إن تنقيب الشوارع، الذي تشكل أعمال ج. لاسوس J. Lassus في أنطاكية توضيحاً ممتازاً له، قد سمح بتأريخ إنشاء مخططات المدن، والتعرف على مختلف مراحل التنظيم العمراني أو صيانة شبكة الطرقات وتحديد مواقع الأبنية التي تحدها في سياقها الطبقي. وأخيراً قدم التقدم في علم دراسة الفخار أداة ثمينة إلى هذا البحث وذلك بالسماح بوضع التواريخ الدقيقة نسبياً.

نتائج البحوث القديمة

لقد حاول إ. ويل E. Will ، أحد أفضل الذين يعرفون سورية القديمة، في مقالة نشرت في عام 1989، أن يرسم صورة للمدن في سورية الهلنستية والرومانية[18]. وهي تبين لنا دراسة حالة المعارف في العصر السلوقي. وعندما يذكر المدن القديمة مثل حلب وحماه، التي كانت «تشييدات جزئية، ومدينة يونانية ــ مقدونية تلتصق بالتجمع العمراني التقليدي المحلي». فهو

---

[17] لنتذكر على سبيل التذكير، بعض التنقيبات الاختبارية التي افتتحها مؤخراً إ. فريزولس E. Frézouls في سيرهوس Cyrrhus فوق المسرح وفوق السور.

[18] E. Will. «Les villes de la Syrie à l'époque hellénistique et romaine»: J. – M. Dentzer et W. Orthmann éd., *La Syrie de l'époque achéménide à l'avènement de l'Islam*, Saarbruck, 1989, p. 223 – 250.

يلاحظ: «لا نملك في أية حالة من هذه الحالات معطيات دقيقة عن هذه الإنشاءات التي تؤكدها النصوص[19]».

أما فيما يخص المدن الجديدة في سورية، فإن إ. ويل يذكر تلك التي تشكل ثلاثي أقطاب سورية الشمالية الذي يحيط به سيرهوس في الشمال وكالسيس في الجنوب ودورا ــ أوروبوس شرقاً. وتشكل هذه الأخيرة بالنسبة له النموذج الوحيد «الذي ما زال يقدم الصورة الواضحة عما كان تشييداً سلوقياً»، من خلال أسوارها، مخططها الهيبودامي وساحتها العامة (الآغورا). وقد قدر عدد السكان الذي توقعه المؤسس بـ 5000 إلى 6000 نسمة[20]. أما فيما يخص مظهر المدينة: «فلم تقم أية محاولة لاهتمام بالمظهر المهيب: فباستثناء الشريان الرئيسي، الطرق قليلة العرض، وكانت تفيد بالوصول ومحصورة بين جدران خالية من الفتحات».

وعندما يتحدث عن أفاميا وأنطاكية، فهو يعيد إلى العصر الهلنستي تاريخ بناء أسوارهما والشارع الرئيسي الذي لا يشبه على الإطلاق الشوارع المعمدة التي تعود للعهد الروماني، ويقدر مساحتيهما على التوالي بـ 250 و 150 هـ[21]. وينبه أخيراً إلى أن «أراضي سورية لم تقدم بعد أي أثر لصرح ذي أهمية تذكر يعود إلى تلك الفترة» ويلخص «هذا الفصل من عدم تأكدنا ومن جهلنا» بتأكيده على أننا لا نعرف شيئاً «عن المدن المحلية السورية في تلك الفترة».

المواقع المعروفة مؤخراً

على هذا الأساس من المعارف الناقصة تنتج سلسلة من الاكتشافات التي ستوضح يوماً ما التاريخ العمراني لسورية الهلنستية.

---

[19] بحسب جان سوفاجيه كان لسور حلب، كما هو الحال بالنسبة لدمشق، مخطط رباعي الشكل يُفسَر شكله المنتظم بغياب العقبات الطبيعية التي تفرض نفسها على المخطط.

[20] تقدير مذكور في إحدى مقالاته القديمة، «La population de Doura – Europos: une évaluation», Doura – Europos. Etudes II, 1988, p. 57 – 63.

[21] حول أنطاكية انظر أيضا: E. Will, «La capitale des Séleucides», *Akten des XIII, internationalen Kongresses für klassische Archäologie*, Berlin 1988, p. 259 – 265.

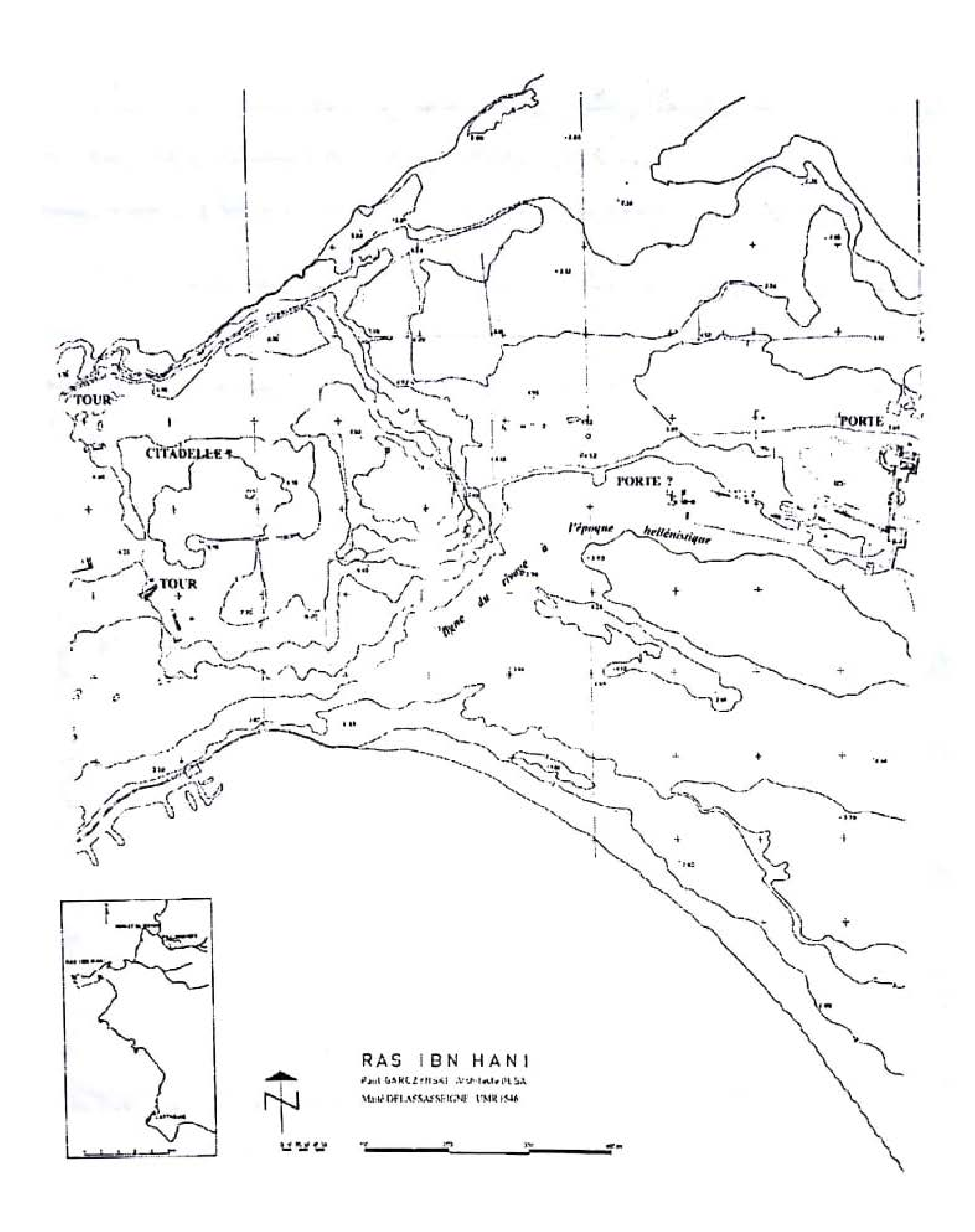
ابن هاني

اكتشف في عام 1976 موقع ابن هاني الذي كان مجهولاً كلياً حتى هذا التاريخ. إن حملات التنقيب السريعة الثمانية التي أشرفت عليها في المدينة الهلنستية بين عامي 1978 و 1983، قد كشفت عن المعالم الأساسية لمدينة أسست في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ومن ثم هجرت بعد خمسين عاماً[22]. وقد عثر في الجزء الشرقي من المدينة على التحصينات التي خربت منذ زمن بعيد، أحياناً بارتفاع معقول، وفي معظم الأحيان على شكل أساسات لا غير. وقد كشف التنقيب أيضاً عن آثار بعض الأبنية (منازل، معبد، مصطبة، أفران) وجزءٍ من شبكة مياه المدينة، وعناصر كثيرة من التزيينات المعمارية وكمٌّ وافر من المسكوكات والفخاريات. وللأسف، لم يعثر على المسرح الذي كان ما يزال يشاهد في مطلع هذا القرن، والنقوش الكتابية القليلة التي عثر عليها لا تعطينا اسم هذه المدينة التي يمكن أن تدعى ديوسبوليس بحسب إشارات بلين القديم Pline L'Ancien وستادياسم Stadiasme.

لقد أسست ابن هاني منذ البدء، كمدينة كبيرة الأبعاد محصنة بأسوار منيعة مبنية بحجارة كبيرة تبلغ سماكتها 3 م وبقلعة تقع على الأغلب في الزاوية الشمالية الشرقية (الشكل 4). وتقدم لنا المدينة، من خلال عمرها الوجيز، شكلاً خاطفاً من أشكال التصورات العمرانية والدفاعية التي غلبت في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد: سور يتوافق مع خط الساحل في الشمال وفي الجنوب، مستقيم في الشرق والغرب، أبراج تتناوب أشكالها بين التربيع وشبه الدائري، وهي متباعدة بانتظام، ميناء رئيسي ذو تغطية محمية ببرج منيع ويفضي إلى ساحة دائرية واسعة محاطة برواق، مخطط عمراني منتظم ومنظم بحسب محورين متعامدين دقيقي التوجيه. كان الماء يجلب في مجارٍ من الرصاص الموضوع في خنادق مغطاة ببلاطات ومزودة بفتحات للكشف تتباعد بمسافات ثابتة وتفضي، من بين ما تفضي إليه، إلى خزان عام.

---

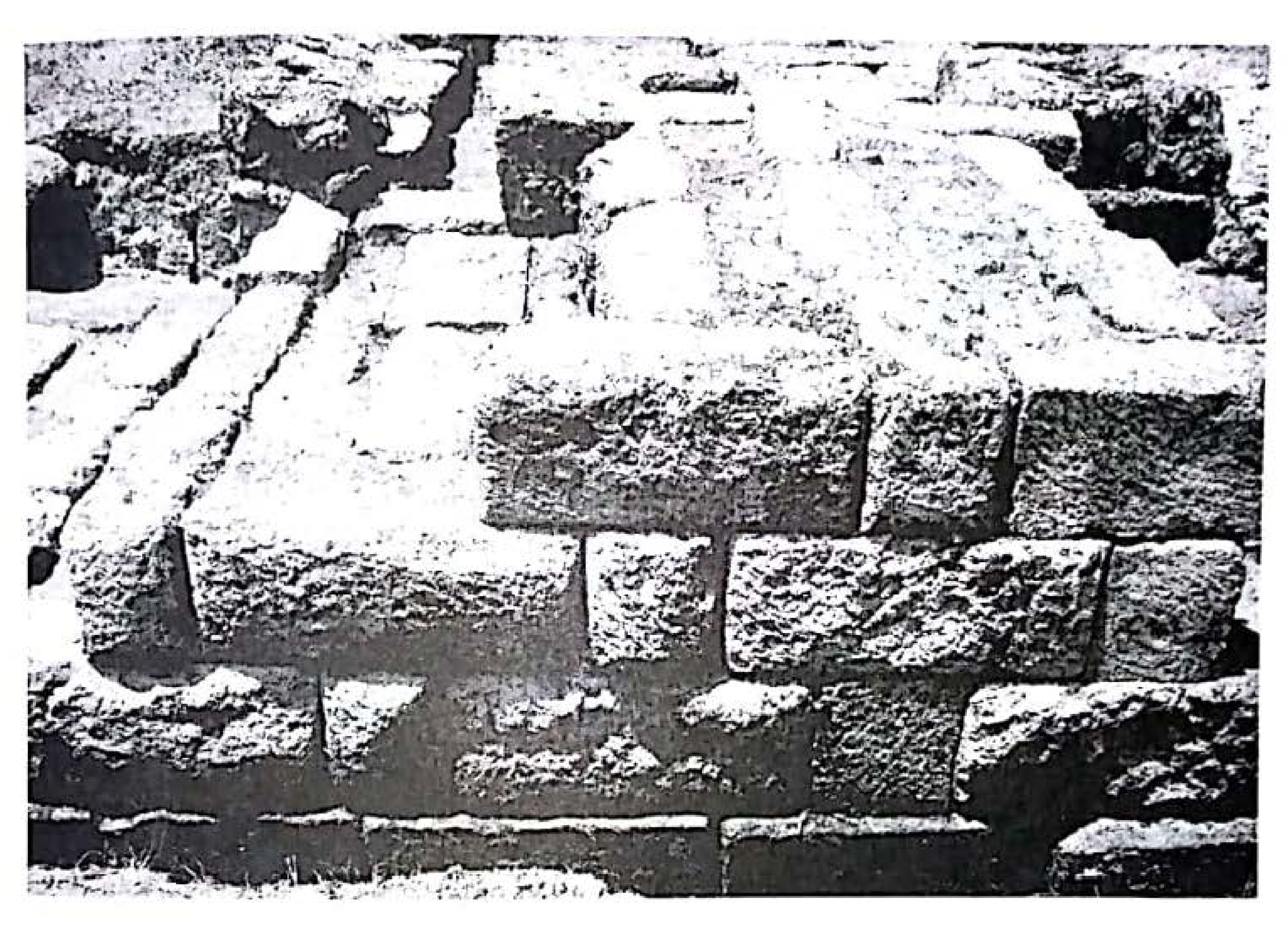
[22] يبدو إن هذا الإنشاء العسكري اللاوديسي، الذي أسس أثناء الحرب اللاوديسية، قد هجر بعد أن سيطر أنيوشوس الثالث على كامل الساحل حتى غزة، وفي المنظور الذي يعنينا هنا، فإن مسألة أن تكون مدينة ابن هاني قد أسست على يد اللاوديسيين ليست ذات أهمية فعلية.



الشكل 4: مخطط مدينة ابن هاني الهلنستية (ب. غار تشينسكي P. Garczynski و م. دولاساسينيي M. Delassasseigne)

أما السور نفسه فقد بني بحجارة من الكلس الطري فقد بنيت بطريقة التلاصق دون ملاط، وهو محمي بخندق يرتفع من خلفه جدار ثان منخفض مبني بالدبش والتراب وتنفتح به مرامٍ تصل حتى مستوى الأرض.

لقد لوحظ هنا للمرة الأولى وجود نظام بناء يعتمد على الحجارة المقولبة (2 × 1 × 1 مرقمة) (الشكل 5) والتي تم التعرف فيما بعد على مثيلاتها في تحصينات أخرى عديدة في المنطقة (أفاميا السورية، دورا-أوروبوس، أفاميا الفراتية، وجبل خالد)[23].



الشكل 5: حجارة مقولبة من سور ابن هاني (تصوير بيير لوريش)

أفاميا السورية

تعتبر أفاميا السورية بالإضافة إلى دورا-أوروبوس إحدى الحواضر

[23] تم التعرف منذ ذلك الحين على نماذج أخرى في المواقع الهلنستية غير السورية مثل كوريون (قبرص) وديمترياس (اليونان).

الأولى ذات الأصل الهلنستي التي تم تنقيبها في سورية[24]. لقد أعيد أصل مخطط هذه المدينة الواسعة، منذ البداية، إلى العصر الهلنستي بالإضافة إلى قلعتها المنيعة المعزولة عن المدينة، وسورها المتطابق تماماً مع تعرجات أطراف الهضبة المطلة على الغاب، وتنظيمها الداخلي بحسب النظام الهيبودامي موزع على شكل مقاسم منتظمة تندمج فيها الصروح والمنازل (الشكل 6). في هذه الأثناء، أدت حفرات الاختبار الستراتيغرافيه التي فتحت على طول السور الشمالي وفي شارع الأعمدة الطويل إلى زرع الشك، إذ أن التواريخ التي تم الحصول عليها لا تعود إلى أبعد من عهد كلود[25].

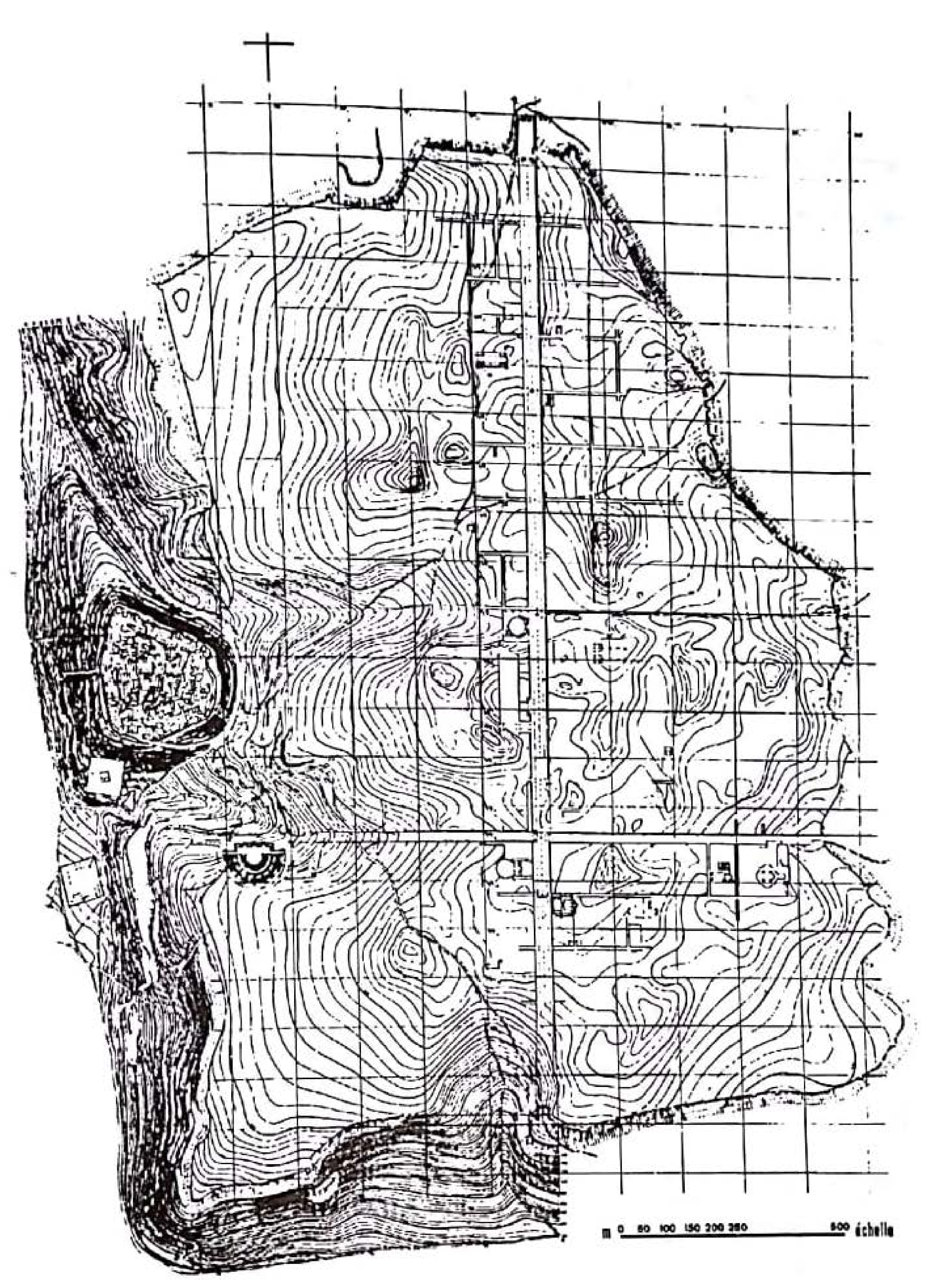
ومن أجل حل هذا اللغز بالذات، استطعت الحصول على الموافقة لكي أفتح في عام 1984 سلسلة من الحفر الاختبارية الأخرى عند أقدام السور الشمالي الذي تم كشفه بالبلدوزر. لقد بينت تلك الاستطلاعات أن أسوار المدينة قد بنيت فعلاً في العصر الهلنستي وأن الجدار الأساسي مبني بحجارة مقولبة من الكلس الطري الموضوعة على شكل تجاويف، وتشبه في كل نقطة منها أسوار مدينة ابن هاني[26]. على كل حال، وبحسب الفخار فإن هذه القاعدة لا يبدو أنها قد شيدت قبل نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، ولا شك أن شبكة المدينة الهيبودامية قد أنشئت في اللحظة نفسها. لن يتم قبول هذا الأمر دون خلق بعض المصاعب، إن تذكرنا أن أفاميا قد أسست، بحسب المؤلفين القدماء، في نهاية القرن الرابع.

---

[24] إن التنقيب الذي انطلق في عام 1930 من قبل فريق بلجيكي يديره ف. مايانس F. Mayence وهـ. لاكوست H. Lacoste، مستمر بصورة منتظمة حتى أيامنا هذه وبإدارة جان بالتي J. Balty. انظر في خاتمة المطاف J. et J. – Ch. Balty, «Apamee de syrie, archeologie et histoire», Aufstieg und Niedergang der ROMISCHEN Welt. II, 8/, berlin, 1977, p. 103 – 134, et J. – Ch Balty, Guide d'Apamee, Bruxelles, 1981; idem., «Grande colonnade et quartiers nord d'Apamee a la fin de l'epoque hellenistique», CRAI 1994, p. 77 – 101. Voir la communication de J. – Ch. Balty dans ce meme volume, p. 165.

[25] J. Mertens, «Sondages dans la grande colonnade et sur l'enceinte», Apamee de Syrie. Bilan des recherches archeologiques 1965 – 1969, Bruxelles, 1969, p. 58 – 71.

[26] لاحظت وجود جدار من النمط نفسه عند أسفل جدار القلعة، يوجد حالياً في قرية قلعة المضيق حيث يستحيل لسوء الحظ القيام بأي تنقيب.



الشكل 6: مخطط مدينة أفاميا السورية

هناك مشكلة أخرى تتعلق بالشارع الرئيسي للمدينة الهلنستية حيث لا شيء يشير إلى أنه كان ذاك الذي يشغله حالياً شارع الأعمدة، حتى وإن كانت المتاجر التي تتواجد على طوله وتحدده، خارج الباب الشمالي، تعود

إلى نهاية العصر الهلنستي[27]. وينتهي شارع الأعمدة في في طرفه الجنوبي بشكل عشوائي وهو ينعطف إلى باب ذي ساحة أنشئت بشكل غريب فوق كتف الهضبة وتنحرف عن محور الشارع. وفي المقابل، فإن الشارع الذي يوجد مباشرة إلى الغرب يقع مباشرة في امتداد لواد يخترق المدينة ومازال يستعمل كطريق حالياً. زد على ذلك أن حفرات الاختبار العميقة التي استطعت حفرها عند الباب الجنوبي في عامي 1986 و 1989 قد قدمت فخاراً يبدو أنه لا يعود إلى فترات أقدم من العصر الجمهوري. لذلك فليس ممنوعاً افتراض تغيير موقع هذا الشارع والذي كان يقع أصلاً في مقسم مجاور إلى الغرب[28].

إذاً، تعتبر مدينة أفاميا بكل تأكيد مدينة منشأة في العصر الهلنستي، غير أنها لم تبلغ حدودها النهائية إلا بعد قرن من تأسيس المستوطنة. ولذلك فنحن نجهل شكلها الأصلي، فربما كانت في البداية أقل اتساعاً ومحصورة بالقلعة ومحيطها. أما موقع الشارع الرئيسي عند تأسيس المدينة بالنسبة لشارع الأعمدة الطويل ' فهذه المسألة تبدو لي أنها مازالت بعيدة الحل.

أوروبوس- دورا[29]

إن هذا الموقع الذي استكشفه ف. كيمون F. Cumont في عامي 1922 و 1923 والذي تم كشفه فيما بعد وبشكل أوسع بإدارة م.إ. روستوفتزف من جامعة يال بين عامي 1928 و 1937 ، هو من أكثر المدن المعروفة في الشرق الهلنستي. فهذه المدينة التي تبلغ مساحتها 75 هكتاراً والواقعة فوق الهضبة المطلة من على ارتفاع 40 م على الضفة اليمنى للفرات الأوسط، تقدم نفسها

---

[27] «لا أجرؤ على الرجوع إلى أنطيوخوس الرابع [...] لكنني سأقترح نهاية القرن الثاني». جان. بالتي، في دورية كري CRAI ، 1994 ، ص 98 .

[28] حول البراهين التي تنقض هذه الفرضية ، أنظر J. Balty «L'urbanisme de la Tétrapolis syrienne», *Ho Ellenismos stèn Anatolè, Athènes,* 1991. p. 203-229.

[29] إن الموقع معروف بشكل عام تحت اسم دورا-أوروبوس وهو اسم يعطي الأفضلية للمظهر الروماني للمدينة. أفضل هنا أن أذكر بالاسم اليوناني وهو الاسم الذي أطلق على المستوطنة عند انشاؤها والذي دام طيلة وجودها.

بحسب مظهرها كمدينة شرقية من العصر الروماني، ولكن خصائصها، كما لاحظ ف. كيمون منذ عام 1926، وكما أكد الاستكشاف الكامل للموقع فيما بعد، هي خصائص مدينة هلنستية. وذلك من خلال خاصيتها الدفاعية الواضحة جداً: قلعة منيعة معزولة عن المدينة، أسوار عمرانية تتطابق مع الجرف في الشرق ومع الواديين الصغيرين المحيطين بالمدينة من الشمال والجنوب، جدران ضخمة مستقيمة تدعمها أبراج مربعة من جهة الهضبة، أبواب عظيمة محمية بشدة. ثم أيضاً من خلال تنظيمها الداخلي: عمران شطرنجي مؤسس فوق مقاسم تتشابه كلها بأبعادها التي تبلغ 35 × 70 م، شبكة من الطرق المتعامدة، والتي يشكل الشارع الرئيسي، الذي يبلغ عرضه 12 م، المحور الموجه، وجود ساحة عامة واسعة (آغورا) في وسط المدينة لم يكتمل تنظيمها ، وجود قصرين بفنائين وأعمدة، وأخيراً المعبدان الرئيسيان المقدمان، أحدهما للإله أرتميس والآخر للإله لزيوس (الشكل 7).

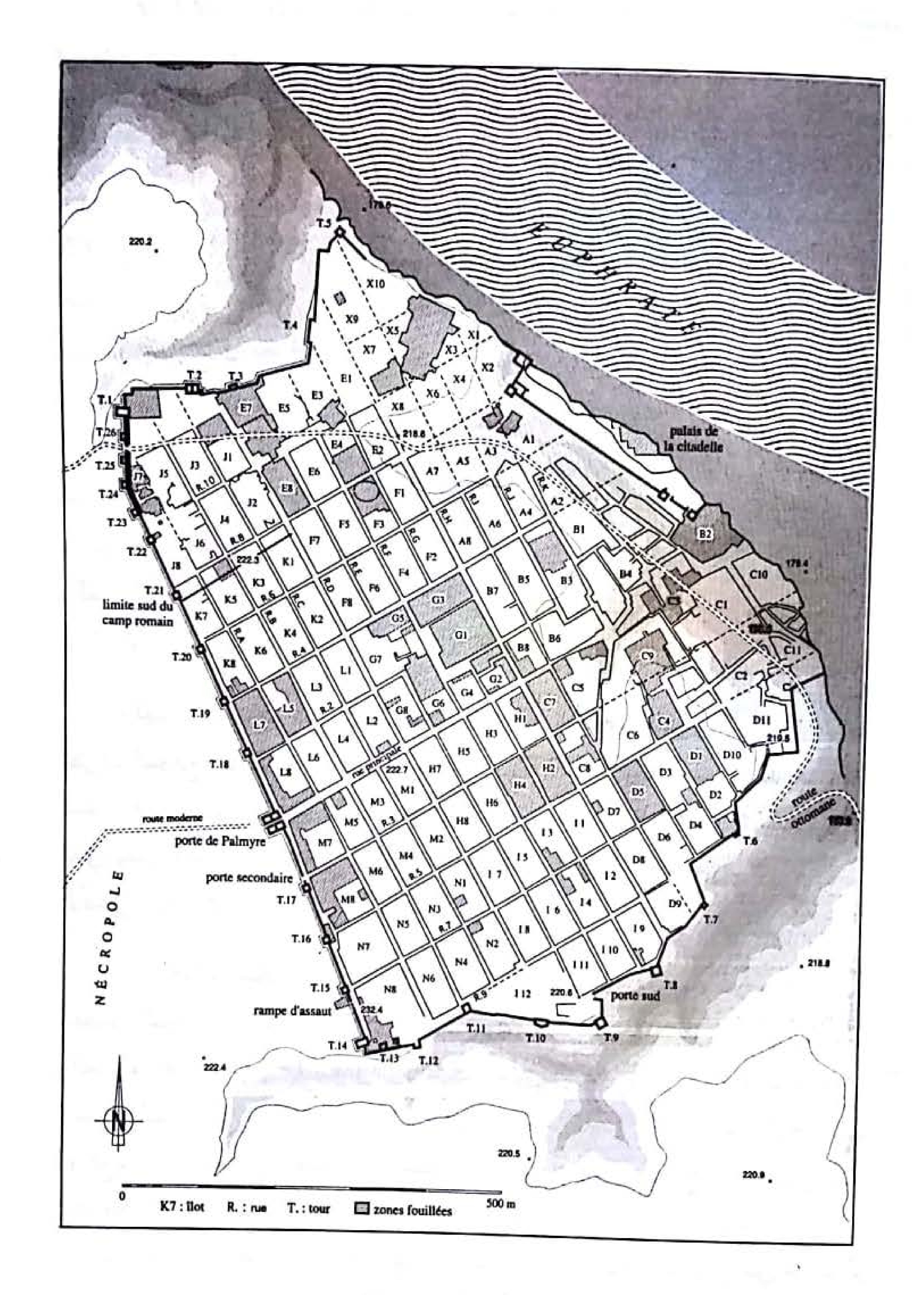
إن هذه الصورة التي تعتبر أكثر الصور كمالاً للمدن الهلنستية في سورية في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، تبقى مع ذلك غير مرضية من حيث التواريخ التي اقترحت[30] ومن حيث النواقص التي تميز ما نشر عنها. زد على ذلك، أن حالة عدد كبير من الأوابد المنقبة المجهولة جزئياً أو كلياً والمهددة بالخراب بعد خمسين عاماً من الإهمال الكلي تستدعي تدخلاً عاجلاً. ولهذا فقد شكلت بعثة أثرية جديدة في عام 1986 لتعود وتتابع الدراسة الأثرية، لا سيما تلك العائدة للفترة الهلنستية مع اتخاذ كل الإجراءات الضرورية لإنقاذ الموقع[31].

إن النتائج التي حصلنا عليها عديدة وهامة، ولكن لن أتعرض هنا إلا لآلية إنشاء المدينة. وبهذا الخصوص، فإن التنقيبات التي أجريت في التحصينات، وقصر ستراتيج، والشارع الرئيسي والقطاع الجنوبي الغربي من الموقع، الأقرب إلى النهر، قد عدلت النتائج التي توصلت إليها البعثتان الأثريتان السابقتان وجعلتها أكثر دقة.

---

[30] Dura – Europos, Preliminary Report VII – VIII, New Haven, 1939, p. 4 – 61.

[31] بعثة فرنسية-سورية مشتركة للدارسة الأثرية ولترميم موقع دوروا-أوروبوس بإدارة بيير لوريش وأحمد المحمود.

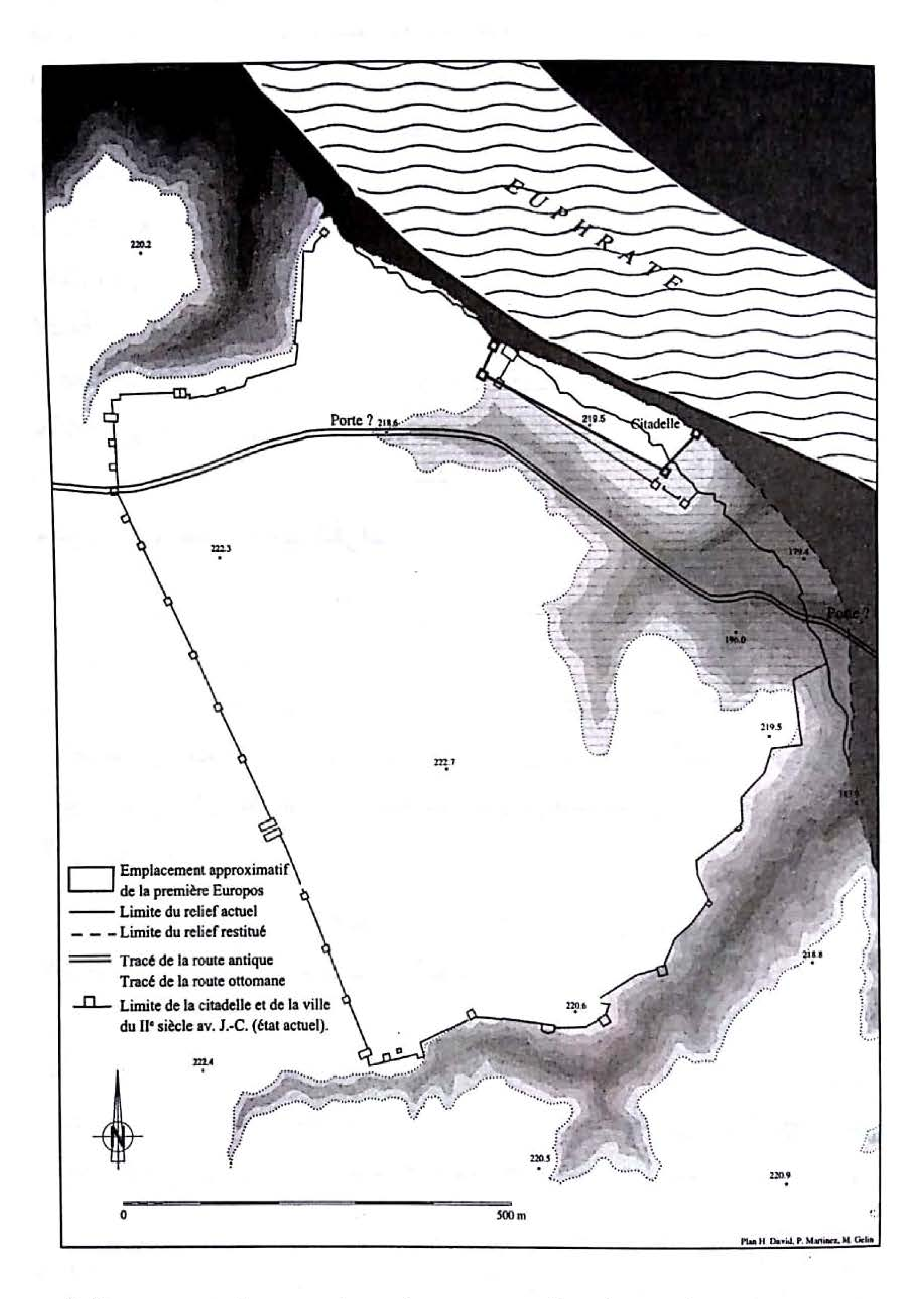


الشكل 7: مخطط أوروبوس-دورا (هـ. دافيد H. David ، ب. مـارتينيز P. Martinez ، م. جولان M. Gelin)

وهكذا فقد استطعنا التأكد من أن بناء السور الحجري قد تم دفعة واحدة، في حين أنه قد أكد سابقاً أن الجدار الهلنستي كان مبنياً في البداية بالطوب غير المشوي فوق أساس من الحجر، وأن الطوب قد بدل فيما بعد بجدار من الحجارة في بداية العصر الفارسي (بعد عام 113 قبل الميلاد)، وما يدهش أكثر هو تأريخ بناء هذا السور، الذي حدد سابقاً في بداية العصر الهلنستي، لكنه في الحقيقة ليس قبل منتصف القرن الثاني. ويجد هذا التأريخ ما يوازيه تماماً في المواد الموجودة في الطبقات العميقة في الشارع الرئيسي التي تبين أن هذا الشارع لم ينشأ إلا في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. إن هذه العناصر المتقاربة تفضي إلى النتيجة نفسها: إن بناء السور العمراني ووضع المخطط العمراني قيد التنفيذ لمدينة دوروا-أوروبوس لا بد أن يحدد في منتصف القرن الثاني وليس، كما كان يعتقد حتى الآن، في نهاية القرن الرابع أو مطلع القرن الثالث قبل الميلاد. إذاً، كان هناك تناقض مع المعطيات والمصادر التي تعيد إلى نيكاتور، أحد جنرالات سيلوقس الأول، تأسيس مدينة أوروبوس.

ولهذا السبب تم البدء باستكشاف المنطقة الجنوبية الغربية، في أخفض أجزاء الموقع، حيث كون الوادي طريقاً سهلة للعبور باتجاه سهل الفرات. لقد كشف هذا القطاع، الذي أهملته بعثة يال، عن وجود تنظيم لشارع يشبه ذاك الذي يميز الشارع الرئيسي ويقدم، للمرة الأولى في الموقع، مواد في مكانها الأصلي تعود للقرن الثالث قبل الميلاد.

إذاً، هناك استقرار في أوروبوس-دورا يمكن أن يعود إلى مطلع العصر السلوقي، وليست المعطيات المكتوبة هي التي تستدعي إعادة النظر، وإنما المخطط المقترح، والموافق عليه حتى الآن من المؤرخين المعاصرين، لإنشاء المدينة في امتدادها وشكلها النهائي منذ العصر الذي أسست فيه. في الواقع، إن مدينة أوروبوس التي شيدت في نهاية القرن الرابع لم تكن في الحقيقة إلا حصناً (فروريون Phrourion) يغلق معبر الطريق الطويلة التي توازي الفرات وتصل بين أنطاكية وسلوقية دجلة، بالإضافة إلى مساكن محصورة بالحصن ومحيطه (الشكل 8). ولم ترتسم المدينة الشطرنجية (الهيبودامية) إلا بعد منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، ربما تحت تأثير



الشكل 8: مخطط التأسيس الأول لأوربوس-دورا (هـ. دافيد، ب. مارتينيز، م. جولان)

أنطيوخوس السابع سـيدتس (Antiochos VII Sidétès) المعـروف عنـه محاولته لإعادة مكانة الامبراطورية السلوقية. هـذا يفسـر كيـف أن بنـاء الأسوار، والآغورا ومعبدي أرتيميس وزيوس ميجيستوس لـم يكتمـل قبـل الغزو الفارسي في عام 113 قبل الميلاد، وأن أول تاريخ تم الحصول عليـه في بناء الأرشيف العدلي (Chreophy Lakion) في الآغورا لم يكن سابقاً لعام 8/129. وهذا يفسر أيضاً أنه، حتى ولو كان نظام المقاسـم فـي المخطـط الشطرنجي الذي وضع في ذلك العصر، قد حوفظ عليه في العصر الفارسـي، عندما بنيت معظم الأبنية العامة والخاصة، فإن بيوت هذه المقاسم لم تبن فـي اللحظة نفسها، حتى ولو كانت متوافقة مع التقسيم النظري إلى ثمانية وحـدات سكنية التي كان يجب أن تكون موضوعة منذ البداية[32].

سلوقيا-زوغما وأفاميا الفرات

نعرف أن سيلوقوس الأول كان قد أسس مدينتين توأمين علـى جـانبي الفرات: سلوقيا، المنشأة على خاصرة الرابية فوق الضفة المقعـرة للفـرات، وأفاميا فوق الضفة اليسرى المحدبة والمسطحة. هاتان المسـتعمرتان كانتـا مخصصتين لحماية معبر النهر في المكان الذي سـيصبح النقطـة الرئيسـية لعبور الطرق الرابطة بين المتوسط وما بين الرافديـن ومنـاطق مزربـان الفارسية العليا.

والغريب في الأمر أنه لم يجر حتى عام 1991 أي بحث أثري في هذين الموقعين ، ولم يكن معروفاً سوى المؤشرات القليلة الملتقطة في الميدان مـن رحالين عديدين، ومنهم ف. كيمون الذي كان أول من عرف مدينة زوغمـا بطريقة مؤكدة، بالإضافة إلى مقالة ج. فاغنر J. Wagner المتعلقة بالكتابـات بشكل أساسي[33]. وفيما بعد، جرت تنقيبات محدودة في منزلين رومانيين علـى الضفة اليمنى، ولكن لم يتم البدء بعمليات تنقيب هامة على نطاق واسع إلا في

---

32 Vior P. Leriche, «Le *chreophylakion* de Doura – Europos et le problème de la mise en place du plan hippodamien de la ville», *BCHSUPPL*. 1994, p. 157 – 169. *Id*., «Pourquoi et comment Europos a ete fondée a Doura», *Esclavage, guerre, économie en Grece ancienne. Mélanges Y. Garlan, Rennes*, 1997, p. 191 – 210.

33 J. Wagner, *Seleukeia am Euphrat / zeugma*, Wiesbaden, 1974.

عام 1995 ، قامت بها بعثة أثرية فرنسية-تركية في كلتا الضفتين[34] (الشكل 4). إن نتائج هذه التنقيبات المستعجلة هي غير كافية بالطبع ، ولكنها تقدم على الأقل مؤشرات ثمينة عن تاريخ وطبوغرافية هاتين المدينتين السلوقيتين[35].

لم تكشف سلوقيا على الضفة اليمنى عن أي أثر لتحصين عمراني من العصر الهلنستي، ولكن كل ما هو موجود يدفع للتفكير بأن القلعة تعود لنهاية القرن الرابع قبل الميلاد. وإلى الشرق من هذه الأخيرة، اكتشفت بعض الأبنية ومجرور من العصر الهلنستي، ولكن معظم الأبنية التي توجد هنا يمكن أن يعود تاريخها إلى العصر الروماني. إن نقطة نهاية طريق أنطاكية على النهر، التي كانت تسير مع وادي باهس دير عند أسفل الخاصرة الغربية للقلعة، تقع خارج حدود المدينة. وهنا يجب كما يبدو إنشاء معبر للنهر بواسطة معدية أو جسر من القوارب يستفيد من الجزر التي تقسم المجرى المائي[36].

يبدو إذن أن الاستيطان السلوقي على هذا الجانب من النهر لم يتجاوز قط حجم موقع عسكري مخصص للمراقبة من موقع يسيطر على طريق أنطاكية ومعبر مجرى الفرات[37]. إذن، لم تتكون مدينة سلوقيا-زوغما بشكل فعلي إلا في العصر الروماني دون إحساس بالحاجة لتحصينها.

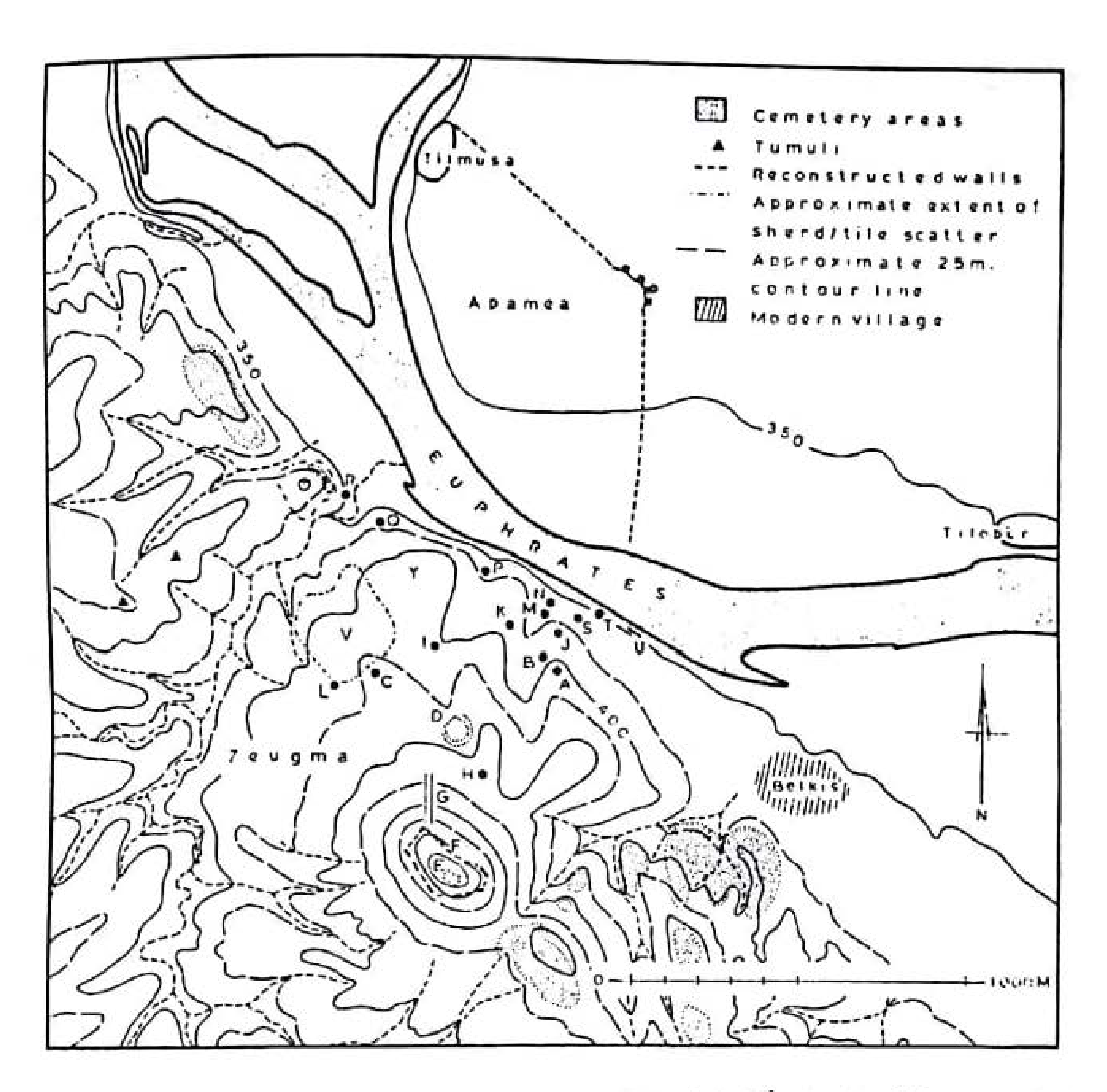
---

[34] عن إعلان بناء سد على الفرات مباشرة قبل الموقعين، حصلت على الموافقة لتكوين بعثة أثرية هامة، فوضت س. أبادي C. Abadie بإدارتها. إن موقع أفاميا مغمور كليا بالمياه حاليا. أما موقع سلوقيا فإن خمس مساحته مغمورة

[35] حول النتائج الأولى لهذه الأبحاث، انظر: C. Abadie – Reynal, A. Desreumaux, A. Hesse, P. Leriche et M. – C. Laroche, «Mission archeologique de Zeugma. Rapport sur la campagne de prospecion 1995», Anatolia Antiqua 4, 1996, p. 311 – 324. انظر أيضا النتيجة الأولى في: C. Abadie – Reynal, R. Ergec, J. Gaborit, P. Leriche. «Deux sites condamnés dans la vallée de l'Euphrate: Séleucie – Zeugma et Apamée», Archéologia n 343, mars 1998, p. 28 – 39. وبالنسبة لوضعية هذه المسألة الأخيرة انظر: A. Desreumaux, «Nouvelles découvertes à Apamée d'Osrhoène», CRAI 2000, p. 75 – 105 (sous presse).

[36] إن التعريف الذي قام به ف. كيمون لعمارة العصر البيزنطي باستعمال الأعمدة للجسر قد ظهر أنه خاطئ.

[37] لقد استعملت قلعتها في عام 64 قبل الميلاد كسجن لكليو باترة سيلين التي قتلها تيغران Tigran. كما برز مظهرها العسكري أيضا في عهد أوغست. وكذلك يعتبر الرحالة سترابون Strabon (XVI, 749) سلوقيا «قلعة مواجهة لما بين الرافدين» (Phrourion tes Mesopotamias)

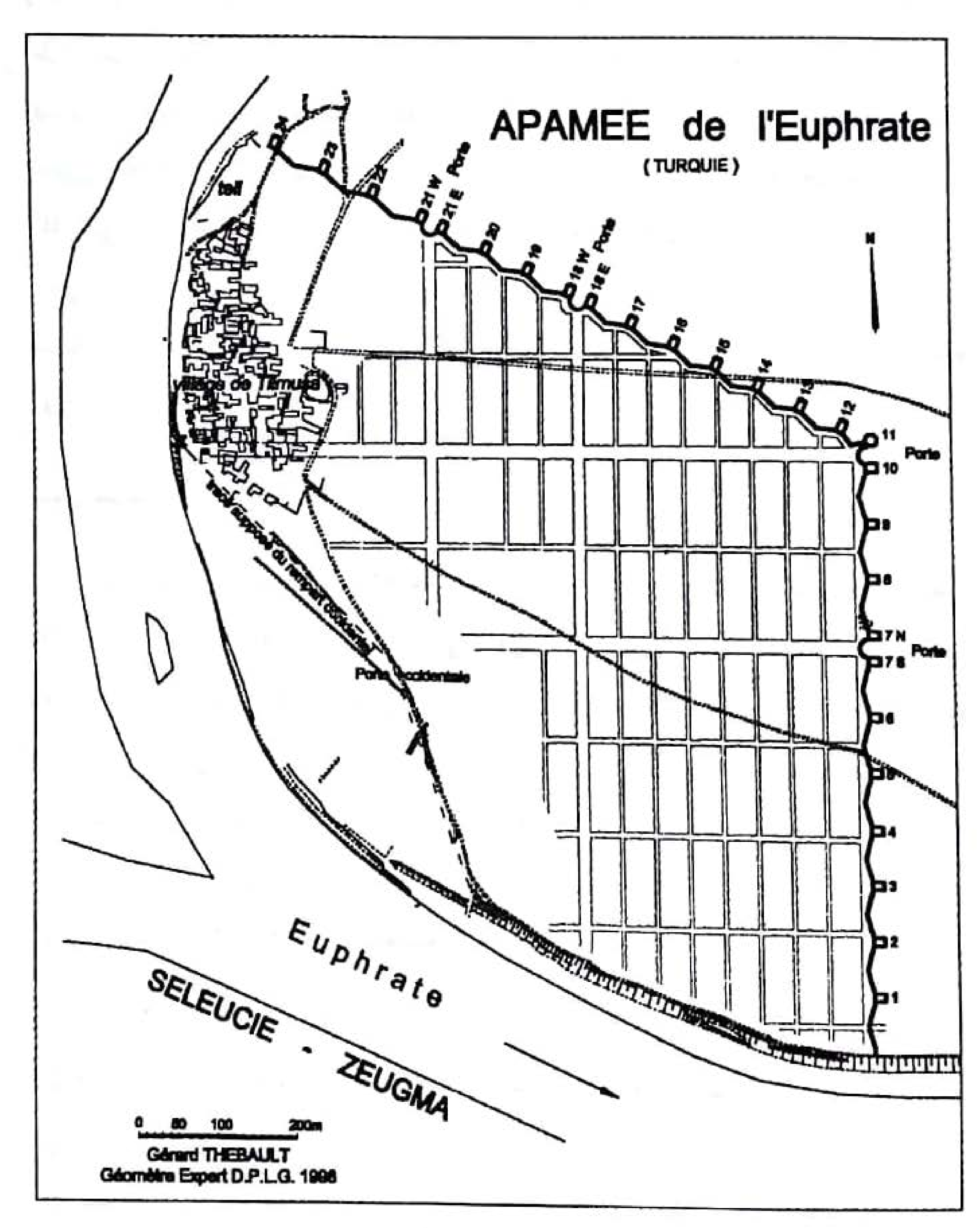


الشكل 9: مخطط سلوقيا وأفاميا الفراتية بحسب ج. فاغنر J. Wagner

وفي المقابل، ظهرت لنا على الضفة اليسرى، في افاميا، مدينة هلنستية حقيقية تبلغ مساحتها 50 هـ (الشكل 10)، محصورة داخل سور منيع تم تحديد موقعه بدقة بالغة بفضل الوسائل الجيوفيزيائية. يتطابق الجدار مع شكل الشاطئ في الغرب والجنوب، بينما في الشرق والشمال نجد أنه يأخذ مساراً مستقيماً يضم 26 برجاً مستطيلاً مرتبطة بالسور بواسطة جدران ساترة بروافد، ويميز الزاوية الغربية برجٌ دائريٌ. وقد عثر على أربعة أبواب ضخمة ذات فناءات، اثنان منها على السور الشرقي، والآخران على السور الشمالي[38]. ولقد بين التنقيب أن هذه الإنشاءات قد بنيت بالآجر النيئ (غير

[38] لابد أن المدينة كانت تضم قلعة في الغرب وباباً رابعاً ينفتح على النهر، لكن يبدو أن النهر قد جرف الاثنين بالإضافة إلى جزء من السور الغربي.

المشوي) فوق قاعدة من الحجارة المبنية بشكل مضلع والمتساوية الارتفاع. إن هذا النظام الذي وضع أثناء القرن الثالث قبل الميلاد، لم يعرف كما يبدو أي تعديل يذكر. وهكذا فهو يقدم النموذج الأكثر تميزاً والأكثر حفظاً حتى الآن عن تطبيق نظريات فيلون بيزنطة Philon de Byzance.



الشكل 10: مخطط أفاميا الفرات (ج. تيبو G. Théboult)

كان مخطط المدينة الداخلي منظما بحسب نظام شطرنجي مع مقاسم متطاولة باتجاه شمال-جنوب. وتنتهي أربعة شوارع رئيسية، منطلقة من الأبواب ومحاطة بالمحلات التجارية، في المركز مشكلة ساحة عامة شاسعة (آغورا). وقد استطعنا تنقيب أحد البيوت ، لكن لم يعثر على أي بناء عام قبل مجيء المياه إلى السد. أما فيما يتعلق بالإنشاءات المرتبطة بمعبر النهر، فقد جرفت بفيضان قديم في الوقت الذي جرف فيه جزء من القلعة ومن السور الغربي. ربما يكون عدم استقرار الفرات، بالإضافة إلى الاحتلال الفارسي للضفة اليسرى، السبب في هجران المدينة قبل أن يكتمل بناؤها. ومن المحتمل أن يكون سكان أفاميا قد انتقلوا للسكن على الضفة اليمنى، وهو ما يفسر بناء العديد من المنازل فوق القبور الواقعة في الأصل خارج الإنشاء الأول لمدينة سلوقيا.

جبل خالد

لم يتم التعرف على موقع جبل خالد، المعين دون تحديد الاسم على خارطة ر. كيبر[30] R. Kiepert على الضفة اليمنى للفرات السوري، إلا في مطلع الثمانينات من قبل باحثين أستراليين هما و. كوليكان W. Culican و ت. ماكليلان T. McClellan وذلك أثناء عمليات البحث الأثري التي دفع إلى القيام بها بناء سد تشرين. ومع ذلك كان لا بد من انتظار عام 1988 كي يأتي فريق أسترالي يقوده ج. و. كلارك G. W. Clarke و ب. ج. كونور P. J. Connor ليبدأ بتنقيب الموقع.

إن المواد التي جمعت تبين بشكل واضح أن الأمر يتعلق هنا بمنشأة سلوقية. إن هذا الاكتشاف المدهش ذو أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ سورية الهلنستية.

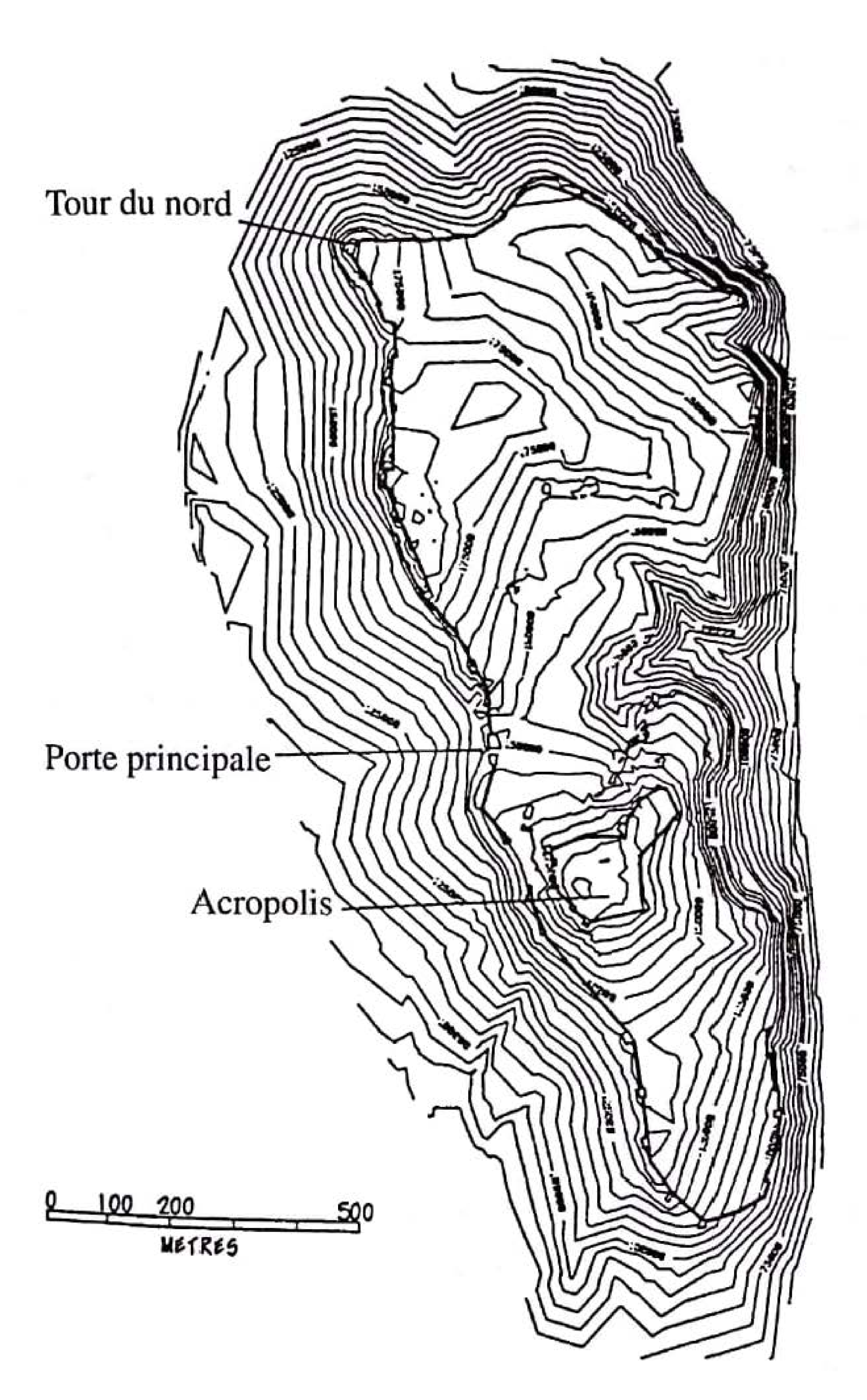
---

[30] يشير ر. كيبير بالاعتماد على العلامة الاصطلاحية على وجود آثار قديمة دون أي تعريف آخر باستثناء اختصار للكلمة الألمانية « خربة Ruinen» على الضفة اليمنى للفرات بعد الحلقة الثانية للنهر باتجاه اسفل النهر بعد قلعة نجم.

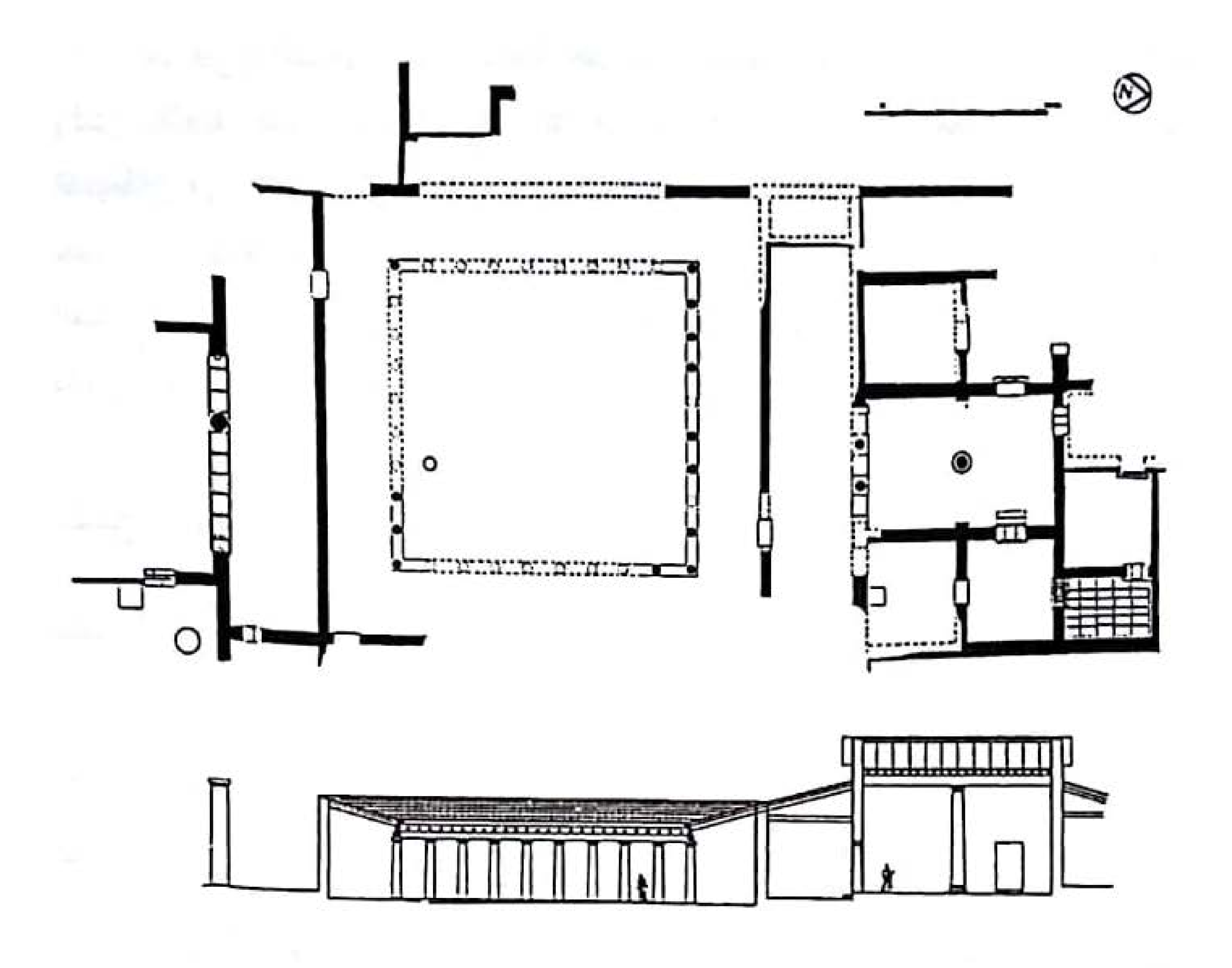
من المؤكد أن موقع هذه المدينة قد اختير لأسباب استراتيجية، إذ أن المدينة قد أنشئت على شبه هضبة ذات انحدارات شديدة (الشكل 11)، وهي تطل على الفرات من ارتفاع 100 م، حيث نتمتع بنقطة رصد ممتازة لمراقبة الوادي على كامل مجراه الشمالي ـ الجنوبي حتى مسكنة (بارباليسوس Barbalissos). كما أن الهضبة، التي تمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة 1.5 كم وعرض يبلغ أقصاه 500 م تقريباً، محاطة بسور ضخم يبلغ طوله 4 كم وهو مبني بجدران من حجارة متساوية الارتفاع ومقببة ذات حشوات، وهو يتوج المنحدر الوعر (ما عدا إلى الشرق حيث يوجد الجرف). وهذا السور مزود بثمانية وعشرين برجاً مربعاً وينفتح على الجنوب الغربي بواسطة باب ضخم ذي فناء. وهناك قلعة محصنة تبلغ مساحتها 2 هكتار، مبنية في وسط الهضبة فوق أحد البروزين اللذين يسيطران على السطح، وهي تضم بقايا قصر واسع. وتظهر على ما تبقى من الموقع آثار لأوابد ولعديد من المنازل، جزء منها في كهوف تبعاً لعادة مألوفة في المنطقة.

لقد كشفت عمليات التنقيب في القصر (الشكل 12) عن بهو فخم يحتل مركزه حديقة محاطة بواجهة معمدة تضم ثلاثة وستين عموداً من نمط دوري جميل جداً. ويعبر شمال الحديقة رواق يسمح بالمرور إلى قاعة كبيرة فخمة، تبلغ أبعادها 12 × 8 م وهي مبلطة بالرخام، وجدرانها مطلية لتعطي شكل جدار مزيف وفيها زخرفات من الزهور ومحاطة بغرف خدمة. يبدو أننا هنا أمام قصر لحاكم.

ينتمي الموقع إلى جزء من النهر غير معروف جيداً ، بعيداً عن محور الطريق الكبيرة زوغما-سلوقيا دجلة الذي يحاذي نهر البليخ لتحاشي العطفة الكبيرة للنهر. إن قائمة التسميات التي قدمها بطليموس أو جدول بوتنجر لا تسمح لنا لسوء الحظ، بالتعرف على المدينة اليونانية التي اختفت على الأغلب من قبل.



الشكل 11: مخطط جبل خالد، بحسب ج. كلارك دوريه. آثار المتوسط 1994.



الشكل 12: مخطط قصر جبل خالد، بحسب ج. كلارك، دورية آثار المتوسط 1993

يبدو أن التخلي عن المدينة يتوافق مع نهاية الامبراطورية السلوقية. فقد لاحظ المنقبون أن هذه المدينة كانت في العصر الروماني مهجورة وتحولت تدريجيا إلى خراب، دون أن تتعرض لأي حدث جليل (زلزال، حريق عام) حيث لا أثر لذلك. إن استيطان هذا الموقع غير المناسب تماما، بشكل ما، قد امتد حتى أسفل المنحدر نحو الشمال فوق موقع مدينة رومانية وبيزنطية قريبة، في يوسف باشا حيث يمنح وادي الجلجال طريقا سهلا للمواصلات نحو منبج (Hierapolis)، حلب (Beroe) أو تدمر (Palmyre)، حيث عثر على بقايا نقش لاتيني ضخم[40].

[40] G. W. Clarke et T. Hillard, «A limestone altar in North Syria», *Medilterranean Archaeology*, 5/6, 1992/93, p. 112 – 115.

لقد قارن المنقبون نمو مدينة جبل خالد بنمو مدينة أوروبــوس-دورا[41]، ولكن نلاحظ عدم وجود أي اســتقرار ســابق للاحتــلال اليونــاني، ولا أي استيطان في العصر الروماني أو البيزنطي. وهكذا فإن عمليات التنقيب فــي جبل خالد تقدم، بشكل أفضل من أوروبوس-دورا أو حتى مــن ابــن هــاني المخربة أكثر[42]، إمكانية نادرة للدراسة المباشرة لنمو مدينة ينحصر وجودهــا بالفترة الهلنستية فقط.

نتائج البحث

آلية خلق المدينة

يبدو عملياً في كل حالات التأسيس المباشرة في سورية الهلنســتية. أن آلية التخطيط والتنفيذ الميداني للكيانات الجديدة هي أكثر تعقيداً مما كنا نعتقــد حتى الآن.

يجب أن نميز اليوم، دون أن نتأثر بالتطورات السابقة، نمطين رئيســيين على الأقل من التأسيس الاستعماري. فمن جهة، التأسيسات التي تم تصورهــا منذ البداية كمدن كاملة ومن جهة أخرى المنشآت العسكرية البســيطة داخــل الحصن أو حوله.

أما فيما يتعلق بالمدن الفعلية، فإن صيرورة خلق المدن الهلنستية كمــا نراها اليوم، تبدو كنتيجة لتطور مختلف. فبعض هذه المدن التي تم تصورهــا منذ البداية، قد شيدت بضربة واحدة مثل أفاميا الفرات وأيضاً بلا شك مدينــة جبل خالد التي يبدو أنها اكتسبت المظهر الذي نعرفه بها منذ تأسيســها فــي مطلع القرن الثالث، كما هو الحال بالنسبة لابن هاني بعد نصف قرن. تخبرنــا النصوص أن الأمر كان كذلك بالنسبة لمدن الأقطــاب الأربعــة (تيــترابول

---

41. G. W. Clarke, «Jeble Khalid on the Euphrates. The acropolis Building», *Mediterranean Archaeology* 7, 1994, p. 69 – 75; G. W. Clarke, P. Connor, « Jeble Khalid on the Euphrates : 1993 Season», *Mediterranean Archaeology* 8, 1995, p. 119 – 124.

42. ما دامت الآثار والأوابد كانت محمية نسبياً من العبث والسرقة بسبب عدم وجود تجمع سكاني قريب من الموقع.

Tetrapole) في سورية الشمالية، ولكن إن كانت الحالة هكذا فعلا بالنسبة لسلوقية بييري وأنطاكية المخصصتين لتكونا عاصمتين للإمبراطورية، فليس هناك ما يؤكد الأمر نفسه بالنسبة لأفاميا سورية وللاوديسيا البحر (اللاذقية) التي يمكن أن تكون قلعتها المنيعة قد كونت أساس إنشاء المدينة.

لا شك أن هناك، في معظم الحالات، وقتا معينا من الكمون في عملية بناء المدينة، ففي البداية تعين حدود المدينة بطريقة مؤقتة بانتظار أن يقام السور الذي نعرفه حاليا في شكلها الأخير. إن بناء المدينة يحتاج إلى استثمار مالي ضخم وكذلك للزمن، ولا يبدو لي أن من الخطأ التفكير بأنه لتكوين جماعة جديدة من المستوطنين اليونان، استعملت السلطة الوقت الكافي لكي تختار الأرض المناسبة ولوضع حدود المدينة الجديدة وذلك بحسب عدد المستوطنين الذين تأمل بتوطينهم فيها، وحاجة السكان والأهداف التي أوكلت للمدينة[43]. إن النموذج الوحيد لمدينة لم تعرف التأخير في بناء سورها هو على الأغلب مثال مدينة ابن هاني، قلعة لاجية واسعة مزروعة في أرض سلوقية عدوة[44].

من جهة أخرى، لقد عرفت إنشاءات أخرى مثل أنطاكية توسعا تدريجيا وعلى مراحل. فمن المعروف وبحسب سترابون (Géographie, XVI, 2, 4-5)، أن المدينة الأولى التي شيدها سيلوقس الأول قد كسبت حيا جديدا في ظل الملك نفسه، ثم أضيف إليها حي جديد، وهو مقر القصر، تحت حكم سيلوقس الثاني وأنطيوخوس الثالث في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وأخيرا حصل توسع ثالث تحت حكم أنطيوخوس الرابع، بعد ثلاثين سنة من تأسيسها. وفي النهاية لم تأخذ المدينة شكلها النهائي إلا في العصر الروماني حين تم تحديدها بواسطة السور الذي رفعه تيبير. وهناك حالة أخرى معروفة جيدا، إنها حالة الاسكندرية، التي كانت أبعادها في الأصل أقل بكثير عن تلك التي عرفتها في العصر الروماني.

---

[43] في أوربوس-دورا يحمل مخطط الأسوار آثارا لتعديلات عديدة تمت أثناء سير العمل.

[44] حالة يمكن تشبيهها باسكندريه إيشاته التي بنى الاسكندر أسوارها خلال عشرين يوما.

أما بالنسبة للإنشاءات العسكرية التي كانت تلبي الرغبة بمراقبة البلاد فالمسألة مختلفة، إذ أن تطورها قد تنوع خلال هيمنة السلوقيين على سورية التي دامت قرنين ونصف من الزمن. وهكذا فإن مستوطنة سلوقية-زوغما قد احتفظت طوال هذه المدة بمظهرها كمنشأة محصنة[45]، في حين أن أفاميا سورية وأوروبوس-دورا قد أخذتا مظهر واتساع المدينة ذات المخطط الشطرنجي لمدة قرن ونصف بعد تأسيسهما[46] . وينطبق الأمر نفسه على إديس وتيزيب اللتين أعاد تأسيسهما أنطيوخيوس الرابع، ربما باندماج المدينة الآرامية، فأصبحت الأولى أنطاكية على الكاليرهوي، والثانية أنطاكيَّة ميكدوني مع الحق بصك النقود[47].

إن الـ Phrouria أو الـ Okhuromata اللتان لم تخلقا مدينة واللتان نعرف بوجودهما من خلال النصوص فقط، كتلك التي عددها إيزودور دو شاراكس Isidore de Charax على طول الفرات أو تلك التي أحصاها

---

[45] كما هو الحال بالنسبة لجيرازا Gerasa أو اكرا سلوقية أوليوس. حول هذا المثال الأخير الذي تؤكده النصوص، انظر G. Le Rider, *Suse sous les Séleucides et les Parthes: les trouvailles monétaires et l'histoire de la ville*. Paris, 1965, p. 277 – 279.

[46] بحسب م. إ. روشتوفتسيف M. I. Rostoutzefe، «تقرير حول التنقيبات في أوروبوس-دورا، حملة 1936 – 1937»، CRAI 1937، ص. 187. فإن بناء أسوار أوربوس-دورا قد احتاج إلى أكثر من قرن ونصف دون أن تكتمل تماماً. الأمر بحد ذاته صعب القبول، لأنه ليس من المعقول أن ترى منشأة استيطانية في بلد ثم غزوه، تبقى مفتوحة هكذا لمدة طويلة. أضف إلى ذلك أن الدراسات الأثرية التجريبية قد بينت لنا وجود ميل نحو طلب المشاكل من المشروع، وهكذا ففي أوروبوس-دورا، لم يكن بناء السور الحجري للمدينة بحاجة لأكثر من ثلاث سنوات مع وجود ألف عامل أو ثلاثين سنة بوجود مائة عامل. هنا تكمن خلاصة أطروحة ج. كلود بيساك J. CL. Bessac ، *« La Construction des fortifications en pierre hellenistique de Doura–Europos »* الذي دافع عنها في كانون الأول 1997.

[47] لم يجر أي بحث أثري جدي على هذين الموقعين اللذين تغطيهما المساكن الحالية لمدينتي أوفرا ونصيبين، مع أننا لا نعرف عن الحالة الهلنستية إلى قطعة بسيطة من جدار في إديس Edesse. تعود معلوماتنا عن هذين الموقعين إلى مصادر قديمة وإلى العملات. انظر M. I. Rostovtzeff, «The Foundation of Doura – Europos on the Euphrates», *Annales de l'Institut Kondakov* X. 1938, p. 99 – 106; J. B. Segal, Edessa, the blessed City, Oxford. 1972 et, en dernier lieu, H. J. W. Drijvers, «Hatra, Palmyra und Edessa. Die Stadte der syrisch – mesopotamischen Wuste in politischer, kulturgeschichtlicher und religiongeschichtlicher Beleuchtung», *Aufstieg und Niedergang der romischen Welt* II, 8, Berlin, 1977, p. 799 – 906, et, plus particulierement, p. 863 – 896.

سترابون (10، 2، XVI) حول أفاميا السورية، وكلها غير معروفـــة بســبب نقص البحوث الأثرية حول هذا النمط من المنشآت[48].

إن الحصون التي خلقت فيما بعد مدينة حقيقية لتصبح قلعتها لا يمكن أن تقدم لنا صورة عن تشييدات أصلية. وهكذا ففـــي أوروبــوس-دورا، تحول الحصن إلى قلعة في المدينة المبنية حديثاً في منتصف القرن الثـاني (الشكل 13)، حيث بني قصر، اختفى جزء كبير منه عند انهيار الجــرف. قلاع أخرى لم تنقب إما بسبب ضيق الوقت مثل قلعة سلوقية-زوغمــا، أو لأنها مشغولة حتى الآن مثل قلعة أفاميا الســـورية، أو لأن الموقـــع لــم يستكشف بعد كما هو الحال في إيديس ونيسيب، أو كاد يبدأ التنقيب فيـــها مثل سيرهوس Cyrrhus.

لا يبدو أنه بالإمكان تكوين فكرة من خلال العودة إلـــى قـلاع المــدن المؤسسة مباشرة كمدينة طالما أن الوحيدة التي تعرفها وهي قلعة جبل خـــالد قد شغلها قصر، أما بالنسبة لقلعتي مدينة ابن هاني وأفاميا الفرات، فالوقت لـم يسعفنا للقيام بتنقيب من هذا النوع. ولم يحن الوقت بعد لكـــي نصـف هـذه المنشآت الأولى.

تطور التشييدات السلوقية

إن مستقبل المنشآت العسكرية أو العمرانية من العصر الهلنستي توضـح في آن واحد معاً طبيعة سياسة الحكام السلوقيين والصعوبة التـــي يمكـن أن نعانيها للتمكن من المعالم الأصلية والإحاطة بها.

لقد هُجرت مدينة ابن هاني في ظل الحكم السلوقي وذلك بعد انتصـــار أنطيوخيوس الثالث في بانيون، وتوســـعت أوروبــوس-دورا فـــي المجـال الوحيد للمملكة الذي أضحى سورية. وهجـــرت أفاميــا الفــرات فـــي ظـل

---

[48] لن نأخذ بعين الاعتبار هنا الحصن الصغير في موقع سعراني الواقع على مسافة قصيرة مـــن أفاميا السورية، والذي لم يكن يضم سوى حامية صغيرة، والذي لا يمكن تشبيهه في أي شـــيء مع المنشأة الاستيطانية.

الأمبراطورية الفارسية، في حين أن أوروبوس-دورا استمرت بالتوسع العمراني بحسب المخطط الموضوع في العصر الهلنستي، والأمر نفسه بالنسبة لإيديسا، التي وصفت بأنها «ابنة الفرس» ولنيسيب كذلك. وأصبحت سلوقية-زوغما مدينة حقيقية في الامبراطورية الرومانية، وعرفت الأقطاب الأربعة (رباعي الأقطاب) في سورية الشمالية نمواً مدهشاً وتزينت بالشوارع المعمدة، وعلى العكس من ذلك فإن مدينة جبل خالد الواقعة في مكان دفاعي جيد، ولكنه غير مناسب، قد فقدت أهميتها في إطار سورية الرومانية وتحولت إلى مدينة مهجورة.



الشكل 13: منظر لقلعة أوروبوس-دورا، صورة التقطتها البعثة الفرنسية-السورية في دوروا- أوروبوس.

وفيما بعد، اختفت عملياً معظم التشييدات السلوقية، مدناً كانت أم مستوطنات عسكرية، منذ القديم أو على أبعد تقدير في العصور الوسطى، باستثناء أنطاكية واللاذقية (Laodicée) وقلعة أفاميا السورية التي تأثرت طبوغرافيتها بلا شك بسبب تحولها إلى قلعة (الشكل 14). ويتناقض هذا التطور مع استمرارية المدن المتواجدة قبل الفتح المقدوني، والتي اكتسبت أو استعادت، منذ العصور الوسطى، نوعاً من الشهرة مثل حلب وحمص وحماه ودمشق.

يبدو في كل هذه الحالات المختلفة أن الظرف السياسي هو الذي يحسم مصير التشييدات الهلنستية في سورية. وهذا يوضح تماماً المظهر الإداري لعمل الحكام السلوقيين والميزة العسكرية لإنشاءاتهم العمرانية[49].



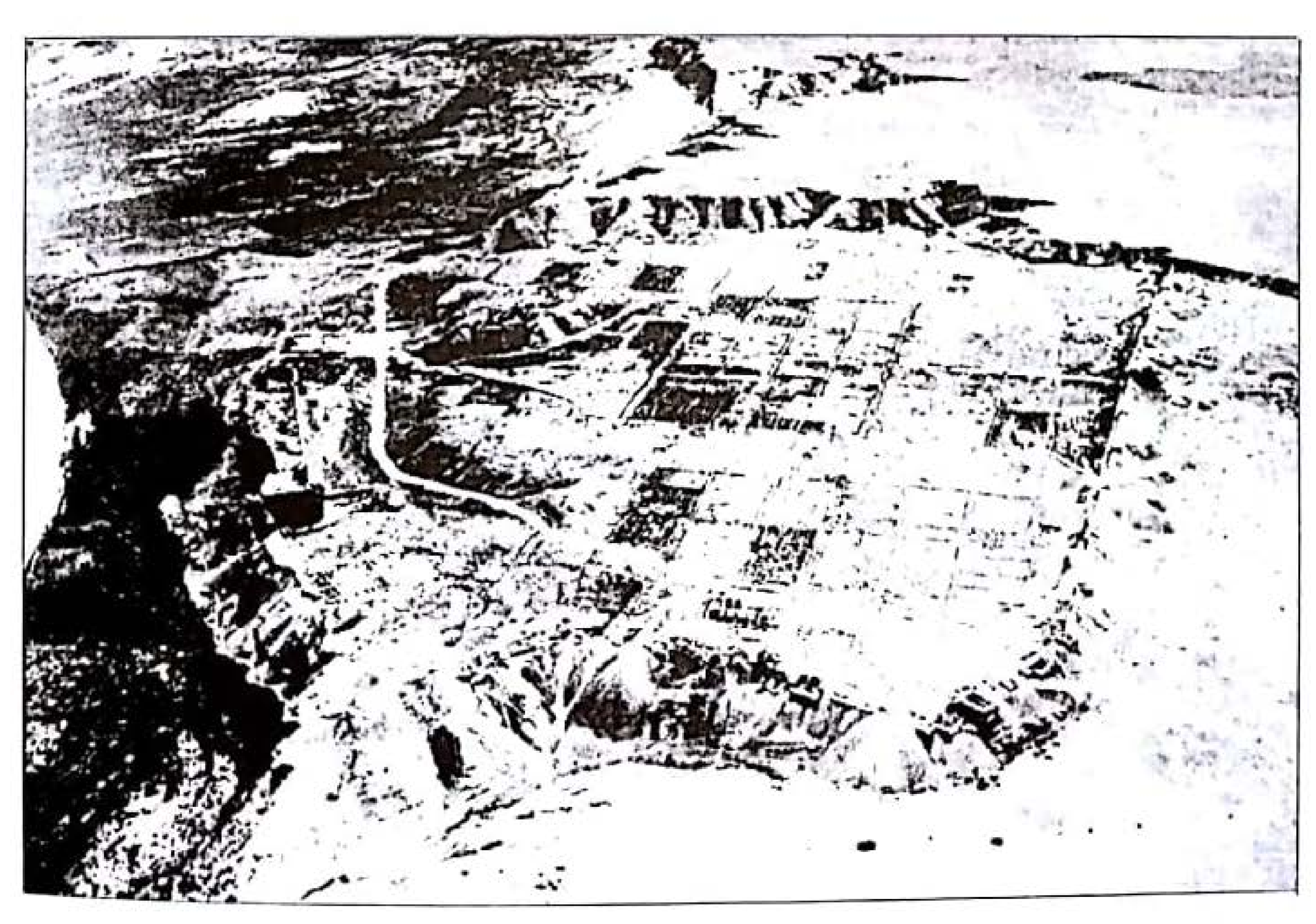
الشكل 14: صورة لقلعة أفاميا السورية في وصفها الحالي. تصوير بيير لوريش

[49] لقد بولغ أحياناً بالاهتمام بالجانب الاقتصادي عند تشييد هذه المدن، انظر حول هذه النقطة، وكنموذج معكوس، ولادة ونمو المدن التي تستجيب لضروريات خاصة مثل بالميرا (تدمر)، بترا، إيميز (حمص)، هاترا.

المعالم المشتركة للمدن الهلنستية في سورية

فيما يتعلق بشكل المدن الهلنستية في سورية، نلاحظ أن إنشاء المدن في سورية الهلنستية، مع استثناء وحيد (ابن هاني)، يقدم خاصية متنامية وبراغماتية وأن الصورة التي أعطيت لنا عنها اليوم هي نتيجة لتطور سريع نوعاً ما، ربما تكون الفترات السابقة للعهد الهلنستي قد لعبت فيه دوراً ما. وهكذا صار من الصعب جداً اليوم الحديث بطريقة دقيقة عن الشكل الذي أخذته المدن الهلنستية في سورية عند تأسيسها. ومع ذلك فهناك العديد من المعالم المشتركة التي تظهر بشكل واضح:

ـ إنشاء هذه المواقع الجيدة، المخطط الدفاعي والمبادئ العمرانية التي طبقت عليها، تتوافق كلها مع المعيار نفسه. ولا يمكن للمرء إلا أن يندهش من تشابه الوضع والتصور العام لموقعين بعيدين جداً عن بعضهما مثل أفاميا السورية وأوروبوس-دورا (الشكل 15): موقع طبيعي دفاعي، أسوار تتوافق مع التضاريس، مخطط شطرنجي (هيبودامي) تتدرج فيه الأبنية الرئيسية ضمن نظام المقاسم...إلخ.



الشكل 15: صورة جوية لأوروبوس-دورا، تصوير جيش الانتداب الفرنسي

إن الميزة العسكرية لكل هذه التشييدات الهلنستية مؤكدة إن لم تكن هي المهيمنة. ففي جميع الحالات، نلاحظ أن التأسيس ينحصر بحصن مسكون من الكهنة Cle'rouqus أو من Phrouroi، أو، حين يتعلق الأمر بمدينة، فنجدها تضم قلعة منيعة. هذه الميزة تبدو بشكل أضعف في حالات إعادة التشييد، التي سميت أحياناً مدناً مزدوجة، مثل حلب وحمص وحماه ودمشق، إذ لا يوجد هنا سوى تأقلم المدن الموجودة من قبل والتي امتثلت لمتطلبات العصر.

إن الخصائص الدفاعية يمكن أن تقدم أحياناً كل ميزات المفاهيم الأكثر تعمقاً في هذا الميدان، كما هو الحال في أفاميا الفرات وابن هاني. أو على العكس، يمكن أن تعبر عن نوع من النزوع إلى المحافظة، كما في أوروبوس-دورا. كما يمكن أن تكون الأسوار مبنية كلياً من الحجارة، في حين أن أخرى تضم جداراً من الآجر النيء فوق أساس من الحجر كما في أفاميا الفرات، وعلى الأغلب في جبل خالد، وفي جزء من أسوار أوروبوس-دورا[50]. وقد يحدث أن يستعمل الحجر شبه المنحرف كما في سيرهوس، وأفاميا الفرات (الشكل 16) أو في سلوقية بييري، ولكن في هذه الحالة فإنه يتداخل مع حجر مربع الشكل. هناك أسوار أخرى رفعت بواسطة حجارة مستطيلة مقاسية تتميز باستخدام القطع النموذجية من الحجر الطري الذي يمكن التعرف عليه بسهولة كبيرة كما في ابن هاني (الشكل 5) وأفاميا السورية، وجبل خالد وأوروبوس-دورا. هذه التقنية المستخدمة أيضاً في الأبنية العمرانية في أوروبوس-دورا وابن هاني تحدد مباشرة خصائص الأبنية وتشكل معياراً ممتازاً للتعرف على العمارة والبناء في العصر الهلنستي، على الأقل ابتداء من منتصف القرن الثالث.

ما دمنا أمام عمليات تأسيس إرادية، فلن يدهشنا العثور في كل مدينة من المدن التي ولدت في ذلك العصر على فضاء منظم ومخصص لتنظيم استعمال الأرض. وينطبق الأمر نفسه على كل المدن الجديدة أياً كان العصر. وما هو خاص بهذه الفترة، هو وجود مقاسم للسكن تتشابه كلها

[50] يتعلق الأمر هنا بوسيلة استعملت لإنهاء سريع لعملية بناء الأسوار لمواجهة وصول الفرس.

وتستعمل كنموذج لتوزيع مناطق السكن والأجزاء المخصصة للحياة العامة (آغورا، معابد، صروح رسمية). لقد مضى وقت طويل على كشف هذا المظهر من المدن الهلنستية، حيث لا تقوم الشوارع سوى بالفصل بين المقاسم والسماح بالوصول إلى الصروح الرسمية والمنازل، إذ أن الحياة العامة كانت محسوبة في وسط المدينة، في الآغورا، والملعب الرياضي، والمسرح والصروح الأخرى المرتبطة بالحياة المدنية. إن هذا المخطط المطبق في سائر الإنشاءات العمرانية في سورية الهلنستية هو إرث قديم وضعت أسسه منذ العصر البدائي في زمن الاستعمار.



الشكل 16: حجارة متعددة الأضلاع في سور أفاميا الفرات، تصوير بيير لوريش

في هذه الأثناء لا بد من إظهار الفروق في هذا المظهر من خلال وجود شارع أو عدة شوارع رئيسية متمحورة باتجاه أبواب المدينة[51]. وهكذا فإن أوروبوس-دورا تضم ثلاثة شوارع واسعة: شارع رئيسي بعرض 12 م،

[51] تمت مناقشة هذه المسألة حديثا من قبل ر. ستاكي R. Stucky : «L'urbanisme des colonies grecques aux époques archaïques et hellénistiques», *La ville dans le Proche Orient ancien*, Louvain, 1983, p. 147 – 150, et reprise par J. – Ch. Balty, « L'urbanisme de la Tétrapolis syrienne», *O Ellenismos stèn Anatolè*, Athènes, 1991, p. 203 – 230.

وأربعة شوارع متعامدة عرض كل منها 8 م وتحيط كلها بالأغورا (الساحة العامة). ومعظم الشوارع الأخرى يبلغ عرضها 6 م. إن هذا المخطط الذي يشبه صليب اللورين (صليب مضاعف) يمكن أن يكون قد طبق أيضاً على أفاميا السورية، واللاذقية وربما على أنطاكية. وفي المقابل ففي أفاميا الفرات، يوجد نظام مكون من أربع شوارع رئيسية متعامدة الشكل اثنين مع اثنين وهي تنظم الفضاء العمراني ويبدو أنها تحدد مجال الآغورا. وفي أنطاكية، تركز التنقيب على الشارع الرئيسي الوحيد، ولا نملك في جبل خالد أي مؤشر على هذا الموضوع. أما فيما يخص أفاميا السورية، فقد رأينا أنه ليس هناك ما يسمح بالتأكيد أن شارع الأعمدة يتطابق مع موضع الشارع الرئيسي في الأصل. ومع ذلك فهناك نقطة مؤكدة: إن الشوارع الرئيسية في المدن الهلنستية في سورية لم تكن تملك في أي حال من الأحوال الأهمية التي حصلت عليها في العصر الروماني إن كان بتبليطها، وبرصفها بالأعمدة، وبرباعيات الأعمدة Tetrastyle، وبدكاكينها. إن تغطيتها بالحجارة قد تمت بالحجارة المكدسة، كما في أفاميا الفرات، وأفاميا سورية وأنطاكية وأوروبوس–دورا وكان التنقل بلا شك سيراً على الأقدام بشكل أساسي أو على ظهور الخيل، كما لاحظنا في أوروبوس–دورا، حيث كان الباب الرئيسي للمدينة يضم درجاً مزدوجاً، وبالتالي لم يكن يستطيع عبوره سوى المشاة وحيوانات الحمل.

خلاصة

إن قُدمت لنا منشأة هلنستية على شكل مدينة فليس من الضروري أن نعتقد أنها كانت هكذا في العصر الذي أسست فيه. ففي المقاربة المتعلقة بالسياسة الاستعمارية لحكام سورية الهلنستية، وليس أكثر وكذلك هي الحال في الميادين الأخرى، ليس باستطاعتنا تقديم أي إثبات لوجود روح النظام وتعريف كل المنشآت الهلنستية على أنها إنشاءات عمرانية. ومن جهة أخرى، يجب التذكر دوماً أن المظهر الذي كشفت عنه عمليات تنقيب المواقع الهلنستية القليلة المعروفة ــ ربما باستثناء تلك التي لم تُسكن فيما بعد، مثل جبل خالد وابن هاني وأفاميا الفرات ــ ليس هو المظهر العائد للعهد الذي

أسست فيه المدينة، ولكنه ذاك العائد لنمو المدينة في أوج ازدهارها، والمعدّل غالباً بشكل جوهري في العصر الروماني، أو غالباً على إثر تكرار للزلازل، أو في القرون الوسطى.

إذاً، لن نتمكن من تحديد المظهر الذي كانت عليه المدن في العصر الذي أسست فيه مع هذا الذي نعرفه فيها اليوم ويجب أن نتحول إلى فكرة أنه، باستثناء حالة ابن هاني الخاصة جداً، ليس من الممكن العثور في الميدان على الشكل الأصلي الذي أعطاه الحكام السلوقيين للمدن التي أسسوها. ومع ذلك، فربما نستطيع بفضل اكتشاف أفاميا الفرات وجبل خالد توضيح النموذج الذي كانت تنزع إليه هذه التشييدات العمرانية.

في هذه الأثناء، هناك نقطة تبدو بشكل واضح: لم يعد من الممكن حالياً إعادة إنتاج الصورة التي ما زال ينقلها بعض المؤرخين والتي تقول بأن المدن السورية لتي ولدت في العصر السلوقي قد أنشئت مباشرة عند تأسيسها بحسب الشكل الذي تقدمه آثارها الحالية. إن مشروعاً كهذا يتطلب تكاليف تتجاوز بالتأكيد الإمكانيات المالية الملكية. فبناء المدينة يحتاج لتكاليف مالية هائلة مع بناء الأسوار والصروح[52] وتخصيص الأراضي المأخوذة من الأراضي الملكية. كيف يمكن تصور استثمار بهذا الحجم لهذا العدد الكبير من المدن؟

إن التطور الحديث للبحث الأثري، إن كان فيما يتعلق باكتشاف مواقع جديدة أو إعادة النظر النقدية بالتنقيبات القديمة التي لم يعد ممكناً قبول نتائجها بلا قيد ولا شرط، قد قدم لنا إضاءة جديدة على التاريخ العمراني لسورية الهلنستية. وهكذا فقد تم بطريقة جوهرية تصحيح الرؤية المبسطة التي كنا ما نزال نملكها حتى وقت حديث عن السياسة الاستعمارية للسلوقيين بالاعتماد على نماذج ميدانية قليلة جداً وعلى شهادات المؤلفين القدماء المأخوذة حرفياً، ودون توضيح الافتراضات وغايات المدح. هذه النظرة، الموروثة من فترة

[52] لا نتحدث هنا عن المساكن الخاصة ، التي، على العكس مما يشير إليه عدد من الترميمات حيث تبدو المنازل كلها متشابهة، كان بناها المستوطنين أنفسهم وليس السلطة المؤسسة، كما لاحظنا في أوروبوس-دورا.

كان يبدو فيها الاستعمار كتقدم، تتلاءم تماماً مع فكرة أن «العبقرية اليونانية» في وظيفتها الحضارية قد سمحت بتصور مخططات المدن الجديدة بضربة واحدة، تحت شكل سيبقى محافظاً على نفسه بلا تبديل طوال وجودها. ويظهر اليوم الرؤية الأكثر صفاء والتي لا تنكر شيئاً مما يستحقه السلوقيون، ولكنها تعطي لعملهم بعداً من خلال رؤية كل ما كانت تملكه هذه السياسة من براغمتية.

لقد أصبح ممكناً بفضل التنقيبات الحديثة وضع التسلسل الزمني الدقيق لمراحل إقامة العناصر الأساسية لمدينة ما واقتراح التواريخ الأكثر دقة من تلك التي استعملت غالباً لغياب البديل، واتي تعود للعصر الهلنستي، وهو مفهوم يغطي فترة تمتد لثلاثة قرون تقريباً.

إن هذا الإنعاش للاستكشاف الأثري، كما رأينا، يعود في جزء كبير منه إلى تطور الأعمال الكبيرة المرتبط بالتطور الاقتصادي للبلد. وهكذا تم اكتشاف مدينتي ابن هاني وجبل خالد، والقيام بأعمال سبر في أسوار أفاميا سورية، وتم القيام بتنقيب عاجل في الموقع المزدوج لسلوقية وأفاميا الفرات المعرضتين للغمر تحت مياه السد الجديد. وفي أوروبوس-دورا، أدى التهديد بالخراب الذي تتعرض له الآثار إلى استئناف عمليات التنقيب الأثري لإنقاذها، وفي السويداء كشفت الإنشاءات العمرانية الحالية عن وجود قصر هلنستي على مصطبة مجهزة بجدار داعم مبني من حجارة جميلة من بلاطات ومن عوارض حجرية. من المؤكد إذن، أنه من الآن فصاعداً يتوجب على علماء الآثار أن ينتبهوا إلى مشاريع التنظيم العمراني التي يمكن أن تهدد المواقع الأثرية أو على الأقل محيطها. وسأذكر هنا بشكل خاص حالة مدينة أوروبوس-دورا التي تعرضت أطرافها للتهديد الخطير بسبب مشاريع عمرانية وسياحية مختلفة، مشاريع كان بالإمكان التصدي لها بفضل مساندة السلطات العامة، والمؤسسات العلمية والرأي العام الدولي.

العمران في العصر الهلنستي

بشير زهدي

المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية

يمكن أن تعتبر سورية بمثابة كتاب عن تاريخ العمران، ففصولها تجعلنا نعيش ثانية فترات من الازدهار والانحطاط، هذه الفترات التي تتجسد حتى في مظهر المدينة. يمكن أن تدرس فيه تنظيم الفضاء المبني قبل ولادة المدينة، وذلك في القرى النيولتية. يمكن أن نلحظ فيها ولادة المدن الأولى وبداية العمران في سورية الفراتية بين الألف الرابع والثالث قبل الميلاد. إن التاريخ الممتد لآلاف السنين للعواصم القديمة كإيبلا وماري وأوغاريت وتدمر وبصرى ودمشق والشهبا، وأفاميا وحلب واللاذقية إلخ, يقدم لنا تنوعاً مدهشاً من نماذج التطور العمراني: فالعمارة والفضاء العمراني يمكن أن تقرأ عبر العصور، فهي انعكاس لتاريخ الإنسان وللحضارات.

إن سورية جسر طبيعي بين بلدان البحر المتوسط والمشرق، فطرق التجار تعبرها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. كما أن المنطقة كانت لفترة طويلة أرضاً متميزة لتجلي الطموحات التوسعية للممالك المستقلة المجاورة والمتنافسة باستمرار. وغالباً ما كان المنتصرون يعملون إثر فتوحاتهم على إزالة كل أثر لأسلافهم إما بإنشاءاتهم الجديدة أو بتأسيسهم للمدن الجديدة[1]. إن مدن المنطقة التي كانت تخضع باستمرار لتهديدات خارجية، تتميز دوماً بأهمية دفاعاتها، أسوار وقلاع، معسكرات ومراكز عسكرية. إن التدمير الذي تولده الحروب بالإضافة إلى الزلازل، له تأثير مؤكد على تطور العمران. فالمدن المهدمة جزئياً تبنى من جديد تبعاً للمخطط

[1] إن مدينة أنتينونيا خير مثال على ذلك.

نفسه تقريباً، لكن المدن الأخرى التي تهدمت كلياً يعاد بناؤها بحسب مخطط جديد يتوافق مع الحاجيات الجديدة. وتغدو بعض هذه المدن الجديدة مزدهرة، في حين أن مدناً أخرى يمكن أن تُهجر بسرعة.

وتعتبر دراسة تاريخ العمران في سورية دراسة صعبة نسبياً بسبب قلة الوثائق. والملاحظة المباشرة ممكنة نادراً، ذلك لأن المدن الميتة وحدها فقط قد احتفظت بآثار يسهل الوصول إليها: فأكبر المدن وأقدمها أيضاً ما تزال أحياناً مسكونة ونشيطة وبالتالي من الصعب التنقيب فيها[2]. إن روايات الرحالة غامضة بشكل عام وسطحية[3]. فالجغرافيون والمؤرخون يستندون غالباً على العموميات، وبإمكانهم الكتابة استجابة لطلب ظرفي حول موضوع دقيق. فقد كتب سترابون[4] Strabon عن مدينة اللاذقية: «... مدينة رائعة البناء تتميز بأنها تملك ميناءً، بالإضافة إلى أراضٍ خصبة جداً». وكذلك بلين Pline[5] الذي يمكن اختصار ما كتبه عن تدمر على النحو التالي: «... تدمر، مدينة مشهورة بسبب موقعها، وبسبب الحزام الرملي العريض الذي يحيط بها، وهكذا فهي مفصولة، إن صح التعبير، عما تبقى من الأرض بواسطة الطبيعة، إنها تتمتع بالاستقلال...». وعلى العكس من ذلك فإن التنقيبات الأثرية يمكن أن تقدم لنا معلومات وافرة وصحيحة ودقيقة. ولحسن الحظ إنها عديدة وتغطي عدداً كبيراً من المواقع، وذلك بفضل التعاون الوثيق بين علماء الآثار من مختلف البلدان والاختصاصيين السوريين.

إن كلمة علم العمران Urbanisme لا تعود لما قبل عام 1909[6]. ولقد

[2] هكذا يتحدث فوكيرس عن أنطاكية: «... إن المدينة الحالية، الوحيدة التي تهمنا في هذه المقالة، وعلى الرغم من أنها مبنية على الأرض نفسها، ليس لها أي قاسم مشترك مع المدن الجبارة التي سبقتها منذ السلوقيين وصولاً إلى الصليبيين». J. Weulersse, «Antioche, Essai de géographie urbaine», *BEOIV.*

[3] يمكن أن نذكر شاتوبريان Chateaubriand الذي لا يذكر في الأجزاء الثلاثة من كتابه عن رحلته الطويلة في المشرق، سوى انطباعات شخصية: «كان لدي رسم آخر، إنه رسم وضعته بلوحة الشهداء... ذهبت لأبحث عن الصور، هذا كل شيء». Chateaubriand, *Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris.*

[4] Géographie, t. III, livre XVI.

[5] *Histoire naturelle*, Pline, t. I, livre V (XXI-3).

[6] Remaury, *Théories générales de l'urbanisme*, 1949-1950.

اقترحت عدة تعريفات لعلم العمران: إنه العلم أو النظرية التي تُعنى بتنظيم المدن، ويمكن تلخيص برنامجه الواسع بثلاث كلمات: تطهير، توسيع، تجميل. إن علم العمران هو فن البناء وفن التغيير وفن تنظيم المدن لتأمين راحة أفضل تبعاً للقواعد الجمالية والصحية، إن هدف العمران هو رسم مخططات للمدن أو للأحياء الجديدة ترضي كل متطلبات الصحة والجمال. وقد قامت حضارات قديمة جداً بتطبيق مفاهيم دقيقة في ميدان تنظيم الفضاء المديني. في مواقع كثيرة التنوع، مرتفع جبلي أو منحدر وعر، جزيرة، واحة، مرفأ: وهكذا فإن مادة علم العمران موجودة منذ آلاف السنين منذ ولادة المدن، لكن الممارسة قد تجاوزت بلا ريب النظرية. فالعمران الهلنستي يتميز بشكل واضح بالتطبيق المنهجي للمبادئ النظرية.

ففي بداية العصر الهلنستي كانت سورية قد وصلت مسبقاً إلى مرحلة متطورة جداً من الحضارة العمرانية. ومع ذلك تعتبر هذه الفترة مرحلة هامة جداً في تطور مفاهيم عمرانية جديدة. فقد جعل خلفاء الاسكندر المقدوني من العمران أساساً لسياساتهم، فقد بدا لهم أن تأسيس شبكة واسعة من المدن هو أفضل وسيلة لإقامة دولة متينة ولضمان الهيمنة الهلنستية في سورية. فقد أسس في ذلك العصر العديد من المدن، على الساحل (سلوقيا بييري، اللاذقية)، وعلى طول نهر العاصي (أفاميا، أنطاكية)، وعلى طول نهر الفرات (دورا ــ أوروبوس، سلوقيا-زوغما) وداخل البلد (بيرويا، إلخ). إن أحد الأهداف المستمرة كان بالتأكيد نشر حضارة يونانية شرقية وهلنسة البلاد. وتشكل مضاعفة وتحويل المدن جزءاً من خطة تأثيرية: فبالنسبة لورثة الاسكندر المقدوني، تتهلنس الدولة كلما تزايد العمران. وقد قدر الحكام السلوقيون أنه من الضروري تثبيت عناصر عرقية قادمة من الخارج على التراب السوري وهي أفضل دعم للسيطرة المقدونية.

لقد تدخل العمران الهلنستي في سورية إما بتحويل وتوسيع المدن الموجودة من قبل أو بتأسيس مدن جديدة. ولقد كانت المدن الجديدة منظمة غالباً بحسب مخطط منتظم معد مسبقاً وعلى أساس منح الأرض للجنود. وهكذا فإن الرواية تعيد للسلوقيين تسعة وخمسين عملية تأسيس. لكن يجب ملاحظة أن عدداً منها ليست إنشاءات جديدة كلياً. فهي أحياناً عبارة عن

تبديلات للأسماء فقط. وهكذا فقد أضيف غالباً حي أو مدينة جديدة إلى مدينة موجودة من قبل، مع المحافظة على محل الميزات الخاصة بالفضاءات العمرانية القديمة. إنها بالضبط حالة مدينة حلب حيث أسس السلوقيون مدينة بيرويا Beroia. وقد أنشئ حي سلوقي مماثل بالقرب من مدينة دمشق. كما كانت حماة عرضة لإنشاءات هلنستية. ويكفي مقارنة عدد المدن وتوزعها قبل وبعد العصر الهلنستي لإدراك أهمية الجهد المبذول في هذا الميدان.

إنها المواقع ذات المصلحة الاستراتيجية هي التي تلفت انتباه القادة العسكريين غالبا: فموقع دورا على الفرات، الذي اختاره الآشوريون من قبل، قد جذب القائد نيكاتور الذي أدرك قيمته الدفاعية ومزايا المكان الذي يشرف على الطرق في المنطقة. وينطبق الأمر نفسه على القلعة الواقعة على العاصي التي وسعها أنتيفون لوبورينيي والتي أطلق عليها اسم بيلا وأصبحت فيما بعد أفاميا. وقد أسس سيلوقس نيكاتور أنطاكية على الضفة اليسرى لنهر العاصي. لقد أدرك السلوقيون جيداً أهمية الأنهار التي تقدم مزايا عديدة: عائقاً أمام العدو، عاملاً مساعداً على ازدهار الزراعة بوساطة الري، وسيلة فعالة ورخيصة للنقل. فالعاصي الذي كان صالحاً للملاحة في العصر الهلنستي لم يكن نسبياً أقل أهمية من الفرات.

لقد كان الساحل الشرقي للبحر المتوسط والمفتوح نحو الغرب، كان دوماً ذو أهمية بالغة بالنسبة لسورية من الناحية التجارية والاستراتيجية. فهنا كان يضطر الرحالون للتوقف من أجل تبديل واسطة النقل ليتمكنوا من متابعة رحلتهم باتجاه الشرق عن طريق البر، أو نحو الغرب عن طريق البحر. إن المدن الداخلية بحاجة لمنافذ غربية على البحر، فالملاذ البحري يفيد في آن واحد معاً كمنفذ وكمرفأ. وهكذا فإن أولئك القادمين من أنطاكية للذهاب إلى بلدان المتوسط أو أولئك القادمين من البحر باتجاه أنطاكية، كانوا جميعاً مكرهين علىالتوقف في هذه المحطة أو تلك من المحطات التي كانت بالأصل مدناً بحرية سورية كبيرة: اللاذقية، سلوقيا، إلخ... ولم تحرم هذه المواقع من لفت انتباه الحكام السوريين وساعد نموها على خراب بعض المدن الفينيقية القديمة. فقد كانت سلوقية بيري مدعوة مسبقاً، في ذهن

سلوقس نيكاتور، لأن تصبح ميناء الإمبراطورية الأول. في الواقع، إن أحد أهم خصائص النظام العمراني السوري هو الحركة الدائمة على المدى الطويل مميزاً أحياناً الساحل وأحياناً الداخل. وربما تتميز الفترة السلوقية بنوع من التوازن بين المجالين.

كانت الطرق تحدد الفضاء السوري، وعند نقاط تلاقي تيارات الحركة وعند تقاطع الطرق كانت تقام الإنشاءات الجديدة: ففي الواقع وجدت الطريق قبل المدينة. فأهمية دمشق تعود في جزء كبير منها إلى موقعها الجغرافي الذي جعل منها مفتاح الطريق الهام الشمالي-الجنوبي والطريق التجارية بين البحر والصحراء على محور سيصبح إحدى طرق الحرير. ويبدو أن هذا الموقع قد كان وراء ازدهار المدينة وتوسعها بسبب تأسيس الأحياء الهلنستية بجوار العاصمة الآرامية القديمة. ويجب أن نضيف أيضاً أن شهرة مدينة ما يمكن أن تؤدي إلى التقاء طرق عديدة فيها: إنها حالة أنطاكية التي أصبحت في العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية عقدة مواصلات استثنائية.

هناك العديد من العوامل التي يمكن أن تؤخذ بالحسبان عند اختيار موقع تأسيس مدينة جديدة. وهكذا فقد كانت الينابيع تعتبر كعناصر أساسية: لقد أطريت أنطاكية بوفرة ينابيعها، وكان هناك خمسة ينابيع وراء أصل مدينة دافنة وشهرتها. وقبل السلوقيين كان موقع سلوقية بييري يسمى «نهر الماء». كما أن الغطاء النباتي والوسط الطبيعي يمكن أن يمارسا دوراً هاماً، فالمكان المشجر يغري: وهكذا فقد أسست مدينة دافنة في العصر الهلنستي في غابة مقدسة شاسعة الامتداد. وتعود شهرتها إلى بساتينها الفيحاء. والدين كذلك يحتل موقعاً هاماً في هذا المجال: فالآلهة تستشار دوماً في مسألة اختيار موقع المدينة المستقبلية، كما هي الحال قبل تنفيذ أي مشروع هام: كان يجب تقديم القرابين للآلهة وانتظار ردها المتعلق بالمستقبل. ويتم تدشين المدينة الجديدة بحضور الحاكم، وبحضور المجمع الديني وقادة الجيش، ومع عذراء حسناء (مثل إيماته) مستعدة للتضحية بنفسها.

من الصعب في معظم المدن السورية معرفة تفاصيل المخطط العمراني، وذلك بسبب التحولات العديدة التي وقعت مع الزمن. فجاك

فولرس[7] يلاحظ بخصوص أنطاكية: «إن السوية الرومانية ـ البيزنطية توجد حالياً على عمق خمسة أو ستة أمتار». إنها حالة دمشق أيضاً ومعظم المواقع الأثرية، لا سيما تلك التي ما زالت مسكونة. إذاً وللأسف، انطلاقاً من بقايا أثرية قليلة جداً نستطيع العثور على الخطوط الرئيسية للمظاهر القديمة لهذه المدن. فاللاذقية التي هي أحد إنشاءات العصر الهلنستي قد احتفظت إلى حد ما بطابع مخططها الأصلي. ودورا ـ أوروبوس، التي يبدو أنها لم تتعرض إلى تغييرات واضحة، قد اعتبرت لزمن طويل أحد أوضح الأمثلة عن المخطط العمراني المنظم. والحالة ذاتها بالنسبة لدمشق، إحدى أغنى المدن بالآثار القديمة التي تحتفظ بآثار لعناصر ذات أهمية كبيرة مثل موقع الآغورا. ومن المعروف أن المخطط العمراني الشطرنجي كان هو المألوف في ذلك العصر. ونعرف أيضا دراسات جان سوفاجيه حول مخططات المدن والنتائج التي توصل إليها عن التشابه بين المعالم التي ما زالت موجودة في العديد من المدن السورية. فهو يذكر كأمثلة على ذلك اللاذقية وأفاميا وأنطاكية وبيرويا ودمشق ودورا ـ أوروبوس.

لقد اعتمد السلوقيون المخطط الشطرنجي، وهو توضع لا يمكن أن ينفذ إلا في أرض خالية كلياً من الأبنية، أي لمدن جديدة أو لتنظيمات جديدة أو لأحياء جديدة أو لمراكز جديدة. ولقد استخدم المخطط الشطرنجي في كل مكان بالرغم من بعض العوائق، لا سيما صعوبة التأقلم مع مرتفع بارز. ومن جهة أخرى فإن سيادة الخط المستقيم يجعل حركة المرور طويلة ويعطي الانطباع بالرتابة. لكن ميزات هذا المخطط عديدة: إنه مناسب لكل مكان، إنه يتوافق مع العقلية اليونانية المولعة بالمنطق وبالتناظر، إنه يسمح بتوسع سهل وغير محدود للمساحة المبينة، إنه يستجيب تماماً لإرادة تطبيق مبادئ الاتجاه المنتظم لكامل النسيج العمراني. ففي الواقع، إن رغبة السلوقيين برؤية إنجاز سريع لمشروعهم في تأسيس المدن الجديدة كانت على الأغلب العامل الرئيسي في اعتماد المخطط الشطرنجي.

إن مبدأ انتظام المخطط كان مراقباً بشدة، لكن يُلاحظ أن كل مدينة

---

[7] J. Weurlesse, «Antioche. Essai de géographie urbaine», *loc. cit.*

كانت محاطة بسور مختلف الشكل وذلك بسبب الظروف الطبوغرافية[8]. فـأمن المدينة كان مضموناً أولاً بوساطة الموقع وبشكل عام بوساطة أسوار جبـارة. فالسور من جدار مستمر، وكان مدعوماً بأبراج ضخمة تتوضع على مسـلفات مختلفة. وكانت سماكة الجدار مختلفة أيضاً من مكان إلى آخـر، مـن 1.8 م إلى 4 م وربما أكثر في بعض النقاط الضعيفة. فهو يمكن أن يصل إلـى 6 م في دورا ـ أوروبوس. وكانت الأبواب المنشأة فـي جـدار السـور تسـمح بالتبادل بين المدينة وخارجها: فهناك ثلاثة أبـواب فـي دورا ـ أوروبـوس تسمح بالدخول إلى المدينة: الباب الرئيسي المنفتح علـى الصحـراء وكـان محاطاً ببرجين ضخمين بينهما مسافة 5 م وكان قياس كل منهما يبلـغ 22 م عرضاً بارتفاع 8.5 م. ويعبر مجمل هذا الجهاز الدفاعي عن خـبرة كبـيرة وعن وجود مهندسين عسكريين ضالعين بعملهم. وتضم المنشـأة العمرانيـة الهلنستية غالباً قلعة تعتبر نقطة ارتكاز للسلطة الملكية. كانت تحتـل أعلـى الروابي مما يسمح لها بالإطلال على المدينة والطريق والنهر. وكان القصـر، وهو مقر السلطة، يقع غالباً في القلعة، ولا بد أن مظهره كان مـهيبا: ففـي دورا ـ أوروبوس يُشار إلى أن موقع القصر يقع في شمال المدينـة ويعـود على الأغلب إلى العصر الهلنستي. ويعتقد جان سوفاجيه أن القصـر الـذي عدله السلوقيون كان قائماً جنوب الشارع المستقيم.

لقد كانت حركة المرور إحدى أهم انشغالات المعمـاريين فـي ذلـك العصر. فالشوارع المتوازية والمتعامدة والشديدة الاسـتقامة كـانت تتقـاطع بزوايا عمودية. كانت اتجاهاتها بشكل عام تتبع الاتجاهات الأربعة الرئيسـية. وكانت شبكة الشوارع متسلسلة بحسب الحجم وبحسب الوظيفة، وبشكل عـام تبعاً لثلاثة مستويات: فبعض الشوارع الأكثر عرضاً، والتي يبلغ عددها غالبـا اثنين أو أربعة، كان يمكن أن تملك وظيفة خاصة لاستقبال المواكب الرئيسـية أو المسيرات الاحتفالية على سبيل المثال، وكانت مجهزة بشكل عام ببوابـات جانبية ومدعومة بالعناصر المعمارية الضخمة في عهد متأخر، ونـادراً مـا

---

[8] لقد كتب بيير لافودان Pierre Lavedan: «إن مخطط المدينة العمراني هو أحد الأعمال الفنيـة التي تعاني بشدة من التأثيرات الطبيعية».

كان ذلك قبل الاحتلال الروماني. أما الشوارع العادية، وهي صغيرة وضيقة نسبياً. فقد كانت تخدم المساكن. وعلى ضوء المعارف الحالية، يبدو من الصعب إرجاع بناء البوابات الضخمة للشارع الطويل الشمالي الجنوبي في أفاميا إلى العصر الهلنستي، وكذلك الأمر بالنسبة للشارع المستقيم في دمشق أو أيضاً بالنسبة للتيترابيل (رباعي الأعمدة) كذاك المعروف في اللاذقية، حتى وإن كان مبدأ تعظيم وتفخيم المحاور الرئيسية المتعامدة في وسط المدينة يعود إلى العصر الهلنستي. ففي الواقع، حاولت العمارة العمرانية الرومانية غالباً تطوير المبادئ المدخلة في العصر الهلنستي.

لقد كانت الشوارع المتعامدة والمتوازية تقسم الساحة المحصورة داخل الأسوار إلى مقاسم صغيرة، مربعة أو مستطيلة. ومن ميزات المخطط العمراني الشطرنجي أن تكون المقاسم السكنية كلها متساوية بالمساحة بشكل صارم. ولقد حسبت أبعاد هذه المقاسم السكنية بحيث يستطيع كل منها أن يضم صفين متوازين من المنازل. وكانت واجهة كل بيت تضم ممراً مباشراً إلى الشارع كما كانت هذه الواجهة خالية من النوافذ.

لقد أخذ السلوقيون في مخططاتهم العمرانية بالحسبان كل عناصر المرافق العمرانية، كالأبنية العامة والخدمات، والمنشآت الثقافية والدينية إلخ. كانت الأغورا أحد العناصر الأساسية في كل مدينة هلنستية: فحول الأغورا كانت تتمركز نشاطات المدينة. وقد تغيرت وظيفة الأغورا بحسب القرون: فبعد أن كانت مكان الاجتماعات السياسية، أصبحت ساحة للنزهة متعددة الوظائف، وفيما بعد أصبحت ساحة للسوق. ويختلف موقع الأغورا بالإضافة إلى أبعادها من مدينة إلى أخرى. فقد كانت في دمشق مركز المدينة الهلنستية، في حين أن مساكن هذه العاصمة الآرامية كانت تحيط بشكل فوضوي بالمعبد الرئيسي لإله المطر حدد. لقد كانت آغورا دمشق مغلقة، وكان الوصول إليها يتم عبر أبواب ضخمة. وكان سوق المدينة يقام في أكثر الأمكنة ارتياداً، بالقرب من المعبد والقصور، لا سيما في الآغورا حتى العهد الذي زاحمتها فيه بوابة المدينة في الوظيفة التجارية: عندها فقدت الآغورا هذه الوظيفة.

لقد اعتبرت المعابد لزمن طويل أحد أهم العناصر العمرانية في كل العصور. فلقد كشفت أعمال التنقيب في دورا ـ أوروبوس عن ستة عشر معبداً ذات معتقدات مختلفة أنشئت في عهود مختلفة. فبعض الديانات تعود بالتأكيد للعصر الهلنستي، حتى وإن كانت المعابد التي خصصت لها قد تعرضت إلى تعديلات في العصر الروماني. ففي دافنة، كانت شهرة معبد الإله الملكي أبولون والربة أرتيميز واسعة الانتشار. وكان المسرح عنصراً عمرانياً جديداً ذا أهمية كبيرة. ولقد ظهر في سورية في العصر الهلنستي، لكن آثار المسارح المعروفة حتى الآن لا تعود إلا إلى العصر الروماني. وكانت دار التربية الرياضية أيضاً عنصراً شديد الأهمية، وقد اعتبر كمنشأة تربوية: يمكن أن نذكر على سبيل المثال أنطاكية ودار اللاذقية. وفي ذلك العصر أيضاً ظهر مضمار المدينة، فآثار مضمار بصرى ما زالت مرئية. إن تزويد المدينة بالمياه هو أحد المسائل التي واجهها «مهندسو» ذلك العصر، لكننا ما زلنا نفتقد للمعلومات الدقيقة حول هذا الموضوع: لقد بنيت القنوات لتزويد المدن السورية بالمياه، ونعرف أيضاً أن الينابيع كانت موجودة وتستخدم كمناهل عامة تسمى غار الحوريات Nymphe ومهداة إلى آلهة الماء. لقد كان غار الحوريات موجوداً في العصر الهلنستي، لكن الأهمية التي اكتسبها تعود إلى العصر الروماني.

وسيلعب العرب اعتباراً من العصر الهلنستي دور العنصر العمراني. ويعود ذلك إلى التقاليد المحلية أكثر مما يعود إلى المساهمات الهلنستية. فالبساتين المتوضعة في كل مكان وبشكل خاص على ضفاف العاصي في أنطاكية، هي ظاهرة جديدة مرتبطة بالانشغال بتنظيم الفضاء الطبيعي من أجل متعة النفس. فالمتنزه عنصر هام وشعبي جداً، كمنتزه دافنة الذي ينتصب فيه معبد أبولون. ففي الظلال الساحرة للغابات المقدسة يمكن أن يتعايش الشعور الديني ومتع الدنيا. فلقد كانت ضاحية أفاميا مزينة ـ بمنتزه مطروق كان يمتد بين الأسوار والنهر. ففي هذا الوادي، أنشئ مسبح في وسط الخضرة. ويعتقد بأن الاهتمام بالشجرة قد أوجد فكرة الأروقة. كما كانت ساحة المدفن خارج المدينة موضوعة في المخطط العمراني الأولي. وللأسف ما زالت معلوماتنا الوثائقية حول هذه النقطة ضعيفة.

حتى وإن استطعنا أن نذكر وبشكل مؤكد أن الهلنسة تطبع بقوة المدن السورية ولمدة طويلة، وأن مساهمتها تشكل نوعاً ما تقدماً كبيراً، فإن الوقت الذي نستطيع أن نكتب فيه، بشكل دقيق ومفصل، تاريخ العمران الهلنستي في المشرق ما زال بعيداً.

المراجع العربية

عبد الحق (س) : *مظاهر من دمشق القديمة*، ترجمه عن الانكليزية و. كناني، اللوحات لخالد معاذ، مكتبة الطرقجي، دمشق ، 1950.

كرد علي (م) : *خطط الشام*، دمشق.

BIBLJOGRAPHJE المراجع باللغات الأجنبية

BEVAN EDOUARD (R.)

1902 The House of Se/eucus. London, Edward Arnold.

BIKERMAN (E.)

1938 Institutions des Séleucides. Paris, Librairic orientaliste Paul Geuthner.

BOURQUENOUD (A.)

1860 Mémoires sur les ruines de Séleucie de Piérie ou Séleucie de Syrie. Etudes de théologie, de philosophic et d'histoire. Paris.

CHAPOT

1906 Séleucie de Piérie. Paris, Société des Antiquaires de France, Mémoire 7.

COHEN (R.)

1939 La Gréce et l'hellénisation du monde antique. Paris, P.U.F.

CUMONT (F.)

1923 «Les fouilles de Salhieh sur l'Euphrate », Syria, IV.

1926 Les fouilles de Doura-Europos. Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner.

CUMONT (F.) et ROBERT

19.. «Les fortifications de Doura-Europos », Syria, V, 24-41 et 346-358.

DOWNEY (G.)

1951 «The Water Supply of Antioche on the Orontes in the antiquity », Les Annales Syriennes, 11.

JOUGUET

1926 L 'hellénisme en Orient, Paris, La Renaissance du line.

LACOSTE (M.)

1941 «Les fouilles d'Apamée». Antiquité Gassique, VII, Bruxetles.

LASSUS (J.)

1933 «Fouilles à Antioche », Gazette des Beaux-Arts, VI. «Antioche on the Orontes, the Excavations of 1932-1934 ».

LAVEDAN (P.)

1926 Histoire de l'architecture urbaine. Paris, Henri Laurens.

MARTIN (R.)

1951 Recherche sur l'agora grecque. Etudes d l'histoire et d'architecture urbaines. Paris, Boccard.

MAYENICE (F.) 1932, 1935,

1939 «Les fouilles à Apamée », Antiquité Classique, Bruxelles.

1932, 1933,

1938, 1940 Bulletin des Musées Royaux d'Art et d'Histoire.

POETE (M.)

Introduction à l'urbanisme. Paris, Boivin et cie.

SAUVAGET (J.)

1934 «Le plan de Laodicée sur Mer», BEO IV, Damas, IFD.

1941 Alep, essai sur lc développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle. Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner.

1935 «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », Revue des Etudes Islamiques.

TARN (N. W.)

1936 La civilisation hellénistique. Paris, Payot.

VITA (P.)

1936 L'évolution d'Antioche, Mémoire présenté à l'Institut d'Urbanisme de l'Université de Paris.

WEULERSSE (J.)

1934 «Antioche, essai de géographie urbaine», BEO IV, IFD, Damas.

شهبا ــ فيليبوبوليس القديمة

حسن حاطوم

المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية

تبلغ مساحة محافظة السويداء، الواقعة في الجنوب الشرقي من الجمهورية العربية السورية، ما يقارب 6000 كم^2. وهي متصلة من الشمال بغوطة دمشق ومن الشرق بالبادية ومن الغرب بسهول حوران وأخيراً من الجنوب بالأردن[1].

لقد كانت معروفة باسم باشان (الأرض المشجرة) أثناء الألفين الأول والثاني قبل الميلاد، وباسم حوران (كهف، مخبأ) في العصر الأموي، حملت فيما بعد اسم جبل بني هلال، نسبة لاسم هذه القبيلة العربية التي عبرت المنطقة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، قبل أن تتوجه نحو شمال أفريقيا مروراً بمصر. وعلى أثر هجرة السكان الدروز القادمين من لبنان ابتداءً من القرن الثامن عشر، أخذت اسم جبل الدروز، وهي تحمل حالياً اسم جبل العرب[2].

وتتكون هذه المنطقة في الشرق من سلسلة من الهضاب البازلتية العائدة لعصري الميوسين والهولوسين الحديث الجيولوجيين، وهي مرتفعة نسبياً (1100 ــ 1820 م) وتقدم إطلالات رائعة على سهول حوران الخصبة وكذلك

---

1 F. Braemer, «La Mohāfazat de Suweidā, présentation géographique» dans Le *Djebel al-'Arab*, J.-M. Dentzer et J. Dentzer-Feÿdy éd., Recherche sur les Civilisations, Paris, 1991, p. 1-4.

2 A. Abu 'Assaf, *The archaeology of Jebel Hawran*, Damascus 1998, p. 7. Th. Bianquis, «Le Hawran, de l'avènement de l'Islam à la conquête ottomane», Le *Djebel al-'Arab*, J.-M. et J. Dentzer-Feydy ed., Recherche sur la Civilisation, Paris, 1991, p. 89-92.

على قمم جبل حرمون (جبل الشيخ)[3].

ويمكن اعتبار جبل العرب أحد أقدم مناطق الاستيطان في الشرق القديم، فهو يضم آثاراً لمساكن ما قبل التاريخ، وقد تتابعت على استيطانه موجات عربية قديمة متتالية: الآراميون، الأنباط، الصفويين، الغساسنة، العرب المسلمون. كما أنه عانى من الاحتلالات اليونانية، والرومانية والبيزنطية والصليبية والعثمانية. ولكن العرب كانوا دوماً العنصر المهيمن في سكان هذه المنطقة وظلوا سادة هذا البلد الذي أكثروا فيه من شواهد الحضارة والتطور الاقتصادي[4].

إن موقع الشهبا عبارة عن مخروط بركاني صغير، يبلغ متوسط نصف قطره خمسمئة متر، وهو أحدث من ذاك الموجود في اللجا (الواقع في المنطقة الغربية)، كما أن الكراتر صغير وقليل الوضوح وتشهد خاصرته الشرقية، الأقل ارتفاعاً عن خاصرته الغربية، على انبعاث اللافا البركانية المتجهة بشكل أساسي نحو الشرق، وقد بنيت مدينة الشهبا على هذه الصبة البازلتية الأحدث[5].

وتمتد آثار المدينة القديمة المتهدمة على منحدر الكراتر وتغطي أعاليه. إن انتظام مخططها العمراني، واتجاه السور والشوارع الرئيسية التي تتقاطع وتعبره من طرف إلى آخر، تشير كلها إلى أن المدينة قد عرفت ازدهاراً لامعاً، بالإضافة إلى أن عمرانها مستعد لتوسعها[6].

إن الشهبا هي فيليبوبوليس Philippoplis القديمة، التي أسسها الإمبراطور فيليب العربي في عام 244م والذي يعود بأصله إلى المنطقة. فإن كان الاسم السابق للمدينة غير معروف، فمن المحتمل أن الاسم الحالي للشهبا يحفظ ذكراه، كما هي الحال بالنسبة لسائر قرى المنطقة تقريباً: فهناك نقوش

---

3 F. Braemer, op. cit. , p. 1.

4 حاطوم. فيليبوبوليس، دمشق، 1996، ص. 3.

5 ح. حاطوم، H. Hatoum: «Shahba (Philippoplis)», *Syrie, mémoire et civilization,* Catalogue de l'exposition de l'IMA, Paris 1993, p. 284.

6 K. S. Freyberger, «Die Bauten und Biladwerke von Philopplis», *DAM. Mitte* 1992, p. 293-311.

كتابية يونانية تعود للقرن الرابع قبل الميلاد تذكر قرية بوريكة (غرب الشهبا)[7]. قد ذكرت في القرن الرابع تحت اسم Bozecaq Sabawn، إن هذا الذِكر للسبئيين يمكن أن يكون متعلقاً بالشهبا أكثر من علاقته بهجرة القبائل اليمنية. في الواقع، إن كتابة الاسم بالطريقة اليونانية يجب أن يعطي شكل Sabs[8]، ويذكر أن هذا الموقع كان مسكوناً من قبل قبيلة «الشهابية» العربية التي تنتمي إلى عشيرة قريش والتي كانت تحكم حوران أثناء القرن الثالث عشر الميلادي، ثم توجهت إلى وادي «التيم» في لبنان، لتأسس حكم بني شهاب (اسم يطلق على أمراء هذا القبيلة)[9].

تضم الشهبا حالياً أكبر كمية من الآثار القديمة – وأشهرها – في جبل العرب[10]. وإن كان هذا الموقع المسكون قديماً منذ ما قبل التاريخ، قد سكنه العرب الأنباط، فليس هناك أي أثر محفوظ عن هذه الفترة، فقد عرفت المدينة ألمع فترات ازدهارها في تاريخها في عهد الامبراطور فيليب العربي[11].

الشهبا في عصور ما قبل التاريخ

لقد عُثر شمال وغرب الموقع على بعض الأدوات الصوانية المستخدمة في الحياة اليومية: خناجر ومكاشط ومناشير ورؤوس رماح، كما كشفت المسوحات الأثرية الحديثة أن المواقع القريبة من الشهبا، في الشرق وفي

---

[7] نجد اسم شهبا Shehba (عند بوتلر) السهبا es-Suhba (عند برونـاو ودوماتسفسكي Brünnow و Domaszewki) وشهبا Shohba ألخ. ولقد اعتمدت كتابة اسم شهبا بهذا الشكل في عهد الانتداب الفرنسي.

[8] Gh. Amer et M. Kawlikowski, «Le sanctuaire impérial de Philippopolis», DAM. Mitte, 1985, p. 1-15.

[9] معجم المنجد، بيروت، 1994، ص. 337.

[10] U. J. Seetzen visita Chahba et ses monuments en 1805, J. L. Burckhardt en 1812, J. S. Buckingham en 1825, L. de Laborde et G. Robinson en 1837, Lord Linolsay en 1838, J. L. Porter en 1855, E. G. Rey de 1857 a 1858, A. Heber Percy en 1895, H. C. Butler (AAES) en 1903, R. E. Brunnow et A. von Domaszewski en 1909, J. Mascle en 1936, M. Dunand en 1934 et Miss. M. Hiebter en 1939.

[11] J. D. Feydy, «L'architécture et son décor», Le *djebel al-'Arab*, J.-M. Dentzer-Feydy, Recherche sur les Civilisations, Paris 1991, p. 56, M. Sartre, *La Syrie du Sud a l'époque Gréco-romaine*, p. 32.

الغرب، قد سكنت في عصر البرونز (الكوم ولبوة)[12].

الشهبا في العصر اليوناني

لقد احتل اليونانيون المقدونيون سورية، ومن ضمنها جبل العرب، في عام 333 قبل الميلاد، ثم تتابعت الهلسنة ونمت في العصر الروماني، كما يشهد على ذلك العديد من النقوش اليونانية التي عثر عليها رحالة مختلفون حول الشهبا وجمعها بشكل متوالٍ ج. وادينتون G. Waddington في مطلع القرن العشرين، ثم نشر ر. دوسو و ف. مالكر F. Macler مقالات وكتباً عديدة، ويتابع هذه البحوث الآن م. سارتر M. Sarter، وتظل حصة التراث اليوناني مع ذلك قليلة الأهمية في الشهبا[13].

الشهبا في عصر الأنباط

لقد احتل الأنباط، وهم سكان عرب جاؤوا من شمال شبه الجزيرة العربية، الضفة الشرقية لنهر الأردن وجنوب سورية، وفي ظل حكم عبادة الأول، وقعت معركة حامية الوطيس بين الأنباط والسلوقيين اليونانيين في موقع موذو (موذانا) وهو مكان اعتبره البعض بالقرب من كاناثا (قنوات) Canatha واعتبره آخرون في منطقة إمتان Imtan على بعد 45 كم جنوب السويداء. وقد قتل خلال هذه المعركة الملك السلوقي أنطونيوشوس الثالث عشر وتشتتت قواته، وبعد ذلك تم تقسيم الإمبراطورية السلوقية. ولقد سيطر الأنباط على المنطقة الواقعة بين دمشق وجبل العرب، واحتلوا جميع مدنها ومن بينها الشهبا[14]، وأصبحت البتراء عاصمتهم في ظل حكم أريتاس الثالث في عام 88.

---

[12] سلطان محيسن: «ما قبل التاريخ في سورية الجنوبية» في ملتقى دولي حول تاريخ وآثار السويداء، الحوليات الأثرية، العدد 41، صز 43-46. F. Braemer, «Du paléolithique à la fin de l'âge du Bronze» Le *djebel al-'Arab*, J.-M. Dentzer et J. Dentzer-Feydy, Recherche sur les Civilisations, Paris 1991, p. 5-6.

[13] M. Sartre, «La Syrie a l'époque hellénistique», *Archéologie et histoire de la Syrie*, vol 11, J.-M. Dentzer et W. Orthmann ed., 1989, p. 31-44; Le *djebel al-'Arab*, «La Syrie à l'époque Greco-romaine», p. 29-34; «La langue et les inscriptions grécques», *ibidem*. P. 35-36.

[14] A. Bounni, «Les Nabatéens en Syrie du Sud», *Le djebel al-'Arab*, Paris 1991, p. 21-23; J. Teixidor, Les inscriptions nabateenns du muse de Suweida, p. 25-28.

وللأسف لم يعثر على أي نصب أثري نبطي في الشهبا. ومع ذلك، فـلا بد أن الأبراج الجنائزية قد بنيت بحدود العصر المسيحي وتنتشر سلسلة منـها في الوادي الذي يهبط إلى اللجا، غرب الشهبا[15].

الشهبا في العصر الروماني

مثلما هي الحال بالنسبة لكل أرجاء سورية، احتل الرومان جبل العـرب في عام 64 قبل الميلاد. ولا يبدو أن الشهبا قد أثارت اهتماماً خاصـاً لـدى الرومان، وكان يجب انتظار فيليب العربي، الذي أصبح إمبراطوراً في رومـا عام 244، كي تنال البلدة بالإضافة إلى اسمها فيليبو بوليس، الاسم المميز لـ (مستوطنة رومانية). وعلى الرغم من أن فيليب العربي لم يحكم سوى خمسـة أعوام، فإن آثار الشهبا تشهد على الازدهار المرتبـط بحكمـه[16]. لاشـك أن الإمبراطور قد احتفظ ببعض الصروح من العصر السابق، لكنه بشكل خـلص قد بنى أخرى. لقد أراد أن يمنح المدينة التي ينتمي إليها صفة العظمة لكـي تنافس المدن الرومانية في الغرب وفي الشرق. لا بد أنه قد استلهم من رومـا عندما أعطى الأمر بتنظيم وتجميل فيليبوبوليس وذلك ببناء الصروح الدينيـة (المعابد) أو المدنية (الساحات العامة، القصور، الحمامات، أقـواس النصـر، المسرح). وفي الوقت نفسه بنت العائلات الكبيرة في المدينة منـازل فـاخرة وفيلات غنية بالزخرفة.

تعتبر الشهبا أحد الأمثلة القليلة عن مدن الشرق الأوسـط المنظمـة بحسب مخطط عمراني روماني نموذجي: فالشارعان الشـمالي الجنوبـي (كاردو) والشرقي الغربي (ديكومـانوس) يتقاطعـان بزاويـة عموديـة، وتتميز نقطة لقائهما بتترابيل محاط بساحة بيضويـة الشـكل. والمدينـة محمية بسور مستطيل، ويعود تاريخ معظم الصروح إلى القـرن الثـالث بعد الميلاد[17].

---

[15] F. Braemer, «Prospections archéologiques dans le Hawran (Syrie)», *Syria LXI*, Paris 1984, p. 223, 232, 233, 235, 245.

[16] J. Balty, «La mosaïque en Syrie», *Archéologie et histoire de la Syrie*, vol. 2, 1989, p. 495.

[17] H. Hatoum, «Shahba –Philippopolis», *Syrie mémoire et civilization*, Catalogue de l'exposetion de l'MA, Paris 1993, p. 285.

الشهبا في العصر البيزنطي

تتقلص آثار العصر البيزنطي، ابتداء من القرن الرابع الميلادي، لتنحصر ببوابات ذات تيجان إيونية تمتد أحيانا على طول واجهات المنازل، وببعض التزيينات المعمارية التي أعيد استخدامها في الكنائس، وبوجود بعض الرموز المسيحية المنفذة على الساكفات* وعلى قواعد الأقواس، وأحيانا بجوار تزيينات نباتية بدائية جدا. وإلى هذا العصر أيضا يعود تاريخ الكنيسة المزدوجة ذات الجناح المستطيل الثلاثي الأجزاء، والواقعة جنوب الديكومانوس، والتي تحتلها المنازل الحديثة حاليا [18].

الشهبا في العصر الإسلامي

بعد الفتح الإسلامي في عام 634، انتشر المسلمون في كل أرجاء جبل العرب ولا سيما في الشهبا. لقد شغلوا مساكن العصور السابقة التي رممت وعدلت قليلا[19].

إن الزلزال الذي ضرب كل منطقة حوران في 27 أيلول من عام 1151 والذي أصابها بأضرار حادة، ولا سيما لمدينة الشهبا، ثم تلته الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر، قد أدى كل ذلك إلى تهدم معظم الأوابد والمساكن، ثم هجرت هذه المنطقة لقرون عديدة بعد ذلك: ففي القرن السادس عشر لم يكن يقطن الشهبا سوى إحدى عشرة عائلة[20].

آثار الشهبا في العصر الروماني

1 ـ *المعبد السداسي الأنماط*: يقع على بعد 50م إلى الغرب من رباعي

---

* الساكف: أعلى الباب الذي يقابل العتبة. (المترجم)

[18] J.-P. Sodini, «Monuments chretiens du Mohafazat de Suweida», *Le djebel al-'Arab*, Paris 1991, p 87, J.-M. Dentzer et J.-D. Feydy, p. 57.

[19] Th. Bianquis, «Le Hawran, de l'avènement de l'Islam à la comquete ottomane», *Le djebel al-'Arab*, p. 89-92.

[20] J.-P. Pascual, «La montagne du Hawran du XVI^{e} s. à nos jours», *Le djebel al-'Arab*, p. 101-108.

الأعمدة Tétrapyle على طول الشارع الروماني الرئيسي ـ ديكومانوس ـ ولا يُشاهد سوى ثلاثة أعمدة بتيجانها الكورنثية، ويقبع ما تبقى من المعبد تحت المنازل الحديثة.

2 ـ *المعبد الإمبراطوري*: يقع هذا المجمع الواسع الضخم حول ساحة واسعة مبلطة جنوب غرب الديكامونوس. وقد سماه م. دوفوغ M. de Vogue في عام 1865 كليبة Kalybe، والدراسات التي أجراها م. غافليكوفسكي و غ. عامر لهذا الصرح والمنشورة في عام 1985، تفترض أنه كان على الأغلب معبداً إمبراطورياً بني في عهد الإمبراطور فيليب العربي[21].

3 ـ *الفيليبيون Philippeion*: إن هذا المعبد الواقع إلى الجنوب الشرقي من الساحة الكبيرة مرتبط بالمجمع الصرحي المذكور من قبل، وهو مربع الشكل، ضلعه 12.5 م وارتفاعه 6.7م، والزوايا متوجة بتيجان إيونية، وكانت فتحة المدخل ترتفع إلى علو 5.5 م بعرض 3 م وعلى جانبي الباب ما زال بالإمكان رؤية حاميا الإفريز وعليهما نقوش يونانية مهداة إلى الرب مارينوس الممجد، وهو أب فيليب العربي.

4 ـ *المسرح*: يوجد مسرح صغير جنوب الفيليبيون تماماً ، وهو أصيل من الناحية المعمارية. إنه نموذج جميل للتقنية العربية في العصر الروماني، وقد بني بمهارة بيد بنائي المنطقة في ذلك العصر. وهو يطل على الجنوب ويبلغ قطره 42.5 م. وقد بني بالأصل بطابقين، ولكن لم يبق سوى تسعة صفوف من مدرج الطابق الأول باستثناء الصف الأول من مدرج الطابق الثاني في الجهة الغربية. ويظل هذا المسرح من أفضل المسارح حفظاً في سورية[22].

5 ـ *الحمامات* : لقد بنى الإمبراطور حمامات عامة من أجل راحة ومتعة سكان الشهبا، وهي تقع على طول الكاردو، عند نقطة وصول قناة

---

[21] Gh. Amer et M. Kawlikowski, «Le sanctuaire impérial de Philippopolis», *DAM. Mitte*, 1985, p. 1-15.

[22] E. Frezouls, «Le théatre de Philippopolis en Arabie», Paris 1956, *Syria, Recherches sur les théatres de l'Orient syrien*, Paris 1959, p. 214; «Les édifices des spectacles en Syrie», *Archéologie et histoire de la Syrie* vol. 2, p. 393-400.

مائية ما زالت تحتفظ بالعديد من أعمدتها، كانت هذه القناة تأتي بالماء من جبل عند قرية مجاورة تقع على بعد 15 كم من المدينة. وتتكون هذه الحمامات التي تبلغ مساحتها 5000 م^2 من ثلاث مراتب من القاعات: Caldarium ، Tepidarium ، Frigidarrium *. وهي وافرة التزيين بالرخام الملبس على الجدران وكذلك بمعجون المرمر وبالجبس ـ فناء محاط بالأعمدة ـ وتضم أيضاً ملحقات عديدة أخرى: مكتبة، قاعة مطالعة، قاعة تربية بدنية، قاعة تسلية. وقد تم العثور أثناء أعمال التنقيب على تمثالين يمثلان الإمبراطور فيليب العربي وزوجته، ورأس تمثال الإمبراطور معروض حالياً في متحف الشهبا.

6 ـ *الأسوار والأبواب*: إن فيليبوبوليس عبارة عن قلعة حقيقية Castrum، ومخططها يقترب من شكل المربع المحصن بضلع يبلغ طوله 1 كم، وتدعم الزوايا أبراج دفاعية تؤمن الإيقاع المعماري المنسجم للسور. إن هذه الأبراج، بالإضافة إلى جزء كبير من جدران السور، قد هدمت ولم يبق منها سوى ثلاثة أبواب (شرقي، جنوبي، شمالي) بالإضافة إلى ثانوي في الجنوب الغربي من السور، وكلها مبنية على طراز أقواس النصر.

7 ـ *الشوارع المبلطة ورباعي الأعمدة*: إن ما يدهش في هذه المدينة، هو الحفظ الجيد للشوارع المبلطة ببلاطات كبيرة من البازلت، فالشارعان اللذان يعبران الشهبا من الشمال إلى الجنوب (الكاردو) ومن الشرق إلى الغرب (الديكومانوس) يتقاطعان بزاوية عمودية عند بقايا رباعي الأعمدة، وكانت هذه الشوارع مزودة بأعمدة وتفضي إلى أبواب ثلاثية الأقواس، كأبواب جرش أو تدمر.

8 ـ *الفيلات والفسيفساء*: لقد عثر في الشهبا على أثمن المجموعات الفسيفسائية في الشرق الأوسط. إن هذه الألواح من الفسيفساء التي كانت تزين المنازل الكبيرة والقصور والحمامات (ومنها بلا ريب لوح الإمبراطور فيليب) محفوظة حالياً في متاحف دمشق والشهبا والسويداء.

---

* تسمى حالياً في تعابير أصحاب الحمامات: البراني، الوسطاني، الجواني. (المترجم)

وهذه الألواح الفسيفسائية نموذج رائع عن تطور هذه التقنية منذ عهد الإمبراطور فيليب ولغاية القرن الرابع[23].

وفي عام 1962 قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بالتنقيب في الخرائب الواقعة بالقرب من حمامات الشهبا الكبيرة. وقد اكتشف في الموقع فيلا تتكون من 28 غرفة، احتفظ بعضها ببلاطه الفاخر من الفسيفساء، ولكي تحفظ هذه الألواح في مكانها، قررت المديرية العامة للآثار إعادة بناء الجناح الذي كان يأويها وتحويله إلى متحف إقليمي. وتذكر كل لوحة فسيفساء موضوعاً من مواضيع الأساطير اليونانية ـ الرومانية، ومن بين ما نشاهد ربة البحر تيتيز Thétis، وأعراس ديونيزوس وآريان، وأورفه يداعب الحيوانات وعشق أفروديت وآرِس[24].

* * *

وهكذا فإن مدينة الشهبا، وطن الامبراطور فيليب العربي (244–249)، عبارة عن حالة استثنائية في سورية لمدينة أنشئت بحسب مخطط عمراني مستطيل، فمن بلدة صغيرة تطورت لدرجة أنها أصبحت مستوطنة رومانية تحمل اسم فيليبوبوليس، ولقد حظيت برعاية فيليب العربي الذي أراد أن يكرم مدينته الأم بصروح رائعة.

وككل حاضرة يونانية –رومانية، كان يدير الشهبا أعضاء من مجلس الشيوخ كانوا يشكلون المشيخة المحلية*، ومجلس الشيوخ وأعيان البلدة، وبرويدروس Proedros ، لا بد أنه كان الرئيس، وقضاة كالآغورانوم Agoranome ، ومسؤول شرطة الأسواق والتموين، ويشار أيضاً إلى وظيفة المفتش (Episkopos).

---

23 J. Balty, *Mosaïques antiques de Syrie*, Bruxelles 1977; «La mosaïque en Syrie», *Archïéologie et histoire de la Syrie*, vol 2, p. 495-502; «Les mosaéïques du musée de Suweida», *Le djebel al-'Arab*, p. 81-84.

24 عبد القادر ريحاوي: «الآثار التاريخية» دمشق، 1972، ص. 50. وغ. عامر: «شهبا، مدينة الإمبراطور فيليب العربي، دمشق، 1982.

* المشيخة: مجلس شيوخ عند الإغريق القدماء. (المترجم)

لقد عرفت الشهبا في ذلك العصر نمواً اقتصادياً مميزاً يعتمد بشكل أساسي على الزراعة، وقد ساعده وجود خط سير تجاري يذهب من دمشق إلى بصرى (كما تدل على ذلك خارطة الطرق القديمة المعروفة باسم جدول بوتنجر Table de Peutinger) والذي كانت تحتل فيه الشهبا محطة هامة. كما كانت التجارة مزدهرة، ويدل على ذلك وجود العديد من المحلات التجارية والمخازن على طول الديكومانوس والكاردو. وكانت المبادلات التجارية تتم مع دمشق مثلما مع بصرى وقبائل الصفا. ولقد استمر هذا النمو الاقتصادي والثقافي طوال العصر البيزنطي.

وتشهد تحصينات الشهبا على أهميتها العسكرية: كانت المدينة تعتبر مركزاً عسكرياً متقدماً يحمي المنطقة الجنوبية من هجمات الفرس وحلفائهم.

ولم يمنع ظهور الإسلام من استمرار تطور المنطقة بالرغم من الأزمات التي ميزت القرون الأخيرة للإمبراطورية الرومانية، ففي عام 635 أخذت الشهبا مكاناً في بلاد الشام، وبعد العصر الأموي فقط، ومع انتقال السلطة من دمشق إلى بغداد، بدأت الحياة تتدهور في جبل العرب، إلى أن هجر كلياً لصالح البدوِ الرحل، ولم يستيقظ ثانية إلا لحظة عودة الاستيطان إلى هذا الجبل، ابتداء من القرن السابع عشر، من قبل الدروز القادمين من لبنان وفلسطين وشمال سورية.

قنوات (كنثا) الرومانية:
نتائج حملات التنقيب في 1997-1998

كلاوس ستيفن فرايبيرغر **Klaus Stefan Fryberger**

مدير معهد الآثار الألماني (DAI) ـ دمشق

مقدمة

تقع قنوات، كنثا القديمة، على بعد 100 كم جنوب شرق دمشق و 7 كم إلى الشمال في منطقة جبل العرب الخصبة[1]. وربما يكون الموقع المنتصب على هضبة شديدة الانحدار يحدها من الشرق واد عميق، ومن الغرب منحدرات جبل العرب، هو مدينة كينث الواردة في كتاب العهد القديم. ونظراً لغناه بالماء، فقد كان المكان مقراً هاماً للاستيطان في قديم الزمان. إن إسمي كنثا الآرامي وقنوات العربي يعنيان الأقنية. وما إن أسس بومبيجوس ولاية سورية سنة 64/63 ق. م، حتى حصلت كنثا على صفة المدينة في أراضي

[1] استخدمت المختصرات التالية للمنشورات المتكرر استعمالها:

- AHS II, J.-M. Dentzer, W. Orthmann (ed.), *Archéologie et Histoire de la Syrie* (1989).
- BD III, R.E. Brunnow, A. V. Domaszewski, *Die Provincia Arabia*, III (1909).
- Butler (1904), H.C. Butler, *Architecture and other Arts*, (1904).
- Butler (1909-1918), *Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904-1905 and 1909.* Division II: Architecture, Section A: Southern Syria (1909-1918).
- Freyberger (1993), K.S. Freyberger, Der «Peripteraltempel» in *Qanawat Ein Arbeitsbericht*, Damaszener Mitteilungen, 7, 1993, 63-79.
- Syria (1982), Gh. Amer, J. L. Biscop, J. Dentzer-Feydy, J. P. Sodini, *L'Ensemble Basilical de Qanawat (Syrie du Sud)*, Syria 59, 1982, p. 257.
- Waddington, W.H. Waddington, *Inscriptions grecques et latines de la Syrie (1870).* / RE 10 (1917) 1856 s. v. Kanatha (Moritz); J. P. Rey-Coquais in: R. Stillwell (Ed.), The Princeton Encyclopedia of Classical Sites (1976) p. 191.

اللافا البازلتية. وجرى ترتيب كنثا إبان القرن الأول ق. م على أنـــها واحـدة من المدن العشرة[2].

إن قنوات الحالية والتي تضم العديد من الأبنية القديمة مـــن الفـترتين الرومانية والبيزنطية قد أصبحت موضع استقصاء علمي في القـــرن التاسـع عشر كما هو مبين في الرسم التذكاري لـــ ج. راي[3] و ل. ديلابورد[4]. وبعـد ذلك بزمن قصير، تم توثيق أبنية منفردة من المدينة في صـــورة مخططـات ترسيمية نفذها م. دي فوغي[5] وبرونو دومسزويسكي[6]، وهــــ. ســي. بتلر[7]، وفيما بعد ر. دونسيل[8] في ثمانينيات القرن الحالي. إن استقصاءات التطـــور الحضري على نطاق أوسع تكاد تكون مفقودة. لهذا السبب فقـــد نظـر إلـى استكشاف كنثا القديمة منذ 1997 على أنه مشروع تعاوني سوري ــ ألمـاني. وقد تم تنفيذ ثلاث حملات حتى هذا التاريخ من قبل معهد الآثـــار الألمـاني بدمشق بالتعاون مع علماء آثار من جامعة كولون وتم كذلك وضــع مخطـط جديد من قبل فريق من الطبوغرافيين من جامعة ميونخ للتكنولوجيا يتضمـــن كل الأبنية القديمة المعروفة داخل وخارج الأسوار.

يشبه هذا المخطط العمراني مخطط ج. راي الموضوع في عام 1857[9]، فالسور يطوق المدينة بشكل كامل مؤلفاً مساحة قدرهـــا 160.000 م2 بطـــول

---

[2] E. Schurer, *The History of the Jewish People in the Age of Jesus Christ* Vol. II (1981) p. 140; H.I. MacAdam, Studies in *the History of the Roman Province of Arabia (1986)*, p. 74; M. Sartre, *Les cités de la Décapole séptentrionale. Canatha, Raphana, Dion et Adraha*, Aram 4, 1991, 139-156; F. Millar, *The Roman Near East* (1993) p. 396.

[3] G. Rey, *Voyage dans le Haouran (1857/58)*, p. 129, pls. 5-8.

[4] L. de Laborde, Voyage de la Syrie (1837), pls. 54.55.

[5] M. de Vogue, Syrie centrale: architecture civile et religieuse, du I au VII siecle (1865-1877), pls. 19.20.

[6] BD III p. 102 figs. 1000-1038.

[7] Butler (1904) p. 351; p. 402; Butler (1909-1918) p. 346 figs. 313-316 pls. 21-24.

[8] R. Donceel, L'exploration de Qanaouat (Qanawat), AAS33.2, 1983, 129-139 pls. 1-4; idem., l'eveque Epiodore les basiliques de Kanatha d'apres une inscription grecque inedite, Le Museon 100, 1987, 67-88; P. Donceel-Voute, Kanatha, ville de la Décapole, enter le paganisme et l'Islam. Prospections, in: *Actes du XI Congres International d'Archeologie Chretienne de Lyon* (1989) 1661-1674.

[9] Rey, *op. cit.*, pl.. 6 (note 3).

يصل أقصاه إلى 730 م وعرض 220 م. ويعود الشكل المستطيل لمخطط المدينة إلى حقيقة أن الإنشاءات القديمة على المنحدر كانت قد أقيمت على طول الوادي. وقد قسم الشارع الرئيسي الذي يقطع المدينة من الغرب إلى الشرق، على غرار ديكومانوس القديمة، مدينة كنثا إلى قسمين اثنين: جنوبي حيث يوجد الأكروبول مع المناطق المقدسة وشمالي حيث مركز المدينة الذي يضم عدة مساكن وكنائس من الفترة البيزنطية. وإلى الجنوب من هذا الشارع المحوري، الذي يبدأ بشكل مستقيم من البوابة الجنوبية المحفوظة جزئياً ليصل إلى تجمع من الأبنية الدينية التذكارية التي يطلق عليها عموماً اسم «السرايا» . وقد أطلق هذه التسمية الرائعة المركيز دو فوغز الذي كان أول باحث يتفحص المجمع في القرن التاسع عشر. ونجد، إلى الجنوب من هذا التجمع، الآثار القائمة لمعبد تذكاري ضخم آخر كان قد خصص للإله زيوس مجيستوس.

وهناك شارع ثالث يمتد من الشمال إلى الجنوب على طول الضفة الغربية للوادي. ويتقاطع هذا الشارع مع الديكومانوس في منطقة شاسعة بدت وكأنها مكان عام. وإلى الغرب قليلاً توجد آثار حمَّام يعود للقرن الثاني الميلادي، كشفت عنها دائرة آثار السويداء[10]. ومن المحتمل جداً أن تكون هذه المنطقة مركز المدينة بمبانيها العامة كالحمامات، والنوافير، وقاعات الاجتماعات. وأبنية ضخمة أخرى مخصصة لأغراض عامة. أما مخطط بورتر (Porter) الموضوع عام 1860 فهو مختلف كلياً[11]: فجدار سور الجهة الشمالية مفقود، وليس هناك مقياس أو سهم يبين الاتجاه. وهذا المخطط الذي لا يزال منشوراً حتى اليوم يجب أن ينظر إليه كمخطط أولي لا كمخطط عمراني دقيق.

مجمع البسيليكا* («السرايا») Basilicas

كان هذا المجمع في الأصل حرماً امبراطورياً، جرى تحويل أبنيته إلى

---

10 H. Hatoum, Qanawat. *L'antique Canatha et ses monuments* (1996), 9 pls. 34.35.

11 BD III 108 fig. 1000.

* البسيليكا هو بناء مؤلف من ردهة طويلة بين صفين من الأعمدة. (المترجم)

بسيليكا في مطلع العهد المسيحي[12]. وكان المبنى الغربي في الأصل معبداً من طراز شرقي يتجه من الشمال إلى الجنوب[13]. ويتقدم الواجهة رواق معمّد يقوم على أربعة أعمدة ودعامتان مع أعمدة متشابكة في الزوايا. وكانت قبة مقوسة تعلو الفسحة المفرجة بين الأعمدة[14]. ومن المحتمل أن هذه القنطرة كانت، وعلى غرار البوابة الرئيسية (Propylon) الغربية لمعبد جوبيتر في دمشق، ترتبط بواجهة الجملون البارزة[15] المعروفة «بالجملون السوري». وكان للدعائم جدران صغيرة تبرز قليلاً منها. ووجدت قناطر عالية بين هذه وزوايا المدخل الأمامي وفقاً لما يمكن رؤيته من خلال الرسم التذكاري للمعبد الذي وضعه ج. راي[16]. كما توجد أفاريز لحوامل التماثيل تبرز من محاور الأعمدة[17].

أما الجبهة الغربية (الواجهة) للبسيليكا فهي مبنية بكاملها من مواد أعيد استعمالها[18]. وأعيد استعمال قاعدة عمود مشذبة كإفريز ليقسم الواجهة إلى طبقتين. وتم وضع ثلاث نوافذ في الطبقة السفلية من هذه الواجهة وارتفاع النافذة الوسطى ضعف ارتفاع الأخريين تقريباً، كما أعيد استخدام أطر الأبواب والسواكف المزينة بالتلافيف، التي جاءت من أبنية أقدم عهداً، كأطر للنوافذ. وتنحدر المواد المعاد استخدامها في النافذة الوسطى نمطياً، من الفترة الأنطونية[19] (النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي)، بينما تعود تلك الموجودة في النوافذ الجانبية إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي[20].

---

12 De Vogue, op. cit., pl. 19.20 (note 5); BD III p. 118 fig. 1014; Syria (1982) p. 281 Plan 1.2; R. Donceel, Le Museon 100 Fasc. 1-4, 1987, p. 84 fig. 2.

13 Butler (1904) p. 357. Fig. 126; BD III 131 p. 1027.

14 BD III 121 fig. 1017; Syria (1982) p. 296 figs. 23-28.

15 Vogué, op. cit., pl. (note 5); K.S. Freyberger, DaM 4, 1989, 63 .72 Pl. 18d with further reference.

16 Rey, op. cit., pl. (note 3).

17 BD III 120 fig. 1016; Syria (1982) 296 figs. 23.24; Freyberger (1993) pl. 28a. Most of the columns in Palmyra have the same feature.

18 Rey, op. cit., pl. 5 (note 3); BD III 122 fig. 1018; Syria (1982) 287 figs. 3.4.

19 Syria (1982) 289 fig. 7.

20 Syria (1982) 289 fig. 8 ; Freyberger (1993) p. 63 pl. 27b.

وعندما تم تحويل المعبد العائد للقرن الثالث الميلادي إلى كنيسة، والمسمى الآن بالبسيليكا الغربية، جرى حفر صليب في وسط تزيينات التلافيف على عتبات النوافذ الثلاث[21]. وفي حين تتألف عتبة النافذتين الجانبيين من عضادات أفقية فإن عتبة النافذة الوسطى تتألف من إطار باب مزين. و يمكن مقارنة هذا الأخير من ناحية نمطية مع تزيينات عمارة معبد بعلشمين في السيع، الذي يعود إلى أواخر القرن الأول ق. م[22]. ويبرر هذا التجانس في الأسلوب إرجاع تاريخ عتبة النافذة هذه إلى الفترة الامبراطورية المبكرة.

وخلال العمل على تحويل المعبد إلى البسيليكا الغربية، بقيت قاعة المدخل على الطرف الشمالي للمبنى الوثني. وفي الفترة البيزنطية لعب المدخل ذاته دور ممر يقود إلى الكنيسة من جهة وكدهليز يؤدي إلى صحن الكنيسة من جهة أخرى. ويبدو أن المقدِس (Adyton) الذي يقع على الجانب الجنوبي للمعبد كان قد تغير خلال عملية التحويل إلى كنيسة. كما أقيمت محاريب مقابلة للأبواب ذات ثلاث قباب نصفية[23] (Conches). وقد عملت كنوع من المصلى في الكنيسة المتوضعة من الشرق إلى الغرب. وبناء المحاريب المقابلة للأبواب يختلف عن تلك التي للبناء من الفترة الامبراطورية المبكرة السابقة. فالوجه الأمامي للحجر لم ينعَّم ولم يصقل، ولكنها مصنعة بصورة خشنة. وبالمقابلة مع أبنية الفترة الرومانية، فإن جدران المحاريب لم تربط بعضها ببعض بصورة محكمة، وخلافاً أيضاً لأبنية الفترة الامبراطورية فإن الباب الجانبي للمقدِس هو من دون أطر. وقد شيدت بحجارة مقطوعة بسيطة مثل المحاريب. ونجد هذه المعايير نفسها بطريقة مشابهة في الأبنية البيزنطية في صقلية. ويسمح لنا هذا التوافق بتحديد تاريخ الجانب الجنوبي للهيكل وإرجاعه إلى زمن التحويل.

أما كيف كان الشكل الأصلي للمقدِس فلا أحد يعرف. ومن المفترض

---

[21] BD III 131 fig. 1026.

[22] The reused doorframe in Qanawat can be compared with fragments of the socalled Nabataean Gate in SY : Butler (1909-18) fig. 340 fragment T.

[23] Syria (1982) 291 fig. 11.

أن تغييرات إضافية قد حدثت في الغرف على جانبي للمقدِس أيضاً.

ويوجد في الغرفة الغربية درج ذو درابزين اعيد ترتيب درجاته مجدداً بشكل جزئي. وتتألف الدعامة التي تم بناء السلم حولها من حجارة أعيد استعمالها، وأعيد قطعها لتناسب البناء الجديد. والجزء الأصلي الوحيد الباقي من البناء السيفيري (Severian) السابق هو جدار الجهة الجنوبية، الذي يقع بين الغرفة الغربية والبسيليكا، ثم يمتد باتجاه الغرب[24].

والجزء الآخر منه هو الممر الموجود تحت الأرض، والذي يبدأ عند الغرفة الشرقية ويتابع غرباً تحت البلاط المرفوع للمقدِس. ومن الواضح أن هناك عملاً إضافياً نفذ في المبنى. ومن المحتمل أن يكون ذلك قد بدأ في الفترة البيزنطية عندما لم يعد النفق الأرضي يصلح للطقس المسيحي.

وفي القرن الثالث الميلادي، شيدت بسيليكا ضخمة في القسم الشرقي. لقد كانت عبارة عن بناء كبير الحجم مكون من ثلاثة أجنحة ذات اتجاه شمالي جنوبي. وكان في وسط جانبها الجنوبي الأصغر محاريب لم يبق منها سوى أجزاء صغيرة. وفي الأزمنة المسيحية المبكرة تم تقسيم هذا البناء إلى قطاعين اثنين عن طريق إقامة جدار يخترقه من الشرق إلى الغرب. وتم تحويل القسم الشمالي إلى باحة معمّدة[25]، بينما تحول القسم الجنوبي إلى كنيسة ثلاثية الأجنحة[26]. وكانت هذه الكنيسة، مثل معظم الأبنية المقدسة المسيحية، ذات اتجاه شرقي-غربي.

وقد تمت تسوية الواجهة الشمالية للجدار الفاصل لتصبح مدخلاً أمامياً رائعاً، يشبه واجهة البسيليكا الغربية، وجرى تشييد الواجهة بكاملها من مواد أعيد استعمالها. وطبقاً للوصلات اللطيفة للمبنى وحجم الأحجار المربعة، فإن كامل أجزاء جدران الهياكل الأقدم عهداً قد التحمت مع الأجزاء الأحدث عهداً.

وتجتذب الواجهة الزوار عبر ثلاثة مداخل جميلة، يساوي الأوسط

---

[24] Syria (1982) 288 fig. 6.

[25] BD III p. 124 figs. 1020. 1021 ; Syria (1982) 299 fig. 29.

[26] Syria (1982) p. 305 figs. 42-47.

منها ضعف حجم المدخلين الجانبيين في الارتفـــاع والعــرض[27]، وتغطــي لفائف لولبية إطار باب المدخل الأوسط. وفي الجزء الأوسط مـــن الســاكف يوجد نقش أعيد العمل في تفاصيله بدقة أكثر في الأزمنة المســيحية. وطبقــاً لأمثلة مأخوذة من العهد المبكر للإمبراطورية ، والتي كانت نمـــاذج للفــائف التي ذكرناها من قبل، من الممكن أنه كان في الأصل تمثالاً نصفيـــاً لرجــل أو لامرأة يقفان في ذات المكان من الساكف. ويتطاول شكل التمثال النصفـــي ليصل إلى أعناق اللفائف.

أما حجارة الإفريز الملتف المعاد استعمالها فقد أعيــد قصـــها ليناســب البناء الجديد للمداخل. إن إعادة التصنيع التي تمت أثنـــاء مبادلـــة الحجــارة واضحة في اللفائف اللولبية. وليست الحال دائماً هـــي أن زخـــارف بعينـــها كورود أو حزم الأوراق، متطابقة مع الأخريات تماماً عند نقاط الاتصال بيــن الحجارة. إن لفائف هذا المدخل والإفريز المتعرج لإطار الباب على المدخـــل الغربي[28] تتطابق في نمطها مع تزيينات المعبد الغربي فـــي أتيـــل (Atil)[29]، التي دشنت عام 151 م وفقاً لنقش الإهداء على وجـــه الطـــرف الجنوبـــي[30]. وبالمقارنة مع تزيينات هذا المدخل، فإن الإفريز الملتف لإطار باب المدخـــل الشرقي هو من نوعية أدنى بكثير من وجهة نظر فن التصميم التشـــكيلي[31]. أما النقش الغليظ للفائف، والسطح الخشن للأوراق وتشذيبها البسيط فهو يشـــبه تزيينات معبد بيريبترال (Peripteral Temple) في قنوات[32]، الذي شـــيد فـــي الثلث الأول من القرن الثالث الميلادي.

ويمكننا، على أساس هذه الملاحظات، عرض النتـــائج الأوليـــة التاليـــة بخصوص مجمع «السرايا»: لقد كان هناك في العهد الامـــبراطوري معبـــد يقوم في تلك المنطقة، وإلى الشرق منه كانت هناك بسيليكا ضخمـــة ثلاثيـــة

---

[27] BD III p. 128 figs. 1024.1025 ; Syria (1982) p. 300 figs. 31-34.

[28] Syria (1982) 302 fig. 36.

[29] Freyberger (1993) p. 73 pl. 27.

[30] Waddington 2372; K.S. Freyberger, Damaszener Mitteilungen 4, 1989, 88 note 6.

[31] Syria (1982) 302 fig. 35.

[32] Freyberger (1993) 68 fig. 3 ; 73 fig. 6 pls. 25a ; 26c. d.

الأجنحة لا نعرف وظيفتها. وطبقاً للعناصر المعمارية المزخرفـــة والمـــواد الكثيرة التي أعيد استعمالها، فقد وجدت أبنية أقدم عهداً يعود تاريخـــها إلـــى القرنين الأول والثاني الميلاديين. وقد شُيدت أبنية كثيرة إبان الفترة الســيفيرية (في وقت مبكر من القرن الثالث الميلادي). ونشطت حركة البناء في أوائـــل الفترة المسيحية. وتم خلال هذه الفترة تحويل الأبنية التي تعود إلـــى العـــهد السيفيري إلى كنائس. كما جرى إعادة استعمال العديد من عنـــاصر عمـــارة أبنية القرنين الأول والثاني الميلاديين في الأبنية الجديدة. لكننا لم نكتشف بعـد أية بقايا لأبنية تعود إلى العصر الهلنستي[33].

معبد زيوس ماجستوس (Zeus Magistos)

إلى الجنوب، وعلى أعلى نقطة من الأكروبول ارتفع مبنى مقدس كـــان يعتبر أكثر معابد المدينة أهمية[34]. إن الهيكل المتجه شمالاً، والمبنـــي علـــى مصطبة من 30 × 15 متراً هو هيكـــل معمـــد تتصـــدر الأعمـــدة واجهتـــه (Prostylos)، وبين الجدران الأمامية ينتصب عمودان مسبوقان بمقدمة هيكـل عميقة، والواجهة مزينة بأربعة أعمدة كورنثية الترتيب. أمـــا جـــدار حجـــرة التماثيل، الذي كان بارتفاع 12 م وطول 25 م عند انصرام القـــرن بحســـب هـــ. س. بتلر (H.C. Betler) فقد تهدم حتى قاعدته خلال القرن الحالي.

وعلى جناحي المدخل، في حجرة التماثيل، هناك غرفتـــان صغيرتـــان، وقد كانت الغرفة الغربية متصلة بالدعامة الركنية بدرج ذي داربزين كـــانت درجاته تصل إلى السقف. إن وضع درج أو اثنين بجانب المدخل إلى حجـــرة التماثيل عبارة عن تقليد قديم، كما يشهد على ذلك درج معبد بعلشـــمين فـــي السيع[35] ومعبد سليم[36]، اللذان يعودان إلى أواخر القرن الأول.

---

33 The type of the decoration of a composite capital lying in the western basilica derives from hellenistic models, but according to the style this capital had been produced in the early imperial period: Freyberger (1993) 79 pl. 28b.

34 Rey, op. cit., p. 130 pl. 7 ; BD III p. 134 figs. 10

35 K.S. Freyberger, *Die fruhkaiserzeitlichen Heiligtumer der Karawanenstationen im hellenisierten Osten* (1998), p. 48 Beil. 14a with further references.

36 Freyberger, op. cit., p. 55 Beil. 15a.b with fuether references (note 35).

وخلال حملةالتنقيب في عام 1998 تم اكتشاف ممـر يتجـه شـرق ــ غرب، وله مدخلان، اكتشف تحت مقدمة الهيكل وقبـل جـدران الدعامـات الركنية. وقد سبق أن تم تنقيب المدخل الشرقي، حيث جـرى سـبر السـور الخارجي للجانب الغربي قرب الدعامة الركنية مما أدى إلى تعريض المدخـل المقابل للممر للنور. أما الباب فقد حفظ بكامله حتى عتبته. وهو يتـألف مـن حجر بازلتي مدموج بخشونة دون تزيينات جانبية. وستسمح أعمـال تنقيـب إضافية بمعرفة إن كان الممر متصلاً بحجرة التماثيل من الجهـة الجنوبيـة. وهناك بعض الإشارات بخصوص السطح الحالي لمنطقة المعبد التي تشـير إلى وجود سرداب (مدفن كنسي Crypt) تحت حجرة التماثيل. وربمـا كـان الممر تحت المدخل مرتبطاً بالسرداب بممرات صغيرة.

أما نقطة تمركز التقدير والتبجيل فهي المقدِس الذي كان بيـت الـرب. ولم يكن يسمح لأحد دخول هذه الغرفة حيث وضعت أصنام الـرب. وكـان مقدِس المعبد في قنوات، المدمر الآن تماماً، يتألف من غرفة واحدة ربما كـان يعلوها قوس. وأمام حائط المقدِس درجتان مغلقتان جرى تعريتـهما، بينمـا وجدت واحدة ثالثة تقف إلى جانب باب الجانب الشرقي لهذه الغرفة. وتعـود هذه الأحجار، في أغلب الظن إلى درج كان يفضي إلى أعلى مسـتوى فـي المقدِس. وكان محاطاً بغرفتين جانبيتين تنفتحان بباب إلـى داخـل حجـرة التماثيل[37]. وفي سنة 1998 جرى الكشف عن الجانب الشرقي للغرفـة حتـى طبقة الأساس ــ المكونة من حجر بازلتي منحوت بطريقة خشنة. إن عتبـة الباب مع المفصلات والمسامير الغليظة التي تشير إلـى المدخـل لا تـزال محفوظة. لكن البلاطات الأرضية القديمة اختفت. ويمكن ملاحظة بقـع مـن الملاط الخشن بسماكة 2 سم على أرضية القاعدة وعلى الجدران، وقـد تـم صنع مستوى جديد من البلاط في الفترة الإسلامية. أما الواجهة ذات النمـط الكورنثي والمصطبة فهما تتبعان النموذج المعتاد في العالم الروماني، خلافـاً للبهو الداخلي مع المقدِس والذي حددته الحاجات الدينية للسكان المحليين.

---

[37] يبين مخطط بتلر (1909-1918)، الشكل 315، بشكل خاطئ مشكايات عوضاً عن الأبواب. إذ ليس من المؤكد إن كان المقدِس متصل بواسطة الأبواب إلى جهة الغرف كما يتوقع بتلر.

لقد أعاد بتلر (Butler) ترميم حجرة التماثيل في صورة ثلاثة صحون كنسية، معتقداً أن المعبد كان مغطى بسقف من جسور حجرية[38]. ويعتمد هذا التخمين على جذعين لعمودين وجدهما في الحجرة. إلا أن الدليل الأثري لا ينسجم مع هذا الرأي: فالعمودان قد أعيد استعمالهما ولا ينتميان إلى الترميم الأصلي. وخلال عمليات استكشافنا وجدنا قطعاً كثيرة من القرميد في السلحة الأولى بجانب الجهة الغربية لمصطبة المعبد، وهذه القطع كانت تغطي السقف المؤلف من جسور خشبية. وهكذا نستطيع تثبيت النتائج التالية: كان البهو الداخلي لحجرة التماثيل يشبه قاعة ضخمة دون أية تقسيمات فرعية بواسطة الأعمدة. وكان للمعبد سقف خشبي مغطى بالقرميد المزخرف على غرار بعض الأبنية الدينية الأخرى في حوران مثلما أمكن رؤيته من قبل في ما يسمى «بمعبد بيريبترال» (Peripteral - Temple) في قنوات[39] وتايشيون (Tychaion) في الصنمين[40]. ويمكن الدخول إلى المعبد عن طريق درجٍ ضخم مرتفع حتى الواجهة الأمامية. وإلى الشمال، توجد شرفة تعتبر جزءا من الحرم المقدس، وإلى الشرق من الشرفة توجد أساسات بناية مربعة يبدو أنها كانت معبداً أيضاً.

وقد حفر نقشان على قاعدتي عمودين اثنين يعدان جزءاً من واجهة معبد زيوس ماجستوس. ونستدل من هذين النقشين على أن شخصيتين محليتين تعرفان ببوبليوس آيليوس جيرمانوس (Publios Ailios Germanos)[41] ويتفرانس أنتيوكوس(Tigranes Antiochos)[42]، وكلاهما عضوان في المجلس البلدي لقنوات، وقد موّلا وأهديا عمودين من أعمدة المعبد لزيوس ماجستوس. ويعد هذا الإله، الذي يشتق اسمه من التراث الهلنستي، أول إله في مجمع الآلهة في قنوات (Pantheon). وطبقاً للزخرفة المعمارية فإن معبد زيوس ماجستوس قد شيد في العهد السيفيريني (Severian)، أي في الثلث

[38] Butler (1909-1918) fig. 315; M. Gawlikowski in: AHS II 332 fig 73.

[39] Freyberger (1993)p.63 figs.1-6.

[40] K.S. Freyberger, Das Tychaion von aa-|anamain. Ein Vorbericht, *Damaszener Mitteilungen* 4, p. 87 with further references.

[41] Waddington, No. 2339.

[42] Waddington, No. 2340.

الأول من القرن الثالث الميلادي[43].

الأوديون * (Odeion)

على المنحدر الشرقي لوادي قنوات يقبع مسرح صغير محفور في الصخر، ويسميه نقش محفورعلى الأساس بأوديون[44]. وما يستوقف النظر موقعه خارج الاسوار وأبعاده الصغيرة. وقد شيدت الصفوف السفلى** بأحجار بازلتية مربعة، وقطرها يبلغ حوالي 25 م. وهي تفتتح بتسعة صفوف من المقاعد متجهة باتجاه الغرب، إلى وادي قنوات. أما الاوركسترا (Orchestra)، التي يبلغ نصف قطرها 6.9 م، فلها أرضية مبلطة جيداً بألواح حجرية. وتحت البلاط الذي يستمر صعوداً إلى أمام منصة المسرح، يوجد قناة تحت الأرض. وكان يوجد قناة أخرى من البازلت تحمل الماء من منطقة هيكل الحوريات (nymphaeum)، الواقع على بعد 70 متراً إلى الجنوب من المسرح. وكانت تستمر في الأصل تحت جدار المسرح إلى الطرف الشمالي للجدار الخلفي. وجرى القيام بسبر هذا الجزء من أجل تقييم ما إذا كانت مسيلات الماء البازلتية معاصرة لتشييد الأوديون، أم إنه أضيف فيما بعد. وتحت إحدى قطع الحجارة البازلتية، تم العثور على أجزاء من الفخار المشوي الحديث، والذي أدى اكتشافه إلى الاستنتاج بأن القناة المؤلفة من عناصر قديمة أعيد استعمالها، قد شيدت في الفترة الإسلامية.

ومن المفترض أنه كان للأوديون في وادي قنوات وظيفة طقسية. وهناك عدة خصائص عائدة للمبنى تعزز هذا الافتراض: من بين هذه الخصائص الموقع خارج الاسوار والأبعاد الصغيرة، ودرجات منصة

---

[43] (1993) 70.

* قاعة الموسيقى والغناء عند اليونان القدماء. (المترجم)

[44] BD III 140 figs. 1035.1036; Butler (1909-1918) 346-351 figs. 314.316; E. Frezouls, Les theatres romains de Syrie, Annales Archeologiques Arabes Syriennes 2, 1952, 61-63; idem in : AHS II p. 393 fig. 107; A. Segal, Theatres in Roman Palestine and Provincia, Arabia (1995) p. 43.

** يقسم مدرج المسرح الروماني إلى ثلاثة أقسام : الصفوف السفلىCavea أو الامامية وهي للطبقة الحاكمة، الوسطى وهي لعلية القوم والعليا وهي للعامة. (المترجم)

المسرح ، وغياب الغرف المخصصة للمثلين وقنوات الاتصال مع هيكل الحوريات إلى الجنوب.

وتمتد مصطبتان خلف جدار منصة المسرح باتجاه وادي قنوات. ومن المعقولأن غابة صغيرة مع بحرات أو أحواض كانت تقوم فيما مضى في هذه المنطقة. وبينما المصاطب القائمة هي جديدة، إلا أنه يبدو أن هذه المنطقة نفسها قد تمت تسويتها في الأزمنة القديمة. أما المنحدر الشرقي فلا يواصل، كالمعتاد، خط سيره بشكل منحرف وصولاً إلى الوادي. وبدلاً من ذلك، فإنه ينتهي بين الصفوف الأمامية ومنصة المسرح. فعندما تم البدء بتشييد الأبنية، كانت منطقة المنحدر الشرقي قد قطعت وسويت حتى الوادي.

ونجد مقارنات لبنائنا هذا في عدة أمكنة في الشرق الأوسط، مثل المسارح الصغيرة في شومي (Shumi)[45]، وحماه-قادر (Hammat-Gader)[46]، وبركتين (Birketein) في جرش[47]، وللمثال الأخير المذكور حوضان كبيران خلف موقع المسرح. وكانت عملية التطهير الطقسية تجري في هذه الأحواض. وإلى الشمال أبعد من المسرح نفسه يقع مبنى نقش عليه اسم «ضريح جرمانوس»[48]. أما طريق الموكب، الذي يؤدي من البوابة الشمالية إلى بركتين، فينتهي قبل هذا المبنى مباشرة. ويذكر نقش آخر عثر عليه في منطقة بِركِتين معبداً لزيوس إيبيكاربيوس (Zeus Epicarpius) جرت إعادة تشييده وإهدائه من قبل قائد روماني في القسم الأخير من القرن الثاني الميلادي[49]. وعلى غرار جرش، هناك أيضاً في وادي قنوات درب صغير موازٍ لمجرى النهر يتجه نحو الجنوب وينتهي أمام هيكل الحوريات.

وهناك نقش تأسيسي واسع بأحرف ترتفع إلى 18 سم والذي يعلو الحافة

---

45 Segal, op. cit., p. 69 figs. 72-77 with further references (not 44).

46 Segal, op. cit., p. 45 figs. 20-22 with further references (not 44).

47 C.C.McCown in: C.H. Kraeling (ed.), Gerasa (1983) p. 159 Plan 25 pls. 33b-35a; Segal, op. cit., 71figs. 79-83 with further references (note 44).

48 McCoen, op. cit., p. 159-167 (note 47); Welles in: Kraeling, op. cit., p. 451 No. 219 (note 47).

49 Welles in: Kraeling, op. cit., p. 393 No. 42 (note 47).

ب 1.50 م على جدار الواجهة لمنطقة الأوركسترا في الأوديون[50]. ويقول النقش إن شخصاً يدعى ماركوس أولبيوس ليسياس (Marcos Ulpios Lysias)، ابن إيكوروس (Ikauros)، الذي يحتل موقع البروثيروس (Proethross)، قام بتمويل الصفوف الأمامية في الأوديون. ويذكر مبلغ الـ 10.000 دينار، الذي دفع للبناء، مرتين في النقش. وعلى ضوء الأسماء الثلاثة وعلاقة القربى «ابن إيكاوروس» نستنتج أن الآمر كان شخصاً من أهل البلاد يحمل الجنسية الرومانية. ووفقاً للاسم النبيل «أوليبوس»، فإن جد المؤسس كان قد حصل على الجنسية الرومانية إبان حكم الامبراطور تراجان (Trajan). لكننا لا نستطيع تحديد تاريخ الأوديون، لأن نص النقش لا يشير إلى زمن تأسيسه.

وكمؤشر للتسلسل اتاريخي يمكننا الاستناد إلى شكل الحروف. فهناك نقش على قاعدة تمثال من قنوات تتطابق أشكال حروفه مع تلك التي في الأوديون[51]. ويذكر هذا النقش اسم السفير الامبراطوري جوليوس ستورنينوس (Juliu Saturninus). وطبقاً لذلك، فإن النقش نفسه يمكن إرجاعه إلى عهد الامبراطور ألكسندر سيفيروس (Alexander Severus) (222 ــ 235 م). وعلى أساس من هذا التأكيد فإن النقش والأوديون ينتميان معاً إلى العهد السيفيري (Severin).

أما ألواح التشكيل المخروطي فوق النقش فإنها لا تنتمي إلى جدار الأوركسترا. وأعيد استخدام قطع الحجارة هذه، التي كانت في الأصل مقاعد الصفوف الأمامية، في الأزمنة الحديثة.

وفي عام 1998، تم القيام بعمليات مسح وسبر أثري في قنوات بهدف الحصول على رؤية داخلية لحركة بناء محتملة على الساحة الواقعة بين الجدار الخلفي لمسطبة الأوديون والمنحدر الشرقي للوادي. فكشف سبر مباشر في الطرف الشمالي للجدار الخلفي هذا عن حوض بازلتي (2.30 م ×

---

[50] Waddington, No. 2341.

[51] IGR III 1230.

2 م). وتتألف جدران الحوض من حجارة بازلتية مستعملة. وكانت أرضية الحوض مغطاة بقطع قرميد مزخرفة مغموسة في ملاط رمادي غامق سميك. وجرى إحضار قطع القرميد المزخرفة هذه، التي يفترض أنها من أصل قديم، من حمامات رومانية تقع على بعد مئة متر تقريباًإلى الغرب. ونجد في الجدار الغربي مجرى من الحوض إلى حوض ثان.

أما الحوض الثاني ، والبالغ طوله 2 م وعمقه 70 سم وارتفاعه 60 سم، فهو من حجم أصغر ويقع بشكلٍ واضح إلى الأسفل من الحوض الأول. وهو مبني من حجارة مستعملة أيضاً. وتتشكل الأرضية من قطع بازلتية مرصوصة رصاً خشناً، وتتصل ببعضها ببلاط حواري أبيض. وتماثل هذه الطبقة الأساسات الرومانية لأوبيوس كامنيسيوم (Opus Caementicium) التي يمكن أن تكون قد أتت من جدار مهدم يعود لعهد أقدم. ويدفعنا المظهر العام لهذا المجمع بكامله إلى الاعتقاد بأنه قد استخدم كبئرمع فتحة لسقاية قطعان الماشية. وبما أن حافة الحوض الأسفل هي تحت مستوى الأوركسترا بحدود 2 م ، فيجب أن يكون تاريخ البناء سابقاً للتغيرات والإضافات التي أصابت الجدار الخلفي للمنصة. إن المواد التي أعيد استعمالها، وبعد الفحص الأولي للفخار في سياقه التطبقي، يدعمان تاريخاً للبناء يعود إلى الفترة الإسلامية.

سور المدينة

عندما بني سور المدينة، كان معبد زيوس ماجستوس قد دمج في النظام الدفاعي[52]. وهكذا فقد هذا المبنى وظيفته الدينية عندما تحول إلى حصن. وفقدان الدليل الأثري يجعل تحديد تاريخ السور الدفاعي شيئاً صعباً. ومما لا شك فيه أن السور قد بني بعد معبد زيوس ماجستوس لأنه بني مقابل مصطبة المبنى الديني الذي يعود إلى وقت مبكر من القرن الثالث الميلادي. يعطينا هذا التاريخ نهاية محددة لتاريخ تشييد سور المدينة.

[52] Rey, op. cit., 137 (note 3) : R. Donceel, AASS33.2, 1983, 131 fig. 2.

لكن ليس هناك من إشارات تحدد بداية هذا التاريخ. وليس من المحتمل أن يكون سور المدينة الدفاعي قد بني في وقت متأخر من القرن الثالث الميلادي. وخلال هذه الفترة التي امتازت باضطهاد المسيحيين، انتعشت الطقوس الوثنية. وليس هناك من معنى عندما يتم تحويل المعبد الرئيسي لقنوات إلى حصن حتى ذلك الوقت. لهذا السبب، فمن المحتمل أكثر أن السور كان قد صمم وشيد عندما سيطرت المسيحية في هذه المنطقة وانحسرت الطقوس الوثنية. وطبقاً لذلك، يصبح تشييد سور المدينة في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي أكثر احتمالاً. ويؤيد هذا الافتراض بقايا الفخار والزجاج التي وجدت في أساسات سور المدينة والتي تعود إلى أوائل القرن الرابع الميلادي. ويمكن تأكيد التاريخ بمقارنة سور مدينة قنوات ببرج المراقبة في سقا (Saqqa)، وهي قرية تقع في الجزء الشمالي الشرقي من حوران[53]. ولا يمكن تفسير التشابه العام في الطراز بين عملية بناء البرج وتلك التي للسور، إلا من خلال تعاصرهما الوثيق ببعضهما بعضاً. وتوحي الأحجار المشذبة جيداً والبناء الصلب أن كلا المبنيين قد شيدا في الفترة التي لم يوجد فيها خطر مباشر.

وعلى غرار معبد زيوس ماجستوس في قنوات، فإن المعبد في أسرية، سيريانا الرومانية (Roman Seriana)، تحول إلى حصن عندما جرى بناء سور دفاعي حول المدينة في الفترة المسيحية المبكرة[54].

وتشهد الأبراج الكثيرة والترابط الجيد للبناء المكون من حجارة مربعة، تشهد على صفه شبه تحصينية لسور المدينة. ويبرهن على هذه الوظيفة البرج البارز المطل على الضفة الغربية للوادي. وقد تمت المحافظة على درجات الدرج المؤدي إلى التصوينة والفتحات الدفاعية العليا. إن تقصياً أكثر لا بد من أن يقدم جواباً عن سؤال بخصوص ما إذا كان هناك من سور دفاعي أبكر إبان العصر الروماني.

---

[53] De Vogue, op. cit., pl. 18 (note 5) ; Buyler (1904) p. 396; Butler (1909—1918) 360.

[54] R. Gografe in: *Zehn Jahre Ausgrabungen und Forschungen in Syrien 1989-1998* (1999) 47.50 fig. 27; id., DaM7, 1993, p. 45.

الشكل 1: البسيليكا الغربية، الجبهة الغربية (تصوير المؤلف)



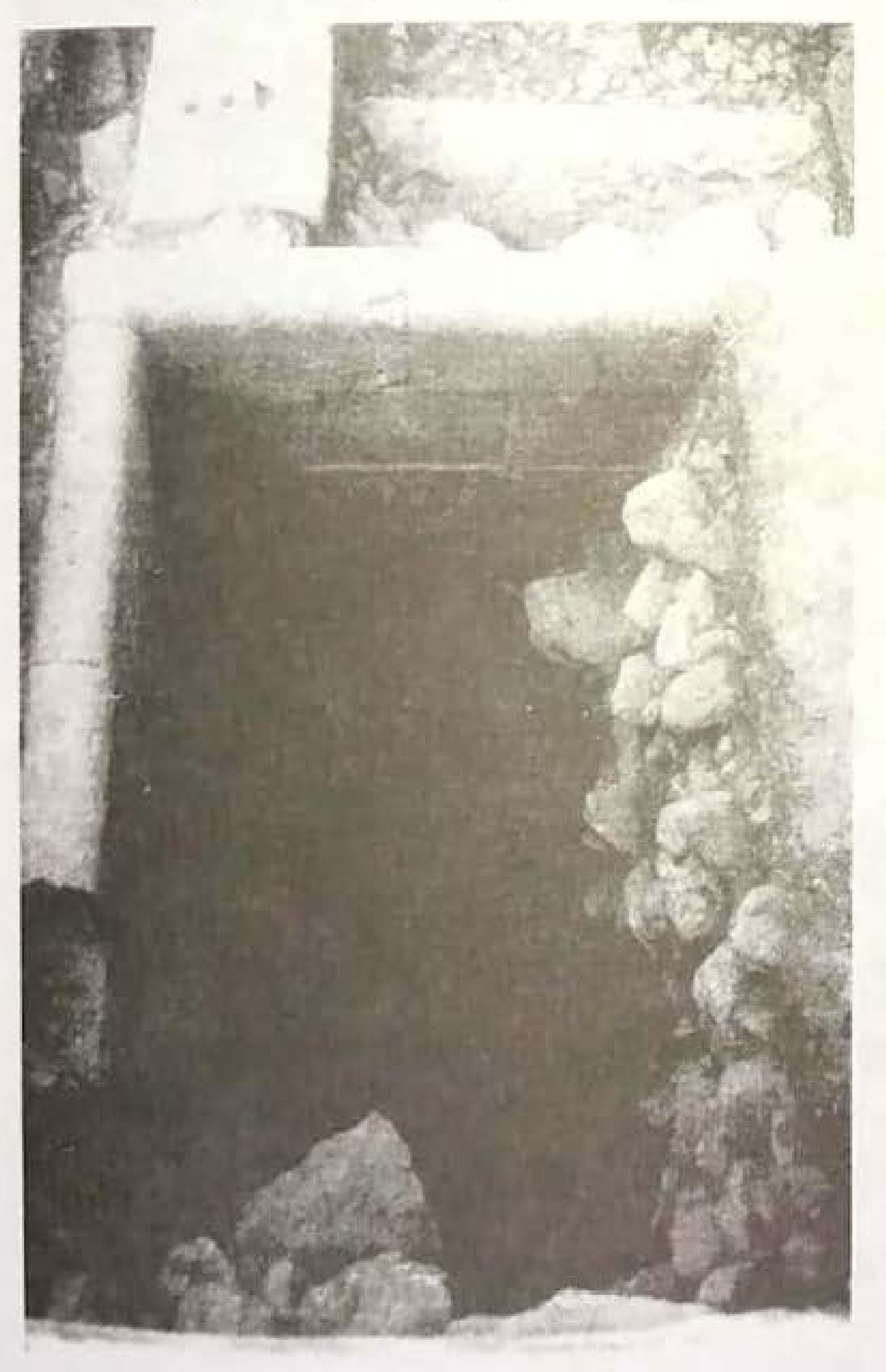
الشكل 2: البسيليكا الغربية ، المقدس الذي تحول إلى محاريب ثلاثة للكنيسة. (تصوير محمد الرومي، المعهد الألماني للآثار في دمشق، 1998)

الشكل 3: معبد زيوس ماجيستوس، صورة مأخوذة من الشمال الشرقي، برج الجبهة مع غرفة التماثيل (تصوير المؤلف)



الشكل 4: معبد زيوس ماجيستوس، الغرفة الجانبية الشرقية للمقدِس. لقد أعيد بناء الأعمدة إلى جانب الباب. إن القطعة الحجرية اليمنى قبل القاعدة هي عبارة عن درجة تابعة لدرج المقدِس. (تصوير المؤلف)

الشكل 5 : وادي قنوات ، الأوديون والصفوف الأمامية للمسرح والاوركسترا. (تصوير ب. غرانفالد P. Grunwald من المعهد الألماني للآثار في دمشق، 1998)

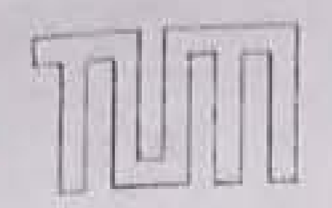


الشكل 6 : وادي قنوات : تنقيب حوض الماء خلف الجدار الخلفي للمنصة (تصوير المؤلف)

الشكل 7 : سور المدينة عند اتصاله بالجدار الشرقي لمعبد زيوس ماجيستوس (تصوير محمد الرومي، المعهد الألماني للآثار في دمشق، 1998)



الشكل 8 : سور المدينة ، البرج المنقب عند الزاوية الجنوبية.
(تصوير المؤلف)



Geodätisches Institut
Technische Universität München
Univ.-Prof. Dr.-Ing. K. Schnädelbach

Qanawat - Übersicht
(Stand: Mai 1998)
M = 1:3000

الشكل 9 : مخطط أولي لقنوات تم وضعه من قبل طبوغرافيي معهد الجيوديزيا في جامعة ميونخ التقنية، أيار 1998.
المقياس : 1/ 3000.

من المدينة البيزنطية
إلى مدينة الإسلام

الهلنسة على المحك

النمو العمراني في سورية
في العصرين الهلنستي والروماني
نماذج «غربية وشرقية»[1]

جان ماري دانزر Jean – Marie Dentzer

المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأوسط

جامعة باريس الأولى

فتحت التطورات الحديثة في البحث الميداني في تدمر والبتراء وجرش آفاقاً جديدة حول تطور المدن في الشرق الأوسط على مدى مرحلة طويلة تمتد من العصر الهلنستي وحتى الأموي. لم يعد بالإمكان الاكتفاء مطلقاً بتفسير هذه المدن انطلاقاً من تركيبات عمرانية خاصة بالبحر المتوسط اليوناني ــ الروماني نُقلت إلى سورية. إن تحليل أكثر دقة للمعالم الأثرية لنمو هذه المدن يقود في الوقت الحاضر إلى التشديد بالأحرى على استمرارية الممارسات التقليدية «المحلية» (على مستوى ما يزال بحاجة للتعريف) قبل قياس تأثير النماذج المتوسطية في الشرق الأوسط.

لقد قمنا باستبعاد أربعة إنشاءات عمرانية هلنستية أساسية (سلوقية،

[1] نظراً لاستحالة إعطاء شكل أكثر تفصيلاً الآن لهذا العرض، سأكتفي هنا بتقديم هذا الملخص لتكملة صورة المواضيع المطروحة في هذه الندوة الدولية. إن هذا التأمل، الذي نشر في أولى حالاته في مقالة: J.-M. Dentzer et F. Villeneuve, «Les villages de la Syrie romaine dans une tradition d'urbanisme oriental», De l'Indus aux Balkans, Recueil Jean Deshayes, paris, 1985, p. 213-248 سيتم تطويره لاحقاً. إن برنامج البحث الذي أقدمه هنا قد تم تطويره وتحسينه من خلال التعاون الوثيق والودي مع المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية.

أنطاكية، لاوديسيا، أفاميا) وتجمعات عمرانية مثل دورا ـ أوروبوس، فمن الصعب أن نعرف ، في مدن العصر الكلاسيكي في سورية، تنظيماً هندسياً صارماً تماماً وموحداً[2]، فالمخطط في معظم الأحيان ليس متعامداً بالضرورة على كامل مساحتها وإنما كان يضم بالتأكيد زوايا غير منتظمة، ومن الصعب أن نحدد، نموذجاً موحداً. ففي عدد من الحالات يمكن تمييز عناصر للتنظيم العمودي ولكن في قطاعات محدودة من المدينة. بتجمع عمراني واحد يمكن أن يحتفظ بآثار الاتجاه وبنماذج مختلفة من حي إلى آخر.

إن هذه المعالم غير المنتظمة قد فسرت غالباً بالزوال التدريجي لمخطط منظم في الأصل، خلال مدة طويلة من تاريخ المدينة العمراني، ولقد نسب بشكل خاص إلى الفترة الإسلامية من تاريخ دمشق أو حلب تعطيل النموذج اليوناني ـ الروماني في الأساس، لكي يحل محله نموذج آخر عرض على أنه نموذج المدينة «التقليدية» في الشرق الأوسط الذي يعبر عن مفهوم مختلف للمجتمع وأيضاً للسلطة التي تدير النمو العمراني.

لقد قام إ. فيرت[3] E. Wirth في عام 1975 وبناء على تحليل لـ ج. شميدت[4] J. Schmidt، بخطوة حاسمة في تفسير المدينة السورية، مقارباً مورفولوجية المدينة التي تدعى « تقليدية » في الشرق الأوسط ماقبل الصناعي مع مورفولوجية عدد من التجمعات العمرانية التي تعود لعصر البرونز. وتتقاسم فيما بينها بشكل خاص التوضع المتراص في المناطق المخصصة بلا شك للسكن. وغالباً لا يمكن الوصول إلى المنازل إلا بواسطة الدروب المسدودة. إن هذه المقارنة تفترض نظرية جديدة حول ولادة هذه المدن في الشرق القديم المتطور انطلاقاً من عدد كبير من النوى السكنية المنفصلة في الأصل عن بعضها بعضاً والمخصصة بلا شك لمجموعات

---

[2] انظر حول المدينة الهلنستية مقالة بيير لوريش في هذا الكتاب الصفحة 137.

[3] E. Wirth, «Die orientalische Stadt. Ein Überblick auf Grund jüngerer Forschungen zur materialen Kultur», *Saeculum*, 26, 1975, p. 45-94.

[4] J. Schmidt, *Die agglutinierende Bauweise im Zweistromland und Syrien*, diss. Berlin 1963; «Strassen im altorientalischen Wohngebieten: eine Geschichte des Stadtebaues in Mesopotamien und Syrien», *Baghdader Mitteilungen*, 3, 1964, p. 125-147.

اجتماعية متمايزة[5]. إن توسع هذه المدن يتم على حساب فضـــاءات خاليــة، جاهزة عند البداية، ولكنها تقلصت تدريجياً لتتحول إلى بقايا فضاءات، وهـــي بالضبط الدرب مسدودة النهاية. إن التنوعات في العـــرض، وخـط السـير والتوجه يميز هذه الدروب عن الطرق الفعلية. تنتهي النوى السكنية الأولـــى إلى التلاصق وهكذا فهي تخلق كتلاً سكنية متراصة، أما التنقـــل الحضـري المستمر فهو غير مؤمن إلا ببعض الأزقة الضرورية. إن النماذج الجديـــدة، في الميدان لهذا النمط من التطور تبقى قليلة: فعمليات التنقيب الواسعة التـــي يمكن أن تسمح بتتبع تطور البناء في فضاء متسع بما فيه الكفاية. مع تسلسـل زمني للحالات المتتابعة، لم تتضاعف قط.

يتناقض هذا النموذج للتطور مع التأسيس العمراني المنظم، المؤسس في تاريخ دقيق والمشيد دفعة واحدة، نظام تم تخيله علـــى أنــه نـــهائي. يفترض التنظيم الشمولي المنفرد تشييد مدينة جديدة، إنها معادلة معروفـــة جيداً لا سيما في العالم الإغريقي والروماني، ولكنها ملحوظة أيضاً بشـكل متفرق في الشرق الأوسط قبل وبعد الفترة اليونانية الرومانية[6]. ومن جهـة أخرى، يجب التمييز بين المدن «غير المنتظمة» في الشرق الأوسط ومدن المتوسط التي تطورت تبعاً لقوانين أو لمصادفات التوسع الطبيعـــي. فـــي الواقع، إن النموذجين المقارنين لا يتقابلان فقط، وبكل بساطة، كتنـــاقض بين التطور المنظم والعفوي، ففي العالم اليوناني ــ الرومـــاني نجـد أن الفضاء الخاص في المساكن منظم، حتى في مدينة متطورة بحسب التوسع الطبيعي، بواسطة شبكة من الطرق التي تمثل الفضاء العام البارز الـــذي يفضي إليه كل منزل. ومن جهة ثانيـــة، نجـد أن النمـــوذج «الشـرقي» الموصوف في السطور السابقة ليس نموذجاً بلا نظام: فهو أيضاً شكل من أشكال التنظيم: تنظيم للمساكن أولاً وهو بالتالي متوافق في التحليـــل مـــع

---

[5] J.-M. Dentzer, AAAS, XLII, 1996, p. 305 (= *Palmyra and the Silk Road*); cf. Pour Pétra C. Auge et J.-M. Dentzer, *Petra. La cité des caravanes*, Paris, 1999 p. 74 et suiv.

[6] انظر مقالة ج. كلود. مارغرون في هذا الكتاب بالذات، ص. 73. وتبين دانييل ستوردر كيـف أن التخطيط ضروري في إنشاء كل تجمع سكاني، وتقدم لنا عرضاً توضيحياً لموقـــع جـرف الأحمر منذ عام 9000 قبل الميلاد.

شكل خاص من التنظيم الاجتماعي حيث الخاص، وبشكل أدق المجموعات العائلية أو العشائرية، يتفوق على السلطة العامة ويسيطر على المشهد العمراني.

يعتبر إ. فيرت أن هناك صعوبة فائقة في الانتقال المحلي من نموذج عمراني يمكن أن نطلق عليه بشكل عام، تسمية «شرقي»، بين عصر البرونز وفترة القرون الوسطى، ، فهو يضع بين الفترتين نموذجاً متطفلاً وهو النموذج اليوناني ـ الروماني. وهو مضطر لتصور عودة النموذج الشرقي في القرون الوسطى من خلال الاستعارة من إيران حيث استمر النموذج القديم بالحياة هناك.

إن البحوث الأثرية التي تقوم بها البعثة الأثرية الفرنسية في سورية الجنوبية والتي بدأت أبحاثها في مدينة بصرى وفي عدد من التجمعات السكانية الصغيرة في المنطقة، تفتح آفاقاً مختلفة. ففي الواقع، نلاحظ بوضوح في مورفولوجية عدد من القرى الواقعة سواء في سورية الجنوبية أم الشمالية، نموذجاً قريباً من ذاك الذي تم وصفه في عصر البرونز أو في المدينة الشرقية «التقليدية». يبدو أن هذه التجمعات السكانية قد استمرت عامرة كما هي حتى العصر البيزنطي، لا بل حتى الأموي. إذاً، هناك استمرارية على المدى الطويل: في سورية بالذات، تتجلى بشكل خاص في هذه المواقع التي لم تتعرض مثل المدن إلى التأثير اليوناني ـ الروماني. إن سكان هذه التجمعات السكانية الصغيرة كانوا بلا شك أقل تأثراً بالميزة النموذجية للعمران «الحديث» والضخم ولم يكن لديهم مايكفي من الموارد لتغطية نفقات هذه التحولات المُكلفة.

يسمح لنا هذا المكتسب المعرفي بإلقاء نظرة جديدة على مدن مثل بصرى أو تدمر. كما يجب أن نعيد له آثار التنظيم الجزئي التي ترتسم فيها ليس كمشروع تأسيسي ولكن كمراحل من إعادة الهيكلة ـ لا سيما في العصر الروماني ـ ساعية لأن تعطي بشكل استدلالي مظاهر المدينة المتوسطية لتجمع عمراني بني وتطور خارج إطار هذا النمط. إذ لم يعد ممكناً بلا شك في ذلك الزمن فرض تنظيم هندسي شامل، إذ يجب احترام

الأبنية الموجودة والاكتفاء بتنظيم قطاعات محـــدودة، تكـون بشـكل عــام مجاورة لصرح هام. إن عمليات الكشف التي بدأتــها مديريـــة الآثـــار فـــي بصرى والتي أكملت بعمليات السبر التي قامت بها البعثة الأثريـــة الفرنسـية في سورية الجنوبية تؤكد صحة هذه الفرضية. وهكذا فإن الأعمدة الإيونيـــة* في الشارعين الرئيسيين: الشـمالي الجنوبـي والشـرقي الغربـي لا يعـود تاريخها سوى إلى العهد السيفيري، كما يشير إلى ذلك لا نمط التاج فحسـب ولكن أيضاً النقوش المكتوبة الرسمية علـــى الجـزء الـذي يصـل تقـاطع الشوارع المركزي للنصب المشبه بغار الحوريات مع باب معســكر الفرقـة الثالثة السيرانايكية.

إن تطور نموذج شارع الأعمدة ابتداءً من العصر الميلادي، ولا سـيما في بلاد الشام، ليس محض صدفة، فهو نمـوذج معمـاري كـانت وظيفتـه الاجتماعية والاقتصادية مؤكدة بالنسبة للمعاصرين حتى العصر البـيزنطي. لقد أُقيم من أجل ربط الأقسام الشاذة من تجمع عمراني غير منسجم. ومنحـه نوعاً من الوحدة المعمارية المهيبة. فهذا النمط المعمـاري يمكـن أن يخفـي وراء صفوف المحلات التجارية نسيجاً عمرانياً ذا تنظيـم مختلـف كـالكتل المتراصة من السكن التقليدي. وبشكل عـام، تنفتـح الصـروح الرئيسـية للمدينة على هذه الأروقة، ويمكن أن تتعامد مـع هـذا المحـور الرئيسـي للمرور شوارع فرعية عند اللزوم، يمكنها أن تنتشـر تناسـقاً منتظمـاً إلـى قطاعات أوسع كما هي الحال في المنطقة الواقعة إلى الشمال مـن القطعـة الغربية لشارع الأعمدة في تدمر، التي كانت دون شك غـير مشـغولة مـن قبل. وقد كشفت أعمال التنقيب التي قام بها م. كالوس فـي السـويداء عـن شكل آخر من تطور الصروح الكبيرة في هذه المدينة حيـث يبـدو أن حيـاً بكامله قد نظم، في القرن الثاني من عصرنا الحالي، بحسـب بنـاء هندسـي صارم (على أرض بكر؟)، حول ساحة كبيرة، وتبعاً لمخطط يتطابق محـوره مع محور المسرح والـ Bouleuterion المتراصفين.

* أحد الأساليب اليونانية في العمارة، ويتميز التاج في العمود الإيونـي بأنـه مقـرون بحليتيـن حلزونيتين جانبيتين. (المترجم)

تفتح هذه الملاحظات آفاقاً جديدة على أهمية التقاليد المحلية أو الإقليمية في تنظيم المدينة والمجتمع خلال العصرين الهلنستي والروماني.

باستثناء بعض الإنشاءات القليلة فإن معظم المدن التي ستتطور وتنمو في العصر الهلنستي والروماني ذات أصل قديم (بشكل عام من عصر البرونز). ولذلك يجب النظر من هذا المنظور إلى تأثير النموذج العمراني اليوناني ــ الروماني. في الشرق الأوسط. ففي معظم المدن، كل شيء يجري وكأن تأثيره كان قد لعب دوراً ليس في لحظة تأسيسها وإنما أثناء نموها وغالباً في زمن متأخر، حتى العصر البيزنطي، حيث يبقى هذا النموذج حاضراً ومرغوباً به كما تشير إلى ذلك شهادة ليبانيوس Libanius عن أنطاكية (Antiochikos: Orat. XI, 196- fin)[7]. ويبدو النموذج وكأنه هدف مقصود يتم التوصل إليه مع نهاية التاريخ القديم للموقع. إن الميزة «البدائية» نسبياً للتأثير اليوناني ــ الروماني تتأكد، في عدد من مدن الشرق الأوسط، من خلال التجاوزات على الفضاء العام التي تترافق مع التحولات القائمة عملياً على كامل الموقع الذي تم تنقيبه، كتحول شوارع الأعمدة إلى أسواق في تواريخ مختلفة (منذ القرن السادس في أفاميا[8]، في حين أنها منذ العصر الأموي في بصرى). إن النزوع للعودة إلى أشكال تقليدية واضح بمجرد أن يتضاءل تأثير البنيات الإدارية للمدينة الهلنستية والرومانية. إذن، تبدو المرحلة اليونانية-الرومانية كفترة عابرة، كما تفترض أيضاً التخلي عن العديد من التسميات اليونانية ــ الرومانية التي أطلقت على مدن المنطقة، والعودة إلى أسماء محلية قديمة.

إن كنا لا نفتقر إلى معلومات تتعلق بالوضع الاجتماعي والسياسي والتقني للنمو العمراني في العالم «الكلاسيكي» اليوناني ــ الروماني مع تشريعاته والسلطات المكلفة بتطبيقها، فالوضع ليس كذلك بالنسبة للمدن الهلنستية والرومانية في الشرق الأوسط التي يبدو أنها قد تخلصت قليلاً من

[7] ترجمه مع تعليق أثري لــ ر. مارتان R. Martin في A.-J. Festugière, Antioche paäenne et chrtienne: Libanios, Chrysostome et les moines de Syrie, Paris, 1959, p. 23-61.

[8] انظر مداخلة جان. شارل بالتي في هذا الكتاب، المداخلة التالية لهذه.

هذا الإطار، مع الأخذ بعين الاعتبار للسمات الخاصة بمورفولوجيتها[9]. ومن المفيد، من أجل تفسيرها، الأخذ بفرضيات تعتمد على مظاهر تتشارك بها مع ما أطلق عليه المدينة الشرقية «التقليدية»، التي تطورت ونمت أمام أعيننا تقريباً، حتى مطلع العصر الصناعي. إن القانون الذي يحدد نمو هذه المدن يتميز بشكل واضح ـ حتى درجة التناقض أحياناً ـ عن العمران الكلاسيكي الذي يسود فيه تفوق العام على الخاص. وهكذا، ففي المدينة الشرقية التقليدية، ترتبط شبكة الشوارع بقانون الجوار باستثناء المحاور الرئيسية. ففي القانون المالكي نجد أن مفهوم الفناء جزء من الملكية غير المنفصلة وبالتالي فهو فضاء حر يحيط بملكية مبنية يحوز فيها المالك على حقوق استعمال خاصة، يمكن أن يوضح الحركية والميزة البدائية لبعض الحدود داخل المدينة[10]. لا يتوقف المنقبون في المدن السورية عن التساؤل عن التبدلات في سير الجدران لا سيما ابتداءً من العصر البيزنطي.

تقدم الأتنوغرافيا الأثرية نمطاً آخر من التفسيرات لولادة بعض التجمعات السكانية الشرقية ابتداء من معاينة القرى التي ولدت في البادية السورية من أجل توطين القبائل الرحل والتي تطورت فيما بعد بشكل تدريجي. لقد تم توزيع المنازل المخصصة لعائلات الجيل الأول بطريقة مخلخلة على الواقع، وبشكل عام بلا مخطط هندسي شامل، إذ يفصلها عن بعضها بعضاً فضاءات خالية وواسعة مخصصة لبناء منازل أخرى من أجل أحفاد المستوطن الأول. وهكذا ففي خاتمة المطاف، يصبح فضاء القرية عامراً بالمساكن ما عدا الممرات التي تؤدي إليها، والتي تبقى شواهد على هذه المناطق الخالية وهي غالباً على شكل طرق مسدودة. ويجب أن نضيف هنا إلى أن التوزيع الأول لنويّات السكن يبدو أنه يعكس علاقات القربى بين المالكين.

[9] انظر في هذه الأثناء إلى عمل س. ساليو C. Saliou, *Le traite d'urbanisme de Julien d'Ascalon (VI siecle)*. Travaux et Mémoires du centre d'Histoire et Civilization de Byzance, Collégae de France, Monographies 8.

[10] R. Brunschwig, Rev. Et. Islamiques 1974, p. 131-132.

إن مخططاً من هذا النمط، الذي يبدو أنه قد حافظ علـــى صلاتـــه مـع مضرب للبدو الرحل[11]، يمكن أن يوضح نمو مواقع تل تدمر انطلاقـــاً مـن نوى عديدة يمكن أن ننسبها إلى عائلات أو لقبائل مختلفـــة. يمكــن أن نجـد البراهين الأول على فرضية كهذه في الرابط المؤكد بيــــن قبــائل معروفـة وأماكن عبادة رئيسية موزعة في موقع تدمر. إن ديانة مشتركة تمثل بلا شـك في الشرق الأوسط، كما هو الحال بالنسبة للسلف المشترك، الرابط الأقـــوى والأكثر تمثيلاً ينكن رؤيته بين أعضاء القبيلة. ومن الأمـــور المعـبرة هـو عثورنا على تقدمات إلى هذه الآلهة خارج إطار معابدها في شارع الأعمـــدة العرضي، وهي مقدمة للربة اللات، وللإله أرصو في شارع الأعمدة الكبــير، وهكذا فإن التواصل مع الإله خارج المعبد يمتد إلى الحي[12]. إنها بلا شك تلك النوى القديمة للمدينة التي سعى العمران التقليـــدي اليونـــاني ــ الرومـــاني لدمجها في مخطط عمراني موحد بواسطة أجـــزاء معماريـــة بـــارزة مـــن الشوارع ذات الأعمدة والتوحيد الهندسي الجزئي لبعض الأحياء.

إن الاستمرارية على المدى الزمني الطويل تقدم آفاقاً خصبة لتجديد فهم المدينة السورية في كل مرحلة من تاريخها. ويحتاج البحث القائم حول هـــذا الموضوع يحتاج لأن يتعمق أكثر من خلال استعمال النتائج التي تم التوصـــل إليها، في الميدان أو في الأرشيف، من قبل مختلف الأطراف التي يتوجـــب عليها الحوار، إن كانوا مؤرخين أوعلماء آثار، أو أتنوغرافييـــن وحقوقييـــن، دون إغفال التقنيات الضرورية لتحليل وتوثيق الآثار على جميع المســـتويات، انطلاقاً من عمارة المنازل وصولاً إلى البيئة التي تحيط بها.

---

[11] Th. Baianquis, «Remarques sur les campements de nomades de la région de l'Euphrate» dans De'l'Indus aux Balkans, Recueil Jean Deshayes, Paris, 1985, p. 238-239.

[12] Cf. C. Saliou, «Du portique a la rue a portiques, les rues a colonnades de Palmyre dans le cadre de l'urbanisme romain imperial: originalite et conformisme», AAAS, XLII, 1996, p. 319-330 (= Palmyra and the Silk Road) et J.-B. Yon, Les notables de Palmyre I siecle av. J.-C.-III s. apr .J.-C. Etudes d'histoire sociale, These sous la direction de M. Maurice Sartre, universite de Tours, 1999.

أفاميا:
تحولات واستمراريات الفضاء العمراني، منذ التأسيس الهلنستي وصولاً إلى المدينة الرومانية ـ البيزنطية

جان شارل بالتي Jean–Charles Balty

مدير البعثة الأثرية في أفاميا

جامعة باريس الرابعة ـ السوربون

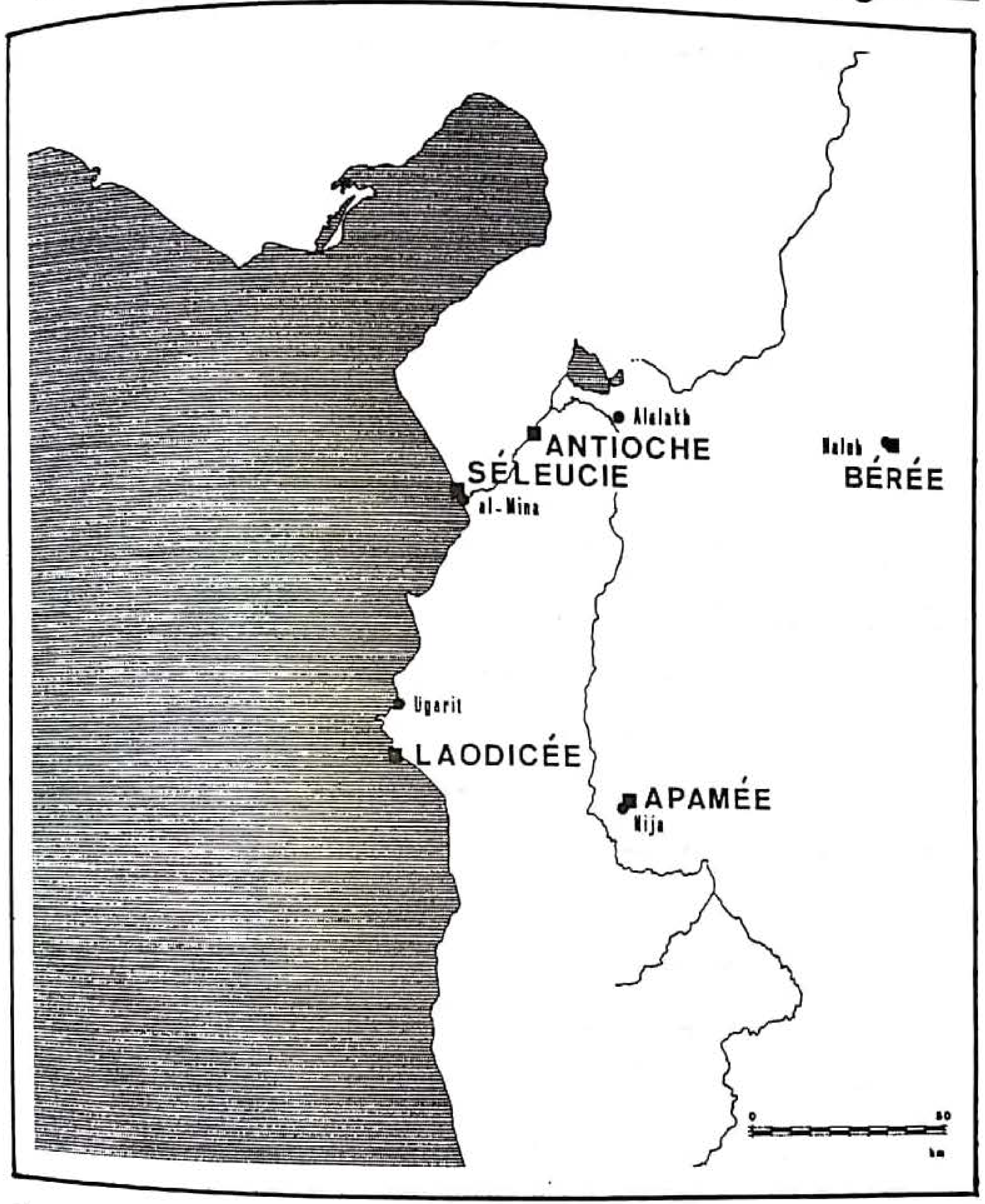
لكي نوضح بشكل خاص التحولات التي عرفتها المدينة اليونانية ـ الرومانية والبيزنطية، وكذلك بعض الظواهر المستمرة بالبقاء والتي تتكشف فيها في النهاية، فإن هذه المقالة تتجاهل عمداً المراحل الأقدم للسكن، تلك التي تسبق عهد التأسيس السلوقي ـ فالتنقيبات في التل والمحدودة جداً، لم تصل حتى الآن سوى إلى المقبرة العائدة لعصر البرونز القديم وإلى بعض ما تبقى من قواعد مخازن الحبوب في عصر البرونز الوسيط، والتي تقع كلها على ما يبدو على أطراف التجمع العمراني في ذلك العصر[1]. وسنذكر في هذه الأثناء أن الاستعمار اليوناني لسورية الشمالية لم يشمل أراضي صحراوية وأن مدن التيترابوليس* (سلوقية بيريه، أنطاكية، أفاميا، واللاذقية ـ لاوديسي) قد حلت، على نهايات الطرق التجارية الهامة العابرة لآسيا التي كان يسيطر عليها سلوقس، مكان مراكز عمرانية قديمة هامة منذ الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد (المينا، آلالاخ، نيا، أوغاريت) والتي قامت عليها

---

[1] فيما يخص هذه الحقبة من تاريخ الموقع، انظر: D. Collon et *al.*, *Sondages au flanc sud du tell de qal'at el-Mudiq = Fouilles d'Apamée de Syrie. Miscellanea,* fasc. 11, Bruxelles, 1975; pour une éventuelle identification avec Niya, cf. J.-Ch. Balty, «Le problème de Niya» in *Apamée de Syrie. Bilan des recherches archéologiques 1969 –1971 = Fouilles d'Apamée de Syrie. Miscellanea*, fasc. 7, Bruxelles, 1972 (ci-après cité Colloque Apamee de Syrie, II), p. 53-64.

* مجموعة من أربع مدن باللغة اليونانية Tetrapolis. (المترجم)

أو بالجوار منها (الشكل 1)، محتفظة بشكل أو بآخر بالوظائف العريقة[2]. وإزاء هذا الوضع، والحق يقال، ومن أجل التاريخ اليوناني، فإن هذه المدن هي مدن جديدة أسست بقرار سياسي. وهنا يكمن أحد المعالم الأولى لخصائص هذه المدن والذي يجب أخذه بعين الاعتبار منذ بداية هذا البحث.



الشكل 1: مدينة أفاميا وسط التيترابوليس: تنقل وتغير المراكز العمرانية في سورية الشمالية في ظل حكم السلوقيين (رسم ج. شارل بالتي)

---

[2] ارجع لمقالتي حول «L'urbanisme de la Tétrapolis syrienne» in *O Ellenismos sten Anatole* (Delphes, 6-9 novembre 1986), Athenes, 1991, p. 203-209 et fig. 3.

التأسيس والمخطط العمراني، المدينة والإقليم

أفاميا على العاصي، هذا هو الاسم القديم، اليوناني والروماني، للمدينـــة ــ التي تشكل منذ تأسيسها جزءاً من التيترابوليس، وهو مجموعة من أربـــع مـــدن، أربع مدن «شقيقة» كما يقول سترابون[3]، معيداً إلى الأذهان قولاً قديماً يرجع بـــلا شك إلى بوزيدونيوس Posidonius، مدن تكفي تسمياتها الملكية لتوضح مشـروعاً مشتركاً[4]، لتنظيم إقليم معين، يمتد حتى مرزبة* الامبراطورية الفارســية، وذلــك ضمن الإطار الإداري والاقتصادي لدولة جديدة. المملكة الســلوقية: عاصمتــها سلوقية، والتي ارتبطت بسرعة بأنطاكية، الأكثر تحصيناً لمواجهـــة الـــهجومات البحرية للبطالة، أما لاوديسة ــ مدينة اللاذقية الحالية، التي لم تتحل عن وظيفتــها الأساسية ــ فهي الميناء التجاري الرئيسي، وكانت أفاميا المدينة التي تقيـــم بـــها الحامية العسكرية حيث تمكث فيلة سلوقس الحربية البالغ عددها 500 بالإضافـــة إلى الجزء الأكبر من الجيش ومركز تربية الخيول (30000 فـــرس و 300 مـــن الخيول الفحولة)[5]. إن هذه الوظيفة العسكرية بالأصل، والتـــي تلاحــظ طـــوال العصر الهلنستي ثم ستعود وتظهر في القرن الثالث[6] من عصرنا وفـــي الفـــترة الصليبية[7]، لا يجب أن تؤدي إلى إغفال[8] مسألة وجود المدينة في مركـــز إقليـــم

---

[3] Strabon, XVI, 2, 4.

[4] إن أنطاكية ولاوديسة (اللاذقية) وسلوقية وأفاميا، كلها مدن تحمل على التسلســل اسـم أبــوي سلوقس، وسلوقس نفسه، وأمرأته أفاميا.

* مرزبة: إقليم يحكمه المرزبان وهو حاكم فارسي. (المترجم)

[5] Strabon, XVI, 2, 10

[6] J. – Ch. Balty, «Apamea in Syria in the second and Third Centuries A. D.» Journ. Rom. Stud. 78, 1988, p. 97-104, pl. XIII-XV; cf. J.- Ch. Balty et W. Van Rengen, *Apamée de Syrie. Quartiers d'hiver de la II Légion parthique. Monuments funéraires de la nécropole militaire,* Bruxelles, 1993.

[7] للأعمال الرئيسية المتعلقة بقلعة أفاميا انظر: cf. R. Grousset, *Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jerusalem, I. L'anarchie musulmane et la monarchie franque*, Paris, 1934, p. 376, 423-426 et *passim*; II. *Monarchie franque et monarchie musulmane. L'équilibre*, 1935, p. 281-282; Cl. Cahen, *La Syrie du Nord a l'epoque des Croisades et la principauté franque d'Antioche*, Paris, 1940, p. 228, 242-243, 290 et 298; pour la citadelle elle-même, cf. M. Van Berchem et E. Fatio, *Voyage en Surie*, I. 2, Le Caire, 1914, p. 189-191 et 194; P. Deschamps, *Les chateaux des Croisés en Terre Sainte, I. Le Crac des Chevaliers. Etude historique et archéologique*, Paris, 1934, p. 59; W. Muller-Wiener, *Castles of the Crusaders*, Londres, 1966, p. 56, pl. 50-51.

واسع زراعي بشكل أساسي، تمتدح كل التعريفات القديمة رخاءه[9] والذي يتعمق نحو الشرق ليصل إلى البادية، لكي يكون على تماس مع البدو الرحل، العرب من سكان الخيم (سكينيتي Skenitai، تعني حرفيا «أولئك الذين يسكنون الخيم»)[10]. لقد اعتبر سترابون العديد من القرى تابعة لأفاميا[11] مثل أبولونيا Apollonia وكاسيانا Cassiana ولاريسا Larissa، ومكارا Megara. ولكن في الوضع الحالي من الصعب، لا بل من المستحيل أن نتعرف عليها عمليا بناء على المعلومات المؤثرة لدينا حالياً، إذ لا يمكن أن نحدد بدقة إقليم المدينة[12]، على الأقل في زمنها. في المقابل، يلاحظ أن عدداً كبيراً من قرى المنطقة مذكور في الكتابات الجنائزية في القرن الرابع والخامس والسادس من عهدنا، كشواهد قبور التجار السوريين الذين غادروا المشرق ليستقروا في مراكز تجارية مختلفة في حوض المتوسط والبحر الأسود، في بيزيدي Pisidie ورودس Rhodes وفارنا Varna وسالون Salon وكونكورديا Concordia وأكيلي Aquilee وروما Rome بل حتى تريف Treves. هؤلاء التجار الذين تمسكوا بذكر مركز مقاطعة سورية الثانية التي تتبع لها إدارياً البلدات التي جاؤوا

---

[8] J. D. Grainger, The Cities of Seleukid Syria, Oxford, 1990, p. 31-66 يُبالغ بكل تأكيد بالدور العسكري لكل هذه المدن المؤسسة لدرجة أنه يقدر، ص 126 – 127 و 130، بأنه ما أن امتدت حدود أفاميا نحو الجنوب، حتى ضعفت أهميتها وتدهور عدد سكانها. ومع شيء بسيط من التباين، ومحاولا أن يلخص ملفا غنيا بالنصوص وبالشهادات الأثرية المتعلقة بمجمل المنطقة، فقد كتب ف. ميلار F. Millar في كتابه «The problem of Hellenistic Syria» *in Hellenism in the East. The interaction of Greek and non-Greek civilizations from Syria to Central Asia after Alexander*, ed. A. Kuhrt et S. Sherwin-White, Londres, 1987,

[9] من أجل التذكير بالشهادات الأساسية انظر: J. et J.-Ch. Balty, «Apamée de Syrie, archéologie et histoire, I. Des origines à la Tetrachie» in Aufstieg und Niedergang der romischen Welt, II. 8, Berlin – New York, 1977, p. 104-108, n. 10-14.

[10] Strabon, XVI, 1, 26-28; Pline, Nat. hist., V, 11 (65), 24 (87)-26 (89); VI, 26 (125), 28 (143 et 145).

[11] سترابون Strabon، XVI، 2، 10. لقد انفصلت عنها لاريسا بسرعة، ربما منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، لقد سكت العملة في العصر الهلنستي وتظهر في قائمة مدن سورية الشمالية التي وضعها بلين Pline. Hist. Nat، V، 23 (83) بناء على وثيقة من عهد أوغسطس. cf. J. et J. et J.-Ch. Balty, «Apamee de Syrie, archeologie et histoire», loc. cit., p. 118, n. 93-94; J. D. Grainger, op. Cit., p. 130 et 160.

[12] Cf. J. et J. et J.-Ch. Balty, loc. cit., p. 117-119; voir Eidem., «L'Apamene antique et les limites de la Syria Secunda» in La geographie administrative et politique d'Alexander a Mahomet, Leyde, s.d. [1981]. P. 41-75 passim.

منها[13]، إنها جزء من «المدن الميتة» في سورية الشمالية، أي إلى الجنوب من خط فاصل يمكن التعرف عليه بسهولة بفضل اعتماد عهدين متمايزين (عهد قيصر في أنطاكية، والعصر السلوقي في أفاميا)[14]، لا سيما موقع البارة والمزارع التابعة لها (مجلية، بتيرسا وبشيلا). باعودا، سرجيلا، شنشاره، دلوزه، ربيعة، حاس، جرادة، فيركيا، دون أن نذكر هنا البادية، تلك الهوامش الجافة التي تكشفت لنا بفضل المسوحات الأثرية الحديثة التي قام بها جاك بيزانسون J. Besancon وبرنار جاير B. Geyer وفريقهما، أو تلك المواقع المتقدمة في الليمس البيزنطي التي ستكون في القرنين الخامس والسادس، قصر ابن وردان أو الأندرين وعدداً من مواقع المنطقة إلى الشمال الشرقي من حماه، التي زارها من قبل جان لاسيس J. Lassus[15] والتي كانت تتبع أفاميا من فترة إلى أخرى. ولكنها ظلت حتى بداية الامبراطورية مجال العرب الرحل المذكورين سابقاً. أما حدود الجبال التدمرية فلم تثبت إلا لاحقاً، وذلك بحدود نهاية حكم أغسطس كما يظهر من نقش كتابي منقول من خربة البلعاس: fines regionis Palmyrenae constitutos a Cretico Silano leg. Aug. pr. Pr. (حاكم مقاطعة سورية بين 12/11 و 17/16 من عهدنا)[16].

على غرار سلوقية كان لأفاميا أسطورة تتعلق بتأسيسها، وقد حافظت عليها الذاكرة الجماعية حتى القرن السادس من عصرنا، مادام مالالاس Malalas يذكرها في ذلك التاريخ، مثلما فعل بالنسبة للمدينتين الأخريين[17]

[13] Pour d'autres manifestations de cette fierte locale, cf. Ci-dessous, p. 170-171.

[14] Cf. H. Seyrig, «Inscriptions grecques» in G. Tchalenko, Villages antiques de la Syrie du Nord. Le massif du Belus à l'epoque romaine, III, paris, 1958, p. 12-14 et fig. 7 p. 57.

[15] J. Lassus, *Inventaire archeologique de la region au nord-est de Hama* = Documents d'etudes orientales, IV, Damas, s.d. [1935].

[16] Cf. D. Schlumberger, «Bornes frontieres de la Palmyrene», Syria, 20, 1939, p. 61-62.

[17] P. Chuvin, «Les fondations syriennes de Seleucus Nicator dans la Chronique de jean Malalas» in Geographie historique du Proche-Orient, Paris, 1988, p. 99-110. بالنسبة لأسطورة أصل سهول أفاميا كما تبدو في Pseudo-Oppien, Cynegetica, II, v. 100-155 لكنها يمكن أن تعود إلى ايفوريون كالسيس، أمين مكتبة أنطيوخوس الثالث، وهو شاعر وراوي أساطير، ومؤلف رواية باتريا *Patria*، التي تتنازع فيها أنطاكية وأفاميا شرف حراسة القبر (*Souda, s. v. Euphronion*). انظر: cf. A la suite d'A. S. Hollis, *Zeitschrift fur*

(أسطورة أنطاكية تتقاطع مع شهادة مذكورة على تاج محفوظ في متحف بيروت[18]، والعديد من إصدارات العملة منذ حكم هادريان[19]). فلم يعد يهمل اليوم، وإنما على العكس من ذلك، القيمة الخاصة بالهوية لهذه الروايات التي «كان من وظائفها الرئيسية إلغاء الصفة الهمجية عن المدن الجديدة، وتأكيد ولادتها النظيفة (eugeneia)[20]» والتي حلت محلها ديانات، وتماثيل، وعملات ـ كما سبق ورأينا ـ ومراسم. «كل هذا يؤسس هلنسة المدينة ودمجها في العالم اليوناني وبناء تاريخها الخاص في الوقت الذي يميزها عن غيرها من المدن[21]». إن تكامل مدن التيترابوليس يبرز في نص مالالاس Malalas. فقد أُسست كلها في فترة وجيزة بفارق عدة أسابيع بين الواحدة والأخرى. وهي تشكل تماماً جزءاً من مشروع مشترك، مشروع Ktistés»، وبالطريقة نفسها التي ولدت فيها معاً، فلكل واحدة منهن مكانها ـ ووظيفة معروفة تماماً ـ في الإقليم. فالمقطع الذي كتبه سترابون عن أفاميا واضح جداً بهذا الخصوص، ولا يدع أي مجال للشك. إن هذه الروابط الوثيقة، وتقاربها الجغرافي (فالمدن الأربعة ليست بعيدة أبداً عن بعضها أكثر من 190 كم كخط نظر) ستؤدي على مر القرون إلى التنافس والغيرة، التي نشهدها في مقاطعات أخرى أيضاً: كيف يمكن أن لا نذكر هنا التنافس الذي قام منذ البداية بين لاوديسيا وإنطاكية ، إن اقتنعنا بما يقول تيودوري Theodoret[22]، والذي بلغ أوجه، غداة اغتصاب

Papyrologie und Epigraphik 102, 1994, p. 153-166. التأويل المقنع لـ ب. برنار P. Bernard, «Une legende de fondation hellenstique: Apamee sur l'Oronte d'apres les *Cynegetiques* du Pseudo-Oppien» Topoi 5, 1995, p. 353-382.

[18] H. Seyrig, «scene historique sur un chapiteau du Musee de Beyrouth» in Melanges Georges Radet = Rev. et. Anc. 42, 1940, p. 340-344, pl. I; commodement repris dans Idem., Scripta varia, *Mélanges d'archeologie et d'histoire*, Paris, 1985, p. 347-352; cf. Gl. Downey, *A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest*, Princeton, 1961, n. 55 p. 67. Reprenant une suggestion de R. Fleischer et Kl. Parlasca, W. Leschhorn, «Mythos und Stadtgrundung im Nahen Osten» in *O Ellenismos s ten Anatole*, op. Cit., p. 445-446. يتساءل في هذه الأثناء إن لم يكن بإمكان الوثيقة توضيح تأسيس مدينة اللاذقية (لاوديسيا) أو أفاميا.

[19] SNG, *Danish National Museum*, 36. Syria: Cities, Copenhague, 1959, n 205 (Hadrien) et 229-230 (Caracalla); cf. W. Leschhorn, loc. cit., p. 445 et pl. I. 5.

[20] M. Sartre, «Memoire et identite civique: les légendes de fondation des cités grecques aux époques hellénistique et impériale» *in La mémoire de la cité. Modeles antiques et réalisations renaissantes*, Naples, 1997, p. 21.

[21] *Ibid.*, p. 22.

[22] Théodoret, *Hist. Eccl.*, V, 19.

بيسيونيوس نيجر Pescennius Niger، عندما اتخذ سـيبتم سـيفير Septime Sévère قراره بترقية المدينة البحرية إلى مصاف عاصمة المقاطعة[23] محطاً بذلك من قدر كومه Kômé العاصمة القديمة التي كان قد اختارها حزب منافسه البائس على الإمبراطورية ــ وضع لم يتعد، كما يبدو، عـام 202؟ أو ذلـك النزاع على حق التصدر بين لاوديسيا (اللاذقية) وأفاميا، نزاع عرض علـى الإمبراطور جوليان وحفظه لنا ليبانيوس[24]؟ حتى أن أفاميـا كـانت منافسـة لإنطاكية إن صدقنا ما يقوله ديون دو بريز Dion de Pruse[25]. كانت على كـل حال تخشى مرور موظفي الضرائب الإمبراطورية القادمين مـن العاصمـة المجاورة والمتعجلين بجعلها تغيد ما استولت عليه، وكانت تعـترض أحيانـاً بعنف[26] ولكنها لم تتحرر من هذه الهيمنة القاسية إلا في مطلع القرن الخامس، عندما أصبحت بدورها عاصمة مقاطعة سورية الثانية Syria Secunda[27] التـي شطرت إلى قسمين. مزاحمة أم منافسة، إننا نعرف أنهما لا يحصلان إلا على مستوى متساو «في مجال مشترك، عمراني بشكل أساسي[28]». وإن ما يحصل في التيترابوليس لا يمكن أن يكون استثناءً للقاعدة.

لقد سكت المدن الأربعة النقود في ظل الحكم السـلوقي، بـدأت أفاميـا لوحدها ابتداءً من عهد أنطيوخوس الأول وكما يبدو وربما بشكل أقل انتظاماً، وبكميات أقل من أنطاكية ولاوديسية[29]، ولكن إن لم تظهر فيها عملة محلية إلا في وقت متأخر[30]، فليس ذلك بالتأكيد لأن المدينة في الشرق الأوسط لم تكـن

[23] *Digeste*, 50, 15, 1, 3; cf. Gl. Downey, op. cit., p. 239-243.

[24] Libanius, Or. XVIII, 187 (ed. R. Forster, II, p. 318-319).

[25] Dion, Or. XXXIV, 48.

[26] Cf. Libanuis, Ep. 1351 et 1392 (ed. R. Forster, XI, p. 400-401 et 433) بخصـوص مرور الاسكندر قنصل سورية الذي «دجن» المدينة هذه المرة.

[27] Cf. Ci-dessous n. 60.

[28] J. Duvignaud, *Sociologie de l'art*, Paris, 1967, p. 72.

[29] E. T. Newell, *The Coinage of the Western Seleucid Mints from Seleucus I to Antiochus III = Numismatic Studies*, 4, New York, 1941, p. 157- 180.

[30] بالنسبة لمختلف مراحل سك العملة هذا، والحصول أو فقدان المزايا النقودية (استقلالية) انظـر دوما H. Seyrig, «Antiquites syriennes, 42. Sur les éres de quelques villes de Syrie», *Syria* 27, 1950, p. 15-20. والذي عاد وكتب بسعة في idem., Antiquités syriennes, IV, Paris, 1953, p. 82-87.

حتى ذلك التاريخ إلا عبارة عن قلعة صغيرة، وموقع عسكري محروم من كل الصفات العمرانية، فتحليل مخططها العمراني يكشف عكس ذلك بالتأكيد.

لقد أعطى العصر الهلنستي للمدينة حدودها (الشكل 2) التي مـا زالـت تجسد اليوم سوراً بطول 8 كم يحيط بمساحة مسكونة تبلـغ 255 هكتـار[31]. إنها على وجه التقريب أبعاد لاوديسية بالذات (220 هكتار)[32]. ومخطط كـلا المدينتين من هذا الجانب واحد نفترض بأنـه مقصـود، ممـا يدعـم فكـرة طرحت من قبل بالنسبة لأنطاكية ولاوديسة، التي يمكن أن يكون مخططـهما قد رسمه المهندس المعماري والعمراني نفسه[33]، واضع المخطط العضـوي لهذه المدن الأربعة المتكاملة، المترابطة اثنتين اثنتين في شـمال سـلوقية[34] وجنوبها، على الساحل وفي داخل البلاد. إن اعتماد مبدأ المقاسم المسـتطيلة التي يلامس طولها المحور الطويل شـمال-جنـوب (الـذي يطلـق عليـه المنظرون الرومان فيما بعد اسم بيرسكامنا P er Scamna) متميز فـي هـذا الشأن مادام أنه نادر نسبياً، وهو لا يدفع إلى أي شك بأن المخطط قد عـرف من جهة أخرى منذ هذه اللحظة أيضاً الـ A chsenkreuz الذي أرادوا لزمـن طويل جعله مخصصاً فقط للتجمعات العمرانية في العصر الروماني[35]. ففـي أفاميا كما في لاوديسيا، أدى إدخال تقاطعات محاور الشـوارع علـى شـكل صليب، من تلقاء نفسه، إلى نوع مـن التخصـص وتسلسـل حقيقـي فـي

---

[31] إن نص هذه المداخلة بالذات قد استفاد من التحقيق الذي تم خلال صيف 1999 بفضل البعثـة الطبوغرافية للمعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأوسط (ج. أرونيكا G. Aronica وع. حسـيني ور. المعوش).

[32] Cf. J. Sauvaget, «Le plan de Laodicée-sur-mer», *Bull. Et. Orient*. 4, 1934, p. 111 = *Memorial Jean Sauvaget*, I, Damas, 1954, p. 142.

[33] Gl. Downey, op. Cit., p. 70-71; cf. J. et J.\Ch. Balty, «Le cadre topographique et historique», in *Apamée de Syrie. Bilan des recherches archéologieques* 1965-1968 = Fouilles d'Apamée de Syrie. Miscellanea, fasc. 6, Bruxelles, 1969 (ci-apres cite Colloque Apamée I), p. 34; eidem., «Apamée de Syrie, archéologie et histoire», loc. cit., p. 112-113.

[34] إنه الاسم الذي يعطيه سترابون Strabon، 4، 2، XVI، لكل هذه المنطقة.

[35] A. von Gerkan, *Griechische Stadteanlagen. Untersuchungen zur Entwicklung des Stadtebaues im Altertum*, 1942, p. 82-85 et 134-135; voire E. Frezouls, «Observations sur l'urbanisme dans l'Orient syrien», in *IX Congrès international d'archéologie classsique*, Damas, 1969 = *Annales archéologiques arabes syriennes* 21, 1971, p. 233-234.

الفضاءات العمرانية: ففي وسط المدينة يوجد معبد زيوس بيلـــوس المحـــاط بصحن المعبد Temenos واسع يســـيطر علـــى الآغـــورا، الـــرب، «ســـيد المصائر»، يطل على المدينة وسكانها[36]. يأتي الناس لاستشارة كاهنه (الـــذي احتفظ بذكراه في نقش في Vaison على بعد ثلاثة آلاف كـــم مـــن هنـــا[37]) وسيبقى الوضع على هذا النحو حتى صدور أوامـــر تيـــودوز Theodose. يستمر ليبانيوس في عام 363 بالحديث عن أفاميا على اعتبار أنـــها «مدينـــة زيوس[38]»، تلك «التي تستمر بعبادة زيوس في حين أن عبادة الآلهـــة كـــانت عبارة عـــن مخالفـــة تســـتحق العقـــاب[39]». (أي أثنـــاء حكـــم كونســـتانس Constance[40]). ثم ألا ندين إلى المطران مارســـيل، بـــالتحولات العمرانيـــة التي عرفتها المدينة بسبب إصراره على محاربـــة المعبـــد، وببنـــاء المعبـــد الهائل الذي ينتصب في أعلى نقطة في الموقع، ولم يبق لدينـــا منـــه اليـــوم سوى قاعدة المصطبة التي اختفت منها كافة الأعمدة، والتي اقتلع منـــها مـــا وضع فوقها. إن أبعاد الكتلة الإسمنتية وإزالة التسوية بيـــن هـــذه المصطبـــة والآغورا يسمح بإعادة تكوين بناء بحجم معبد بعلبك الكبير[41]. حسبنا كلامـــاً عن وجود الإله في كل مكان في المدينة، والحماية التـــي يمنحـــها لســـكانها والتبجيل الذي يحاط به. فلم يأت أي شيء ليحل محل الصرح الوثني، علـــى العكس مما حصل أحياناً في أماكن أخرى. لقد هجرت هذه المنطقة بكاملـــها تدريجياً: كانت مغطاة بمكيات الأنقاض، وفي غداة زلزالـــي عـــامي 526 و 528، عندما أعيد نصب الأعمدة التي تكون شارع الأعمدة الكبـــير، وتركـــز كل الاهتمام على هذا المحور الحيوي، ظلت دورة مياه هائلة تقطع الطريـــق في هذا المكان أمام الوصول إلى الآغورا والهيكل على خط محور المعبـــد. لا شك أن الموقع المهيمن لهذا الأخير، المخصص للآلهـــة Poliade، لـــم يحافظ عليه في النسيج العمراني منذ تأسيس المدينة.

---

36 J. Balty, «L'oracle d'Apamée», *L'Antiquité classique* 50, 1981, p. 5-14.

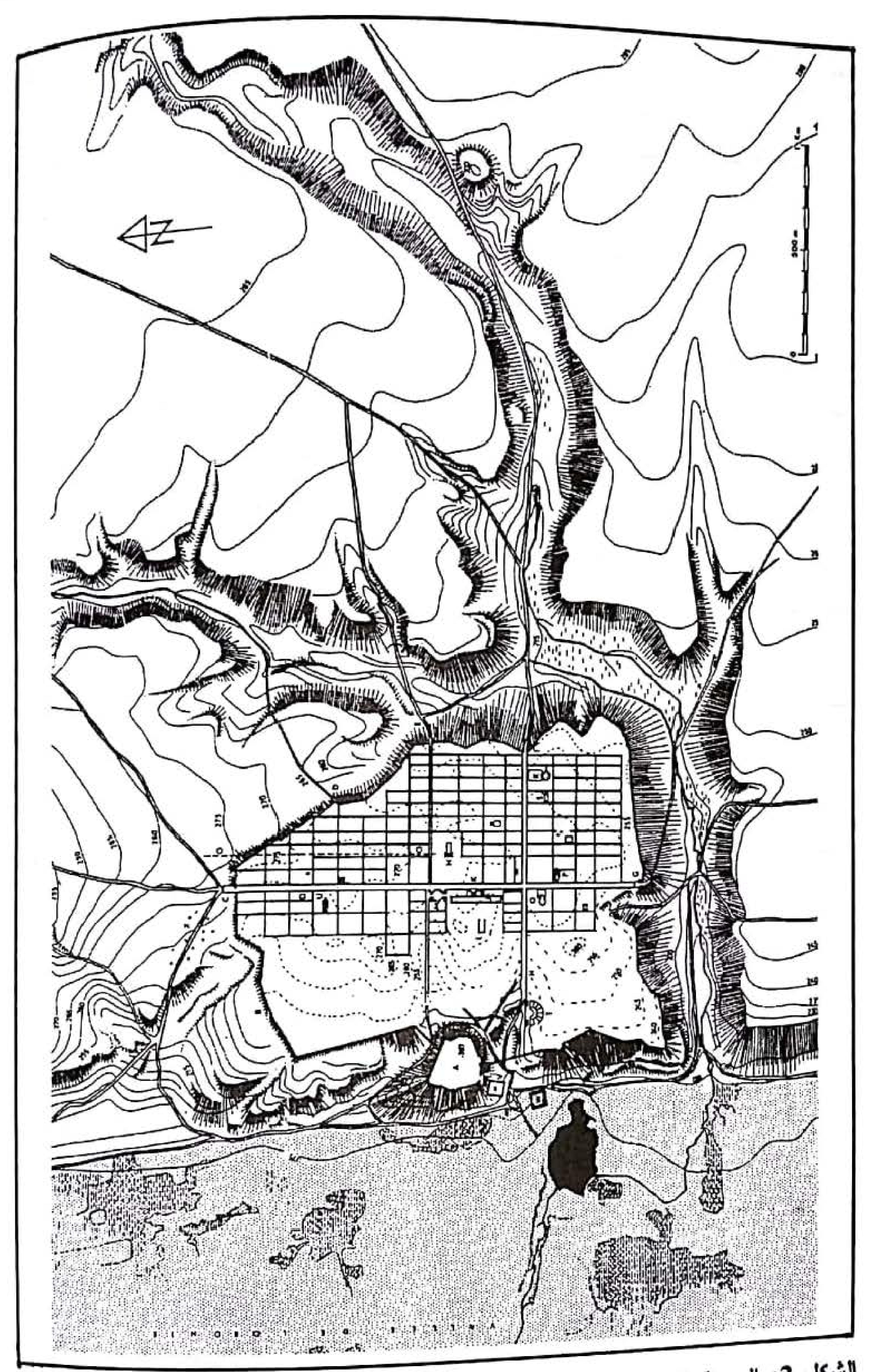
37 Ibid., p. 8-10, pl. I. 1-2.

38 Libanius, Or. XLVIII, 14 (ed. R. Forster, III, p. 434).

39 Libanius, *Ep.* 1351 (ed. R. Forster, XI, p. 400).

40 J. Balty, «L'oracle d'Apamee», *op. cit.*, p. 13 et n. 48.

41 J. Balty, «Le sanctuaire oraculaire de Zeus Belos à Apamée», *Topoi* 7, 1997, p. 794-798.



الشكل 2: المدينة اليونانية ـــ الرومانية والبيزنطية: مخطط عام (رسم بول مينيو Paul Mignot)

أبعاد المدينة واستمرارية موقع السور

إن تصميم السور، المترافق تماماً مع أقل ثنية للأرض على سطح الهضبة، يعود للعهد الهلنستي، لا مجال للشك بذلك[42]. تمتد عملية الكشف عن السور التي قامت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بين عامي 1984 و 1986، تم التحقق من وجود الجدار الهلنستي في كامل محيط المدينة، باستثناء مكان صغير جداً يتعلق بتعديل بسيط لمسيرة السور لكي تبنى واجهة المسرح الروماني[43].

لقد بنيت المدينة منذ البداية بشكل يسمح لها بتطور عمراني فعلي، ولكنها تجاوزت حدودها في القرن الأول قبل الميلاد وفي القرن الأول الميلادي. وأثناء تعداد كيرينيوس Quirinius، وهو أيضاً تعداد أنجيل لوقا في عام 6 ميلادية، ألم تكن أفاميا تضم هي وأقليمها سوى 117000 إنسان حر[44] – إن التعداد المذكور هنا هو تعداد كل المقاطعة Civitas ؟ يمكن أن نتصور بسهولة وجود مدينة تضم بين 400 إلى 500000 نسمة[45]. إنها بلا شك إحدى فترات التوسع الأعظم. ففي الباب الشمالي، هناك جزء من شارع الأعمدة الشمالي الجنوبي يمتد إلى أكثر من 70 م خارج السور (الشكل 3) والذي كان يلعب دور المفصل لحي بكامله من الحوانيت والورش الحرفية مشكلاً في هذا

---

[42] لم نشك في ذلك قط، على العكس مما يقول ب. لوريش P. Leriche, «Urbanisme défensif et occupation du territoire en Syrie hellénistique», in *Societés urbaines, societés rurales dans l'Asie Mineure et la Syrie hellénistiques et romaines*, Strasbourg, 1987, p. 76. ألم نكتب منذ عام 1969 J. et J.-Ch. Balty, «Le cadre topographique et historique», *loc. cit.*, p. 33 «لقد أعيد تاريخ البناء الأول للسور الحالي إلى العصر الهلنستي: المبني تماماً فوق التلة التي تنتهي بها الهضبة، وهو يتطابق بشكل صارم مع محيطها، وتتاطبق عليه القلعة الواقعة على المنحدر الذاهب باتجاه الوادي»؟

[43] Cf. J. Barlet, «Travaux au theatre, 1969-1971», in *Colloque Apamée de Syrie* II, 1972, p. 144, fig. 1 et pl. XLIX.2.

[44] CIL, III, 6687; cf. Fr. Cumont, «The Population of Syria», *Journal of Roman Studies* 24, 1934, p. 187- 190; J. et J.-Ch. Balty, «Apamée de Syrie, archéologie et histoire», *op. cit.*, p. 117-120; J. Ch. Balty, Guide d'Apamée, Bruxelles, 1981, fig. 27 p. 32.

[45] كانت النسبة في بير غام Pergame، في القرن الثاني، بين سكان المدن والسكان ككل تبلغ 1 إلى 3، وذلك بحسب غالبين Galien ، G. M. A. Hanfmann, *From Croesus to Constantine. The Cities of Western Asia Minor and their Arts in Greek and Roman Times*, Ann Arbor, 1975, n. 33, p. 49-50.

المكان بكل وضوح توسعاً حقيقياً للمدينة خارج السور[46]. ولكن بعد كارثة الزلزال الذي حصل في 13 كانون الأول من عام 115، والذي أدى إلى سقوط العديد من الضحايا في إنطاكية، تراجعت الحياة وانطوت على نفسها داخل الأسوار في مدينة أفاميا، ولقرون عديدة، كما يبدو. ثم تجاوزت المدينة حدودها من جديد في العصر البيزنطي، فقد تجمعت في الكنائس والأديرة والأبنية الدينية في المقبرة حول قبور بعض الشهداء الدينيين[47]. إن هذا التوسع الطبوغرافي يتوافق تماماً، هنا أيضاً، مع نهاية فترة من التوسع: ففي عام 573، وبمناسبة إحدى الهجمات الساسانية التي ستزيد من الفوضى أكثر فأكثر في الإمبراطورية، ألم يصطحب فرسان أدارمانيس Adaarmanes معهم كعبيد، 292000 أسير من أفاميا ومنطقتها[48]؟

إن كان هناك ديمومة لموقع السور منذ تأسيسه، فلا شك أن المدينة قد شهقت في حدودها كما تفعل الرئة الحقيقية، وانتفخت لتتجاوز حدها الأساسي في فترات تألقها وازدهارها، أو لم تكن تملأها إلا قليلاً ربما في الساعات العصيبة من تاريخها. إذن، ليس هناك توسع منتظم للفضاء العمراني، في بعض الفترات، يتميز بوجود سور جديد كما هو الحال بالنسبة لإنطاكية خلال فترتين من التوسع في ظل حكم أنطيوخوس الرابع إيبيفان[49] وفي عهد تيودوز الثاني[50]، أو بتراجع السور في فترات أخرى، كما هي الحال بالنسبة لتدمر في عصر الامبراطورية الدنيا، والتي هجرت كلياً الضفة الغربية من الوادي[51].

---

[46] J.-Ch. Balty, «Grande Colonnade et quartiers nord», *loc. cit.*, p. 77-92 et 100.

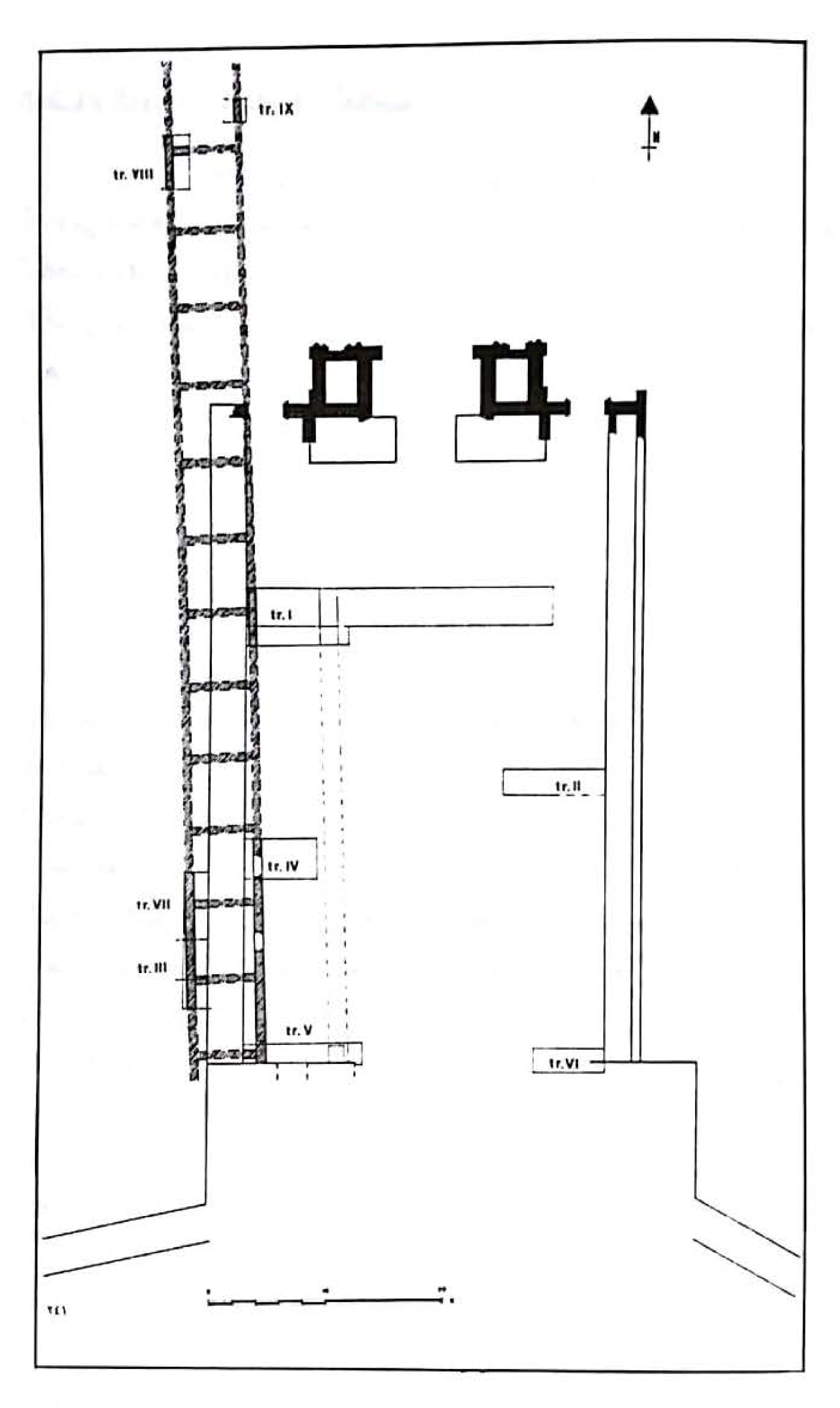
[47] Ibid., p. 100-101. Cf. Ci-dessous, p. 182.

[48] Jean Le Scholastique, *Chron.*, I, 4, p. 275 (éd. C. Muller dans *Fragm. Hist. Graec.*, IV, 1885) et Michel Le Syrien, Chron., X, 9 (éd. Et trad. Franc. J.-B. Chabot; trad., t. II, 1901, p. 12; texte syriaque, t. IV, p. 348).

[49] سترابون، XVI, 2, 4 ، حول هذه النقطة ولمناقشة شهادات مالالاس، انظر أيضاً Gl. Downey، مرجع مذكور سابقاً، ص 176–178 واللوحة رقم 11.

[50] Malalas, p. 346.5-347.5; Evagre, I, 20; cf. Gl. Downey, op. cit., p. 452 et n. 9.

[51] كان د. فان بير شم من بين الأوائل الذين تحدثوا عن «الحياة المحدودة» في تدمر في عند تيتراشي D. Van Berchem, «Recherches sur la chronologie des enceintes de Syrie et de Mésopotamie» *Syria* 31, 1954, p. 256-262. Cf., depuis lors, idem., «Le plan de Palmyre» in *Palmyre Bilan et perspectives*, Strasbourg, 1976, p. 165-173 (fig. 1 p. 166) et M. Gawlikowski, «Les défenses de Palmyre» ibid., p. 209-211 (fig. 1 p. 210), idem., «Les défenses de Palmyre» Syria 51, 1974, p. 231-242 (fig. 1 p. 233).



الشكل 3: إعادة تصور الباب الهلنستي وحوانيته عند الباب الشمالي (رسم جان شارل بالتي)

الفضاء العمراني للمدينة، المقاسم

إن هضبة أفاميا التي تحززها الوديان في الشرق، وبسبب الوادي الجنوبي ومنخفض الغاب الذي يحدها جغرافيا، غير قابلة أبداً للتوسع أو للتقلص، وقد كان مؤسس المدينة يعلم ذلك، فقد منح منذ البداية الحد الأقصى من المساحة للمدينة التي كان يأمل لها أن تكون موعودة بمستقبل زاهر. ولم يتأثر هذا المخطط العضوي بمرور القرون. فالشريان الرئيسي الشمالي الجنوبي، وهو العمود الفقري لكل عمران المدينة، قد صمد أمام كل الزلازل المدمرة: فلم تنقطع أبداً عمليات إعادة تبليطه وبنائه، وهو يظل حتى اليوم، بفضل عمليات الترميم والتنظيف، أفضل الطرق لعبور المدينة القديمة من حي إلى آخر (الشكل 4 أ و4 ب). إن هذا المحور بالذات هو الذي يوجه ويجمل، في ظل حكم جوستانيان، إعادة البناء المتتابعة لزلزالي 526 و 528 وبناء الباب الشمالي وقوس النصر الذي يقع خلفه[52]. وبرغم الغزوات الفارسية، فمن حوله كان ينتظم السوق في عهد متأخر[53]. وبعد الفتح العربي كان المسجد الصغير ينفتح عليه، والذي بني في بوابة شارع الأعمدة بالذات، على ارتفاع 2 م تقريبا فوق مستوى الشوارع في العصر الإمبراطوري[54]. فالشوارع والأزقة في مختلف أحياء المدينة تحتفظ تماماً باتجاهات المحاور والمقاسم الأصلية. وباستثناء بعض التجاوزات ــ التي سنعود إليها لاحقاً ــ احتفظت المقاسم بأبعادها وبنياتها الأساسية حتى تاريخ هجران المدينة الكلي، (الفضاء المكشوف لباحة الأعمدة، والفضاء المسقوف لغرف السكن). والطرقات الترابية التي ما زالت حتى اليوم تربط قرية قلعة المضيق بالحقول المحيطة بها، تتطابق في العديد من الأمكنة مع مسارات الطرق القديمة، وتعبر هذه الطرق السور في معظم الأحيان في النقاط نفسها التي كانت تنفتح فيها أبواب المدينة القديمة (الأبواب الشرقية،

---

[52] Pour ces travaux, cf. J.-Ch. Balty, «Apamée au VI siècle. Témoiganaes archélogiques de la richesse d'une ville» in *Hommes et richesses dans l'Empire byzantin*, I. IV-VII siecle, Paris, 1989, p. 80-84.

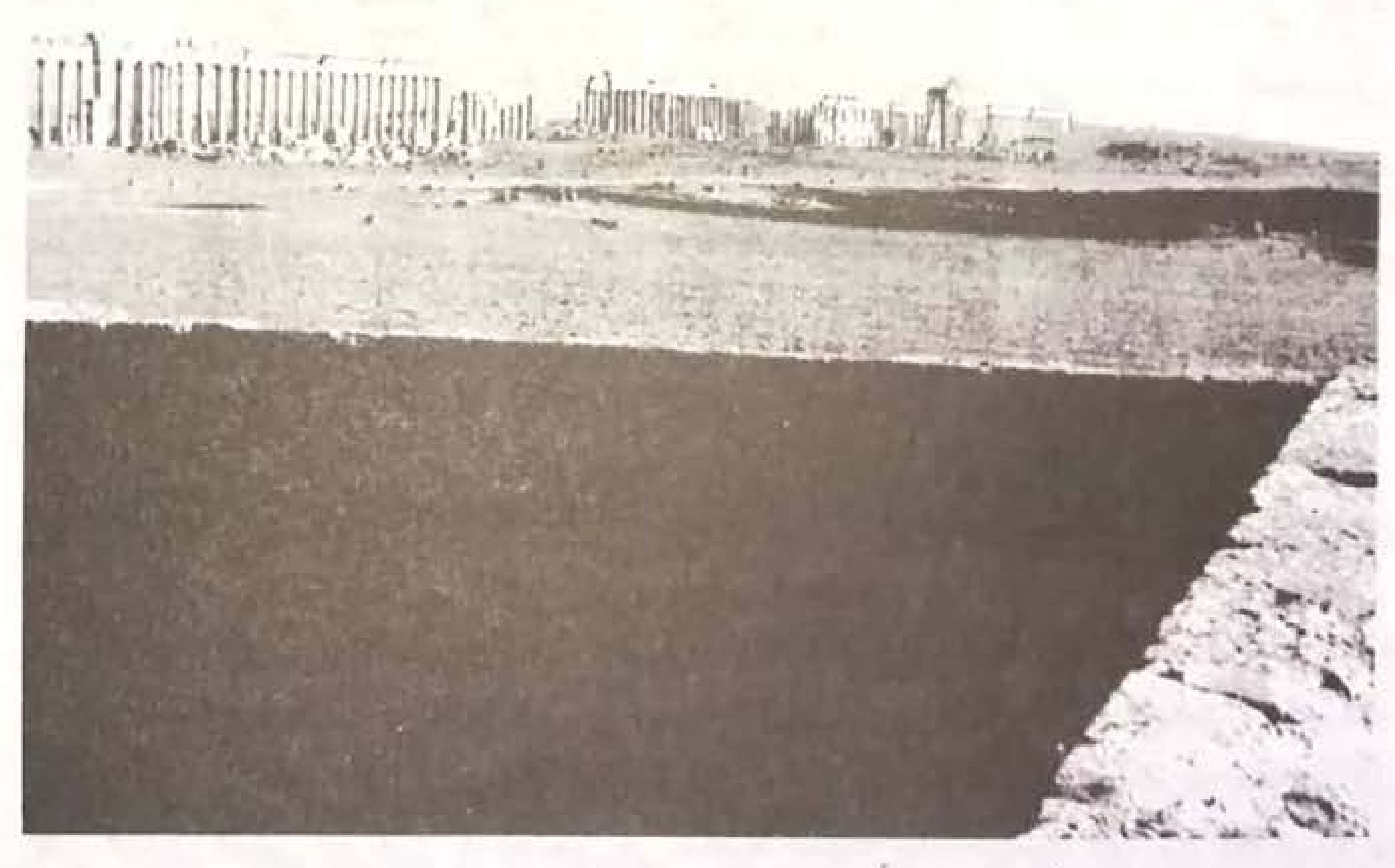
[53] J. et J.-Ch. Balty, «Le cadre topographique et historique», *loc. cit.*, p. 42 et fig. 4; J.-Ch. Balty, «Les grandes étapes de l'urbainisme d'Apamée-sur-l'Oronte», *loc. cit.*, p. 12-14 et fig. 4.

[54] Cf. J.-Ch. Balty, *Guide d'Apamée*, op. cit., p 52 et fig. 46.

في نهاية المحورين الأفقيين من الصليب المزدوج، الأبواب الشمالية والجنوبية، مع انحراف خفيف بسبب كتلة الانهيارات في هاتين الجهتين).



الشكل 4 أ: شارع الأعمدة، كما يرى في محوره من عند قوس النصر



الشكل 4 ب: شارع الأعمدة مرئياً من عند السور الجنوبي

لقد حافظ شارع الأعمدة لمدة طويلة على ميزته كشارع تجاري تصطف على جانبيه المحلات التجارية، حتى بعد تحويله إلى شارع للمشاة[55]. نستنتج إذن أن التجار الصغار الذين كانوا يعيشون فيه في الطابق العلوي - في السقائف- قد حافظوا طويلاً على عادتهم وأن الزلازل لم تجعله غير صالح للاستخدام. هذا ما يشير إليه بالفعل أيضاً بناء المسجد الشمالي في زمن لا نستطيع للأسف تحديده بالضبط. مسجد كان يجمع المؤمنين في هذا الجزء من المدينة. وفي الأحياء السكنية كما هي الحال ولمدة طويلة أيضاً في مساكن الأرستقراطية الثرية الفاخرة لم تحصل تغيرات جذرية إثر الفتح العربي وهروب النخبة من الأثرياء البيزنطيين، كما لم يتغير أي شيء من ذلك التوازن المنسجم. ولم يحصل أي تحول هام سوى إدخال الكنائس على المخطط العمراني، وحصل ذلك أحياناً على حساب أبنية الديانات السابقة[56]. فقد تشكلت بلا شك أحياء جديدة من حولها، لكن دون أن تغير بشكل عميق من الوظائف الحضرية الأساسية التي اختارها لها مؤسس المدينة.

كان المركز، الذي يحده من الشرق شارع الأعمدة، ومن الشمال والجنوب المحوران المتوازيان من «الصليب المزدوج»، مخصصاً كما رأينا من قبل للآلهة Poliade، التي كانت تحكم كل هذا الفضاء وتسيطر على الأغورا التي كانت تتجمع حولها المباني العامة. لا شك أن عمليات إعادة البناء التي حصلت في القرن الثاني قد حرمتنا من التعرف على هذه الأبنية ميدانياً، لكن التشابه مع دورا أوروبوس مفيد جداً في هذا المجال، والتي تكشف في خطوطها العريضة التنظيم العمراني نفسه، وفي لاوديسيا (اللاذقية) كان يلعب ذلك الدور الميناء والمباني التي ترتبط به مباشرة[57].

---

[55] Ci-dessous, p. 180-182.

[56] Cf. Ci-dessous, p. 180.

[57] لقد أصررت على ذلك في بحثي: «الخصائص العمرانية للتيترابوليس السوري». مرجع مذكور من قبل، ص. 223-227. إن تطور مخطط جرش (Gerasa) الذي يقترحه اليوم ج. سيجني J. Seigne «جرش: معبد زيوس ومحيطه» في مجلة المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار الأردنية، عمان، 1989، ص. 42-45، يدفعني إلى حذف التشابه الذي يبدو أنه يقدمه لي فيما يخص بناء معبد أرتميز Artemis في مدينة الديكابول Décapole. إن لم يكن بالإمكان التعرف منذ الآن على المجال الديني المركزي المخصص في مخطط المدينة منذ تأسيسها، فإننا مع ذلك سنرى فيه بلا شك العودة إلى مخطط قديم تمثله بدقة النماذج التي درست في هذه المقالة.

كان شارع الأعمدة ومحوراه المتعامدان يتميز بالحوانيت المتراصفة على طوله والتي تنفتح في خلفية الأروقة. أما الأحياء الأخرى حيث كانت تقوم أيضاً، بلا أدنى شك، المعابد الثانوية والحمامات وصالات الرياضة، فقد كان جزء كبير منها «سكنياً»، وبلا ريب حُرفياً عند الأطراف.

التحولات الإدارية والمعمارية

لا بد من التذكير هنا بالظروف التاريخية التي أدت إلى عدد كبير من التحولات التي حصلت عبر القرون، ولكنها ليست سابقة لعصر الإمبراطورية الدنيا. إن التحول إلى الهيمنة الرومانية قد حصل في الواقع دون انقطاع كبير. وكان زلزال 13 كانون الأول 115 هو الوحيد الذي أدى إلى إعادة بناء المدينة، على مستوى أوسع مما كانت عليه بشكل عام في العصر الهلنستي[58]. إن اعتماد نمط العمارة الكورنثية في شارع الأعمدة سيعرف منذ الآن فصاعداً انتماء سورية إلى الإمبراطورية ولكن أيضاً امتداد هذه العمارة إلى مناطق عمرانية من المدينة لم تكن قد تعرضت لأي ضرر فعلي، فإنشاء القناة[59]، وإدخال عنصر الماء في العمارة الفاخرة (غار الحوريات الكبيرة عند الباب الشمالي والتقاطع الجنوبي لشارع الأعمدة) وإنشاء مجمعات كبيرة من الحمامات كتلك التي عرفتها المدن الكبيرة في ذلك العصر، قد تمت كما يبدو دون أن تشوش المخطط العمراني الهلنستي. وستجري الأمور على نحو آخر فيما بعد. إذ ستصبح أفاميا مركزاً إدارياً لمقاطعة لاحقة في سورية الثانية Syria Secunda عندما ستنقسم المقاطعة القديمة بحدود عام 415 ميلادي، كما ستصبح مركزاً لأبرشية، وستتوحد إدارة الكنيسة مع الإدارة المدنية[60]. وسوف تظهر بنيات جديدة وضرورية

---

[58] Cf. J.- Ch. Balty, «Grande Colonnade et quartiers nord d'Apamée» cit., p. 79-81 et Passim.

[59] هناك أسطورة محلية، شفهية كما يبدو، قد حافظت على ذكراها، انظر Cf. K. Chehade, «Qanat Salamiya-Afamiya aw qanat al-Asiq (L'aquéduc de Salamiye à Apamée ou canal de l'amoureux)», *Annales archéologiques de Syrie* 7, 1957, p. 155-166, qui en a suivi le tracé sur le terrain; cf. Egalement الذي قام بمتابعة خط سير القناة على الطبيعة انظر أيضاً J.-Ch. Balty, «Problèmes de l'eau à Apamée de Syrie» in *L'homme et l'eau en Méditerranée et au Proche-Orient*, IV. *L'eau dans l'agriculture*, Lyon, 1987, p. 16-19 et fig. 3.

[60] بالنسبة للتاريخ وظروف هذا التحول الهام انظر cf. J. Balty, «Sur la date de la création de la Syria Secunda», *Syria* 56, 1980, p. 465-481.

تأخذ بالحسبان هذه التبدلات.

لقد تعرض في هذه الفترة مسكن كبير في الحي الجنوبي الشرقي يعود لنبيل روماني – يسمى هذا المبنى بالـ «تريكلينوس Triclinos» – إلى تعديلات كبيرة (الشكل 5): إعادة توجيه مميزة لكامل المخطط باتجاه قاعة استقبال أو احتفالات تقدر مساحتها بـ 115 م2 والتي يُذكِّر بلاطها الفسيفسائي الرائع – رحلة صيد كبيرة – دون أدنى شك بفيلا تعود إلى موظف إمبراطوري كبير[61]، أو إضافة مجمع صغير خاص للحمامات يؤمن المكانة الرفيعة للمقر المعدّل. إذن، ومنذ وقت طويل[62] فقد تعرفنا على مقر حاكم المقاطعة كما يبدو، فكل هذه التحولات تعود إلى الفترة المحصورة بين القرن الخامس والسادس.

ومباشرة نحو الشرق، تمتد مجموعة أسقفية على مقسمين متجاورين وعلى مساحة تبلغ 12000 م2 تقريباً وتضم بالإضافة إلى الكاتدرائية وكنائسها وتوابعها، مكاتب وحمامات ومسكناً فاخراً للبطريارك[63]، قد شوشت كنيسة الحج الرباعية الأصداف Tetea conque حيث ربما كانت تُعبد بقايا الصليب المقدس الثمينة[64]. لابد أنه كان يوجد هنا وبلا شك أكثر التحولات جذرية، فرباعي الأصداف كان هو بالذات يقع فوق القاعات والأروقة لما كان يبدو تماماً من قبل مقر المدرسة الشهيرة للفلسفة الأفلاطونية الحديثة في أفاميا[65].

---

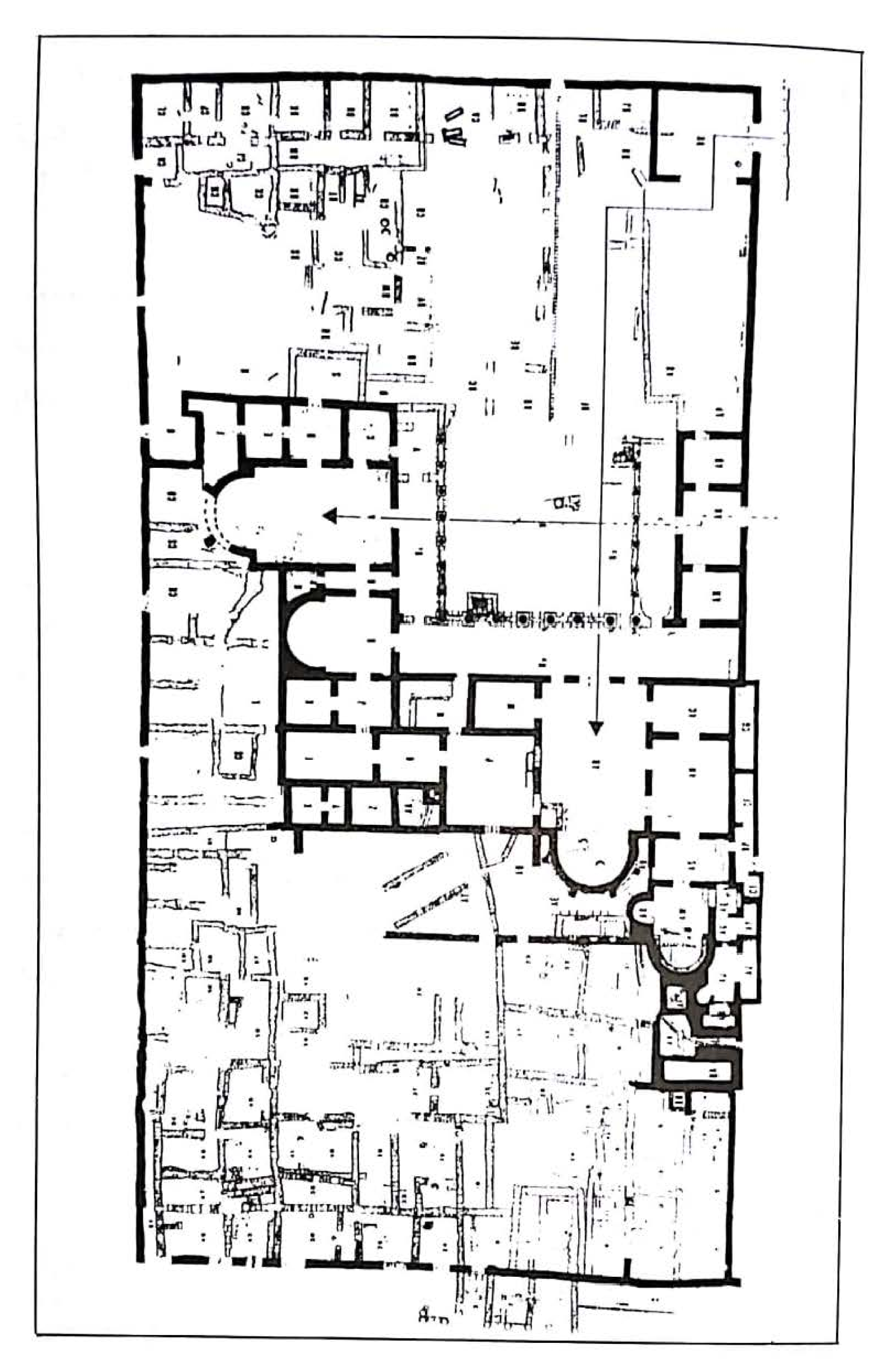
[61] لقد تم في ظل حكم إحدهم ترميم بناء «أبليون الرائع جداً» في أيلول 539، كما يشير إلى ذلك النقش الكتابي الموضوع في العتبة بالذات.

[62] V. Verhoogen, *Apamée de Syrie aux Musées royaux d'Art et d'Histoire*, Bruxelles, 1964, commentaire de la pl. 21. Cf., depuis lors, J.-Ch. Balty, «Palais et maisons d'Apamée» in *Les maisons dans la Syrie antique du III millenaire aux debuts de l'Islam. Pratiques et representations de l'espace domestique*, Beyrouth, 1997, p. 283-288 et J. Balty, «Mosaique et architecture domestique dans l'Apamée des V et VI siècles» in *Patron and Pavements in Late Antiquity*, éd. S. Isager et B. Poulsen = Halicarnassian Studies, II, Odense, 1997, p. 92-93.

[63] J.-Ch. Balty, «Le groupe episcopal d'Apamée, dit «cathedrale de l'Est» Premières recherches» in *Colloque Apamée de Syrie*, II, p. 187-205; cf. Idem., Guide d'Apamée, op. cit., p. 105-106 et fig. 111.

[64] Pour celles-ci, cf. J.-Ch. Balty, «Archéologie et temoignages litteraires» in *Colloque Apamée de Syrie*, II, p. 212-214.

[65] انظر كملاذ أخير من أجل هذه المسألة: J.-Ch. Balty, «Les Thérapénides d'Apamée: textes litteraires et iconographie» *Dialogues d'histoire ancienne* 18, 1992, p. 288-291; commodement repris dans *eadem*., *Mosaiques antiques du Proch-Orient. Chronologie, iconographie, interpretation*, Besancon-Paris, 1995, p. 304-305.



الشكل 5: مبنى ثلاثي الأجنحة: المحوران المتتابعان للمخطط (رسم جان شارل بلتي بالاعتماد على رفع هندسي قام به ف. دولافو و. ج. إيورت)

أما الكنيسة ذات الفناء atrium قد طمست معالم الكنيس الـــذي ظلت تزينه، حتى عام 391/392 [66]، بلاطات رائعة من الفسيفساء. لقد أدى ازدهـار عبادة الشهداء الدينيين (القديسين) بالإضافة إلى إدارة جوستانيان في القـــرن السادس إلى توسع كبير للبناء الأساسي، والذي سينفتح بعد ذلك على شـــارع الأعمدة من خلال فناء واسع على الطريقة القسطنطينية، حتى أنه سيمتد فـوق الشارع الشمالي الجنوبي الذي يشكل من هذا الجانب حدود الكنيسة الأولــى [67]. (الشكل 6).

إن أفاميا القرن السادس ، التي كانت في أوج ازدهارها بـــالرغم مـن الزلازل المدمرة التي عرفتها في العامين 526 و 528، ليست هي أبداً مدينـــة القرن الثاني، التي لم تكن هي أيضاً نفسها مدينة العصر الهلنستي التي أعيـد بناؤها غداة كارثة عام 115. فقد غطى بلاط جديـــد مـــن الكلـس الطـري المنحوت بشكل ممتاز، البلاط القديم المتعدد الزوايـــا للشـــارع [68] والشـوارع الجديدة للمشاة حيث لا يسمح بمرور العربات (الشكل 7)، وقد بدل ذلك كثيراً من خصائص الشريان الرئيسي الشرقي الجنوبي الذي ستتجمع حوله بعد ذلك نشاطات كانت مقتصرة على الآغورا ــ التي اختفت كما رأينا على إثر تـهديم معبد بيلوس Belos والتخلي عنه. لكن العديد من المباني الجديدة قد ظـــهرت لتشهد بشكل واضح على فعالية برنامج الصيانة والترميم بعد هذين الزلزالين: فبالإضافة إلى المراحيض التي تغلق الطريق أمام الوصـــول إلـــى الآغـــورا وتنفتح على أروقة شارع الأعمدة، أنشـــئ ربـــاعي الأعمـــدة Tetrakionia الضخم الذي ينظم الشارع الكبير على بعد خطوات من هنا [69]، وكان لإضافـــة واجهة تغلق، من خلف قوس النصر الشمالي الامتداد الطويل لهذا المحـــور،

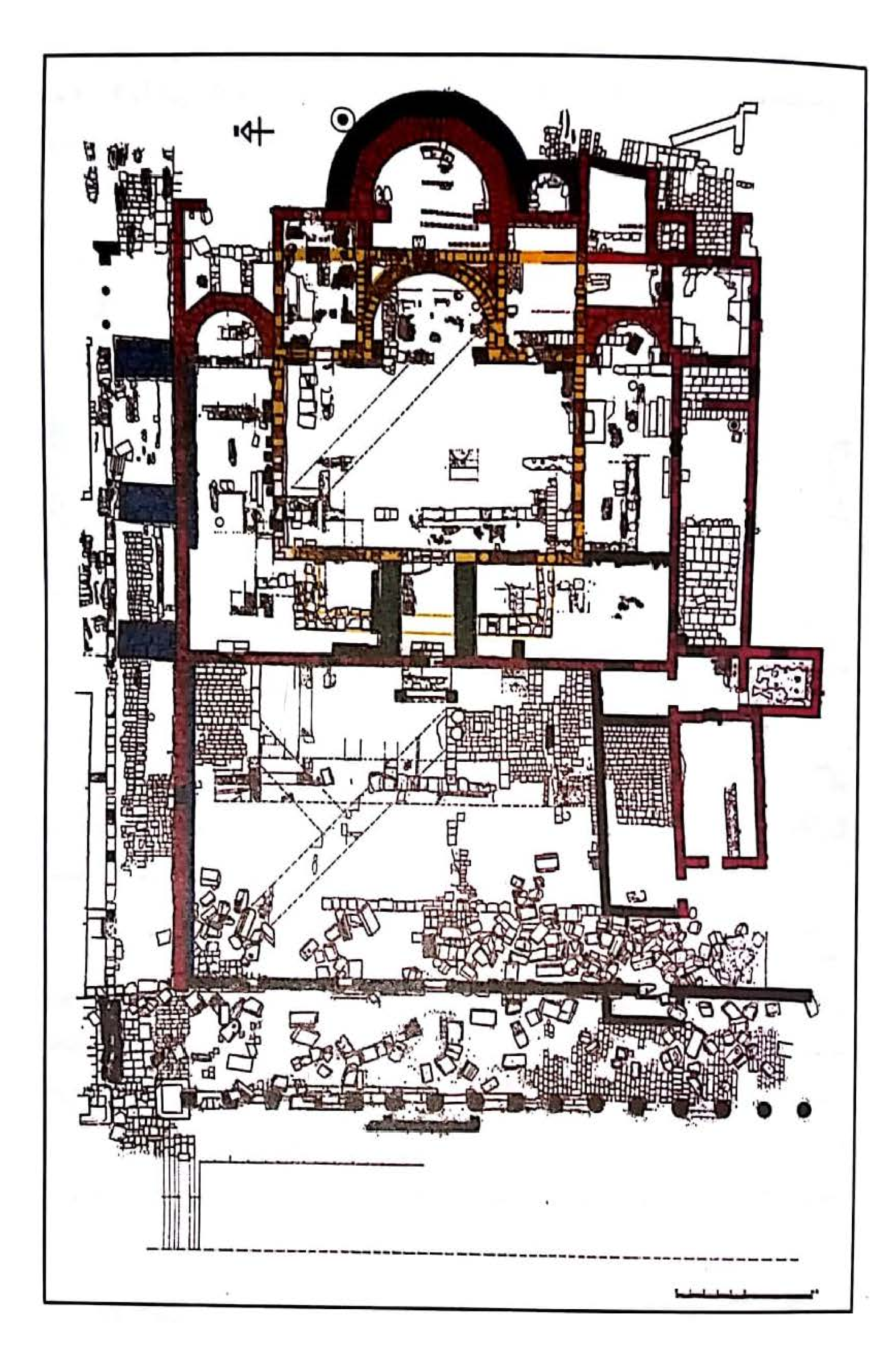
---

[66] IGLS 1319 et 1321; cf. V. Verhoogen, *op. cit.*, pl. 17 et commentaire *ad loc.*; J. Balty, *Mosaiques d'Apamée* [Musées royaux d'Art et d'Histoire. Guide du visiteur], Bruxelles, 1986, n 5-8 p. 7-8 et pl.

[67] بالنسبة لتفاصيل هذه المرحلة انظر J.-Ch. Balty et J. Napoleone-Lemaire, *L'église à atrium de la Grande Colonnade* = *Fouilles d'Apamee de Syrie*, I. 1, Bruxelles, 1969, p. 27-34

[68] مخطط باللون الأحمر والشكل 4. J. Mertens, «Sondages dans la Grande Colonnade et sur l'enceinte» in *Colloque Apamée de Syrie*, I, p. 61-64, fig. 2-3 et pl. XIX.

[69] J.-Ch. Balty, «TetraKionia de l'époque de Justinien sur la Grande Colonnade d'Apamée», *Syria* 77, 2000, sous presse



الشكل 6: وجه تغيرات البناء لباحة كنيسة.
رسم جان CH بالتي على قاعدة التعديل لــ ج نابليون لومير.

تساهم كلها في تركيز كل الاهتمام على الساحة العامة (Plateia) المخصصة للمشاة: لقد ولد نمط آخر من التنظيم العمراني.



الشكل 7: بلاط متعامد ورصيف شارع الأعمدة أمام الكنيسة ذات الفناء.

إن الكنائس أيضاً، العديدة بالأصل، قد غزت مختلف أحياء المدينة بما فيها المقبرة[70]، وازدهرت عبادة الشهداء الدينيين بشكل خاص، حول بعض القبور ــ لا سيما قبور موريس وابنه وأصحابه[71] ــ وسرعان ما ولدت حركة للحج إليها. فلقد بنيت كثير من المنشآت الدينية (مأوى القديس

---

[70] بالنسبة لأول خارطة تبين توزع الكنائس التي تم التعرف عليها في الموقع انظر مناقشة تقرير N. Duval, p.-A. Fevrier et J. Lassus, «Groupes episcopaux de Syrie et d'Afrique du Nord» in *Colloque Apamée de Syrie*, II, 1972, fig. 24 p. 249.

[71] هناك نقش كتاب على الفسيفساء، غير موقع وبوضعية سيئة، يشير بشكل واضح بأنهم هؤلاء من كانوا يبجلون في المصليات «المدفنية» التي كشفت جزئياً في عام 1937 (F. Mayence, «La VI campangne de fouilles a Apamée» L'Antiquité classique 8, 1939, p. 206 = Bulletin des Musees royaux d' Art et Histoire, 3 ser., 10, 1938, p. 105-106) والذي اختفى في السنوات الأخيرة بسبب الحراثة العميقة وبناء سد (J.-Ch. Balty, «Grande Colonnade et quartiers nord d'Apamée» cit., p. 100).

روماn[72]، والشماسية[73]) خارج الأسوار على مقربة منها. وقد ظهرت مراكـز عامة وشوارع جديدة ليست بالتأكيد تلك التي كانت موجـــودة فـــي المدينـــة الوثنية، في حين أن مسارات وعدد محاور نظام الشوارع لم يتغـــير فـــي أي شيء. ليس هذا بالتأكيد أحد أضعف التناقضات لهذه التحولات العميقـــة ذات الهوية الدينية والاجتماعية.

لكن المدينة قد عرفت، في الوقت ذاته، العوارض الأولى لشـــيء مـــن الفوضى في نظامها العمراني ــ هل أتجــرأ وأقــول «تدهــور الخصــائص العمرانية»؟ ــ التي بدأت، والحق يقال، مع الترميم السريع في معظم الأحيان أثناء حكم جوستانيان والذي تزايد على مر السنين التالية.

حينئذ ظهرت التجاوزات على الفضاء العام التي نلاحظها في العديد من الأماكن، ولكنها لم تتعرض بعد إلى شارع الأعمدة. إنها تحدث في الأحيـــاء السكنية وتتمثل ببناء مرحاض عام ومكب قمامة فوق الطريق الـــذي يحـــاذي بيت القناصل في الشمال ، والذي يتقدم فوق المقسم من أجل تســـهيل الربـــط المباشر لهذه المنتفعات مع شبكة الصرف العامة[74]، أو عمليات البنـــاء أمـــام الواجهة الغربية للبناء ذو الأجنحة الثلاثة، كالمراحيض العامة أيضاً وإضافـــة كتلة حمام[75]، التي تكمل وتحدّث أو تـُطور قصر حـــاكم المقاطعـــة، ومـــن السهل مضاعفة الأمثلة.

إن انعدام الأمن في مطلع القرن الســـابع الميـــلادي، بالإضافـــة إلـــى الهجمات الساسانية المستمرة، واقتحام المدينة في عام 613، كان قد دفع إلـــى إعادة إحياء المدينة في القرن السادس الذي يمكن أن يبـــدو كعصـــر ذهبـــي جديد بالنسبة للمراقب السطحي، مادام أن النشاط كان قائمـــاً علـــى امتـــداد الموقع. في حين أن ذلك ليس ســـوى تدهـــور بطـــيء وتدريجـــي للنســـيج

---

72 Procope, de *aedif.*, V, 9.

73 J.-Ch. Balty, «Grande Colonnade et quartiers nord» cit., p. 100.

74 J. Balty, «La Maison aux Consoles» in Apamée de Syrie. *Bilan des recherches archéologiques* 1973-1979. Aspects de l'architecture domestique d'Apamée = *Fouilles d'Apamée de Syrie. Miscellanea*, fasc. 13, Bruxelles, 1984 (ci-apres cite Colloque Apamee de Syrie, III), p. 34 et fig. 1 (en AJ-AK).

75 J.-Ch. Balty, «L'édifice dit au triclions» in *Colloque Apamée de Syrie*, I, 1969, p. 113 et *plan depliant* face a la p. 117 (en AY, AZ, BP, CE, CF, CG).

العمراني الذي يتطابق في الأحياء السكنية مع مرحلة من «الترييف» الحقيقي للمدينة، نتيجة للاضطراب الاجتماعي الذي تبع الغزو والذي ظهرت تأثيراته على السكن[76]. فقد تم الكشف في وسط المدينة عن سوق، يشبه سوق تدمر[77]، أو الأسواق التي أعاد جان سوفاجيه تصورها تاريخياً بشكل رائع منذ عام 1934[78](الشكل 8). ويقع هذا السوق مباشرة إلى شمال العمود النذري الذي يميز، على مستوى السوق، التقاطع الكبير الثاني بعد الباب الشمالي[79]. وفي مكان آخر أمام الجناح الدائري المقبب، كانت العربات، التي تعيقها بالتأكيد تجاوزات الحوانيت على الشارع، تستعمل الباب الغربي لشارع الأعمدة، الذي أعيد تبليطه لهذا السبب[80] (الشكل 9). ولقد تسارع تطور هذا الوضع في نهاية العهد العباسي ــ الذي توقف فيه العثور على أية مواد أثرية في معظم ورشات عملنا[81] ــ وبلغ أقصاه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، عند وقوع زلزالي 1157 و 1170 ــ الذي سيمحي عملياً أفاميا من الخارطة: التي ما زالت تذكر ضمن المدن التي دمرت بسبب الزلزال الأول[82]، لكنها لم تعد تظهر في قائمة المدن التي دمرها الثاني[83] ــ وهو أمر معبر. أما الهضبة، باستثناءات نادرة، فلم تعد في ذلك التاريخ سوى حقل واسع من الخرائب التي ستستعمل فيما بعد

---

[76] J.- Ch. Balty, «Notes sur l'habitat romain, byzantin et arabe d'Apamée. Rapport de synthese» in *Colloque Apamée de Syrie*, III, 1984, p. 497-501.

[77] Kh. Al-As ad et Fr. M. Stepniowski, «The Umayyad suq in Palmyra» Damaszener Mitteilungen 4, 1989, p. 205-223, fig. 1 (plan dépliant face a la p. 206) et pl. 53-58.

[78] J. Sauvaget, «Le plan de Laodicee-sur-mer» op. cit., p. 99-102 et fig. 8 = *Mémorial Jean Sauvaget*, p. 130-133 et fig. 8; cf. J. et j.-Ch .Balty, «Le cadre topographique et historique» *loc. cit.*, p. 41-42 et fig. 4.

[79] أعمال التنقيب لم تشر قامت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف في حماه (عبد الرزاق زقزوق) السابقة لترميم هذا الجزء من شارع الأعمدة (الجزء ذو الأعمدة ذات الجذع المضلع).

[80] J.-Ch. Balty, «Apamee, 1969-1971» in *Colloque Apamée de Syrie*, II, 1972, p. 17-18, pl. I.1-2.

[81] Cf. J. M. Rogers, «Mediaeval pottery at Apamaea in the 1976 and 1977 seasons» in *Colloque Apamée de Syrie*, III, 1984, p. 261-287 passim.

[82] إن المصادر الرئيسية (منها ابن الأثير) مذكورة من قبل J.-Ch. Balty et J. Napoleone-Lemaire, op. cit. N. 4 p. 91; cf. E. Hammershaimb, «Extraits des sources littéraires arabes sur Hama» in P. J. Riis et V. Poulsen, *Les verreries et poteries medievales* = *Hama*. Fouilles et recherches de la Fondation Carlsberg 1931-1938, IV. 2, Copenhague, 1957, n 23 p. 306.

[83] انظر E. Hammershaimb, loc. cit., n 24 p. 306.

كمقالع. وفي إحدى حكايات أسامة بن منقذ المتعلقة بغزوات بني منقذ في قلعة شيزر على أفاميا، إن «هذه المنطقة المخربة التي تقع قبل المدينة» (وهي القلعة القروسطية)، «كانت الخيول تتقدم بصعوبة بسبب الحجارة والأعمدة وأساسات الجدران المنهارة[84]». لقد تراجعت الحياة إلى الأكروبول الذي سيعاد بناؤه. وسيظل معزولاً حتى ثلاثين سنة خلت، قبل أن تتطور المنطقة وتستثمر، بعد تجفيف مستنقعات الغاب وتوزيع الأراضي الزراعية[85]. لقد أدت زلازل القرن الثاني عشر، بكل تأكيد، إلى اضطرابات جيويلوجية بنيوية في الوادي، عرقلت بدورها جريان نهر العاصي إلى العتبة البازلتية في قرقور[86]، وانتشرت الملاريا في المنطقة لزمن طويل وانتقل الطريق الرئيسي الشمالي الجنوبي ليمر على بعد 25 كم إلى الشرق على أطراف البادية، بالقرب من خان شيخون (حيث لا زال الطريق يمر من هنا، وهو الطريق الرئيسي الذي يربط حلب بدمشق). إن عدنا وقرأنا وصف هذا الوادي البائس للرحالة فولني Volney، منذ قرنين من الزمان، في نهاية رحلته[87]، أو ذاك، المخيف أكثر، الذي يقدمه في عهد الانتداب الجغرافي جاك فولرس[88]، الذي بإمكانه أن يتخيل قبل ما يقارب الثلاثين سنة كيف ستصبح في بضع سنين قرى مثل السقيلبية أو قلعة المضيق؟ إن التحول هذه المرة جذري أكثر، كذلك الأكثر جذرية أيضاً الذي يعرف في بعض الفصول مئات السواح يغزون حقول الخرائب. إن كلا الاثنين يقعان بالطبع خارج حدود التسلسل الزمني المفروض على هذه الدراسة.

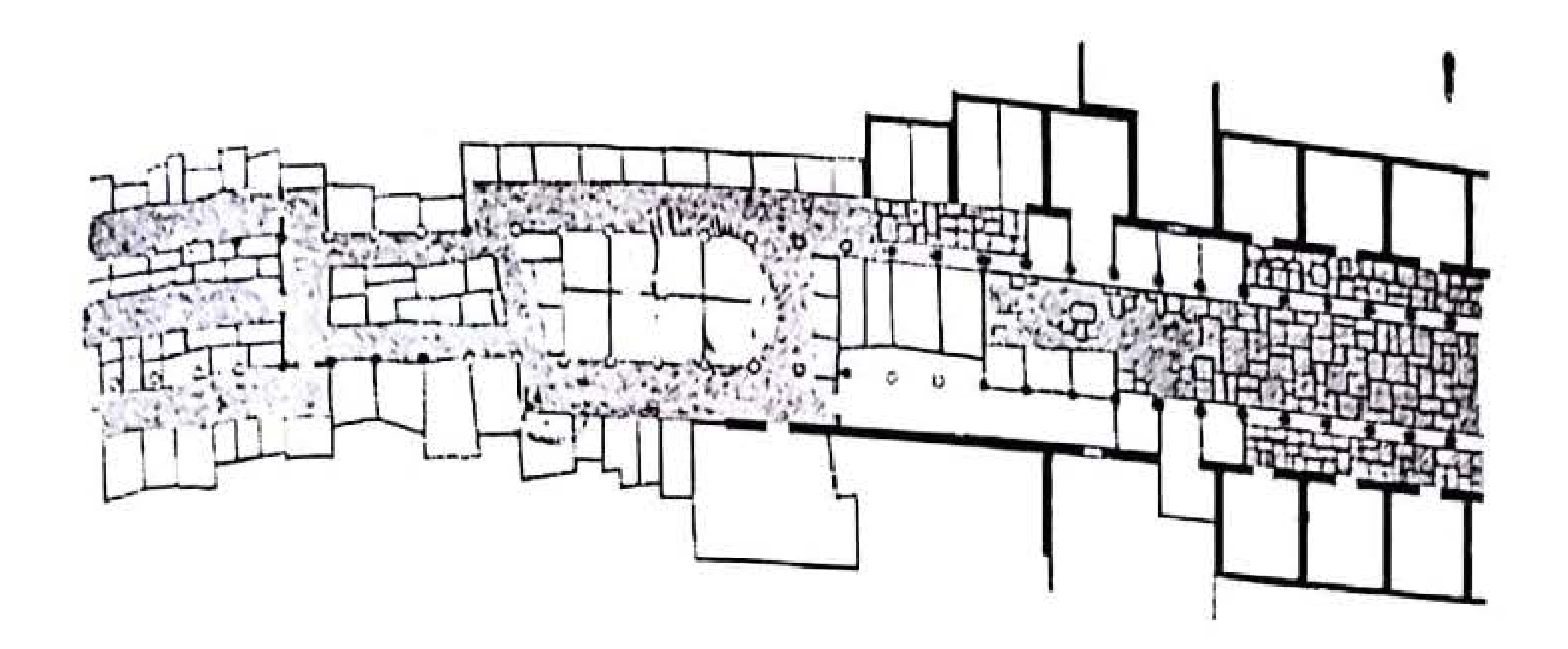
[84] H. Derenbourg. «Vie d'Ousama». *Révue de l'Orient latin* 2 (1894). p. 375; déjà repris par R. Grousset. Histoire des Croisades. cit.. I. p. 621-622 et V. Verhoogen. Apamée de Syrie. cit.. p. [15].

[85] انظر Fr. Et J. Metral. «Maitrise de l'eau et société dans la plaine du Ghab». *Révue de géographie de Lyon* 1979. p. 305-325.

[86] J. Weulersse, *L'Oronte. Etude. De fleuve*. Tours. 1940. p. 72-74.

[87] C.-Fr. Volney. *Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 84 et 85*. Paris. 3 éd.. (reed. Anastatique dans le «Corpus des oeuvres de philosophie en langue francaise», Paris. 1998). p. 481-482.

[88] J. Weulersse, *Le Pays des Alaouites*, Tours. 1940, p. 353-354 et 372-375.



الشكل 8: تحول شارع قديم بأعمدة إلى سوق تجاري (بحسب جان سوفاجيه، مخطط اللاذقية، مرجع مذكور، الشكل 8، ص. 100)



الشكل 9: بلاط من عصرمتأخر في بوابة شارع الأعمدة أمام الجناح الدائري المقبب «Rotende»

بعض الملاحظات حول شارع الأعمدة في تدمر

مارتا تشوشوفسكا Marta Zuchowska

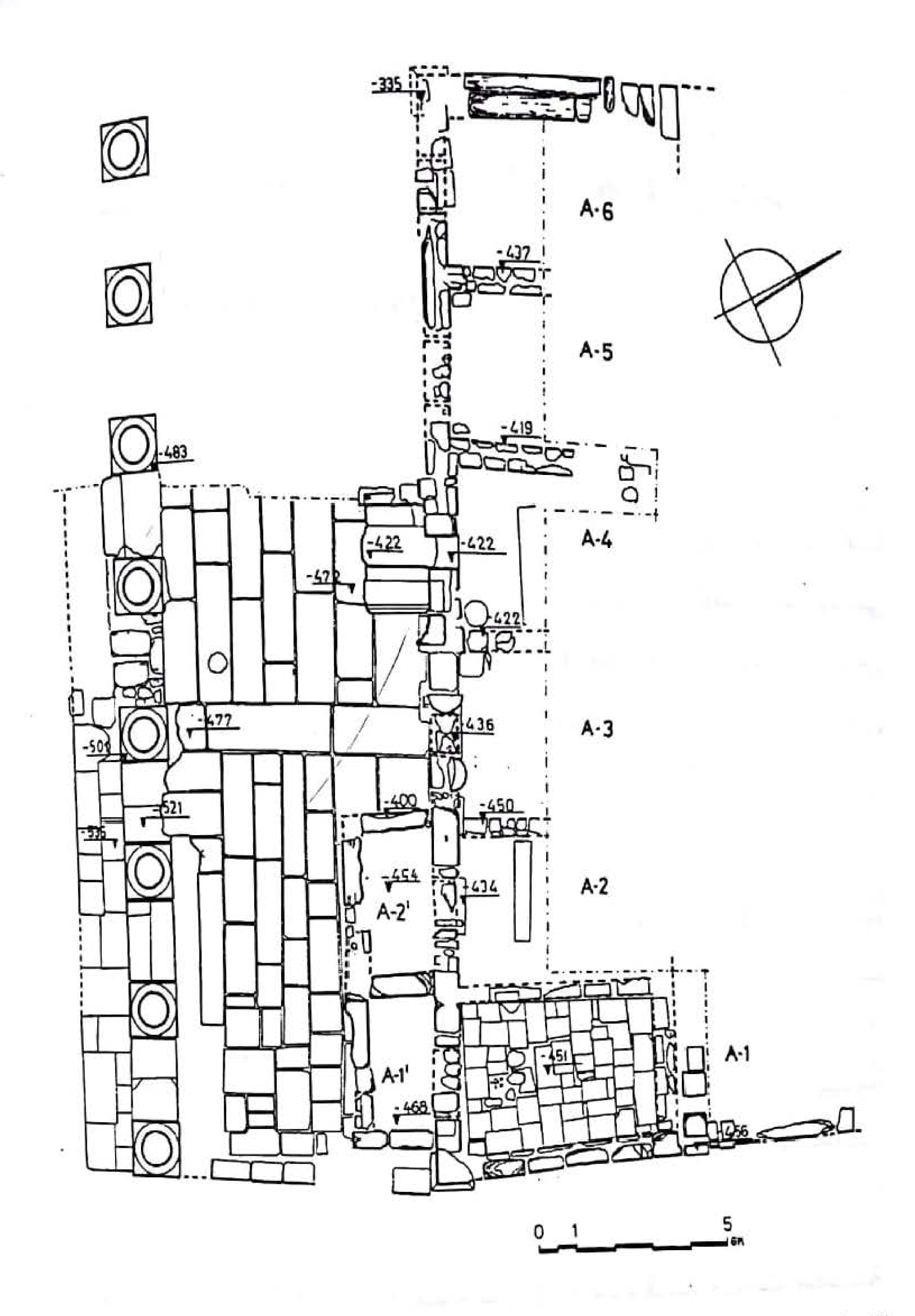
جامعة وارسو

خلال موسمين من العمل في عامي 1996 و 1997، شاركت أثناءها في أعمال التنقيب التي قامت بها البعثة الأثرية البولونية في القطاع الغربي من شارع الأعمدة في تدمر، سنحت لي الفرصة أن أسجل بعض الملاحظات الهامة. فلقد بينت الأعمال في هذا القطاع عن أن الآراء التي تتحدث عن الطبيعة والتسلسل الزمني ونمط البناء لهذا الشارع تحتاج لإعادة النظر.

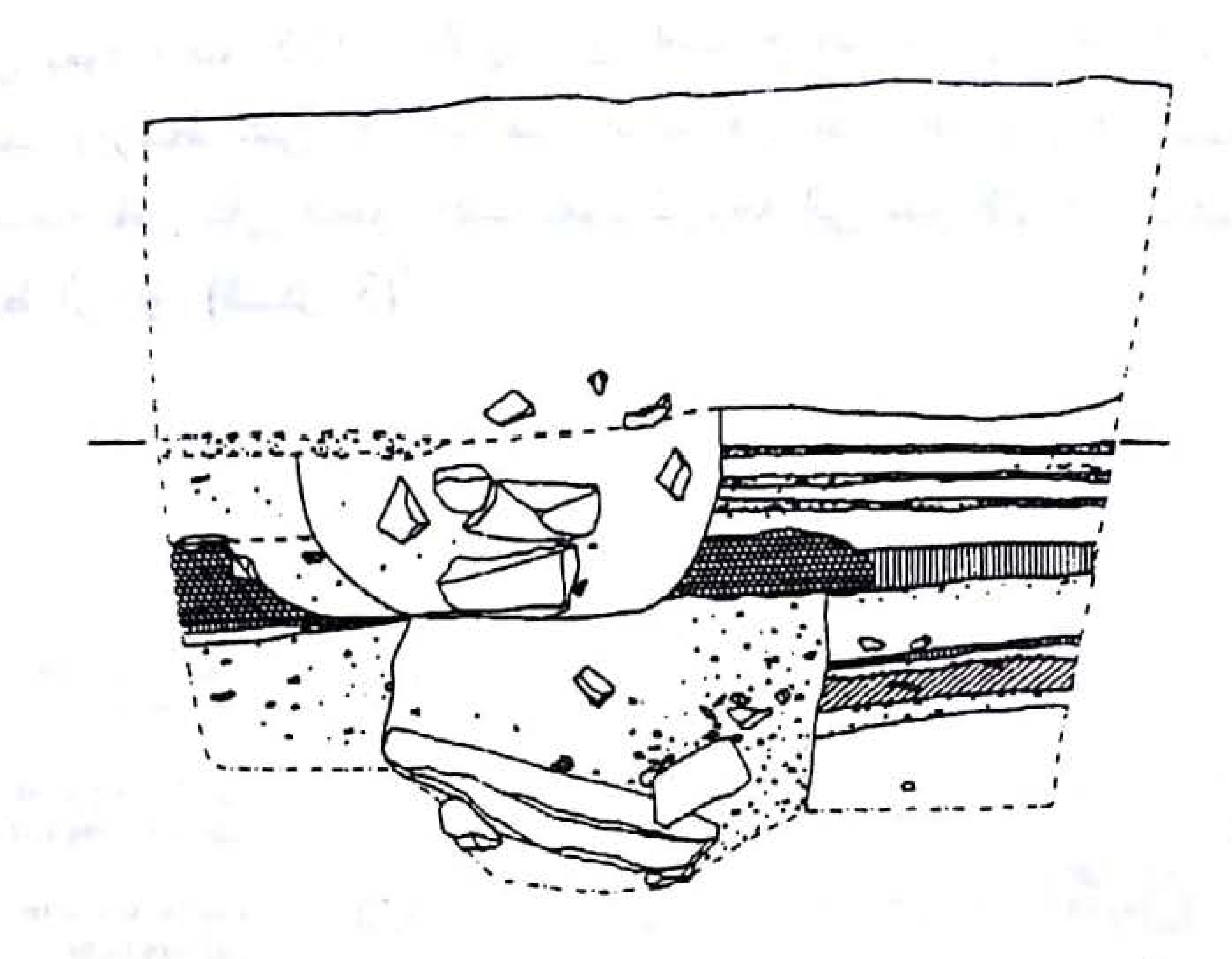
إن أعمال التنقيب التي جرت على كامل الباب الشمالي، وعلى طول خمس مسافات فاصلة بين الأعمدة، وحفر الاختبار الصغيرة الواقعة عند تقاطع شارع الأعمدة مع الشارع المسمى فلافيوس ديوجين Flavius Diogène الذي يمتد بين البازيليك والبيت المنقب حديثاً من قبل البعثة البولونية، قد سمحت بالحصول على ملاحظة دقيقة لبنية هذا القطاع وتسلسله الزمني (الشكل 1).

لقد بينت أعمال التنقيب أن أرضية شارع الأعمدة قد كانت مكسية بطبقة من الحصى الكلسية المرممة مراراً.

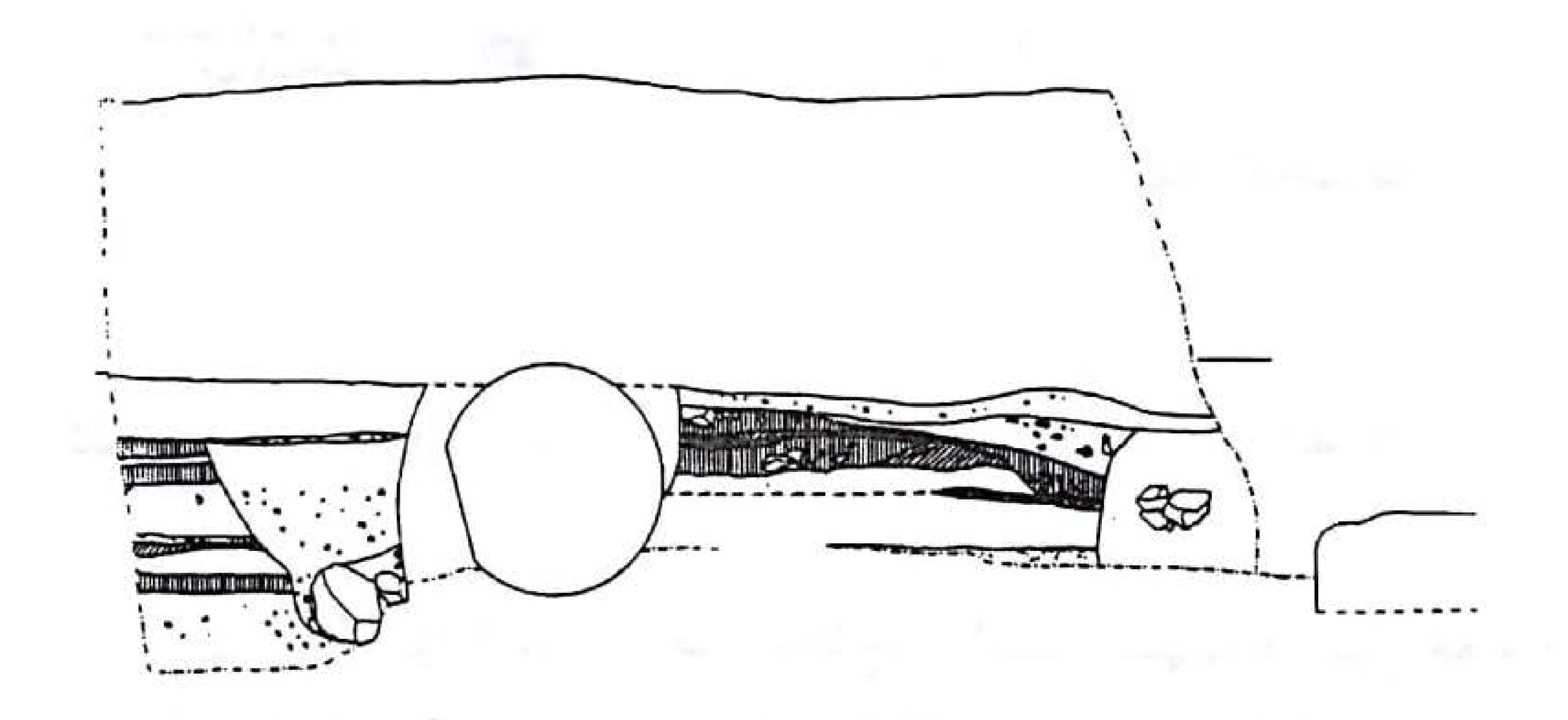
وقد تمت إعادة فرش هذا الشارع واستخدم حتى نهاية القرن السادس الميلادي (الشكل 2) بعد الغزو الذي قام به أورليان Aurelien في عام 272 م والذي ترك وراءه طبقة سميكة من الرماد.



الشكل 1: مخطط بوابة شارع الأعمدة في الحي الغربي، مع الرصيف العائد للقرن الثاني (I)، وبلاط القرن الرابع، والمتاجر الأموية (A1، A2) ومحيط المتاجر القديمة (A1، A2، A3، A4، A5، A6). إن موقع الحفرة الاختبارية الستراتيغرانية غير مبين (رسم ج. ماجشيريك G. Majcherek) PAMIX/ 1997



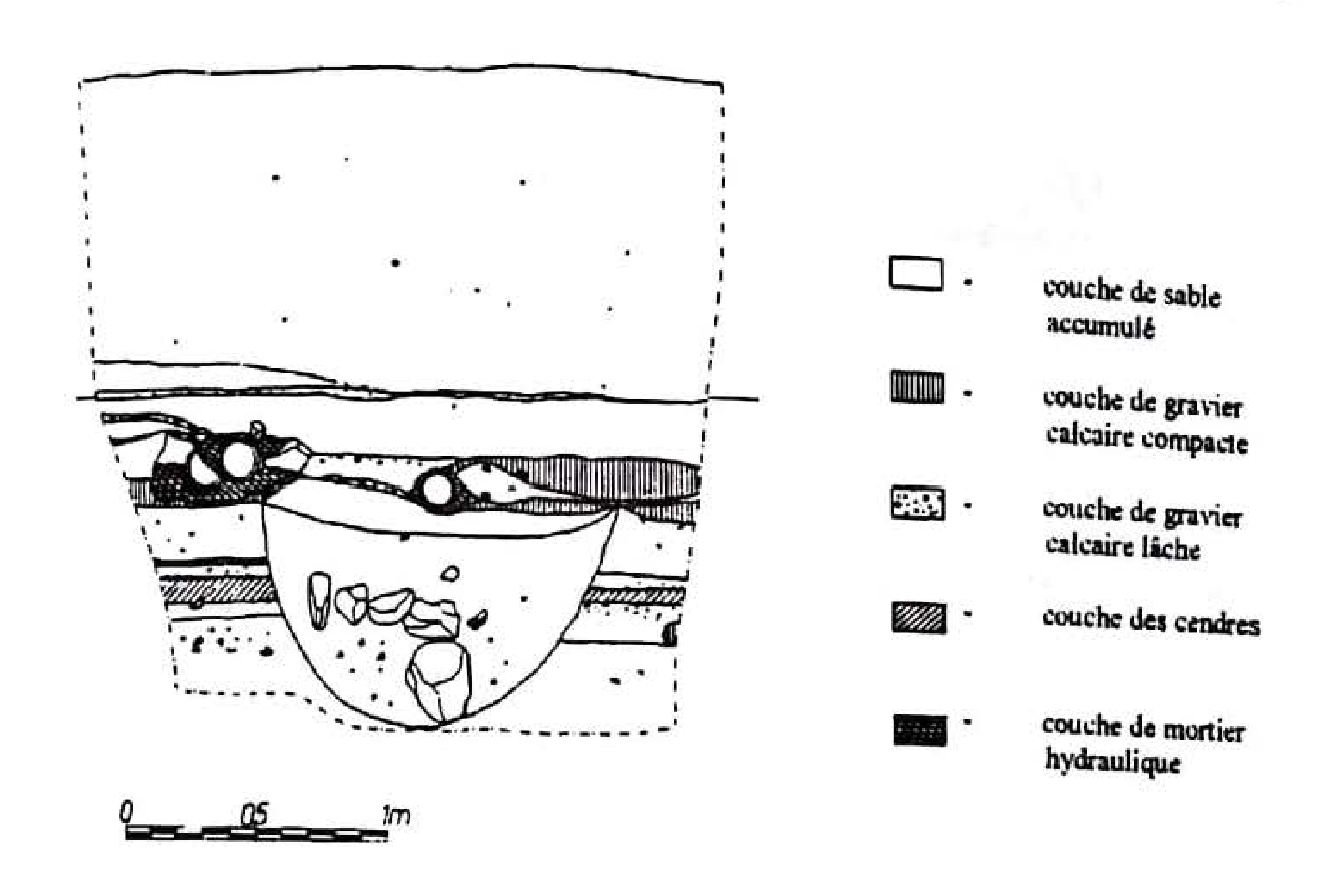
الشكل 2a: مقطع شمالي جنوبي في حفرة الاختبار (على طول شارع فلافيوس ديوجين)



الشكل 2b: مقطع جنوبي شمالي في حفرة الاختبار (عبر شارع الأعمدة)

كان الجزء الشمالي من الشارع مشغولاً ،على طول الرواق الشمالي، برصيف يبلغ عرضه 1.4 م، مصنوع من بلاطات كبيرة من الكلس والمنحوتة بشكل جيد. إن الطبقة الأولى من كسوة الشارع بالإضافة إلى الرصيف معاصرة تقريباً لبناء الرواق في هذا القطاع، وهو مُؤرخ بواسطة

نقش يعود للعام 158 ميلادي[1]. إن إصلاح هذه الكسوة بعد غزو أورليان حديث ويرتبط على الأغلب ببناء الباب في هذا القطاع (وهو أيضاً مؤرخ بواسطة نقش على العمود نفسه يعود تاريخه إلى عام 328)[2] ومعاصر أيضاً لبلاط الرواق (الشكل 3)[3].



الشكل 2c: مقطع شرقي – غربي في حفرة الاختبار (على طول شارع الأعمدة)

يبدو في بادئ الأمر أن هذا القطاع، ولأسباب نجهلها قد تلقى معاملة خاصة. ومع ذلك فإن تقرير فيناند Wiegand يذكر بوجود ثلاث طبقات من الحصى الكلسي في وسط شارع الأعمدة بالقرب من المسرح، بالإضافة إلى بلاط في الرواق الجنوبي مشابه لذلك الموجود في قطاعنا[4].

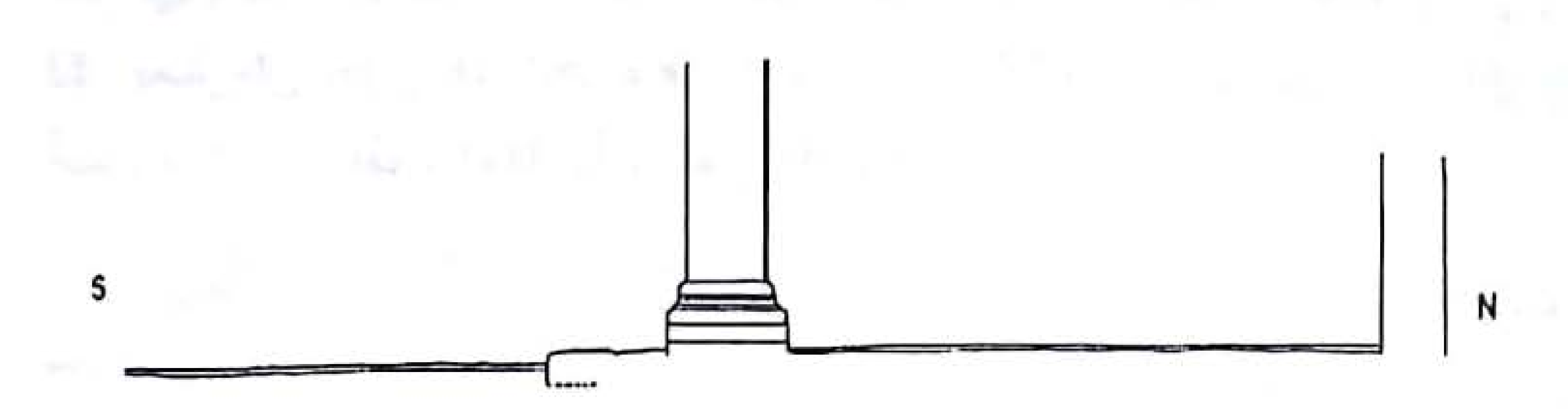
---

[1] J. Cantine au, *Inventaire des inscriptions de Palmyre*, fasc. III, n 26.

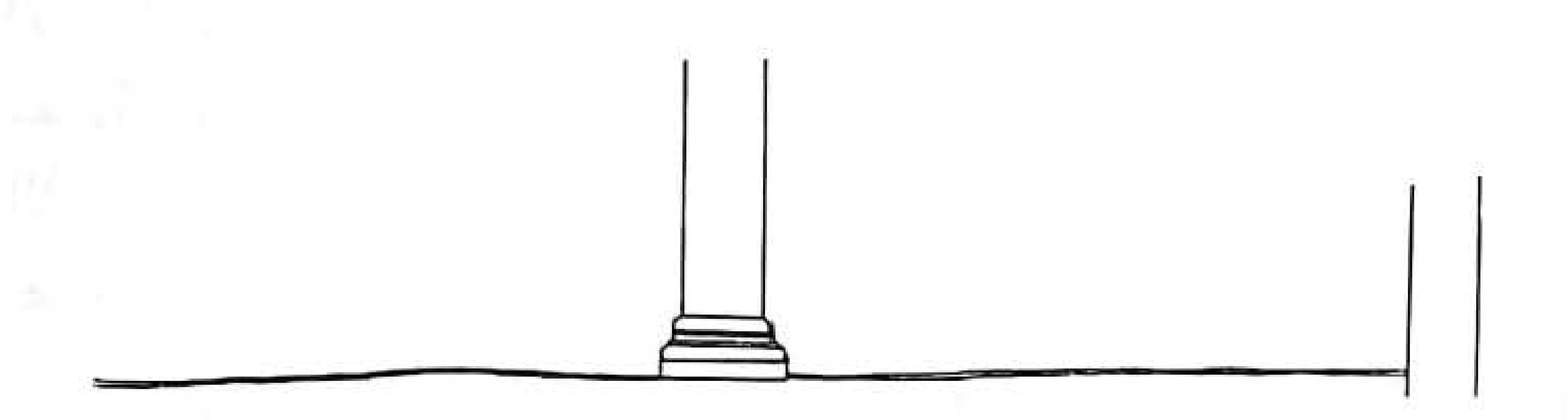
[2] Ibidem, n 27.

[3] «Polish Archeological Mission in the Mediterranean», *PAM VIII/* 1996, p. 193-194, *PAM IX/* 1997, p. 209.

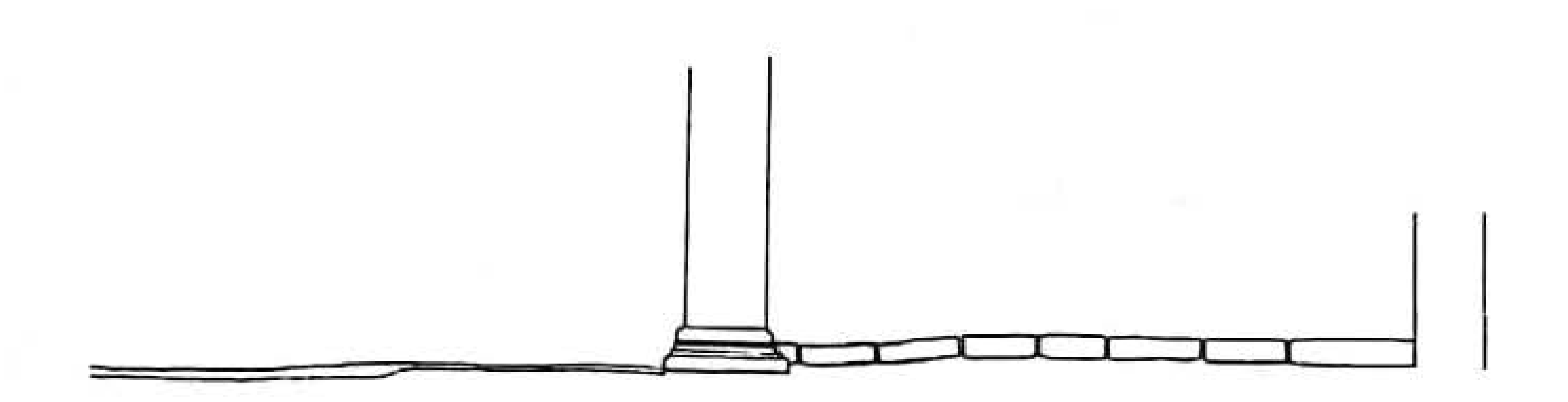
[4] The Wiegand, *Palmyra, Ergebnisse der Expeditionen von 1902 und 1917*, Berlin 1932, p. 21-30.



Niveau de IIe siecle.



Niveau de la fin de IIIe siecle.



Niveau de IVe siecle.

الشكل 3: إعادة تصور للبنية الطبقية للبوابة الشمالية ولشارع الأعمدة في قطاعه الغربي بالقرب من البازيليك.

إن هذه الكسوة المعتنى بها جيداً للشارع الرئيسي في المدينة تفترض وجود وظيفة هامة لهذا الشارع في الحياة اليومية في تدمر، والذي يميزه عن كافة الشوارع الأخرى في المدينة. إننا نعرف أن الشوارع في الجزء الشمالي الغربي من المدينة قد كانت مغطاة بكسوة شبيهة بالتي وجدت بقاياها في

شارع ديوجن Diogene بالإضافة إلى الشارع الموازي له من جهة الشـرق. لكن يمكن أن يكون هذا الجزء من المدينة استثنائياً من جميع الجوانب، لأنـه أسس بعد زمن طويل مقارنة بالشوارع الأخرى.

إن الشارع والأروقة في القطاع الغربي من شارع الأعمدة ليست فقـط مبنية ومنظمة بعناية خاصة. وإنما الفضاء الموجود بيـن خلفيـة المحـلات التجارية في الرواق والأبنية الواقعة شماله أوسع مما هـو فـي القطـاعين الآخرين، وهو متسع كفاية لإنشاء شارع ثانوي. إذن، لقد بُنيت هـذه الأبنيـة على الأغلب بعد الأروقة، أو في الوقت نفسه. ومن المؤكد تقريباً أن شـارع الأعمدة في قطاعه الغربي قد رسم فوق الأرض البكر، وربما بعد حسـابات مغرية، على استقامة السور الأول لتدمر، كما حصل من قبل بالنسبة لشـارع الأعمدة العرضي[5]. ونعرف من خلال النقوش الكتابية أن هذا القطاع أقدم من غيره، ولكن كل شيء يشير إلى أنه لم ينته قبل القطاعين الأخيرين، وحتـى أنه لم يكن موجوداً قبلهما قط. ويمكن أن نتفحص، من أجـل إثبـات ذلـك، التقنية والتزيين المعماري بالإضافة إلى النقوش الكتابية.

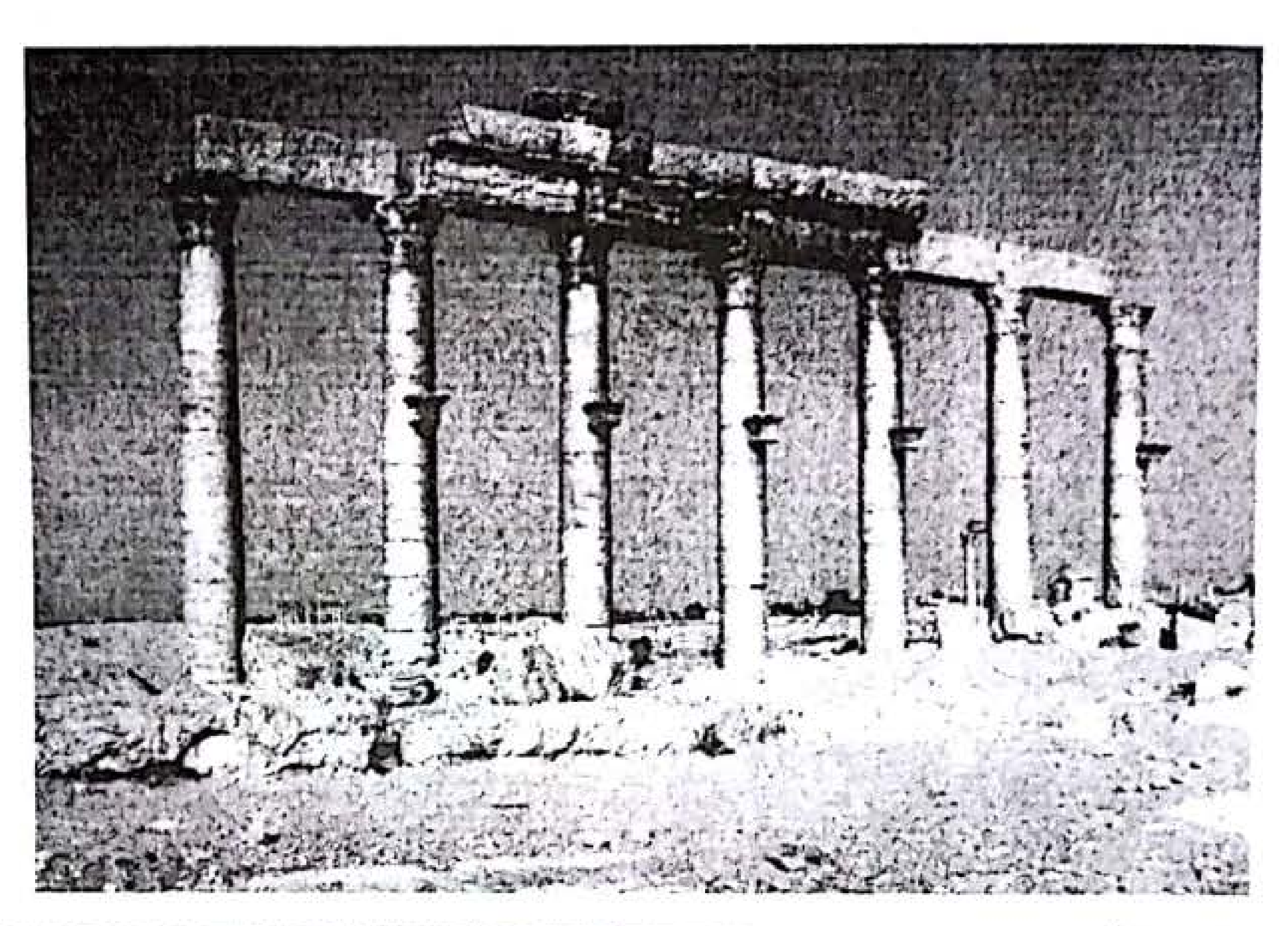
إن جذوع الأعمدة في القطاع الغربـي قـد نصبـت بحسـب تقنيتيـن مختلفتين. فالأعمدة العائدة للنمط الأول مكونة من 5، 6، 7 أو 8 أسـطوانات ذات ارتفاعات مختلفة (الشكل 4). وفي المقابل هناك أعمدة مكونة من أربـع أسطوانات منتظمة الأبعاد، وهـي بالتـأكيد نصـف مصنعـة فـي المقلـع (الشكل 5). أما التقنية الثانية فهي أكثر فعالية من أجل الإنتاج الكبير من أجـل نحت الأعمدة ذات الارتفاع الواحد والقطر الواحد. يمكن إذاً أن نفترض أنـها أحدث من الأولى وأنها قد استخدمت من أجل تنشيط العمل[6]. ونلاحـظ فـي القطاعين الآخرين من شارع الأعمـدة أن التقنيـة الثانيـة هـي الوحيـدة المستعملة. ومع ذلك، وإذا أخذنا بالحسبان هاتين التقنيتين، ووضعية الأنمـاط الثلاثة من التيجان التي نشاهدها في القطاعات الثلاثة من شـارع الأعمـدة (الشكل 6)، وأخيراً النقوش الكتابية، نلاحظ أن بعض الأجزاء مـن القطـاع الغربي قد بنيت في الوقت نفسه الذي بني فيه القطاعان الآخران. إن الجـزء

---

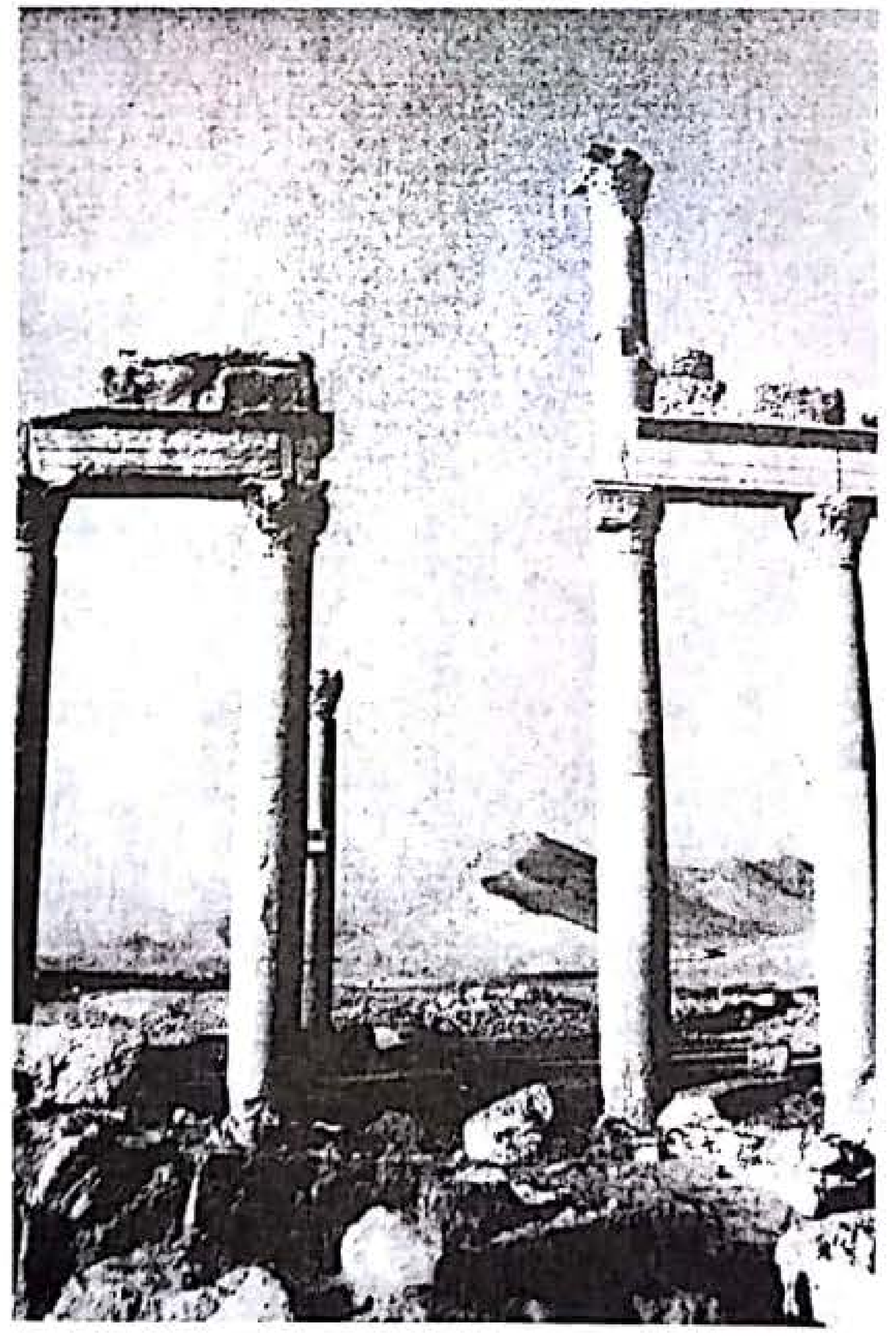
[5] M. Gawlikowski, «Le temple palmyrenien», *Palmyre VI*, Warszawa 1973, p. 15-16.

[6] M. Barasnki, «The Great Colonnade of Palmyra Reconsidered», *ARAM VII*, 1995, p. 37-46.

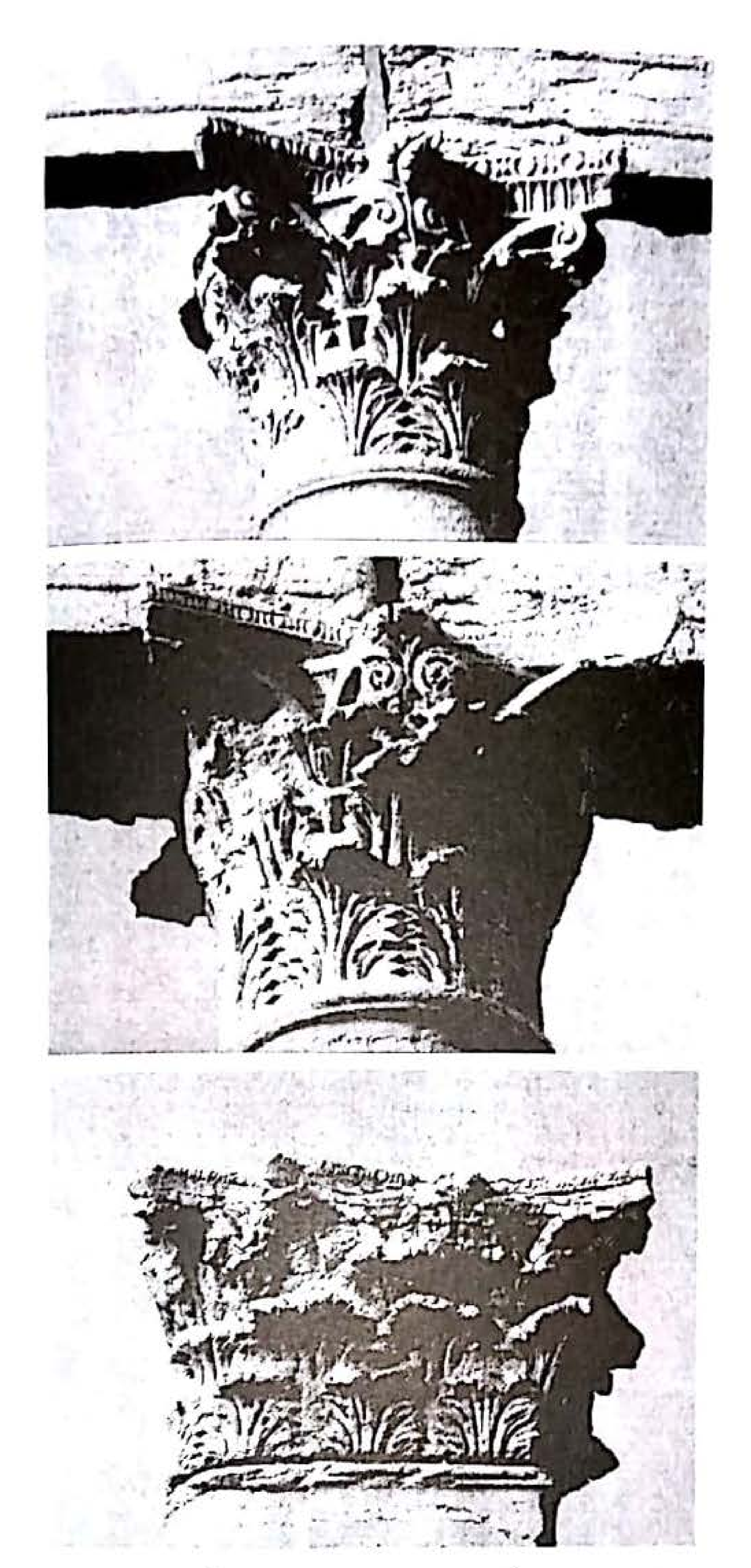
الشرقي من القطاع الغربي، الذي يبلغ طوله 200 م تقريباً والذي شغله السوق العربي في القرن الثامن، يؤكد أن المرحلة الأولى من البناء لم تنته قط: إنها لا تتضمن سوى قواعد ووطائد غير مكتملة بعد (الشكل 7).



الشكل 4: الأعمدة المنصوبة بحسب التقنية الأولى 5 أو 6 أسطوانات.



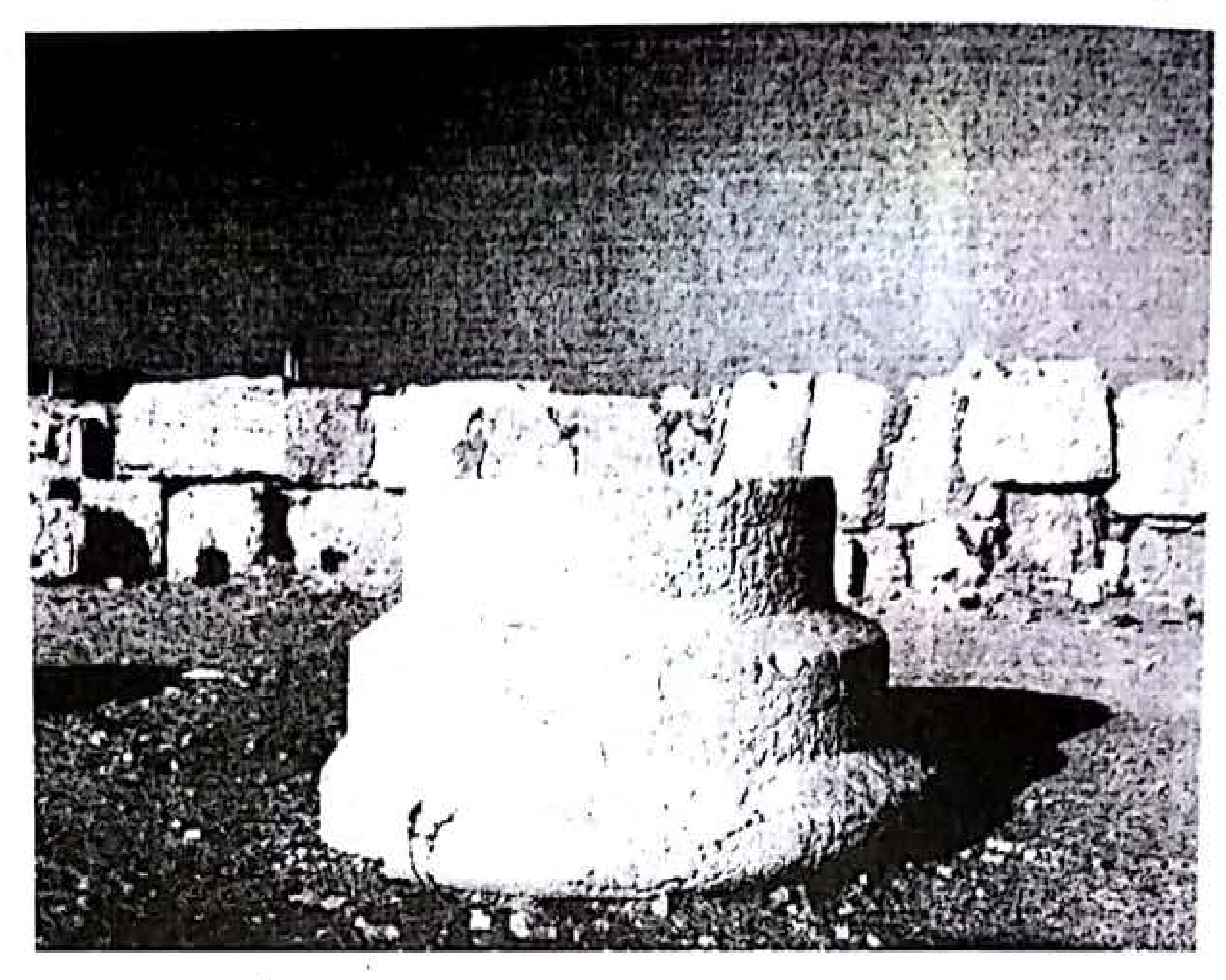
الشكل 5: الأعمدة المنصوبة بحسب التقنية الثانية، المكونة من أربع أسطوانات.



الشكل 6: ثلاثة أنماط من تيجان شارع الأعمدة في تدمر.

يمكن أن تبدو هذه الملاحظة مدهشة، فمن المعروف أن بناء القطاعين الآخرين كان أكثر صعوبة بكثير، بسبب الأبنية الموجودة من قبل في الجزء الشرقي من المدينة، في حين أنه كان أبسط بالطبع من أن تبنى الأروقة فوق أرض بكر. وربما بسبب هذه العوائق لم يكتمل بناء هذا القطاع أبداً. لكن هذه

الثغرة في البناء، غير الطولي، قد نتجت عن التبدل في الفكرة الأساسية للعمران في تدمر.



الشكل 7: قاعدة مكتملة عثر عليها في القطاع الغربي من شارع الأعمدة الطويل في تدمر

كان بناء القطاع الغربي من شارع الأعمدة مرتبطاً على الأغلب بتنظيم الحي الشمالي الغربي في تدمر. حتى وإن لم يكن شارع الأعمدة قد أنشئ فوق آثار السور القديم، فيمكن الافتراض بأن الحي الشمالي لم يكن موجوداً قبل النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد.

يمكن ملاحظة أن التربيع في هذا الحي أكثر انتظاماً من الأجزاء الأخرى في المدينة، وهنا فقط نجد أن الأروقة بحوانيتها والشارع الثانوي خلفها قد أنشئت بشكل كامل. وقبل أن ينتهي بناء هذا القطاع، ظهر مشروع جديد لتنظيم مركز المدينة الواسع، بالإضافة إلى شارع الأعمدة الطويل ذي الأروقة، والقوس الكبير ورباعي الأعمدة Tetrapyle، مع المسرح والحمامات، والمتاجر والمصاطب وكل تلك الروعة لهذه العمارة التي تعود للعهد السيفيري.

كان يجب من أجل خلق هذا المركز إعادة تنظيم الحي الجنوبي الشرقي. ولم يبق من التنظيم العمراني القديم سوى مجمع الآغورا مع جزء

من الشارع الذي كان يربط في الأصل على الأغلب بين البابين الشمالي والجنوبي للمدينة. وقد تقلصت المساحة المخصصة لصحن المعبد Temenos في معبد نبو، وبنيت أبنية جديدة مثل المسرح والمعبد الأمبراطوري Cesareum، وأعيد بناء المنازل الجنوبية الشرقية لإفساح المجال إلى فرع شارع الأعمدة الذي يؤدي إلى معبد بل. إن الشارع الموصول بشارع الأعمدة الطويل في الجنوب مرتبط بمجمع المسرح ويسمح بالاتصال بين المركز الجديد والمدينة القديمة في الجنوب على الضفة الأخرى من الوادي، حيث لم يبق سوى عمودين تكريميين يعود تاريخهما إلى عامي 74 و 139 بعد الميلاد[7].

يمكن افتراض أن بنية هذا الحي كانت منظمة على محورين: من جهة، الشارع الذي يقود من الشمال نحو الجنوب، ذاك الذي اندمج مع مجمع المسرح بعد بناء المركز الجديد، ومن جهة أخرى، وكما اقترح د. فان برشم D. Van Berchem ، الشارع الذي يصل معبد بل بنبع إفقا، الذي لم يبق منه أي أثر[8]، والذي يفترض وجوده اتجاه مداخل معبد بل. إننا نجهل أهمية هذين الشارعين. كم كان عرضهما؟ هل كانا مستقيمين؟ هل كانا مكسوين على غرار أزقة الحي الغربي؟ هل كانت التقاطعات تتميز بوجود مساحات واسعة تحيط بها الأعمدة، الأمر الذي يفترضه لنا العمود التكريمي على الضفة الجنوبية من الوادي؟

وبعد بناء هذا المركز الجديد، نجد شارعين كانا يؤديان إلى معبد بل، والذي ربما يفسر غياب الأعمدة في شارع الأعمدة الطويل بالقرب تماماً من مداخل قدس الأقداس في معبد بل. ويمكن تخيل أن الشارعين الكبيرين كانا يلتقيان عند الساحة الواسعة أمام قدس الأقداس وهكذا أصبح الاتصال بين مركز المدينة الواسع والأحياء القديمة مضموناً.

لقد كانت أعمدة شارع الأعمدة تهدى مع تتالي الزمن من قبل

---

[7] Syria 14, 1933, str 175.

[8] D. Van Berchem, «Le plan de Palmyre», *Palmyre: Bilan et Perspectives, Colloque de Strasbourg (october 1973)* Strasbourg 1976, p. 165-173.

الأشراف: وتؤكد النقوش المكتوبة هذه الهبات. وبعد بدء الأعمال في مركز المدينة الكبير، أصبح مهما بالنسبة لهم أن يقدموا الأعمدة لهذا المركز، بدلا من الحي الغربي، ذي الصفة السكنية والأقل ارتيادا بلا شك من الزوار الأجانب. لقد كان على المركز أن يؤمن ليس فقط الوظائف الأساسية، وإنما أن يصبح الحي الواسع في المدينة الجديدة. يمكن لهذه الأسباب أن تفسر لماذا فضل الواهبون شارع الأعمدة ولماذا لم ينته القسم الذي بدئ بإنشائه في البداية. من جهة أخرى فمن بين كل هذه الأبنية الضخمة، المؤسسة في آن واحد تقريبا، لم ينته فعلا سوى القليل منها: فلا المسرح ولا الأروقة، ولا الحوانيت على طرفي شارع الأعمدة الطويل لم تكن قد انتهت. لقد أوقف غزو أوريليان الحماس، وحتى إن كانت هناك نقوش كتابية تذكر أعمال أنجزت في عام 279 ميلادية[9]، فهي محدودة عمليا. وفيما بعد اقتصرت معظم الأعمال على الإكساء وعلى تنظيم قنوات الصرف في الشارع الرئيسي. إن هذا الجزء من المدينة، وعلى الرغم من عدم اكتمال بنائه، قد ظل حيا أكثر من غيره ضمن سور ديوكلسيان المصغر ، لكي ينعش خيال الرحالة بدءا من القرن السادس عشر وحتى أيامنا هذه.

[9] K. As'ad, M. Gawlikowski, «New Honorific Inscriptions in the Great Colonnade of Palmyra», *AAAS XXXVI,* 1986, p. 164-171; inscriptions n 7 et 8, p. 167-168.

تدمر، مدينة الحج

عدنان البني

المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية

لقد وصف م. روستوفتسيف M. Rostovtzeff تدمر بـ «مدينة القوافل»[1]. ولقد استقبل الاختصاصيون هذا الاسم المتعلق بتدمر بالترحيب. وهو مستخدم في سائر المنشورات المتعلقة بتدمر تقريباً، ولقد استخدمته بنفسي في مناسبات عديدة. إننا نقدر دوماً نشاط القوافل في مدينة تدمر، لا سيما في القرن الميلادي الثاني، بالرغم من الغياب الكلي تقريباً لعبادة إله القوافل شيخ القوم أو لآلهة مشابهة[2]. وفي الواقع، بما أن القوافل بكل أنواعها كانت الوسيلة الوحيدة في الماضي القديم لتخديم المراكز العمرانية، يمكن اعتبار كل المدن غير الواقعة على شاطئ البحر مدن قوافل.

ولا نريد أن نقلل من دور القوافل والتجارة البعيدة في ثراء تدمر وعدد كبير من سكانها، إنما نرغب بلفت الانتباه إلى الحج الذي كان عنصراً هاماً في النهضة الاقتصادية لمدينة تدمر التي يجب أن تسمى أيضاً مدينة مقدسة، مدينة الحج.

كانت هذه المدينة ذات التاريخ الممتد لآلاف السنين تملك في عام 41 قبل الميلاد ثروة، قد دفعت عضو الحكم الثلاثي* مارك أنطوان إلى محاولة

---

[1] M. Rostovtzeff, *Caravan cities, translated by D. and T. Talbot Rice*, Oxford 1932. Il s'agit de Palmyre, Doura-Europos, Gerasa et Petra. D. Schlumberger refuse l'application à Doura et à Gerasa; voir E. Will, *Les Palmyréiens*, Paris 1992 p. 57.

[2] إن شيخ القوم مذكور مرة واحدة فقط في تذكرة معدنية لدخول المسرح. Ingholt, Seyrig, Starcky et Caquot, *Recueil des tessères de Palmyre*, BAH, Paris 1955 n 332 et p. 183. ... وهو مذكور أيضاً مرة واحدة فقط في نقش كتابي تدمري (CIS II 3973).

* الثالث: أحد ثلاثة حكام في روما القديمة. (المترجم).

نهب المدينة بواسطة فرسانه، لكنه لم ينجح بذلك. وفي عام 32 بعد الميلاد، كانت تدمر تملك أحد أعظم المعابد في المشرق الذي تولى تشييده مواطن واحد يدعى لشمش بن تيبول بن سكيبل من قبيلة بني كمارا.

من أين جاءت ثروة كهذه؟ الجواب التقليدي يعيدنا إلى نشاط القوافل، ولا شك أنه عنصر هام، لكن هل يكفي في مطلع القرن الأول الميلادي، عندما كان الأنباط، بحسب تعبير القس جان ستاركي Jean Starcky، رواد الصحراء[3].

وفي مقالة هامة عنوانها «التجار وقادة القوافل في تدمر» لأرنست ويل Ernest Will، يعتقد الكاتب بوجود مصدر آخر لثراء التدمريين. وقد اندهش من ثراء بعضهم والمكانة التي يحتلونها في نشاط القوافل التي تحتاج إلى «المال، والأشخاص، والحيوانات». فاعتبر أن منطقة تدمر الشمالية الغربية، التي استكشفها دانييل شلومبرجه Daniel Schlumberger ، كانت مصدر هذه العناصر الثلاثة ويقول: «وهكذا فإن مدينة الصحراء قد خرجت من حالتها كجزيرة تائهة وسط الرمال وعثرت على رفد زراعي وحيواني، هو الوحيد الذي بمقدوره أن يمكنها من العيش»[4].

ومن يعرف جيداً المنطقة التدمرية الشمالية الغربية ــ منطقة شبه جافة ومعدومة من الموارد المائية باستثناء بعض الآبار وآبار الجمع، وبراري طبيعية ربيعية، وأشجار البطم ــ لا يعتقد أن الوضع كان مغايراً تماماً في الماضي القديم. ودون أن نسعى للإقلال من أهمية دور الريف في ازدهار المدن، فإننا نعتقد أن الريف التدمري لم يكن يلعب دوراً كبيراً بالنسبة لتدمر. إن المناهج الحديثة لعلم الآثار البيئي يمكن أن تخبرنا إن كان حقاً ريف تدمر يملك فائضاً متوفراً لهذه المدينة. من جانب آخر، من المعروف جيداً أن تربية الخيل والجمال كانت مهنة البدو الرحل المنتشرين في البادية. فهم من كان يرتاد تدمر مصحوبين بقطعانهم من الغنم والجمال بالإضافة إلى خيولهم

---

[3] J. Starcky, *Palmyre*, Paris 1952, p. 70.

[4] E. Will, «Marchands et chefs de caravanes à Palmyre», *SYRIA* XXXIV, 1957, fasc. 1 et 2, p. 271.

الأصيلة، الضرورية في أوقات الحرب والسلم. كانوا يتمونــون فـي تدمـر ويزورون الأصدقاء ويرتادون المعابد.

تشبه تدمر بعض المراكز العامرة في شبه الجزيرة العربية التي كـانت، كما يقول ر. ب. سـيرجنت R. B. Serjeant، خـارج النزاعـات القبليـة، فأصبحت أماكن للحج، ولتقديم الأضاحي، وللقاءات وللتحكيم، في ظل رعايـة أسرة تدعمها قبيلة مجاورة[5].

يعتبر الحج من الناحية المبدئية عملاً دينياً، وهو أيضـاً سـوق ولقـاء ثقافي، فالحاج الورع هو غالباً مشترٍ جيد وبائع ماهر. ففـي فصـولِ الحـج يشتري المؤمنون حيوانات الأضاحي، وأولئك القادمون من الخارج ينشـطون الأسواق ويشغلون الخانات.

ونفتقد حالياً للوثائق المباشرة عن الحج في تدمر، ويمكـن للمعطيـات الأثرية أن تدعم وجهة نظرنا. إننا نتساءل عن الدوافع وراء بناء معبـد بـل بهذا الحجم الكبير ولأي سبب زود، بعد وقت قصير، بصحن Temenos ضلعه 200 × 200 م (40 هكتار)[6]، والذي كان محاطاً بدوره بثلاثة أروقة مزدوجـة ورواق رابع أعلى من الثلاثة. وبإمكان هذه الأروقة أن تأوي آلاف الحجـاج. إن هذا الفضاء لم يكن بالتأكيد مخصصاً لأن يستقبل، في مناسبات الأعيـاد، الجمهور المحلي لمدينة لم تكن تضم أكثر من أربعين ألف نسـمة، وتحتـوي على عشرة معابد. لم يوسّع المعبد لكي يستقبل أفراد القوافل العابرة التي لـم يكن عددهم يتجاوز المئة في كل مرة. ومن جهة أخرى، عندما تم توسيع معبد بل، لم يكن هناك حامية عسكرية تقيم في تدمر[7]. فلم يكن المؤمنون ليأتوا بعدد

---

[5] B. B. Sergeant, «Haram and Hawta: the Sacred Enclave in Arabia» in A. R. Badawi (ed.), *Melanges Taha Hussein*, Le Caire, 1962, p. 41-58. D'après Albert Hourani, *A History of Arab People*, 1991.

[6] كان معبد بل الحالي مشيدا فوق قمة تل اصطناعي في تدمر القديمة. وإلى الشرق مـن بنـاء المعبد، وعلى السفح الشرقي، بنيت على الأغلب في الوقت نفسه، قاعة بمقاعد اكتشفناها عـام 1996 عندما كنا أنا وزميلي ميشيل المقدسي نشرف على تدريب ميداني لطلاب جامعة دمشـق. لقد أزيل هذا الصرح وحل محله آخر، أكبر حجماً، ضمن مشروع تنظيم فناء معبد بل.

[7] هذه المسألة غير مدروسة بعد، انظر حول هذا الموضوع E. Will, *Les Palmyréniens*, op. cit., p. 47sq.

أكبر لو تم توسيع المعبد، لكن زيادة تدفق الحجاج هي التي استدعت توسيعه. أخيراً، أليس العدد الكبير للآلهة ومن ثم العدد المميز لأماكن العبادة، بيوت الآلهة، تأكيد لعدد الزوار الكبير، ومصدر قدومهم وأوثانهم؟

كانت تدمر في الماضي القديم مكاناً للحج وذلك للأسباب التالية:

1 ــ موقعها الجغرافي المركزي المتميز في بادية واسعة مفتوحة يقطنها البدو الرحل.

2 ــ ينابيعها، لا سيما نبع إفقا الذي كان نهراً صغيراً وغزيراً، وهو وراء أكبر واحة بين الفرات وشبه الجزيرة العربية.

3 ــ تاريخها الطويل وقدم تقاليدها الثقافية بالإضافة إلى مجمع أربابها (بانتيون) الذي كان يضم الآلهة الكبيرة لما بين الرافدين وللجزيرة العربية والتي كان عددها بحسب الأب جان ستاركي، لا يقل عن ستين إلهاً ثم ذكر أسمائها في التقدمات أو الصور على الصروح الأثرية[8].

4 ــ من بين المعابد المعروفة حالياً، هناك معبد بل والأرباب التابعين له الذي اعتبره دانييل شلومبرجه بمثابة المزار الوطني والمزار الفيديرالي لأربع قبائل (أفخاذ) تدمرية : بني كمرا، بني متبول، بني ميتع، بني معزين[9]. بعد ذلك المزار نعرف أيضاً معبد نبو الذي كشفناه بالتعاون مع نسيب صليبي، ومزار بعلشمين اللات، ومزار أرصو، ومناة، وبعل حمون، ويرحبول باعتباره إله نبع إفقا. وسيتم العثور على مزارات عديدة أخرى. وكانت أصنام بعض الآلهة مضافة إلى صاحب المعبد الموجود. وهكذا فقد عُثر على نقش لهرقل في مزار نبو، ونقش لشادرافا في مزار بعلشمين.

5 ــ السلام الذي حمته قبائل تدمر الأربعة (بنو كمرا، بنو متبول، بنو ميتع، بنو معزين) وحق اللجوء إلى المعابد (انظر النص الذي نقش على قدم الأسد في معبد اللات).

---

8 J. Starcky, op. cit, p. 85.

9 D. Schlumberger, «Les quatre tribus de Palmyre», *SYRIA*, XLVII, 1971 fasc. 1-2, p. 120.

6 ــ قدرة الاستيعاب الكبيرة للسكن في الخانات وتحت الخيم[10].

7 ــ وأخيراً وبشكل خاص حركة البيع والشراء والعقود التجارية.

وأخيراً، نرغب بذكر مقطع من مقالة جان كلود مارغرون عن المعابد السامية والمتعلق بموضوعنا: «المعبد السامي، كما يقال هو عنصر محرك للنشاط لأنه يشجع على الإنتاج الزراعي المنتظم، والمتنامي، فهو الموزع الأول للحوم بالإضافة إلى أن حاجته من المعدات العالية الأسعار، لأن لا شيء يغلو أبداً لتمجيد الرب، تفرض دينامية قوية غالباً على النشاطات التجارية، مادام الأمر يتعلق باقتناء المواد غير المتوفرة في البلد»[11].

---

10 Vior J.-M. Dentzer, «Khans ou casernes à Palmyre», *SYRIA*, TLXXI, 1994 fase. 1-2, surtout p. 102 sq.

11 J.-Cl. Margueron, «Sanctuaires sémitiques» dans *supplément au Dictionnaire de la Bible*, t. XI, p. 1255.

جرش وبيسان:
السلطة والحماية في المدن البيزنطية في بلاد الشام

هيغ كينيدي Hugh Kennedy

جامعة القديس أندروز ـ إنكلترا

لقد تطور فهمنا للمدن البيزنطية، أي التغيرات الحضرية وتطوراتها من منتصف القرن الثالث وحتى الفتوحات الإسلامية في الشام، ونما كثيراً إبان السنوات العشرين الماضية. فلأول مرة تقريباً صار علماء الآثار يدرسون تطورات ما بعد الفترة الكلاسيكية للمدن الكبيرة في المنطقة بهمة ونشاط. وفي مقالتي «من الحاضرة إلى المدينة»[1] (From Polis to Madina)، منذ أربعة عشر عاماً، حاولت تلخيص الخطوط العريضة للتطور من الحاضرة الكلاسيكية إلى المدينة الإسلامية. وأثبت بأن هذا الأمر لم كن تغييراً مفاجئاً ناجماً عن الفتوحات الإسلامية وإنما كان ذلك التنوع في التخطيط والنسيج العمراني نتيجة لعدد من التغيرات الاجتماعية والثقافية على مدى «فترة طويلة»، إذا ما استعملنا مصطلح برودل (Braudel) الشهير، من حوالي 250 م، وحتى حوالي 750 م.

وفي حين أعتقد أن معظم العلماء كانوا سيقبلون الآن بهذه المناقشة في أساسها، إلا أنه من الواضح أن كل مدينة تختلف عن الأخرى وأن التعميم بأن كل المدن تطورت بالطريقة نفسها يمكن أن يغطي فعلاً على تنوعات واختلافات هامة. وفي هذه المقالة، أريد مقارنة تطور مدينتين اثنتين، جرش (Gerasa)[2] في الأردن وبيسان (Scythopolis)[3] في فلسطين.

1 Past & Present, 106(1985), p. 3-27.

2 For Gerasa see. C. H. Kraeling, Gerasa : *City of the Decapolis* (New Havaen, 1938) ; F. Zayadine, ed., *Jerash Archaeological Project* vol. 1, 1981-3 (Amman, 1986), vol. 2, 1984-8 (Paris, IFAPO, 1989) ; J. Seigne, «Jerash romaine et byzant :

التاريخ المبكر لجرش غامض لكن ربما تأسست كحاضرة هلنستية في القرن الثاني قبل الميلاد. وربما كانت المستوطنة الأصلية مؤسسة على الأكروبول الصغير الواقع إلى الجنوب من المنطقة المسورة الحالية حيث تم تشييد معبد زيوس. وقد توسعت المدينة كثيراً إبان القرون الميلادية الثلاثة الأولى. وعلى أعتاب الأكروبول القديم تطورت ساحة عامة بيضوية الشكل، ومنها خرج ممر معمد عريض يذهب باتجاه الشمال، وبأسلوب كلاسيكي جميل، حل محل ذلك فيما بعد شارعان رئيسيان آخران (دوكومانوس) يذهبان شرقاً وغرباً منتجين بهذا الشكل تصميماً شبكياً بسيطاً. وتطور مركز عبادة ثان، هو معبد أرتيمس (Artemis)، ومعه درب احتفالية تصل من الضفة الشرقية للنهر، عبر الجسر ومدخل المعبد الرئيسي وصولاً إلى مذبح المعبد.

وحول مخطط العمل هذا جرى ترتيب وصف أبنية المدينة الضخمة التذكارية. واشتمل ذلك على مسرحين اثنين، واحد جنوبي واسع قرب معبد زيوس، وآخر أصغر شمالي ربما استعمل كمكان اجتماع لمجلس البلدة (Boule)، وكان هناك حمامان رائعان، واحد على كل جانب من جانبي النهر، ونافورة عمومية (nymphaeum) خلابة على الطريق الرئيسية ومكان إعاشة (macellum) أو سوق اللحم.

ومن الواضح أن جرش كانت بلدة ثرية جداً، ولا نستطيع أن نعرف كم من هذه الثروة أتى من التجارة وكم منها أتى من الأراضي الزراعية. وكانت مساحة المنطقة المحصورة داخل الأسوار تبلغ 85 هكتاراً تقريباً، وربما كان فيها، وهي في أوجها مع بداية القرن الثالث، مايزيد عن 20.000 نسمة[4]. غير أنها لم تكن مركزاً سياسياً. فلم تكن أبداً مقراً لحاكم ويبدو أنه لم يكن فيها حامية عسكرية. أما أبنية المدينة الرائعة فقد شيدها مواطنون بارزون

---

developpement urbain d'une ville provinciale byzantine», *Studies in the History and Archaeology of Jordan*, ed. S. Tell iv (Amman, 1992), 331-41 ; A. Uscatescu and M. Martin-Bueno, «The *Macellum* of Gerasa: from a market place to an industrial area», *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 307 (1997), 67-88.

3 For Scythopolis, Y. Tsafrir and G. Foerster, «Urbanism at Scythopolis-Bet Shean in the Fourth to Seventh Centuries», *Dumbarton Oaks Papers*, 51 (1997), 85-146 which effectively supersedse previous accounts.

4 See Kraeling. 12, using a coefficient of some 300 people per hectare, for which refer to Tsafrir and Foerster, 94.

جرى استذكار كرمهم بالتماثيل والنقوش[5].

وفي الأزمنة الغابرة المتأخرة، تغيرت جرش بعدة وسائل. فالشوارع العريضة المستقيمة تعرضت للغزو من قبل هياكل ثانوية وأصبحت أضيق. وهذا واضح على نحو خاص في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من كنيسة القديس ثيودور، في قلب المدينة، حيث تقلص الشارع ليصبح «زقاقاً مسوراً»[6]. والدرب الاحتفالية التي كانت تصل من الضفة الشرقية على جسر فوق النهر إلى معبد أرتيمس (Artemis) العظيم أهملت في الماضي ولم تعد مستعملة. وفي سنة 565، إن لم يكن أبكر من ذلك، سدت الطريق وغطي جزء منها بسقف، وبني محراب في وسط الدرب بحيث تحول ما كان شارعاً عاماً في السابق إلى كنيسة[7]. ويوفر ذلك توضيحاً بيناً بخصوص كيفية أن التخلي عن المعبد كان لها أثر رئيسي على مخطط شارع المدينة وكيف أن المساحات العامة عدلت لتخدم أهدافاً دينية أو خاصة. وليس هناك من دليل من جرش بخصوص تطور شوارع جديدة بنيت لأغراض محددة في الماضي، أو عن تعبيد وإصلاح الأخرى القائمة. وأية دروب عامة جديدة فهي حصيلة نمو عضوي، وليس تخطيطاً عمرانياً.

واستخدم المذبح المسور في معبد أرتيمس (Artemis)، بحلول القرن الخامس، لأفران الفخار عندما لم يعد البناء يقوم بوضوح بوظيفته كمعبد[8]. ومع قدوم المسيحية في القرن الرابع دخلت المعابد حيز الإهمال لكنها لم تهدم[9]. وبالطريقة نفسها أهملت المسارح وهجرت بالنتيجة وحلت محلها أفران الفخار. ومع أنه ليس لدينا دليل كاف للقول متى حدث ذلك بالضبط، لكن من المحتمل أن المسرحيات قد توقفت في القرن الخامس إن لم يكن أبكر من ذلك، بالتوافق بين اختفاء ثروات المدينة وعداء الكنيسة[10]. ولم يجر تقص

---

5. See Kraeling, 44 and the Inscriptions, 371-466, note specially the superb agonistic inscription from the South Theatre commemorating the wealth and generosity of Titus Flavius Gerrenus, ibid., 442-4.
6. Kraeling, 68, 289-94.
7. For the «Propylaea» church, Kraeling, 227-34. The date comes from a floor mosaic in a small diaconia by the street entrance but it is not clear whether this is the date of the building of the whole church.
8. Kraeling, 138.
9. For the preservation of temple buildings, and especially the porticoes which were considered important parts of the city scene, Tsafrir and Foerster, 108-11.
10. See Kennedy, «From Polis to Madina», 6-8.

أو تنقيب كامل لأي من حمامي جرش الكلاسيكيين العظيمين. إلا أن عدم وجود أية إشارة إلى ترميم حدث في الماضي المتأخر يوحي بأنهما توقفا عن الاستعمال: وربما، مرة أخرى، أدى فقدان ثروات المدينة إلى التخلي عن مرافق العيش الباهظة تلك. لكن وجدت حمامات جديدة شيدت في المدينة. ففي سنة 454 – 455، شيد قس بلاكوس (Placcus) حماماً جديداً. وقد تم ربط هذا الحمام بالكاتدرائية لكن مدخله كان مفتوحاً على الشارع العام برواق صغير معمد. وهذا يوحي بأنه كان حماماً عاماً وليس مخصصاً لرجال الإكليروس. ومقارنة بالحمام القديم، فهو أصغر بكثير، والبناء خشن، وأعيد استخدام الكثير من المواد المهدمة في بنائه، وحجراته صغيرة وليست قاعات فسيحة[11].

كان هناك حجم عظيم من النشاط العمراني في جرش في الماضي، بما في ذلك المنازل الأهلية، والحوانيت والحمامات التي سبق ذكرها، لكن الكنائس هي التي سادت، فوق كل شيء، على سائر المدينة. ولم يجر تأسيس هذه الكنائس في أماكن جانبية في أطراف المدينة، لكن في قلبها بالذات. أما الكاتدرائية فقد بنيت في القرن الرابع، تماماً خارج الشارع الرئيسي (Cardo) على أنقاض موقع معبد ديونيسيوس (Dionysius)، الذي أدخلت بعض أبنيته في الهيكل الجديد. بل واستفادت الكاتدرائية حتى من البوابة والدرج المؤدي من الشارع إلى المعبد، والذي يقود الآن إلى الكاتدرائية وأجنحة رجال الإكليروس المحيطة بها.

وشهد القرنان الخامس والسادس بناء سلسلة رائعة من الكنائس: الأنبياء والرسل والشهداء (464 – 465)، القديس تيودور (496)، كنيسة بروكوبيوس (Procopius) (526)، والقديس يوحنا المعمدان، والقديس جورج والقديسين قزما ودميان (529 – 533)، وكنيسة المعبد (Synagogue) (530)، وكنيسة القديسان بطرس وبولس وبروبيلا (565)، وأخيراً كنيسة القس جينيسوس (Genesius) (611).

توضح هذه الكنائس استمرارية ازدهار جرش في الماضي القديم. وربما جرى إعادة استخدام للمواد في الكثير من الحالات، لكن الفسيفساء التي

[11] Kraeling. 265-9.

زينت أرضياتها تظهر أن المهارات الصناعية والفنية لا تزال مزدهرة في المدينة. وعلى قدر ما تستطيع إخبارنا به النقوش، فإن رعاة هذه الأبنية كانوا إما من الإكليروس، مثل القس بلاكوس الذي بنى الحمامات والقس جينيسوس الذي بنى الكنيسة التي سميت الآن بحكم العادة باسمه، أو أفراداً خاصين جرى تدوين أسماء المتبرعين منهم وأحياناً رسمت صورهم. والرعاية الخاصة التي ميزت جرش الكلاسيكية لا تزال موجودة إلى حد ما، لكنها أصبحت موجهة الآن نحو بناء الكنائس أكثر مما هي موجهة نحو نسيج المدينة العام.

لقد تمت مناقشة التاريخ المعماري لبيسان في الأزمنة الغابرة المتأخرة بعناية من قبل سفرير Tsafrir وفورستر Foerster. إن تاريخ بيسان الحضري في الفترة الكلاسيكية كان، من عدة وجوه، مماثلاً لتاريخ جرش إلى حد كبير. وقد أسست، وهي المدينة الهلنستية، عند أقدام أكروبول قديم في القرن الثالث ق. م. وحققت إبان القرون الميلادية الثلاثة الأولى المآثر التي تتوقعها من مكان في مثل ازدهارها وشهرتها. وقد كانت، وهي التي بلغت مساحتها بعضاً من 70 – 80 هكتاراً وعدد سكانها ما بين 15000 – 18000 نسمة[12]، بلدة ذات حجم متوسط، شبيهة جداً بجرش من حيث الحجم وربما بعدد السكان. وتضمنت الأبنية شوارع معمدة، ومعابد في كل من مركز المدينة وفي الأكروبول، وباسيليكا دنيوية، وحمامين، ومسرحين، واحد كبير وآخر أوديون أصغر، وهيكل حوريات، ومضمار خيل خارج أسوار المدينة إلى الجنوب. وبغض النظر عن الاختلافات في الطبوغرافيا والتباينات المعمارية الثانوية، فإن جميع هذه الخصائص وجدت في جرش أيضاً. وكما هي الحال مع جرش أيضاً، فمن المثير للنظر أن الدور الرئيسي في تأمين كلفة هذه الأبنية الرائعة كان لكرم مواطنيها البارزين (The Philotimia).

وآذن القرنان الثالث والرابع بكل من تدهور النسيج العمراني للمدينة وتغيره. كانت المسيحية قد توطدت بشكل جيد إبان القرن الرابع وبدأ يجري التخلي عن المعابد واستخدامها لأغراض أخرى. وكان المنقبون في بيسان قادرين على تحديد تاريخ هذه العملية بثقة أكبر قليلاً مما كانت عليه الحال في جرش. ففي عام 363 دمر زلزال عظيم معظم المركز الكبير، وإنه لأمر

[12] Tsafrir and Foerster, 94.

هام معرفة أي الأبنية اختارت المدينة وحكامها لترميمها وأيها جرى إهمالـه. ويمكن إظهار أن معظم معبد مركز المدينة قد خرب قبل عام 404 م ولم يجر إصلاحه بعد ذلك[13]. بما في ذلك البوابة، التي تفتح على الشـارع الاحتفـالي المؤدي إلى معبد زيوس أكرايوس على الأكروبول. ويوحي ذلك بأن الطريقة الوثنية بالاحتفال قد هجرت بعد مقدم المسيحية وربما أن المعبد علـى قمـة التل، والذي تم تدمير بقاياه دون مبالاة على أيدي الآثاريين الأوائل، أصبـح مهملاً في الوقت نفسه أيضاً. إن التخلي عن الشارع الاحتفالي فـي جـرش، كما رأينا سابقاً، دل على أن البولبة قد حولت إلى كنيسة: أما في بيسان فيبـدو ببساطة أنها أغلقت وأهملت. وفي كلتا المدينتين: فإن نهاية الوثنية أدت إلـى تغيرات هامة في مخطط شوارع المدينـة. وبالمقابلـة، فـإن نهايـة هيكـل الحوريات، أي في ذات المنطقة من المدينة، قد رممه الحاكم أرتميـدوروس (Artemmidorus) حوالي عام 400، وجرى إصلاح الحمام الشرقي وتوسـيعه أيضاً في وقت متأخر من القرن الرابع.

وشهد القرن الخامس ومطلع السادس تجدد النشاط العمراني في بيسـان. وعدل مخطط الشوارع وشقت شوارع جديدة، ولو أن ذلك كان وفقاً لنمـوذج غير رسمي أكثر مما كان في السابق. والشارعان الأكثر أهمية هما الشـارع الذي وضعه الزعيم بلاديوس Palladius في وقت متأخر من القـرن الرابـع وأصلح في السادس. ويبدو أنه أصبح، بحوانيته التي اصطفت على جانبيـه، نقطة المركز التجارية الرئيسية في المدينة. وفيما بعد، أي في 516/515 تـم وضع قاعة وشارع سيلفانوس Silvanus بمساعدة هبـة مـن الامـبرطور. وحدثت تطورات أكثر في الفضاء العمراني عندما تم تشـييد سـاحة Sigma نصف دائرية على موقع الأوديون القديـم فـي أيـام القـاضي (Archon) ثيوسيبيوس Theosebius والبروتوس (Protos) مـارينوس Marinus سـنة 506–507 وبين 515 و 522 وضع القـس والقـاضي أوريسـتوس Orestes شارعاً جديداً ومصدر ماء في منطقة مضمار الخيل القديم، الذي أصبـح الآن منطقة سكنية[14].

13 Ibid., 109.
14 Ibid., for these developments, Tsafrir and Foerster, 104-5, 116-7.

ولم تقتصر التحسينات على مرافق العيش في المدينة على تطور الشوارع. فقد طور مجمع حمام رئيسي جديد خارج شارع بلاديوس. ويبدو أن هذا المشروع بدأ على يد القاضي سيفروس الكسندر سنة 500/499 واستمر طيلة الفترة المبكرة من القرن السادس. وكان مختلفاً بالكلية في ميزاته عن الحمامات المزدحمة المبنية بطريقة سيئة من بلاكوس في جرش. فقد كان حماماً ذا حجم كبير فيه قاعات واسعة ومداخل فسيحة: فقد بناه حكلم وليس قساً.

إن معظم أعمال البناء هذه كانت دنيوية تماماً في طبيعتها. فقد واجهت الحاجات التجارية للمدينة، لكنها فعلت أكثر من ذلك، وأظهرت اهتماماً متواصلاً بالمنظر العمراني. وكما كانت الحال مع مدن أخرى في المنطقة، فقد تمت المحافظة على مداخل وأعمدة المعابد المهجورة بسبب الاعتقاد بأنها كانت جزءاً هاماً من منظر المدينة[15].

وهناك تغير لافت للنظر في طبيعة الرعاية لهذا النشاط العمراني. إذ يبدو أن المتبرعين الخاصين قد اختفوا من المشهد[16]. فلم يعد الأغنياء والمميزون يسعون إلى تعزيز سمعتهم وحفظ ذكرياتهم عن طريق الهبات لتجميل المناخ العمراني. والأكثر غرابة ربما هو الغياب الكامل تقريباً لرعاية الأكليروس[17]. فهناك أمثلة عن دعم مالي امبراطوري، لكن من الواضح أنه كان، وفوق كل شيء، حكام المدن هم من كانوا المسؤولين عن الأبنية الجديدة. فهم الذين شقوا الشوارع الجديدة وطوروا حمامات جديدة أيضاً.

ومقارنة رئيسية بين جرش وبيسان تظهر الغياب الكامل تقريباً للبناء الأكليروسي في المركز الحضري لبيسان. ففي حين طورت جرش مجمعاً كاتدرائياً مع كنيستين في قلب مركز المدينة، إضافة إلى كنائسأخرى أصغر

---

15 Ibid., 111.

16 For the changing patronage of building in late antiquity, see the important article by Leah Di Segni, «The involvement of local, municipal and provincial authorities in urban building in late antique Palestine and Arabia», *The Roman and Byzantine Near East: some recent archaeological research. (Journal of Roman Archaeology, Supplementary series* 14), 312-32.

17 Tsafrir and Foerster note 119: two examples connected with the construction of a bath for lepers.

حجماً بالقرب من الأولى، لا نجد شيئاً مماثلاً في بيسان. فلم يتم اكتشاف أي شيء يمكن وصفه بالكاتدرائية، وأضخم كنيسة معروفة وأكثرها أهمية هي دير مريم العذراء المعزول في موضع ناء على الأطراف الشمالية للمنطقة المسورة.

وبينما تبدو جرش وبيسان كلتاهما كمكانين مزدحمين بالسكان ومزدهرتين نسبياً، حتى منتصف القرن السادس على الأقل، فإن هناك، في الحقيقة، تناقضاً واضحاً في تطور المدينتين في الأزمنة المتأخرة. لقد احتفظت بيسان بجانب المدينة الكلاسيكية ذات الشوارع الجديدة الجميلة والمباني العامة، بينما سيطرت الكنائس على جرش. وفي بيسان شق الحكام شوارع عريضة جديدة معمدة مع أرصفة مشاة مزينة بالفسيفساء على جانبيها. أما في جرش، فلم تكن الشوارع الجديدة أكثر من دروب واقتصرت الفسيفساء بشكل عام على أرضيات الكنائس. وفي بيسان أقيم مجمع حمام جديد رئيسي بحجم كبير وطور في حين كان الناس في جرش راضين بتسهيلات أهلية متواضعة وفرتها لهم حمامات بلاكوس، وأخرى بلا شك. وفي بيسان تعرض الأوديون، مقر مجلس المدينة المنقرض الآن على الأرجح، للهدم وجرى تجميل الموقع على شكل ساحة نصف دائرية، بينما تعرض كل من مسرحي جرش للتدهور بهدوء.

ويبدو أن تفسير هذه المفارقة كان تفسيراً سياسياً. فقد كانت بيسان عاصمة مقاطعة فلسطين، بينما كانت جرش مجرد بلدة إقليمية. وجرى تمويل الأبنية الجديدة في بيسان من قبل الحكام، الذين كانوا غالباً نواباً عاملين للامبراطور، كما في حالة شارع سيلفانوس (S ylvanus) الذي موله الامبراطور انستسيوس (Anastsius). وكانت تشريعات القرن الرابع، والتي كررها جوستنيان في القرن السادس، قد أوضحت أن الحاكم ملزم بالمحافظة على أبنية المدينة القائمة ويمنع عليه بناء أبنية جديدة باهظة التكاليف[18]. وقد تم الحفاظ على مثالية المدينة الكلاسيكية حية. وكما يظهر وصف بروكوبيوس (Procopius) لإعادة بناء أنطاكية من قبل الامبراطور جوستنيان، فإن فكرة المدينة الكلاسيكية كانت فكرة حية جداً. «لقد أقام فيها

[18] Di Segni, 317-8.

الممرات المسقوفة وساحات التجمع، قاسماً جميع وحدات السكن باستخدام الشوارع، وشق أقنية الماء، والنوافير وشبكة الصرف الصحي، التي تفتخر المدينة بها كلها الآن. وبنى فيها المسارح والحمامات، وزينها بكل الأبنية الأخرى التي يظهر بها ازدهار المدينة». وهناك خاصيتان لهذه الرواية المثالية حقاً تستحقان الذكر: الحكومة الامبراطورية مسؤولة، وفي حالة أنطاكية فإن الامبراطور نفسه هو المسؤول، عن المحافظة على النسيج العمراني، وليس هناك من ذكر للكنائس. أما قضاة (A rchontes) بيسان في الأزمنة الغابرة المتأخرة فكانوا يعملون بكل تأكيد بموجب التقليد الذي صاغه بروكوبيوس، للمحافظة على مكانة مدينتهم وجمالها. أما في جرش فلم يكن هناك، بالمقارنة، رعاية من جانب الحاكم أو الامبراطور، فكلفة الأبنية الجديدة كانت تدفعها الكنيسة والمواطنون الورعون الذين ساهموا في أبنية الكنيسة وزخرفتها. ولم يكن هناك من استثمار لهذا في النسيج العمومي للمدينة، وإن جميع جهود المواطنين كانت تتركز في عالم الكنائس الخفي شبه الخاص.

استدراك

لم يشهد النصف الثاني من القرن السادس أي بناء في بيسان على الإطلاق، وهذا يعكس ما نعرفه من المواقع الأخرى حول اختفاء الرعاية الحكومية منذ منتصف القرن السادس وفيما بعد ذلك. أما في جرش، وعلى العكس من ذلك، فقد استمر فيها تزيين الكنائس وبناؤها حتى بداية القرن السابع. لكن لا يبدو أنه كان للفتح الإسلامي في أي من المدينتين خرق رئيسي أو أنه ترك أي أثر آثاري. وفي الفترة الأموية شيدت أبنية جديدة، وتم اكتشاف نقوش مدهشة حديثاً في بيسان تظهر الخليفة هشاماً يأمر والي الأردن بإعادة بناء شارع سيلفانوس، تماماً كما فعل أنستسيوس قبل ذلك بمئتي سنة[19]. وفي كلتا المدينتين، فإن الزلزال الذي وقع سنة 749 وانهيار الخلافة الأموية هو الذي جاء بالنهاية الحقيقية للحياة الحضرية.

---

[19] Tsafrir and Foerster, 139.

أقاليم المدن في سورية الإسلامية

أرخبيل عمراني وسيطرة إقليمية

حواضر، أقاليم، ومقاطعات في التاريخ السوري القروسطي

تييري بيانكي Thierry Bianquis

جامعة ليون الثانية-فرنسا

تقدم هذه المداخلة، التي تتدرج ضمن ما يمكن أن ندعوه بالتاريخ التنافسي، تحليلاً عن دور المدن في التنظيم الإقليمي لبلاد الشام في القرون الوسطى. ولقد أوحت لنا النصوص القديمة المنشورة منذ زمن طويل، والتي تستحق أن تقرأ من جديد، بالعديد من التساؤلات الجديدة. ويمكن للأنموذج المقترح أن يتعرض للمعارضة إما من خلال النصوص أو الآثار التي يمكن أن تكون مجهولة وإما بسبب انسجامه المنطقي: وسيكون بالإمكان ربح الرهان إن أولى بعض الباحثين عناية خاصة بالمسائل المطروحة. إن الطريقة المتبعة تستدعي مروراً متكرراً من المستوى المحلي إلى المستوى الإقليمي لكي تصل إلى مجمل العالم الإسلامي، وسنذكر في البداية ببعض البديهيات حتى وإن كانت معروفة للكثير.

تندرج المدينة السورية ضمن شبكة وتدير إقليماً

تحتل سورية، رصيفاً، مضيقاً للعبور الإجباري بين أوروبا البلقانية أو القوقازية، وآسيا الصغرى، والجزيرة، والعراق، والخليج العربي، وشبه الجزيرة العربية، والبحر الأحمر ومصر. إن موقعها كعقدة مواصلات وغياب نهر كبير وأرض خصبة مستمرة بلا انقطاع، جعلها عبر التاريخ محط أنظار الطامعين أكثر منها مركزاً للسلطة. إذا وعلى الرغم من أن دمشق كانت عاصمة للإمبراطورية الإسلامية بين عامي 660 و 750، فقد كانت سورية بشكل عام مجالاً بينياً، تتنافس عليه دول قوية. تسيطر إحداها على وادي النيل والأخرى على شبكة الرافدين، دجلة والفرات، أما الثالثة فكانت تمتد في آسيا الصغرى والبلقان.

كانت تتقاطع في بلاد الشام محاور عديدة للمواصلات. ولقد كان التنقل بين الشمال ـ الشمال الشرقي والجنوب ـ الجنوب الغربي، وللتبسيط بين الشمال والجنوب، صعباً على طول الساحل في القرون الوسطى. فقد كانت الطريق مقطوعة بتضاريس تتعامد مع الساحل وتتقدم حتى البحر، وتجعلها معرضة دوماً لهجمات البحارة البيزنطيين حتى القرن العاشر، ثم سيطر عليها الفرنجة جزئياً أو كلياً بين عامي 1099 و 1280. وإلى الشرق كان إيجاد طريق مستمر يتبع خط المنخفض الأوسط : النجف ونهر الأردن والليطاني والعاصي، أمراً غير ممكنٍ بين بحيرة طبرية والبقاع الجنوبي بسبب العوائق التي توجد في الجنوب حيث كانت تنتشر في ذلك العصر أراضٍ مستنقعية، وبحيرات ومستنقعات مؤقتة، وفي الشمال بسبب وجود التضاريس.

لهذا السبب، وأبعد أيضاً نحو الشرق، كان يقع المحور الرئيسي للمواصلات الجنوبية الشمالية، حيث كان يتبع في معظم مساره أقدام الصف الثاني من الجبال المطلة على البادية، والهضاب العالية والجبال التي تطل على هذا المنخفض الواسع. كان العبور يتم بسهولة من غزة في فلسطين حتى بحيرة طبرية، ثم تدور الطريق بعد ذلك حول جبل حرمون من جهة الشرق مروراً بالجولان حيث تلتقي بالخط الشرقي الواصل من العقبة إلى عمان. ومن حوران تصل إلى دمشق ثم بعلبك وحمص وحماه ومعرة النعمان وحلب ومنبج وأنطاكية.

كان هذا المحور الأوسط يتقاطع مع محاور أخرى عمودية عليه وهامة أيضاً، تربط بين البر الآسيوي والبحر المتوسط. فقد كان هناك طرق قصيرة شرقية ـ غربية، ذات مسار تحدده ممرات ووهدات السلسلتين الجبليتين، تربط بين المحور القاري الشمالي الجنوبي إلى الموانئ الرئيسية على المتوسط: عسقلان، عكا، صور، صيدا، بيروت، جبيل، طرابلس، جبلة، اللاذقية، ونحو الشرق من أجل الوصول إلى العراق ومن ثم إلى أعماق آسيا. كانت هناك طرق تعبر البادية متفرعة عن المحور الرئيسي في عمان أو البصرة لتصل إلى الكوفة، وفي دمشق أو حمص لتصل إلى تدمر ومن ثم إلى الفرات ومن هناك إلى بغداد أو الخابور، وديار ربيعة والموصل ثم إلى إيران وأخيراً في

حلب ومنبج لتذهب إلى الفرات وديار مضر والرقة أو إلى ديار بكر والطريق إلى أرمينيا والقوقاز. لو رسمنا على الخارطة هذه الطرق، لحصلنا على ما يشبه حسكة السمكة، التي تتوضع المدن على تفرعاتها.

إذن، كان نجاح أية مدينة سورية عبر التاريخ مرتبطاً باندماجها في هذه الشبكة وبالتالي بسيطرتها على إحدى هذه الطرق، أو على محطة أو على عقدة مواصلات. كان يجب عليها أيضاً أن تنشأ في موقع مناسب مع ضمان التزود بالماء طوال السنة ووجود تضريس يمكن أن يبنى فوقه موقع دفاعي وأخيراً أن تملك في محيطها القريب إقليماً طبيعياً يغذيها ويحميها. لقد كانت الروابط القائمة بين المركز والبلدات القريبة منه متوازنة، فمن جهة كانت المدينة تحصل على غذائها وعائدلتها الضريبية والعقارية من هذا الإقليم، ومن جهة أخرى كانت تقدم له خدماتها وأسواقها، بالإضافة إلى الحماية التي تؤمنها أسوارها وحاميتها في حالة التهديد العسكري. لقد كانت النخبة المثقفة القروية تجد فيها فرصة للترقي الاجتماعي. أو في بعض الحالات كانت تشكل المدينة محطة إجبارية على طريق النجاح الثقافي في ميدان الفقه، والحديث أو الطب، على الطريق إلى مراكز أكثر شهرة. إن النماذج عن ترقي القرويين أو سكان المدن الجدد المتواضعين عديدة في دمشق والبلدات الرئيسية في الغوطة والمرج[1].

إن تنوع اتجاهات المحاور التجارية، التي تؤمن الوصول إلى القارات الثلاث والتي تتقاطع في سورية، قد ضاعف من عدد المواقع التي تقع عند تقاطع الطرق. إن هذا العامل الذي يضاف إليه وجود عدد من الأحواض الزراعية المحددة بشكل واضح وقليلة الاتساع ولكنها خصبة ومروية جيداً، قد سمح لعدد من التجمعات العمرانية المتوسطة أن تنمو وتكتسب هوية واضحة.

على الرغم من أن دمشق قد أكدت طوال هذه الفترة تخصصها في إدارة الحياة السياسية والثقافية في بلاد الشام، فليس هناك أي مركز عمراني كبير Mégapole استطاع أن يمارس سيطرته الاقتصادية والثقافية والسياسية

[1] انظر: Th. Bianquis, «Notables ou malandrins d'origine à Damas au IVe siècle de l'hegire», *BEO*, XXVI, 1973, p. 185-207.

على كامل بلاد الشام. ويفسر هذا التشتت العمراني الشخصية القويـة للمدن المتوسطة، الموزعة عبر الإقليم الصالح للزراعة، ولقد أعطت هـذه المدن لسورية القروسطية سمة خاصة في المشرق العربي، مختلفة كلياً عـن تلك التي يعرفها العراق أو مصر، هاتان المقاطعتان اللتان كان فيـهما الفضاء المزروع والمستقطب حول محور أو محورين للمواصلات، يـتركز حـول عاصمة قوية ومدينة كبيرة واحدة أو مدينتين. وفي العالم العربي القروسـطي لم تقدم سوى الأندلس غنىً وتنوعاً عمرانيا شبيهاً بسورية.

هل هناك وعي بالكيان السوري؟

لقد شكل الفتح الإسلامي خلال قرن واحد، 634 – 740، مجالاً سياسـياً موحداً واسعاً جداً، وكانت الدولة الإسلامية أكبر إمبراطورية تمتد على رقعـة واحدة وجدت في تاريخ البشرية. لقد انتشرت الثقافة الإسلامية بسرعة ضامّـة إليها أيضاً أولئك الذين قبلوا بالفتح دون اعتناق الإسـلام. ولا زال الإسـلام يسود في هذا الفضاء الواسع حتى أيامنا هذه باستثناء الأندلس. علماً أن البـلاد التي شملها الفتح كانت تنتمي من قبل إلى تقـاليد لغويـة ودينيـة وسياسـية واجتماعية متنوعة جداً. إن هذه التقاليد التي طغت عليها فـي بـادئ الأمـر الإيديولوجية الجديدة وانتشار اللغة العربية، عادت لتظهر فيما بعـد، معـبرة عن حدود قديمة ودائمة، انمحت في لحظة ما. فمنذ الثورة العباسـية، 747 – 750، بدأت بعض المقاطعات بالانفصال عـن السـلطة المركزيـة وعـادت المناطق الحدودية الكبيرة، الواقعة بين الإمبراطوريات الساسانية والرومانيـة الإغريقية في الشرق، والرومانية اللاتينية في الغرب، لتستعيد شـيئاً فشـيئاً دورها كمناطق للمواجهة – وفي الوقت الحاضر أيضاً تحدد هـذه الحـدود القديمة مجموعات كبيرة متجانسة نسبياً، أفريقيا الشمالية المنتميـة للمذهـب المالكي كانت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الغربية، أما المشرق العربـي والأناضول فقد كان جزءاً من الإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقية، وآسـيا التركية والإيرانية تنتميان بشكل أساسي للإمبراطورية الساسانية، وقبل ذلـك إلى العالم الهندي القديم.

يجب التركيز اليوم على تقسيم جغرافي أكثر دقة، يشـمل المقاطعـات

المختلفة التي كانت تكون إحدى هذه المجموعات الكبيرة وذلك من أجل طرح سؤالين. ففي المشرق العربي، الذي يغطي جزءاً كبيراً من الإمبراطورية الرومانية المشرقية القديمة بالإضافة إلى مقاطعة العراق المنتزعة من الإمبراطورية الساسانية ، هل كانت حدود المقاطعات، كما حددها العرب بعد الفتح لأسباب ضرائبية على الخصوص، تتبع الحدود الرومانية؟ وبإمكان الدراسات التي تقوم بها فرق متعددة الاختصاصات، تضم متخصصين بالعصر الروماني والبيزنطي والإيراني، ولا سيما تلك التي تجري في ألمانيا، بإمكانها أن تجيب عن هذا السؤال الأخير خلال عشرين سنة.

وينجم عما سبق تساؤل ثان. ففي المدينة حيث يقطن ملاك الأراضي الزراعية، الحرفيون والتجار، والمستثمرون الذين يديرون المنتجات الريفية ويمنحونها القيمة التي تستحقها، بالإضافة إلى عمال الضرائب، والقضاة وحامية عسكرية تضمن الممارسات الدينية الإسلامية، كانت الهوية المدنية للأفراد حاضرة بشكل قوي إن كان في النسب أم في الخطاب المألوف، ونجد تعبيراً جيداً عن ذلك في كتابات المقدسي أو عند ابن عساكر أو ابن العديم. ومع ذلك فمن الصعب تقدير مدى الوعي الذي يمكن أن يملكه المسلمون أو غير المسلمين بشأن الانتماء الإقليمي: العراق، الشام، الجزيرة، أرمينيا ومصر؟ فهل تشكل هذه المقاطعات مناطق بوسعها أن تمنح هوية حقيقية لقاطنيها؟ هل كانت هناك سمة وسيطة تميز بين اتساع العالم الإسلامي الكبير من جهة، الذي يصعب تحديده علمياً في ذلك العصر بسبب نقص الخرائط الواضحة، والقرب من الأقاليم العمرانية التي تحددها الوظائف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمدينة من جهة أخرى، وبشكل آخر هل القول بالانتماء إلى دمشق، وتينيس ، يعني أيضاً الشعور بالانتماء إلى سورية، أو مصر أو العراق وفي الوقت نفسه بالانتماء السني أو الشيعي أو اليهودي أو النسطوري؟ وبالنسبة لأهل الذمة المنظمين حول مسؤولين حضريين أو إقليميين. لقد كان الانتماء الإقليمي مؤكداً، لا سيما بالنسبة للمسيحيين، فالمسيحي القبطي كان يشعر في مصر أنه في بلده ، وكذلك الجورجي في أرمينيا واليعقوبي في سورية، والنسطوري في العراق. وعندما كان يذهب أحدهم للاستقرار في بلد آخر من بلدان العالم الإسلامي، كان يحافظ باستمرار على رباط وثيق مع موطنه وطائفته الأصلية. أما فيما يخص

اليهود، فإن الانتماء إلى مدارس دينية واضحة جغرافياً وإلى كنس معروفة كان يحافظ أيضاً على هوية جغرافية قوية وعلى التعلق بالبلد الأصلي. فعندما أصبح ابن كلس، الوزير الفاطمي ذو الأصل اليهودي العراقي اسماعيلياً في عهد الخليفة العزيز بأمر الله نحو عام 980، أحاط نفسه ببطانة من العراقيين اليهود بالطبع ولكن أيضاً من المسيحيين والسنة.

يخلق التمسك بالهوية الإقليمية لدى السنة، في القرون الوسطى، مشكلة إضافية للمؤرخين المعاصرين، إذ أنهم من حيث المبدأ كانوا في وطنهم في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي. ويمكن إعطاء جواب أولي، لكنه غامض جداً، من خلال خارطة انتشار المذاهب السنية. فالأندلس وشمال أفريقيا كانتا مسكونتان بأغلبهما بأتباع المذهب المالكي، ونجد أيضاً نسبة هامة منهم في مصر. وفي القرن الحادي عشر لم يبق أحد من أتباع هذا المذهب في سورية. وإن كان قد ظهر من جديد في دمشق في القرن الثاني عشر فذلك بسبب تدفق المهاجرين المسلمين الذين طردوا من إسبانيا بعد انتصار المسيحيين. وكانت الأغلبية في مصر وسورية من أتباع المذهب الشافعي الذي كان قوياً أيضاً في العراق وإيران وخراسان، وأوزبكستان التي كانت تضم أيضاً أتباع المذهب الحنفي. في حين أنه كان على المذهب الشافعي أن يجابه في بغداد ثقلاً حنبلياً ودولة تنتمي للمذهب المالكي. ولا نجد أتباعاً للمذهب الحنبلي في أماكن أخرى ما عدا في القدس ونابلس في فلسطين وفي المدينتين المقدستين في شبه الجزيرة العربية. وفي المدن ذات المذهب الواحد ذي السيطرة القوية، كالمالكي في الأندلس، والشافعي في دمشق، يعتبر الذهب الواحد من العناصر الهامة في تمييز الهوية الإقليمية، ومع ذلك فإن هذه المجموعات التي يمكن تعريف هويتها بفضل المذاهب أوسع من أن تجيب السؤال الذي طرحناه.

وفيما بعد، ومع انتشار الصوفية فإن توطن الطرق الصوفية قد نهج أيضاً نوعاً من المنطق الإقليمي الذي بدأ يُدرس ولكن بحسب معرفتي لم توضع بعد الخرائط التي تبين انتشاره الجغرافي بشكل واضح. لذلك يجب إعادة صياغة السؤال بشكل أدق. فإذا أخذنا بعين الاعتبار التعلق الكبير للسني العربي بمدينته الأصلية أو تلك التي تبنته. فهل هناك بالنسبة له بين هذه الهوية الحضرية القوية وهويته كمسلم، التي يتعامل معها بسهولة في

العالم الإسلامي الفسيح، نقطة علاّم إقليمية وسيطة؟ وإذا طرحنا الموضوع بشكل آخر يمكن القول : هل يملك مواطنان أحدهما من تينيس في الدلتا وآخر من الفسطاط، يعيشان معاً في بغداد، قاسماً مشتركاً بينهما وهو الشعور بأنهما مصريان، أو بالأحرى هل يتصاحب دمشقي وحلبي يعيشان في القاهرة بشكل عفوي لأنهما جاءا من بلاد الشام؟

لاشك أن تحليلا لمختلف أنماط المصادر سوف يسمح في المستقبل القريب بالإجابة عن هذا السؤال.

النسبه الإقليمية عند أهل الحديث

من بين النصوص التي تضم معلومات أساسية عن عدد كبير من الأفراد، والتي يمكن استعمالها للتعرف بشكل أفضل على النسيج الاجتماعي السني لهذا العصر وعلى بعض المظاهر المتنوعة للحياة الاقتصادية، نجد تلك النصوص التي تعتمد على الحديث.

إن البحث والتجميع، منذ القرن الثاني وحتى القرن الخامس من العصر الإسلامي، للأقوال المحمدية أو الحديث تمثل رهاناً اجتماعياً هاماً، يؤسس الحقوق اليومية، ويسمح بتثبيت أسس العلاقات بين الأفراد ولا سيما بين الحكام والمحكومين. كان ذلك إذاً أحد النشاطات الفكرية الأكثر انتشاراً والأكثر دخلاً، ولقد ساهمت مع التجارة الخارجية البعيدة بتمويل السفر عبر العالم الإسلامي لعدد كبير من المفكرين وأنتجت العديد من الكتب والمراجع التي ما زالت محفوظة حتى أيامنا هذه. ومع ذلك فإن الجدل حول صحة الأحاديث كان كثيراً ما يحدث. ولكي يكون متن الحديث مقنعاً كان يجب الاعتماد على سلسلة من الإسنادات غير القابلة للنقض. فبين اللحظة التي نطق بها الرسول الحديث إلى اللحظة التي وضع فيها المحدث الحديث تحت تصرف الجمهور، فإن سلسلة الأشخاص الذين حفظوا الحديث عن ظهر قلب يجب أن تدون، كما أن مكان وتاريخ محل عمليةالنقل يجب أن يسجل بدقة في تناسق تام، بالإضافة إلى تحديد هوية كل إنسان أو كل جزء من السلسلة. وكان لا بد من تسجيل كل الأحداث المتعلقة به، وكمكان وتاريخ الولادة،

وتاريخ تنقلاته ووجهتها، والمعلمين الذين أصغى إليهم، والمريدين الذين درسهم. ويقدم لنا كل ذلك عناصر ملف ضخم جداً.

وبشكل عام فإن كُتَّاب السيَر في القرون الوسطى كانوا يصنفون السيرة بحسب النسبة واسم الناقل وأبيه وجده. في حين أن نسب الأشخاص يمكن أن يكن معدوماً، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالمهتدين إلى الإسلام أو العبيد المحرومين منه، وهناك كتب أخرى تصنفهم بحسب الأنساب التي ترجع إلى هوية أكثر بعداً، قبلية أو إقليمية أو حضرية أو حتى إيديولوجية.

ومن بين المعاجم التي تتناول النسبة فإن أشهرها هو كتاب الأنساب لمؤلفه السمعاني. أما أكثرها عملية فهو معجم ابن الأثير: *اللباب في تهذيب الأنساب*. هل يمكن استخدام هذه المعاجم لمعرفة إن كان الأفراد ينتمون إلى منطقة مثلما ينتمون إلى مدينة ما؟ سوف يسمح ذلك بشكل أو بآخر بإغناء المعلومات التي قدمها الجغرافيون الذين يعرفون جيداً بلاد الشام وحدودها والمناطق التي تشملها، ولكنها لا تتعرض إلا قليلاً إلى الانتماءات الإقليمية.

هناك بعض الغموض في اللغة العربية يتعلق بعدد من الأنساب ذات المعنى المزدوج كالمصري والتونسي والفلسطيني، التي يمكن أن تعني مصرياً أو أحد أبناء القاهرة، تونسياً أو أحد أبناء العاصمة تونس، فلسطينياً أو أحد أبناء مدينة الرملة. وهكذا فإن ابن الأثير يقول إن عدداً كبيراً من العلماء يحملون لقب الفلسطيني، ولكن الوحيد الذي تخصه هذه النسبة هو أحد سكان الرملة. وفي حالات أخرى، تتوضح الأشياء أكثر، فنسبة الشامي تعني في العصور الوسطى السوري وليس الدمشقي. وهنا أيضاً فإن ابن الأثير (الجزء الثاني، ص. 178) وبعد حديثه عن كثرة نسبة الشامي، حيث أن هناك أكثر من عشرة آلاف صحابي رأوا بأم أعينهم الرسول محمد، وهم سوريون بالتبني، فإن الوحيد الذي يذكره هو أحد العبيد المحررين من سكان دمشق الذي عاش بالصدفة فيها. وينطبق الأمر نفسه على نسبة العراقي المتميزة تماماً عن بغداد، فابن الأثير يقول أن هناك عدداً كبيراً، ولكن لا يذكر سوى واحداً يبدو أنه عبد محرر. ويعيد ابن الأثير نسبة الجزري (الجزء الأول، ص. 277) إلى الجزيرة التي يعرفها بدقة على أنها المنطقة المحصورة بين

دجلة والفرات، ويحدد فيها المدن الرئيسية، ومع ذلك فهو لا يذكر سوى اسم محدد، وهو يقول أن هناك أسماء أخرى ولكنه بعد ذلك يسمي رجلاً بغداديا يحمل تلك النسبة ثم آخر يعود بأصله إلى مدينة في الجزيرة تدعى جزيرة ابن عمرو، التي تعطي بالتأكيد النسبة نفسها، أما فيما يتعلق بنسبة المصري فإن ابن الأثير (الجزء الثالث، ص. 219) يربطها باسم المدينة أو مصر وكذلك بمصر وديارها، ثم يذكر أحد حاملي هذه النسبة لأنه كان يبيع في بغداد ألبسة جاءت من مصر. يبين هذا الاستقصاء أن النسبة الإقليمية يحملها بسهولة أكثر العبيد المحرومون وأولئك الذين يقطنون بعيداً عن بلادهم الأصلية وكذلك التجار الذين يبيعون منتجات قادمة من تلك المقاطعة.

وعندما يحاول ابن الأثير أن يتتبع في كتابه رحلات المُحدِّثين اليافعين الذين يسعون لامتلاك العلم، يذكر المقاطعات المختلفة التي عبروها وليس المدن التي توقفوا فيها. وبالتالي لا نستطيع أبداً أن نستخلص معلومات هامة من الأنساب التي يستعملها المختصون في الحديث، ذلك لأن المقاطعة تعني قبل كل شيء حقيقة جغرافية، فضاء تقع فيه المدن المختلفة المعروفة من الجميع، ولكن من أجل تحديد الهوية فإن الفقيه يعتمد بشكل عام في نسبته إلى مدينته الأم أو إلى المدينة التي اختارته أكثر من انتمائه إلى المقاطعة.

الحكايات المحلية ومعاجم الأنساب الحضرية

هناك نمط آخر من الطرق قد وضعت لتحديد هوية أهل الحديث، إنها معاجم الأنساب بحسب المدن. تتعلق هذه الكتب بالأشخاص المشهورين المولودين في المدينة المذكورة وكذلك الأشخاص المعروفين الذين أقاموا فيها. إن تتبع آثار الناس في عهد ما يتيح للمختصين في علم الحديث التحقق من هدف هذه الشهادة أو تلك، أو ذاك اللقاء. ففيما يتعلق بسورية، نجد أن أكثر كتابين جامعين للأنساب شهرة هما كتاب ابن عساكر في منتصف القرن الثاني عشر بالنسبة لدمشق، وكتاب ابن العديم في منتصف القرن الثالث عشر فيما يخص حلب. وهما مسبوقان بكتاب تمهيدي عن الجغرافية العمرانية للمدينة المعنية والمدن الصغيرة المحيطة بها. كما أن ابن العديم قد نشر أيضاً تاريخ الأحداث في حلب منذ الفتح العربي حتى أيامه. وفي

دمشق، كتب ابن القلانيسي، أحد معاصري ابن عساكر، كتابا تاريخيا يتعرض فيه للفترة المحصورة بين عامي 970 و 1150 ميلادية، وقد نشر هذا الكتاب في عام 1909. ويشكل هذا النص تتمة لتاريخ دمشق، الذي هو كتاب أقدم لم تحدد هوية مؤلفه بدقة حتى الآن.

إن قراءة سريعة لهذه المؤلفات تسمح بتقديم فرضية عمل يمكن لبحث أكثر توثيقا أن يعتمد عليها. فمن خلال الحكايات المختلفة المذكورة والعلاقة بين كل مدينة وإقليمها المجاور، يجب التفريق في البداية في الخطاب المطروح عن فضائل المدينة، بين ما يعبر عن المباهاة وماهو صادق، ومن ثم تعميق الاستقصاء من خلال تتبع مسيرة حياة العلماء التي تقدمها التراجم، وفي نهاية المطاف مقارنة معالجة الأحداث في الفترة نفسها من قبل مؤرخين عديدين يسكنون مدنا مختلفة.

إن الصورة النموذجية للمدينة السورية التي سترسم من خلال هذه القراءات هي افتراضية بشكل مزدوج، أولا لأنها لا تتعلق بأية مدينة كانت ولكنها تتناول المعالم الخاصة للعديد من بينها لإعادة خلق صورة مصطنعة لها كلها، وثانيا لأن المشهد العام يتغير باستمرار. ويكفي نموذج واحد للتأكد من ذلك، فحلب ومدن الجزيرة كانت مطوقة بالبساتين المزروعة حتى الفترة 930 ـ 940 م، عصر تأسيس الحكم الحمداني في الموصل ومن ثم في حلب. لقد فرض هذا الحكم في الجزيرة وفي المناطق الخصبة من سورية الشمالية زراعة أحادية النمط تعتمد على الحبوب لكي تلبي الطلب الهائل لبغداد التي تملك إمكانيات الدفع. لقد اختفت الأشجار، وأجدبت الأرض التي استعملت بشكل مجحف، مما أدى إلى اجتياح القبائل البدوية لهذه الأراضي الزراعية المنهكة في المعمورة، وإلى سيطرة أمراء هذه القبائل على المراكز الإقليمية في الجزيرة وفي سورية الشمالية. وقد استولت الأسر القبلية على السلطة في القرن الحادي عشر في حلب والموصل وحران وإيديسه. وغالبا، وبحسب النصوص، كان شيوخ القبائل في أطراف البادية السورية ـ العراقية يرفضون الإقامة في مراكز إماراتهم. وكانوا يكلفون أحد الأفراد بإدارتها هي وإقليمها، أما هم فكانوا يذهبون للإقامة فترات طويلة في المدينة المؤقتة المكونة من الخيام، الحلة، حيث تركوا زوجاتهم وأولادهم.

وعلى خلاف ما سبق، فإن غوطة دمشق الخصبة جداً والتي وقع اختيار سيف الدولة عليها في السنوات 940 قد دافع عنها سكان المدينة، واستمرت سيادة نمط الملكية الصغيرة، وتمت المحافظة على بساتين الخضار وتلك المزروعة بالأشجار. وقد نظمت المدينة بالذات وبكل شجاعة الدفاع العسكري عن نفسها ضد الهجمات البدوية وكانت الوحيدة التي لم تعرف السيطرة القبلية حتى القرن الحادي عشر / القرن الخامس الهجري.

المدينة: فضاء الوساطة الثلاثية

يتكون الإقليم الذي تتدرج ضمنه كل مدينة من حلقات مركزية تقريباً. أولاً، المدينة نفسها، المحددة جيداً بشكل عام بفضل أسوارها، وهي في الغالب نقطة تقاطع قديمة حيث كانت تتقاطع الطرق المختلفة التي تأسست عبر العصور، والقادمة من مراكز عمرانية أخرى تقع ما وراء الأفق وتتوافق مع الصعوبات التضريسية، ولم يكن لهذه الطرق الطويلة أي مبرر لأن تتعامد في تقاطعاتها. ومن المحتمل أن أزمة الخشب التي أشارت إليها النصوص البيزنطية قبل الفتح العربي قد أدت منذ زمن طويل إلى التخلي عن العربة التي تجرها الدواب، فإن النقل المدني للبضائع الثقيلة لمسافات متوسطة أو طويلة كان في الأزمنة القديمة يتم بشكل أساسي بواسطة العربات في الإقليم السوري حيث كانت شبكة النقل تتكون بشكل أساسي من الدروب والطرق الترابية التي تسير عليها الحمير والبغال والجمال المحملة بحمولات ثقيلة باستثناء الطرق القليلة التي كانت الدولة تقوم بصيانتها. ولم يكن بالإمكان عبور البادية إلا بواسطة الجمال التي، من أجل مراعاة قوائمها[2]، كان يجب أن تسير على طرق ترابية غير مرصوفة تصل حتى مداخل المدن.

وعندما كانت الطرق القديمة تقع في النسيج العمراني، كانت تذهب من المركز إلى باب في السور، وغالباً ما كانت تأخذ اسم المدينة المجاورة أو البعيدة والمشهورة التي تتوجه إليها. كانت هذه الطرق عريضة بما فيه

[2] في إشارة شفهية قدمها الدكتور عدنان البني أثناء ندوة كانون الثاني 1999.

الكفاية لتسمح لجملين محملين كثيرا، وتتجاوز البالات التي يحملانها خواصرهما، بأن يمرا معاً بسهولة أثناء تقاطعهما[3]. كانت هذه الطرق تقطع المدينة بشكل طبيعي إلى أحياء كان يسكن كل منها سكان متجانسون، ذوو لغة واحدة، وديانة واحدة، وانتماء قبلي واحد، لكن ومع الزمن يبدأ التمازج بفرض نفسه وتبدأ الانتماءات القديمة بالاختفاء لتبقى فقط في التسميات.

كانت الشوارع التي تنطلق من مركز المدينة نحو أبواب الأسوار مفتوحة للجميع: فحوانيت الأسواق كانت ترتصف على طول هذه الشوارع، الأمر الذي يسمح للمدينة المركز بلعب دور وظيفة أساسية وهي الوظيفة التجارية. أما فيما يتعلق بالبضائع الثمينة أو تلك القادمة من أماكن أكثر بعداً، أو تلك التي تحتاج إلى تصنيع في المدينة، فقد كان هناك أسواق مركزية في أكثر المدن نشاطاً. أسواق مغلقة بواسطة جدار عالٍ تضم مباني تطل على فناء واسع داخلي واحد أو أكثر. وكان الوصول إليها يتم عن طريقٍ باب وحيد، يسمح بالمراقبة المالية وبحماية البضائع. وكان أكثرها اتساعاً يقدم السكن للتجار العابرين ومرافقيهم ، والإسطبلات لدوابهم ، والمستودعات والورشات الحرفية لبضائعهم. وقد أطلق على هذه الأماكن تسميات مختلفة: قيصرية، فندق، خان، وكالة...إلخ. وكان المسافرون يحصلون في المدينة على خدمات ترفيهية، لا سيما الحمامات التي كان بإمكانها أن تأويهم أيضاً ليلة وصولهم إن وصلوا بعد إغلاق الخانات والفنادق.

وبالإضافة إلى المبادلات التجارية والوساطة بين الإقليم المهيمن عليه وشبكة من الأقاليم تمتد على القارات الثلاثة من العالم القديم، كانت المدينة تمارس وظيفة ثانية من الوساطة. فقد كان يمثل السلطة الإسلامية المركزية في المدينة المسؤولة عن إقليم واسع، وبشكل عام في دمشق، والٍ للصلاة ووالٍ للجيش، والعامل، وهو جابي الضرائب والمحاسب العام، والقاضي

---

[3] كان عرض أكثر الطرق ضيقاً أربع أذرع (تقريباً 2 م) وسبعة أذرع (4.5 م تقريباً) بالنسبة للطرق العادية المخصصة للمشاة، وعشرين ذراعاً (8 م تقريباً) بالنسبة للعريضة المخصصة لمرور الحيوانات. هكذا كانت الأسس المعتمدة بحسب فقهاء المذهب المالكي: انظر J-P. Van Staevel, *Les usages de la ville, discourse normative, habitat et construction urbaine dans l'Occident musulman medieval (X-XIV siecle)*, thèse Lumiere-Lyon 2, janvier 2000, III, 785.

الذي كان يحكم بتفويض خليفي في النزاعات بين الرعايا المسلمين أو بين الأفراد والطوائف الإسلامية، ففي كل يوم جمعة، وفي ساعة الزوال، إبان صلاة الجمعة في الجامع الكبير كان الخطيب يذكر في خطبته التي يلقيها من أعلى المنبر إخلاص السلطة للأمة، أمة المسلمين، وتوجب الطاعة على هذه الأخيرة بالإضافة إلى نصح الحاكم الشرعي. وتتم الصلاة أثناء الاحتفال بالعيدين الإسلاميين في مصلى، وهو عبارة عن صالة كبيرة تضم في جهة القبلة محراباً وتقع خارج المدينة. وكان شيوخ البلدات المجاورة يشاركون باحتفالات العيدين وجنازات المتوفين من أعيان المدينة، وكان حضورهم بمثابة تقدير لأهمية الدور الذي تقوم به المدينة من خلال موقعها كوسيط بين السلطة الإسلامية «الشاملة» وإقليم ذي أبعاد محدودة. وهكذا فقد كانت المدينة تلبي حاجتين: أولاً، خلق فضاء للوساطة بين المجموعات ذات الانتماءات المختلفة والتي يتوجب عليها أن تتعايش جنباً إلى جنب بشكل يومي وأن تتعلم التعايش المشترك. وثانياً، الاندراج في شبكة واسعة من العلاقات التبادلية التي كانت تسمح بإنتاج الخيرات حيث تكون الظروف ملائمة لنقلها إلى حيث يكون المستهلكون قادرين على دفع أعلى الأسعار لاقتنائها.

كانت كل مدينة على قدر ما من الأهمية تضم داخل أسوارها سكاناً غير متجانسين يقيمون في فضاء عمراني واحد، ومع ذلك فإنهم كانوا يحافظون على استقلالية دينية وتقاليد طائفية وذلك بفضل انتظامهم في أحياء متمايزة بشكل خاص تحددها، كما رأينا من قبل، الشوارع التي تربط بين المركز وأبواب المدينة. هذه الشوارع التي يمكن قطعها بعشر خطوات كانت مع ذلك حدوداً واهية لكنها محترمة من الجميع، لا سيما عندما يتعلق الأمر باختيار سكن جديد أو زوجة جديدة. وكذلك الأمر، وبعيداً عن المدن، كان هناك مجالات خاوية تفصل بشدة بين الأقاليم المتنوعة الاستيطان، وذلك لتحاشي أزمات لا طائل من ورائها. وعندما كانت تحصل نزاعات ومواجهات بين الفئات القبلية أو الإقليمية، أو بين المسلمين، بين المذاهب الفقهية أو الشعائرية، بين الشيعة والسنة، بين الحنفيين والشافعيين، بين الأشعريين والحنبليين، بين أهل الحديث والمعتزلة، كانت المواجهات تحصل أثناء النهار في الشوارع الرئيسية، ويعود الهدوء عند هبوط الظلام لأن

باب الحي يغلق في الليل. وقد سنحت لنا الفرصة بأن نرى في بيروت، التي أهملت وظيفتها كوسيطة في الفترة 1975 ــ 1990، كيف أن الحدود بين الفضاءات الإقليمية قد توضحت في قلب المدينة بواسطة الحواجز التي كانت تقطع الشوارع الرئيسية وتمنع الوصول إلى المركز القديم في باب إدريس وساحة المدفع. الذي كان في السابق فضاء للتلاقي بين مختلف الجماعات والطوائف. لقد تضاعفت إذن حدود المناطق في قلب المدينة.

الأقاليم التابعة للمدن

إن الوسط القريب، والبساتين والبيارات التي تحيط بسور المدينة، حيث كانت العائلات تذهب للتنزه في أيام الصيف الحارة أو أيام الجمعة، يبدو أنها كانت مخصصة لاستعمال سكان المدينة. إن هذه الأراضي التي تكون الحزام الأول حول المدينة، والتي هي عادة خصبة جداً وجيدة الري كانت مغطاة بقانون صارم للملكية الخاصة، الذي يعود فيه رأس المال العقاري بشكل أساسي إلى أعيان المدينة، الذين يملكون وحدهم القدرة على شراء البساتين وغرسها والحفاظ عليها.

ثم تأتي حلقة أخرى أوسع تتكون غالباً من أراض مروية أو بعلية، قليلة الأشجار، مثل المرج في منطقة دمشق، ويمكن أن تكون ملكيتها جماعية مع إدارة متبدلة للإقليم. وكلما ابتعدنا عن المدينة كانت القرى تأخذ استقلالها باستعمال الأراضي الزراعية بشكل أكثر وضوحاً. كانت هذه الحلقة الثانية تضم كل التجمعات السكنية الريفية التي كانت تعتبر المدنية كمحطة إجبارية من أجل التعامل مع السلطة. فقد كان قاضي المدينة يحكم في نزاعاتهم، وجابي الضرائب يتلقى المبالغ المفروضة عليهم، وفي حالة الخطر كان أرباب العائلات والأعيان الريفيون يذهبون إليها ليجتمعوا في الجامع الكبير لاتخاذ قراراتهم الهامة بشكل جماعي أو ليرسلوا طلباتهم إلى السلطة. لكن كان على الريفيين أن يعرفوا كيف يدافعون عن أنفسهم بمفردهم تجاه أعمال

السلب والنهب التي يقوم بها البدو أو الجنود الفارون. كانت القــرى الكبــيرة محاطة بجدار قليل الارتفاع مجهز ببرج أو برجين للحراسة يســتعملان فــي فترة جمع المحاصيل أو أثناء الاضطرابات القبلية. وكانت هذه القرى الكبـيرة تؤمن محطة محمية للقوافل التجارية وتمتلك بهذا الشكل صفة البلدة أو المدينة الصغيرة التجارية دون أن يكون لديها إقليم حقيقي تابع لها. كان هذا النمــط من البلدات ضعيف التحصين مألوفاً كثيراً في الهضبة الواقعة إلى الغرب مـن العاصي بين حمص وأنطاكية. وقد استطاعت تحصيناتها الحقيقة أن تؤمن لها حماية نسبية في الأرباع الثلاثة الأولى من القرن الحادي عشر وسط المعارك التي دارت بين القبائل العربية في تلك الفترة، ولكن في الأعــوام 1080 ومــا بعدها سقطت كلها ونهبت وذبح جزء من سكانها على يد عصابات التركمــان التي كانت تجتاح منهجياً سورية الشمالية. مما اضطر الأمــير العقيلــي فــي حلب والموصل أن يقدم البذور والحيوانات القادرة على التكاثر والقادمة مــن ديار ربيعة لكي ينطلق الإنتاج الزراعي من جديد في هذه المناطق المنكوبة.

وأخيراً ومن بعد القرى الكبيرة ذات الإقليم الدائم وعلى حــدود الإقليـم الذي تسيطر عليه المدينة، كانت توجد مساحات واسعة أقل خصوبــة أيضــاً تتكون من هضاب حجرية وتضاريس وبوادٍ وامتدادات للصحـــراء، وأراضٍ غير مسكونة يتراوح عرضها بين عشرة وعشرين كيلو مــترا. كــان هــذه الفضاء شبه الخالي يشكل حدوداً حقيقية، كـــان القرويــون المقيمــون فــي الخرائب أو البيوت البائسة المتجمعة على شكل تجمعــات صغـيرة وغالبــاً مؤقتة، والبدو الرحل أصحاب الخيم الكبيرة يتقاسمون معاً، وبعيداً عــن كــل تدخل للمدينة، حقول الحبوب البائســة ورعــي الحصيــد والمراعــي التــي تستطيع استقبال القطعان بعد موسم الأمطار. كان هذا الفضاء شبه الخــالي، حيث يسود عرف حق التصرف الفصلي للأراضي علـــى الحــق بالملكيــة الدائمة، يفصل في الوقت المناسب بين الإقليمين المسيطر عليــهما ويســمح بمرور هادئ للقبائل التي تغادر مرعى ما لتذهب إلى آخر دون أن تمر فـــي المناطق الزراعية الغنية.

وهكذا فقد كان تدرج السيطرة العمرانية والحق بالملكية يتوافقان مع تنوع المشهد الطبيعي. فلم تكن الحدود بين الأقاليم العمرانية محددة في الأطراف بخط واضح، ولكن انطلاقاً من المركز. إنها تلك المنطقة العريضة نوعاً ما حيث يكون لم نعد نشعر بتأثير المدينة التي جئنا منها وحيث لم نشعر بعد بتأثير المدينة التي نقصدها.

وهكذا نستطيع أن نشبه سورية القارية في القرون الوسطى بأرخبيل من الجزر، لكل منها مدينة في مركزها محاطة بأقاليمها المحمية التي تغذيها. ويقع بين هذه الجزر ذلك البحر الذي تجول فيه بكل حرية القبائل العربية الكبرى، بحر يتكون من بوادٍ شاسعة، صخرية أو مقطعة، قليلة السكان وشبه خالية. كان هذا الكل يترك ممرات حرة للوصول نحو الجبال الساحلية، كجبال البهرة والرواديف (حالياً جبال العلويين) التي كانت تطرقها القبائل العربية والتي كانت تجد حلفاء لها بين بعض سكان الجبال الذين ظلوا مخلصين للتضامن الذي عرفته المنطقة إبان الفتح العربي[4].

لقد عرف القرن الثاني عشر توسعاً لمؤسسة الوقف حيث كان ملاك العقارات يهبون جزءاً من دخلهم الزراعي، من الأراضي التي يملكوها في المحيط العمراني، إلى مصالح عامة تعمل لخدمة سكان المدينة. وقد زاد ذلك من تطفل هذه المدن-المراكز على حساب الأقاليم التي تحيط بها معيقة بهذا الشكل من استمرار الدورة الطبيعية للأملاك العقارية وللتراكم الرأسمالي لدى الفلاحين.

لقد أدى وجود أحواض خصبة في سورية، أحواض محددة بوضوح بفضل حزام من الأراضي الفقيرة، إلى تسهيل نجاحِ عدد من المدن المتوسطة على المدى الطويل. وقد أضاف انعدام الأمن ابتداء من القرن الحادي عشر عاملاً جديداً للتحديد لهذا النمط من الأقاليم، التي كان عليها أن تتمكن من

---

[4] حول موضوع القبائل العربية التي اضطر سيف الدولة لمواجهتها في الفترة 338 – 343 / 950 –54 في الجبال الساحلية في سورية الشمالية، انظر م. كانار M. Canard, *Histoire de la dynastie des Hamdanides en Jazira et en Syria du Nord*, Alger 1951, p. 603. ومن جهة أخرى كان وادي تيم اللات الواقع شمال وغرب جبل حرمون يأوي طوال القرون الوسطى مجموعات قبلية ظلت تتمسك بنمط حياة الترحال.

حماية نفسها من الهجمات المعادية بواسطة حامية عسكرية تقيم في المدينة الأم، فقد كان بإمكان وحدة من الخيالة أن تتدخل بشكل فعال خلال النهار لمسافة تبعد 30 كم عن قاعدتها. وهكذا فقد كانت المسافة بين مدينتين في كل منهما حامية عسكرية لا تزيد أبداً عن 60 كم، مع الأخذ بالحسبان لوجود منطقة مركزية حيادية وغير محمية.

إن هذا المخطط العام، الذي تأثر كثيراً بالبحث الذي جرى على سورية في الفترة 970 ــ 1080، وهو بحث مختزل نوعاً ما وليس له أي تطلعات سوى تشكيل قاعدة للحوار أو للنزاع والذي يمكن أن يتأسس عليه بحث أكثر تخصصية يتناول الروابط بين كل مدينة نملك وثائق جيدة عنها ويمكن تحديد إقليمها.

تسلسل الحواضر في بلاد الشام

هناك نمطان من المدن يشكلان مرتبة مستقلة ضمن هذا المخطط العلم، هناك أولاً الموانئ في تلك الفترة كصور وطرابلس وجبلة وصيدا التي كانت تحاول في الماضي ، وأحياناً بنجاح مؤقت، أن تستقل سياسياً حول سلطة مدنية محلية، يقودها بشكل عام قاضٍ ينتمي إلى الأرستقراطية التجارية، في حين أنه في كل مكان كان الممسكون بالسلطة أو المعارضون هم من العسكر أو من المدنيين المسلحين. وفي العصر نفسه، كانت تظهر أيضاً بدايات لسلطات مدنية مماثلة في بعض المدن الوسيطة في الجزيرة العليا وشمال سورية، وبعيداً جداً إلى الغرب في تونس إبان حكم بني خراسان. وسيكون من المفيد أن يقوم بحث جدي بتحليل كل محاولة من هذه المحاولات من أجل جمع عناصر المقارنة وإدراك سبب الفشل العام لما يمكن أن يكون بداية لظاهرة كومونة مستقلة في العالم العربي الإسلامي.

إن الحالة الثانية الخاصة هي حالة بعض المدن التي كانت تبسط سيطرتها إلى ما وراء إقليمها، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة. وبحسب معلوماتي لم يجر أي بحث جاد لكي يحدد التاريخ الذي لم يعد فيه بمقدور عواصم الجند، التي تأسست أثناء الفتح أو بعده مباشرة، تجنيد الجنود أو

تحصيل الضرائب من مقاطعاتهم، مثل الرملة بالنسبة لفلسطين، وطبريا في الأردن، ودمشق وحمص ثم قنسرين ـ حلب بالنسبة للمقاطعات الثلاثة التي تحمل أسماءها، وأنطاكية بالنسبة لمقاطعة العواصم، وطرسوس بالنسبة لمقاطعة الثغور. وقد استمرت إدارة فلسطين تنطلق من الرملة في العهد الفاطمي في مطلع القرن الحادي عشر، وكانت مقاطعتا الأردن وسورية الوسطى تداران من دمشق، وقد تقلص دور حاكم طبريا إلى مستوى قائد بسيط للحامية العسكرية فيها. وقد كانت طرابلس المدينة الوحيدة في سورية الوسطى التي كان أميرالها المسؤول عن أقوى قاعدة بحرية وعن الأسطول الأول في مشرق المتوسط، لا يطيع لا حاكم حمص ولا حاكم دمشق. وهو الحاكم العام لسورية، وإنما كان يتبع مباشرة الإدارة المركزية في القاهرة. وقد كانت سورية الشمالية، بجندها القديمين حمص وقنسرين من تبعيات حلب.

لقد كان عمر التمييز الحدودي بين سورية الوسطى والجنوبية من جهة وسورية الشمالية من جهة أخرى يبلغ نصف قرن فقط. ففي عام 334 / 945 تم التفاوض على السلام بين الإخشيديين، سادة مصر، وسيف الدولة، الأمير الحمداني لحلب، وذلك من أجل تقسيم سورية إلى أمارتين: إحداهما في الجنوب تتبع لمصر والأخرى في الشمال وتتبع لحلب. وإلى الجنوب من الحدود الجديدة ظلت طرابلس وبعلبك واللبوة (بغية، 371) ودمشق تتبع كلها لسورية الإخشيدية، أي إلى الفسطاط في مصر. وإلى الشمال من هذا الخط كانت عركا وجوسية وحمص تشكل جزءاً من مملكة حلب[5]. ولقد ظل هذا الفصل العام قائماً حتى العصر المملوكي في عام 1260، مع بعض التبديلات العرضية في العصرين الزنكي والأيوبي.

في الواقع، وأثناء القرون التسعة التي امتدت بين الفتح العربي والعثماني لسورية، استطاعت مدينتان فقط أن تتجاوزا المدن الأخرى في تطلعاتهما، وهما حلب ودمشق. وكان كل شيء يميزهما عن بعضهما بعضاً.

---

[5] انظر التفاصيل والمراجع في مقالة «سيف الدولة» في الموسوعة الإسلامية، *Encyclopedie de l'Islam* الطبعة الثانية.

فقد كانت دمشق السنية بشدة تعيش ذكريات الخليفتين عثمان ومعاوية. أما حلب، الشيعية في الفترة 940 ـ 1150، فقد كانت لا تعترف بالسلطة الدينية والسياسية إلا لعلي. وكانت دمشق تتجه قبل كل شيء نحو الجنوب لتحتفل بروابطها السرية، السحرية تقريباً، مع المدن المحمدية الثلاث: القدس والمدينة ومكة. أما حلب فقد وجدت نفسها مضطرة للدفاع عن الإسلام أمام الخطر المسيحي القادم من الشمال.

وقد حاولت دمشق عدة مرات أن تشكل مركزاً سياسياً مستقلاً، لكنها كانت ترفض دوماً، ولا سيما بعد فشل الانتفاضة البدوية في عهد هارون الرشيد، قبول أمير عليها ينتمي للقبائل العربية[6]، في حين أن حلب قد دعمت على التوالي بني حمدان وبني مرداس ثم بني عقيلي. وقد وافقت حلب، التي تقع على أحد فروع طريق الحرير، على الحماية البيزنطية بسهولة والتزمت، من خلال معاهدة، أن تدفع لحساب القسطنطينية الضرائب على البضائع التي تعبرها في طريقها بين الفرات وكيليكية. ويشدد مؤرخ حلب ابن العديم في مقدمة كتابه **البغية**، وهو المولع الكبير ببني مرداس، على دور مدينته كحارس في مواجهة المسيحيين، ولكنه في روايته للأحداث، كتاب **الزبدة**، لا يشير إلى أي نقد للخضوع للبيزنطيين أو للصداقة معهم، في حين أنه يعبر عن الضيق الذي تسببه له السلطة التركية، ذات الانتماء السني الضيق والضعيفة الانفتاح على شؤون التجارة التي حكمت في نهاية القرن الخلمس / القرن الحادي عشر ميلادي. إنه يعلم أن مدينته لا يمكن أن تعتمد في معيشتها على إقليمها الزراعي، لذلك كان عليها أن تدير شبكة تجارية قوية وذات تشعبات بعيدة. ولقد فرضت العلاقات التجارية مع الأقاليم المسيحية نفسها نظراً للموقع الجغرافي للمدينة، الواقعة على هامش العالم الإسلامي.

كانت دمشق ومؤرخوها يتصرفون بشكل مختلف. فقد كان على المدينة أن تحافظ على دورها في سورية، وأن تسيطر على مينائها الطبيعي في

---

[6] أثناء الفوضى التي عمت العهد الكافوري، كان لدمشق أحياناً حاكم يتم اختياره من بين الزعماء العقيليين، لا سيما طوال عدة أشهر من عام 358 / 969. انظر بهذا الخصوص ت. بيانكي Th. Bianquis, «Les derniers gouverneurs ikhchîdides a Damas», *Bulletin d'Etudes Orientales*, XXIII, p. 167 – 196, Damas, Instiut Francais d'Etudes Arabes, 1970.

طرابلس، وأن ترسل شبابها للمشاركة في الدفاع عنه، وأن تتفاوض مع قبائل بادية تدمر وعمان لكي تضمن حرية المرور لتجارها، وان تمتلك جيشاً محترفاً لمقاومة كل محاولة للسيطرة البدوية. كان فضاؤها الطبيعي ينفتح على الفرات عبر مدينة الرحبة، وعلى المتوسط من خلال البقاع وعلى مصر والمدن المقدسة من خلال فلسطين. وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يخشون «الأوباش» الذين كانوا يخربون المدينة مراراً في العصر الفاطمي، كان الأمير المثالي هو العسكري التركي، الورع، والشجاع وقليل الطمع نسبياً. كانت تخصص له قرابين مالية شريطة أن يحمي الأملاك وشرف وحياة التجار، وأن يعاقب الأولاد السيئين وأن يبقي البدوي النهاب أو الخطر المسيحي بعيدين عن المدينة. ولم يكسب الفارس البدوي، عاشق النساء الجميلات والمبارزة بالسيف وذو الدين الهش والمزاج المتبدل، مثل أبي الهيثم في القرن الثالث / التاسع الميلادي، أو ابن مرداس في القرن الخامس / الحادي عشر الميلادي، لم يكسب أي تقدير في عيون الإداريين المدنيين. وقد عبر عن وجهة نظرهم ابن القلانسي، كانوا سعداء أن تظل دمشق محتفظة بمركزها كعاصمة بفضل شجاعة الأتراك. وعلى العكس من ذلك فإن الشافعي الأشعري ابن عساكر، الكاتب أيضاً في منتصف القرن السادس / الثاني عشر الميلادي، كان يتأسف على بروز اتجاه حنبلي تقي وضيق الأفق ويكذب بسهولة، وقد أجج ابن عساكر نوعاً من الحنين إلى الماضي العربي والمدني لدمشق، ويعود له الفضل بالسيرة المادحة للأمير اللص القيسي أبو الهيثم. ويندرج المؤرخون الذين خلفوه بشكل أقوى في الاتجاه المعبر عن احترام السلطة التي أقامها العسكر والإيديولوجية المحافظة، أكثر مما في مقاربته المشككة والفكرية والليبيرالية نسبياً تجاه الماضي والحاضر.

إن مدينة حمص، التي تسيطر عليها وتحميها قلعة قوية، والواقعة في وسط إقليم مزدهر يرويه نهر دائم وغزير، تحتل في سورية موقعاً استثنائياً. يمكن أن نذكر بخصوصها ما قيل في مقدمة هذه المقالة عن عقدة المواصلات السورية التي تميز انفتاح الشخصية السورية على سائر الجهات: تقع هذه المدينة في الواقع عند عقدة مواصلات، يمكن للمسافرين، انطلاقاً منها، الوصول إلى طرابلس وطرطوس وعبور البقاع باتجاه بعلبك ووادي

الأردن، والوصول إلى دمشق من منطقة البقاع أو عبر مدينة قارة والهضبة الشرقية، والوصول إلى ديار ربيعة و «طريق الحرير» عبر الفرات والخابور بسلوك الطريق الأقصر عبر البادية، مستغلين التوقف في تدمر، أو الوصول إلى ديار مضر وديار بكر بالإضافة إلى طريق أرمينيا والقوقاز، ملتقين بالفرات عند التقائه بالخابور عبر قصر ابن وردان والرصافة. وأخيراً وباتجاه سورية الشمالية كان هناك بعد حماه، القريبة جداً من حمص، طريقان ممكنان نحو حلب عبر الهضاب وعبر العاصي نحو أنطاكية. وآخذين بعين الاعتبار وضعاً جغرافياً مناسباً بهذا القدر الكبير، فلا يمكن للمؤرخ إلا أن يتساءل عن غياب الطموح التاريخي للزعماء المتتابعين لحمص طوال تاريخ سورية العربية تقريباً، وليس أكثر من زعماء حماة المدينة مباركة من الآلهة أيضاً، فهم لم يحاولوا عملياً فرض مدينتهم كمركز للإدارة السياسية لبلاد الشام. وعلى العكس من ذلك فإن دمشق وحلب الهامشيتين أكثر، واللتين لم يكن تموينهما بالمياه سهلاً على الدوام وكافياً، قد أكدتا باستمرار تطلعاتهما السياسية ونجحتا مراراً في فرض سلطتيهما.

يمكن أن نطرح العديد من التفسيرات، التي لا يوجد بينها أي تفسير مقنع تماماً. فبلاد الشام أكثر تطاولاً على خطوط العرض من أن تطيع مدينة تقع في مركزها. فإما أن يضم الكيان السوري السياسي فلسطين وسورية الوسطى وبلاد الشام، عندها تكون دمشق عاصمة بشكل طبيعي، أو أن التطور الاقتصادي في سورية الشمالية، الذي تنامى في فترة التبادلات التجارية الكثيفة بفضل القرب من الفرات أو ساحل أنطاكية وجبلة، قد جعل حلب ثرية وفرضت ميزتها الاقتصادية قبل أي شيء على كامل المقاطعة. سيكون التفسير ثقافي أيضاً: يجب أن يكون أحد الأعيان متعلقاً بتقليد سياسي طموح وبقيادة إدارية فعالة لكي يقود مدينة إلى قبول تضحيات قاسية في وقت الأزمة. إن مقاومة أي غاز، ورفض أي شكل من أشكال الخضوع المفروض بالقوة على المدينة والمقاطعة لا يرتجل وقد ميز ذلك بعمق الخاصية الدمشقية. أما بالنسبة للحلبيين، فإن الرمز السياسي أقل أهمية من السيطرة الحقيقية على إنتاج الثروات الزراعية والحرفية ثم الصناعية وعلى المبادلات التجارية الكبرى: بالنسبة لهم،

السلطة الحقيقية هي السلطة الاقتصادية.

هناك خصوصية سورية، تتميز بغياب أي تجمع عمراني كبير ووجود العدد الكبير من المدن المتوسطة، واستقلاليتها والدور السياسي لنخبتها ومطلبهم الثابت للهوية. ولقد كان الرابط بين كل مدينة وإقليمها قوياً أيضاً بشكل خاص ويلعب دوره لصالح تلك المدينة كما بالنسبة للأخرى. ولكن وراء هذه الخصوصية، هناك الكثير من الحقائق المختلفة بمقدار ما هنالك من المدن، الأمر الذي يقود أي تحليل سطحي إلى الفشل. ومن جانب آخر، لا يشكل المدنيون في سورية مجتمعاً جامداً وقد كان التطور مستمراً خلال القرون الوسطى، والذي كان ينتج عن مواجهات متكررة سياسية وإيديولوجية ولكن أيضاً تجارية واقتصادية. والملاحظة الأخيرة هي أن هناك حقلاً شاسعاً للبحث العلمي مفتوحاً أمام الشبان السوريين الذين يريدون أن يدرسوا بنظرة جلية التاريخ القروسطي اللامع جداً والمعقد أيضاً لبلادهم.

أقاليم مدينة دمشق في الفترة العباسية[1]

ألكسندرين غيران Alexandrine Guérin

بيت المشرق المتوسطي ــ ليون

يمكن أن نفهم بشكل أفضل دراسة المدينة وأقاليمها في العصر العباسي على ضوء حدث استثنائي يوضح عناصر من الصعب الإحاطة بها عادة في أوقات الهدوء: إنها فتنة دمشق أثناء العامين 176 و 177 هجرية (792 ــ 93 / 793 ــ 94 م). إن اللمحة عن سيرة هذه الفتنة المذكورة في كتاب وصف دمشق لابن عساكر[2]، التي قمنا بترجمتها وتحليلها، تضم كماً جيداً من المعلومات التي اخترنا منها العناصر المتعلقة بالمدينة وبتحديد أقاليمها.

1 ــ المقدمة

تتناول لمحة ابن عساكر عن سيرة عامر بن عمارة[3]، سيد القيسيين

---

[1] أشكر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق لاستقباله لي في صيف 1988 الأمر الذي ساعدني كثيرا على كتابة هذه المقالة. لم يكن لهذا العمل أن يتم إلا بفضل تشجيع الجميع ومساعدة السيد سهيل شباط الذي بذل قصارى جهده بلا حساب لمساعدتي على فهم النص العربي لابن عساكر، فشكراً له. وأعبر أيضاً عن امتناني للسيدين عدنان درويش وسليم بركات لنصائحهما الثمينة وقراءتهما للنص، وللسيدة سراب أتاسي والآنسة كلارا لوفيفرتيبو والسيد سيريل جالابير على صبرهم في الإصغاء لي والمعلومات الثمينة التي قدموها لي والاقتراحات الهامة التي كانت تتضاعف أثناء المناقشات الحميمة التي دارت بيننا والتي آمل أن أكون قد استفدت من جزء كبير منها.

[2] ن. إيليسيف N. Elisseeff، «Ibn Asaker» (ابن عساكر). الجزء الثالث III، ص. 736 ــ 737. ولد ابن عساكر في دمشق في مطلع عام 409 / 1105 وتوفي بعد زمن قصير من دخول صلاح الدين إلى دمشق في عام 571 / 1176.

[3] استعملنا نظام الكتابة من العربية إلى الفرنسية المذكور في دورية أرابيكا A rabica، أما أسماء الأسر الحاكمة والمدن الكبيرة فلم تغير من تسمياتها لأنها معروفة في المعاجم الفرنسية المألوفة.

من قبيلة بني مرّة، بدقة النزاعات الإقليمية في ولاية دمشق إبان العامين 176 و 177 للهجرة (792 ــ 93 / 793 ــ 94 م)[4]. لا يمكن اعتبار هذه اللمحة بمثابة سيرة، وإنما كوقائع قبلية. وينتسب ابن عساكر إلى عائلة كبيرة من العلماء الشافعيين من بني عساكر. وهو بالذات تقليدي شافعي معروف في ظل حكم نور الدين الزنكي[5]، وهو يؤكد أن هذه اللمحة تتعرض لسيرة الفتنة بين القبائل القيسية واليمنية التي وقعت في دمشق وفي جنوب سورية. كانت مدينة دمشق وغوطتها بالإضافة إلى جنوب سورية ــ حوران وبصرى الشام واللجا ــ الأماكن التي وقعت فيها هذه الأحداث في نهاية القرن الثامن الميلادي. وتكشف هذه الفتنة عن تورط أطراف مختلفة: السلطة المركزية أي الخليفة هارون الرشيد وحاكم دمشق الذي ينتمي إلى السلالة العباسية، وتفرعات القبائل القيسية واليمنية.

يقدم هذا النص معلومات دقيقة للغاية بالنسبة للدراسة التي أقوم بها عن إعمار سورية الجنوبية في الفترات الإسلامية والتي قاطعت فيها بين المصادر الأثرية والنصية[6]. وهكذا فإن القبائل الرُحل التي كانت تسيطر على مناطق الهوامش الجافة، أي اللجا، وعلى سهل الحبوب، أي النقرا وهو سهل البطانية القديم. كانت هذه القبائل إحدى العناصر الهامة في الاستيطان أثناء الفترات القروسطية. وافترضت وجود تنظيم إقليمي قائم على التكامل بين الإقليمين، الهامش الجاف وسهل الحبوب الزراعي، وعلى التكامل في الاستيطان بين الرُحل والمستقرين. تلاحظ هذه الازدواجية على المستوى القروي كما تشهد على ذلك الدراسات الأثرية

---

[4] إن شخصية عامر بن عمارة بن خريم النعيم (سيذكر من الآنفصاعداً تحت اسم عامر بن عمارة) قد سبق ولاحظها محمد كرد علي وكذلك تيري بيانكي (انظر محمد كرد علي، غوطة دمشق، مطبعة الترقي، دمشق، ص. 132 و 185 ــ 190، وكذلك، Th. Bianquis. 1984 :«Deux revoltes bédouines en Syrie méridionale au Moyen Age». *The Third Conference on Bilad al-Sham: Palestine*. 1980. Amman. p. 12.

[5] لقد تمت دراسة ابن عساكر وكتابه تاريخ مدينة دمشق، في كتاب نيكيتا إيليسيف:
N. Elisseeff : La description de Damas. P. I. F. D.. Damas. 1959. p. 29 – 34.

[6] ألكسندرين غميران: أقاليم، المناطق والاستيطان في سورية الجنوبية في الفترة الإسلامية (القرن السابع ــ القرن السادس عشر). دراسة حالة خاصة: قرية مسيكه ومنطقة اللجا، أطروحة دكتوراه، جامعة ليون الثانية، 1998.

في اللجا[7] ودراسة المصادر النصية لوقف عام 1043[8] وبسجل ضريبي عثماني[9]، ويعكس هذا التنظيم الإداري استمرارية استثمار المناطق الزراعية، وبالتالي فهو يفترض وجود الفلاح، وقد كان يسيطر على هذه المناطق البدو الرحل الذين كانوا يجوبون المناطق الهامشية الجافة المحاذية للأراضي المزروعة بالحبوب.

وعند معالجة هذا الموضوع المتعلق بالـ«ريف ورحل» عدت بسرعة إلى المدينة التي تمثل مقر الإدارة والسلطة المركزية، وكذلك الرهان لكل مجموعة تبحث عن فرض هويتها على الإقليم. فالقبائل تدرك تماماً أنه يجب السيطرة أولاً على المدينة من أجل السيطرة على الأقاليم التابعة لها : إذ لا يمكن السيطرة على أقاليم قبلية دون مركز عمراني. .هكذا فإنني أدرس في هذا الظرف الإقليمي الدفاع عن مدينة دمشق أثناء فتنة نهاية القرن الثامن الميلادي. إن فرضية وجود الأقاليم الإضافية التي تمكنت من تعريفها في جنوب سورية خلال كل الفترات القروسطية تتأكد في وضع غير طبيعي : إذ يبدو أن إقليم دمشق مرتبط بظهيرها. وسوف يقودنا هذا البحث الميداني إلى مفهوم أوسع للإقليم المعتمد على المدينة، ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى القوى التي تدافع عن المدينة أو تسعى لامتلاكها: القبائل العربية الرحل.

1. 1. المصادر

يبدو النص الذي حققه شكري فيصل[10] كحكاية مستمرة لأحداث تحتل أكثر من أربعين صفحة. ويضم العديد من الإسنادات الموجودة في نص ابن

---

[7] ألكسندرين غيران، مقالة ستصدر قريباً: «Architecture villageoise et tribu nomade. Définition d'un peuplement dans le Laga Durant les périodes islamiques» Berytus. 27 pages, 9 planches.

[8] J. Sourdel-Thomine et D. Sourdel, «Biens fonciers constitutés en waqf en Syrie fatimide pour une famille de sharifs damascains», JESHO XV, 1972, p. 269-296.

[9] W.-D. Hutteroth et K. Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century*, Etudes de l'Institut de Géographie d'Erlangen 5, 1977 et A. Guerin, sous presse,«Interprétation d'un register fiscal ottoman: les territories de la Syrie méridionale en 1005/1596-1597», *Journal of Near Eastern Studies,* 2001, vol. 61, fasc. 4, 42 pages, 5 cartes.

[10] تاريخ مدينة دمشق، من منشورات المجمع اللغوي العربي، شكري فيصل، دمشق، 1977، جزء عاصم عايض، ص. 393 ــ 426، «عامر بن عمارة، بن حريم النعيم».

عساكر والتي تؤكد مصداقيته. بعضها يتعلق بالنص بالذات، والآخر عبارة عن أشعار أدخلت على الحكاية. ويعود نقل الأشعار إلى المرزباني وهو من أكثر علماء العرب إنتاجاً في القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي[11]. وبالنسبة للإسنادات الشعرية فهي تعود إلى قرن ونصف بعد الأحداث.

أما بالنسبة للأحداث بالذات فهي تعود إلى تاريخ أقدم. إن أحد ناقلي الأخبار المعروفين في هذه الدراسة هو أبو الحسين الرازي (المتوفى في عام 347 هـ / 958 م) الذي قدم عدداً من كتب المناقب[12] في مطلع القرن الثاني عشر. ويعدُّ هو نفسه مرجعاً للمدائني الذي عاصر الأحداث (ولد عام 153 هـ / 770 م، وتوفى عن عمر يزيد عن 90 عاماً وذلك في علم 228 هـ / 843 م)[13]. لقد كان المدائني، في عيون العلماء المسلمين أهلاً للثقة تماماً، وكان متخصصاً بأخبار العرب التي كتب عنها كثيراً (أكثر من 200 مؤلف). يتناول جزء كبير من كتاباته تاريخ الإسلام منذ بداياته حتى عهد المدائني. وقد اعتبر البحاثة المدائني كحاكم لخراسان. ورغم أنه مؤرخ فقد كان يعمل بطريقة المؤرخين التقليديين: فمعلوماته مسبوقة بإسنادات تعود إلى شاهد عيان أو إلى معاصرين للأحداث. ويصفه المسعودي على الشكل التالي: «يكتفي هذا الكاتب بنقل ما جمعه» وفي مستوى المعرفة الحالي للإسنادات، يمكن اعتبار هذا النص مقبول وأنه مصدر قابل للاستخدام.

وينقل ابن الأثير (القرن الثالث عشر) الأحداث نفسها وتسمح دراسة هذا النص بإدراك أفضل على بعض المراحل. ففي الواقع يعود ابن الأثير إلى تناول الفتنة، ولكنه يلخصها (7 صفحات منشورة) بطريقة يقدم بها خطوطها العريضة[14]، ومن جهة أخرى، يسمح كتاب الصفدي، عمارة

---

[11] R. Sellheim, «Al-Marzubani», EI2, VI, p. 619-620, ne en 297/910 et mort en 384/994.

[12] Ch. Pellat, «Manaqib»,EI2, VI, 337a. Abu al-Husayn al-Razi est cité à deux reprises dans la notice d'Ibn 'Asakir: page 395, ligne 10 et page 410, ligne 15.

[13] U. Sezgin, «al-Mada'ini»,EI², V, p. 950-952.

[14] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الكتاب السابع، «ذكر الفتنة بدمشق» ص. 127 ـ 133، بيروت، 1965.

دمشق في الإسلام[15]، بإنشاء قائمة لحكام دمشق في ذلك العهد. فقد شغل الصفدي (699 ـ 764 هـ/ 1297 ـ 1363) مرات عديدة وظائف رسمية لصالح حكومات دمشق والقاهرة اللتين كانتا مركز نشاطاته. وتتميز أعماله العديدة بمنهجية مبدعة ومتينة، والسير التي جمعها ذات مصداقية كبيرة بشكل خاص[16].

ولكي نعود إلى عامر بن عمارة، فإن دراسته تكشف عن عدد كبير من الشخصيات ذات الانتماء القبلي: فهناك أكثر من مئة وأربعين رجلاً يحملون نسبة تعود إلى هذه القبيلة أو تلك. إن المجموعات القبلية تتكون بشكل عام من نسبتين وذلك بحسب علم نسب تقليدي كان مرجعاً في ذلك العهد: فذرية قحطان تشكل قبائل الجنوب (اليمنيين) وذرية عدنان تشكل قبائل الشمال (القيسيين). ولكي تحدد هوية الأشخاص، حالفنا الحظ بأن تمكنا من الاعتماد على هشام بن محمد بن الصائب الكلبي، ويذكر عادة باسم ابن الكلبي، وهو علامة كبير في علم الأنساب العربي[17]. ولقد ولد ابن الكلبي بحدود عام 120 هـ / 737 م، ربما في الكوفة وقد درس في هذه المدينة وتوفي فيها عام 204 هـ / 819 م أو 206 هـ / 821 م في ظل حكم الخليفة المأمون. إن ملاحظاته بشأن الأنساب القبلية والأنساب العربية معاصرة للفتنة. وقد كان في حياته المرجع والحكم وأحياناً الموزع الساخر لأقسام النسب. وقد استخدم الخليفة العباسي المهدي (المتوفى عام 169 هـ / 785 م) علم ابن الكلبي لكي يرد على اتهامات أُمويي الأندلس[18].

---

[15] عمارة دمشق في الإسلام، صلاح الدين الصفدي، من منشورات صلاح الدين المنجد، الطبعة الأولى، 1955، الطبعة الثانية استخدمت في عام 1983، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، سيذكر هذا الكتاب لاحقاً تحت اسم: عمارة ـ صفدي.

[16] F. Rosenthal, «al-Safadi», EI^2, VIII, p. 783-785.

[17] و. عطا الله، «هشام بن محمد بن الصائب الكلبي»، EI, VI, 516-517. إن الكتاب المستخدم لهذا الكاتب هو جمهرة النسب، الذي درسه وحققه ف. كاسكيل W. Caskel, Gamahart an-nasab. Das Genealogische Werk des Hisam b. Muhammad al-Kalbi, 2 vol., E. J. Brill, Leiden, 1966.

[18] الطبري، الجزء الثامن، ص. 172 ـ 173.

1. 2. تحليل

كانت المعارك بين القيسيين واليمنيين متكررة ودموية أثناء السنوات الأخيرة من حكم والي دمشق عبد السلام بن علي[19]. لقد كانت معارك من نوع المعارك الثأرية وماهيتها غير معروفة في النص. ربما يتعلق الأمر بنزاعات قبلية بين القيسيين واليمنيين بخصوص الأراضي ومن أجل السيطرة على منطقة سورية الجنوبية. ولم يكن الحكام وقواتهم متورطين في هذه المعارك بين القبائل. كان القتلى عديدين ولا تغطي الأرقام «المحاربين» فقط ، وإنما أيضاً المدنيين المقيمين في مضارب الخيام: النساء والأطفال والشيوخ. فعلى سبيل المثال، قتل 600 شخص أثناء هجوم ثأري قام به اليمنيون (تاريخ، ص. 396 السطر 7)، وتجمع القيسيون ليردوا على الهجوم وأعدموا ما بين 600 و 800 يمني (تاريخ، ص. 396، السطران 12 و 13). لا تشمل هذه المعارك الثأرية سوى أقاليم قبلية خارج المدينة: جنوب ولاية دمشق ومنطقة البلقاء. وقد توقفت على إثر تدخل وفد حاكم دمشق الجديد، إبراهيم بن صالح[20]. الذي حضر أمام الخليفة هارون الرشيد في الحيرة[21] وبرفقته 120 رجلاً يمثلون القبائل اليمنية والقيسية، وبحسب تاريخ حكم

---

[19] عمارة ــ صفدي: الملاحظة رقم 168 ص. 73: يتعلق الأمر بعبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبي محمد الهاشمي المتوفى عام 185 هــ، الذي شارك في حصار دمشق (750 م) مع أخويه صالح وعبد الله وابنه علي الذي عرف أيضاً كوال لدمشق.

[20] عمارة ــ صفدي، ملاحظة 2، ص. 23: كان ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، المتوفى عام 176 هــ، والياً لدمشق (169هــ) وواليا أيضاً لمصر في عهد الخليفة المهدي (776/158 ــ 785/169). ولقد عين في عهد هارون الرشيد (786/170 ــ 809/193) للمرة الثانية والياً لدمشق في عام 172 هــ، وله علاقة قربى مع العائلة العباسية والوالي السابق: ابراهيم ابن أخ عبد الصمد بن علي، الحاكم السابق المعزول لمدينة دمشق.

[21] تقع الحيرة حالياً في إقليم مدينة النجف، قرب الفرات. لقد فتح المسلمون هذه المدينة عام 633، وقد نهبت من أجل بناء الكوفة ثم عادت وتأسست من جديد عام 656. وظلت مسكونة أثناء عهد هارون الرشيد (786 ــ 809) والمقتدر (908 ــ 932). انظر ابن شداد، «الحيرة»، EI، الجزء الثالث، ص. 478 ــ 479، D. Talbot Rice, «Hira», Journal of the Royal Central Asian Society, 1932a, p. 254-268 et «The Oxford Excavations at Hira», Ars Islamica 1, 1934, p. 51-73; M.-O. Rousset, «Quelques precisions sur le matériel de Hira (céramiques et verre)», Archéologie Islamique 4, 1994, p. 19-56. وتشهد جميع المعطيات الأثرية على أن الموقع كان مسكوناً بين القرن السادس والعاشر الميلادي.

الوالي الأول لدمشق، عبد السلام بن علي (169 هـ / 785 م)، فقد استمرت المعارك بين القيسيين واليمنيين طوال ثلاثة أعوام.

لقد عاد السلام كما يبدو، ولكن إسحاق[22] بن إبراهيم، المتضامن كأبيه مع اليمنيين[23]، عاد وأجج الحرب الكلامية. وعلى إثر المواجهات أصبح عامر بن عمارة الزعيم المري[24] للقيسيين، سيد دمشق، وهكذا انطلقت سلسلة جديدة من المعارك. وابتداء من معركة باب توما (تاريخ، ص. 401، السطر 8) راحت قوات القبائل العربية تنتظم على شكل جيوش: وكانت تشكيلة القوات تتكون من فرقة الفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة (رماح، خوذات)، مع فيالق من رماة السهام والمقاليع[25]، وطلائع وحملة الرايات التعريفية ... لم يعد هناك مجال للقيام بمعارك قبلية محضة تدور بين القبائل ولا تستثني المدنيين: إنه الدفاع عن مدينة دمشق وأقاليمها بواسطة جيش منظم يستخدم الاستراتيجية والتكتيك. إنه تتابع للمواجهات بين قوات قبائلية منظمة وجيش رسمي، يتكون من جنود[26] الحاكم والقوات الخراسانية التابعة للخليفة. لقد وقعت المعارك عند أبواب المدينة وامتدت إلى قرى الغوطة. وقد فرض عامر بن عمارة على اليمنيين معاهدة سلام تشمل أكثر من ثلاثين قرية من قرى الغوطة، لكن سرعان ما نقضت هذه المعاهدة. عندها تدخلت

---

[22] عمارة ـــ صفدي، ملاحظة 25، ص. 28: اسحاق بن ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وقد كان واليا في ظل خلافة هارون الرشيد.

[23] ابن الأثير، 3/129: «اسحاق كان هو أيضا من أنصار اليمنيين».

[24] تنتمي شخصية الدراسة إلى قبيلة بني مرة، من فخذ مرة بن عوف المرتبطة بمجموعة أكثر انتشارا من عرب الشمال: ذبيان، غطفان، قيس، عيلان ومضر. وقد كان بنو مرة مرتبطين سياسيا بغطفان وبشكل خاص إلى بني خزارة. الذين قاتلوا إلى جانبهم ضد العديد من القبائل E Landeau-Tasseron, «Murra-Banu», EI2, VII, p. 628-630.

[25] انظر ص. 401، السطر 10: رحالة، وهم المشاة، والمرامية وهم السهامون وقانفو الحجارة بالمقاليع.

[26] **بعد قراءة كامل النص، يظهر أن قوات الحاكم والخليفة تحمل اسم الجند، ومن أجل سهولة العمل والفهم بشكل أفضل، سأحتفظ بالتسمية العربية في هذه المرحلة، ففي الواقع يغطي مصطلح الجند، بالنسبة للفترة الأموية، في آن واحد معا مستوطنة ومقاطعة إدارية. وأصبح يعني ابتداء من الفترة العباسية القوات المسلحة، الأمر الذي يؤكد استعمال هذا المصطلح في نص ابن عساكر (D. Sourdel, «Djund», EI2, II,p. 616).**

قوات الخليفة المؤلفة من 20000 رجل تحت قيادة السندي[27] الذي فرض الوضع الراهن على الطرفين المتنازعين: إسحاق حاكم دمشق وعامر بن عمارة زعيم القيسيين. ثم عُزل إسحاق من منصبه وأصبح السندي حاكماً لمدينة دمشق، ثم سرعان ما عين حاكم آخر محله: موسى بن عيسى الذي ينتمي أيضاً إلى العباسيين[28]. ولقد طارد هذا الأخير عامر بن عمارة في حوران ولكن لم ينجح في ذلك. ثم بُدل هذا الحاكم بدوره ليحل محله عبد السلام بن حميد المروروذي. وأخيراً توقفت المعارك بشكل مفاجئ: فقد وصلت رسالة من شقيق عامر بن عمارة بن حريم الناعم يأمر فيها أخاه بمغادرة المنطقة. وهكذا فقد فوض عامر بن عمارة اثنين من ضباطه بقيادة قواته وذهب لينضم إلى أخيه. وتوقفت الفتنة قبل عشرة أيام من نهاية شهر رمضان من عام 177 هـ / 793 ـ 794 (تاريخ، ص. 414، ص. 16 وما يليها). لقد استمرت المعارك المنظمة على شكل جيوش لمدة خمس سنوات. لقد دارت كل أحداث الفتنة من عمليات ثأر أو معارك عسكرية أثناء الأعوام 169 هـ / 785 ـ 86 هـ ـ 177 هـ / 793 ـ 94 م.

سيكون من السهل تحت مظهر الصراع القبلي رؤية التناقض المعروف

---

[27] السندي بن شاهك، مولى للعباسيين من أصل غامض، وقد كان بلا شك عبداً قديماً من السند، استطاع أن ينجح باحتلال وظائف رفيعة، فقد كان قاضياً (ابن قتيبة، العيون، الجزء الأول، ص. 70) وواليا في سورية (الغزي، كتاب الحيوان، الجزء الخامس، ص. 593). ولكن يبدو أنه قد لعب بشكل خاص دور ضابط شرطة مخلص لهارون الرشيد الذي كلفه على الخصوص بتنفيذ قراراته المتعلقة بالبرمكيين. ومن المحتمل أيضاً أنه قد أصبح مدير سك العملة بعد إعدام جعفر البرمكي. ولا يبدو أنه كان مديراً للشرطة فعلاً، وإنما معاوناً لصاحب الشرطة في أحد أحياء بغداد في ظل حكم الرسيد والأمين، إذ كان مستشاراً موثوقاً به يصغى إليه (الطبري، الجزء الثالث، ص. 281) انظر: Ch. Pellat, «Ibrahim b. al-Sindi b. Shahk», EI2, III, 1014-1015, notice sous le nom de son fils et D. Sourdel, *Le vizirat abbaside de 749 a 936* (132 a 324 de l'hegire), 2 vol., P. I.F.D. Damas, 1960, p. 154, 175, 187, 190.

عمارة ـ صفدي، ملاحظة 129، ص. 60: السندي بن شاهك، أبو منصور، مولى المنصور، توفي عام 204 هـ، وكان والياً في عام 176 هـ في ظل الخليفة الرشيد وخلفه على ولاية دمشق موسى بن عيسى.

[28] عمارة ـ صفدي، ملاحظة رقم 272، ص. 107: موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، توفي عام 116 هـ وكان والي إمارة مكة وولاية اليمن والكوفة ودمشق (عام 176 هـ) والقاهرة في ظل خلافة الرشيد.

بين القيسيين واليمنيين، لكن في الحقيقة نلاحظ صراعاً بين أنساب عباسية، وصراعاً كان الخليفة هارون الرشيد يأمل أن يحقق من خلاله الاستقرار في المقاطعات الغربية، أي في بلاد الشام، وبالنسبة لحكام دمشق الذين ينتسبون إلى العائلة العباسية أيضاً يُعبّر هذا الصراع عن النية بخلق ولاية مستقلة تنضم إليها ولاية دمشق في نهاية المطاف. وهكذا وجد صالح[29] أبو إبراهيم نفسه في عام 137 هـ / 754 م مكلفاً بحكم مدن حمص وقنسرين وحلب، وفي عام 785/141 سمي حاكماً لجنوب ووسط سورية بالإضافة إلى مدينة سلمية[30]. إن هذه المنطقة من سورية الوسطى هي أيضاً أحد الأماكن المفضلة للاستقرار بالنسبة لبني كلب وهم قبيلة يمنية كانت تعيش في توافق نسبي جيد مع الحكام الذين ينتسبون إلى صالح. وقد كان بنو كلب والقبائل اليمنية الحليفة يستدعون بانتظام من حكام دمشق والزعماء اليمنيين المقيمين في الغوطة وذلك للمساندة العسكرية أثناء الفتنة.

ينتمي عامر بن عمارة، الشخصية الرئيسية في رواية ابن عساكر، إلى قبيلة كبيرة من قبائل الشمال. ولقد تبوأ بنو مرة مناصب عالية[31] في ظل الحكم الأموي وأوائل الحكم العباسي. فقد كان عثمان بن عمارة بن خريم حاكماً لأرمينيا وأذربيجان وسجستان في ظل الخليفة المهدي (775/158 ـ 785/169) والخليفة هارون الرشيد (786/170 ـ 809/193). وقد كان عمارة بن حريم والد عامر حاكماً لخراسان، ليكون خلفاً لمري آخر هو الجنيد بن عبد الرحمن. كان شيوخ هذه القبائل يشغلون وظائف هامة في التنظيم الإقليمي الجديد الذي وضعه العباسيون، إذ كان تحت سلطتهم المقاطعات الجديدة في آسيا الوسطى والتي كان لدعم قواتها دور حاسم في مجيء العباسيين[32].

يبدو أنه كان من الصعب في نهاية القرن الثامن ضمان الاستقرار في سورية دون التحالف القبلي. فقد كانت كل فئة عباسية تقيم تحالفاً مع أحد

---

[29] A. Grohman. «Salih b. Ali b. Abd Allah b. al-Abbas». EI2, VIII, 1019. Salih b. Ali est ne en 92/711 et meurt en 152/769.

[30] احتفظ ابناء الفاضل وعبد الملك بعد وفاة والدهم بالسلطة على سورية حتى نهاية حكم الخليفة هارون الرشيد (H. Kennedy, Early Abbasid Caliphate, Londres, 1981)

[31] E. Landaeu-Tasseron, art. cit.

[32] C. E. Bosworth, «Khurasan», EI^2, V, p. 57-61.

الاتحادات القبلية القيسية أو اليمنية: فقد كان حكام دمشق يتحالفون مع اليمنيين وهارون الرشيد يتحالف مع القيسيين ولا سيما بنو مرة. وكانت السلطات القائمة من قبل حكام دمشق والخليفة تمارس سياسة التوازن فالقبائل قوى تسمح بتأمين هذا الاستقرار. وهناك استثناء يمكن ملاحظته في لعبة الاستقرار هذه وهي حالة الخراسانيين، تلك القوات المسلحة المكونة من فرق الفرسان، حيث لا يلعب النسب القبلي أي دور. إنهم عسكر منظمون ويدفع الخليفة رواتبهم. وهكذا فإنهم يبيعون أنفسهم إلى من يقدم عرضاً أفضل: فما إن استقرت القوات الخراسانية التابعة للخليفة عند أبواب دمشق وحصلت على السلام بواسطة قائدهم السندي حتى عرض قسم من الخراسانيين خدماته على الحكام الذين يدفعون المال لهم والذين سيقودونهم. وهكذا فهم ليسوا سوى مرتزقة.

2 ـ الأقاليم الإدارية في جنوب ولاية دمشق بحسب الجغرافيين العرب

لقد وصف الجغرافيون العرب الإقليم الإداري لدمشق، عاصمة الولاية التي تحمل الاسم نفسه، ولقد اخترت الأوصاف المتعلقة بالتقسيم الإداري للجزء الجنوبي من الولاية، التي كانت مسرحاً لأحداث الفتنة، وقدم إلينا ابن الفقيه[33] أول وصف لولاية دمشق أثناء النصف الثاني من القرن التاسع. وتتشكل الولاية في جزئها الجنوبي من مقاطعات البثانية وحوران والجولان. إن المدن التي سميت بوضوح هي بصرى وعمان والجابيه. وقد ذكرت الغوطة بشكل خاص، وهي الواحة الملاصقة لدمشق، كما وصف اليعقوبي إقليم دمشق في عام 891 وذلك في كتابه كتاب البلدان[34]. وهو يذكر مقاطعة حوران ومدينتها الوحيدة بصرى، ومقاطعة البثانية ومركزها مدينة أذرعات[35].

[33] Ibn Al-Faqih, *Kitab al-buldan*, éd. De Goeje, BGA, Leyde, 1985, p. 105. H. Masse et Ch. Pellat, *Abrégé du Livre des pays d'Ibn al-Faqih al-Hamadani*, trad., I.F.D., Damas, 1973. H. Massé, «Ibn al-Faqih», EI², III, p. 784-785. Il meurt en l'année 903.

[34] Ya'Qubi, *Kitab al-buldan*, éd. De Goeje, BGA, Leyde, 1891, p. 113 (trad. G. Wiet, Le Caire, 1937).

[35] Actuelle ville de Der'a.

ها هي إذاً باختصار شديد التعريفات الإدارية لإقليم دمشق الجنوبي بحسب جغرافيي العصر العباسي. إن دراسة ابن عساكر ذات قيمة كبيرة بالنسبة لنا، فبالإضافة إلى أهميتها في إدراك الرهانات السياسية خلال الخمسين سنة الأولى من حكم الخلفاء العباسيين، فهي تقدم سلسلة من المعلومات حول تنظيم الإقليم التابع لدمشق. فقد وصفت المعارك بشكل دقيق، وكذلك أسماء القرى، وذكر القصور والحصون التي دارت فيها الأحداث مما يسمح بإنشاء خارطة تساعد على الفهم الجيد لدفاعات مدينة دمشق.

3 ـ معطيات جديدة: الدفاع عن دمشق

لقد تم تنظيم الدفاع عن مدينة دمشق أثناء الفتنة في ثلاث مناطق. فالدائرة الأولى تدافع عن قطاع صغير محدود بالمدينة وبسورها وأبوابها. أما الحزام الدفاعي الثاني فهو يتكون من الغوطة بقراها وبساتينها العائدة للقبائل العربية القيسية أو اليمنية. وأخيراً استدعى زعماء القبائل العربية قواتهم المعسكرة في المناطق المجاورة انطلاقاً من النقاط الوسيطة التي تشكلها قرى الغوطة. وتأتي هذه التعزيزات لقوات العرب الرحل القادمين من حوران واللجا والبلقاء والبقاع والأردن وفلسطين ومن منطقة حمص وكذلك من الجولان.

3. 1. المدينة

قليلاً ما تذكر مدينة دمشق أو توصف باستثناء بعض المعارك الخاصة[36]. فداخل المدينة يبدو ككل مستقل يشكل كياناً قائماً بذاته. وفي المقابل، فإن حدود المدينة موصوفة بشكل جيد من خلال تعداد أبواب السور التي تعود إلى هذا الفرع القبلي أو ذاك. يبدو أنه يكفي السيطرة على أبواب المدينة من أجل امتلاكها. ويعني هذا أيضاً أن امتلاك باب ما يؤمن الحصول على منطقة نفوذ داخل المدينة ذاتها. لكن ليس هناك أي معلومات نصية

[36] حول موضوع التقنيات الخاصة بالمعارك التكتيك والاستراتيجية، نقوم بالمقارنة مع المعطيات التي نشرها V. J. Parry, et M. E. Y app (ed.), War, Technology and Society in the Middle East, Oxford University Press, 1975.

تصف الوضع البشري للمدينة.

فقد كانت دمشق بكاملها أثناء الفتنة تحت سيطرة الزعماء القيسيين. ففي دراسة ابن عساكر لا نجد هذا الأمر بشكل واضح، ولكن هناك مجموعة من المعلومات التي تسمح بالإحاطة «بامتلاك» المدينة. وفي المقابل، فبالنسبة لابن الأثير، من الواضح تماما أن المدينة كانت تحت وصاية عامر بن عمارة: استولى على دمشق[37]. إن موقف السندي مبعوث الخليفة الذي جاء إلى دمشق لإقامة النظام، وموقف سكان دمشق يؤكد تماما هذه الواقعة: لقد كلف السندي عامر بن عمارة بحماية دمشق، حماية كان يطالب بها الدمشقيون.

ولقد أصبح عامر بن عمارة سيدا للمدينة في ظل حكم الوالي إسحاق بن ابراهيم بن صالح. وقد كان أول عمل قام به إثر دخوله هو تحرير المساجين قيسيين كانوا أو يمنيين (ص. 400، السطرين 14 و 15). ويجب اعتبار هذه الخطوة بمثابة عفو عام ضمن إطار سياسة حقيقية لإدارة المدينة وأقاليمها تتلخص بالحصول على الهدوء والقضاء على كل الاحتجاجات من حيث تأتي. إنها لفتة نزيهة تدل على النية بإدارة المدينة دون الاعتماد على الانتماءات القبلية.

الأبواب

يبدو كما تبين الوقائع أن حماية المدينة تعني حماية الأبواب. وفي إطار هذا الطرح فإن معظم الأبواب هي فعليا تحت سيطرة القيسيين. ولقد وقعت عدة معارك داخل المدينة وفي منطقة الأبواب. ولقد ذكر أنه كان لسور المدينة ستة أبواب[38] في نهاية القرن الثامن.

---

[37] «وقد أصبح (أي عامر بن عمارة) سيد دمشق» في دراسة ابن عساكر ص. 400، السطر 11 وما يليه.

[38] بالنسبة لدراسة المدينة طبوغرافيا، سأعتمد على أعمال إرنست ويل Ernest Will («Damas antique»,Syria LXXI ½, 1-43, 1994) الذي يقترح تقييم الوضع الحالي انطلاقا من كل الأعمال السابقة، فالفترات البيزنطية والأموية والعباسية غير واضحة بسبب ندرة المصادر. إن هذا العمل عبارة عن مساهمة تنطلق من مخطط مفترض قديم.

ـ باب توما (اللوحة I، رقم 3)، الذي استولى عليه القيسيون من قبـل، يدافع عنه الزواقيل[39] الذين يقاتلون لصالح عامر بن عمارة. يهاجم اليمنيـون قوة القيسيين التي تتشكل من أربعة فرسان فيقتل هؤلاء أربعة رجال يمنييـن. ويلاحق بقية المقاتلين اليمنيين القوة القيسية إلى داخل باب توما حتى يصلـوا إلى سابات، يسمى اليوم سبات، وهو معبر مغطى بمسكن يتخطـى شـارعاً، وقد ذكر سبات في عهد الانتداب الفرنسي وكان بالقرب من كنيسة في حـي باب توما وهو ما زال مرئياً في أيامنا هذه[40].

شيد اليمنيون سداً في هذا المكان كي يقطعوا الطريق بمحـاذاة كنيسـة القديس توما، حيث تمركز مشاة وسهّامون يمنيون وانتظمـوا علـى شـكل حاجز. فأمر عامر بن عمارة بحرق كنيسة القديس توما لكـي يوقـف تقـدم اليمنيين، فوقفت النار حاجزاً بين المتحاربين، فانكفأ اليمنيون على أعقابـهم. وتعتبر معركة باب توما قتال شوارع حقيقياً، حيث تعود صعوبـة الاسـتيلاء إلى العقبة الطبيعية التي يمثلها وادي بردى الذي يمر خارج المدينة ويحـاذي الباب وهو خندق يمنع الوصول إلى المدينة[41].

أما بالنسبة للكنيسة المذكورة في الدراسة، فلا يمكن أن تكون المصلـى البيزنطي الذي كان قد بني أعلى الباب ثم تحول إلى مسـجد. وتطـرح هنـا مسألة كنيسة توما اليعقوبية، وتقع داخل الأسوار بحسب الوصف الـذي تـم للمعارك في القرن الثامن. لقد كانت هذه الكنيسة موضـع مفاوضـات بيـن

---

[39] إنهم زواقيل قريش. وفي نص ابن عساكر، فكلمة زواقيل تحمل وصف «مـن قريـش (ص. 402، السطر 6)». ويمكن أن تكون هذه المجموعة عشيرة أو على الأقـل مجموعـة يقودهـا رجل من القبيلة. فعلى سبيل المثال كان كعب الأسدي (من قبيلة أسد) يقود خمسـة وعشـرين رجلاً من الزواقيل أثناء الهجوم على حرلان (ص. 409، السطر 5) إن غياب أي ذكر لهم فـي جدول الأنساب لابن الكلبي (جمهرة الأنساب، Caskel) يفسح مجالاً للشك عن الأصل القبلـي لهذه المجموعة.

[40] لا يتعلق الأمر بالبناء المذكور في القرن الثامن، ولكن من المفيد ملاحظة وجود سبات في هذا المكان، بين الكنيسة اليعقوبية ومدرسة دينية بالقرب من سفلة الطلة.

[41] J. Sauvaget, «Une inscription de Badr al-Jamali», *Syria* X, 1929, p. 139 not 2: ويذكر المؤلف جسراً ذا ثلاث قناطر يعود للعهد الروماني يعبر بردى أمام باب توما. هل كـان هذا الجسر موجوداً في القرن الثامن؟ يبقى السؤال مطروحاً.

المسيحيين والمسلمين في مطلع القرن الثامن: لقد تمت المحافظة على كنيسة توما مقابل تهديم الكنيسة المهداة إلى القديس جان باتيست (داخل قدس الاقداس) وذلك لبناء الجامع الكبير[42].

ـ باب شرقي، وهو باب قديم بثلاث فتحات (اللوحة I، رقم 5)، وقد كان يسيطر عليه ابن كمال من قبيلة بني عيسى[43]، المرتبطة بقبيلة بني نمير[44] التي تساند عامر بن عمارة، وهو باب ذو موقع استراتيجي[45]. وقد دخل اليمنيون، الذين يقودهم قائدان شهيران، إلى المدينة وأحرقوا أحد البيوت، فأدى ذلك إلى انتشار الفوضى في صفوف القوات القيسية وسيطر اليمنيون على هذا الباب. وفي هذا الظرف القتالي يمكن افتراض أن باب شرقي هو نقطة استراتيجية لأنه يشكل الحدود بين مناطق المدينة القيسية والقرى اليمنية الواقعة مباشرة إلى شمال وشرق هذا الباب (اللوحة I). وهو أحد طرفي الطريق الروماني «Via Recta»، وهو محور عريض شرقي ـ غربي من الفترة القديمة يسمح بالدخول إلى سهل المدينة بمجرد أن يتم عبور الباب.

لقد دخل اليمنيون إلى المدينة عبر باب الجابية (اللوحة I، الرقم 2). وهي منطقة عامر بن عمارة، وأحرق المهاجمون منازل قريبة من الباب فاندلعت النار على جانبي الطريق. وهي تقنية تستعمل لتكوين عائق: فالبيوت تنهار على المدافعين عن الباب. وقد حوصر عامر بن عمارة مع المشاة داخل المدينة، وانتظر هبوط الظلام لكي يطلب إمدادات خارجية من الفرسان. وهاجم هؤلاء أثناء الليل، وعبروا الحاجز الناري وواجهوا الخصوم اليمنيين. وتحولت معركة الخيالة إلى معركة مواجهة جسداً إلى جسد انتصر فيها القيسيون وكسبوا غنيمة تتألف من سبعة رؤوس من الخيل تم الاستيلاء عليها من اليمنيين.

ـ باب جبير (اللوحة I، رقم 1)، وقد كان في أيدي اليمنيين خلال

---

[42] N. Elisseeff, *La description de Damas*, p. 29, 33 et 61.

[43] تنتمي هذه القبيلة إلى اتحاد قيس عيلان الشمالي وترتبط بمجموعات غطفان (J. W. Fuck, «Ghatafan», EI2, t. II, p. 1046-1048).

[44] ينتمي بنو نمير إلى قبيلة عربية من قبائل الشمال تدعى أيضاً أحماس بني عامر (G. Levidela Vida, «Numayr b. Amir b. Sa 'sa'a», EI^2, VIII, p. 122-123)

[45] لن المصطلح العربي المستعمل هو مصطلح مصلحة، كما أن مفهوم الحد حاضر أيضا.

معركة واحدة، وهو الباب الذي بقربه قام غظافر، أحد رجال الوالي ورئيس القوات الخراسانية، بحرق جامع عندما استولى القيسي دعامه على الباب. وهذا الباب قريب جداً من مقر الحاكم إسحاق الذي تحالف مع اليمنيين أثناء الفتنة. لم أجد أي أثر لنص مكتوب عن هذا الباب، وبحسب سير المعارك، لا بد أنه كان قريباً جداً من باب الجابية. وبحسب الخرائط التي يقترحها س. فاتنغر C. Watzinger و ك. فولتسنغر[46] K. Wulzinger، ونتيكيتا إيليسيف[47] N. Elisseeff ودورتي زاك D. Sack[48] هناك طريق يتوقف جنوب باب الجابية ويربط داخل الأسوار بين الطريق الرومانية «Via Recta» بطريق عرضانية. أما باب الجابية الذي بني في الفترة القديمة فقد اختفى حالياً، وقد كان له ثلاث فتحات على غرار باب شرقي. وكانت هناك قبل القرن الثاني عشر ثلاثة أسواق متمايزة يتم الوصول إليها عبر هذه المداخل الثلاثة[49]. ويذكر ابن عساكر أن الفتحتين المركزية والشمالية كانتا مسدودتين، ولم يكن مفتوحاً في القرن الثاني عشر سوى الفتحة الجنوبية. ويمكن لباب جبير أن يتطابق مع إحدى الطريقين التابعتين لباب الجابية، وبشكل خاص إلى الطريق الجنوبية التي ما زالت آثارها واضحة للعيان، والتي تقود إلى سوق القطن. وبالتالي، يمكن أن يكون قد حصل نقل للتسمية ولم يصل إلينا سوى اسم باب الجابية[50].

لقد توقف عامر بن عمارة عند باب الصغير (اللوحة I، رقم 4) دون أن يقوم بأي معركة: لا بد أنه امتلك هذا الباب أيضاً[51].

---

[46] C. Watziger et K. Wulzinger, *Damaskus, die Antike Stadt*, Berlin-Leipzig, 1921.

[47] N. Elisseeff: *La description de Damas, presenté d'après les données d'Ibn Asakir un plan de Damas au XII siècle.*

[48] D. Sack, «Die Stadt intra muros. Ein Beitrag zu den Arbeiten der Internationalen Kommission zum Schutz der Altstadt von Damaskus», *Damaszener Mitteilungen II*, 1985, p. 207-209.

[49] N. Elisseeff, *La description de Damas*, p. 301.

[50] حول أهمية الجابية، القرية الواقعة إلى الجنوب الغربي من دمشق، N. Elisseeff, *La description de Damas*, p. 206 et 207

[51] هذا الباب الواقع في الجنوب كان موجوداً في العهد اليوناني – الروماني (انظر Will ويل، 1994). وقد بنى فيه نور الدين الزنكي باشورة انظر ن. إليسيف. N. Elisseeff, *La description de Damas*, p. 297 et id., «Les monuments de Nur al-Din», *BEO XIII*, p. 21, n 24.

ـ باب كيسان (اللوحة I، رقم 6)، هاجمه اليمنيــون ولكــن القيســيين استبسلوا في الدفاع عنه[52].

أخيراً لا شك أن السور كان في ذلك الحين مبنياً وذا حجم كبير نوعــاً ما: فهناك كتائب مسلحة تتمركز فوق الجدار وكان الحاكم يتفقدهــا. وكــان السور مرتفعاً بالتأكيد، إذ أن الحاكم كان يطلب من جنوده أن يرصدوا حركــة واقتراب قوات الخليفة التي جاءت من الشرق وعسكرت في مـــرج عــدرا، على بعد 18 كم إلى الشرق من دمشق. وتبقى مشكلة تصور اتساع المدينـــة بشكل عام، أي تحديد موقع هذا السور

3. 2. الواحة:

إذاً المدينة محصنة بواسطة سور مزروع بالأبواب لكنها محصنة أيضــاً بجبهة ثانية تتكون من سلسلة من القرى التي يقطنها القيسيون أو اليمنيــون ، وتتوزع هذه القرى بشكل أساسي شرق وجنوب دمشق، مع عدد قليــل منــها في الغرب، ويتواجد في منطقة هذه القرى مقر والي دمشق. وفـــي الشــمال هناك جبل قاسيون، الذي لا يناسب أبداً استقرار الإنسان، والذي يلعـــب دور الجدار الواقي للمدينة في تلك الجهة. ويسمح ارتفاعه بالإطلال ليس فقط على كل مدينة دمشق ولكن أيضاً على الواحة. كما أن البساتين التي تحيط بــالقرى تشارك في النظام الدفاعي للمدينة. إن المرج والميــدان، هــذان الفضــاءان الخاليان من الأبنية والأشجار، والواقعان بجوار الغوطة همــا مــن الأمكنــة المناسبة جداً لتجمع ولتخييم الحشود.

أ ـ مقر الوالي

ذكرت في مناسبات عديدة تسميات أطلقت في الواقع على مكان واحــد: مقر والي دمشق. إن هذا المقر للسلطة المركزية في الولاية لا يقــع داخــل أسوار المدينة، وإنما يقع على مسافة صغيرة من المركـــز العمرانـــي إلـــى

[52] باب كيسان، ويدعى أيضاً باب القديس بولص، يمكن أن يكون مرتبطاً في العهد القديم ببــاب توما ، وفي هذه الحال كانا يشكلان محوراً شمالياً جنوبياً يقع في شرق المدينــة (Will, art. Cit., p. 26)

الغرب من باب جابر وباب الجابية (اللوحة I، الرقم 8). وفي بداية الفترة الأموية، أقام الوالي الأموي الأول، يزيد بن أبي سفيان في القصر البيزنطي المهجور والقريب من قدس الأقداس Temenos. وكان معاوية يسكن في باب الجابية، وبعد أن أصبح خليفة في عام 656، أقام في المقر البيزنطي القديم الذي كان يطلق عليه اسم الخضرة والواقع إلى جنوب ما سوف يصبح فيما بعد جامع ابن الوليد الكبير. وقد تحول هذا القصر إلى سجن منذ وصول العباسيين إلى دمشق ثم تهدم فيما بعد[53]. وأثناء حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (685 ــ 705) شيد ابنه الحجاج قصراً جديداً، وهو القصر الذي يقع خارج الأسوار إلى الجنوب من باب الجابية وقد سمي بقصر الحجاج[54]. وقد استعمل القصران في الوقت نفسه أثناء الحكم الأموي: الخضرة داخل السور والذي كان يرتبط بالجامع الكبير، وقصر الحجاج خارج الأسوار.

ويبدو أنه أثناء الفتنة، وعلى إثر تدمير قصر الخضرة، لم يشيد قط أي قصر يمكن أن يكون مقراً للولاية. وهناك مكان تم ذكره مرات عديدة على أنه استعمل من ولاة دمشق. وتنقسم تسميات هذا المقر إلى مجموعتين، فالمجموعة الأولى تشمل بستان عاتكة، أرض عاتكة، أو بساتين ابراهيم بن صالح (والي دمشق في بداية الفتنة) التي تشمل منطقة زراعة أشجار المشمش، وتتكون هذه البساتين من أشجار الجوز وأيكات واسعة بالإضافة إلى أبنية مثل القبة التي كان يملكها إسحاق. ويعود اسم عاتكة إلى ابنة الخليفة الأموي يزيد (680 ــ 683) الذي كانت أملاكه تتجاوز باب الجابية بمسافة قليلة[55]. وفي المقابل، فإن التسميات الأخرى كتسميتي قصر الحجاج ودار الحجاج تدل على مكان مبني، أي على مسكن. وقد كان يلتجئ في هذا المكان إسحاق وبعض القوات اليمنية (الصفحة 403، السطر 16). زد على ذلك أن ابن إسحاق قد استقبل السندي في دار الحجاج، وهو الممثل العسكري للخليفة، إذ لم يكن بمقدوره استقباله في دمشق لأن عامر بن عمارة كان

---

53 N. Elsseeff, «Dimashk, EI², II, p. 277-291

54 المرجع السابق، ولا سيما الصفحة 280ب. لقد استمر هذا الاسم بالحياة ويطلق حالياً على منطقة إدارية: منطقة قصر الحجاج.

55 Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médievale*, Librairie Orientale Paul Geuthner, 1927, 294 et Yaqut, *Mu'gam al-Buldan*, I, p. 208.

يسيطر على المدينة.

كان مقر الحاكم لدى الأمويين بمثابة قصر لأفراد عائلة الخليفة. فقد كان مبنياً خارج الأسوار قبالة باب الجابية، ولكنه يقع أيضاً في الواحة. إن الأبنية الدينية، كالقبة، وموقع هذا المقر لا يلغي وجود مقر مركزي للسلطة داخل المدينة، ولكنه لم يتعرض لأي ذكر له أثناء الفتنة.

ب ـ القرى (اللوحة I)

بالرغم من أننا لم نتمكن من تسمية بعض القرى، فالجزء الأكبر منها يعود لليمنيين ويقع شرق وجنوب مدينة دمشق. ولا يوجد في المصادر المكتوبة أي وصف يعطي معلومات عن تنظيم الفضاء في هذه القرى أو عن نظامها الدفاعي. لا بد أن بعض الأماكن قد دخلت الآن ضمن النسيج العمراني القروي. كما أن التعديلات التي طرأت على الغوطة بسبب الإصلاحات الزراعية المختلفة في العصر الحديث لا تعطي كثيراً من الفرص للعثور على آثار المواقع القروسطية. إن البحث في ميدان التسميات يطرح مشكلة أصل السكان الذين يسكنون القرى التي رسمنا توزعها الجغرافي في الغوطة. لقد تمكنت من التعرف على خمس تسميات لقرى وهي أيضاً تسميات لقبائل أو لأفخاذ قبائل. ويتعلق الأمر بالقرى اليمنية التالية: حديثة الجرش، أوزا، حجرا والحميريين بالإضافة إلى قرية محارب القيسية.

القرى اليمنية

يسيطر اليمنيون على ثلاثين قرية، ولم نتمكن من تسمية سبع منها. ومن بين هذه القرى الثلاثين، هناك ثلاث تضم كل منها قصراً. إن موقع بيت لهيا هو الأقرب إلى دمشق، وهو يتطابق حالياً مع جزء من حي القصاع. وبحسب ابن عساكر، هناك العديد من القصور في هذه القرية، وقد ظل أحدها قائماً حتى القرن الثاني عشر، وفي كتاب وصف دمشق للمؤلف نفسه ذكر هذا القصر تحت اسم قصر بحاذيلا وهو ملك لأمير أيوبي هو أخ الملك المعظم[56]. وتقع القصور الأخرى على بضع كيلو مترات إلى الشرق في قرية

[56] N. Elsseeff, *La description de Damas*, p. 150, note 5 et p. 151, notes 1 et 6

إيارماء[57]، وأخيراً تقع قرى ابن معيوف في مقاطعة أو قرية حرلان[58]، والتي يبدو أنها تحدد الطرف الشرقي للمنطقة اليمنية في الغوطة. وتقع قرية حرلان على مسافة قليلة من البحيرات، وهي منطقة تشتهر على أنها منطقة اصطياف للخلفاء الأمويين. وبالنسبة لقرية الجراش المعاصرة[59]، فإن اسمها يلفظ بشكل مختلف في نص ابن عساكر: جُرش، جَرش ونسب الجَرَشي. واسم جُرشي مؤكد لدى ابن شداد: لقد كان أحد أصحاب الرسول، وقد قُتل أحد أحفاده في عام 64 للهجرة[60]. وفي حالة ذكر رجل من جرش (تاريخ، ص. 400، السطر 15)، يمكن أن يتعلق الأمر بأحد سكان القرية أو أحد أفراد العشيرة. يرتبط النسب بالعشيرة عندما يترافق مع تسمية «بنو» (تاريخ، ص. 40، السطر 3)، وهي مع ذلك عشيرة كبيرة، لأنها مذكورة في مناسبات عدة. فعلي بن الحارث الجرشي كان من عداد الوفد الذي ذهب إلى الحيرة عام 120 لمقابلة الخليفة هارون الرشيد (تاريخ، ص. 398، السطر 8). وأثناء معركة باب الجابية، يفر ابن الحارث بن عبد الرحمن الجرشي من رشقات سهام القيسيين (تاريخ، ص. 402، السطر 18)، لكنه يعود إلى المعركة مع تعزيزات من القوات اليمنية في باب الجابية (تاريخ، ص. 403، السطر 2). وأخيراً، إذا اعتمدنا على ذكر الدعم أثناء المشادة التي حصلت على جسر ميطرون (تاريخ، ص. 405، السطر 3)، فإن هذه العشيرة تنتمي إلى فرع بني كلب، وهم قبيلة يمنية. وكان يقود إحدى القوات، القائد ابن المعتصم الكلبي وهو من بني حارث الجرشي. لا بد أن هذه العشيرة كانت قوية نوعاً ما، لأنها كانت تقدم الدعم أثناء المعارك، وكانت تضم أيضاً فرساناً من بينهم

[57] N. Elsseeff, ibidem, p. 252 note 1 : il s'agit de l'actuel 'Ayn Tarma'.

[58] Dussaud, *Topographie historique*..., 1927, p. 302 : يصف ياقوت حرلان على أنها بمثابة مقاطعة في الغوطة (مرجع مذكور II، ص 244)، كما أن بعض القرى التي يذكرها ياقوت كانت إما قريبة جداً من دمشق أو عند حدود المرج باتجاه البحيرات. كانت حرلان تعتبر كملجأ، فلم يكن بإمكان القرى أن تكون عند أبواب دمشق وإنما بعيدة نوعاً ما، وكان أفراد قبيلة الخليفة الأموي يقيمون في هذه المقاطعة.

[59] محمد كرد علي، المرجع المذكور سابقاً، ص. 187.

[60] S. Dahan, *La description de Damas d'Ibn Shaddad* (al-A'laq al-Hatira), PIFD, Damas, 1956, p. 181, ligne 15 et note 7. Caskel, op. cit., tableaux 188/185/176 ou bien 195/176.

جني وهو من أفراد جرش (399 / 11). وكان هذا الرجل معروفاً في وسط قبيلة الجراشي: لقد زوجوه وكان أحد فرسانها. وفي المثال الأخير يختلط اسم جرش بين القبيلة والتسمية: لقد طلب ابن خارجة الجرشي من عامر بن عمارة الأمان لقرى جرش (تاريخ، ص. 405، السطر 16). كما أنه يذكر أيضاً عشيرة حمدان[61]، بني الحجري أثناء معركة باب الجابية، عندما قتل القيسيون الحارث بن سعيد الحجري بن حمدان (تاريخ، ص. 418، السطر 4). فمن هذه القرية أو من هذه القبيلة أتى رجل يحمل راية اليمنيين أثناء الهجوم الذي شنه عامر بن عمارة بن خريم الناعم في بساتين الوالي ابراهيم (تاريخ، ص. 403، السطر 14).

إن اسم القريتين اليمنيتين أوزا[62] والحميريين[63] يعود لاسم قبيلتين يمنيتين، وهما: الحِميَر[64] الذين يعتبرون الأحفاد الأوائل لقحطان وأساس النسب لقبائل الجنوب.

وتقع معظم القرى اليمنية شمال وشرق دمشق.

القرى القيسية

وبالمقابل، إن القرى القيسية التي تم التعرف عليها، من بين الخمس عشرة التي عرفت تسمياتها، تقع في الجنوب. وتمثل خمس منها المواقع الدفاعية المتقدمة للقيسيين وتقع على الطريق المؤدية إلى حوران واللجا عبر حرجلة وإلى سهل البثانية عبر بالاس وكوكبة. ويملك القيسيون قصوراً في قريتي كوكبة[65] والقطيفة[66]. والدفاع من الجهة الشرقية مؤمن بواسطة قرية

---

[61] J. Shleifer, (W. M. Watt), «Hamdan», EI2, III, p. 125-126; cf. *Tabari*, I, 2495.

[62] Dussaud, *Topographie historique*..., 1927, p. 294 et N. Elisseeff, *La description de Damas*, p. 158 note 2 et p. 245 note 6: ضاحية تقع شمال غرب الفراديس في الأعلى وقد دخلت حالياً ضمن النسيج العمراني، تحمل اسم قبيلة يمنية تسكن هنا بالقرب من باب الفراديس.

[63] Dussaud, *Topographie historique*..., 1927, p. 302 et N. Elisseeff, *La description de Damas*, 1959, p. 168, note 4 et p. 169 note 7: تقع هذه القرى عند أبواب دمشق على درب كفرسوس وجنوب صنعا، وهي قرية تقع بين دمشق والمزة، إنها قرية الحميريين.

[64] A. Grohman, «Yaman», EI1, IV,p. 1155-1158.

[65] يتعلق الأمر بكاكبة الحالية الواقعة إلى الجنوب الغربي من داريا. Cf. Dussaud, *Topographie*..., 1927,321; Yaqut, op. cit., IV, 314.

واحدة تقع مباشرة قبل حرلان حيث بنيت قصور الزعيم اليمني ابن معيوف. وهكذا فإن قرية صفا تتوسط بين قرية حرلان الهامة، ولكنها معزولة، وبقية الدفاعات اليمنية المتجمعة إلى الشرق من دمشق. وأخيراً نجد في الشمال قريتين تعودان لقبيلتين متحالفتين مع عامر بن عمارة وهما: قبيلة تغلب وقبيلة ربيعة[67]. إنهما قريتا دوما وبرزة[68] المعلقة في جبل قاسيون. في الواقع، إن المواقع القيسية تحيط بشكل ضعيف، وهذا صحيح، الحزام المكون من القرى اليمنية، ولكن ينقصنا تحديد هوية ست قرى.

إن مصطلح محارب حاضر في النص كاسم لقرية قيسية بشكل عام وربما يعود إلى أفراد عشيرة محارب. ولقد سجن مساعد الوالي إسحاق أربعين رجلاً من محارب (تاريخ، ص. 398، السطر 7). ثم قتل ابن جفنة الزعيم اليمني ثلاث مجموعات من رجال محارب. ولقد سلبت هذه القرية ثم أحرقت (تاريخ، ص. 399، السطر 18). إن اسم محارب هو لعشيرة من قيس عيلان ترتبط من خلال فرع كلاب بن عامر بن صعصعة بن هوازن بن خصفة[69]. وهي عشيرة ينتمي إليها محفوظ المحاربي، وهو مبعوث وصاحب لعامر بن عمارة (تاريخ، ص. 410، السطر 1).

ويؤكد ابن عساكر في كل دراسته بلا استثناء على انتماء القرية وسكانها إلى مجموعة قبيلة شمالية أو جنوبية. إن هذه المرجعية منهجية وثابتة. وفي هذه الحالة فإن واحة الغوطة تنقسم إلى منطقتي نفوذ قيسي أو

---

[66] N. Elisseeff, *La description de Damas*, 1959, p. 199 et Dussaud, *Topographie historique*..., 1927, p. 317: ضاحية أو حي من دمشق جنوب حي الميدان الحالي بالقرب من مسجد القدم.

[67] إن بني تغلب بن وائل عبارة عن قبيلة هامة من مجموعة ربيعة بن نزار. وفي بداية فتنة عبد الله بن الزبير، ساند التغالبة القيسيين في صراعهم مع كلب الكليبيين بن وبَرة، وهي قبيلة يمنية متحالفة مع الأمويين (M. Lecker M., «Taghlib», EI2, X, p. 97-100)

[68] Dussaud, *Topographie historique*..., 1927, p. 286 et 319 et Elisseeff, *La description de Damas*, 1959, p. 151, note 7 et p. 181 note 2, p. 182 note 8: مكان شهير للحج وللتسلية يقع شمال دمشق (الهراوي، 27/11)، وربما يكون ابراهيم قد ولد فيه يدل على ذلك وجود مسجد ابراهيم.

[69] W. Caskel, «Amir b. Sa sa a», EI2, I, p. 453-455.

يمني. وتسمح عملية البحث عن أصل التسميات بتوضيح السيطرة الإقليمية لبعض القبائل أو العشائر التي منحت اسمها إلى القرى.

ويمكن أن نعود إلى العادة المألوفة مسبقاً في المدينة والمتعلقة بامتلاك مكان ما من قبل مجموعة ما[70]: فخلال التجمعات، يتجمع أفراد كل قبيلة من حول زعيمهم في مكان محدد من الموقع الذي يشكل نقطة تجمعهم ويأخذ اسمهم. وهكذا ففي الجامع الكبير في دمشق نجد أن العمود الذي يعلو المدفن الذي يضم رأس القديس يوحنا المعمدان قد سمي عمود السكاسيك وهو اسم القبيلة اليمنية التي كانت تجتمع في هذا المكان[71]. ويبدو أن بعض قرى الغوطة تدين باسمها إلى المجموعات القبيلة التي استقرت أو اجتمعت بها.

قصر وحصن

يذكر النص في مناسبات عديدة قصوراً وحصوناً تعود إلى زعماء العشائر، كتلك العائدة لبني معيوف (زعيم يمني) أو إلى الجماعة القروية أو القبلية: يمكن أن نفترض وجود بناء من الحجر، أو على الأقل أساسات الأبنية، ولكن معظم المساكن مبنية من الطوب غير المشوي. وربما يكون من المعقول أكثر أن نفكر بوجود منازل قد تكون أكبر بقليل وتحتل مواقع استراتيجية في القرى (مكان مرتفع، مكان يسهل الوصول إليه..) وفي وضع مشابه، أثناء حصار دمشق في عام 1148 من قبل جيوش الفرنج، يذكر غيوم في صور هذه القصور إنها منازل عالية يحيط بها سور والرجال مستعدون للمعركة ويطلقون القذائف والأسهم من أعاليها[72]. إن سير المعارك المنظمة يسمح بتوضيح الفرق بين قصر وحصن. ففي نهاية القرن الثامن كان القصر يعني مقراً يسكنه زعيم ما أو أحد الأعيان مثل الزعيم اليمني ابن معيوف أو الوالي إسحاق الذي كان يملك قصر الحجاج. ولم تبن هذه القصور ضمن منظور دفاعي: ففي أغلب الأحيان، كان يكفي

---

[70] J. Sauvaget, *La mosquée omeyyade de Médine*, PIFD 4, Damas, 1947, p. 152.

[71] I. Shahid, «Kinda», EI2, V, p. 121-123.

[72] J.-M. Mouton, «Damas et sa principaute sous les Saljoukides et les Bourides (468-549/1076-1154). Vie politique et religieuse», I.F.A.O, *Textes arabes et études islamiques* XXXIII, 1994, p. 72 a 87.

رس واحد للاستيلاء على قصر. وهذه القصور منهوبة أيضاً. ويبدو أن حصون[73] ذات تحصينات خفيفة بالتأكيد، ولم يكن يسكنها الزعماء أو الأعيان، وهي على الأغلب مكان للحراسة والاستطلاع. وعندما يتم الاستيلاء على حصن، يتم ذلك ضمن عمل تكتيكي من نمط «الهجوم الخلفي» أو «الكلابة» الذي يحتاج لعدد معين من المقاتلين. وكانت الحصون تحرق في الحال. فمن الناحية الاستراتيجية يجب تخريب أي إمكانية لديها لاستقبال الحاميات أو التعزيزات.

ج ـ البساتين

لا تسمح بساتين الغوطة بوصول سهل إلى القرى. فقد كانت محاطة بجدران من الطوب غير المشوي، وكانت الأشجار كثيفة كما يشهد على ذلك الوصف الذي وصل إلينا عن بستان إبراهيم (الحاكم)، كان يضم العديد من أشجار الجوز وأشجار كبيرة يمكن لواحدة منها أن تخفي 200 رجل، وكان بإمكان المدافعين أن يخفوا رماحهم بين الأشجار بحيث أنه لم يكن بمقدور طلائع المهاجمين رؤيتهم (تاريخ، ص. 403، السطر السابع وما يليه). فعلى سبيل المثال أمر عامر بن عمارة ببناء سدود (حواجز) في دروب الواحة، التي أصبحت عبارة عن متاهة حيث كانت القوات تدلف من ثغرة إلى ثغرة في أسوار البساتين. وكانت فرسان عامر بن عمارة قد صنعوا مخرجاً لكي يهاجموا من الخلف وبشكل مباغت القوات اليمنية التي كان يقودها الحاكم إسحاق (تاريخ، ص. 403، السطر 12). ومن جهته أمسك عامر بن عمارة حامل راية عشيرة الحاجوري، وضربه وفج رأسه بضربة من سيفه. ولجأ اليمنيون إلى بستان عاتكة (تاريخ، ص. 403، السطر 14) تاركين خارجه ما يقارب الخمسين مدافعاً. وهي قوات المؤخرة المكلفة بحماية الانسحاب (تاريخ، ص. 403، السطر 16). لكن قوة مكونة من خمسة فرسان قيسيين طاردتهم وحاصرتهم أمام حاجز أحد البساتين، فأسروا اليمنيين وغنموا أسلحتهم وأحصنتهم (تاريخ ص. 403، السطر 19). وكان الحاكم إسحاق

[73] «حصن»، EI2، ص. 498، ليس هناك أي تعريف للمناطق الشرق أوسطية.

يراقب وصول المحاربين من أعلى القبة[74].

تعتبر البساتين تحصينات طبيعية ممتازة لمدينة دمشق كما يذكر بذلك غيوم الصوري أثناء حصار عام 1148. فقد نزلت قوات الفرنج في قرية داريا (اللوحة I، قرية يمنية، الحد الجنوبي للغوطة)[75]. وتشبه بساتين الأشجار أكمة أو غابة كثيفة جداً، فالبساتين مسورة والدروب التي تقود إليها ضيقة ولا تسمح سوى بمرور رجل واحد مع مطيته. ويسمح الغطاء النباتي بنصب الكمائن، ويستطيع الرجال الاختباء بين العليق. وهكذا فإن البساتين ملائمة جداً للمعارك من نمط «حرب العصابات».

2 ـ المرج والميدان: منطقة تمركز القوات العسكرية

لقد أعطيت بعض الأرقام التي تتعلق بعدد العسكر الذين يتنقلون في الغوطة إن كانوا من القبائل أو من جيش الحاكم أو من القوات التابعة للخليفة والمرسلة إلى دمشق. لم أتمكن أبداً حتى الآن من التأكد من صحة هذه الأرقام، فبعضها مرتبط بالتأكيد بأهداف دعائية. كان عدد القتلى يتنوع بين 1 و 800، والقوات الحكومية التي كانت تحت إمرة إسحاق كانت تتألف من 12000 رجل. فهل كان هؤلاء الرجال يكونون حامية المدينة؟ وأين؟ يبقى السؤال مطروحاً. على كل حال كانت القوات توصف بالنفر (مجموعة صغيرة مكونة من ثلاثة إلى عشرة أشخاص، تاريخ، ص. 406، السطر 12)، والعِدَّة والبعثة (قوة). والمدد والربيعة (قوات أمامية).

وفي دمشق كانت تسمية المرج تطلق على منطقة شبه دائرية تقع بين الغوطة ومستنقعات العتيبة والبادية شرقاً. إنه المكان الذي لا نجد فيه لا زراعات ولا بساتين. ومن وراء المرج نجد الحماد، وهي الأرض العاقر[76].

---

[74] القبة: قبر تعلوه قبة. (E. Diez, 1986, «Kubba», EI2, V, 288-296)

[75] J.-M.Mouton, art. cit., p. 80, fig. 5.

[76] M.Canard, 1951, *Histoire de la dynastie des Hamdanides en fatira et en Syrie du nord*, Alger, 1951, p. 204.

لم تحصل أي معركة في المرج الذي يحيط بدمشق من الجنوب والغـــرب، وقد عُرفت المروج جيداً أثناء المعارك الحاسمة التـــي وقعــت فـــي الفــترة الأموية: مرج راهط والذي كان يسمى أيضاً مرج عذراء[77] ومـــوج الصفر[78]. لقد وقعت المعارك إما عند أبواب المدينة، أو في بساتين وقرى الغوطة. ولم ستخدم هذه المروج أثناء الفتنة إلا لحشد القوات العسكرية.

وعندما قاد السندي قوات الخليفة متقدماً نحو دمشق من الشـــمال، فقـد عسكرَ مع 20000 رجلاً في مرج عذراء. وكان اليمنيون يحشدون قواتهم فـي رج الدحداح الواقع إلى الغرب من دمشق باتجاه الشمال بالقرب من مقـــبرة فراديس.

ويوجد على جانبي هذا المرج قريتان يمنيتان: أوزا وبيت لهيا. وكـــان جود هذه القرى يسمح بتموين الرجال والدواب ويقدم إمكانية لتراجع الجنـود ى أراضي القرية بالإضافة إلى البساتين. وقد باغت ضابطان مـــن ضبــاط عامر بن عمارة بهجومهما على القوات اليمنية المتمركزة في مرج الدحــداح، م حرقا القريتين بعد ذلك كي يمنعا الخصم مـــن الانســحاب (تـــاريخ، ص. 40، السطر 6 وما يليه).

وفي المقابل فعندما كان مبعوث الحاكم إسحاق يعود من حملته فـــي حوران. كان يتمركز في ميدان دمشق. ويوضح النص قائلاً: بين استراحة لجمال ومربض الخيل في دمشق (تـــاريخ، الصفحـــة 404، الســطر 1). يعهد الحاكم إلى مبعوثه بكتائب أخرى تخيم في الميدان بالقرب من قصر حجاج. وكان هناك ميدانان في ذلك العهد: ميدان جنوب دمشق وهو حي ميدان الحالي، وآخر غرب المدينة وهو الميدان الأخضر، وهـــو مكـــان ميز للتخييم يقع بين فرعين لوادي بردى، الأمر الذي يســـمح بـــالتمون المياه. وهذا الميدان مذكور باستمرار كمكان لحشد قوات الفرنـــج أثنـــاء جماتهم على دمشق في القرن الثاني عشر[79]. إن ذكر قصر الحجاج، مقر

---

77 N. Elisseeff, «Mardj Rahit», EI2, VI, p. 529-530.

78 N. Elisseeff, «Mardj al-Suffar», EI2, VI, p. 530-533.

79 J.-M.Mouton, *art. cit.*, p. 80, fig. 5.

الحاكم، الذي يقع خلف باب الجابية غرب المدينة يؤكد هذا الموقع.

وعندما أصبح السندي حاكماً بالوكالة، اعتكف إسحاق في ملكيته في دار الحجاج خارج المدينة وحبك مؤامرة ضد عامر بن عمارة الذي ذهب إلى أراضيه في حوران (تاريخ، ص 411، السطر 5 وما يليه). وعندما علم عامر بن عمارة بالمؤامرة حشد قوة من تسعة آلاف فارس ذهبوا إلى قرية الراوية[80] (اللوحة I) التي تعود لقبيلة بني فزارة[81]. ففي هذه القرية التي تبعد بضعة كيلو مترات عن دمشق كان عامر بن عمارة ينتظر وقوع المعركة.

هـ ـ نقاط المراقبة

نستطيع أن نلاحظ في مناسبات عدة تمركز عناصر قيسية أو يمنية في أعالي جبل قاسيون، وكانوا يشعلون النار كي ينبهوا بقية القوات. فعلى سبيل المثال يطل دير مُران[82] على وادي بردى. وهكذا فهو يسمح لليمنيين بامتلاك نقطة عالية لمراقبة كل إقليم المدينة ولا سيما الجزء الغربي حيث يقيم القيسيون. وهذا المكان مذكور في عهد المأمون (813 ـ 833) كنقطة مراقبة[83]. وعلى العكس فإن القيسيين يراقبون من قرية برزة الواقعة شمال

---

[80] Dussaud, *Topographie historique*..., 1927, p. 310 et N.Elisseeff, *La description de Damas*, 1959, p. 142/3: إنها قرية بجامع وزاوية مبنيين فوق قبر أم كلثوم وهو مكان للحج العلوي، وتسمى حالياً قبر الست.

[81] إنها القبيلة التي لها أقرب نسب من بني مرة والتي تحالف معها قبل الإسلام وطوال الفترة الأموية. (E. Landeau-Tasseron, «Murra-Banu», EI2, VII, 628-630; J. W. Fuck, «Ghatafan», EI2, t. II, p. 1046-1048 et W. M. Watt, «Fazara», EI2, II, p. 893-894)

[82] Dussaud, *Topographie historique*..., 1927, p. 298,308 et Yaqut, II, p.969: دير مبني في القرن السابع في مكان يدعى مُران، وغالباً ما كان يذكره الشعراء العرب حيث يمكن تحديد موقعه قرب دمشق على سفوح قاسيون إلى الغرب من حي الصالحية، فوق الربوة والنيرب. وقد كان يرتاد الدير الخلفاء والأمراء والشعراء الذين كانوا يأتونه جميعاً للاستراحة ولشرب الخمر. ولقد توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك (خليفة في الفترة: 88/705 ـ 98/715) في دير مران.

[83] N.Elisseeff, *La description de Damas*, 1959, p. 40 note 1, p. 288: نزل فيه الخليفة العباسي المأمون وحفر فيه قناة للمياه حتى معسكره في دير مران. كما بنى أيضاً قبة في قمة

المدينة على امتداد لجبل قاسيون. ويسمح هذا الموقع بمراقبة كل القرى اليمنية العديدة في هذا الجزء من الغوطة. ومن هنا كان عامر بن عمارة ينبه أصحابه بواسطة نظام الإشارات النارية، المنارات[84] (4/404 ــ 5). وفي الشمال يلعب جبل قاسيون دور الخط الدفاعي الطبيعي. وهكذا فإن مدينة دمشق محاطة بالخطوط الدفاعية من جميع الجهات.

3. 3 توسع إقليم المدينة: جنوب إقليم دمشق (اللوحة II).

يبدو أننا في حضور مجموعات قبلية عربية ما زالت قبائل رحلاً بشكل أساسي، على الأقل بالنسبة لعدد معين من الأفرع. ففي الواقع، إذا درسنا المفردات اللغوية، نلاحظ أهمية التعبيرات القبلية أثناء المعارك. وليس من النادر أن ينادى بالنسب وبقرابة السلف، (اعتزوا، وانتموا) لدى كل فريق أثناء احتدام المواجهات بالإضافة إلى أهمية الأعلام والرايات (رايات، ص. 413، السطر 3، وأعلام) لدى كل فريق. فبعض الأعلام تحمل اسماً، تعلم بني أنس: العروس. وقد ذكرت عملية الاستيلاء على هذه الأعلام أثناء المعارك، وبعد قليل ينكسر الجيش المحروم من علامة تعريفه وانتمائه.

إذاً، لقد كان الزعيم القيسي عامر بن عمارة حامياً لمدينة دمشق بموافقة السندي، ممثل الخليفة وسكان المدينة. لا يبدو أن هذا الزعيم كان يسكن في المدينة، ولكنه كان يأتيها بانتظام، إما من أجل المعارك أو لزيارة قواته التي تعسكر عند أبواب السور. كانت نقطة ارتباطه مدينة بصرى، إحدى ثغور ولاية دمشق التي تبعد أكثر من 80 كم جنوب دمشق. فعلى سبيل المثال، عندما بحث عنه موسى بن عيسى[85]، حاكم دمشق، مع جيش مكون من 3000 رجل، عاد عامر بن عمارة إلى بصرى (تاريخ، ص. 412، السطر 14). ومن هذه

الجبل. وجعل منها مرصداً في القمة من حيث كان يشعل ناراً لكي يتمكن من رؤية ما يحصل لدى جيشه عند هبوط الظلام. وكان النور يصل حتى ممر العقاب (تفرع الطريق نحو تدمر) وحتى جبل الثلج (جبل الحرمون).

[84] J. Sadan, et Fraenkel, «Manar manara», EI2, VI, p. 358-360.

[85] عمارة ــ الصفدي ــ ملاحظة 272، ص. 107: موسى بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، توفي عام 186 للهجرة، والي إمارة مكة وولاية اليمن والكوفة ودمشق (في علم 176 للهجرة) والقاهرة في أيام حكم الرشيد.

المدينة كان ينظم قواته : كان يستدعي أفراد عائلته (تاريخ، ص. 413، السطر 3) ويطلب منهم رفع الرايات ، وكانوا يلوحون بأسلحتهم. وعندما يتكون الجيش، كان عامر بن عمارة يذهب إلى دار أخرى من دوره حيث يحتفظ بالدواب الاحتياطية. كان الجيش القيسي يلاحق جيش الحاكم حتى المسرح الروماني (ملعب الروم)[86] الذي كان حصناً في مدينة بصرى. كان خبر الهجوم القيسي ينتشر بين الفرسان القيسيين فينضمون إلى زعيمهم القادر على امتلاك عدد من الرجال. يحاصر عامر بن عمارة الحصن طوال النهار، ثم يتراجع إلى حوران عند هبوط الظلام (تاريخ، ص. 413، السطر 5 وما يليه). إن وضعية التراجع هذه نحو أراضي سورية الجنوبية قد لوحظت أيضاً عندما أصبح السندي حاكماً لدمشق. وكان عامر بن عمارة، الذي لم يعد مسؤولاً عن المدينة، يمر من قرية براق القيسية[87] ثم يذهب إلى حوارن (تأريخ، ص. 411، السطر 19). وقد أرسل الحاكم قوات خرسانية لملاحقة الزعيم القيسي، الذي عبر اللجا قبل دخوله حوران (تاريخ، ص. 414، السطر 13)[88].

كانت الإمدادات القيسية تأتي من حوران ولكن من مناطق اللجا أيضاً ، ومن بلدة القين، التي يمكن أن تكون قرية عقين الحالية، وبراق، براق الحالية، وكذلك الشعرا. لقد قام الأثري فرانسوا فيلنوف (F. Villeneuve) بمسح أثري لقرية الشعرا في عام 1978. وقد تبين له من خلال هذا المسح الأثري السطحي والتحليل الأول للخرائب، أن القرية قد سكنت منذ القرن الأول ولغاية العصر الأموي، ثم عادت وسكنت من جديد أثناء الفترات الأيوبية والمملوكية والعثمانية[89]. ويؤكد هذا الاستيطان وجود جامع في القطاع **E**. ويفترض نص الفتنة أيضاً وجود استيطان للقرية أثناء الفترة العباسية.

---

[86] يتعلق الأمر بالمسرح الروماني الذي اندمج في بناء لاحق أصبح القلعة في العهد السلوقي.

[87] إنها قرية في شمال اللجا، وهي براق الحالية. ومن هذه القرية يؤخذ الطريق الممتد على طول وادي اللوا، على الخاصرة الشرقية لصبة اللجا البازلتية والذي يدخل إلى جبل العرب.

[88] كانت القوات القيسية تستعمل في هذه الحالة الطريق الروماني الذي كان يعبر اللجا من دمشق إلى السويداء محاذيا الخاصرة الغربية لجبل العرب.

[89] F. Villeneuve, «L'économie rurale et la vie des campagnes dans le Hauran antique (I siècle av. J.-C. – VI siècle ap. J.-C.», *éd.J-M. Dentzer, Hauran I: Recherches archéologiques sur la Syrie du Sud a l'époque hellénistique et romaine*, BAH CXXIV, Geuthner, Paris, 1985, p. 83 et suiv., fig. 4.

وعندما كان والي دمشق يلاحق عامر بن عمارة، الأمر الذي حدث [مـ]رات عديدة، كان هذا الأخير يلجأ إلى حوران حيث يكون في أمان: فبعد [حـ]ملة من البحث امتدت خمسين يوماً، لم يتوصل الوالي وممثله في المنطقة [مـ]ع قواتهما العسكرية إلى أسره. يبدو أن الأراضي القيسية كانت محصورة [بـ]هذه المنطقة من سورية الجنوبية مع بعض البقع اليمنية، كما تشير إلى ذلك الآثار الكتابية المكتشفة في مدينة أذرعات، حيث ذكر أحد أفراد بني كلب على شاهد قبر يعود للقرن التاسع: «الكلبي بن سعيد بن سالم»[90]. ويؤكد اليعقوبي في عام 891 في مؤلفه كتاب البلدان[91]، أن مدينة السويداء محتلة من بني كلب[92] وأن سكان حوران وبصرى هم من قبيلة بني مرة القيسية[93]. وتتطابق مع ما سبق الشهادات والمصادر الكتابية والنصية.

ومن أجل حماية مدينة دمشق، كان القيسيون يستدعون حصراً عشائرهم التي تسكن سورية الجنوبية. وفي المقابل كان اليمنيون يستدعون أفراد نسبهم الذين يسكنون مناطق مختلفة من سورية. وما أن أصبح عامر بن عمارة سيداً لدمشق، حتى جمع اليمنيون قواتهم في الغوطة في بادئ الأمر ثم طلبوا الإمدادات: فلقد نادوا بني كلب في البقاع والجولان (تأريخ، ص. 401، السطر 1 ـــ 3). وبعد هزيمة اليمنيين أمام باب الجابية، قاموا بتنظيم تجمع كبير للقبائل الحليفة القادمة من الأردن والجولان والبقاع. وتتكون القوات الجديدة من بني كلب، ولكن أيضاً من بني عُليم[94]، وبني عبد الله، وبني بلج. ويؤكد النص على أن كل قبيلة كانت مصحوبة بزعيمها ومجلس تم إنشاؤه مع وزيره بن سماك العنسي[95] الذي كان يقود كل العمليات العسكرية: إنه القائد (تأريخ، ص. 403، السطرين 1 و 2). كان يجمع تحت إمرته العديد من العشائر اليمنية. وقد كان بنو عنس يملكون أيضاً راية قبلية

---

[90] C. Gebara. *Les inscriptions funeraires arabes de la ville de Der'a en Syrie*. thèse dactylographiée. Aix-en-Provence. 1980. inscription n 60.

[91] اليعقوبي، كتاب البلدان، ترجمة G. Wiet، القاهرة، 1973، ص. 113.

[92] المرجع السابق، ص. 426.

[93] المرجع السابق، ص. 326.

[94] ان بنو عُليم قبيلة يمنية ترتبط ببنو كلب.

[95] ان بنو عنس قبيلة يمنية تنحدر من حالك مذحج بن عريب بن كهلان بن قحطان.

تدعى العروس (8/416 ـ 9). وكانت بعض الإمدادات تأتي أيضاً من منطقة حمص وتعود إلى ديارها بعد المعارك تحت إمرة زعيم قبيلة بني طي اليمنية (تأريخ، ص. 417، السطر 1). وتأتي هذه الإمدادات من القبائل العربية اليمنية المقيمة في سورية الوسطى حيث مدينتا سلمية وحمص يحكمها أفراد من السلالة العباسية من عائلة ابراهيم وابن إسحاق، اللذين كان كلاهما حاكمين لمدينة دمشق أثناء الفتنة.

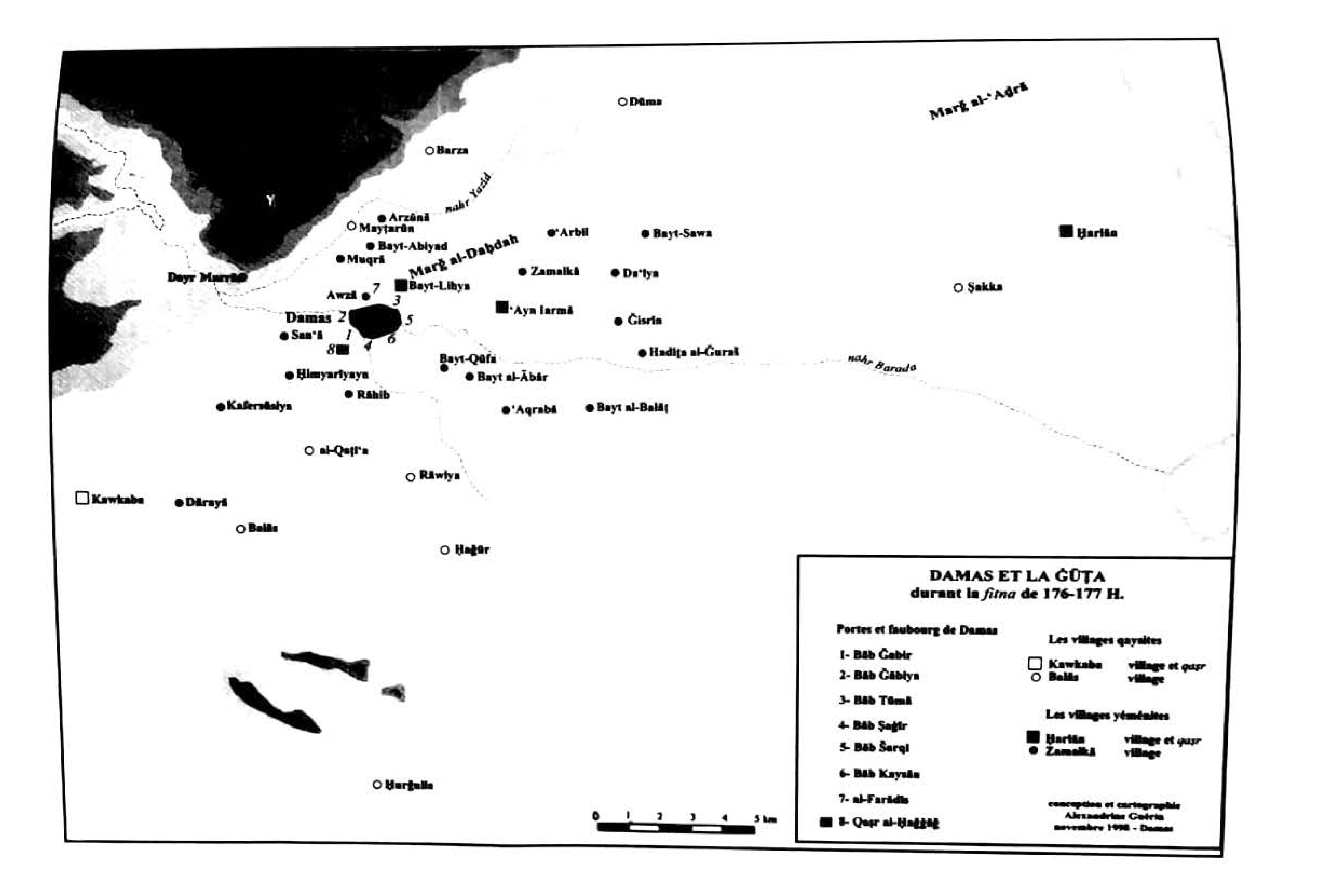
عند استدعاء الإمدادات الكبيرة من الخارج، أي من خارج المحيط العمراني وما وراء العمراني لدمشق، كانت قرى الغوطة تقوم بوظيفة نقاط تجمع للقبائل، وبمثابة معبر للوصول إلى المدينة: الوسيط بين الإقليم القبلي والإقليم الحضري.

خاتمة

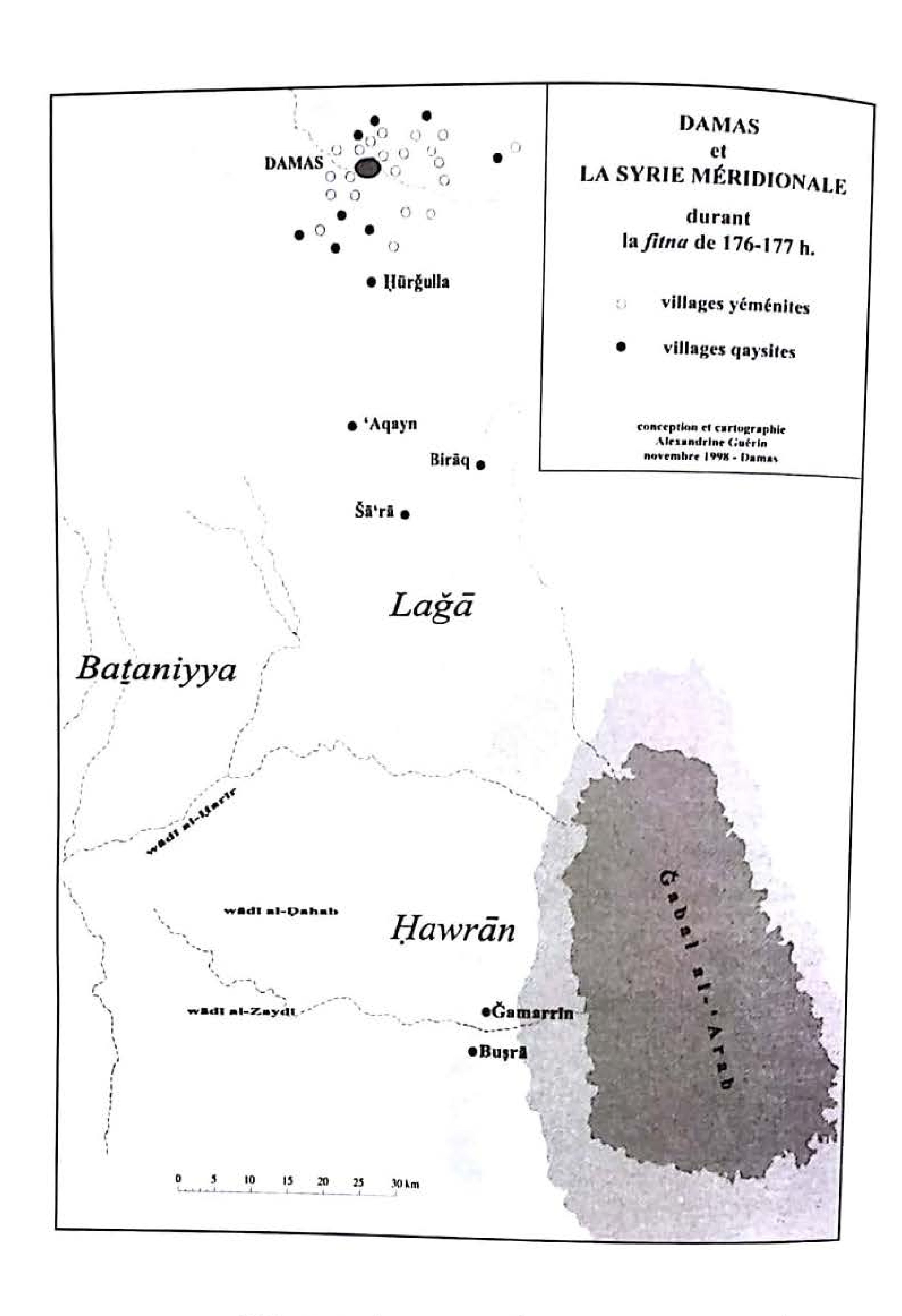
إن دراسة السيرة هذه تسمح بفهم الإمكانيات التي وضعت للدفاع عن مدينة دمشق أثناء الأحداث الاستثنائية مثل الفتنة التي وقعت في القرن الثامن. فالمدينة محمية أولاً بواسطة سورٍ يضم ستة أبواب. ثم تأتي الواحة المكونة من شبكة من القرى التي تتبع لليمنيين أو للقيسيين والتي تشكل سوراً ثانياً. إن هذه القرى وبساتينها هي أماكن التقاء وتقهقر وتموين، وسكانها محاربون أيضاً. كان الرهان يتركز على تحييد القصور، رموز سلطة زعماء القبائل، وذلك بنهبها، وعلى الحصون العسكرية، وذلك بهدمها بواسطة النار. أما المروج والميدان فهي نقاط تجمع القوات، والقرى الواقعة في أعالي قاسيون تفيد كنقاط رصد ومراقبة. في هذه الحالة بالتحديد، تبدو المدينة «خاوية»، ليس من السكان لأننا نراها تتدخل في اختيار حاميها، وإنما من أية إشارة مكتوبة، ويعود ذلك إلى حقيقة عدم وقوع أي معركة داخل المدينة، وإن حصل ففي منطقة صغيرة عند الأبواب.

يجب أن نشير هنا إلى هيمنة القبائل العربية الرحل في الأقاليم التابعة للمدينة. فتحليل التسميات يطرح مشكلة استيطان الغوطة ويبين هيمنة القبائل والتحالفات القبلية أثناء الفتنة. فالمدينة لا يدافع عنها الجنود حصراً، أي

قوات حاكم المدينة. فسرعان ما تُستدعي قوات أخـــرى، كالمرتزقـة مثـل الخراسانيين، أو المقاتلين العرب القادمين من مناطق بعيدة، تبعد أكـثر مـن 80 كم عن دمشق. وتنتظم هذه القبائل العربية الرحل علـى شـكل جيـوش حقيقية وتنقسم إلى وحدات قتالية تتكـون مـن المشـاة والفرسـان، ورمـاة المقلاع، ورماة السهام مع رايات التعارف تحت إمرة قائد. لقد احتفظت هـذه القبائل وزعماؤها بنفوذ كبير على المدينة من خلال الأمـان الـذي منحتـه لقرى بكاملها في الغوطة. فبعض القرى تحمل أسماء القبـائل. إن الغوطـة عبارة عن سور نباتي وبشري بفضل بساتينها وقراها. إنها عنصـر حاسـم في المدينة، من الناحية الاقتصادية والعسكرية وعليـها يعتمـد اسـتقرارها السياسي.



اللوحة 1: دمشق والغوطة أثناء الفتنة في عامي 176 و 177 هـ.



اللوحة 2: دمشق وسورية الجنوبية أثناء الفتنة في عامي 176 و 177 هـ.

مدينة الرحبة وإقليمها
فيما بين القرنين التاسع والرابع عشر[1]

ماري أوديل روسيه Marie-Odile Rousset

المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة)

تتربع مدينة الميادين الحالية، التي عرفت باسم الرحبة في النصوص القديمة، على ضفة نهر الفرات في سورية، على مسافة 45 كم إلى الجنوب من دير الزور. ويلعب النهر في هذه المنطقة، التي يفضل أن يطلق عليها

---

[1] هذه المقالة عبارة عن ملخص كثيف للنتائج المقترحة في أطروحة دكتوراه تم الدفاع عنها في جامعة ليون الثانية عام 1997:« مساهمة في دراسة الفخار الإسلامي: تحليل المواد الأثرية في الرحبة- ميادين (سورية، وادي الفرات)». تعتمد هذه الأطروحة على استثمار المعطيات التي قدمتها تنقيبات البعثة الفرنسية- السورية، التي جرت أثناء ستة حملات تنقيب في الفترة المحصورة بين عامي 1976 و 1980 بإدارة تييري بيانكي (الذي كان في ذلك الوقت مديرا للمعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق) وقاسم طوير (من المديرية العامة للآثار والمناطق في سورية).
لم يذكر موقع الرحبة حتى الآن سوى بشكل مختصر في التقارير المقدمة للجنة التنقيب الأثري في وزارة الخارجية الفرنسية وفي مقالات عامة لتيري بيانكي («البعثة الأثرية الفرنسية- السورية في الرحبة- ميادين»، تاريخ وآثار السكن القر وسطي، في عام 1986،« بعض المسائل المائية التي كشفت أثناء التنقيب في الرحبة- ميادين» في مقالة الأنسان والماء في حوض المتوسط والشرق الأوسط، الماء في التقنيات، في عام 1986، «البعثة الفرنسية- السورية في الرحبة - ميادين في الفترة 1976-1981»، المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية، في عام 1989). ولقد كتبت عن نقود الميادين أرليت نيجر في مجلة الدراسات الشرقية، العدد رقم32- 33 لعام 1980-1981. والنصوص التي تخص الفترة 1075/750 فقد استفاد منها تيري بيانكي في مقالته : « الرحبة والقبائل العربية قبل الصليبيين » والتي نشرت في مجلة الدراسات الشرقية، العدد رقم 41-42 لعام 1993. وقد درس قلعة الرحبة المهندس المعماري جان لويس بابيه في أطروحته التي تحمل العنوان:«قلعة الرحبة، دراسة للعمارة العسكرية الإسلامية القروسطية، والتي دافع عنها في قسم التاريخ في جامعة ليون الثانية عام 1983 وكانت الأطروحة تحت إشراف البروفسور نيكيتا إيليسيف.

وادي الفرات الأوسط، دورين في آن واحد: دور الحد بين ما بين الرافدين والبادية السورية، ودور محور الاتصالات بين العراق والجزيرة من جهة والخليج العربي من جهة أخرى. إن تاريخ مدينة الرحبة وثيق الارتباط بهذا الوضع الجغرافي. فخلال فترة القرون الوسطى، كانت هذه الميزه أو تلك مفضلة، فالرحبة وبعد أن كانت عقدة هامة في الشبكة التجارية الدولية في العصر العباسي، تقوقعت على نفسها إبان الاضطرابات التي ميزت نهاية تلك الفترة ثم أصبحت مستقلة في ظل سلطة بو مرادس، وهي قبيلة تمسك بالسلطة ومترسخة في البادية. ولقد نما السكان وتوسعت المدينة وتطورت أثناء نهضة الحكم الأيوبي. وقد أدى الخراب الناتج عن الغزوات المغولية بدءاً من منتصف القرن الثالث عشر إلى دعم الدفاعات، وانسحب السكان إلى محيط قلعة جديدة، بعيدة عن الأراضي الزراعية، وهكذا رسمت المدينة الجديدة وقلعتها الحد الشرقي للأرض السورية.

يقوم هذا البحث بتقديم نظرة شاملة على مختلف العناصر المتوفرة لإدراك تطور المدينة وإقليمها الذي تتربع فيه. فلكل فترة زمنية هامة، سيتم استدعاء المعطيات التاريخية والأثرية (نتائج عمليات التنقيب المختلفة)، والفخارية والمتعلقة بالتسميات[2] إلخ. سنرى كيف أنه بالنسبة لكل فترة تقدم هذه العناصر معلومات إضافية.

إن موقع الرحبة مزدوج: مدينة على ضفاف الفرات، تحت مدينة الميادين الحالية، وعلى بعد بضع كيلومترات إلى الشرق تجثم قلعة على حافة الهضبة الصحراوية مع بلدة كبيرة عند أقدامها: الرحبة التي احتفظت بالاسم القديم، وقد أجريت حفرات اختبار أثرية (أو أسبار Sondage) في هذين الموقعين، ومن أجل تسهيل الأمر سأعتمد غالباً التسميات الحالية للتمييز بين القطاعين.

---

[2] استدعت الحاجة القيام بالعديد من المهمات الميدانية بدءا من حزيران 1990 وذلك لدراسة أرشيف التنقيبات التي لم أشارك بها، وصناديق الفخار (50 صندوقا) في الفترة الواقعة بين عامي 1992و 1994. لقد مولت هذه المهمات الميدانية من قبل قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية والأثرية في وزارة الخارجية الفرنسية والمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، والمركز الجامعي للتاريخ والآثار في العصور الوسطى. وأشدد هنا على تقديم الشكر لمديرية الآثار والمتاحف في سورية على الدعم الذي قدمته أثناء هذه الأعمال.

بحسب النصوص المكتوبة، تأسست مدينة الرحبة فوق أرض بكر في ظل خلافة المأمون (198/813–218/833). وتبين النصوص أهمية المدينة الواقعة عند تقاطع لطرق القوافل، والتي تنتمي لمنطقة طريق الفرات وهي مقاطعة إدارية أنشئت لحماية طريق بغداد الرقة. كانت تملك جسراً على الفرات، يتكون على الأغلب من القوارب، ويقع عند مستوى الرحبة.

لدينا القليل من العناصر لاستيعاب طبوغرافية المدينة في العصر العباسي. إننا نعرف من خلال النصوص أنها كانت على شكل طيلسان. وهو خمار مخصص للرجال وربما يكون على شكل مستطيل وطويل.

لقد تم الكشف في المستويات الأكثر عمقاً من حفرات الاختبار، التي تم الوصول إليها في مساحات محدودة، عن حجرات كبيرة الأبعاد، تعود على وجه الاحتمال إلى أبنية واسعة[3]. إن تشييد الجدران والأرضيات، المبلطة بالطوب المشوي. متقن الصنع. ويتميز المستوى الثاني بإعادة استخدام البينات نفسها، مع أرضيات جديدة من التراب المرصوص أو مبلطة.

لقد كشفت دراسة الفخار العائد إلى المستوى الأكثر قدماً، عن مجموعات قابلة للتأريخ تعود إلى عصر ما قبل سامراء(قبل عام 836) ، وهو ما يؤكد الفرضية القائلة بأن المدينة قد تأسست في عهد الخليفة المأمون. لنذكر من بين هذه الفئات الدهان الخزفي (التزجيج) في تل أسود، والدهان الخزفي الفيروزي على عجينة فاتحة اللون، والفخار المزين بالنتوءات، والأواني ذات الشفاه المزدوجة، والأسرجة المزينة بالنتوءات الزخرفية[4]. بينما نجد أن الفخار والعائد للمستوى الثاني، يملك في عهد سامراء (تزجيجاً قاتماً، تزجيجاً مزين على شكل بقع، مستوردات صينية، قدور من فخار قابل

---

[3] لقد تم عرض التطور العمراني للرحبة، بحسب الحي المنقب، أثناء المؤتمر الذي عقد في برلين عام 1994:« تطور العمران في الميادين (سورية)». مقالة لـ : بارتل K BARTL وس . ر هاوزر S.R. HAUSER الديمومة والبتول في شمال ما بين الرافدين منذ الفترة الهلنستية وحتى بدايات الإسلام، في حولية Berlin, Berliner Beitrage Zun Vorderen Orient 17.1996 ص. 194–185.

[4] هناك كتاب عن الفخار في طور التحضير: الرحبة– ميادين (سورية، وادي الفرات)

للكسر «بريت لوير» *Britte Iware* ، فخاراً رقيقاً، قشـــر البيـض). إن هـذا التأريخ مؤكد بفضل قطعتين من النقد وجدنا علـــى أرضيـة البنـاء يعـود تاريخهما إلى الفترة 865/251 -868/255 .

وهناك قطعة نقدية ثالثة وجدت في طبقات التراب، وهي مسكوكة فـي الرحبة، ويعود تاريخها إلى عام 911/298. إن وجود ورشة لسك النقود فـي العباسية في الرحبة هو برهان إضافي على الدور الذي كانت تمثله بالنسـبة لمختلف القادة السياسيين في المنطقة.

إن دراسة توزع مراتب الفخار العباسي(الشكل 1) تكشف، من جهـة، عن التقليد المعمول في صناعة الأشياء الموروثة من عهود سابقة، ومن جهـة أخرى عن تخصص بعض المناطق، بل بعض الورشات الكبيرة، في صناعـة منتجات خاصة (الفخار ذي التزجيج القاتم والفيروزي في البصرة، وقــدور الخابور، والتزجيج على شكل خطوط عمودية في تل أسود...) يجب اعتبـار هذه النتائج مؤقتة، وذلك بسبب قلة عناصر المقارنة المتوفرة. مع ذلك، يبـدو أن الرحبة كانت تندرج في ذلك العصر، فيما يخص التبادلات الاقتصاديـــة، في كل واسع نوعاً ما يتوافق مع المنطقة التي تسيطر عليها السلطة العباسية.

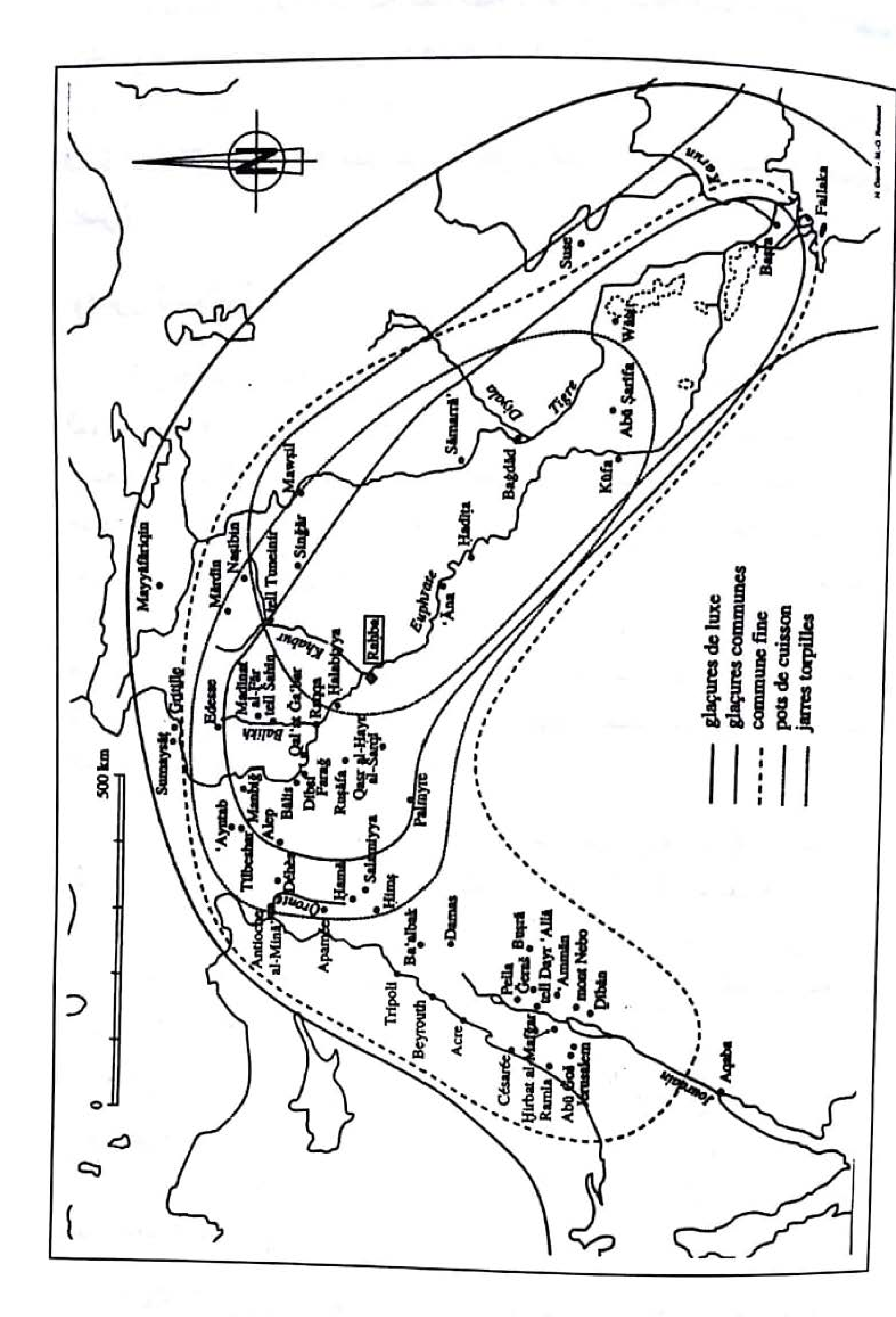
لقد روى ياقوت القصة الأسطورية لتأسيس المدينة[5]

في هذه الأثناء يبدو من المحتمل أكثر، والنصوص الأخرى تتفق علـى هذه النقطة، أن مدينة الرحبة لم تتأسس إلا فيما بعد وذلك فـي ظـل خلافـة المأمون (813/198-833/218). ولا بد من ربط عملية تأسيس المدينـة مـع الاستثمار الزراعي للإقليم وذلك بفضل الري الذي تم تأمينه بواسـطة نـهر سعيد، وهو القناة التي يعتقد أن ابن الخليفة الأموي عبد الملك هو الذي شـقها. ولم تسمح الحفريات في القناة والمقاطع بالوصول إلى القاع، لكنها كشفت عـن استخدام أقدم للقناة يعود إلى القرنين العاشر والحادي عشـر. ويمكـن فـي المقابل تأريخ المرحلة الأول في المواقع المرتبطة من بداية العصر العباسي[6].

---

[5] ياقوت الحموي (m.122)، كتاب معجم البلدان Ed. Wüstenfeld, Leipzig, 1866-1873

[6] S. Berthier et O. D'Hont, «Le peuplement rural de la moyenne vallée de l'Euphrat a l'époque islamique (VII-XX siècles)», *Arch.I.*, 4, p. 171 et 173



الشكل 1: مخطط عام لانتشار الفخار بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

إن مدينة الرحبة العباسية المندمجة تماماً في شبكة المبادلات ما بين الأقاليم، تدين بجزء كبير من ازدهارها لدخلها الزراعي.

فترة استقلال الرحبة (منذ نهاية القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر)

وصول السلاجقة

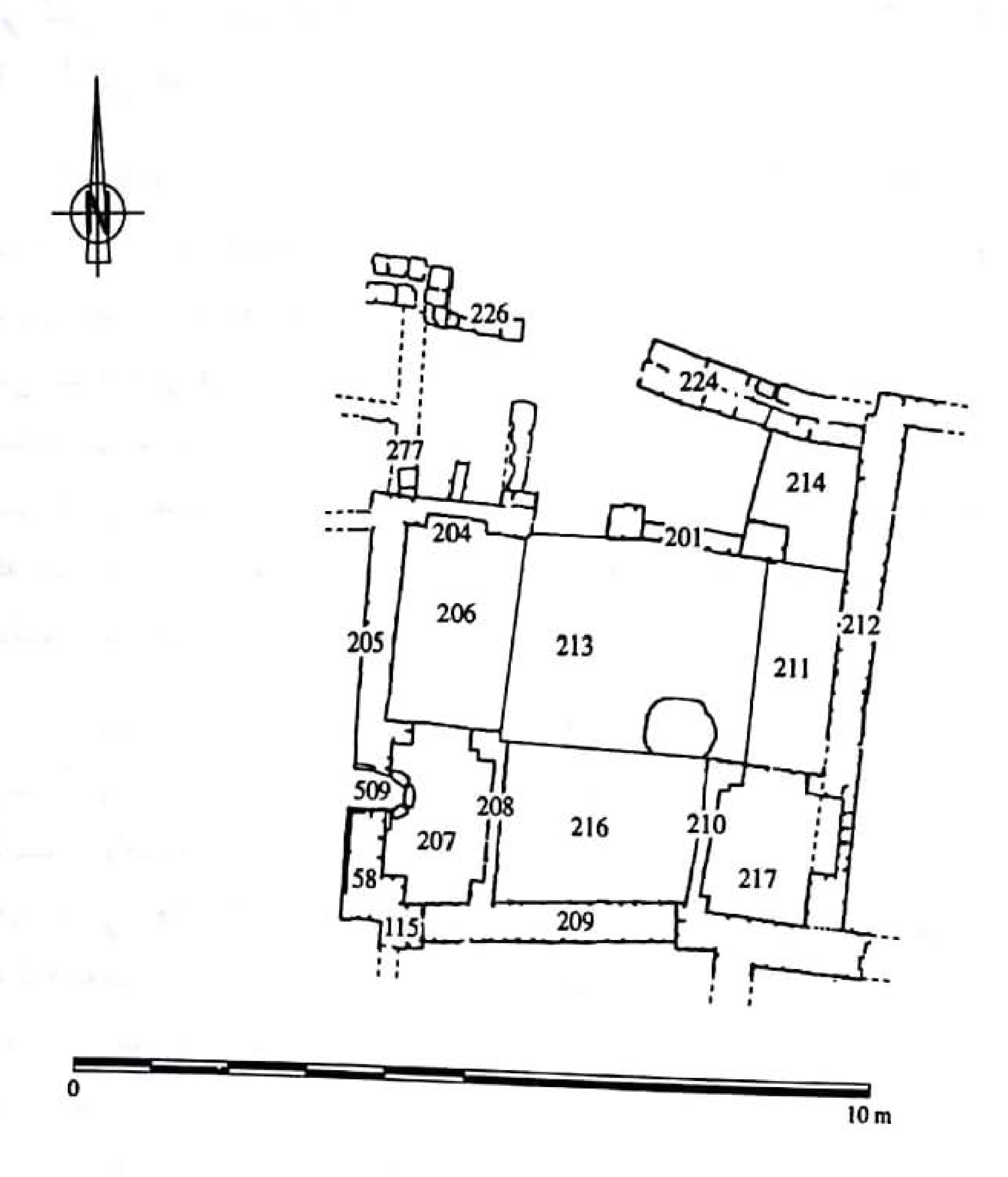
كان حكام الرحبة في القرن العاشر يتبعون بالتناوب الحمدانيين في الموصل، والفاطميين في القسطاط أو البويهين في بغداد. لقد سهل تجزؤ السلطة السياسية في نهاية العصر العباسي هيمنة حكم المرداسيين على المنطقة (1005/396-1080/472) . وهكذا أصبحت الرحبة مستقلة وسيطرت على منطقة تشتمل على الوادي الأوسط لنهر الفرات، وسورية الوسطى، وحلب, وقد فرض النظام مؤسسها صالح ، وعلى الأخص بفضل اتفاق سلام ضمني مع البيزنطيين.وقد تمكن السلجوقيون الذين كانوا يعيثون فساداً في المنطقة منذ منتصف القرن من دحر المرداسيين وحكم المدينة لصالح الخلفاء العباسيين في بغداد حتى عام 1127/521.

إن أهمية الرحبة مؤكدة تماماً كمركز عمراني في وسط إقليم ما بين الرافدين السوري في القرن الحادي عشر. كان لا بد للمدينة أن تكون محصنة، وهناك ذكر للأسوار التي كانت ربما من الطوب النيء، في النصوص ·أثناء إعادة بنائها في عام 970/360. والعديد من الإشارات تتحدث عن أبراج بالإضافة إلى حصن.

تتمثل الفترة المحصورة بين نهاية القرن العاشر والقرن الحادي عشر، وهي فترة غير معروفة كثيراً في مواقع أخرى، في الرحبة بمستويين، تعكس المواد التي عثر عليها استمرارهما، وهو إشارة على أن الاستخدام البشري لهذا القطاع قد تتابع دون انقطاع.

يتعلق الأمر في البداية بطبقات سميكة من راسب خفيف غني بالفخار، فلا يبدو أن الحي قد كان كثيف البناء في ذلك العصر (بعض الجدران

المهدمة أو المستخدمة من جديد في العصر اللاحق) . وبسبب غزارة الفخار يمكن اعتبار هذا القطاع إما أنه كان يستعمل كمكب، أو أنه يتوافق مع وجود مساكن صغيرة من نوع الخيم، وهناك أرض غير مستوية تغطي جزءاً كبيراً من القطاع المنقب.



الشكل 2: الميادين . مخطط البيت رقم 5: ثلاثة أواوين مفتوحة على الفناء

لقد شيدت منازل فيما بعد (المستوى الثاني). إن بعض الأبينة التي ثقبت في بعض الأحيان الأرضيات في المستوى السابق، قد خلفت على

الأغلب المساكن الخفيفة، فهي تستعمل مخططاً مربعاً يتضمـــن غرفـاً ذات زوايا مغلقة وأواوين (دواوين) في منتصف الجوانب تتوضــع حـول فنـاء مركزي (تتراوح المساحة بين 31 و 95 م^2، الشكل 2) . إن هذه الوضعيــة غير المألوفة كثيراً في منطقة الشرق الأوسط، تشبه تماماً، في المقابل، لتلـك التي تميز بيوت باميان في شرق خراسان، التي تعود يعــود تاريخـها إلـى القرن الثاني عشر[7].

إن قلة هياكل البناء التي اكتشفت في المستوى الأول قد تعوضت عـبر الكشف عن ورشة لصناعة الفخار المطلي بالخزف. وقد تم التعــرف عليـه بفضل العثور على نفايات لفخار مشوي غير مطلي، وذلك في حفرة اختبـار على ضفة النهر فوق آثار الجدار الأيوبـــي، (الشــكل 3، الحفـرة 14 a، إن الطبقة التي جاءت منها هذه الكسرة الفخارية تمتد تحت الأســاس الحجـري للسور). إن القطع المطلية بالخزف التي تشبه من حيــث الشــكل والعجينـة النفايات المذكورة سابقاً، قد عثر عليها في المستوى المتطبـــق مـن حفـرة الاختبار الرئيسية.

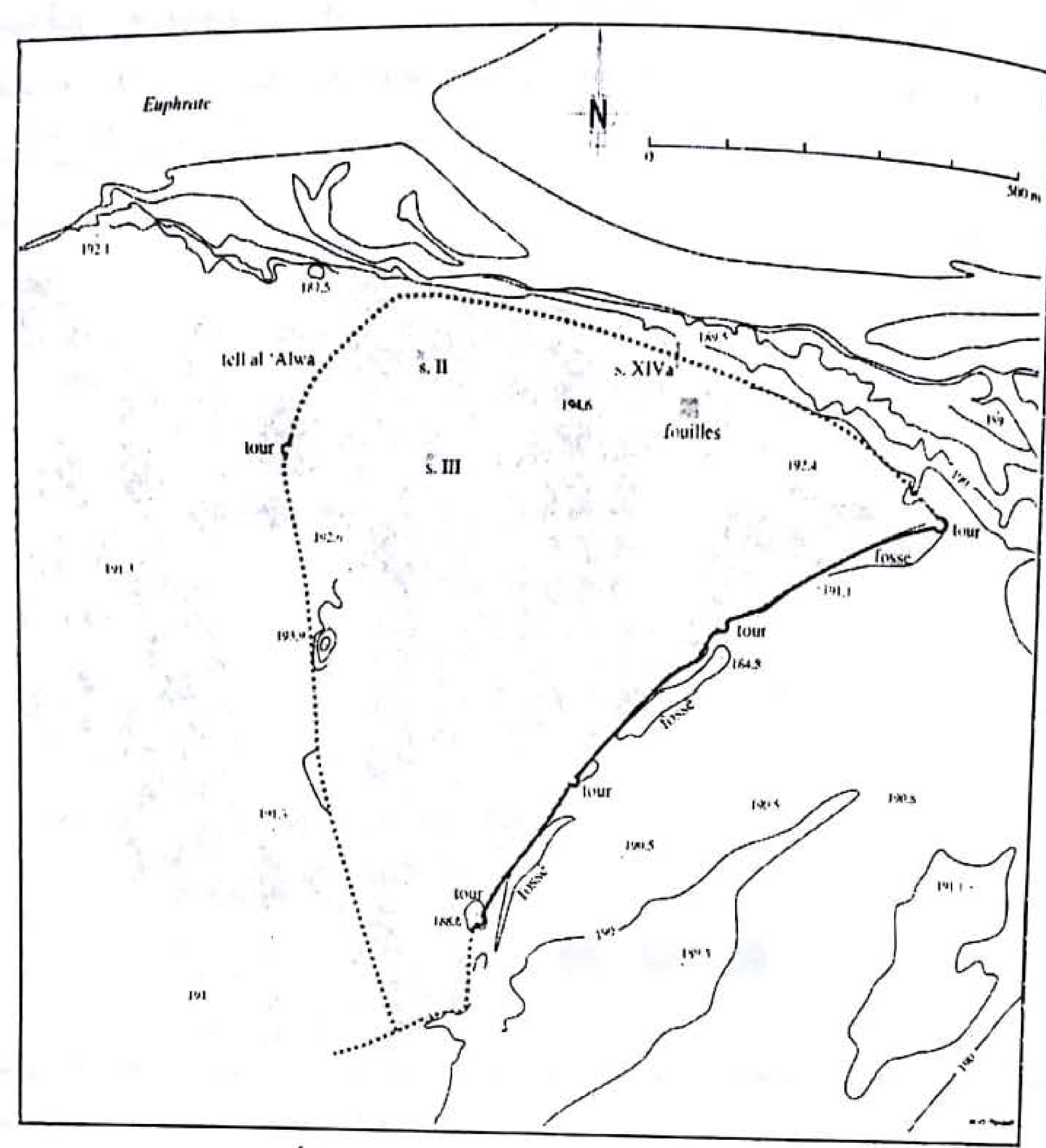
إن منتجات ورشات الفخار في الرحبة في القرن الحادي عشر مزينـــة برسم أو بأثلام تحت الطلاء الخزفي أو مدهونة بالدهان الفخاري الأبيـض أو الأحمر بالإضافة إلى البني المنغنيزي (الشــكل 4 و 5). إن هــذه التقنيـات معروفة في العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر ولكنها تسـتعمل بطـرق مختلفة بحسب المناطق، وبالتالي حسب الورشـات. ولقــد سـمحت دراسـة المنتجات المصنوعة في الرحبة بالكشف عن التأثيرات الفارسية في صناعـة الفخار المزجج والمزخرف بالألوان، الأمر الــذي يمكــن تفسـيره بــهجرة الحرفيين الفرس إلى المناطق الغربية.[8]

---

[7] A. Godard, «L'origine de la madrasa, de la mosque et du 16, 1966, p.1-9

[7] A. Godard, « caravanserail à quatre Iwan», *A.I.*, 15-16, 1966, p.1-9

[8] انظر على سبيل المثال، التشابه الغريب، إن كان من حيث الشكل أو الزخرفــة، مـع فخـار سيرجان: P. Morgan et J. Leatherby, «Excavated ceramics from Sirjan», *Syria and*



الشكل 3: الميادين، مخطط عام للمدينة وإعادة تصور السور الأيوبي

(بحسب Lower Euphrates Region, L 2143, 1964)

ينتشر فخار الرحبة الذي يمكن أن يقيم كفخار شبه فاخر، في منطقة ضيقة، من عانه إلى قلعة جعبر، أي على طول الفرات الأوسط. إنه إنتاج إقليمي، موزع في عدة ورش صغيرة[9]. إن تداخل مناطق انتشار الفئات الأخرى من الفخار التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر تتطابق مع سورية الوسطى ومع وادي الفرات الأوسط (الشكل 6). وتبدو هاتان

[9] تم اكتشاف ورشات أخرى، مثلاً في الرقة: C. Tonghini et J. Henderson, «An Eleventh-century Pottery Production Workshop at al-Raqqa. Preliminary Report », *Levant*, 30, 1998, p.113-127

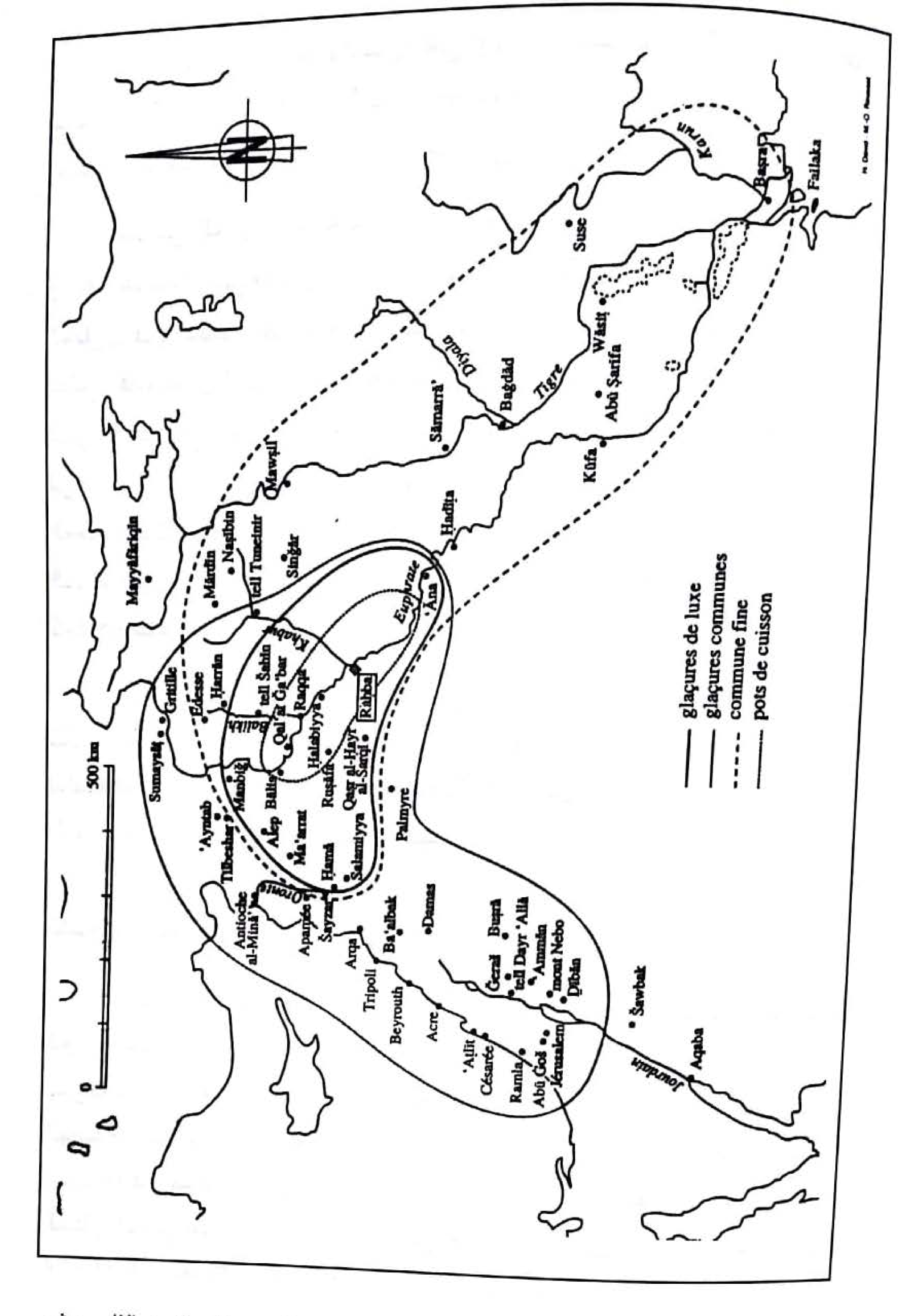
المنطقتان مرتبطتين جداً بتلك الفترة، من خلال حركة تنقل الفخار. وتتطابق هذه الحركة مع الأقاليم التي يسيطر عليها المرداسيون في زمن استقلال الرحبة ويبين أن هذه السلالة الحاكمة، ذات الأصل البدوي، كانت تحكم مع بقائها مرتبطة بالبادية، التي كانت تأوي القوات المسلحة لبني مرداس.



الشكل 4: فخار مزجج من القرن الحادي عشر. زخرفة مطلية. خزف شفاف بنقط خضراء.



الشكل 5: فخار مزجج من القرن الحادي عشر. زخرفة مطلية



الشكل 6 : مخطط يبين انتشار الفخار بين القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر

لقد ساعدت قوة المرداسيين على ازدهار النشـــاط الاقتصــادي علــى مستوى ذلك العصر، الذي لا يملك أية عملة إسلامية كشاهد عليه، ولكن تــم اكتشاف ثلاث قطع نقدية بيزنطية تعود إلى منتصف القرن الحادي عشر.

كما هي الحال بالنسبة لمنتجات الرحبة الفخارية التي تحدثنا عنها سلبقاً، ورغم المسافة التي تفصل بين المنطقتين (2500كــم) ، نجـد أن مخططـات المنازل في الميادين قد عرفت أيضاً تأثيراً فارسياً قوياً في مطلع القرن الثاني عشر. فاستعمال الإيوان ليس فقط نتيجة لتأثير تقاليد منطقة ما بين الرافديــن الذي استمر في العصر الأيوبي. وهكذا علينا أن نتصور وجود حركة للسكان من الشرق نحو الغرب. يتعلق الأمر هنا في الواقع بنمــاذج عديـدة تخـص العمارة المنزلية، التي لا تحتاج مخططاتها إلى معماريين، وإنما إلى تقليد فــي البناء. ليس من السهل، في هذه الحالة، تصور انتقال بسيط لبعض الحرفييــن، كما افترضنا بالنسبة للفخار.

كانت الرحبة في ذلك العصر تمنح الأمن والطمأنينة لسكانها. فالحمايــة كانت مؤمنة في آن واحد بفضل بنية المدينة (التحصينات) وأيضــاً بفضــل سلطة قوية تحكم المنطقة المجاورة أيضاً. إن عامل الجذب الذي يملكه هــذا الأمن يمكن أن يفسر قدوم السكان الجدد.

تكثيف الاستيطان

أصبحت المدينة تحت سيطرة الزنكيين في الموصـــل بحـــدود أواســط القرن الثاني عشر. ولقد منحها نور الدين الزنكي في عـــام 1164/559 إلــى شيركوه، شقيق مؤسس العائلة الأيوبية الذي بدأ ببناء القلعة الواقعة على حافـة الهضبة، على مسافة بضعة كيلو مترات من النهر، وربما أيضاً قلعة المدينــة الجديدة، في مستوى أدنى من الأولى. لقد انتقل المركز العمراني إلــى هــذا المكان الأكثر أمناً. تحت حماية الحصن في الوقت الذي كانت تتعرض فيــه المنطقة إلى الغزوات المغولية (الاستيلاء على بغداد في عام 1258).

لقد تكثفت عمليات البناء أثناء العصر الزنكي (1127/1174) والعصــر الأيوبي (1174/569، 1258/657) ، واستعمل جزء من الأبنية الســابقة فــي

حين أن تغييرات قد ظهرت في تنظيم السكن، الذي تميز بتقليص المساحة وبإشغال المساحات الحرة وبظهور الطوابق المتعددة وذلك لجعل المساكن تتلاءم مع تمركز السكان وزيادة عددهم. فالآبار حفرت عند قواعد الجدران، وأصبحت مشتركة بين عدة أبنية (الشكل 7). وقد بدت هذه المنازل شبيهة بتلك التي نقبت في باليس. فالمخطط مستطيل الشكل وقد تم التعامل مع بعض العناصر المعمارية بالطريقة نفسها: مراحيض في قاعة المدخل، الأدراج، الآبار، نظام تصريف المياه المستعملة، فناء أخفض من الحجرات المحيطة به.

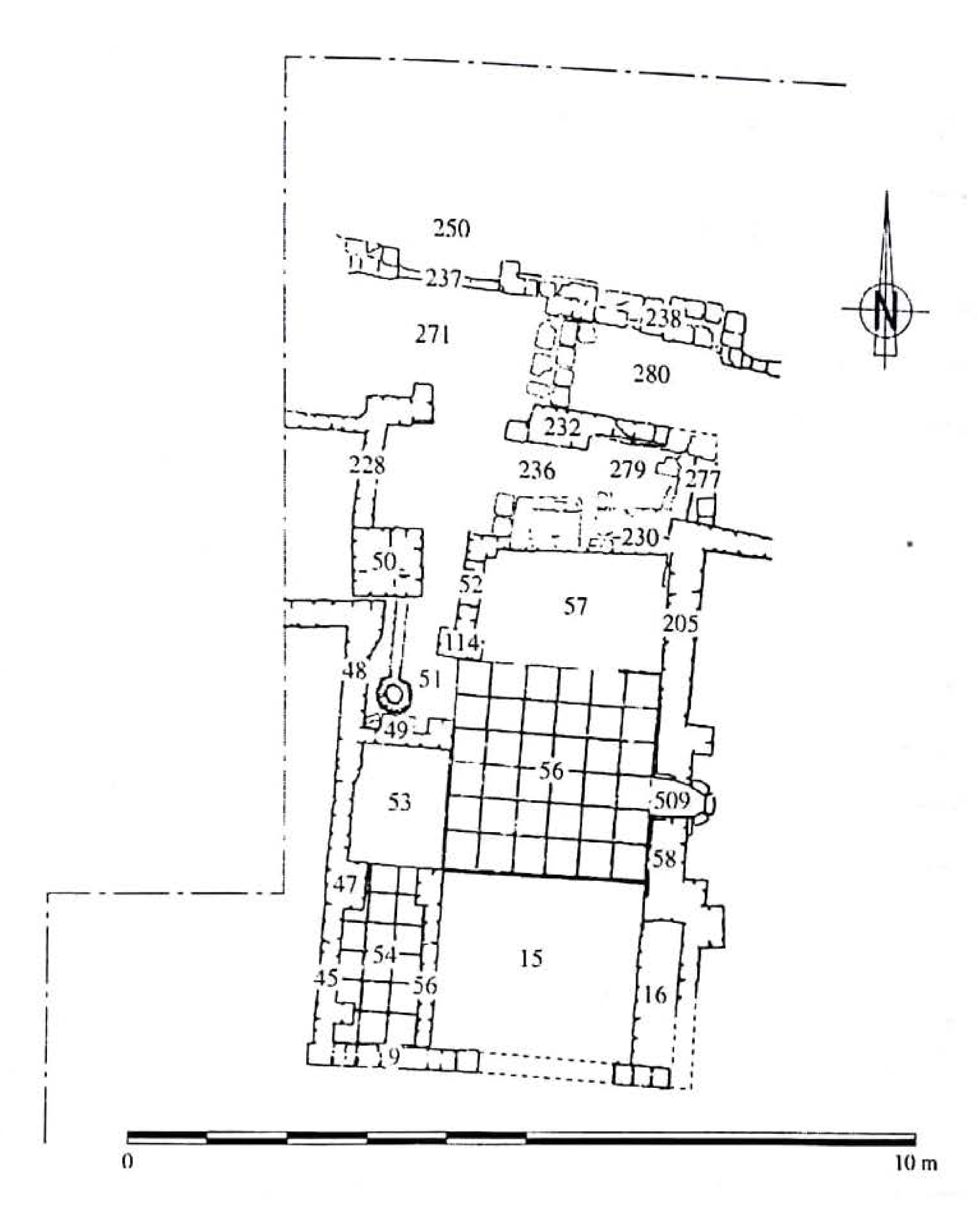
وقد سمح المسح الأثري الذي أجري بواسطة الصور الجوية بالعثور على أثر لجدار السور الذي تم تأريخه بواسطة حفرة اختبار، وهو يعود إلى العصر الأيوبي (الشكل 3). إن مقارنة مساحة المدينة المحددة بأسوارها بالمدن القروسطية الأخرى، مع الأخذ بعين الاعتبار العديد من العوامل، تضع الرحبة (40 هكتاراً) مباشرة بعد الرقة (146 هكتاراً بالنسبة للمدينة العباسية) وحلب (54 هكتاراً في نهاية القرن الحادي عشرو83 هكتاراً في منصف القرن الثالث عشر)[10].

إن كلتا المدينتين قد شغلتا في آن واحد في العصر الأيوبي، وفي العصر نفسه بني مسجد كبير بجوار القلعة في مدينة الرحبة الثانية (الشكلان 8 و10). ويتكون مخطط المسجد من باحة مركزية مع بوابات مرفوعة من جوانبها الثلاثة وقاعة للصلاة تقوم على أعمدة من جهة الجنوب. وقد تم كشف المحراب وقاعدة المنبر أثناء عمليات الاستقصاء الإضافية في عام 1996 (الشكل 11)[11]. وقد بنيت المنارة في الوسط تقريباً فوق الجدار الشمالي.

---

[10] كانت باليس وعانة تملكان في العهد نفسه مساحة 15 هكتاراً تقريباً، ومدينة حران 104 هكتاراً.

[11] موسم التنقيب الذي تم في الفترة من 25 تشرين الأول وحتى كانون الأول من عام 1996، برفقة هيثم حسن (المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية) وآن بود من الـ (CIHAM) انظر : M.-O Rousset,«La mosquée de Rahba», *An.Isl.*,32,1998,p.177-217

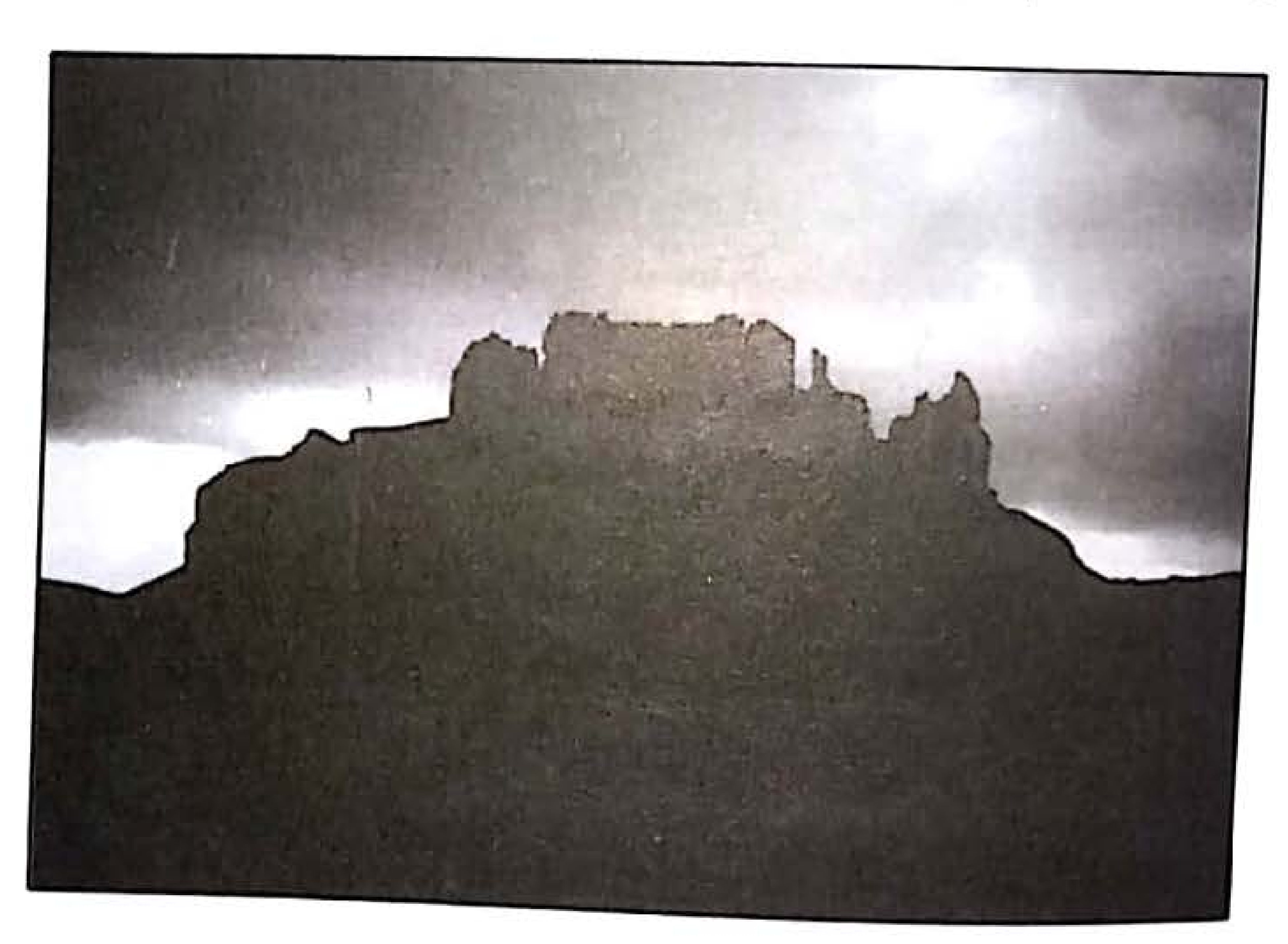


الشكل 7: الميادين : مخطط البيت رقم 6.

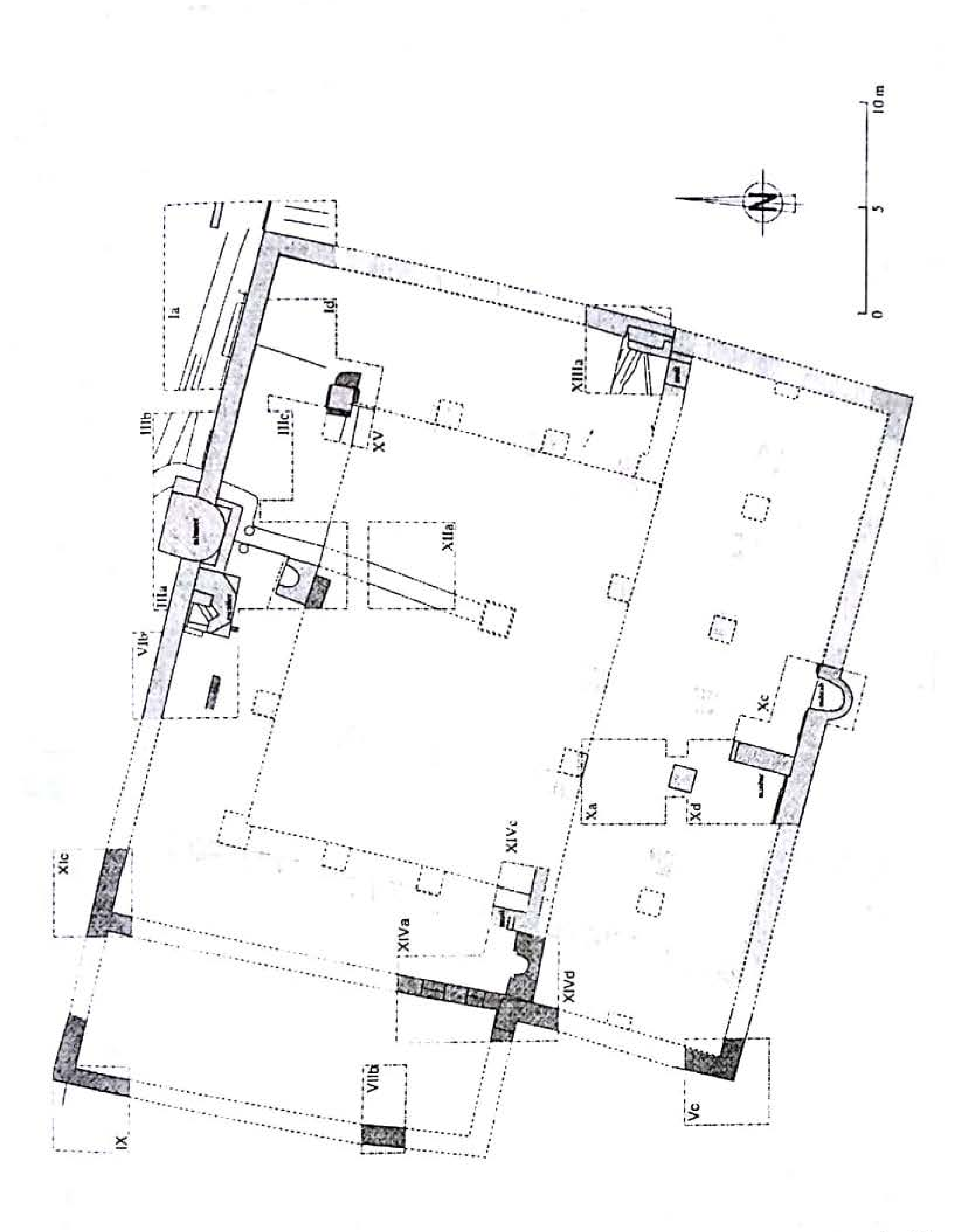
وقد تمكنا من أن نلاحظ في الفترة نفسها، مساحات من الفخار تعود للعهد الأيوبي وبقع من الأرض قاتمة اللون فوق الهضبة إلى الخلف من القلعة والتي تشترك مع آثار خفيفة لجدران والتي لا يمكن تجاهلها. يبدو أن الأرض قد سكنت في هذه الجهة على شكل خيم أو اسطبلات لأحصنة جنود القلعة، أو أرض لسوق عند حد التماس بين البادية ومدخل القلعة (يبدو أن هناك آثار لجسر معلق في مواجهة الباب).

limite du site
0
100 m
190,6
191,3
193
191,5
mosquée
225,3
village
195
231
197,5
citadelle
233
244
plateau
230,3
200
210
205
220
215
225
230
230
vers la steppe
225
229,7

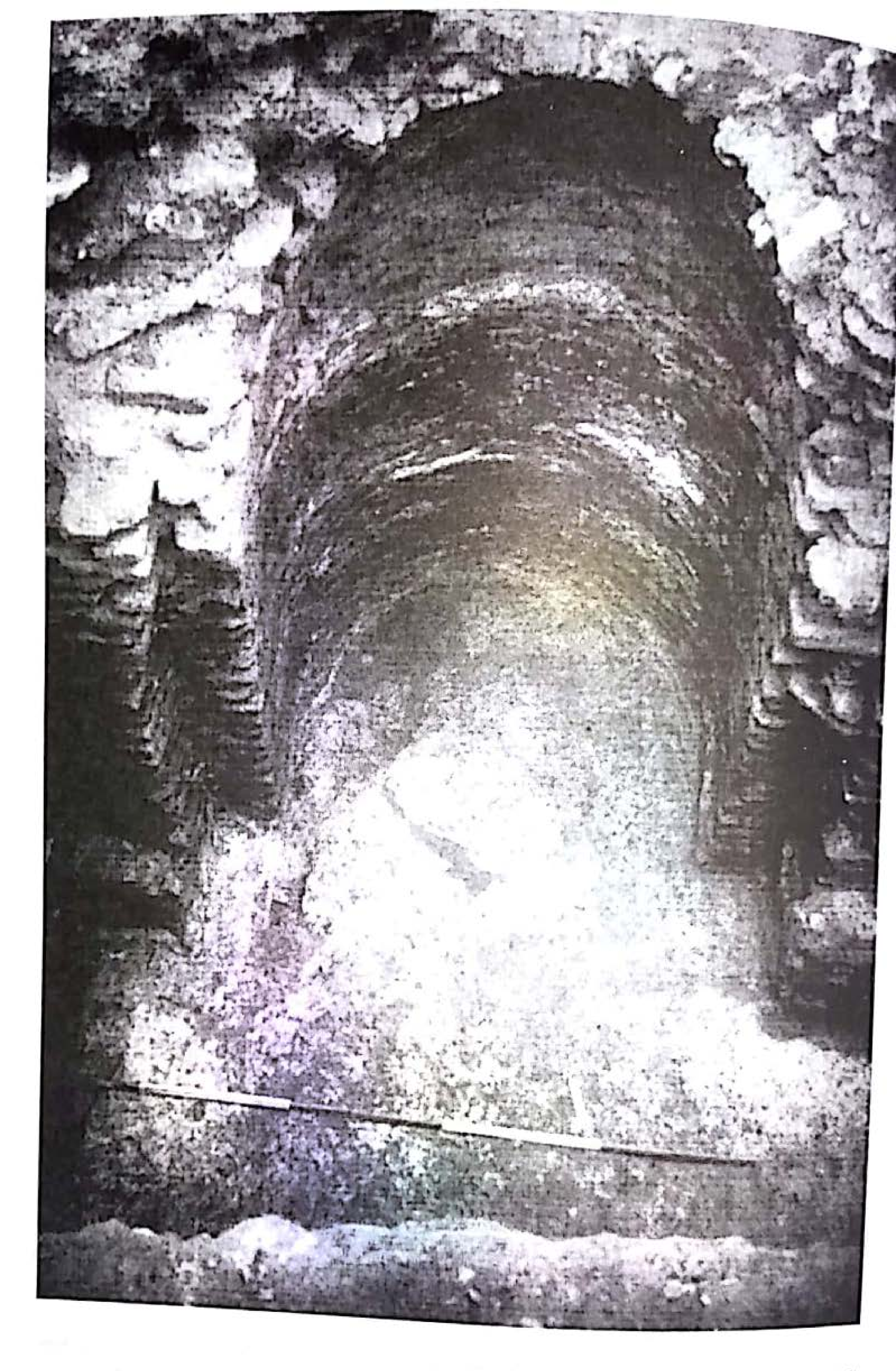
الشكل 8: مخطط عام لمدينة الرحبة



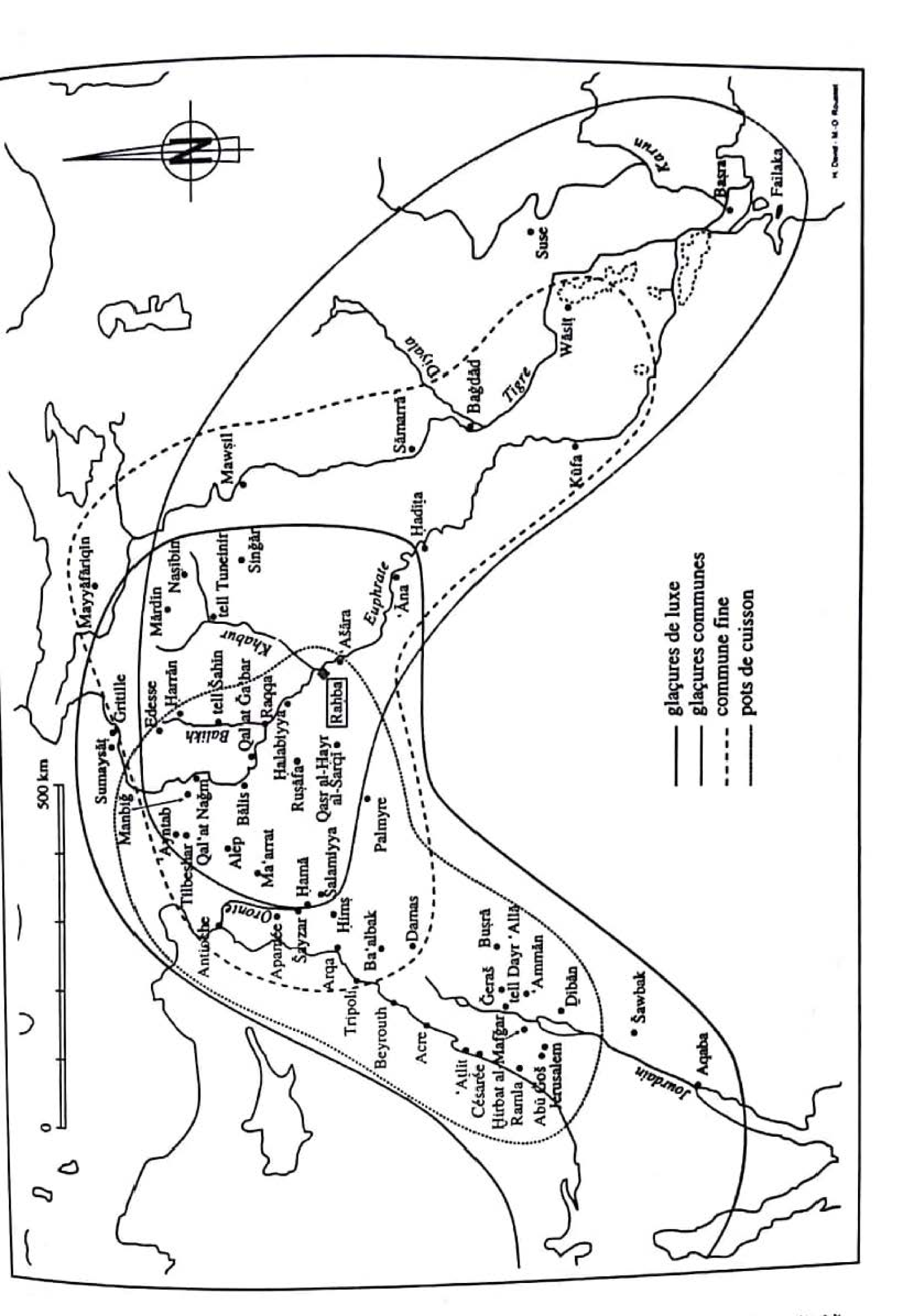
الشكل 9: صورة لقلعة الرحبة مأخوذة من الشرق



الشكل 10: مخطط مسجد الرحبة، المرحلة الأولى من البناء.



الشكل 11: محراب مسجد الرحبة.



الشكل 12: مخطط عام لانتشار الفخار من منصف القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر.

لقد ظهرت بعض التجديدات في صناعة الفخار: القصعات ذات الحواف الداخلية المنبسطة، ذات العجينة السيليسية والتزيين الملمع باللون البني القاتم، والأباريق المقولبة المسماة«الموصلية». يبدو أن مصدر هذه الأخيرة هو العاصمة الزنكية، كما يبين ذلك توزعها الجغرافي (الشكل 12). وهكذا يبدو ثانية أن توزع المنتجات الفخارية مرتبط بشدة بالسلطة المسيطرة. فقد انتشر الفخار ذو الزخرفات المقولبة أو الملصقة، من الجزيرة، موطن هاتين السلالتين الحاكمتين، نحو الداخل السوري، وبالتحديد في الفترة الزنكية ثم الأيوبية.

إن الفخار المزجج المألوف يقدم أشكالاً مشابهة مع منطقة ما بين الرافدين. إنه يتابع Perpetu التقليد الصناعي الموروث من العصر العباسي.

إن الفخار الذي تم العثور عليه من الرحلة الأولى من مسجد الرحبة أقل تنوعاً من فخار الميادين، ومع ذلك فإن مجموعة الأشكال متشابهة.

وينتشر الفخار السيليسي المزخرف بالأسود كلياً (الشكل 13) من غرب الجزيرة حتى ساحل البحر المتوسط، كما هي الحال، وبدرجة أقل، فخار الطهي.



الشكل 13: فخار كامل يدعى «فخار الرقة» تم العثور عليه في بئر. عجينة سيليسية. زينة بالطلاء الأسود تحت تزجيج فيروزي. النصف الأول من القرن الثالث عشر.

لقد بينت عمليات المسح الأثري أن الضفة اليمنى للفرات كانت كثيفة السكن في العصر الأيوبي[12]. ويلتصق بالقناة خمسة عشر موقعاً أثرياً يعود تاريخها إلى ذلك العصر. وهي دليل على أن « نمو مدينة الرحبة في ذلك العصر قد دعا إلى ضرورة استثمار أراض زراعية جديدة، وبالتالي إلى بناء أو إصلاح نظام الري»[13]. وقد كشفت التنقيبات الأثرية فوق القناة عن بناء قناة فرعية ثانية في القرن الثالث عشر. وبحسب الجغرافي أبي الفداء، كانت الرحبة الأيوبية والقلعة تغذيان بالماء بواسطة تحويلة لنهر سعيد، ومع ذلك لم نعثر على أي أثر لهذه التحويلة على الأرض[14]. تنهض مدينة الرحبة بشكل خفيف فوق السهل، وقد تم تجاوز مشكلة هذا الارتفاع باستخدام النواعير لرفع الماء. وقد تم العثور على قواعد قواديس النواعير الفخارية ذات الصفات المميزة أثناء المسح الأثري وأثناء التنقيب في المواقع التي تحاذي نهر سعيد وذلك منذ العصر العباسي[15]. ولا بد أن هذه الآلات قد سمحت بتوزيع أوسع للمياه مقارنة بالاستعمال البسيط للأقنية بطريقة الري بالراحة.

لقد توجهت الرحبة ووادي الفرات الأوسط في العصر الأيوبي نحو منطقة ما بين الرافدين وسورية الداخلية، وعادت التبادلات لتنشط من جديد بشكل واسع.

رهان الرحبة في مواجهة الغزوات المغولية

غدت قلعة الرحبة، منذ منتصف القرن الثالث عشر، قاعدة للدفاع في الجبهة الشرقية لدولة المماليك في وجه المغول، الذين لم يتمكنوا قط من الاستيلاء عليها بالرغم من محاولاتهم العديدة. ولا تذكر النصوص في تلك الفترة سوى القلعة ووظيفتها الدفاعية. كما أن تطور مدينة الرحبة الثانية الواقعة على حافة الهضبة شديد الارتباط بنشاط القلعة.

---

12 Simpson, « K. Arhaeological Survey in the Vicinity of Tall al –`Acharah», *A.F.O.*, 31, p. 187

13 Bernard Geyer et J.-Y. Montchambert, «Prospection dans la basse vallée de l'Euphrate syrienne» , *A.A.S.*, 33, I, 1983, p. 263

14 أبو الفداء، تقويم البلدان، éd. J.T. Reinaud; W. Mac et G. De Slanc, *Géograhie d'aujourd'hui*, Paris, 1840, p. 281.

15 S. Berthier et O. D'Hont, 1994, p. 172

تتميز هذه الفترة في الميادين بالتخريب الذي وقع إثر حريق شب في جزء كبير من القطاع المنقب، مما سمح بالعثور على عدد كبير من الفخاريات في موقعها في الأرض. فأقام السكان بشكل مؤقت فيما بعد في خرائب المدينة الأيوبية. لقد بنوا الجدران الصغيرة، وخزانات المياه وعادوا أحياناً لاستخدام حجارة بناء كبيرة. ففي مربعات التنقيب تم العثور على طبعات لأعمدة في الأرض فسرت على أنها أعمدة الخيم. وقد أشار أبو الفداء بحدود عام 1320/720 إلى وجود أبراج ما تزال منتصبة بين خرائب المدينة القديمة[16].

يبدو أن مسجد الرحبة قد وسّع ليتمكن من استقبال عدد أكبر من الناس. فالأروقة أعلى من الفنار وموسعة، وأنشئت التمديدات المائية (الشكل 10).

وقد سمحت عناصر مختلفة قدمتها هذه الدراسة باعتماد تأريخ بعض مراحل البناء وإدراجه في التطور العام للموقع الأثري. وليس من المستبعد أن يكون هناك بنية تسبق مرحلة البناء الأساسية للقلعة في نهاية القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر. إن مراحل الترميم الأساسية تشهد على الاهتمام الخاص الذي أعطته السلطة المملوكية للمحافظة على هذا الموقع الدفاعي المتقدم في قلب منطقة يتعرض جزء منها لغزو المغول.

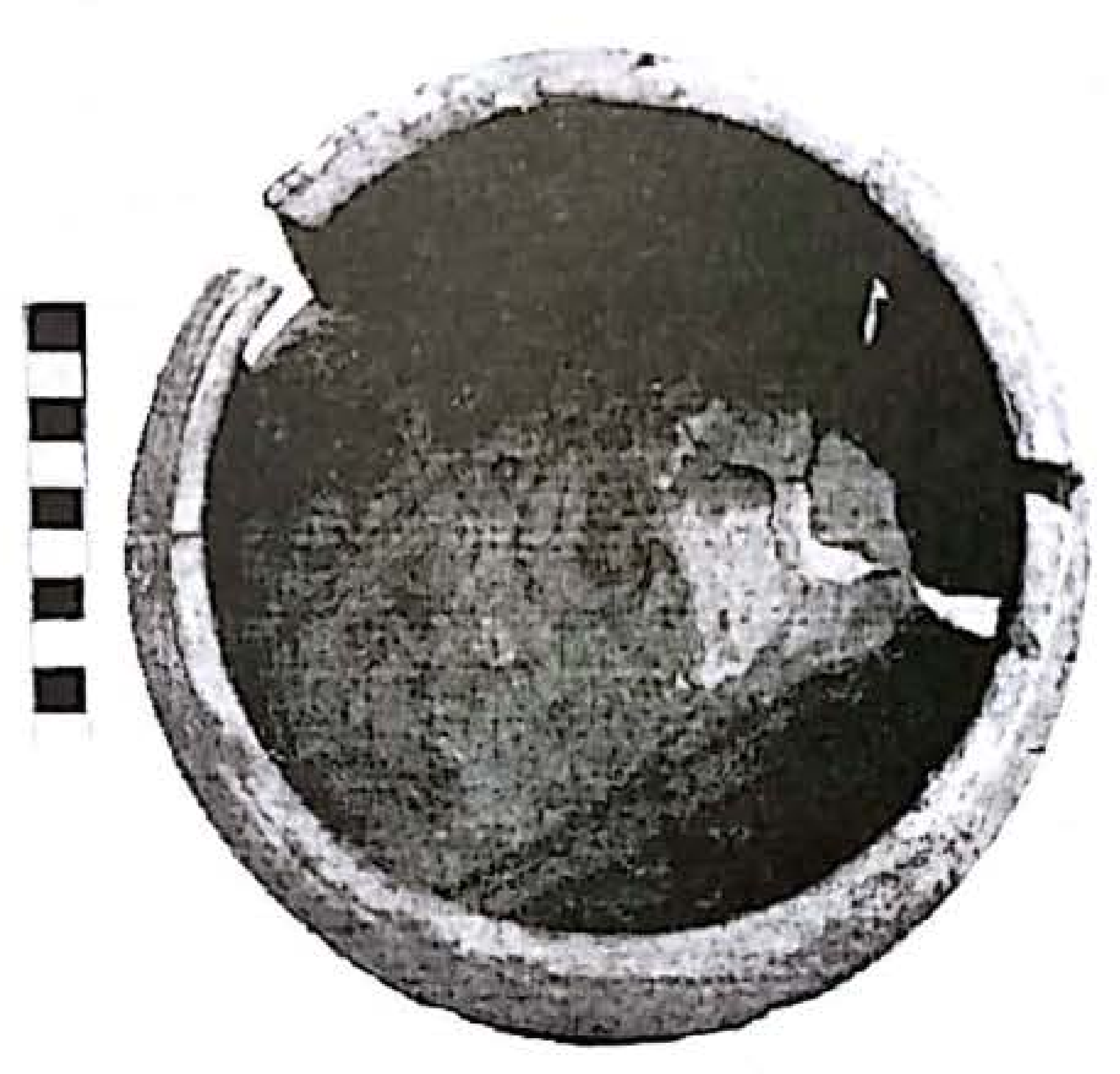
لقد كشف تحليل الفخار عن انقطاع بين منتصف ونهاية الفترة الأيوبية ـ بداية العصر المملوكي ـ ولا تتواجد معظم فئات الفخار العائدة للمستويات السابقة (الأيوبية) في منتصف القرن الثالث عشر، وذلك في الوقت الذي تظهر فيه منتجات جديدة يعود أصلها إلى مناطق ساحلية أو إلى مصر. إن الفخار الذي عثر عليه في موقعه الأصلي فوق الأرضيات المحروقة هو بشكل أساسي من النوع المألوف (الشكل 14). إنه معروف في المواقع القريبة فقط. إن انعدام الأمن في الأرياف في نهاية الفترة الأيوبية لا يدعو إلى التبادل على مستويات كبيرة، فقد تضاعف عدد الورشات الصغيرة ونشرت منتجاتها محلياً (كما على سبيل المثال الشكل 15)، وحتى الفخار الأكثر فخامة مثل الأطباق المتأخرة (بالنسبة للنمط الخاص المتواجد في رحبة الميادين)، رغم أن التأثيرات الغربية لا تمتد أبعد من سورية الوسطى (الشكل 16).

---

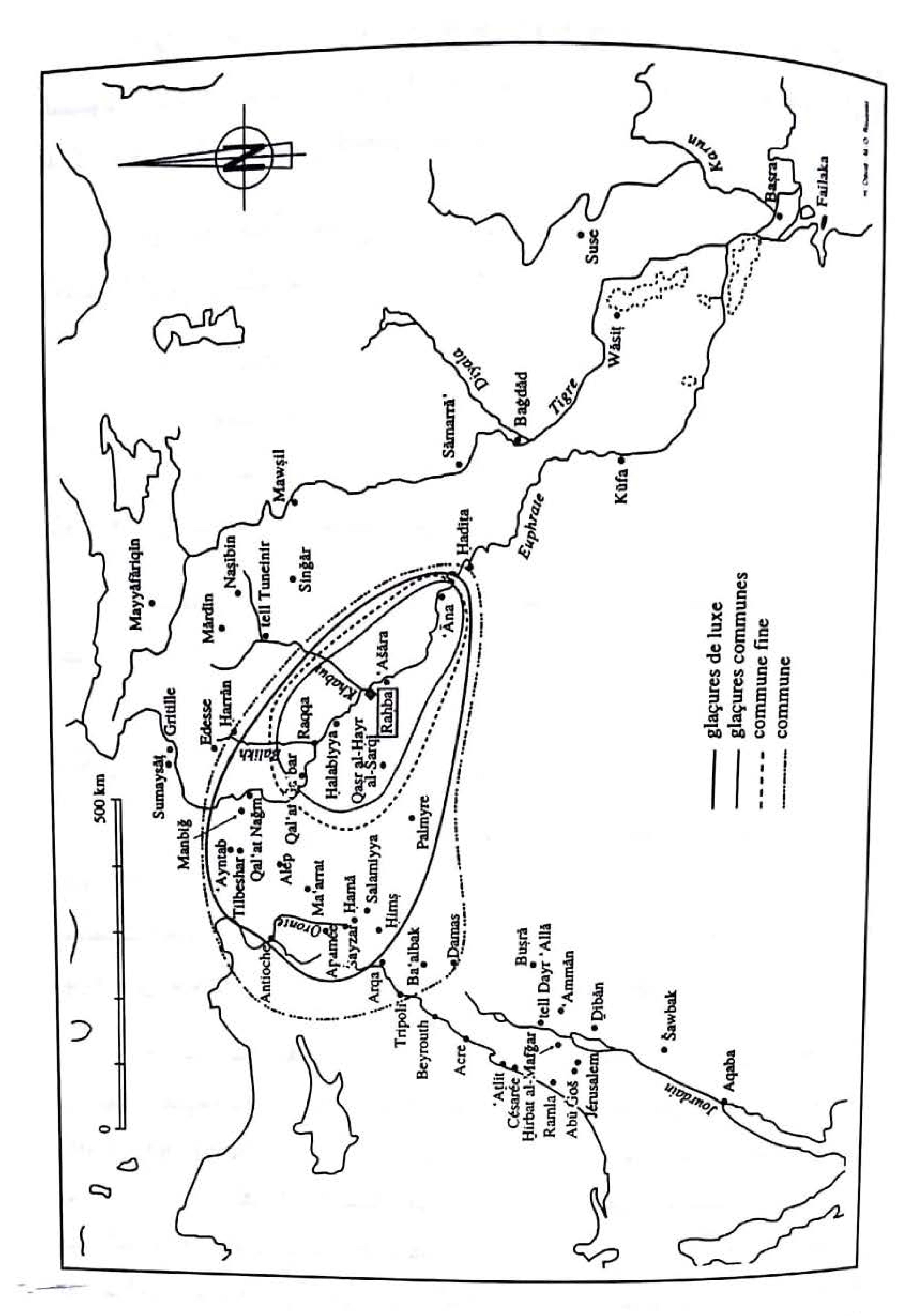
[16] أبو الفداء ص 281.



الشكل 14: جرة للتخزين من عجينة كلسية مغطاة بخزف فيروزي. منتصف القرن الثالث عشر.



الشكل 15: فخار مزين بالألوان السوداء تحت خزف فيروزي. النصف الثاني من القرن الثالث عشر



الشكل 16: مخطط لانتشار الفخار في النصف الثاني من القرن الثالث عشر

إن العثور على موقد ونفاياته المشوية (لا سيما قواديس النواعير)، في المستويات ذات الإشغال المتأخر في المسجد يبين أن النواعير وبالتالي الأقنية قد كانت ما تزال تعمل في العصر المملوكي.

لقد تبين من خلال المسح الأثري أن المواقع الأثرية أقل عدداً في العصر الأيوبي ولكنها موجودة على الأقل.

إن العصر المملوكي قليل التوثيق من الناحية الأثرية. وليس هناك أية بنية تعود لهذا العصر فقط. ويتعلق الأمر بالأحرى، في حالة السكن في الميادين كما هي الحال في بناء الرحبة الكبير، بإعادة استعمال بنيات أيوبية لاحقة في منصف القرن الثالث عشر.

إن استيطان المنطقة في العصر المملوكي كان ممكناً بلا شك بفضل وجود القلعة التي كانت تؤمن حماية المواقع المحيطة بها.

تراجع الرحبة

فقدت الرحبة أهميتها مع انسحاب آخر جندي مغولي بحدود عام 1400/803 وغياب تهديدهم. إذ أصبحت صيانة القلعة مكلفة، وتخلت عنها السلطات المملوكية شيئاً فشيئاً. ويعود تدهور بلدة الرحبة في جزء منه إلى نهاية دور القلعة وإلى اختفاء الخدمات المرتبطة بوظيفتها.

ومع ذلك ظلت القرية مسكونة أثناء العصر العثماني، دون أن نتمكن من تحديد طبيعة ذلك السكن. ويذكر بعض الرحالة، مثل بييترو ديلا فالي Pietro Della Valle (1664/1075) بعض الأبنية في مدينة كانت على مسافة ما من الفرات[17]. لقد كان المسجد في ذلك الوقت يستعمل للسكن. وتتكرر آثار المواقد في المستويات العليا، كما في المحراب على سبيل المثال، وهكذا فقد تقوقعت المدينة على ذاتها داخل القلعة. وتدفعنا طبقات الزبل السميكة على السطح إلى التفكير بأن السكان كانوا من الرعاة بشكل خاص.

[17] P. Della Valle, *Viaggi*, Venise, 1664, I, p. 571

لقد كشف هذا البحث من جهة عن تنوع الفخار المستعمل بين القرنين التاسع والرابع عشر، وعن التباين بين المناطق التي تتوزع فيها مختلف المنتجات أثناء تلك الفترة. تتعلق النتائج بشكل خاص بتطور التبادلات ما بين المناطق، وفي المستوى الحالي لمعارفنا تحتاج هذه النتائج بالتأكيد إلى أن تدعَّم بتحليلات أخرى للمواد الناتجة عن التنقيبات أو المسوحات الأثرية.

لقد لعبت عوامل كثيرة في تطور المدينة وعلاقتها مع إقليمها أثناء الفترة القروسطية. ويبدو أن أهم ما يمكن أن نلاحظه هو تطور الاستثمار الزراعي بفضل قناة نهر سعيد الكبيرة واستمرار الاستفادة منها حتى العصر المملوكي. يأتي الدخل الأساسي للمدينة من الزراعة. ويبدو أن زوال المدينة التدريجي ناتج عن تدهور هذا النشاط.

يرتبط توزع الفخار بالوحدات الجغرافية السياسية، لذلك فإن التبادل التجاري كان محصوراً أثناء الأزمات في إقليم يستطيع فيه التجار، والبضائع أيضاً، التنقل بأمان. فالمدينة ترتبط بحسب الفترات بهذه أو تلك من هذه الوحدات.

يمكن أن تكون مدينة الرحبة الواقعة في منطقة حدودية أكثر حساسية من أية مدينة «من الداخل» تجاه التغيرات السياسية الكبيرة. فربما أثرت الاضطرابات التاريخية المختلفة هنا بسرعة أكثر من أي مكان آخر.

أقاليم المدن في سورية في العصر العثماني بين القرنين السادس عشر والثامن عشر

مخطط أولي

بريجيت مارينو Brigitte Marino
المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق

لقد أنجزت في السنوات الأخيرة دراسات عديدة لمدن سورية مختلفة في العصر العثماني، لا سيما عن المدن الكبيرة مثل حلب ودمشق، وأيضاً لمراكز عمرانية أصغر مثل حماه وطرابلس والقدس ونابلس وصيدا وصور، ومع أن بعض هذه الدراسات تنحصر على الفضاء العمراني، فإن أخرى تتناول أيضاً العلاقات التي تنسجها هذه المدن مع أقاليمها. فبدءاً من التعدادات العثمانية (طابو دفتري) فهناك أعمال أخرى تعرض جرداً ديموغرافياً واقتصادياً للأرياف التي تحيط ببعض الأقطاب العمرانية مثل الرملة وصفد واللد إلخ.. واعتماداً على هذه الدراسات يمكننا استيعاب مسألة الأقاليم لمنطقة جغرافية واسعة نسبياً، وهي سورية في العصر العثماني، والتي تشمل حالياً سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

وقد اعتمد هذه المقاربة، منذ أكثر من عشرين سنة ، الباحث أ. عبد النور الذي حلل بنية الأقاليم الاقتصادية في منطقة حلب وطرابلس عبر شبكة من الأسواق الأسبوعية والباعة الجوالين، آخذاً بعين الاعتبار التحولات التي طرأت على مدى فترة زمنية طويلة. إن الدراسات الحديثة عن عدة مدن في المنطقة تقدم معلومات إضافية عن الأقاليم الاقتصادية لهذه المدن. لكننا لن نتطرق إلى هذه المسألة في دراستنا هذه.

إننا نهتم بشكل أساسي بالديمومات أو الانقطاعات التي تميز تطور الأقاليم الإدارية لهذه المدن، بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، وذلك في محاولة لتعريف الآليات التي تحددها، مع معرفتنا بأن وجود سلطات محلية قوية في المنطقة، لحظة بدء الاحتلال العثماني، قد لعب دوراً كبيراً في إدارة هذه الأقاليم من قبل عدة مراكز عمرانية[1].

ومن جهة أخرى يمكن أن تستوعب أكثر الشبكات والأقاليم التي تتكون من حول هذه المدن وذلك بتبيان تكوينها لرقعة شطرنج سياسية حقيقية تلعب فيها قافلة الحج إلى المدن المقدسة، مكة المكرمة والمدينة المنورة، بشكل أو بآخر دور صلة الوصل، ومن ثم سنذكر التطور الخاص بمدن الداخل ومدن الساحل.

1 ـ الإطار السياسي والإداري

«تمارس المدينة وظائف سياسية وإدارية في إقليم متسع نوعاً ما، إنها تساهم بالتأطير الإقليمي [...] وعندما تكون عاصمة فهي تنظم مختلف أشكال الهيمنة»[2].

سنتناول أقاليم المدن السورية في العصر العثماني في بادئ الأمر على مستوى الولايات وذلك عبر الدور السياسي والإداري لعواصمها. إن حدود هذه الولايات وأقسامها (سنجق، قضاء، ناحية) موضوعة بحسب اعتبارات عسكرية وضرائبية أو إدارية ويمكن أن تعدّل، كما يذكر ذلك بوضوح في رسائل تعيين الولاة، بحسب إرادة السلطة المركزية[3]، ولا يمكن القيام بأي تغيير، حتى على مستوى الولاية، دون موافقة إستانبول[4].

---

[1] تتمثل هذه السلطات المحلية بالزعماء البدو (الطرباي) في فلسطين، والتركمان (عساف) في كسروان، أو بعائلات تنتمي إلى طوائف دينية متنوعة: محمد بن حنش (سني) في البقاع، وحلفائه آل حرفوش (شيعة في منطقة بعلبك شمال البقاع، وآل شهاب (سنة) في وادي التيم إلى الغرب من جبل حرمون، وآل معن في الشوف (دروز) جنوب لبنان. انظر حول هذا الموضوع A.-R. Abu Husayn, Provincial Leaderships

[2] M. Roncayolo. *La ville et ses territories*, p. 145.

[3] K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 16

[4] A. Cohen, *Palestine*.

ودون أن ترسم بشكل شامل مجمل هذه التغيرات التي عرفتها حدود مختلف المقاطعات الإدارية أثناء العصر العثماني، فإننا نتساءل عن الآليات التي تحددها وذلك كي ندرك بشكل أفضل تطور دور بعض هذه المدن، ولا سيما العواصم.

التقسيمات الإدارية

كانت بلاد الشام تنقسم في العصر المملوكي إلى ست ولايات: دمشق، حلب، طرابلس، صفد، كرك ــ شوبك، وحماه[5]. وأثناء الفتح العثماني بقيادة السلطان سليم عام 1516، تأسس في هذه المنطقة نظام مركزي ولم تعد تشمل سوى ولايتين عاصمتيهما دمشق وحلب[6].

ثم حصلت لا مركزية ضعيفة في عهد السلطان سليمان الذي بدأ حكمه في السنوات 1520 (926 ــ 974 هــ / 1519 ــ 1566) وعندها قسمت بلاد الشام إلى ثلاث ولايات (دمشق، حلب وطرابلس). وفيما بعد، وإثر محاولة أولى فاشلة في السنوات 1610، انفصلت صيدا عن ولاية دمشق وأصبحت هي بالذات عاصمة لولاية.

حلب

كانت ولاية حلب في عهد السلطان سليمان تضم السناجق التالية: حلب، أضنة، كيليس، بيراجاك، باليس، منبج، معرة النعمان، تركمان حلب وعزاز[7]. وفي القرن الثامن عشر قُسم إقليم هذه الولاية الواسع إلى «ولايات مستقلة اضطر الباب العالي للاعتراف بها مدفوعاً باعتبارات دفاعية وأمنية»[8].

---

[5] A. Bakhit, *Ottoman Province*, p. 35.

[6] أ. عبد النور، التاريخ العمراني، ص. 271 A. Abdel Nour, *Histoire urbaine*, p. 271

[7] عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر ص. 125.

[8] J.-P. Thieck, «Decentralisation ottomane», p. 119.

دمشق

إن ولاية دمشق التي تتبع لها الولايات المملوكية كطرابلس وصفد، الكرك ــ شوبك وحماه، كانت ولاية شاسعة في بداية الفتح العثماني. ولكن مساحتها راحت تتناقص مع مرور الزمن، لا سيما بعد خلق ولاية طرابلس في القرن السادس عشر وولاية صيدا في القرن السابع عشر[9].

وكانت ولاية دمشق تضم في عهد السلطان سليمان السناجق التالية:

دمشق، القدس، غزة، صفد، نابلس، عجلون، اللجون، تدمر، صيدا ــ بيروت والكرك ــ شوبك[10]. وكان والي دمشق يمارس سلطاته المباشرة على مدينة دمشق ونواحيها[11] ولكنها كانت تمتد بعيداً نحو الجنوب والغرب حيث يتبع له بايات السناجق (سنجق باي)[12].

وأثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر، وفي إطار إعادة تنظيم للولاية تناقصت مسؤوليات والي دمشق خارجها ولكنها تنامت داخلها. فاعتباراً من عام 1708 لم يعد مطلوباً منه المشاركة في حروب الإمبراطورية، وهكذا فقد تناقصت بشكل كبير حظوظه بالترقي إلى الوزير الأعظم. وفي المقابل تمت تسميته أميراً للحج (قائداً لقافلة الحج) وأصبح عليه أن يدير مباشرة عدداً متبدلاً من سناجق الولاية[13]. وعليه أيضاً كأمير للحج أن يقوم بجولة سنوية في السناجق الواقعة جنوب ولايته (نابلس، عجلون ــ اللجون، غزة، القدس) كي يجمع الأموال اللازمة لتمويل القافلة[14].

---

9 K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 101

10 عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر ص. 125.

11 قارة، القلمون، جبة العسال، الزبداني، وادي بردى، إقليم داراني، وادي العجام، المرج القبلي والشمالي، الغوطة: انظر أ. بخيت. الولايات العثمانية، ص. 37 ــ 49.

12 أ. بخيت، الولايات العثمانية ص. 35 ــ 36. يضاف أحياناً إلى هذه السناجق سنجقا تدمر وعجلون ــ اللجون. المرجع نفسه ص. 91.

13 وهكذا كان على نصوح باشا والي دمشق في عام 1713، أن يدير مباشرة سنجق القدس وعجلون وغزة ونابلس وصفد وبعلبك وبياس (قرب اسكندرون). انظر cf. K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 54.

14 K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 13, 33, 45, 54, 122.

طرابلس

لقد أسست ولاية طرابلس إبان القرن السادس عشر. وتم إصدار بعض التشريعات التي تتعلق بها بين عامي 1519 و 1520[15]، لكن يبدو أن هذه المحاولة قد انتهت إلى الفشل، لأنه وبحسب بعض المصادر، عادت وتأسست من جديد عام 1579[16]. ففي هذا التاريخ بدأت السلطة العثمانية تخشى السلطة المتناوبة لمنصور عساف الذي كان يسيطر منذ عام 1528 على بيروت وحمص وحماه، وبدأت تأخذ الإجراءات لإبعاده، وعينت يوسف سيفا واليا لطرابلس وقد شغل عدد كبير من أفراد هذه العائلة هذا المنصب حتى عام 1640، وهو التاريخ الذي أبعدت فيه عن المسرح، وذلك بعد نزاعات عديدة من أجل السيطرة على الأقاليم المجاورة، ولا سيما مع فخر الدين المعني.

وبحسب دفتر الطابو لعام 925 / 1519، كانت هذه الولاية تضم نواحي إدارية تغطي أراضي تتواجد الآن في لبنان (فتوح بني رحّال، جبيل، المنيطرة، البترون، الكورا، الأنفة، بشري، الزاوية، الزنيّة، عرقا، عكار)، ونواحي تتواجد قراها حالياً إما في لبنان أو سورية (صافيتا، ميعاد، الخوابي، القدموس، العليقة، المنيقة، الكهف، القليعة، مرقب – بانياس، جبلة، بلاطنيس، حهيون، اللاذقية، وادي قنديل[17]. وتشكل هذه النواحي جزءاً من سنجق طرابلس، وحمص وحماه وسلمية وجبلة واللاذقية والحصن، والتي كانت حتى ذلك التاريخ تتبع ولاية دمشق. ولكن منذ القرن الثامن عشر، وبدءاً من اللحظة التي عين فيها والي دمشق أميراً للحج، فقد ارتبطت حمص وحماه مالياً بولاية دمشق[18].

---

[15] حول تشريع عام 1519 – 1520 انظر cf. R. Mantran et J. Sauvaget, *Reglements fiscaux ottomans*, p. 77 – 80. وحول تشريعات أخرى صدرت في عام 1547 و 1571 انظر أ. بخيت، الولايات العثمانية ص. 144 – 145.

[16] K. Salibi, «The Sayfas and the eyelet of Tripoli», p. 29 J 30; A.-R. Abu Husayn, «The sanjak of Sidon-Beirut», p. 667; A.-R. Abu Husayn, Provincial Leaderships in Syria, p. 17 – 20.

[17] إ. خليفة، «التقسيمات الإدارية»، ص. 178.

[18] عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص. 125.

صيدا

كانت صيدا في بداية العصر العثماني تتبع لولاية دمشق، ثم شكلت مع بيروت في عام 1585 سنجقاً يتبع ولاية طرابلس قبل أن تصل إلى مرتبة عاصمة ولاية في عام 1660[19]. ولقد قامت أول محاولة لإنشاء ولاية صيدا في عام 1614/1023، لكنه كان وضعاً عابراً فسرعان ما عادت وتبعت ولاية دمشق.

وقد كانت ولاية صيدا تضم في عام 1670، سنجق بيروت وصفد وعكا وترابي وصيدا وجبل معن، وظلت حدودها ثابتة إبان القرن الثامن عشر مع زيادتين بسيطتين عام 1723: ناحية مرج عيون في الشمال وناحية حيفا في الجنوب الغربي[20].

الانقطاع والتضامن

إن خرجنا من الإطار العام، وتفحصنا التركيب الإقليمي لهذه الولايات على مستوى جغرافي أضيق، آخذين بعين الاعتبار التبدلات التي حصلت في لحظات معينة، بإمكاننا ملاحظة عدد كبير من أنماط الانقطاع والتضامن في تركيب هذه الوحدات الإقليمية وفي العلاقات السياسية والإدارية التي تديرها عواصمها.

وهكذا فإننا نلاحظ أن التسلسل الإداري غير مُتَّبع بدقة دوماً: ونلاحظ من جهة أخرى تشكل آنياً لولايات دون استمرارية جغرافية، ومناطق مقسمة إلى وحدات إدارية مميزة، ومدن مفصولة إدارياً عن إقليمها، وأخرى أقاليمها متبدلة، ويتأسس تعاون بين مدن مختلفة أو ممارسة هيمنة الواحدة على الأخرى.

---

19 أ. ر. أبو حسين: A.-R. Abu Husayn, «The sanjak of Sidon-Beirut», p. 666, 667, 670, 673

20 A. Cohen, *Palestine*

التسلسل الإداري

يُدار كل مستوى من مستويات التقسيم الإقليمي الإداري (ولاية، سنجق، ناحية) بشكل طبيعي من قبل مسؤول خاص يعينه من هو أعلى منه في التسلسل الوظيفي، لكن هذا النظام غير محترم دوماً. فيمكن أن تعين السلطة المركزية مباشرة حكاماً في مختلف السناجق، كما هو الحال أحياناً، بالنسبة ليافا وغزة ورملة في القرن الثامن عشر[21]. من جهة أخرى يمكن لسلطات والي دمشق أن تكون واسعة الامتداد بشكل خاص: وهكذا، ففي عام 1713 كان على نصوح باشا، والي دمشق، أن يدير مباشرة سنجق عجلون والقدس وغزة ونابلس وصفد وبعلبك وباياس[22].

أما دور العواصم فيمكن أن يزول أحياناً أمام دور السلطات المحلية. وهكذا فإن ولاة دمشق، الذين كانت دورة تبديلهم سريعة جداً في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، لم يكن لهم سوى نفوذ محدود على جبل نابلس، وكانت النواحي الواقعة في هذه المنطقة تدار مباشرة من زعيم تمت تسميته من قبل والي دمشق[23].

وحدات إدارية بلا استمرارية جغرافية

إن سنجقي اللجون ــ عجلون ونابلس الواقعين كليهما في فلسطين، كانا نوعاً ما «متجولين» في مطلع القرن الثامن عشر، إذ أنهما قد فصلا لفترة قصيرة عن ولاية دمشق ليتبعا ولايتي طرابلس وصيدا. إن ربط سنجق اللجون ــ عجلون الحج بولاية طرابلس في عام 1702 يعود فقط لاسباب مالية ترتبط بتمويل قافلة الحج وليس له أي تبرير جغرافي: لا توجد في الواقع أية استمرارية جغرافية بين هاتين الوحدتين اللتين تفصل بينهما ولاية صيدا ، التي سيتبع لها سنجق اللجون-عجلون في عام 1705، ثم سيعود ليتبع ولاية دمشق في عام 1710[24]. وينطبق الأمر نفسه على

---

[21] المرجع السابق

[22] K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 54.

[23] B. Doumani, *Merchaants and Peasants*, p. 36.

[24] A. Cohen, *Palestine*.

سنجق نابلس الذي سيربط بولاية صيدا لفترة وجيزة في مطلع القرن الثامن عشر (1702 ــ 1704)[25].

ومن جهة أخرى يمكن لبعض القرى ضمن الناحية الواحدة أن تشكل بقعاً منفصلة، تتبع إدارياً ولأسباب مالية نواحي أخرى لا تملك معها أي تواصل جغرافي، إنها غالباً حالة العديد من القرى الواقعة في سنجق صفد في القرن السادس عشر[26].

مناطق مقسومة إلى وحدات إدارية مميزة

هناك مناطق تعتبر كوحدات متكاملة، ليس إلا في تسميتها ، تكون أحياناً مقسومة إلى وحدات إدارية منفصلة.

وهكذا كان البقاع في القرن السادس عشر مقسوماً إلى وحدتين إداريتين: جنوب البقاع (البقاع العزيز) وهو ناحية من نواحي سنجق دمشق التابع لولاية دمشق، في حين أن الشمال (البقاع البعلبكي) كان ناحية من نواحي سنجق حمص التابع لولاية طرابلس. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا التقسيم الإداري فإن مجمل هذه المنطقة يخضع لفرد واحد، وهو ناصر الدين بن الحنش الذي يعتبر في مصادر هذا العهد بمثابة صاحب البقاعين[27].

وبعد الفتح العثماني، قسمت فلسطين إلى خمس سناجق (صفد، نابلس، القدس، غزة وعجلون ــ اللجون) التي تتبع، مثلما هو الحال في العصر المملوكي، إلى ولاية دمشق[28]. ولكن مع تأسيس ولاية صيدا في عام 1660 أصبحت سناجق فلسطين منذ ذلك الحين تابعة إلى ولايتين متمايزتين: فقد كانت عكا وحيفا جزءاً من ولاية صيدا، أما سنجق يافا وغزا والرملة

---

25 K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 16; A. Cohen, *Palestine*
26 H. Rhode, «Safad», p. 185-187.
27 A.-R. Abu Husayn, «The sanjak of Sidon-Beirut», p. 667
28 B. Doumani, *Merchaants and Peasants*, p. 34

وسنجق القدس وسنجق اللجون–عجلون وسنجق نابلس فقد أصبحت جميعها جزءاً من ولاية دمشق[29]، حتى وإن كان السنجقان الأخيران قد فصلا بشكل مؤقت في مطلع القرن الثامن عشر.

مدن ذات تبعية إدارية غير ثابتة

إن نظرنا الآن ليس فقط إلى مستوى الولايات والمناطق وإنما إلى مستوى المدن، فإننا نجد مدناً ذات ارتباط إداري غير ثابت. وهكذا وبعد أن فصلت حمص عن ولاية دمشق، عند تأسيس ولاية طرابلس في القرن السادس عشر، أصبحت من جديد تحت سيطرة بعض ولاة دمشق في القرن الثامن عشر[30]. وعلى الرغم من أن حمص وحماه تكونان سنجقاً في ولاية طرابلس، فقد كانتا في ذلك العصر، عبارة عن «ماليكان» تتبعان لوالي دمشق، وكانت مداخيلهما تساهم في تمويل الحج[31].

وينطبق الأمر نفسه على سنجق نابلس الذي أصبح تابعاً لولاية صيدا لفترة وجيزة في بداية القرن الثامن عشر (1702 ـ 1704)[32]. وفي نهاية السنوات 1820 أقنع والي عكا عبد الله باشا السلطة المركزية بإعادة ضم ناحية نابلس إلى ولاية صيدا، بسبب الصعوبات التي يعانيها ولاة دمشق في ممارسة سلطاتهم على هذه المنطقة[33].

---

29 A. Cohen, *Palestine*.

30 K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 16.

31 K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 101; A. Abdel Nour, *Histoire urbaine*, p. 307; A.-K. Rafeq, Province, p. 4. عندما كان اسماعيل باشا العظم والياً لطرابلس وبالتالي قائد الجردة في مطلع السنوات 1720، استفاد مع أخيه سليمان، من حمص وحماه والمعرة كماليكان وعندما أصبح أخيه والياً لطرابلس في السنوات 1730، استفاد من هذا الماليكان مع ابن أخيه أسعد باشا في مطلع السنوات 1740، حصل هذا الأخير على ربع هذا الماليكان. انظر cf. A.-K. Rafeq, *Province*, p. 92, 122, 160.

32 K. Barbir, *Ottoman Rule*, p. 16; A. Cohen, *Palestine*

33 B. Doumani, *Merchants and Peasants*, p. 40

مدن ذات وظيفة عابرة كعاصمة

إن التبدلات التي تحصل أحياناً على مستوى الولاية تغير أحياناً من الموقع الإداري لبعض المدن التي يمكن أن تتحول بعضها عرضياً إلى عاصمة. وهكذا ففي عام 1169 / 1756، أوجدت ولاية جديدة وهي القدس والتي اقتطعت من ولاية دمشق وكلف واليها بجمع الضرائب في إطار الدورة التي كانت تتم لتمويل الحج. وقد أثر هذا التغيير على ميزات وموارد والي دمشق أسعد باشا العظم، لكن هذا الوضع لم يدم سوى تسعة أشهر، فقد أعيدت القدس إلى ولاية دمشق فيما بعد وعاد والي هذه الولاية العابرة ليصبح المتسلم عند والي دمشق[34].

مدن مفصولة إدارياً عن أقليمها

لقد اقتطعت بعض المدن من الناحية الإدارية عن إقليمها. وهكذا ففي القرن السادس عشر شكلت بيروت وصيدا ناحية لوحدهما[35].

أما حيفا فقد كانت جزءاً من سنجق اللجون، أي من ولاية دمشق ولكن كامل الجزء الشمالي في خليجها وكل ظهيرها كانا يشكلان جزءاً من ولاية صيدا عندما أنشئت هذه الأخيرة في عام 1660[36].

العلاقة بين المدن خارج حدود الولايات

أخيراً، وفيما يتعلق بالعلاقات بين المدن، هناك نماذج عن التعاون أو عن التنافس، وسنتعرض هنا إلى العلاقات المالية والعسكرية بين دمشق وحلب في القرن السادس عشر من جهة، وإلى التنافس بين دمشق وعكا من أجل ممارسة هيمنتهما على حيفا أثناء القرن الثامن عشر من جهة أخرى.

---

34 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 202-203.

35 A. Bakhit, *Province*, p. 79-80.

36 A. Cohen, *Palestine*; A. Bah IT, «Hayfa», p. 120.

دمشق وحلب في القرن السادس عشر: تعاون مالي وعسكري

توحدت الولايات الثلاث، دمشق وحلب وطرابلس في ولاية إدارية مالية واحدة في السنوات 1520 (وذلك بعد التعداد الأول الذي قامت بـه السلطات العثمانية في عام 930 / 1523). وقد كان مقر المسؤول المالي (الدفتردار) في حلب وكان نائبه يقيم في دمشق.

وبعد مضي نصف قرن (في عام 975 / 1567)، فُصلت خزينتا دمشق وحلب عن بعضهما بعضاً وكلف دفتردار دمشق، بالإضافة إلى مسؤوليته في ولاية دمشق، بخزينة ولاية طرابلس، باستثناء إيرادات الميناء ومزرعة الحرير. وفي ذلك العهد (في عام 979 / 1571) أوكلت جبلة، التي كانت حتى حينه تابعة لدفتردار دمشق، إلى دفتردار حلب[37].

كان على والي دمشق، ضمن إطار هذا التنظيم المالي في القرن السادس عشر، أن يزود دفتردار حلب بالمساعدة واضعاً تحت تصرفه الجنود من أجل تحصيل الضرائب، واستمر هذا الوضع حتى بعد فصل خزينتي دمشق وحلب عن بعضهما البعض في عام 975 / 1567. ومع ذلك ففي نهاية القرن السادس عشر، في عام 1008 / 1599. وعندما أدرك والي حلب الجديد التعسفات التي يمارسها أنكشاريو دمشق، طلب من السلطان أن يسمح له بإنشاء قوة جديدة مكونة من 500 عسكري وذلك كي يخلص حلب من الوحدات الدمشقية.

ولقد تضاعفت حدة هذا الوضع بسبب ما حصل في مطلع القرن السابع عشر، عندما أمرت السلطة المركزية في عام 1009 / 1600 بإرسال الإنكشاريين ثانية من دمشق إلى حلب للقضاء على الثورات التي اندلعت في جنوب الأناضول، وقد سبب هؤلاء مشاكل في حلب.

أخيراً، لن تتخلص حلب من الوحدة العسكرية الدمشقية إلا في عام 1013 / 1604 بعد أن عرفت مواجهات عنيفة بين القوتين[38].

---

37 A. Bakhit, Ottoman Province, p. 144-145; A. Bakhit, «Aleppo and the Ottoman Military».

38 A. Bakhit, Ottoman Province, p. 92,147,107; A. Bakhit, «Aleppo and the Ottoman Military».

دمشق وعكا في القرن الثامن عشر: تنافس من أجل السيطرة على حيفا

كانت دمشق وعكا في القرن الثامن عشر في تنافس مستمر من أجل ممارسة سيطرتهما على حيفا الواقعة في ولاية صيدا. ففي بداية القرن الثامن عشر كان التزام حيفا مرتبطاً بعكا، التابعة لوالي صيدا[39]. وقد أعطى هذا الأخير التزام عكا إلى ظهير العمر[40] الذي بدأ حينذاك ببسط سيطرته على المنطقة. وفي عام 1761، وبالرغم من أن التزام حيفا كان مرتبطاً منذ أكثر من أربعين عاماً بعكا، فإن والي دمشق عثمان باشا قد تمكن من الحصول على فرمان من السلطان يأمر به بفصل التزام حيفا عن عكا، وأرسل قوة عسكرية لمرتين متتاليتين في عام 1761 لمهاجمة قلعة حيفا، وقد هزَم ظهير العمر هذه القوة في محاولته للحفاظ على ارتباط حيفا بعكا. وهكذا فإننا نشهد فشل المحاولات العديدة لوالي دمشق عثمان باشا لكي يُخضع ظهير العمر وليمارس سيطرته على حيفا[41].

أما صيدا فقد عرفت ابتداءً من عام 1770 فترة طويلة من الاضطرابات السياسية والعسكرية التي لم تنته فعلاً سوى عند موت أحمد باشا الجزار في عام 1804[42]. ففي ذلك العصر كان مقر السلطة لولاية صيدا يقع في عكا. وبالرغم من أن هذه المدينة هي أكثر المدن ازدحاماً بالسكان في الولاية، ومركز التجارة في فلسطين، والمقر الداعم للوالي، فإن الولاية ظلت تأخذ اسم ولاية صيدا. ومن جهة أخرى فعلى الرغم من أن أحمد باشا الجزار كان والياً لدمشق في الربيع الأخير من القرن الثامن عشر (في عام 1785 ـ 86، والفترة 1790 ـ 95 و 1799 ـ 1803) فإنه تماطل في مغادرة عكا وكانت دمشق محكومة في عهده من قبل متسلم.

وكوالي لدمشق، فقد كان الجزار يستقبل في عكا شخصيات تمارس

39 A. Cohen, «The Coast of Palestine».

40 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 4, 195.

41 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 243.

42 A. Abdel Nour, *Histoire urbaine*, p. 350, P. 363.

مسؤوليات هامة في دمشق. وهكذا وأثناء ولايته الثانية بين عامي 1790، ظل الجزار ثمانية أشهر في عكا قبل أن يزور دمشق. وأثناء هذه الأشهر الثمانية أتى شيخ الدروز في حوران، التابع لوالي دمشق، إلى عكا لتثبيت وظيفته من قبل الجزار، في حين أن الشيخ يوسف بن جزار، متسلم جنين (جبل نابلس) قد رفض أن يحضر إلى عكا كي يتسلم تكليفه من الجزار. فلقد أرسل له بكل بساطة الهدايا وطلب منه أن يرسل إليه ثوب منصبه. وأمام إهانة بهذا القدر، أسرع الجزار بإرسال قواته ضده لكي يعيد فرض سيطرته كوالي لدمشق[43].

يبدو إذن من خلال هذه النماذج أن المدن العثمانية السورية تملك أقاليماً إدارية متبدلة أثناء الفترة المعنية، وأن هذه الوحدات الإدارية لا تشكل فضاءات متلاصقة وإنما على العكس من ذلك نجد أنها متخلخلة. فإذا اعتمدنا على كمية الدوائر الإدارية التي تحمل أسماء أفراد أو قبائل، سيظهر لنا أن وضع الحدود بين الدوائر قد اعتمد على الخارطة السياسية المحلية[44]. ومن جهة أخرى، إن غياب المنطق الإقليمي الذي يسود في بعض الحالات على هذه التقسيمات، يدعو للتفكير بأن النواحي تكوّن بشكل رئيسي وحدات مالية، وبشكل ثانوي وحدات جغرافية[45].

وهناك بعض السناجق، مثل سنجقي عجلون واللجون، التي أنشأها العثمانيون لأسباب استراتيجية: فقد كان على السلطة المركزية توفير الأمن لقافلة الحج أثناء مرورها بعجلون، وهي منطقة تسود فيها القبائل، وينطبق الأمر نفسه على اللجون حيث تمر طريق دمشق ـ القاهرة والتي كان يجب أن تُحمى بشكل جدي من البدو[46].

2 ـ الشبكات والأقاليم

سنحلل هنا الشبكات التي تتأسس بين مدن المنطقة المختلفة وذلك عبر

[43] G. Koury, *The Province of Damascus*, p. 70-71.
[44] B. Doumani, *Merchants and Peasants*, p. 36-38.
[45] H. Rhode, «Safad», p. 189-190.
[46] B. Doumani, *Merchants and Peasants*, p. 38-39.

التبديلات المتتابعة للولاة. أما الأقاليم فسوف نتعرف عليها عبر السيطرة على الطرق والمناطق الريفية وتنظيم قافلة الحج، ثم سنتعرض لتطور المدن الداخلية والساحلية.

لوحة المدن الشطرنجية

تعبر العلاقات بين مدن المنطقة عن نفسها، على الصعيد السياسي، في الزمان والمكان: فقد يحصل غالباً أن يكون أفراد العائلة الواحدة في الوقت نفسه، ولاة لولايات مختلفة في المنطقة، ويمكن لشخص واحد أن يكون على التوالي، أثناء حياته المهنية، والياً لولايات مختلفة في المنطقة، وبالتالي فإن مدن المنطقة، على اعتبار أنها عواصم لهذه الولايات ، تشكل رقعة شطرنج حقيقية.

لسنا هنا في معرض تناول تفاصيل تاريخ الأحداث والوقائع لهذه التسميات المتنوعة في كل ولايات المنطقة. نشير فقط إلى أنه في نهاية السنوات 1720 كان أفراد عائلة العظم يحكمون ولايات دمشق وطرابلس وصيدا، وبالتالي يمارسون سلطاتهم على منطقة واسعة تمتد من حلب إلى العريش: ففي ذلك العهد، كان إسماعيل باشا والياً لدمشق وابنه إبراهيم باشا والياً لطرابلس وأخيه سليمان والياً لصيدا، وكانت اللاذقية تحت إمرة ياسين بن إبراهيم، وحمص وحماه تحت إمرة أسعد بن اسماعيل[47]. وتكرر هذا الوضع في عام 1755، عندما سمي مصطفى باشا والياً لصيدا، في الوقت الذي كان فيه أخوه سعد الدين والياً لطرابلس ووالدهما أسعد باشا والياً لدمشق[48].

كذلك كان عثمان باشا الكرجي والياً لدمشق في عام 1770، وولداه درويش باشا ومحمد باشا واليين، الأول على صيدا والثاني على طرابلس[49]. من جهة أخرى، عندما أصبح أحمد باشا الجزار والياً لدمشق في عام 1785، ظلت صيدا

---

47 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 89, 104, 105.

48 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 201.

49 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 249.

ضمناً تحت سيطرته لأن أحد مماليكه خلفه كوالي، ومملوك آخر من مماليكه سمي والياً لطرابلس في الوقت نفسه[50]. وأخيراً، عندما مات أحمد باشا الجزار في عام 1804، سُمي ابراهيم باشا قطر أغاسي والياً لدمشق وصيدا وطرابلس وكلف بنشر النظام في كامل المنطقة[51]. إن هذا النمط من الأوضاع يشجع على التعاون بالطبع ، لا سيما العسكري، بين مختلف مدن المنطقة، لاسيما عندما يتعلق الأمر على سبيل المثال بالسيطرة على المناطق الريفية[52].

من جهة أخرى، توجد دورة للولاة في مختلف مدن المنطقة. ففيما يتعلق بعائلة العظم على سبيل المثال، سيصبح إسماعيل باشا العظم بشكل متتابع والياً لحماه، ثم لطرابلس، ثم لدمشق (1725). وقد خلف سليمان باشا العظم أخيه إسماعيل كوالٍ لطرابلس، عندما سُمي هذا الأخير والياً لدمشق (1725)، ثم أصبح والياً لصيدا (1728)، ثم من جديد والياً لطرابلس (1731) ثم والياً لدمشق (1734)[53]. أما أسعد باشا العظم فقد كان والياً لصيدا في عام 1741، ولدمشق في عام 1743 ولحلب في عام 1757[54]. كذلك الأمر بالنسبة لسعد الدين باشا العظم، والي طرابلس في عام 1746 وحلب في عام 1750 ومن جديد لصيدا في عام 1756[55].

الأقاليم

السيطرة على الطرق والمناطق الريفية

كان هناك بعض الزعماء المحليين في العصر العثماني المكلفين رسميا،

---

50 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 319.

51 G. Koury, *Province*, p. 111 ذكرت نسخة عن الفرمان الذي يعلن تسمية هذا الحاكم الجديد من قبل م. دمشقي. الحوادث، ص. 30.

52 Cf. par exemple A.-K. Rafeq, *Province*, p. 156 يمكن لأفراد من عائلة واحدة يسيطرون على أقاليم مختلفة أن يكونوا متخاصمين cf. K. Salibi, «The Sayfas and the eyelet of Tripoli».

53 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 85-111.

54 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 157, 160, 204.

55 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 200, 201.

على غرار العصر المملوكي، بتوفير الأمن على الطـرق. فالمسـؤول عـن الطرق بين دمشق والقاهرة من جهة، ودمشق والقدس من جهة أخرى، يسمى أمير الدربين: كان يمارس هذه الوظيفة في القرن السادس عشـر مـن قبـل تُرباي[56]. وفي نهاية القرن السادس عشر، كان آل الغيّوسي، وهم من أعيـان منطقة نابلس، مكلفين بأمن قطاع معين من طريق دمشق القاهرة[57]. وفي عـام 978 / 1570 أرسل شيخ من حوران رسالة إلى السلطان يعـبر فيـها عـن رغبته بأن يكون مسؤولاً عن طرق ولاية دمشق لأنـه هـو و والـده كانـا يشغلان هذه الوظيفة من قبل، فأمر السلطان والي دمشق بالتحقق من قدراتـه لكننا نجهل بقية الرواية المتعلقة بهذا الطلب[58].

لقد قام العثمانيون أيضاً من أجل السيطرة على المناطق الرِيفية وتوفـير الأمن، بتوطين السكان الرحل. ففي القـرن السـادس عشـر ذكـرت بـهذا الخصوص قبائل تركمانية في حوران ومنطقة عكا، كذلك فـي البقـاع فـي بعلبك[59]. وفي نهاية القرن السابع عشر في مقاطعة الرقة[60]، وفي نهاية القـرن السابع عشر وفي مطلع الثامن عشر في نواحي حمص وحماه[61]. وقد أُعفـي قسم من هؤلاء السكان من دفع الضرائـب الخاصـة (عـوارض سـلطانية وتكاليف عرفية) وكان عليهم أحياناً الاعتناء بالخيول فـي المحطـات التـي أسست على طول الطرق من أجل تأمين خدمة بريدية منتظمة وسريعة بيـن مختلف التجمعات السكانية في المنطقة[62].

قافلة الحج

تشكل عملية تنظيم قافلة الحج باتجاه المدن المقدسـة، مكـة المكرمـة

---

56 A.-R. Abu Husayn, *Provincial Leaderships*. p. 182.

57 B. Doumani. *Merchants and Peasants*, p. 34-35.

58 A. Bakhit. *Ottoman Province*. p. 101.

59 A. Bakhit. *Ottoman Province*. p. 226-228.

60 B. Masters. *Mercantilism*. p. 119.

61 K. Barbir. *Ottoman Rule*, p. 168.

62 A. Bakhit, *Ottoman Province*, p. 100-101.220.

والمدينة المنورة، صلة الوصل بين مختلف مدن المنطقة. فمنذ عام 1708، كان والي دمشق قائد هذه القافلة (أمير الحج)، ويتطلب تنظيم الحج تحت إمرته تعاون العديد من الشخصيات التي تمارس وظائفها في مختلف مدن المنطقة. فمن المفروض على ولايات دمشق وصيدا وطرابلس وحلب أن تساهم في تمويل الحج، وقبل عدة أشهر من انطلاق القافلة يقوم والي دمشق بدورة لمدة شهر في المناطق الجنوبية من سورية من أجل جمع الأموال الضرورية لتموين القافلة.

وكانت قرى عديدة في حوران، بالإضافة إلى البدو الذين يعيشون بالقرب من نابلس، يؤمنون لدمشق الجمال الضرورية لنقل المواد التموينية، والعسكر، والحجاج. كما أن الجمّالة في السخنة، بالقرب من تدمر يقدمون أيضاً مساهمة عظيمة في هذا الميدان، حتى أن البعض منهم يستوطن ويقيم في ضواحي الميدان بدمشق، حيث يوجد جامع يحمل اسمهم.

كان آلاف الحجاج القادمين من مناطق مختلفة (مناطق تقع خارج الامبراطورية العثمانية، ولا سيما في فارس) يجتمعون في دمشق قبل بضعة أسابيع من انطلاق القافلة. وبعد الانطلاق من دمشق، يتوقف الحجاج لمدة أسبوع تقريبا في المحطة الأولى على طريق الحج في مزيريب، وهي بلدة تقع على بعد 100 كم جنوب دمشق، وذلك كي ينتظروا المتخلفين، ويقوموا بالتحضيرات الأخيرة ولكي يودعوا أشياءهم الثمينة في القلعة إن أرادوا ذلك. أما مرافقوهم الذين يطلق عليهم اسم المزيرباتية، فإنهم يعودون بعد ذلك إلى دمشق. وقبل وصولهم إلى مكة، بعد ما يقارب الخمسة والثلاثين يوماً من رحيلهم عن دمشق، يرسل الحجاج أخبارهم إلى أقربائهم بوساطة مراسل خاص يدعى الكتّاب. وكذلك فعلى طريق العودة، وبمجرد أن يصلوا إلى مكان آمن بعيد عن تهديد البدو يحمل مراسل رسائل الحجاج ليس فقط إلى دمشق وإنما أيضاً إلى حماه وحلب. ويوزع أمير الحج في الذهاب وفي الإياب، في ولايته وخارجها، الصرة (مبلغ من المال) على بعض القبائل لتسهيل مرور القافلة.

وتساهم ولاية طرابلس في الحج من خلال الجردة، وهي قافلة تكلف

بالذهاب للقاء الحجاج أثناء عودتهم لتحمل المؤن إليهم. ويصبح والي طرابلس في هذه المناسبة أمير الجردة ويُسمّى مرافقوها مزيريباتية الجردة. وتنطلق الجمال المحملة بالمؤن من مزيريب حيث خزنت الحبوب القادمة من المناطق المجاورة. إن المكان الذي تلتقي به الجردة بالحجاج غير ثابت، فهو يعتمد على التاريخ الذي تغادر به الجردة دمشق، والتهديدات التي تتعرض لها، والهجمات التي اضطرت للتصدي لها وأخيراً على فعالية أمير الجردة[63].

يُعتبر الحجاج من بين أهم العناصر المنشطة للتجارة في سورية الجنوبية: فهناك بضائع محمولة مع القافلة، وبضائع يبيعها القرويون والبدو إلى الحجاج على طول الطريق، وبضائع يبيعها التجار المرافقون للقافلة إلى الحجاج[64]. ومن بين المنتجات المجلوبة من شبه الجزيرة العربية، والتي تذكر غالباً، نجد البهارات والأقمشة والحجارة الكريمة والقهوة. وبحسب وثائق الإرث الموثقة في سجلات المحاكم الشرعية فيه دمشق بحدود 1700، يبدو أن «العدد القليل من التجار يقومون في نفس الوقت الذي يؤدون في واجباتهم الدينية بممارسة مهنتهم ولا يصطحبون معهم من المدن المقدسة القهوة أو البهارات وإنما يُحضرون بشكل أساسي الأقمشة الهندية الثمينة»[65].

المدن الداخلية والساحلية

تنشأ أقاليم المدن وتتطور بالطبع تبعاً للعلاقات مع السلطة. وهكذا فإن مدينة حلب قد بدأت في مطلع القرن الثامن عشر، ومع بقائها إحدى أهم المدن في المنطقة، تفقد أهميتها التجارية بسبب الهجمات الروسية على فارس خلال عامي 1721 ــ 22 والتي أدت إلى توقف عمليات تصدير الحرير إلى حلب، وفي الوقت نفسه، بدأ التوسع التجاري لسورية الجنوبية حيث شكلت دمشق صلة الوصل بين موانئ هذه المنطقة (صيدا، عكا) والمدن الداخلية

---

63 حول قافلة الحج انظر .cf. A.-K. Rafeq. *Province*. p. 52-76. p. 197-200; A.-K. Rafeq. «Qafilat al-hagg»; A.-K. Rafeq. «Damascene Pilgrmage».

64 A. Bakhit. *Ottoman Province*. p. 163.

65 C. Establet et J.-P. Pascual. *L'ultime voyage pour La Mekke* . p. 163.

(بغداد، بصرى)[66]. وتبعاً لتطور التجارة الدولية، فقد عرفت مختلف موانئ المنطقة مصائر مختلفة خلال الفترة المحصورة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر.

لقد كانت طرابلس لمدة طويلة، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، الميناء الرئيسي على الساحل السوري ـ اللبناني، ولكن في نهاية القرن السادس عشر، وفي عام 1590، أصبح التجار الأوربيون يخشون الاضطرابات السياسية التي تقع حول طرابلس، فنقلوا نشاطاتهم، وبدعم من والي حلب ودفتردارها، إلى ميناء الإسكندرية[67]، التي لم تكن سوى مدينة صغيرة في ذلك العصر، على غرار موانئ الساحل الأخرى (غزة، عكا، صيدا، صور، بيروت، إياس)، ولكنها عرفت مذ أصبحت ميناءً لحلب نمواً سريعاً بفضل النشاطات التجارية لهذه المدينة[68]. في حين أن موانئ مثل يافا وحيفا وعكا توصف في السجلات العثمانية على أنها قرى صغيرة وليست مدناً[69]. فإن كانت طرابلس والاسكندرون فيما بعد الميناءان الرئيسيان للساحل الشمالي في القرنين السادس والسابع عشر، فإننا نلاحظ فيما بعد ظهور اللاذقية التي بدأت تتجلى أهميتها خصوصاً في القرن الثامن عشر[70].

ففي ذلك العصر كانت تنتشر في الشمال والجنوب العديد من الموانئ التي تمارس في آن واحد معاً، التجارة الدولية، والنقل البحري القصير والبعيد[71]. فميناء صيدا وعكا، اللذان كانا في الوقت نفسه مركزين تجاريين وسياسيين، ويلعبان دوراً هاماً[72]، لكن التجار الفرنسيين، ودوماً بسبب المشاكل السياسية المحلية، غادروا عكا في نهاية القرن الثامن عشر في عام 1790[73]. ففي ذلك العصر وفي الوقت الذي كانت فيه صيدا تمر بأزمة،

---

66 A.-K. Rafeq, *Province*, p. 75, 114, 179-180.

67 A. Abdel Nour, *Histoire urbaine*, p. 306, 312-313; H. Sahili, «Turuq al-tigara».

68 H. Sahili, «Turuq al-tigara».

69 A. Cohen, «The Coast of Palestine».

70 A. Abdel Nour, *Histoire urbaine*, p. 328.

71 D. Panzac, «Ports du Liban sud et de Palestine».

72 A. Cohen, *Population and Revenue*, p. 60.

73 T. Philipp, «Rise and Fall of Acre», p. 131.

أصبحت بيروت التي كانت مغمورة في القرن السابع عشر بسبب أهمية طرابلس، أكثر الموانئ نشاطاً على الساحل[74].

إن التحول الرئيسي الذي يميز كلياً تطور المدن السورية العثمانية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر هو انتقال مركز الثقل من الداخل إلى الساحل. ففي القرن السادس عشر، كانت كل التجمعات السكانية الكبيرة تقع في الداخل ولم تكن التجمعات السكانية على الساحل تتجاوز حجم القرية. وحصل فيما بعد انتقال لمركز الثقل الاقتصادي والديمغرافي باتجاه الغرب، مما ساعد على نمو الموانئ وأدى إلى تراجع نسبي لدى مدن الداخل[75]. ففي مطلع القرن الثامن عشر، كانت التجارة تتركز في دمشق وحلب وتعتمد بشكل أساسي على التجارة الدولية العابرة للبلاد، وفي منتصف هذا القرن انتقلت النشاطات التجارية إلى المدن الساحلية في جنوب غرب سورية وبدأت منذ ذلك الحين تعتمد على المنتجات المحلية، لا سيما القطن. وهكذا تحولت عكا، قرية صيادي السمك الصغيرة، وبفضل القطن إلى أهم موانئ الساحل السوري، ولكن بسبب العلاقات الصعبة مع أحمد باشا الجزار. غادر التجار الفرنسيون في عام 1790 وبرزت موانئ جديدة لتصدير القطن مثل سالونيك وسميرنة[76].

لقد ركزنا اهتمامنا، في هذه المحاولة لتلخيص وضع الأقاليم العمرانية في سورية العثمانية، على المظاهر الخاصة جداً لهذه المسألة: الأقاليم الإدارية، سلامة الطرق والسيطرة على المناطق الريفية، صلة الوصل التي تشكلها قافلة الحج نحو المدن المقدسة، مكة والمدينة، والتطور المتتالي لمدن الداخل والساحل.

فبعيداً عن الحدود الإدارية المتبدلة والنَفُوذَة، ينتقل الأفراد ليس فقط على الخارطة السياسية وإنما على الخارطة الدينية أيضاً: فالولاة يتعرضون

---

74 A. Abdel Nour. *Histoire urbaine*. p. 362.

75 A. Abdel Nour, *Histoire urbaine*, p. 306. 364. 365.

76 T. Philipp. «Rise and Fall of Acre». p. 124. 129, 131, 136. 138; cf. egalement. T. Philipp, «Acre in the 18[th] Century».

لتبديلات متتابعة في مختلف مدن المنطقة، ويتعاونون بشدة ليس فقط من أجل التحضيرات التي تسبق تنظيم قافلة الحج، ولكن أيضاً من أجل تسهيل رحلة الحجاج القادمين من مناطق مختلفة ولا سيما تأمين تغذيتهم أثناء العودة.

إن كان بإمكان معرفتنا للأقاليم التجارية التي ترتسم حول مدن سورية العثمانية أن تتعمق أكثر، فهناك أعمال عديدة تسمح على كل حال بتتبع انتقال مركز الثقل من الداخل إلى الساحل بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. ويبدو أن العلاقات بين مدن المنطقة تقوم من الشرق نحو الغرب (وبالعكس) أكثر مما هو الحال من الجنوب نحو الشمال (وبالعكس). ففي الواقع، إن كانت قافلة الحج تنقل البضائع من مكة إلى دمشق، فلا يبدو، وبحسب المصادر المتوفرة بين أيدينا، أن هناك علاقات وثيقة تربط بين دمشق وحلب المتوجهة أكثر نحو الأناضول وما بين الرافدين.

لقد انتظمت أقاليم المدن أيضاً بواسطة تنقلات السكان الأفراد المدفوعين بأسباب اقتصادية واجتماعية أو ثقافية. وهكذا تبدو بعض المدن في المنطقة كأقطاب حقيقية يمكن أن توضح أهميتها أكثر من خلال التفحص المنهجي لمعاجم السير الذاتية.

BIBLIOGRAPHIE المراجع

ABDEL NOUR (A.)

1982 Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVI-XVIII siècles), Beyrouth

ABU HUSAYN (A.-R.)

1985 ProvincialLeaderships in Syria, 1575-1650, Beyrouth.

1992 «Problems in thé Ottoman Administration in Syria during thé 16th and 17th Centuries :

thé Case of thé Sanjak of Sidon-Beirut», International Journal ofMiddle East Studies, 24, p. 665-675.

BAHÏT ('A.)

1978 «Min târîh Hayfâ al-'utmâniyya. Dirâsa fi ahwàl 'umrân al-sâhil al-sâmï», Magallat magma'al-luga al-'arabiyya al-urdunï. 1/2, p. 112-137.

BAKHIT (A.)

1978-1979 «Aleppo and thé Ottoman Military in thé Sixteenth Century (two case studies)», al-Abhâth, 27, p. 27-38.

1982 The Ottoman Province ofDamascus in thé Sixteenth Century, Beyrouth

BARBIR(K.)

1980 Ottoman Rule in Damascus. 1708-1758, Princeton.

COHEN (A.)

1985 «Ottoman Rule and thé Re-emergence of thé Coast of Palestine». Revue de l'Occident

musulman et de la Méditerranée, 39, p. 163-175.

1973 Palestine in thé Eighteenth Century, Jérusalem.

COHEN (A.) ET LEWIS (B.)

1978 Population and Revenue in thé Towns of Palestine in thé Sixteenth Century, Princeton.

DIMASQI (M.)

1982 Hawâdit al-Sâm wa Lubnân (1192-1257/1782-1841). éd. A. Sabânû, Damas.

DOUMANLB.,

1995 Merchants and Pensants in Jabal Nablus. 1700-1900. Los Angeles.

ESTABLET (C.) ET PASCUAL (J.-P.)

1998 L'ultime voyage pour La Mekke. Les inventaires après décès des pèlerins morts à Damas vers 1700. Damas

HALIFA ('I.)

1992 «al-Taqsïmât al-idâriyya li-samâl Lubnân awâ'il al-qarn al-sâdis 'asar (925/1519)». al-Magalla al-târïhiyya al- 'arabiyya li-l-dirâsât al- 'utmâniyya. 5-6. p. 177-185.

KOURY (G.)

1970 The Province ofDamascus. 1783-1832. thèse de doctorat. Michigan.

MANTRAN (R.) ET SAUVAGET (J.)

1951 Règlements fiscaux ottomans. Les provinces syriennes. Damas.

MASTERS (B.)

1988 Mercantilism and thé Islamic Economy in Aleppo. 1600-1750. New York.

PANZAC (D.)

1990 «Commerce et commerçants des ports du Liban sud et de Palestine (1756-1787)». Revue du monde musulman et de la Méditerranée. 55-56. Villes au Levant. p. 75-93.

PHILIPP (T.)

1990 «The Rise and Fall of Acre : Population and Economy Between 1700 and 1850». Revue du monde musulman et de la Méditerranée. 55-56. Villes au Levant p. 124-140.

1992 «Social Structure and Political Power in Acre in thé 18th Century». in Philipp T.. The Syrian Land in thé 18th and 19th Century. Stuttgart.

RAFEQ (A.-K.)

1966 The Province ofDamascus. 1723-1783. Beyrouth.

1987 «New Light on thé Transportation of thé Damascene Pilgrimage during thé Ottoman Period». in R. Oison. Islamic andMiddle Eastern Societies. p. 127-136.

1968 Bilâd al-Sâm wa Misr. Damas.

1981 «Qâfilat al-hagg al-sâmî wa ahamiyyatu-hâ fi al-'ahd al-'utmânî», Dirâsât târlhiyya,6, p. 5-28.

RHODE (H.)

1985 «The Geography of thé Sixteenth Century Sancak of Safad», Archivum Ottomanicum, X,p. 179-218

RONCAYOLO (M.)

1990 La ville et ses territoires, éd. Gallimard, Paris.

SAHILI UGLU (H.)

1978 «Tagayyur turuq al-tigâra fi al-qarn al-sâbi' 'asar wa al-tanâfus bayna mînâ'ay Tarâbulus wa Iskandarûna», in aï-Mu 'tamar al-dawll al-tânl li-târïl} Bilâd al-Sâm (922-1358/1516-1939), Damas, I, p. 139-155.

SALIBI (K.)

1973 «The Sayfis and thé eyalet of Tripoli, 1579-1640», Arabica, XX, p. 25-52.

THIECK (J.-P.)

1985 «Décentralisation ottomane et affirmation urbaine à Alep à la fin du XVIIIe siècle», in Mouvements communautaires et espaces urbains au Machreq, Beyrouth, p. 117-168.

الديناميات المدينية وإنتاج الفضاء العمراني في سورية

نموذج حلب[1]

جان كلود دافيد Jean-Claude David

بيت المشرق المتوسطي، GREMMO* ـ جامعة ليون الثانية

مركز البحوث الفرنسي

نادراً ما كانت سورية التاريخية أو بلاد الشام، عبر تاريخها الطويل، دولة مركزية تنتظم حول عاصمة قريبة، وإنما كانت غالباً نسيجاً من المدن التي تسيطر كل منها على إقليم محدود. إن إحدى المعطيات الأساسية لتكوين الأقاليم الحالية في هذه المنطقة هو الانتقال من نظام مفتوح وذي بعد شاسع والذي كان يمثل الامبراطورية العثمانية وريثة الامبراطوريات الشرقية القديمة، بشكل أو بآخر، إلى تجاور الدول الإقليمية المحصورة ضمن حدود شديدة المراقبة.

إن الدولة السورية التي نشأت بالمعاهدات التي أبرمت بعد الحرب العالمية الأولى وتحت رعاية عصبة الأمم وإدارة الانتداب الفرنسي، هي إحدى هذه الدول الصغيرة المصطنعة والمترسخة في التاريخ بآن واحد. وقد نسجت علاقات جديدة حول دمشق، وضعتها إدارة شديدة المركزية، وتم

---

[1] لم يقدم هذا النص في الملتقى الدولي في كانون الثاني 1999. إن هذا النص الذي كان قد حضر من أجل أيام حلقات البحث في الـ GREMMO مجموعة البحوث والدراسات عن المتوسط والشرق الأوسط (ليون، 2 نيسان 1999): النظم العمرانية والمخصص حول موضوع المدن والأقاليم في بلاد الشام، ثم عدل لكي ينشر في هذا الكتاب.

* مجموعة البحوث والدراسات عن المتوسط والشرق الأوسط

الاعتراف بدمشق كقطب للأمة، وتشكل نسيجاً كثيفاً على المستوى الوطني، لكن ألا يتميز الفضاء السوري حالياً بهذا الإرث الذي يبلغ عمره آلاف السنين والذي يعود للمدن-الدول، ويتجاوز الأقاليم المتنافسة أو المتحالفة المنتظمة حول المراكز العمرانية، وتشابك الانتماءات المحلية، المدنية، الإقليمية أو الجماعات المختلفة؟ ويضبط إيقاع التاريخ الحديث لهذا البلد تقلب العلاقات بين المركزي والمحلي، ويكشف هذا التقلب عن نفسه في شكل واتساع الأقاليم والشبكات.

إنه تفكير بطبيعة وسيرورة تشكل أقاليم المدن في سورية انطلاقاً من نموذج مدينة حلب، فهذه المدينة لها خصوصية، إذ أن الحدود الجديدة لأقاليمها في الشمال وفي الغرب، بعد الحرب العالمية الثانية، هي أيضاً حدود دولية وهي متراجعة جداً مقارنة بالحدود القديمة لإقليمها الإداري في إطار الامبراطورية العثمانية.

إن أقاليم وشبكات العلاقات لمدينة كحلب، ذات طبيعة واتساع متنوعين وبالتالي فإن تأثير الحدود الجديدة هو بشكل أو بآخر قوي على هذه المستويات المتنوعة للأقاليم. ويجب تعريف هذه المستويات بدءاً من نقطة انطلاق في التسلسل الزمني، في نهاية القرن الثامن عشر. ومن ثم سنلاحظ تطورها حتى عهد قريب من الوقت الحاضر، أي في الستينات، التي تميزت بتوطيد أشكال جديدة من السلطة وعلاقات الدولة مع الاقتصاد والمجتمع والأقاليم.

أ ــ المدينة وأقاليمها في الامبراطورية العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر

تحتل المدينة وتسيطر على جزء فقط من الأراضي التي تحيط بها، والتي يمكن أن تكون أقاليم منسجمة، أو أقاليم تجوب فيها القبائل أو أراض للعبور أو نقاط يتم الوصول إليها من أقاليم أخرى. إن مدينة كحلب تقود مجالات متنوعة بطبيعتها وبشكلها وفي هذه الحالة فإن من الواجب إعادة تعريف هذه الحدود وتناولها من ناحية نسبية.

1 ـ الحدود الطبيعية أو التاريخية

لا تحد سورية «حدود طبيعية»، وكذلك الأمر بالنسبة لحلب، لكن العوامل الطبيعية هي أرضية أساسية للتنظيم الإقليمي على مختلف المستويات فالمناخ ولا سيما التهطال يحدد بشكل كبير توزع النشاطات التقليدية للإنتاج بين أنماط مختلفة من الزراعة وتربية المواشي. ومن وجهة النظر هذه، يمكن اعتبار موقع حلب كموقع مثالي. فهي على أطراف منطقة صالحة للزراعة دون الاعتماد على الري. ومخصصة للحبوب منذ العصر النيولوتي وبدايات الزراعة، وهي بالقرب من مناطق في الغرب أكثر تهطالاً والتي تسمح بزراعة أشجار مثمرة متوسطية (زيتون، كرمة، تين، فستق حلبي، وأشجار مثمرة أخرى). وهي أيضاً مفتوحة باتجاه البادية والهوامش الجافة، حيث انتشرت أنماط مختلفة من النشاطات الرعوية ولا سيما الرعي المتنقل الذي يمارسه البدو[2]. وتتسع هذه المناطق تدريجياً نحو الشرق والجنوب، مع ازدياد حدة الخصائص الصحراوية. ففي الغرب، تشكل سلسلة الجبال الساحلية والسهول الساحلية الضيقة عالماً مختلفاً نوعاً ما، ينتظم حول موانئ ومدن توطدت في أقاليم ضيقة وتخصصت بعمليات التبادل البعيد بين حوض المتوسط والداخل. إن التضاريس، لا سيما السلسلتين الساحليتين والوهدة التي تطوقاها، تحدد العوائق والممرات، وبالتالي محاور التبادل والمرور بين الشرق والغرب، بين مناطق صغيرة ووحدات إقليمية واسعة. وفي الشمال، تشكل جبال طوروس وطلائع هضبة الأناضول حداً واضحاً تعبره ممرات عديدة أيضاً.

ولا يمكن اعتبار أي حد من هذه الحدود، على مستوى حلب، أو سورية أو الشرق الأوسط، كحد نهائي ومتين ودائم بين وحدات ثقافية أو سياسية أو اقتصادية كتيمة. لقد كانت الأقاليم الحثية تمتد من الأناضول الأوسط وحتى

---

[2] إن إيبلا، هذه المدينة-الدولة القديمة تقع على مسافة 60 كم تقريبا إلى الجنوب من حلب، التي سيطرت على هذه المنطقة الواقعة بين المتوسط والفرات في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، تحتل موقعا جغرافيا يقارن بموقع حلب، الأمر الذي يفسر أنه بعد فترة من التعايش المشترك، تفوقت حلب على إيبلا وبدأ انحطاط هذه الأخيرة.

منطقة حلب لتشمل سفوح الأناضول التي ستشكل فيما بعد منطقة حدود متبدلة بين العالم الأناضولي ثم البيزنطي والعالم العربي الإسلامي، ثم بين العالم التركي والعربي. إن منطقة حلب الإدارية في الامبراطوريات الإسلامية ستشمل مراراً مناطق واسعة في الشمال: إن هذه الأقاليم، بعيداً عن التوافق مع حد ثقافي أو لغوي، تشكل نوعاً من الأحدور أو منطقة تلاق تشمل فضاءات لتجوال أو لاستقرار مجموعات مختلفة، عربية وتركية أو كردية والتي ترتبط غالباً بشكل ضعيف بالمراكز العمرانية التي تهيكل الفضاء: فالمجموعات العربية كانت تصل إلى مسافات بعيدة نحو الشمال والشرق لتتجاوز سفوح جبال طوروس، في حين أن المجموعات التركية، والكردية ما تزال تصل حتى الوقت الحاضر إلى منطقة حلب. وحلب بالذات هي مدينة عربية بالإضافة إلى تواجد هام لمجموعات عرقية ولغوية غير عربية وسوقاً كان في الماضي متعدد اللغات. وفي الجنوب، تمتد بلاد الشام حتى البحر الأحمر، وهناك حد متبدل أيضاً، لكنه دائم نسبياً، ويقسم هذه الكتلة الجغرافية إلى قسمين: ولاية حلب في الشمال وولاية دمشق في الجنوب. إن هذا الحد، الذي يمر غالباً شمال حماه. لا يغطي إلا بشكل تقريبي الحد التاريخي بين أنطاكية وأفاميا. وبعيداً أكثر نحو الجنوب. لا يتطابق الحد الذي كان يفصل بين مقاطعة سورية والجزيرة العربية في العصر الروماني. إلا بشكل تقريبي مع الحدود السورية الأردنية التي ستذوب فيما بعد في ولاية دمشق.

في الواقع، إن المراكز العمرانية بشكل عام وليست المناطق المحيطة أو الحدود من يحدد ويميز فعلياً البلاد، بين الساحل والداخل، بين الشمال والجنوب، بين سورية والفرات، بين المتوسط والمشرق، بين سورية والأناضول، بين سورية ومصر[3]. وحلب هي أحد هذه المراكز التي تفرض سيطرتها عبر تبدل سلطاتها أو تتقوقع وكل ذلك ضمن إطار نظام إقليمي مرن.

---

[3] Th. Banquis, «Méditerranée arabe, Asie musulmane, ou passé la frontière?», *Cahier d'études sur la Méditerranée orientale et le monde turco-iranien*, n 22, 1996, p. 12-50.

2 ــ الإقليم الإداري

يلعب المركز العمراني دور الوسيط مع العاصمة في إطار الولاية أو الباشاليك أو القضاء. إنه أكثر الفضاءات سهولة للتحديد على الأقل نظرياً. إنه محدد بواسطة حدود يمكن أن توضع على الخرائط. وما هو خارجها يتبع إلى وحدة إدارية أخرى محددة تبعاً لنفس الأسس والوظائف من حول مركز عمراني آخر. إن عملية التقسيم إلى مناطق إدارية تغطي بشكل عام كامل الفضاء السياسي. إنه مستمر، لكن هذه الاستمرارية قد تكون نظرية، وذلك بسبب وجود فضاءات خاوية من السكان أو محددة بشكل خاص بواسطة مضمون مختلف.

وهكذا فإن ج. ب. روسو J.-B. Rousseau، قنصل حلب في مطلع القرن التاسع عشر، يتحدث عن المنطقة قائلاً: «عندما سيطر العثمانيون على حلب، حولوا كل المناطق المحيطة بها إلى باشاليك أو مقاطعات وقسموها إلى سبعة سناجق أو ألوية: حلب، أضنة، باليس، بيرجيك، آزير، كِلِّيس ومرّة، ولكن فيما بعد تحولت العديد من هذه المقاطعات إلى إدارات خاصة (باشاليك أضنة، مقاطعة مرّة وبيرجيك، إقطاعية آزير وكلّيس): فلم يكن يتبع لباشاليك حلب، في مطلع القرن السادس عشر، إلا بين 250 و 800 قرية بائسة...»، وسأعود إلى هذه النقطة لاحقاً.

3 ــ الريف والمنطقة العمرانية

يتحدد هذا الإقليم بواسطة كثافة وتنوع العلاقات وبواسطة إشغال مستمر للفضاء، وبواسطة الروابط الخاصة بين المركز العمراني والقرى أو المدن الصغيرة أو البلدات. وتتطابق هذه الروابط مع أشكال الاستثمار والتبادل والاقتطاع أو زراعة الأراضي من قبل المدينة (الاستثمار). يمكن أن تكون مرتبطة أيضاً بعلاقات بشرية وعرقية وقبلية وجمعيات مهنية واجتماعية وعائلية وجاليات.

إن هذا الإقليم أصغر بكثير من الإقليم الإداري. كان يمكن تعريفه بدقة

في القرن الثامن عشر، كفضاء يكون فيه أعيان المدينة مُلاّكـــاً للأراضـــي، وملتزمي ضرائب[4]، ودائنين للمزارعين، وغالباً ما كانت الأوضاع القانونيـــة ترتبط بكل ذلك[5]. يمكن أن نقترح تقييماً جغرافياً دقيقاً لكل هـــذه الفضـــاءات بالاعتماد على أطروحة مارغريت ل. ميريويزر (1981) وعلى مقالة لـــ ج. ب. تييك[6] (مرجع سابق، 1985). كانت ملكيات أعيـــان حلـــب ومصالحـــهم العقارية والمالية والضريبية تتجمع بالتحديد في المنطقة القريبة في الغـــرب أو الجنوب الغربي على بعد 70 كم من المدينة. وتكون الحدود غير واضحة فـــي الشمال الغربي[7]. بينما نجد أن منطقتي الباب وعزاز بعيدتين نوعاً ما نحـــو الشمال الشرقي، وذلك بحدود 100 كم. وليس هناك سوى خمس قرى مدنيـــة من أصل الست والثلاثين التي درست فيها عائلات الأعيان الحلبيين، وهـــي تقع خارج هذه المناطق (M. L. Meriwether, 1981, 194-195)[8]. وقد لاحـــظ تييك Thieck: «وعلى التوازي مع الحركة التي سعت لكي تأخذ مـــن الإدارة المالية في حلب بعض المقاطعات الأكثر قرباً منها جغرافياً مـــن مقاطعـــات أخرى، فإن الأراضي التي يملكها أعيان المقاطعة تحتل مجالاً لم يعد ســـورياً

[4] في نظام تحصيل الضرائب كانت المالكانات، الإقطاعات الدائمة، تحل كل الالتزام، انظـــر ج. ب. تييك

J.-P. Thieck, «Décentralisation ottomane et affirmation urbaine à Alep à la fin du XVIII siècle», *Mouvements communautaires et Espaces urbains au Machreq*, CERMOC, Beyrouth, 1985, p. 128-129.

[5] J.-P. Thieck, *art. cit.*, p. 133: «L'endettment rural apparait comme l'instrument et le complement de cette lutte pour le control de la terre et de ses produits.»

[6] Margaret Lee Meriwether 1981, *The notable families of Aleppo, 1770-1830: networks and social structures*, memoire de doctorat dactylographie (University Microfilms international), University of Pennsylvania; J.-P. Thieck, art. cit.

[7] من بين أعيان حلب الذين لديهم مصالح في هذه المنطقة، يمكن ذكر عائلة قرنة فـــي أريحـــا وعائلة ياكجين في سرمين والشريف في باريشا مع ماليكانه في قرية رامحمدان في منطقة معـــرة مصرين. ومصطفى كَتكك علي آغا هو محصل ضرائب في الحامزية قرب حارم ومالك كبـــير في المنطقة نفسها. وبيت الجابري مُلاك أراضي في جسر الشغور وأرمناز (م. ل. مـــيريوزر M. L. Meriwether، 1981).

[8] استثناءات: الجابري أملاك في جسر الشغور، وآل الشيخبندر وأبناء عمومتهم بيت القوري في القصير قرب أنطاكية. ويعود آل رستم في أصلهم إلى جسر الشغور. (م. ل. ميريوزر، مرجع مذكور سابقاً، 194-195).

أو حلبياً ويمتد من قضاء جبل سمعان في الغرب إلى قضاء إدلب في الجنوب الغربي»[9]. ويذكر تبيك أيضاً هجرات الفلاحين من المناطق الهامشية الأكثر تعرضاً لهجمات البدو نحو المناطق الداخلية القريبة من حلب[10]، لا سيما تلك الملائمة لزراعة القطن. وهو يضع فرضية الميل نحو تكثيف الإنتاج والزراعة التجارية: «إن قيمة الصادرات من قطن حلب والاسكندرون إلى مرسيليا قد تضاعف 14.5 مرة [خلال قرن من الزمان] [...] حتى وإن كان هذا الرقم متعلق بإنتاج منطقة أكثر اتساعاً من ريف حلب الفعلي، فمن المدهش ألا يكون بشكل ما التعبير عن زيادة الإنتاج من القطن في أرياف الإيالة». (تبيك ص. 134).

ويمكن أن تكون المناطق الأصلية التي تنتمي إليها عائلات الأعيان، مؤشرات تساعد على تعريف منطقة حلب العمرانية، فكثير من مؤسسي هذه العائلات جاؤوا من العراق أو إيران، وجاء آخرون من مناطق أقرب: من الأناضول الشرقي ولبنان وفلسطين. علماً أن الأغلبية تنتمي في أصولها إلى المنطقة القريبة من حلب، المنطقة نفسها التي تحددها الملكيات العقارية وتحصيل الضرائب والقروض. ونجد بشكل خاص آل الفنصة والأسدي والبابي (نسبة للباب) والغنام، والجابري والجندي (من معرة النعمان) والكيالي (من سرمين) ورستم (من جسر الشغور). وقلائل هم أولئك الذين

[9] يذكر باربيه دو بوكاج Barbié Du Bocage، في تعليقه على مخطط حلب لروسو خصوبة الأراضي المحيطة بالإضافة إلى مختلف المحاصيل التي تزرع فيها: «إنها تنتج كميات كبيرة من القطن، والسمسم، والبطيخ والخيار، والذرة البيضاء، والفستق الحلبي، والمشمش، والتفاح، والتين، وأوراق التوت، والدخان، والزيتون والخضروات» (ص. 222)، ويذكر أيضاً «والسهل الذي يمتد أمام أريحا إلى الجنوب الشرقي من حلب [...] مغطى بالقرى، مثل إدلب وبنيش، ومعرة مصرين، إلخ التي يسكنها الفلاحون المزارعون».

(J.-G. Baebie Du Bocage, «Notice sur la carte générale des paschaliks de Baghdad Orfa et Hhaleb, et sur le plan d'Hhaleb de M. Rousseau», *Recueil de voyages et de mémoires publié par la Société de Géographie*, tome deuxième, Paris, 1825, p. 194-244).

[10] ج. ب. تبيك، مقالة مذكورة، ص. 134: «إن هجرة الفلاحين لمسافات بعيدة تتم من مناطق واقعة تحت رحمة القبائل بشكل خاص، تجاه الشرق من حلب النيرب وتادف والجبول، وفي الشمال الغربي نجد عزاز وبيلين، باتجاه الريف الملائم لزراعة القطن في الجنوب الغربي، سهول جسر الشغور ومنطقة دركوش الجبلية.

جاؤوا من مناطق أبعدِ في الغرب أو الشمال والتي ستفقدها حلب والتي ضمتها تركيا عندما وضعت حدود سورية الحالية.

من المهم ملاحظة أن منطقة حلب العمرانية تتطابق بشكل تقريبي مع جند قنسرين كما وصفه إبن شداد في القرن الثالث عشر، والمتركزة على الكتل الجبلية الغربية الكلسية وسهولها، التي يحدها العاصي من الغرب، وسرمين من الجنوب وعزاز وعفرين من الشمال، مع امتداد محدود جداً نحو الشرق[11].

إن الأقاليم الفعلية المُحددة انطلاقاً من مركزها، يمكن أن تكون منفصلة عن بعضها البعض بواسطة مناطق فارغة أو أقاليم انتقالية، ذات طبيعة مختلفة وذات علاقات أضعف مع المدينة وقد تكون عدوانية أحياناً. وقد كانت هذه الأقاليم مسكونة غالباً من مجموعات مختلفة، رحل، وجبليين، وغالباً من أهل القبائل، علماً أنه منذ عهد سابق للاحتلال العثماني كانت المدينة تستبعد كل مرجعية للهوية القبلية. وغالباً ما كانت هذه الأقاليم تشكل مناطق انعدام للأمن، يصعب على المدينة مراقبتها وذلك بسبب البعد والظروف الطبيعية، ولكن أيضاً بسبب نمو وتطور مجموعات بشرية متلائمة مع هذا الوسط المختلف، ومع ذلك فإن العلاقات بين هذه المجموعات والمدينة هي علاقات وثيقة وحيوية لكلا الطرفين. وهي تتم غالباً في فضاءات هامشية، وبشكل عام في الأرباض ذات الوضع الخصوصي جداً. وينطبق ذلك في حلب على الأسواق ولا سيما على الأحياء الشرقية البعيدة عن المركز. إنها أيضاً حالة حي الحاضر في حماه وحي الميدان في دمشق مع بعض الفروقات الطفيفة.

كانت العلاقات بين حلب ومحيطها متأزمة أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر. فقد كانت القرى وأراضيها الزراعية تشكل فضاءاً متنازعاً عليه. فهي واقعة في آن واحد تحت سيطرة المدن والقبائل البدوية. فقد كان ملتزمو ضرائب الدولة على الأراضي الزراعية، كانوا بشكل عام من أعيان حلب وكانت الضرائب على المنتجات الزراعية المسوقة تحصّل

[11] A.-M. Eddé-Terrasse, *Descripition de la Syrie du Nord. Traduction annotée de 'Izz al-Din Ibn Chaddad*. PIFD. Damas 1984. Voir la carte I: la région d'Alep d'après Ibn Chaddad.

في الأسواق الحضرية لكن بعض القبائل كانت تأخذ ضريبة من القرويين ومن القبائل المستقرة أو نصف المستقرة، وتسمى الخوة، التي تدفع مقابل الحماية.

4 ـ العلاقات خارج الإقليم: طولية، نقطية وعلى مسافات بعيدة

إن الأشكال الفضائية المعرفة بواسطة هذه العلاقات لا تعني إقليماً مستمراً، وإنما خطياً أو نقطياً ويمكن أن تكون حوامل هذه الروابط أساساً مادياً قوياً: طريقاً ترابيةً ـ أو طرقاً عامة، قوافل تجارية، محطات الطرق، واحات. يجب اعتماد الاختلافات ضمن هذا المستوى نفسه، بين علاقات لمسافات متوسطة وعلاقات بعيدة، التي يمكن أن تميز بين علاقات داخل العالم الإسلامي، الذي يبقى قريباً نوعاً ما وبين علاقات مع الخارج، لا سيما مع العالم الغربي وعالم البحر المتوسط، الذي يمكن تعريفه بشكل آخر.

إن الروابط مع القبائل قوية ومنوعة، فبعضها ينظم القوافل التجارية، كما أن أمن طرق القوافل بين أيديها وأيدي الإدارة المكلفة بحراستها. إن العلاقات بين السخنة الواقعة على مسافات تزيد قليلاً عن 200 كم عن حلب) ومواقع أخرى في البادية مع حلب بشكل خاص، هي علاقات خاصة ويحددها القطبان الثابتان، السخنة وحي السخانة في الضاحية الشرقية من حلب، الذي توسع كثيراً في نهاية القرن الثامن عشر. إن العديد من أحياء ضاحية حلب الشرقية حددت بحسب أصل سكانها الذين حافظوا على العلاقة مع موطنهم الأصلي. وفي الشرق ومنذ آلاف السنين يشكل فضاء البادية المترامي الأطراف إقليماً لحلب ولمدن أخرى تملك أوضاعاً مشابهة: فمنه تأتي المنتجات الأساسية للتجارة وللحياة اليومية للحضر، ولا سيما المنتجات الحيوانية كالجبن والزبدة واللبن واللحم إلخ. ويبدو أن جزءاً كبيراً من ازدهار إيبلا الاقتصادي قد اعتمد على الخصائص الطبيعية نفسها، وفي المنطقة نفسها على بعد بضع عشرات من الكيلو مترات إلى الجنوب من حلب: «إن الوضع الجغرافي لإيبلا، على الحدود الغربية للمنطقة التي لا تزيد أمطارها عن 200 مم سنوياً، يسمح بممارسة زراعة خفيفة للحبوب ولكن أيضاً

زراعات متوسطية [...]. إن هذا الموقع يقدم أيضاً شروطاً خاصة مناسبة للنشاط الرعوي: فقطعان الأغنام أو البقر تستطيع الاستفادة في الوقت نفسه من المراعي على الروابي في الغرب ومن الترحال الفصلي في أعماق البادية قبل الصحراوية في الشرق»[12].

وكان يبدو في القرن الثامن عشر أن القبائل ترتبط بشدة بإنكشاريي حلب، الذين كانوا يقطنون في الأحياء نفسها في شرق المدينة وهم أيضاً شركاء في تجارة اللحم والمنتجات الريفية الأخرى. كان عدد كبير من الإنكشاريين في ذلك العهد ذوي أصول قبائلية: « تعود قوة الإنكشاريين بشكل كبير إلى الانتماء إلى فرقة منظمة ومسلحة والتي تزداد روابطها خارج المدن مع اندلاع حركات مدعومة منهم في كامل المنطقة (عيتاب، أديامان، ألخ..). ويعتمد المخاتير لتأمين قوتهم أكثر فأكثر على العوامل المحلية ويتم ترقيهم بالتوازي مع الدور المتزايد للعلماء في السيطرة على الأراضي والحياة السياسية». (تيبك، 1985، ص. 160).

يمكن أن نذكر من جديد العلاقات مع العاصمة استانبول ذات الطبيعة السياسية أو الاقتصادية. فبعض الأعيان يجوبون الإمبراطورية العثمانية بمناسبة تعيينهم في مراكز وظيفية هامة مع تفويضات منوعة، وذلك كي يعودوا إلى موطنهم الأصلي أو ينهوا حياتهم المهنية في استانبول. إن العلاقات الشخصية مع العاصمة هي بالتأكيد ورقة هامة، ويمكن أن تكون مصدراً للسلطة على المستوى المحلي بعد العودة إلى حلب.

يعتبر التلاحم الطائفي هاماً جداً، فالانتماء إلى فرق صوفية، كفرقة النقشبندي، يسهل المرور إلى الشبكات غير الرسمية عبر كامل الإمبراطورية، وتغطي شبكة العلاقات لدى الطوائف المسيحية الحلبية مناطق خاصة. فهناك روابط قوية جداً تشد السريان إلى منطقة ماردين، والأرمن إلى سيليسي ومدن الأناضول الشرقي. ويرتبط أتباع الكنائس البابوية

---

[12] P. Matthiae 1996, *Aux origines de la Syrie, Ebla retrouvée*. p. 53 «إن صفوف هذه القطعان التي كانت تعد في عهد إركاب ــ دامو بين 70.000 و 80.000 رأس لتصل فيما بعد إلى 100.000 كان أحد أهم مصادر ازدهار إيبلا» (المرجع السابق. ص. 139).

المرتبطين بروما بواسطة نشاط المبشرين، لا سيما في حلب بدءاً من القرن السابع عشر، وخصوصاً بالنسبة «للكاثوليك اليونان» الذين ظلوا راسخين محلياً، ولكنهم شكلوا في القرن التاسع عشر شبكة واسعة شملت لبنان ومصر. ومن جهة أخرى تشكل كل طائفة شبكات توحد كافة المدن في المنطقة حيث يتواجد أفراد الطائفة. لقد كان الأعيان من الكاثوليك-اليونان موجودين أيضاً بقوة في حوض المتوسط الغربي في القرن التاسع عشر، وفي مرسيليا (حمصي، ضاهر)، وفي روما (كبِّه) وفي نابولي وليفرون، وحتى في تريسته.

إن الأجانب المقيمين في حلب، مثل عائلة ماركوبولي وحوستتياني وهم جنويون من جزيرة خيوس (كيو)، وآل بُش الذين يرجعون بأصلهم إلى بوهيميا، وآل فيلكروز من جنوب فرنسا ويهود غربيون مثل آل بيشيوتو، وآل بانتو، يشكلون من بين عدد كبير من العائلات الأخرى ممالك مترسخة في حلب مع علاقات اجتماعية خاصة بهم. ويتميزون كلهم بروابطهم وشبكات علاقاتهم العائلية، وبمكاتب أعمالهم، وبالتمثيلات القنصلية، التي تطورت في بلدهم الأصلي وفي الشرق الأوسط كالعراق، في الموصل وبغداد والبصرة، وإيران، ومصر، وفي بيروت منذ منتصف القرن التاسع عشر. يمكن أيضاً أن نذكر العائلات القنصلية التي تحتل مناصب رفيعة في مدن مختلفة من حوض المتوسط العثماني، كآل روسو وآل غيس، وآل دوليسيبس، وآل باركر (إنكليز).

كما أن هناك علاقات أخرى مميزة مع مراكز تجارية في المناطق المجاورة. بالنسبة لحلب، يتعلق الأمربمواقع متوسطة البعد تكون العلاقات معها منتظمة بواسطة قوافل تنظم عدة مرات في العام.

ويذكر باربيه دو بوكاج Barbie du Bocage القوافل الأربعة التي تنطلق كل سنة، في أربعة فترات مختلفة، باتجاه مدن آسيا الرئيسية، والقوافل التي تذهب إلى فارس مرتين في العام. «وتستقدم حلب من أجل مصانعها جزءاً كبيراً من المواد الأولية من ديار بكر، وفارس وشبه الجزيرة العربية والأناضول ومصر وسورية وحتى من أوربا، كما أنها ترسل القوافل إلى كل

أنحاء آسيا. ومن المنتجات التي تصنعها بالدرجة الأولى، الأقمشة الحريرية، والساتان، والوبر، والأقمشة المقصبة بالذهب أوالفضة، والمطرزات، والنسيج الأبيض أو غيره، والأقطان، والأقمشة الحريرية القطنية، والوشاحات أو الأقمشة الصوفية من نوع الميرونوس حالياً، ولكنه أكثر طراوة، وأوشحة تدعى كرمانسوس ، نظراً لتشابهها مع تلك المصنوعة في كرمان، والهندي•، وأقمشة من خيطان الذهب، والحصر، واللباد، والسجاد، والغليونات والمصوغات والمجوهرات»[13].

وتذكر خارطة روسو (في كتاب باربيه دو بوكاج) سبع طرق ترابية تنطلق من حلب (مذكورة هنا مع الكتابة الأصلية لأسمائها:

طريق طيبة باتجاه الجنوب الشرقي والصحراء (لا يذكر طريق ترابي في وادي الفرات)

طريق الباب، بيرجيك وأورفا الذي يتابع سيره نحو الشمال الشرقي.

طريق داتا، بيلان، إسكندرون، إلى الشرق من بحيرة البحيرة.

طريق حارم، أنطاكية، بيلان، إسكندرون، المشترك مع الطريق التالي عند خروجه من حلب.

طريق جسر الشغور–اللاذقية.

طريق معرة النعمان–طريق دمشق.

ويجب الإشارة هنا، فيما يخصُّ الارتباطات مع الخارج، إلى أهمية خانات المدينة حيث يقيم ويمارس القناصل العامون وظيفتهم، والتجار المتجمعين بحسب الجنسية، الجمعيات الدينية التبشيرية أو التعليمية. إن البوابات أو موانئ المتوسط عبارة عن كيانات وسيطة ثانوية جداً: نيابة للقنصلية الفرنسية في اللاذقية التي يقيم فيها عدد من القناصلة ونواب

• الهندي: نوع من النسيج القطني، مطبع ومشجر كان يصنع أصلاً في الهند. (المترجم).

[13] J.-G. Bocage, op. cit., p. 242. إنه لا يذكر الصادرات من الصابون من معامل الصابون السبعة الحقيقية والمنتجات الجلدية، وكذلك الزجاجية، والحبال، ذات الاستعمال المحلي أو الإقليمي.

القناصل الأوربيون (بين 4 و 5000 نسمة بحسب روسو). وبحسب روسو فإن الإسكندرية «عبارة عن مزرعة بلا أسوار حيث لا يوجد سوى عدد قليل من المنازل»... «وهواؤها ملوث جداً». ولم تكن بيروت في ذلك العهد تضم أكثر من عدة آلاف من السكان ولم يكن لها علاقات قوية مع حلب.

II – حتى الحرب العالمية الأولى: الإدارة العثمانية والتوسع الإقليمي

1 – أقاليم حلب في مطلع القرن التاسع عشر

سأعود إلى الحدود الإدارية لمنطقة حلب، الولاية أو البشاليك. فبحسب خارطة روسو، لم يكن باشاليك حلب يتجاوز نهر الفرات في الشرق: فأراضي الضفة اليسرى، الجزيرة، تشكل جزءاً من باشاليك أورفه. وفي الشمال، يكون الحد قريباً من الحدود التركية حالياً. وفي الشمال الغربي، يضم الحد نظرياً أنطاكية والإسكندرونة وباياس التي تشكل كلها أقاليم خاصة، على رأسها حاكم. وفي الغرب يعتبر نهر العاصي حداً مع منطقة اللاذقية[14]. وفي الجنوب تعتبر منطقتي إدلب ومعرة النعمان جزءاً من بشاليك حلب حتى حدود منطقة حماه، لكن يسيطر على جزء من المنطقة باشا يقع مقره في جسر الشغور[15]. إذاً يمكن اعتبار أن الإقليم الإداري الفعلي لحلب متقلص نوعاً ما في ذلك العهد، لكنه لا يختلف كثيراً عن حدود المحافظة في الخمسينات (التي كانت أوسع من المحافظة الحالية) إن المناطق التي تسيطر عليها حلب فعلياً ما زالت أكثر ضيقاً[16]. ففي مطلع القرن التاسع عشر، كان

---

14 تعطي «الخارطة العامة لبشاليك بغداد وأورفه وحلب» التي أنجزها روسو، حدوداً إدارية لهذه المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر انظر: باربيه دو بوكاج، مرجع مذكور، ص. 194-244.

15 A. Russell, *The natural history of Aleppo*, Londres, 1794. «كانت شوغل بإمرة آغا وكانت سلطاته تمتد حتى إدلب وكان يسميه الباب العالي، مستقل عن أي باشا». وهناك معلومات إضافية لروسيل عن حدود منطقة حلب (ص. 344) إذ يكتب: إن الباب في الشمال الشرقي ومحله إلى الجنوب الشرقي هما من بين أبعد القرى المسكونة وسرمين هي آخر مدينة نحو الجنوب، وتمثل أنطاكية الحدود الغربية

16 إن الوصف الذي أعطاه الرحالة فولني للقرى المتهدمة أو المهجورة في منطقة حلب في نهاية القرن الثامن عشر. ربما يكون هذا الوصف انعكاس لتشاؤمه أو لانحيازه السلبي. فيمكن أن تتطابق مع فترات من الهجرة الفصلية لأنصاف الرحل، الذين يتركون القرية كلياً... ومع ذلك

حد «الصحراء»[17] يقع عملياً بمحاذاة نهر الذهب، على مسافة 40 كم شـــرقي المدينة. وكانت الأراضي الواقعة أكثر بعداً نحو الشرق وصولاً إلى الفـــرات ومسكنة شبه خالية. وكثير من القرى حتى تلك الواقعة غرب نــــهر الذهــب كانت عملياً قليلة السكان أو مهجورة، لغاية ضواحي حلب.

ويقدم إ. فيرت[18] E. Wirth عرضـــاً مقنعــاً لشـــيء مـــن الازدهـــار الاقتصادي في مدينة حلب في النصف الأول من القرن التاســع عشــر. وإن كانت حروب نابليون والحواجز البرية قد شكلت عائقاً كبيراً أمــــام التجــارة البحرية المتوسطية، وبالنتيجة كانت المبادلات مع أوربا، مع انخفاض شـــديد (من 5 إلى 1؟) بالطونات، فإن التجارة في الإمبراطورية العثمانية والشـــرق الأوسط، من حلب أو مع حلب، ظلت مزدهرة جداً. إن التبادلات قويـــة مــع بغداد، ومصر وفارس والهند والخليج العربـــي، وتبقـى الصـــادرات نحــو استانبول ودول البلقان مهمة، بالإضافة إلى المبادلات التجاريـــة مـــع أوربـــا الوسطى والشرقية عبر الطرق البرية.

في الواقع، إن كل ما ذكر عن ازدهار حلب وتجارتها القارية في ذلـــك العهد، والذي اعتمد عليه إ. فيرت، مؤرخ بعام 1812. وبعد عشر ســـنوات، يكشف الزلزال الذي وقع في عام 1822 عن هشاشة هذا الوضع وعن نهايـــة عهد. ولم تعد حلب، بعد هدمها الجزئي، نشيطة بما فيه الكفاية كي تدفع إلـــى تحقيق نهضة حقيقية أو حتى أن تستعيد قواها. وهكذا كان يجب انتظار عقـود عديدة لكي ينتهي هذا الجمود، وكي تصبح الخرائب أقل ملاحظة وأن تنمـــو أشكال عمرانية جديدة.

فإن بحاثة ذلك العهد وعلى غرار المؤرخين الحاليين يتفقون على ملاحظة أن تراجع منـــاطق المستقرين لصالح مراعي البدو كبير جداً. إن الأخوة روسل الذين يتتبعون الوضع لزمن طويـل يلاحظون أنه في عام 1772 كان ثلث أرض نصف قرى الباشاليك مهجوراً، وقد رافـق ذلـك تدهور كبير للإنتاج الزراعي، فقرية تادف، المذكورة في عام 1737 على أنها قرية لطيفة جداً، متراجعة جداً في عام 1772.

[17] ذلك يعني التصحر بالمعنى الإنساني والاجتماعي، أكثر مما يعني تصحراً طبيعياً، أو مناخيـاً، أو مطرياً.

[18] E. Wirth, «Alep dans la première monitie du XIX siècle. Un example de stabilité et de dynamique dans l'économie ottomane tardive», REMMM 62, 1991-4, p. 133-149.

إن أمن الطرق أساسي لازدهار المبادلات التجارية. فطريق حلب-بغداد كانت غير مطروقة أو صعبة الاستعمال في ذلك العهد. وكانت الطرق نحـــو الغرب وموانئ المتوسط تفتح بشكل غير منتظم.

ومن جهة أخرى كان المجتمع يتطور، واختفى الإنكشاريون نظرياً مــن المشهد العام. وأصبح الغرب حاضراً أكثر فأكثر في حوض المتوسط. وقـــد اعتبر تراجع الأقاليم العثمانية، في البلقان والقوقاز ولا سيما شـــمال البحـــر الميت، كتراجع للإسلام. وازداد الشعور شيئاً فشيئاً بأن الطوائف المســيحية البابوية هي حليفة للغرب واعتبرت خائنة للمجتمع، ومنشقة عن المدينة.

2 ـ التوسع والسيطرة على مناطق إقليمية، أثناء النصف الأول من القـــرن التاسع عشر: مبادرات الدولة

تمت بين عاميْ 1830 و 1840 الخطوات الأولى التي قام بها ابراهيـــم باشا، ابن نائب ملك مصر محمد علي، الذي احتل سوريا لمدة تقارب عشـــرة أعوام، من أجل استعادة السيطرة على الأقاليم. فقد أرسل ابراهيم باشـــا مـــن حلب في تشرين الأول 1835، فرقة عسكرية صغيرة إلى وادي الفرات لكـــي تحتل دير الزور التي كانت تتبع اسمياً لباشاليك بغداد. كان هدفه هو السـيطرة على القبائل البدوية: وقد توصلت حامية دير الزور ومفرزة الجيش التي كانت تراقب الطريق بين دير الزور وحلب، إلى تحقيق هذا الهدف خــلال خمـس سنوات، حتى عودة سورية ثانية إلى حكم الإدارة العثمانية[19]. لقد كان جيـــش ابراهيم باشا الذي يقدر عدده بـــ 40.000 رجل في عام 1836، متعهداً لطلـــب كبير على الحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى التي تـــم الاســتيلاء عليـــها بأسعار منخفضة، مما أدى إلى ارتفاع كبير بالأسعار في السوق الحرة ونشـط الإنتاج، ورافق ذلك زيادة كبيرة في المساحات المزروعة. كما شجع ابراهيم باشا بشكل مباشر زراعة أراضٍ جديدة: لقد بنت السلطات أكثر من 200 قرية أثناء تلك الفترة في المنطقة القريبة من حلب في الجنوب وفي الشـــرق. كمـــا

---

[19] إن معظم المعلومات في هذا الفصل مأخوذة عن: نورمان لويس
N. Lewis, 1987, *Nomads and settlers in Syria and Jordan, 1800-1801*, Cambridge University press.

طلب ابراهيم باشا من أعيان المدينة تأمين تحويل هذه المشاريع مقابل تقاسم المحصول مع المزارعين، ولقد شارك في هذه العمليات تجار مسلمون ومسيحيون، وأعيان مسلمون، وقادة عسكريون، وموظفون كبار (ن. لويس، 1987، ص. 39 – 40 والخارطة 3). وفي عام 1834 قامت الفرقة الخامسة من الجيش العثماني، جيش الجزيرة العربية، بإعادة تنظيم ودعم نفسها. وكان مقر قائدها تميك باشا في حلب. وفي الفترة 1845–1846 قام تميك باشا ووالي حلب، عثمان باشا بتطوير مشروع تحصين حدود الصحراء، وذلك بزرع مراكز عسكرية كانت تخدم كقاعدة للانطلاق من أجل الدوريات التي تقوم على حماية القرى. وإن أحد الأسباب التي تكمن وراء تشجيع عثمان باشا لتطوير الزراعة هي «مصلحته في تصدير المنتجات الزراعية التي بدأت تتطور في ذلك العهد»[20].

إن أحد المظاهر الرئيسية لأعمال عثمان باشا، بعد ابراهيم باشا هو إرادته بدفع الحلبيين للدخول في هذه العملية، الأمر الذي يعني ربما شعورهم بأنهم غير معنيين أو ربما قناعتهم بأنه لا يمكن للمبادرة أن تأتي إلا من السلطة في ذلك الظرف من انعدام الأمن، والتي تبدأ على التوازي بأعمال السيطرة وبتحقيق الأمن والسلام وبتشجيع الأعيان على المشاركة.

3 – قبل انهيار الإمبراطورية العثمانية: استقرار أقاليم جديدة ومشاركة فاعلين محليين.

إن الحركة التي تطورت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد نتجت عن تشابك استراتيجيات عدد كبير من الفاعلين.

– أولاً: هناك الإدارة العثمانية، من خلال العديد من الموظفين المدنيين والعسكريين الذين يتميزون أحياناً بديناميتهم وتصميمهم على تطبيق الإصلاحات، ويرافق ذلك بلا شك الطموح الشخصي وبعض المثل العليا في

---

[20] « من بين نتائج هذه الطلبات، كانت زيادة قيمة صادرات حلب عبر البحر من 154000 رطل في عام 1849 إلى 234000 رطل في عام 1850، و 263000 رطل في عام 1853، 276000 رطل في عام 1854 و 410000 رطل في عام 1856. كانت الصادرات الرئيسية تتكون من السمسم، والقمح والصوف والشعير». ن. لويس، مرجع مذكور سابقاً، ص. 46.

الإخلاص للدولة، وكان مقر عملهم في شمال سورية وبشكل عام في حلب التي كانت تقوم بدور المركز الإداري ومركز القيادة العسكرية.

- بدأ الأعيان الحلبيون بالتعبير عن مصلحتهم الشخصية أو الجماعية، لا سيما الاقتصادية نحو نشاطات جديدة وأقاليم جديدة. إنه بداية التغيير العميق نوعا ما لأنظمة التبادل، ولنوع المنتجات المتبادلة، ولأنماط الإنتاج، وكل ذلك في إطار سابق للاستعمار.

- لقد رغبت القبائل البدوية الرحل أو المستقرة بالحفاظ على الامتيازات الإقليمية المكتسبة وعلى السلطة. وهكذا فقد تزايدت حدة العداء بين المزارعين المستقرين والمجتمعات القروية من جهة، والنشاطات المرتبطة بحياة البداوة والترحال، والاقتصاد المرتبط بتربية الأغنام والإبل، ونهب القوافل والقرى، وفرض الخوة[21] من جهة أخرى.

- وتدخلت أخيرا أحداث أكثر بعدا متعلقة بالبلدان الغربية إن كان بوضع سياسة استعمارية قيد التنفيذ أو الدفاع عن المصالح في الشرق الأوسط، أو في النتائج الاقتصادية للأحداث السياسية والعسكرية التي يمكن أن تكون غريبة كليا عن بلدان المتوسط أو المشرق. فقد ارتفع طلب البلدان الغربية على الحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى بشكل كبير بسبب حرب القرم (1854-56)، وحاجة الجيوش المتحالفة وانقطاع الصادرات الروسية عبر البحر الأسود. وتوجه الطلب على القطن أثناء الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865)، الذي لم يعد بمقدور أمريكا تلبيته، إلى الشرق الأوسط، إلى مصر، ولكن أيضا إلى سورية. وأدت المضاعفة الفورية لأسعار القطن إلى زيادة كبيرة في المساحات المزروعة (ن. لويس، 1986، ص. 47).

كانت نهضة الزراعة في ذلك العهد مقتصرة فقط على المناطق الواقعة إلى الغرب من الفرات في منطقة تحيط بحلب يبلغ نصف قطرها 100 كم، وكانت إحدى المراحل ذات المغزى لحركة التوسع الزراعي والإداري نحو الشرق هي إنشاء مقاطعة إدارية جديدة في عام 1854، وهي متصرفية دير الزور مع إدارة خاصة بها.

---

[21] ضريبة يدفعها المزارعون المستقرون إلى حمايتهم من البدو، مقابل حماية حقيقية أو نظرية.

وفي عام 1868 تشكلت ولاية الصحراء، ثم اتحدت مع دير الزور في عام 1870 لتشكلا معا سنجقا جديدا، يضم كامل وادي الفرات السوري والجزيرة وشمال الصحراء السورية. ولقد شيدت الأبنية الإدارية والثكنات في دير الزور حيث استقر أيضا تجار قدموا من حلب والموصل وبغداد ومن المدن الأخرى أيضا.

وقد كان مدحت باشا، والي بغداد النشيط بين عامي 1869 و، 1872يسيطر على القطاع الأدنى من وادي الفرات. وأصبحت المواصلات ممكنة من جديد بين حلب وبغداد دون صعوبات كثيرة، وذلك على الطريق الترابي المحاذي لضفة الفرات اليمنى.

وفي عام 1888 ضم سنجق أورفه الذي كان جزءا من ولاية ديار بكر، إلى ولاية حلب (ج. سمنه، 1920، ص. 7)[22].

ومنذ عام 1881 بدأ الأعيان الحلبيون بشراء الأراضي في وادي الفرات أو في تشكيل «الشراكات» في وادي البليخ الأدنى (ن. لويس). ولم يكن التجار هم الوحيدون في الاستثمار الزراعي، فقد كان هناك مجموعات أخرى من الأعيان كالموظفين الدينيين والمدنيين المكلفين بمهام في المدينة وفي إدارة الولاية، وملاك الأراضي وجباة الضرائب، الذين يشكلون البيروقراطية الحكومية الجديدة التي كانت تنمو في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

«فمع نمو المبادلات وتوسع الاقتصاد النقدي، سوف تتطور العلاقات مع السوق. وازدادت الاتصالات القائمة بين دير الزور وحلب ابتداء من عام 1890، وسوف تأخذ حلب تدريجيا مكانة بغداد في ميدان تأمين المنتجات المصنعة» الحلية أو المستوردة[23]. وبدت بغداد كمدينة محصورة: تميل المناطق في الشرق الأوسط، لا سيما مناطق وادي الفرات، إلى التعامل مع الغرب وأن تستقطب من حول حلب ولكن أيضا

---

[22] George Samné 1920, *La Syrie*, Paris.

[23] Hannoyer, «Industrie et changement social en Syrie» , in *Mondes en développement, 1980*

مع دمشق وبيروت وساحل المشرق. ولقد تميزت نهاية القرن التاسع عشر بالنسبة لحلب، كما هو الحال بالنسبة لكامل المنطقة، بازدهار مؤكد وبتجديد للمبادلات البعيدة. وظلت الأسواق الرئيسية لحلب هي تلك المتطابقة مع العقدة الشرقية للأمبراطورية العثمانية ومع الأناضول الأوسط والشرقي في الشمال، والموصل في الشرق، ومصر في الجنوب. حيث كان يصدر التجار الحلبيون المنتجات الصناعية للمدينة، والمنتجات الزراعية والحيوانية، ومنتجات الغرب مقابل المواد المستوردة. وقد تأكد الاستقطاب القاري الداخلي لنشاطات المدينة في نفس الوقت الذي كان يزداد فيه الانفتاح نحو بلدان المتوسط.

لقد تحسن الاتصال البري نحو الشرق انطلاقا من حلب مرة ثانية في مطلع القرن العشرين: ففي عام 1908 كانت العربات التي تجرها الدواب تنتقل بين حلب وبغداد عبر مسكنة والضفة اليمنى للفرات، ومنذ سنتين أو ثلاث بين حلب وأورفة والموصل مرورا بمنبج. وكانت طريق العربات الذاهبة إلى أورفة ومسكنة قد انتهت في عام 1907 (ن. لويس ص. 56). كانت دير الزور مزدهرة: ففي عام 1912 كان عدد سكانها يقدر بـ 5600 نسمة[24]. ولقد تطورت الرقة أيضا، إذ كانت تضم 300 عائلة في عام 1912. كما أن المساحات التي تزرعها في الوادي القبائل التي تعيش على ضفتيه قد ازدادت أيضا مع بقاء قرى لأنصاف المستقرين مبنية بالمواد الصلبة. لكن الاستغلال الاقتصادي كان في بداياته وكانت المنتجات مخصصة للاستهلاك الذاتي للقبائل العاملة في الزراعة باستثناء محيط دير الزور والرقة وفي جزء الوادي الأقرب إلى حلب. وكانت كلفة النقل كبيرة لدرجة أن كمية قليلة من الحبوب كانت تغادر الوادي نحو الأسواق الخارجية (ضعف السعر). وهكذا بدأ الحديث عن إنشاء سكة حديدية في الوادي أو عبر الجزيرة. وبدأ المستثمرون بالتفكير في الاستثمار في المنطقة.

---

[24] حول تطور المدينة ودور السلطات المحلية في ذلك العهد، أنظر :
Jean Hannoyer 1993, «Politique des notables en Syrie : la naissance d'une ville. (Deir al-Zôr, 1980-1921)»*BEO*, XLI-XLII 1989-90, Damas 113-142.

4 ـ أثناء الحرب العالمية الأولى: مصالح حلبية جديدة وتطلعات إقليمية جديدة.

كانت ولاية حلب في ذلك العهد شاسعة الأبعاد من جديد، تشبه ولاية حلب في بداية الاحتلال العثماني، وبمفهوم إداري[25]: تعتبر حلب كنقطة انطلاق لأعمال غايتها الإمساك بالأقاليم المختلفة.

هناك منطق إقليمي مختلف أحياناً كانت تمليه المصالح الإقليمية للحلبيين ووظائف حلب الاقتصادية والإقليمية والدولية ، وكانت الضفتان الرئيسيتان لهذا المنطق هما الشبكات البرية والانفتاح على المتوسط. فاسكندرون هي الواجهة الرئيسية لحلب على البحر: ففي عام 1912 نفذت فيها أشغال هامة وحفرت ثلاثة أحواض مخصصة لاستقبال السفن الكبيرة (ج. سمنة، 1920، ص. 165). وكانت طريق حلب–اسكندرون من بين أولى الطرق التي تم تحديثها في المنطقة بحدود عام 1880[26]. وانتهت طريق جديدة في عام 1914[27]. كانت السكة الحديدية بين إستنبول وبغداد المارة بحلب متصلة بميناء اسكندرون في عام 1914 بواسطة وصلة طوبراك كاله–اسكندرون، مما يسمح بالوصول إلى هذا الميناء انطلاقاً من حلب. لكن ربط حلب ببيروت بالسكة الحديدية منذ عام 1906، سمح منذ ذلك الحين بوصول سهل نسبياً إلى ميناء مجهز جيداً ونشيط[28]. وسرعان ما توجهت الحركة التجارية بين حلب وبلدان المتوسط إلى ميناء بيروت. مثلما لاحظ ج. سمنة بنفسه[29]، الأمر الذي أدى انخفاض حجم البضائع المحملة والمنزلة في ميناء اسكندرون في الفترة المحصورة بين عام 1906 والحرب العالمية الأولى. إن

---

[25] تضم الولاية سنجق أورفه حتى حدود ولاية دياربكر، ومنطقة عنتاب، ومرعش، والبستان وسنجق اسكندرون. وفي الشرق تضم وادي الفرات حتى ما بعد الرقة.

[26] تظهر الطريق على خارطة كيبرت وفيرنر وذلك قبل عام 1905 بفترة قصيرة.

[27] كان النقل يتم بواسطة العربات أو على ظهر البغال أو الجمال، ويوجد في بعض النقاط عربات جياد للمسافرين أو لنقل البريد.

[28] على الرغم من المسافة وبعض المعوقات التقنية، كان جزءاً من سكة رياق–بيروت يعتمد نظام سلاسل الأسنان، ولا بد من تبديل العربات بسبب اختلاف التباعد في سكة الحديد، فهناك طريق عادي بين حلب ورياق، ثم سكة مترية باتجاه بيروت.

[29] G. Samné, *op. cit.*, p. 165 note 2.

التبدل الواضح في توجه التجارة الحلبية الخارجية نحو الجنوب من خلال الانفتاح ، يمكن أن يكون مؤقتاً، طالما كانت اسكندرون تشكل جزءاً من الإقليم السوري في ظل الانتداب لغاية عام 1939. ومع ذلك فإن الخط الحديدي المباشر بين حلب واسكندرون لم ينفذ قط. وسيظل ازدهار الميناء المتزايد معتمداً بشكل أساسي على نشاط ومنتجات إقليمه الخاص.

بيد أن التبدل الذي ظهر أنه مؤكّد، يمكن أن يكون التعبير عن إعادة تنظيم الإقليم السوري الذي بدأ بالتشكل قبل انهيار الإمبراطورية العثمانية[30]، وذلك ضمن منظومة «سورية» (عربية؟). لقد دخلت منطقة حلب ضمن هذه المنظومة، والتي يحتاج تكوينها إلى روابط قوية مع الجنوب، أي مع دمشق وبيروت. وهذا لا يعني فقط اختيار طرق الوصول إلى ميناء من موانئ المتوسط، وإنما أيضاً خيارات إقليمية أكثر أساسية بين منظومات عثمانية أو سورية.

في حلب، كانت الاستراتيجيات الإقليمية ، التي هي في طور التشكل. تتعلق في البداية باستثمار الأراضي الزراعية، في زمن كان فيه الجزء الأكبر من الطلب الخارجي (وحتى الداخلي بالدرجة الثانية) يتكون من المنتجات الزراعية والرعوية[31]. وضمن هذا السياق، ما هي أهمية المبادلات التجارية مع المناطق الواقعة إلى الغرب، في سنجق اسكندرون، وبعيداً نحو الشمال مع مناطق كيليس وعنتاب التي ستقتطع من حلب؟ فهذه المناطق الكثيفة السكان، والمستثمرة عموماً بطريقة مكثفة وقديمة، لا يمكن أن تلبي

---

[30] إن استعمال الخشب هو أحد الأمثلة عن انقلاب الأوضاع، التجارية والتقنية في آن واحد. فالتقليد ا هو أن يكون أسقف المنازل والأبنية الأخرى في حلب من 305 إلى 4 م، التي جلبت من مناطق بعيدة إلى الشمال من حلب بين عنتاب ومرعش الواقعتين في تركيا حاليا. وبعد إنشاء السكة الحديدية، أصبح من الأسهل استيراد الجوائز الحديدية، المستعملة مسبقاً منذ بضع عقود من الزمن في الأبنية الحكومية. وسرعان ما تم التخلي عن الخشب لتحل محله الجوائز المعدنية المستوردة من البلدان الغربية عن طريق بيروت.

[31] بحسب ج. سمنة (ص. 171-172)، كانت حلب تصدر قبل الحرب العالمية الأولى وبشكل خاص الجلود والصوف والأقمشة (حرير، قطن، خيوط الذهب أو الفضة، صوف، وبر الجمال، الموسلين، المطرزات)، والحبوب، والحبوب الزيتية، والزيتون والفستق الحلبي، والجوز والزبيب وعرق السوس، والفواكه، والسكريات.

الطلب الجديد على المنتجات الزراعية، باستثناء سهل العمق القريب من أنطاكية، الذي سيصبح هدف الاستثمار الزراعي لملاك من أنطاكية والمنطقة نفسها، أكثر مما سيكون من قبل حلبيين، البعيدين بشكل عام عن الاستثمار في الميدان العقاري[32]. ويبدو أن هذه المناطق القريبة نوعاً ما من حلب، والممرات الرئيسية (لكن ليس من المستحيل تبديلها لأنها قابلة للاستبدال) للوصول إلى البحر المتوسط والأناضول، التي كانت طوال قرون عديدة جزءاً من منطقة حلب الإدارية، قد كانت خصوصاً أقاليم عبور ومناطق للتسويق على غرار مناطق كثيرة أخرى واقعة إلى الشرق أو الجنوب. ولم يكن الحلبيون يملكون فيها سوى روابط إقليمية ضعيفة، وكانت علاقاتهم الشخصية والعائلية مشتتة أو موضعية بشكل عام، ولقد أصبح من الممكن إدخال نمط جديد من أنماط الزراعة وذلك بسبب تحسن الوضع الأمني، والذي سيشكل العمدة الرئيسية لنمو النفوذ الإقليمي لحلب نحو الشرق: فلم تعد زراعة الزيتون أو الكرمة أو الفستق الحلبي أو المنتجات الأخرى هي التي تقوم بهذا الدور، التي ظل قسم من إنتاجها يذهب إلى التصدير، وإنما مواد تجارية يتميز الطلب عليها بالتقلب، والذي يمكن أن يزداد بشكل كبير في فترة قصيرة جداً، كالحبوب والأنسجة ولا سيما القطن.

III ــ من الدينامية المدينية إلى الدولة المُوجهة

1 ــ ترتيب الأقاليم بعد الحرب العالمية الأولى: صراعات ومعاهدات في منطقة حلب

إن ترتيب وضع الأقاليم التي ستشكل دولة حلب ثم سورية بعد الحرب العالمية الأولى، يمكن أن يعبر عن بعض المصالح الحلبية. فالعوامل المعقدة وتنوع مصالح القوى العظمى لا يمكن لها أن تخفي فعالية الاهتمامات المحلية الأكثر ضيقاً. إن حرية كيان حلبي صغير تتطابق مع منطقة عمرانية صغيرة

---

[32] يمكن أن نبين أنه إن كان بعض الحلبيين. من الملاك القدماء في منطقة أنطاكية (انظر م. ل. ميريوزر، ص. 194-195)، فإن معظم القضايا المتنازع عليها السابقة لسلخ اللواء واستيلاء تركيا عليه، تتعلق بملاك من أنطاكية ومن مدن أخرى من المنطقة كانوا قد هاجروا إلى حلب.

محددة مسبقاً، والتي لاحظنا ديمومتها على الأقل بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر، لم تكن على الأغلب موضع إعادة نظر، لكن يمكن أن نلاحظ أن ما كان يدافع عنه بقوة من قبل المقاومين الوطنيين في منطقة حلب، كان بالضبط هذا الإقليم، في حين أن المناطق التي لم يكن فيها للحلبيين مصالح حيوية، في الشمال والشمال الغربي، كانت مسرحاً لمعارك وطنيين آخرين متحالفين أو مستقلين كلياً، يحاربون من أجل قضايا مختلفة. إن نشاط حركة المقاومة التي كان يتزعمها القائد الوطني ابراهيم هنانو، والتي تعاظم نشلطها بشكل خاص في عام 1920، مهمة جداً في هذا المجال[33].

كان ابراهيم هنانو من أصل كردي، وقد ولد عام 1869 في كفر تخاريم القريبة من مدينة حارم الصغيرة، على مسافة تقرب من 50 كم إلى الغرب من حلب. وهو ابن لأب غني من الأعيان الريفيين وملاك كبير للأراضي. وقد تابع دراسته في إستنبول في المدرسة الإدراية العامة الملكية ومارس وظائف إدارية متنوعة في حلب ثم تفرغ لإدارة أملاكه. وعند اندلاع الثورة العربية انضم إلى جيش الملك فيصل كضابط ودخل حلب مع الحلفاء في علم 1918. وقد انتخب ممثلاً عن حارم في المؤتمر السوري في دمشق.

لقد صرح البريطانيون في أيلول من عام 1919 بأنهم مستعدون لسحب قواتهم من سورية، التي ستحل محلها نظرياً القوات العربية في دمشق وحمص وحماه وحلب وإلى الشرق من الخط الذي ترسمه هذه المدن. ولم يقبل الفرنسيون بهذا التقسيم، وذهب ابراهيم هنانو إلى حلب لتنظيم المقاومة. وطوع الشباب في جمعية الدفاع الوطني التي أسسها بدعم من كبار التجار وأصحاب المهن الحرة والزعماء الشعبيين. وتحت تأثيره بشكل خاص كسب كل أعيان حلب من المسلمين للدفاع عن الهوية العربية والوحدة الوطنية السورية. لكن ألم يكن في صميم أفكاره خليط من الإقليمية الحلبية والقومية العربية، وهو ما

---

[33] المراجع المستخدمة من أجل هذا الفصل هي:
- P. Sluglett 1989. «Urban dissidence in mandatory Syria: Aleppo 1918-1936», in *Etat, ville et mouvements sociaux au maghreb et au Moyen-Orient*, Urban Crises and social Movements in the Middle East (collectif), p. 301-316.
- E. Picard 1982. «Retour au Sandjak». *Maghreb-Machrek*, p. 47-64.
- P. Khoury préface par A. Hourani and, *Syria and the French Mandate* 1925-1945, I.B. Taures, Londres, 1987.

يفسر عدم الوضوح وانتهازية التحالفات على أرض الواقع؟ لقد ساند هنانو في بادئ الأمر الشريفيين، لكنه اعتبر أن التحالف مع الكماليين أفضل من الخضوع إلى فرنسا. وأطلقت النداءات لمقاومة فرنسا في عام 1920 وذلك من أجل دعوة المسيحيين واليهود على البقاء متضامنين مع الجماعات الأخرى على مقاومة الفرنسيين. ولكن الوطنيين لم يفعلوا شيئاً عندما وصل نبأ هزيمة ميسلون إلى حلب، واحتلت القوات الفرنسية المدينة دون أي حادث وذلك يوم 23 تموز من عام 1920. فذهب الزعماء الوطنيون إلى الأرياف وتابعوا هناك نضالهم بمساعدة الوطنيين الأتراك، فقد أرسل الكماليون الرجال والعتاد والأموال بكميات كبيرة إلى قوات هنانو. وقد أطلق الأتراك في شمال سورية دعوات تدعو لمناصرة تركيا ولمعاداة فرنسا. وفيما وقد ارتفع عدد أفراد قوات هنانو من 800 إلى 5000 مقاتل بين صيف عام 1920 وشهر تشرين الثاني من العام نفسه. وفي تشرين الثاني من عام 1920 كانت المنطقة الواقعة بين جسر الشغور وحارم، حتى وادي نهر عفرين، تحت سيطرة أنصار هنانو، وأصبحت إدلب ومعرة النعمان الهدفين التاليين للمقاومين.

لكن في كانون الأول من عام 1920 انتصر الفرنسيون في حارم وجسر الشغور، ولجأت القوات الوطنية إلى جبل الزاوية جنوب إدلب، وخفت حدة التوتر والعداء الفرنسي التركي في سيليسيا: إنها نهاية الدعم التركي لـهنانو. واستمرت أعمال المطاردة في جبل الزاوية حتى ربيع عام 1921. ولقد انهار عصيان هنانو مع تنصيب الأمير عبد الله ملكاً على عرش الأردن في ربيع 1921 وتخلي الأتراك عنه. وبعد اتفاق فرانكلان-بوييون Frinklin - Bouillon في تشرين الأول من عام 1921، مكث الأتراك شمال خط بغداد الحديدي، الذي أصبح حدود الأمر الواقع.

كانت قوات هنانو حاضرة وفعالة في منطقة حارم، فقد كان في منطقته، حيث كانت لديه شبكات كثيفة من العلاقات والسلطة الشخصية. ويجب الإشارة هنا إلى أن منطقة حارم هي جزء هام من منطقة حلب القديمة: فقد شكلت دوماً جزءاً من ظهير المدينة الريفي. لم تكن أعمال هنانو أبداً عبارة عن مقاومة منهجية لفصل أقاليم تديرها حلب، فالمناطق التي كانت تشكل جزءاً من ولاية حلب، والواقعة شمال سكة بغداد، وقضاء عنتاب

وقضاء رم قلعة، وسنجق مراش وسنجق أورفة كانت تحت سيطرة الوطنيين الأتراك الكماليين، الذين كانوا هم أيضا يقاومون الفرنسيين. ويبدو جيدا أن هذه المنطقة لم تعد بالنسبة للحلبيين تشكل جزءا من سورية، وأنها لم تكن قط جزءا من منطقة حلب.

2 ـ الانتداب الفرنسي والعقد الأول من الاستقلال: استثمار المدن الكبرى للأراضي

كانت فرنسا تسعى، بين الحربين العالميتين، إلى تحقيق الأمن وتوحيد الحدود والأراضي في سورية. وتابعت سياسة ضبط وتوطين البدو الرحل، وتنظيم المناطق الريفية. فخفت سلطة القبائل بشكل كبير وكذلك عدد البدو الرحل الفعليين. وفي عام 1925 اختفت قوافل الجمال التجارية، وحلت محلها الكريولات والشاحنات، في حين أن الطرق الترابية الطويلة العابرة للصحراء صارت مهملة مؤقتا. وبدأت دير الزور تتوجه شيئا فشيئا نحو حلب، فقد تغلبت الزراعة على تربية الماشية تدريجيا، كما توجهت الجزيرة نحو حلب، فالقامشلي ترتبط بشدة بحلب بالرغم من بعد المسافة.

وبعد الحرب العالمية الثانية، برزت الفائدة من زراعة الأراضي الشرقية لإنتاج الحبوب والقطن، التي رافقت زيادة الطلب الكبير أثناء الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية. وخلال السنوات الأولى من الاستقلال، كان يتميز الوضع بالظلم الكبير الذي يعم العالم الريفي، في بلد ما يزال اقتصاده يعتمد بشكل كبير على الزراعة. فبعد تهميش البدو واقتصادهم ومجتمعهم وسلطتهم، أصبحت المدن الكبيرة، مثل حلب، تهيمن وتستثمر لصالحها الأراضي الزراعية التي تتوسع بسرعة. وقد كان العقد الأخير من الانتداب، والسنوات الأولى من الاستقلال بعد عام 1946، سنوات الأوج بالنسبة لنظام الاستثمار من قبل أعيان مدنيين من أصول مختلفة، ملاك أراض جدد أو قدماء، ومتعهدي الخدمات، ومالكي وسائل الإنتاج الحديثة للاستثمار والنقل.

وغدت حلب العاصمة التي لا تنازع لمنطقة تمتد نحو الشرق لمسافة تقرب من خمس مئة كيلو متر. ومع ذلك فإن هذا الإقليم الواسع الذي

تكون خلال ما يقارب القرن، والمتميز بندرة المدن الوسيطة ونقص الخدمات. لا يمكن اعتباره كإقليم لمدينة حلب، فسوف يعاد النظر به وتفككه الثورة البعثية.

3 ـ الثورة البعثية وسياسة إعادة التوازن الإقليمي: كيف تُصنع الأقاليم؟

كانت سياسات الإصلاح والتنظيم الإقليمي، التي اقترحت بعد عام 1963، تهدف في معظم الأحيان إلى إقامة توازن جديد بين المناطق، وكذلك بين الريف والحضر. فالإصلاحات التي وضعت حيز التطبيق أصابت بشكل رئيسي سلطة وثروة المدنيين. لا سيما أبناء المدن الكبيرة. فقد أممت المؤسسات الصناعية والتجارية لصالح الدولة، وصودرت الأراضي لصالح الفلاحين. وكانت حلب مستهدفة بهذه الإصلاحات أكثر من كل المدن الأخرى، وكانت أكثرها تضرراً. فقد تقلص إقليمها بشكل كبير بسبب هذه الإجراءات المختلفة أكثر مما حدث بسبب الاقتطاعات المتكررة من إقليمها أثناء الحرب العالمية الأولى.

وكان الشق الآخر لهذه السياسة هو نشر التجهيزات في الريف وإنشاء «المدن». وهكذا وبشكل تدريجي جُهزت القرى بالبنية التحتية وبالخدمات. وتم تطبيق سياسة الترقية الإدارية كرد على النمو الديموغرافي الكبير: فالبلدة ترقت إلى مركز منطقة على سبيل المثال، وأصبحت مدينة وحصلت على التجهيزات: الهاتف، الثانوية، المستوصف، المحكمة، المصرف الزراعي، المديريات المختلفة، مستودعات الحبوب، إلخ... فالأبنية والوظائف العامة، وتنمية التجارة تساهم كلها في خلق النشاطات والوظائف.

كما تم السعي من أجل إعادة التوازن الإقليمي من خلال سياسة تطوير شبكة الطرق. فالشبكة الجديدة تربط مجموع المناطق المأهولة ولا سيما المناطق الريفية. وهي تتمفصل على العمود الفقري المنطلق من دمشق. والذي تم توسيعه بسلسلة من الطرق السريعة حول دمشق وحلب. وزاد طول شبكة الطرق الحديثة من 4000 كم من الطرق المعبدة الجديدة في عام 1960 إلى ما يقارب الـ 29000 كيلو متراً في عام 1996، في حين أن مجموع

الطرق المعبدة، ذات التصنيفات المختلفة قد انتقل من 7500 كم في عام 1960 إلى ما يقارب الــ 40000 كم في عام 1996.

إن شبكة الطرق الرئيسية تؤكد استقطاب البلد باتجاه العاصمة إنه استقطاب ذو طبيعة سياسية وإدارية، وهو لا يعتمد على أسس طبوغرافية أو تاريخية أو اقتصادية. وهكذا فإن المحاور التي تلتقي في حلب لم يتم تحديثها بشكل عام.

إن المرافق والتجهيزات الكبيرة واستثمارات وإنشاءات الدولة تتعلق بشكل أساسي بالبنية التحتية الزراعية ولا سيما السدود ومشاريع الري. ومن بين الدعم المالي المختلف فإن المساعدات المالية مخصصة للمشاريع الزراعية الخاصة والتعاونية إلخ. وأنشئت بعض المؤسسات الصناعية في مدن كانت محرومة كلياً منها، وهي غالباً صناعات لتمويل المنتجات الزراعية.

إن التطور الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي وسياسات الدولة قد انصبت كلها في تطور عمراني سريع، بالإضافة إلى التوسع المستمر للمدن الكبيرة ثم النمو المتسارع للمدن المتوسطة والصغيرة.

إن الزيادة العامة للسكان ، والانفتاح الاقتصادي، حتى وإن كان جزئياً جداً ومراقباً، وزيادة الإنتاج، وتصاعد الاستهلاك، قد أدت إلى تكثيف كبير للتغطية التجارية والخدمية.

كما أن زيادة عدد حملة الشهادات، الذين لا يجدون فرصاً للعمل في المراكز الكبيرة، مما اضطرهم للعودة إلى موطنهم الأصلي حيث أسست العيادات الطبية والمكاتب الهندسية والصيدليات إلخ. وتحول و تقديم الخدمات، الذي كان يتركز سابقاً في المدن الكبيرة، نحو مراكز عمرانية أصغر بكثير، حيث أصبح بإمكان الزبائن أن يجدوا، في هذا المستوى من المدن، منتجات وخدمات كانوا يضطرون سابقاً للسفر مئات الكيلومترات للحصول عليها، أو أنهم لم يشعروا بالحاجة لها. وتنمو هذه التجهيزات الجديدة والخدمات بشكل عام في المدن التي ترقت حديثاً إلى مصاف المدن.

خاتمة

إن محاولات إعادة تنظيم سورية الإقليمي داخل حدودها وإعادة التوازن المناطقي بواسطة سياسات التخطيط الإقليمي لها تـــأثير مؤكـــد. فـالتخطيط الإقليمي يخفف من عدم التوازن، ولا سيما حول حلب حيث تقلصت أقاليمــها بشكل كبير من جديد: وبشكل عام فإن وادي الفرات والجزيرة لم تعد مناطق لنفوذها، وحرمت محافظتها من منطقة إدلب التي تشـــكل محافظـــة جديـــدة، ولكنها ظلت مرتبطة بشدة بحلب. وربما الأخطر من كل ذلك هو الإضعـــاف الجزئي لشبكات الأعمال بواسطة التأميم، والتي لم تعد فعالة أو متأقلمة مـــع الحاجات الحالية ضمن إطار العولمة[34].

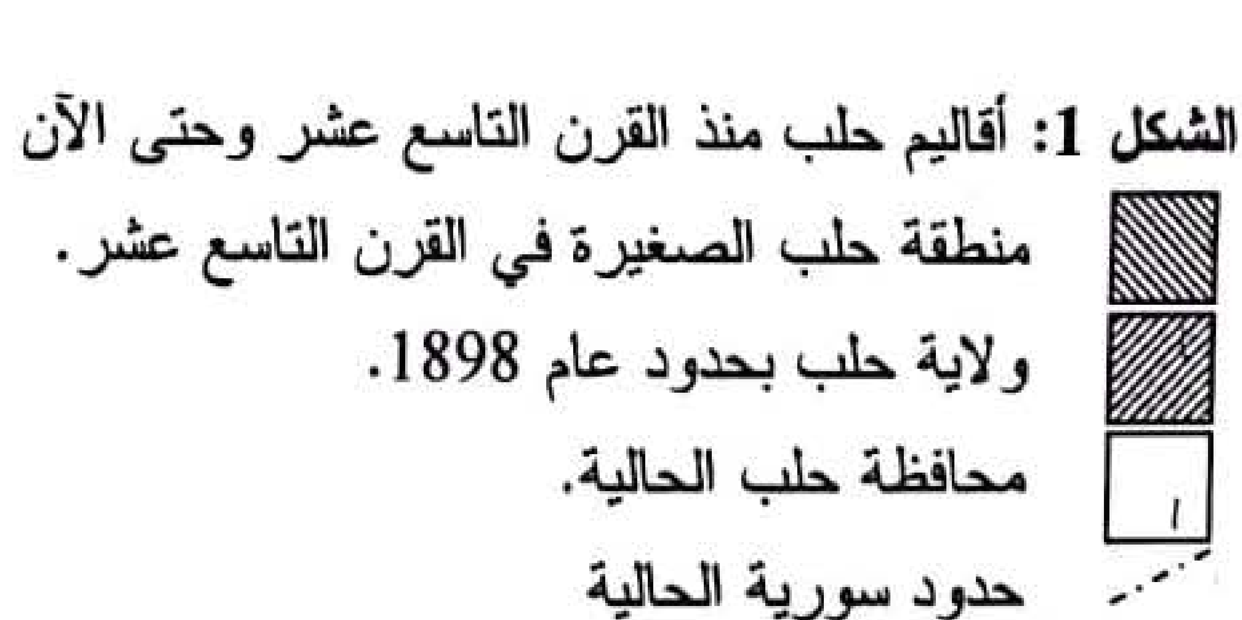
ومع ذلك يمكن أن نتساءل إن كانت الاختلافات والتباينات الموروثـــة لا تستطيع الصمود بطريقة أخرى من خلال إقامة نظام عمراني مزدوج حيـــث تتجاوز مدن «مدينية» قديمة، تتميز بديناميتها وقدرتها على خلق النشـــاطات الاقتصادية والأقاليم، إلى جوار مجموعة من المدن ذات النمو الأحدث، التـــي تعتمد نشاطاتها غالباً على مبادرات الدولة المنطلقة من العاصمـــة[35] والتـــي ليست سوى محطات للتنشيط الخارجي. إننا حالياً في مرحلة تركز النمو فـــي العاصمة المرتبط بمركزية إدارية شديدة، الذي هو بلا شك تكاثر «المحليـــة» العاصمة أكثر مما هو إعادة توازن حقيقته على المستوى الوطنـــي، بعـــض

---

[34] مع ذلك يبدو أن بعض المقاولين الحلبيين يحتفظون بنوع من الخبرة المحفوظة فـــي العقليـــة وهي تقريبا وظيفة عفوية. والبحث عن علاقات الأعمال المؤسسة على العلاقـــات الشـــخصية والعائلية والطائفية، الموروثة عن النظام العثماني. إن حالة الاغتراب إلى البلدان المجـــاورة، كما إلى تركيا، ليست استثنائية، فهذا يعني الاستقرار في بلد ذي نظام اقتصادي أكـــثر ملائمـــة وأكثر دينامية، وإعادة تنشيط علاقات وشبكات قديمة: فالاستقرار في البلدان العربية أو تركيـــا لا يطرح كما يبدو بالنسبة لهؤلاء المغتربين أي مشكلة بالنسبة لأناس لديهم اســـتعداد طبيعـــي لتعلم لغة مفيدة. لا شـــك أن الحلبييـــن يقـــدرون الجـــوار الثقـــافي (أو الســـوريين الآخريـــن واللبنانيين). أكثر مما يقدره الأتراك نفسهم.

[35] إن التصنيف بحسب النسبة المئوية للموظفين في القطاع العام ضمن السكان العـــاملين علـــى مستوى المحافظات في عام 1991. بحسب الإحصاءات الرسمية، معبر جداً، فهم يمثلـــون 30.4 % من السكان العاملين في محافظة اللاذقية، 28.7 % في محافظة طرطوس، 27.3 % فـــي محافظة الرقة (حيث جزء كبير من الموظفين يعمل في مديرية الري)، 22.1 % في محافظـــة حمص، 19.4 % في محافظ حماه وفقط 16.5 % في محافظة حلب.

المناطق يمكن اعتبارها أقاليم للعاصمة، أقاليم سياسية ولكنها أيضاً أقاليم عشائرية أو عائلية، ضمن إطار نوع من خصخصة الدولة: إنها كذلك تعبير عن وظائفية وعلاقات بالإقليم التي تعطي الأفضلية للعلاقات المباشرة، إن سيرورة التخطيط الإقليمي لم تصل إلى نهايتها بعد، فهي مازالت في طور التكوين وعليها أن تتسارع.



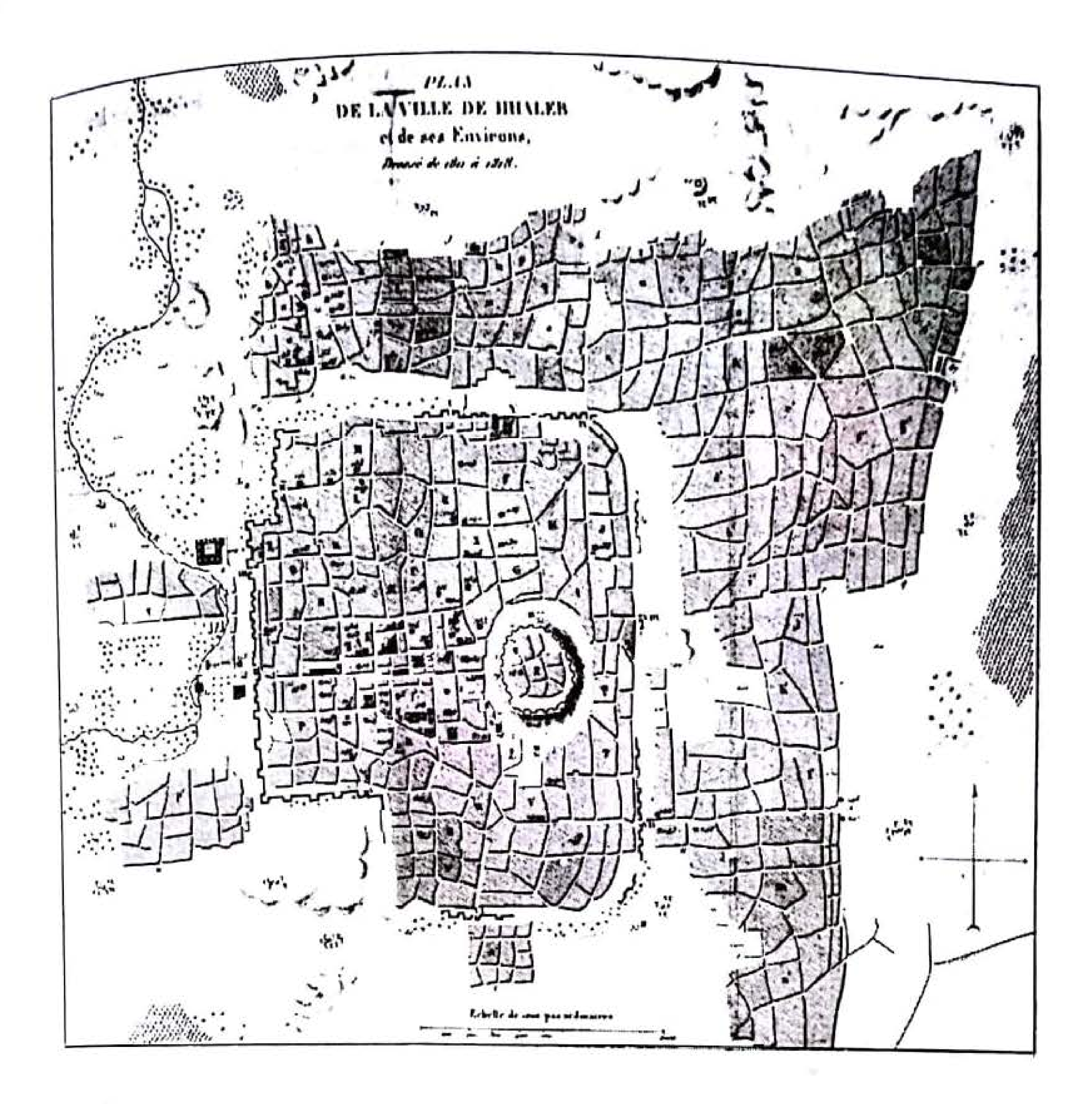
الشكل 1: أقاليم حلب منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن

منطقة حلب الصغيرة في القرن التاسع عشر.

ولاية حلب بحدود عام 1898.

محافظة حلب الحالية.

حدود سورية الحالية



الشكل 2: مخطط حلب: منسوخ من «مذكرة عن الخارطة العامة لبشالك بغداد وأورفه وحلب، وعن مخطط حلب» ملاحظات رحلة ومذكرات نشرتها الجمعية الجغرافية في باريس، 1825، الجزء 2.

التاريخ العمراني السوري وانبعاث المدن الصغيرة في سورية

محمد الدبيات

المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق

تعتبر سورية بلداً زراعياً حيث ما يزال الاقتصاد الريفي يلعب دوراً أساسيا فيها. وإذا قارنا سورية مع الدول الأخرى في الشرق الأوسط نجد أنها ما تزال ضعيفة العمران. فمعدل العمران قد تطور من 37 % في عام 1960 إلى ما يقارب 51 % في عام 1994. ومع ذلك، تعتبر سورية مهداً من مهود الظاهرة العمرانية: فقد ولدت المدينة فيها وتطورت منذ الألف الرابع قبل الميلاد، لتنتقل من المدينة ــ الدولة إلى المتروبول*.

لقد كانت أرضها مزروعة دوماً بالمدن: بعضها اختفى والبعض الآخر ما زال قائماً. وهكذا فإن مدناً من أقدم مدن العالم لم تعرف أي انقطاع في عمرانها، كمدينة دمشق على سبيل المثال، العاصمة الحالية للدولة، والتي كانت في الماضي أيضاً عاصمة للعديد من الإمبراطوريات والممالك.

نلاحظ حالياً أن اهتمام الباحثين ينصب على الأشكال التي يأخذها تطور النظام العمراني السوري. في الواقع، يتميز هذا التطور بانبعاث المدن الصغيرة ونموها الكبير بالإضافة إلى نشر العمران. هذا النشر الذي نجده في محيط المدن الكبيرة كما في الريف.

وتفسر هذه الظاهرة بشكل عام بالإشباع الذي تعرفه المدن الكبرى، فهي لم تعد قادرة على امتصاص الهجرة الريفية بسبب ضعف فرص العمل

* المتروبول هو المدينة الكبيرة المليونية التي تملك شبكة واسعة من العلاقات على المستوى المحلي والوطني والإقليمي والدولي، وتكون عاصمة غالباً. (المترجم).

وأزمة السكن. بالإضافة إلى ما سبق، فإن الدولة منذ السبعينات تشجع على تطوير الريف، وذلك من خلال مشاريع الري الكبرى، ونشر وتطوير وتحسين الخدمات والمرافق العامة والنقل وشبكة الطرق كما أنها تقدم دعماً كبيراً للنشاط الزراعي.

ملاحظات حول انبعاث المدن الصغيرة

لماذا تنبعث المدن الصغيرة؟ إن الإجابة على هذا السؤال تتجاوز الملاحظة البسيطة ــ في سورية ــ للانتقال من المستوى الريفي إلى المستوى الحضري، أو من القرية إلى المدينة الصغيرة. نلاحظ أن هناك عدداً كبيراً من العوامل التي تساعد على هذا الانبعاث.

لا تبدو خصوصية التنمية العمرانية في سورية حالياً مشروطة بالتأثيرات الإقليمية أو الدولية ويبدو أنها تعتمد على آلية العمل الداخلية للنظام العمراني السوري. إنها الملاحظة الأولى. ويمكن أن ينسب هذا الواقع إلى توقف الطرق التجارية الكبيرة وحركة التبادل التي كانت تساعد في الماضي على انبعاث المدن. إن الوضع المعاصر يختلف كثيراً في هذا الميدان عن العصر الذي كانت فيه سورية تقع في مركز إمبراطورية شاسعة (المملكة السلوقية على سبيل المثال وعاصمتها أنطاكية، أو الدولة الأموية وعاصمتها دمشق).

يبدو أن العامل التاريخي يلعب دوراً أساسياً في سورية، إذ نجد أن العمران متجذر بقوة في الفضاء السوري وآثاره حاضرة في كل مكان، أثار العمران وآثار للعبور أيضاً، ولتتابع حضارات عديدة ولصراعها من أجل السيطرة على البلاد. فهناك مدن حكمت مراراً وانزوت واختفت، وهناك مدن أخرى ضعفت ولكنها دامت. وبعض المدن عادت بعد اختفاء طويل لتأخذ دور الصدارة (حمص، أوغاريت ــ اللاذقية)، وأخرى لم تفقد تفوقها أبداً (دمشق، حلب). يبدو أن هذه الانقطاعات أو الاستمراريات ترتبط بشكل وثيق بالاستقرار السياسي الإقليمي. وهكذا فإن التجديد العمراني ولا سيما انبعاث المدن الجديدة في الموقع الذي كانت توجد فيه مدن قديمة (سلمية، الرقة)

يمكن أن يكون مرتبطاً أيضاً بالشروط الحالية لتشكل الدولة الأمة، مع تثبيت الحدود التي وضعت حداً لدورة طويلة من عدم الاستقرار الحدودي.

إن تاريخ المدن السورية مكون من انبعاث، من اختفاءات، ومن عودة ظهور المدن. فإذا تمعنا اليوم بشكل جيد بانبعاث وظهور المدن الصغيرة، فإن هذا لن يلغي الانتقال من الحضري إلى الريفي (مروراً أم عودة؟ تراجعاً أو تطوراً؟): فهناك مدن هامة قد أصبحت (أو عادت وأصبحت) قرى (سلمية وقطنا التي تسمى حالياً المشرفة وإيبلا وهي حالياً تل مرديخ وبصرى، ألخ).

يمكن إدراك هذا التطور أو هذه التراجعات على أنها نتيجة لتحسين الوضع الإداري في الأقاليم. وكأنه نتيجة لما يشبه السياسة الإقليمية للدول المختلفة التي تتابعت والتي حكمت هذا البلد. إن نمو القدرات الإدارية للمدن، والإدارة كنموذج للعمران قد لعبا- بلا ريب- دوراً هاماً في ميدان التنظيم الإقليمي وفي تطور المراكز العمرانية، دوراً يقارن بدور الطرق التجارية ولا سيما التقاطعات التي كانت تشكل هذه الطرق. فالطرق التجارية كانت وراء نمو العديد من المدن أو كل مجموعة من مجموعات المدن التي كانت تشكل مركزاً للمراقبة قد خلقت، بحسب العهود، مراكز إدارية في المناطق التي كانت تسيطر عليها أو تسعى لذلك.

أخيراً إن موارد الأقاليم المحيطة بالمدن، قد سمحت لهذه الأخيرة بمقاومة التغيرات الإدارية، واختفاء أو تحول النشاطات الاقتصادية، ولا سيما مقاومة ظاهرة تبدل الطرق التجارية. فبعض المدن، مثل تدمر، لم تنهض بعد تبدل الطرق التجارية والتغيرات الاقتصادية التي رافقت ذلك، حتى وإن كانت السياحة الثقافية تمثل اليوم مورداً هاماً يساهم في نمو المركز العمراني من حول خرائب المدينة القديمة.

تتربع سورية في قلب الشرق الأوسط الذي يتميز بجغرافيا سياسية (جيوبوليتكيا) غير مستقرة، ويتميز انعدام الاستقرار هذا منذ الأزل بتبدل الحدود. لقد كان هذا البلد في وسط الإمبراطورية الأموية، ثم تهمش في عهد الإمبراطورية العباسية، ولكنه قبل زمن طويل من تشكل هاتين الإمبراطوريتين. كان قد تقطع إلى عدد كبير من المدن والدول المستقرة

والدائمة نسبياً، إن حدود سورية الحالية حديثة جداً. ويعود آخر خط لها إلى عام 1939 عندما منحت سلطات الانتداب لواء اسكندرون إلى تركيا. إن دوامات تاريخ هذه المنطقة قد تحكمت بالتاريخ العمراني. وهكذا فإن سورية دولة بلا حدود، دولة عبور حتى نهاية العصر العثماني، ومنذ ذلك التاريخ هي دولة غير راضية عن حدودها الحديثة.

ويشكل المحور العمراني الأوسط في سورية ـ المتكون من المدن الرئيسية: دمشق، حمص، حماه، حلب ـ العمود الفقري العمراني السوري. وهو بمثابة منطقة ارتباط تؤمن الاتصال بالساحل من جهةٍ والبادية والفرات (الجزيرة) من جهة أخرى. لقد تماسك هذا المحور دوماً دون أن يتأثر بتغير الحدود. وتنامت قوته بما يتناسب مع توسع أو تقلص أقاليم هذه المدن. ولا يتعرض للتبدل سوى الوزن الاقتصادي أو السيطرة الإدارية لهذه المدينة أو تلك من المدن التي تشكله.

واليوم، في سورية، أين أصبح هذا التاريخ العمراني الموغل في القدم، وهذه الأنظمة العمرانية المعزولة أو المتنافسة، المتطورة جداً في بعض العهود، والمتراجعة في حالات أخرى بشكل يتناسب مع الطرق التجارية، والتنظيم الإداري للدول أو القوى التي تسيطر على هذا البلد؟

هناك العديد من القرى التي تكونت بالقرب من مواقع أثرية مهجورة. يمكن أن نعتقد أن هذا النمط من المواقع قد كان مسكوناً دوماً. كما يظهر أن أهمية الموقع تتبدل بما يتناسب مع الموارد المحلية أو الخارجية. ويبدو في العهود الحديثة أن التاريخ الديني قد أثر بشكل أكبر على المناطق والأقاليم، كما هو الحال بالنسبة للطائفتين المسلمة والمسيحية، إذ يبدو أن سيادة الطوائف على الأقاليم وعلاقاتها ونمط التقسيم (أو التوزيع) لهذه الأقاليم بين الطوائف قد أثر على أشكال التجمعات السكانية وعلى أنماط العمران:

ـ يبدو أن الدول الحديثة لم تكن قادرة على تأسيس مدن جديدة كلياً. فشبكة المدن القديمة هي التي تتأقلم ـ أو تُأقلم ـ وتستقبل التوجهات الإدارية المختلفة: ولا سيما كما في القرن الماضي، أشكال التخطيط الاقتصادي والتخصص الإقليمي (المحلي أو الدولي) في عملية الإنتاج.

ــ لقد استطاع التاريخ القديم المساهمة بما يمكن اعتباره «إرادة» في إعادة العمران: وأعيد استخدام أساطير تتعلق بتأسيس المدن. فعلى هذا النحو تم ربط تطور مدينة الرقة الحالية بالدور الهام الذي كانت تلعبه في العصر العباسي. وهكذا فإن التاريخ يلعب دوراً هاماً في عملية الانتقال من الريفي إلى الحضري، ليس فقط فيما يتعلق بالفضاء العمراني وإنما أيضاً في عملية بناء هوية حضرية، تستثمر الماضي في المكان المسكون.

ــ إن تسميات المدن تعبر أيضاً عن هذا الانتقال وهذا التحول نحو عمران الموقع. فليس من النادر أن نشهد في سورية عودة للأسماء القديمة. فمدينة حماه التي أصبح اسمها إيبيفانيا في العصر الروماني ــ البيزنطي، عادت واستعادت اسمها الأصلي حماه في العصر الإسلامي، أو سلميناس في العصر الروماني ــ البيزنطي التي أصبحت مجيد أباد عند إعادة بنائها في العصر العثماني لتعود وتصبح سلمية منذ القرن التاسع عشر، وهو تاريخ آخر إعادة بناء لها.

إذن، كيف طبع العمران المبكر في سورية تاريخها العمراني المعاصر؟ فبالإضافة إلى خلق المدن الجديدة تشهد كما لاحظنا من قبل ظاهرة إعادة البناء أوإعادة العمران. صحيح أن سورية ليست بلداً شاسع المساحة وأن البادية تغطي 55 % من أراضيها، ولكن يبدو أن التجمعات السكانية الجديدة قد تأثرت بطريقة ما بالشروط نفسها التي تأثرت بها التجمعات السكانية القديمة، القليلة في البادية باستثناء الأماكن التي ينبجس فيها الماء، مما يسمح بتطور مراكز عمرانية مرتبطة بالطرق التجارية، كما هي الحال في تدمر. كما أن استثمار المياه الجوفية ــ لا سيما باستخدام نظام الأقنية ــ «الرومانية» ــ قد استطاع أن يلعب دوراً أساسياً في غزو أراضٍ غير مضيافة. فمدينة الأندرين الرومانية ــ البيزنطية ــ عبارة عن خرائب حالياً ــ نموذج جيد عن نهضة مركز عمراني في المناطق شبه الجافة بفضل العمل المكثف لاستثمار الماء وليس بسبب جريانه الطبيعي (ينابيع أو أنهار).

ومن أجل الدقة في دراسة النماذج المختلفة للعمران، التي تعرضنا إليها بسرعة هنا، فإننا فكرنا بدراسة حالة منطقة سلمية.

ولادة مدينة سلمية وأقاليمها من جديد

إن اختيار نموذج مدينة سلمية مرتبط بالخصوصية الناتجة عن الإنبعاث المتأخر لهذه المدينة التي عادت وتأسست في عام 1848.

ولادة جديدة للمدينة

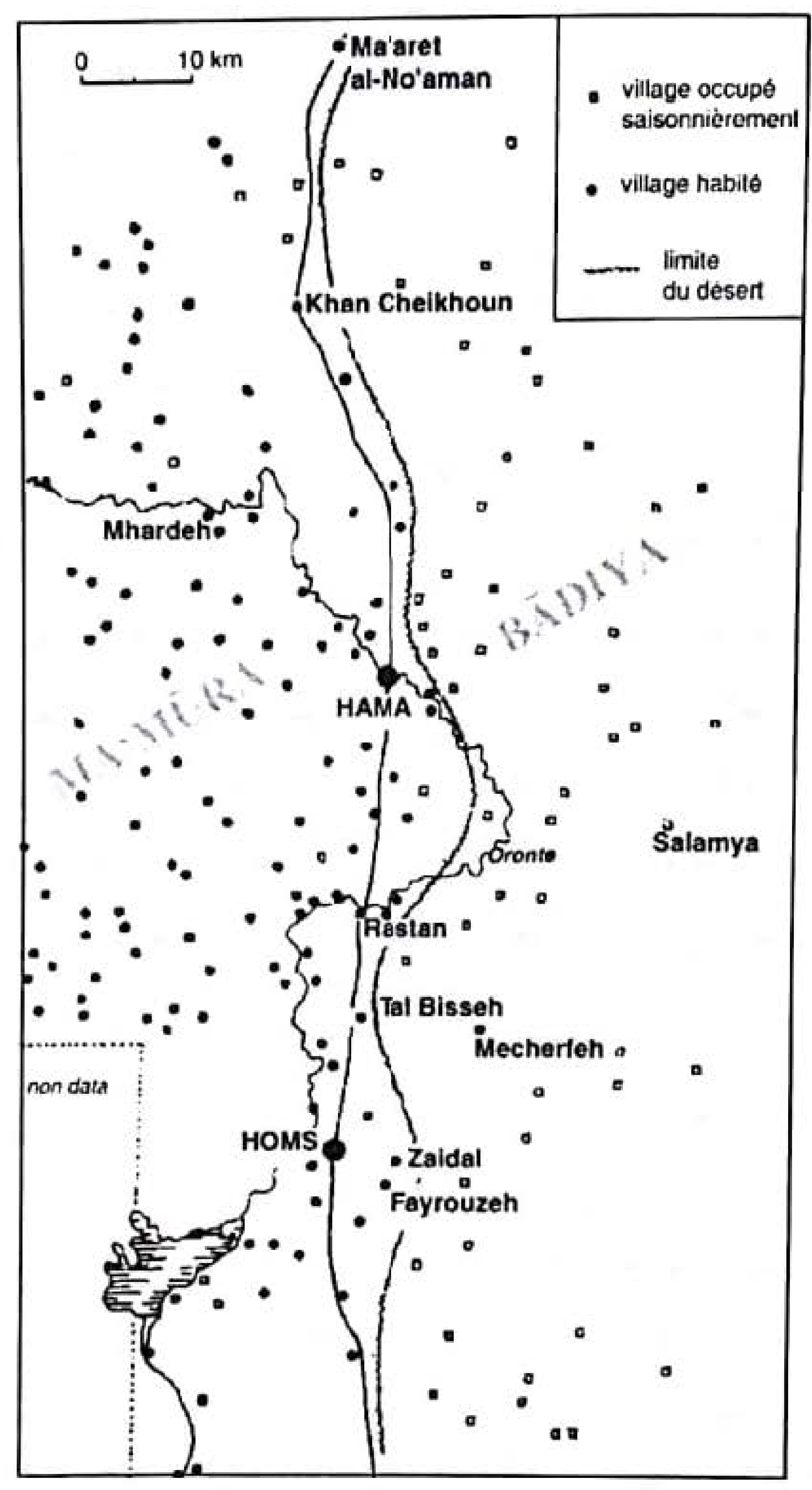
يعود التأسيس الأول لمدينة سلمية على الأغلب إلى عصر البرونز. وقد عرفت المدينة قمة ازدهارها بين القرنين الثامن والثاني عشر، في العصر الذي كانت فيه مركزاً هاماً للدعوة الإسماعيلية. وبحسب الروايات فإن هجران المدينة يتطابق مع الغزوات المغولية (القرن الرابع عشر). في الواقع، ومنذ ذلك العصر يبدو أن كل التجمعات السكانية في هامش البادية قد هجرت، ونتيجة لذلك فإن الحدود الغربية للبادية، أو بالأحرى للمناطق الرعوية، كانت تقع في سورية الوسطى، في مطلع القرن التاسع عشر، عند نهر العاصي الذي كان يفصل في ذلك العصر بين المعمورة (منطقة المزارعين المستقرين) والبادية (الشكل 1)[1].

لقد عاد هذا الإقليم واستوطن تدريجياً من جديد ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر. ويندرج هذا الاستيطان في إطار سياسة السلطات العثمانية التي كانت تسعى إلى توسيع ودعم سلطاتها على المناطق الشرقية التي كانت تحتلها القبائل الرحل في ذلك الحين. فمن أجل الحد من نفوذ هذه القبائل، راحت السلطات العثمانية تشجع على توسع زراعة الحبوب إلى مسافات بعيدة باتجاه الشرق. ولقد سمحت هذه الاستراتيجية في الوقت نفسه بتخفيف حدة الأزمة الاقتصادية التي نتجت عن الغزو الذي قامت به قوات ابراهيم باشا لسورية.

وقد طبقت هذه السياسة الإدارية إبان حكم السلطان عبد المجيد، الذي أصبح سلطاناً للإمبراطورية في عام 1839، بعد أن تمكن من استرجاع سورية من محمد علي باشا. لقد كان عليه مواجهة هجمات البدو، المدعومين

[1] D'après N. Lewis, *Nomades and Settlers in Syria and Jordan, 1800-1900*, Cambridge University Press, London, 1987, p. 223.

من ابراهيم باشا، على المعمورة. وهكذا فقد أصدر السلطان فرماناً يعفي فيه من الضرائب كل من يستوطن المنطقة الواقعة شرق العاصي ويبنون فيها القرى (الشكل 1). فهل يعني ذلك إعادة إنشاء الليمس الروماني أو استلهام الفكرة منه؟



الشكل 1: الحدود بين البادية والمعمورة في سورية الوسطى في مطلع القرن التاسع عشر (بحسب نورمان لويس، 1987).

لقد اغتنم الاسماعيليون المقيمون في الجبال الساحلية، في منطقة طرطوس، والذين كانوا في صراع مع العلويين، لا سيما من أجل امتلاك الأراضي الصالحة للزراعة، هذه الفرصة من أجل استعادة بلادهم. فبدؤوا

بالهجرة إلى سلمية في عام 1846. كان المهاجرون قلة في البداية، لا يزيد عددهم على خمسين فرداً، ولا سيما من الفارين من الخدمة العسكرية أو من المحكومين بالسجن غيابياً، بل حتى المحكومين بالإعدام. لقد عرفوا بذكاء كيف يقيمون علاقات حسن الجوار مع القبائل الرحل التي كانت تسيطر على المنطقة. وما إن حصلوا على السلام مع البدو، حتى توالت الهجرات إلى المنطقة من خلال تتابع ثلاث موجات رئيسية: 1900، 1910، 1920. وقد جاءت الموجة الأخيرة على إثر المواجهات التي وقعت بين العلويين والإسماعيليين في منطقة القدموس في الجزء الأوسط من الجبال الساحلية. لقد نمت مدينة سلمية، وولدت القرى من حولها وأعيدت الأقنية المائية للعمل، وقد سميت سلمية في البداية مجيد أباد من قبل السلطات العثمانية، لكن المستوطنين الجدد أصروا على أن تستعيد المدينة اسمها الأصلي سَلَمْية:

إننا نشهد سيرورة حقيقية لعملية تكوين إقليم أطلقتها جماعة تبحث عن امتلاك إقليم، وربما دولة. كان هذا طموحاً ممكناً، إذ عرفنا أن الإسماعيليين يعتبرون أنفسهم المؤسسين للحكم الفاطمي (909 ــ 1171). من هذا الجانب يمكن أن يكون من المهم التحقق من اسم مدينة سلمية، إذ أن مؤسسي الحكم الفاطمي يعودون بأصلهم لهذه المدينة، إلى العصر الذي كانت ما تزال فيه مزدهرة (أي في القرون الوسطى).

إن رغبة المستوطنين الجدد بتحويل البلدة إلى مدينة تندرج في عملية تنشيط التاريخ الطائفي. إن هذا الارتباط بالماضي، الذي رعته وحافظت عليه باستمرار الذاكرة الجماعية، يمكن أن يوضح بهذه الشهادة لسامي الجندي. وهو كاتب وأديب من سلمية، إذ يقول: «إن سألتني عن عدد سكان مدينتي الأم، أجيبك بأنهم يزيدون قليلاً عن 80000 نسمة. إنه عدد لا يناقشني به أي واحد من مواطني بلدتي. ولكن إن قلت 40000، سيفغرون أفواههم دهشة، وكأن ذلك مسبة، وإن أصروا على كلمة كبيرة، فليس ذلك لأنها كذلك في الحقيقة، وإنما لأنها رغبتنا بأن تستحق القرية ما كانت عليه في الماضي».

نستطيع أن نبين إرادة امتلاك إقليم وهوية إقليمية عبر اختيار سلمية كموقع للسكن وعبر التمسك باسمها الأصلي. وهكذا استطاع الإسماعيليون إعادة إحياء مدينتهم الأصلية، تلك التي تواجدت منذ القرن الثامن وحتى

القرن الحادي عشر على أطلال مدينة سلامينياس الشهيرة في العصر البيزنطي. وخلال 150 عاماً عادت سلمية وظهرت وأصبحت مدينة متوسطة الحجم تضم 60000 نسمة، بحسب آخر تعداد سكاني في عام 1994.

تنظيم السيطرة على الإقليم

إن ما يلفت الانتباه في نموذج سلمية هو ليس إعادة بناء مدينة هُجرت لأكثر من خمسة قرون وإنما عملية تشكيل الإقليم الذي سيتبع لها.

المدينة بحاجة لإقليم لكي تضمن لنفسها وظيفة إقليمية ولكي تملك وزناً هاماً بما فيه الكفاية في مواجهة منافسة مدن أخرى، إنها بحاجة لموقع في الشبكة العمرانية الوطنية. فموقع مدينة سلمية يسمح لها بلعب دور الوسيط بين العالم الزراعي (المعمورة) في الغرب والعالم الرعوي (البادية) في الشرق. فالمدينة ليست فقط موقعاً متميزاً يضم عدداً كبيراً من السكان، إنها أيضاً مركز لمنطقة وحلقة من حلقات الشبكة العمرانية الإقليمية والوطنية، وحتى العالمية. لذلك قام المستوطنون الجدد، الواعون لهذه الحقيقة، بغزو كامل المنطقة في الحال. لقد استخدموا المدينة كقاعدة انطلاق لاستيطان إقليم واسع تقرب مساحته حالياً من 5000 كم^2 ويقدر عدد سكانه بـ 160000 نسمة (الشكل 2). إننا نشهد في حالة سلمية ظاهرة لعملية خلق إقليم وتكوين هوية إقليمية.

ومنذ العصر العثماني، أصبحت سلمية مركزاً لقضاء (يسمى منطقة حالياً)، وهي الآن المدينة الثالثة في سورية الوسطى بعد حمص وحماه، وتدير إقليماً واسعاً يضم 154 قرية منها أربع بلدات تحتل وظيفة مركز ناحية والتي يمكن اعتبارها مدناً صغيرة. لقد جذبت هذه المنطقة سكاناً آخرين غير الإسماعيليين: البدو الرحل الساعين للاستقرار، العلويين وغيرهم ممن جاؤوا كعمال زراعيين للعمل لدى مُلاك كبار («إقطاعيين») من حمص وحماه الذين يملكون أراض زراعية واسعة في القسم الغربي من منطقة سلمية[2]. وأخيراً استوطن في المنطقة مهاجرون من الشركس بتشجيع من السلطات

---

[2] أقمت هذه الأراضي بالإصلاحات الزراعية المتتابعة بين عامي 1958 و 1963 ووزعت الأراضي المصادرة على الفلاحين العاملين بها.

العثمانية التي أسكنتهم فيها ومنحتهم الأرض، وذلك في مطلع القرن العشرين، ويتوزعون على أربع قرى شمال مدينة سلمية بمسافة غير بعيدة، لقد عرف المهاجرون كيف يتعايشون مع القبائل البدوية، مستفيدين من الامتيازات التي منحتها لهم السلطات العثمانية، فأعادوا الأقنية الرومانية للعمل، وزرعوا المراعي، وجذبوا إلى منطقتهم كما رأينا سكاناً من مناطق أو قوميات أخرى. وهكذا فإن تكون وازدهار سلمية وأقاليمها لا يفسر فقط بعامل الانتماء الديني، المرتبط بتدهور وضع الإسماعيليين الاقتصادي في الجبال الساحلية، كما لاحظ جاك فوليرس في عام 1940 في كتابه: بلاد العلويين[3]، بل إنه يفسر أيضاً بقدرة سكان المدينة على تحقيق أهداف خيالهم الطائفي متجاوزين من خلال ممارسة دينامية حدود طائفتهم.

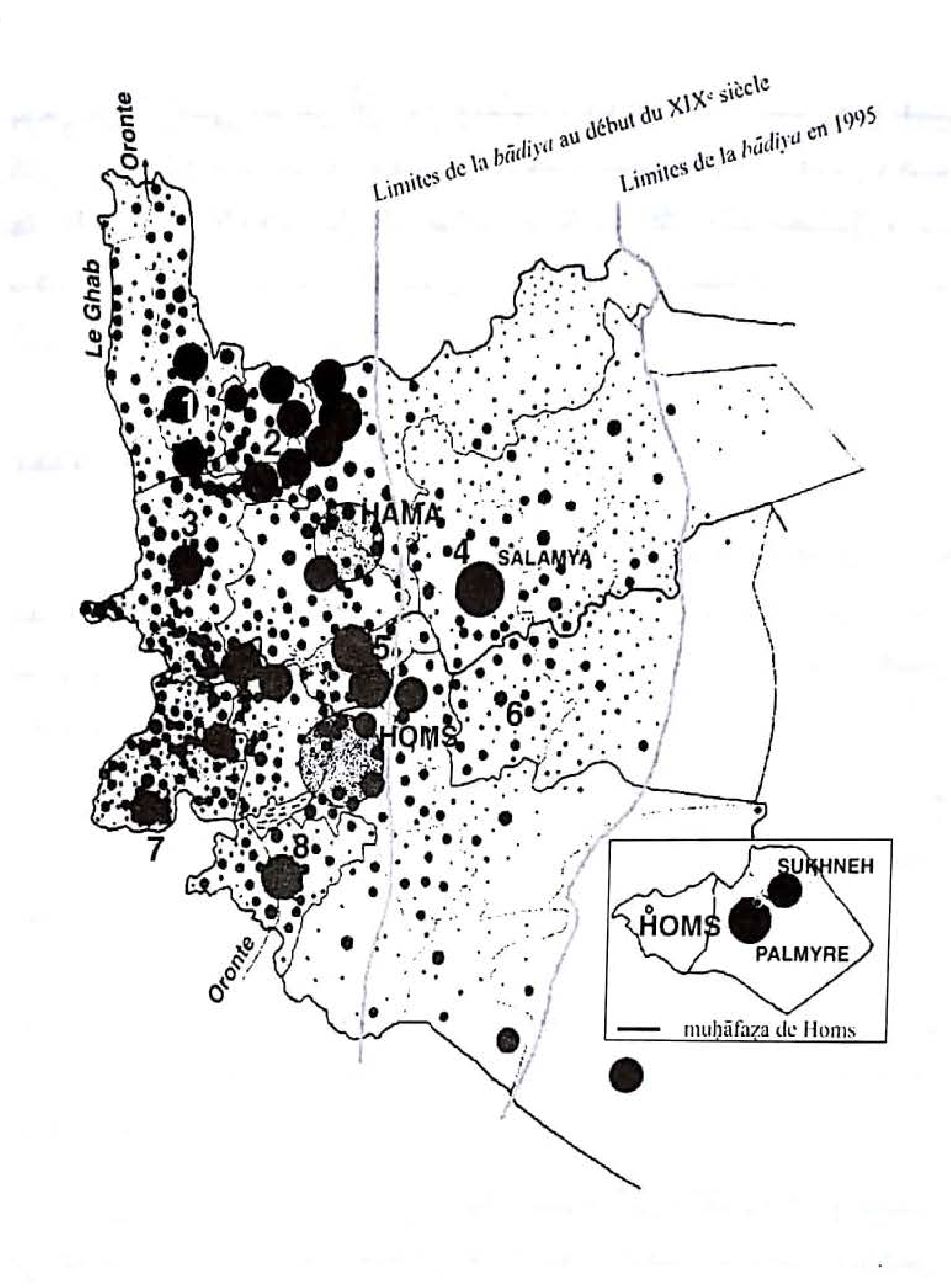
عملية التكوين الإقليمي بين المكان والجماعة

نشهد في حالة سلمية تمفصلاً خاصاً بين التوزع الإقليمي والعلاقات داخل الجماعة. فإن كانت التنقلات المتكررة للإسماعيليين منذ القرن التاسع تشهد على ارتباط بالجماعة أقوى من الارتباط بالأرض، نجد أن تاريخهم الحديث يعبر عن اقتناعهم بأن مجتمعهم ولا سيما تنظيمهم الاجتماعي لا يمكن أن يستمر إن لم يتجسد في إقليم ومن هذا التجسيد المادي ـــ سلمية كأصل والعودة إلى سلمية بمثابة عودة إلى الأصول ـــ ولد نوع من التعلق بالإقليم، هذا التعلق الذي يختلط مع مجموعة من العلاقات الاجتماعية والطائفية.

كل ذلك كان مرئياً بشكل أفضل في وسط اقتصاد ريفي ينتظم حول الريع العقاري. إن النمو الاقتصادي الإقليمي وانتقال سلمية من مستوى المركز الريفي إلى المستوى الحضري من خلال تنوع الاقتصاد قد أدى لتغيير طبيعة الأشياء. وهكذا فإننا نشهد نمواً متزايداً لارتباط إقليمي يقوم على قاعدة إدارية وتجارية وإقليمية. ويصبح المظهر الطائفي ثانوياً لا سيما مع قدوم سكان آخرين جدد ذوي انتماءات أخرى كالعلويين والبدو الذين راحوا يستقرون في المنطقة وفي المدينة.

---

[3] Jacques Weulersse, *Les pays des Alaouites*, éd. Arrault, Tours, 1940, p. 418.



الشكل 2: توزع السكان في سورية الوسطى، بحسب إحصاء 1994.

لا يمكن تجاهل الماضي في كل ما سبق. فالإرث المادي هو بلا شك أقل أهمية من الإرث الرمزي (تقديم الأصول التي تذكر الماضي العظيم للجماعة). والتنمية الحالية تفتح الباب للحداثة. والشعور بالانتماء لهذه الحداثة

يجعل من الماضي الطائفي أقل ثقلاً وكذلك، وبطريقة ما، لا يفرض نفسه كثيراً في عملية بناء الهوية الحضرية ،الانتماء لمدينة... وهكذا فإن وجود جماعات أخرى لا يعتبر على أنه منافسة أو تزاحم على إقليم معين وإنما كتكامل في جهود التحديث والوصول إلى الحداثة، ولا سيما الوصول إلى السوق وإلى المبادلات الوطنية والدولية.

الخلاصة

إن تاريخ سورية العمراني هو غالباً انبعاث لمدن قديمة. ففي حالة سلمية نجد أن التحول من البلدة إلى المدينة يعتمد على الهوية التي سمح ببنائها تاريخ المنطقة وأثناء ذلك، على الجماعة التي سمح تاريخ هذا المكان بتحديدها.

وبهذه الطريقة فإن التاريخ العمراني الطويل لسورية يبدو كأنموذج أساسي لإدراك انبعاث المدينة، انبعاث من خلال انتقال أزلي من الريفي إلى الحضري، والذي هو غالباً في الواقع عبارة عن انتقالات متتابعة من الأول إلى الثاني وبالعكس. وبحسب وجهة النظر هذه، يمكن أن يساهم التاريخ العمراني السوري في فهم عالم البحر المتوسط الذي يبدو أن انبعاث المدن الصغيرة فيه أسرع من أي مكان آخر. إذ أن مسألة التاريخ في هذا الحوض تفرض نفسها بشكل واضح.

وفي هذه الأثناء، يبين نموذج سلمية بوضوح أهمية التاريخ العمراني في عملية ظهور المدينة ولا سيما في عملية تكوين الإقليم. لكن هل يمكن اعتبار الإقليم، من خلال كونه مورداً ضرورياً، أصل المدينة، أم على العكس من ذلك المدينة هي التي تعطي للإقليم قيمته؟ إن التاريخ العمراني السوري يبين لنا على طريقته إمكانية خلق الأقاليم انطلاقاً من المدينة، إذ يمكن أن نلاحظ عملياً على بعض الطرق التجارية مدناً لا تملك أقاليم. مع أنه في هذه الحالة، ربما يجب التحقق من مفهوم الإقليم، إذ أنه من خلال الطريق التجاري، نجد أن الأقاليم هي التي تذهب إلى المدينة بواسطة الخيرات والخدمات المتبادلة: وهكذا فإن الإقليم يتشكل كشبكة تكونت عناصرها

بواسطة عمليات التبادلات التي جعلت هذه العناصر مرتبطة ببعضها بعضاً.

لقد حاولنا هنا تسخير التاريخ من أجل إدراك الانتقال الحالي من الريفي إلى الحضري. ومع ذلك فقد تركنا تعريف المدينة جانباً. فماذا تغطي المدينة عندما تكون المدينة ـ الدولة؟ فمقارنة مع هذا الماضي، ماذا يحشد هذا المفهوم حالياً؟ إن المقابلة بين الأثريين والجغرافيين تظهر أهمية الهوة الفاصلة بينهم. إن معايير التحضر بعيدة عن أن تكون قابلة للمقارنة بين هذين الاختصاصين. فما هي المدينة الكبيرة أو المتوسطة أو الصغيرة في الألف الرابع قبل الميلاد؟ ما هو دور الإقليم؟ هل إنتاج الموارد الزراعية التي يعتمد عليها وجود عدد كبير من المدن وكذلك إنتاج الفائض يسمح بظهور الطبقات الاجتماعية المتنوعة؟ ولكن ما هي العلاقة بين هذه المدينة، التي تملك منطقة زراعية، وتلك الأكثر تعقيداً حيث تميل عمليات تبادل الخيرات والخدمات إلى تقليص المسافة بين الحضري والريفي لصالح الأول طالما كانت المجتمعات تتحضر؟ ويبقى أن سيرورة العمران التي نسعى هنا إلى توضيحها تتعلق بشكل أقل بالحقيقة التاريخية من تعلقها بالتفسيرات التاريخية للحقائق: وعلى هذا المنوال، هل أسطورة التأسيس هامة كثيراً؟ يمكن أن تدين سلمية بوجودها ـ حياتها الجديدة كي نكون واضحين ـ بشكل أكثر إلى الفكرة التي تكونها الجماعة عن نفسها مما هو إلى الإقليم الذي استوطنته هذه الجماعة: استيطاناً لم يكشف سوى إمكانية الأرض والحدود الممكنة لاستثمارها. إن التاريخ المعاصر لسلمية لا يقوم سوى بتحديد هذه الصيرورة من خلال إدراج المدينة ليس فقط في إقليم زراعي وإنما في كل متمفصل في مستويات للتبادل. وفي هذه الأثناء فإن هذا الإقليم الذي أعيد بناؤه الممتد إلى حدود البادية، يمد أيضاً وفي آن واحد القدرة وحدود إمكانيات الاستثمار.

مدن الحاضر:
الانتماءات المدينية، النظام القبلي، التراث، الذاكرة

مدينة صغيرة في البادية السورية

النظام القبلي والمدينية

فرانسواز مترال Françoise Métral

بيت المشرق المتوسطي ــ المركز الوطني للبحوث العلمية، فرنسا

تتعلق هذه المقالة بالمدن الصغيرة، وبدقة أكثر بمدن البادية والصحراء، إننا نتساءل عن طبيعة هذه التجمعات البشرية. باعتبارها مواقع للاستقرار قامت في وسط عالم البداوة والترحال، وعن الوظائف الاقتصادية والإدارية التي تقوم بها، ولكن بشكل خاص نتساءل عن نمط المجتمع الذي تنتجه وربما نمط «النظام العمراني»[1] الذي يجب ربطها به.

إن المقولة العربية المستمدة من أعمال ابن خلدون[2] تقابل بين مفهومين، وفضاءين، ونمطين من المدن، وعالمين: البداوة، وهو عالم الصحراء، عالم البدو والقبيلة من جهة، وعالم المدينة من جهة أخرى. إن المدينة في هذه المقولة هي موطن الحضارة، أي في آن واحد الاستقرار والحضارة. وبحسب معنيي هذا المصطلح، المدينة مكان مرتبط بالهجرة ويتضمن هذا المعنى: الخروج من العالم القبلي، والتعايش السلمي لناس من أصول مختلفة فوق أرض واحدة، تشكل عالماً حيث تطورت فيه المعارف والحكمة وحيث توطدت فيه السلطة وحيث يخضع فيه النظام للقانون المكتوب (ديني ومدني). فالمدينة هي موطن التجارة والتبادل والدين والفنون، إنها عالم مهذب حيث

---

[1] بحسب المفهوم الذي اقترحه روبير إيلبير Robert Elbert في مجموع أعماله عن الاسكندر والذي يعنى بنظام عمراني مجموعة متجانسة من العناصر (سكان، أشكال وبنيات عمرانية، اقتصادية ومؤسسات عمرانية) يكتشفها تحليل ما في سلسلة من المدن في الفترة التاريخية نفسها.

[2] التي عبر عنها هذا المؤرخ وعالم الاجتماع من القرن الرابع عشر في كتابه المقدمة.

الناس فيها خبراء في فن التفاوض.

من خلال كل هذه الخصائص التي تصف الحضارة، تتناقض المدينة مع عالم البادية والبداوة، هذا العالم القريب من الطبيعة والذي يصور سلبياً الجاهلية والشغف والفوضى والفتنة. والمعاني أو الدلالات المرتبطة بالبادية في الأوصاف العربية والإسلامية هي أيضاً على النقيض من تلك المتعلقة بعالم تتجسد فيه الفضائل العربية الأصيلة: الشجاعة والبسالة، والنبل، والكرم. إنها فضائل عالم قبلي، محارب وأبيّ. والمجموعات الملتحمة التي تألفه غيورة على استقلالها ورافضة لأي خضوع لسلطة مركزية. إنهم ينهلون قوتهم من العصبية، التي تربط بين الأقرباء، أحفاد سلف مشترك، عصب، والذي يفرض على الجميع باسم الشرف وفاءً وتضامناً فطرياً أعمى تمليه روابط الدم التي تترجم في النسب[3].

وبحسب هذا التناقض، الملخّص بخطوطه العامة، فإن الوصول إلى المدينة سيؤدي إلى التفكيك التدريجي للنظام القبلي ويفترض تبني عالم من العلاقات الاجتماعية يتطلب تجاوزاً للتقوقع وللتنافس أو للعنف الذي يصاحبه. وهكذا فإن المدينة والقبيلة أو المدينة والبادية تحيل إلى تناقض بين قطبين أو نموذجين ثقافيين لخصها عالم الاجتماع أ. بوهديبة بهذين المصطلحين: «بداوة وبلدياتية»[4].

مقاربة حول المدن الصغيرة: من المعمورة إلى البادية

منذ خمس عشرة سنة وبعد أن نسينا طوعاً هذه التناقضات الحادة التي كنا نعتقد أنها مهملة في سورية، وأثناء دراستنا لظاهرة تكاثر المدن الصغيرة (بين 8000 و 15000 نسمة) في سورية الوسطى[5]، هذه الظاهرة التي بينها بوضوح تعداد السكان لعام 1981، فقد تساءلنا عن آلية الانتقال من القرية إلى

---

[3] إن مصطلح العصبية يفهم اليوم من خلال توسيعه ، في الظرف الحالي، إلى معنى «الـترمت» و«العقلية الطائفية» والانقسام.

[4] عبد الوهاب بوهديبة، 1993. A. Bouhdiba

[5] ج. مترال، 1995. J. Metral

المدينة. السؤال الذي كنا نطرحه هو: ما هو المديني (الحضري)؟ أو بالأحرى كيف التحول من فلاح إلى مديني في فضاء «يتحدث ويتعمر» *؟ ومن أجل الإجابة على هذا السؤال بدأنا القيام في العديد من المدن الصغيرة في وادي العاصي، في المناطق المروية من سهل الغاب، بدراسة آليات تحول الفضاء بالتوازي مع تلك المتعلقة بتحول المجتمع.

جرت الدراسة بشكل خاص في محردة (15000 نسمة في عام 1981)، وقد وقع الإختيار على هذا التجمع السكاني لأنه معترف به بالإجماع بأنه «مدينة»، رمز حداثة حيوية، مندمجة جيداً، مهذبة، مما جعلها تستحق الوصف بـ «باريس الصغيرة» الذي أطلقه عليها سكان المدينة الكبرى في الإقليم، حماة، ولقد سعينا وراء إعادة بناء هذا النجاح والإحاطة بالعوامل التي شجعت عليه، لأن مدينة محردة كانت في بداية القرن قرية فقيرة تملك أراضيها عائلة كبيرة من المُلاك المدينيين[6]. إن الجواب الذي حصلنا عليه من دراسة سيرورات وآليات التحول يلتقي مع التفسير الذي أعطانا إياه مراراً السكان عندما كنا نقارنهم مع سكان التجمعات السكنية المجاورة. إن كانت محردة قد استطاعت أن تصبح مدينة حقيقية، وأن يصبح سكانها مدنيين، بشكل أفضل وقبل الآخرين، فذلك لأنه لم يكن لديهم، أو في جميع الأحوال أقل بكثير من أماكن أخرى، الشيء الذي استمر في القرى المجاورة، كالتعصب والذهنية العشائرية وصراع العشائر الذي يعيق أية مبادرة جماعية، والمعبر عنه بالثأر والحل بسفك الدماء. والأمر الذي تم توضيحه في الروايات التي تتحدث عن اللحظات الحاسمة المختلفة لتطور

---

* من الحداثة والعمران. (المترجم)

[6] لقد عرفت محردة كيف تمدن فضاءها، وأن تمتلك، قبل أن تأخذ الدولة المبادرة، بوسائل العصرنة (جر المياه، الكهرباء، المجارير، الشوارع المبلطة بالحجارة، وشارع مركزي تجاري منفتح جداً، لقد وافقت على إنشاء الفضاءات العامة، مقاهي، كافتريا، سينما، مطاعم تسمح بالخروج من الفضاء العائلي. ولقد خصّت نفسها بمحلات تجارية للبضائع الجديدة، بصالونات الحلاقة، ألخ... وكلها شهود على تحسين في الاستهلاك. ولقد نوعت نشاطاتها الاقتصادية وطورت الري وامتلكت قطاعاً حرفياً مؤهلاً، نصف صناعي، وأنتجت نخبة مثقفة تزود كامل المنطقة بالكوادر.

القرية، كان التدخل المتكرر لمجموعة من خمسة أو سبعة من الأعيان[7] الذين عرفوا كيف يشاركون عائلات المدينة في مشاريع متلاحقة وأن يبينوا بمبادرتهم هذه قدرتهم على التوصل إلى إدارة مشتركة ومنسقة لشؤون المدينة وحل خصوماتهم سلمياً. لقد أعادنا بحثنا عن المدينية وعن المدن الصغيرة إلى مراتب ابن خلدون وإلى التضاد الثقافي بين المدينة والقبيلة أو بين مدينية وقبلية. وفي هذه الحالة بالذات، تكونت المدينة بتوحيدها لسمات المدينية والحداثة.

وقد تابعنا استقصاءنا عن المدن الصغيرة، فبدأنا بعد فترة قصيرة بدراسة تجمع سكاني ذي حجم مساوٍ (15000 نسمة) وهو مدينة السخنة، وهي مركز لناحية وتقدم الظاهرة نفسها عن النمو الديموغرافي، لكنها لا تقع في منطقة زراعية مروية وإنما في البادية، بادية تدمر في قلب العالم البدوي. لقد واجهنا هنا شكلاً آخر من العلاقة بين عالم الترحال وعالم الاستقرار وكذلك مشكلة المفردات. كيف نقيم أماكن الاستقرار هذه في وسط عالم الترحال[8]؟ ما هي الوظائف التي تؤديها؟ ما هو شكل المجتمع العمراني الذي تكون فيها؟ هل يمكن أن تكون هناك مدينة في البادية؟ ماذا تعني مدينة في البادية؟ إن تحليل الحالة التي كانت بالنسبة لنا نقطة انطلاق لتفكير مقارن هدفه الكشف عن بعض السمات المميزة لما يمكن أن يمثل نمطاً من «نظام عمراني» خاص بالبادية، إنها حالة السخنة، وهي تجمع سكاني يقع شمال

---

[7] إن رقم خمس «عائلات كبيرة» يبدو رمزياً هنا بالنسبة لمدينة. وكان يستعمل باستمرار حتى وإن كانت أسماء العائلات تتبدل عند سؤالنا عنها. وبالطريقة نفسها كنا نقوم باستمرار باستعمال رقم خمس عائلات كبيرة في المركز الإقليمي، كما لو أن الرقم خمسة يشير إلى تجاوز التناقض الثنائي للعشائر.

[8] تقدم لنا الدراسات مصطلحات عديدة لتسمية هذه المواقع الوسيطة: «مسكن مرحلي»، «ميناء الصحراء»، «مدينة الصحراء» أو كذلك «مدن القوافل»، بحسب الوصف المستخدم من قبل الأثريين لأكثر المصطلحات سحراً من بينها. إن مصطلح واحة الذي يستعمله الجغرافيون الغربيون عندما يتحدثون عن هذا النمط من المواقع. يشدد بالأحرى على الوسط البيئي، وسط الزراعات المروية، مزروع في قلب الصحراء ويهملون وصف التجمع، المكان المسكون، ونمط المجتمع الذي ينتجه.

الجبال التدمرية قام بدراسته بوشمان Boucheman[9] في الثلاثينات. وهو إتنولوجي وقد وصفها في ذلك العهد بـ «مدينة قوافل صغيرة» والتي عدنا و«زرناها» بعد خمسين سنة، في الثمانينات[10]. إن سكان تدمر لا يتحدثون عن هذا المكان بقولهم قرية، ولا يستعملون أيضاً في اللغة المحلية المصطلح الجغرافي الأدبي جداً، واحة، إنها بالنسبة لهم بلدة[11]، أي من المستوى الأول في التسلسل العمراني: مدينة صغيرة مع بساتينها.

المدينة في البادية

الموقع : فضاء معبور

إن الحديث عن «المدينة في البادية» يعيدنا في البداية إلى الظروف الطبيعية، ظروف الإنشاءات المستقرة في الكتلة التدمرية التي تشكل سلسلة من «المنطارات» الواقعة إلى الشرق من الحاجز الجبلي الذي يفصل الهضبة الصحراوية (الحماد) في الشرق عن البادية والمنطقة المزروعة من سورية الوسطى (الشنبل) من الغرب (الشكل 1). وفي الحالة التي ندرسها، يلخص الموقع الميزات التي تسمح بوجود جزيرة من المستقرين في بيئة صحراوية. إنه يفسر وظائف الماضي والحاضر[12]: نبع عند أقدام ممر جبلي. مياه كبريتية حارة تغذي البساتين المروية، مراعي فصلية في الجوار تعتبر في الربيع والخريف محطات على طرقات الرعاة الرحل. ويبرر الممر الجبلي، نقطة المرور الإجبارية لعبور الجبل. وجود تقاطع الطرق والمحطة على

---

9 A. De Boucheman, 1939

10 لقد أعطت الدراسة التي تمت بين عامي 1985 و 1989 مع جان مترال J. Metral وجان هانوييه J. Hannoyer العديد من المقالات المنشورة. ونعيد القارئ هنا من أجل معطيات أكثر عن هذا التجمع إلى مقالة ف. مترال وج. مترال: «مدينة من البادية، القبيلة في المدينة»، 1989.

11 لقد قيل لنا، كبرهان على قدم الواقعة، أن الجغرافي العربي ياقوت الحموي قد وصف تجمعهم هذا في القرن العاشر بالبلدة.

12 يرتبط الجفاف في المنطقة التدمرية بضعف التهطال: فمتوسط الأمطار السنوي، والذي لا يأخذ بعين الاعتبار عدم الانتظام السنوي للتهطال، لا يتجاوز 120 مم في السنة.

طرق القوافل للتجارة البعيدة: طريق الحرير، طريق الهند، طريق الحج. وقديماً كانت تتقاطع هنا الطرق البرية التي تربط بين حلب وبغداد، بين الموصل ودمشق، أو المؤدية من الأناضول إلى دمشق والجزيرة العربية. وكما هو الحال في العديد من المدن الشرقية فالبلدة والبساتين لا ينفصلا عن بعضهما. وحتى عهد قريب كانت البساتين تقدم القوت (زيتون، قليلاً من التمر، رمان، خضار، وخارج الجدران القمح والشعير) لكن المساحة القابلة للري محدودة[13] كي تسمح بزراعات تجارية أو للتصدير. بعكس واحات منطقة ما بين الرافدين السفلى لا بل حتى واحة تدمر[14]. إن وجود وبقاء هذا التجمع يفسر قبل كل شيء بموقعه على طرق المرور.

النشاطات والوظائف الاقتصادية

إن السؤال الذي نطرحه عن مدينية مدن البادية الصغيرة لا ينطبق هنا على قرية تتحضر وعلى فلاحين يتمدنون. فأهالي السخنة يرفضون رفضاً باتاً كلمة فلاح[15]. ولا تجذبهم كثيراً أيضاً ظروف ومهنة الحرفيين (الصناعيين). يعتبرون أنفسهم قبل كل شيء «أهل التجارة». إنهم يعيشون اليوم كما البارحة من كل أنواع الوظائف التجارية المرتبطة بحركة التنقل في البادية: قديماً النقل بواسطة القوافل، واليوم من النقل بالشاحنات، ومن رعي المواشي، من دور الوسطاء، والسماسرة، والشاحنين بين قبائل الرعاة الرحل (العرب)، الذين ينفرون من التجارة من جهة، والمدن الكبرى حيث توجد أسواق المنتجات الرعوية من جهة أخرى. إن وظيفة الوساطة هذه، العمرانية البحتة، بين مربي الماشية في البادية والمدن الداخلية الواقعة عند نهاية الطرق العابرة للصحراء، يمارسها السخانة على مختلف مستويات الحركة التجارية وبأشكال مختلفة. وبحسب تعبيرهم «إنهم يلقون بشباكهم في البادية

[13] تتكون بساتين الواحة اليوم من 120 هكتاراً مروي منها 20 هكتاراً مشجر و 8 هكتارات للزراعات المروية المفتوحة خارج الجدران (المصدر: وزارة الزراعة).

[14] تغطي واحة تدمر التي تبلغ مساحتها عشر أضعاف واحة السخنة، 1000 هكتار من الأراضي المروية (المصدر: وزارة الزراعة).

[15] أربع أو خمس عائلات، واحدة من كل حي، مكلفة بزراعة البساتين.

مثلما يلقي صيادو السمك شباكهم في البحر». وصغار السن منهم يعملون كباعة متجولين، إنهم يتبعون القبائل في البادية في ترحالهم، وينصبون بالقرب من مضاربهم خيامهم البيضاء، بازار حقيقي متنقل ، إنهم يؤمنون للبدو كل ما هو ضروري لحياة الصحراء (من مواد الخيمة، والنسيج، القمح، البقالية، حتى دفاتر وحقائب التلاميذ). ويجمعون مقابل ذلك منتجات الماشية لحساب تجار سوق المدينة، الذين هم غالباً من الأقرباء الذين يمونونهم بالمواد وبالتمويل. وفي السخنة يمارس هؤلاء تجارة نصف الجملة، البعض منهم لديه مستودعات وآخرون لديهم شاحنات، كلهم مثل السماسرة الذين يصرفون الخراف والصوف والسمنة ألخ. لأقربائهم ولمواطنيهم، من تجار جملة (خانجي) الذين يمارسون نشاطهم في المدن الكبيرة حيث يقيم فرع من عائلتهم منذ أجيال عديدة. إن هؤلاء التجار أو الخانجي الحضر يقبعون في قمة الشبكات التجارية: إنهم يمولونهم بوساطة نظام يدعى «التسليف» فالمبلغ الممنوح على البضاعة الذي يزودون به تجار نصف الجملة يسدد بواسطة البضاعة التي يسلمونها هؤلاء في نهاية الفصل. ويتّبع تجار نصف الجملة الطريقة نفسها مع باعة المفرق الجوالين. وهكذا يفعل أيضاً باعة المفرّق مع زبائنهم من البدو. وتتم الاستفادة في عملية التسليف دوماً من خلال التلاعب بالأسعار[16].

البارحة، كان هناك الدليل والدلال، دلالة قوافل الجمال والسماسرة، الذين يشاركون بتجهيز قافلة الحج ويرافقونها حتى الجزيرة العربية، واليوم نجد الشاحنين، والشاحنات وعابري الحدود، وحتى المهربين، فالسخانة هم «بقالو» و«سائقو الشاحنات في الصحراء». ويتجسد ثراؤهم بالمستودعات وبوسائل النقل ويقاس بشكل أساسي بعدد الشاحنات (فولفو 30 طن) التي يملكونها[17]. مثلما كان يقاس الحال بعدد الجمال في الماضي[18]. كانوا قديماً

---

[16] F. Métral, 1996

[17] كان هناك في المدينة 200 شاحنة تقريباً في نهاية الثمانينات، تعتمد عليها شركات نقل عائلية صغيرة.

[18] لم يكن أهل الواحة مربي ماشية حقيقيين، ولكنهم مثل النخاسين، كانوا يشترون من البدو، مربي الإبل بشكل أساسي، الجمال الفتية ويحتفظون بها لحين نضوجها ثم يبيعونها أو يأجرونها.

يضيفون إلى هذه النشاطات استثمار بعض الموارد المحلية[19]. فهم يمارسون دوماً في سنوات الخير جمع الكمأة من الصحراء، ذات القيمة الاقتصادية الجيدة. وأخيراً، ومنذ أن استتب الأمن في الصحراء، وأعاد وجود الدولة التوازن في العلاقات بين الرُّحل والمستقرين، وسهلت المكننة زراعة الأرض، فإنهم يحصلون أيضاً على عوائد الاستثمار في مجال تربية الماشية، وفي الزراعة البعلية منذ زمن قريب، كزراعة القمح ولا سيما الشعير بواسطة «الشراكات» مع البدو وبعض رجال الأعمال من المزارعين الذين يقطنون المدينة[20]. ولقد استفادت السخنة من وظيفتها الجديدة كمركز ناحية في عام 1969، فاكتسبت بعض الوظائف الإدارية بالإضافة إلى بعض فرص العمل، التي كان معظمها لعشر سنوات خلت مشغولاً بموظفين قادمين من الخارج[21].

1- مستقرون ورُحَّل

تسعى كل مجموعة عائلية أو قبلية إلى التشارك في هذه النشاطات المتنوعة التي تظل منافعها متذبذبة باستمرار، مما يؤدي إلى بقاء هذه التجمعات السكانية بوضع هش وسريعة التأثر بالتغيرات السياسية أو الاقتصادية، لأنها ترتبط بعوامل ظرفية عديدة: كظروف الأمن في مناطق التَماس هذه، والعلاقات بين السلطة المركزية والقبائل الرحَّل، وطرق وعافية التجارة الكبيرة، وأهمية العبور، ونوعية وسائط النقل، وشبكة الطرق. وتظل الموارد التي يحصلون عليها في جميع الأحوال خاضعة لعدم الانتظام الشديد للتهطال[22] الذي يحدد نوعية المراعي، وبالتالي ازدهار تربية الماشية، وكذلك

---

[19] كالبطم والشنان الذي يستخرج منه البوتاس الذي يباع لمصانع الصابون التقليدية، ومن تدمر الملح والآثار المستخرجة من أعمال التنقيب غير الشرعية.

[20] انظر مقالة ف. مترال F. Métral، 1993، تتحدث المقالة عن الوضع في الثمانينات. وقد منعت الزراعة البعلية بشكل صارم في البادية منذ عام 1996، وليس لدينا معطيات عن الوضع الحالي

[21] Th. Bianquis, 2000 p. 859.

[22] انظر حول موضوع عدم انتظام التهطال الفصلي أو السنوي وعلى المستوى المحلي، م. طرابلسي، M. Traboulsi، 1991.

الزراعات البعلية، المرور ومدة الإقامة وبالنتيجة وجود أو غياب الزبائن البدو. وتتطلب نشاطات هؤلاء المستقرين المرتبطة بالمدينة، تتطلب حرية حركة كبيرة للناس. فهي ترغمهم على التنقل باستمرار. في البادية أثناء جولاتهم بين القبائل البدوية. وفي المدن الكبرى الواقعة في قمة الشبكة ومصب التجارة ونهاية الشبكات التجارية. فهي تأتي بهم من مسافات بعيدة على الطرق التي يرتادونها بوسائط نقلهم. إن هذه الحركية تعتمد على الشبكات. إنها تتطلب علاقات ثقة متبادلة واتصال مستمر مع الزبائن البدو الذين يعرف نسبهم وطرق سيرهم، وكذلك احتكاك مع أناس ومحطات موثوقة من تجار المدن الكبرى التي تمول شركاتهم، وتؤمن لهم المعلومات، وتقاسمهم المخاطر جزئياً.

2. شبكات وأقاليم

لا تعني الهشاشة البؤس الدائم، فيمكن أن تعرف تجمعات البادية هذه، الخاضعة للتبدلات، ازدهاراً مفاجئاً في أحد الأيام، في زمن ربيع جيد أو أكثر، وفي الغد المجاعة أو الهجرة[23]، ذلك عندما يتكرر الجفاف على مدى عدة سنوات ويؤدي إلى المحل. وينتج عن هذه التذبذبات الفصلية والسنوية أيضاً أو العشرية، على المدى المتوسط أو الطويل التي تؤدي إلى تنقل البشر وحركتهم، تنتج الأقاليم على مختلف المستويات[24].

فهناك أولاً إقليم المدينة الخاص، من البساتين والحقول المفتوحة التي ترويها الينابيع، ويضاف إليها وفي دائرة يبلغ قطرها 40 كم، أراضٍ مبعثرة في الفيضات وقابلة للزراعة البعلية بعدم انتظام ويتنازعونها مع البدو.

ويأتي في المرتبة الثانية، قريتان تابعتان لها في داخل منطقة نفوذها الإدارية، في ناحيتها، تقعان على الطريق الترابي المؤدية إلى حلب، وهما

---

[23] تذكر التوراة بسبع سنوات سمان تتبعها سبع سنوات عجاف. في الواقع، الرقم سبعة ليس سوى رقم رمزي، وإن كان التناوب موجود فإن التنبؤ به صعب، ولا يحصل بانتظام كما أكدت ذلك الدراسات المناخية (م. طرابلس، 1991).

[24] تقصد هنا «بأقاليم» المدينة الصغيرة، الفضاءات التي تستثمرها والتي تستمد منها عيشها، فضاءات هي أرضية لنشاطاتها، تلك التي تعودت عليها، والتي اكتسبها سكانها.

الطيبة والكوم، وهي محطات توقف قديمة مع بساتينها حيث تعيش عـائلا
من الحي الشمالي في الواحة[25]. وثالثاً، المناطق التي تسمى بأحياء السـخ
في ضواحي المدن السورية الغربية الكبيرة، وفي الشمال، وعلى الفرات، ع
نهاية الطرق التجارية التي تعبر المدينة. وأخيراً هناك فيما وراء الحدود، ف
الأردن والعراق والجزيرة العربية، عدد كبير من الأعشاش، مـن وكـالا
تجارية متواضعة، حيث يقيم أقرباؤهم والتي تؤمن الارتباط بيـن الشـاحن
وتجار المدينة. إن أقاليم المدينة البعيدة والمتقطعة والمربوطة بالشبكات، الت
تصونها حركة النقل والمرور، تشكل على هذا النحو نوعـاً مـن الأرخبيـ
(الشكل 1).

إن نشاط الترانزيت والتجارة، وتقلبات الظروف، لا تحتاج فقط للتنقـ
الفصلي وإنما إلى هجرة طويلة، وحتى إلى هجرة كلية للسكان نحو المراكـ
العمرانية الكبرى حيث يتابعون نشاطاتهم[26]. فإلى حماه وحلـب منـذ مطلـ
القرن الثامن عشر، وإلى دير الزور في نهاية القرن التاسع عشر، وإلى الرق
مؤخراً. ذهب الأوفر حظاً وهناك استثمروا أموالهم، وذهب أيضاً في الفترا
الصعبة المعوزون الذين وجدوا المأوى لدى مواطنيهم. ويتجمع المـهاجرو
في كل مدينة من هذه المدن في أحياء قامت عند أبواب المدينة، عنـد نهايـ
طرق البادية التجارية بالقرب من أسواق الجمال وخانات المنتجات الرعويـ
وهنا تشكلت أسراب أو مستوطنات متضامنة ذات الهويـة الواضحـة جـد
تعرف بشكل عام بالنسب الذي يشير إلى أصل السـكان الذيـن يسـكنوها أ
أسسوها والذين يتابعون نشاطاتهم فيما بينهم.

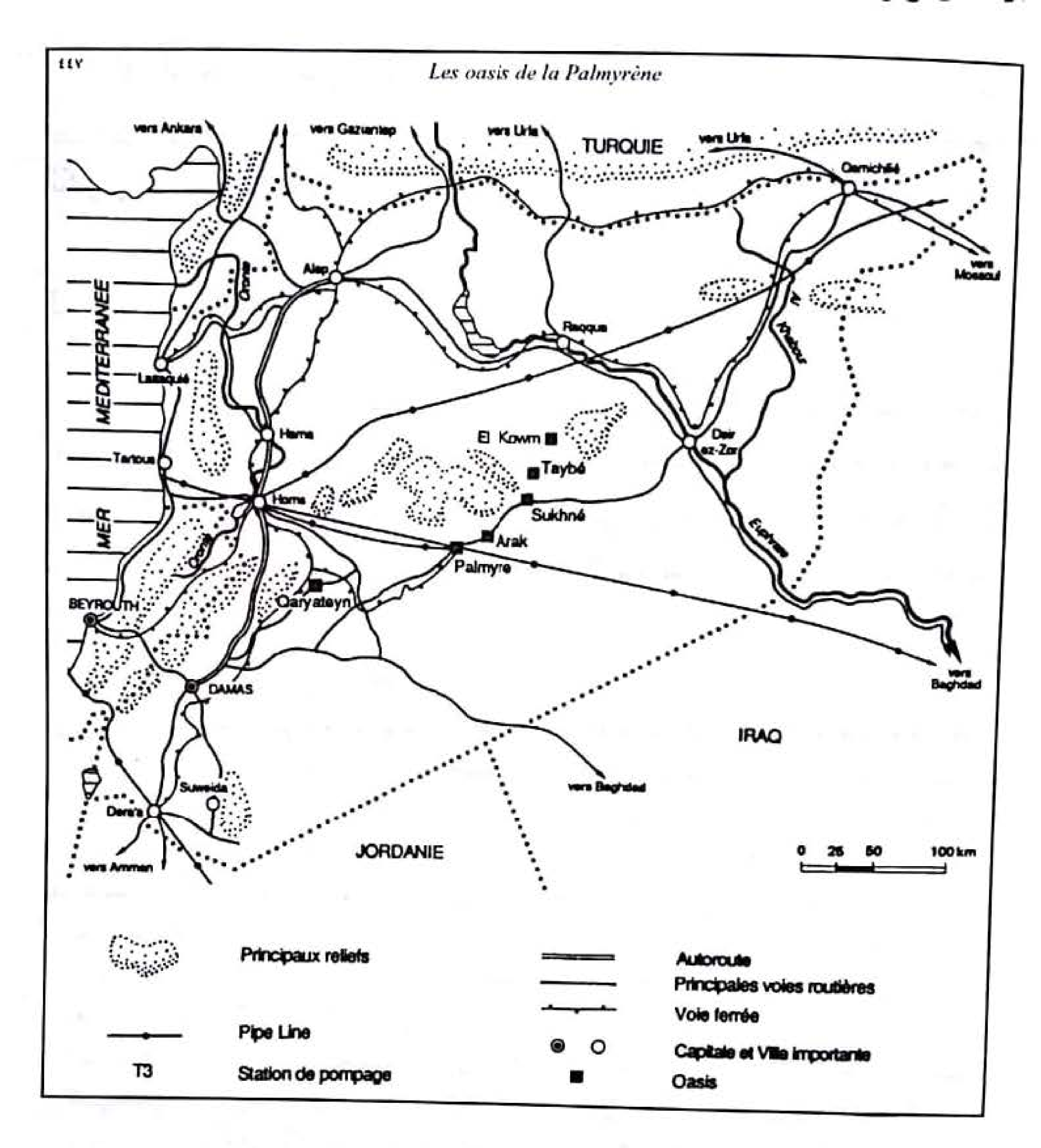
إن عادة تزاوج الأقرباء العائلية والعشائرية، والتحالفات المتكررة عـب

---

[25] ينقسم سكان الناحية إلى نصفين، نصف مستقر (المدينة وتوابعـها) مـن الرحـل القدامـ
ونصف من القبائل البدوية شبه المستقرين المسجلين في الناحيـة. وهـي لا تـأخذ بالحسبا
القبائل البدوية التي تخيم في البادية المجاورة أثناء فصل المراعي والذين يشكلون جـزءاً مـ
زبائن تجار المدينة.

[26] هذا ما يفسر ثبات عدد سكان الواحة على حاله رغم معدل الولادات المرتفع منذ مطلع القرن
الماضي وحتى السبعينات منه : 190 منزل أي تقريباً 1500 إلى 200 نسمة في عام 1930 (
de Boucheman, 1939) و 200 نسمة في تعداد السكان لعام 1960، و36000 في تعداد 1970

أجيال عديدة، والتي سنعود إليها، تساعد على المحافظة على الروابـــط بيـــن مدينة الصحراء و«مستوطناتها» العمرانية وعلى تقوية الشبكات التي تجمـــع الأعمال وتوجيه الحركة والتنقلات.



الشكل 1: واحات تدمر.

يتميز هذا التجمع السكني الخاضع للتقلبات بالـــهجرة والـــهروب التـــي تفرض عليه انغراسات في أماكن أخرى ورجوعاً عنـــد اســـتعادة النشـــاط، وتوضح مصائب هذا التجمع وسكانه خلال القرن الماضي ظواهر تتكرر علـــى

المدى الطويل (انظر كتابات نورمان لويس)[27]. إن هـذه المـدن التـي تحيي الحركة وحركة المرور قد تدهورت في نهاية فترة نشاط القوافل عندمـا جعـ خط الحدود من منطقة تدمر التي كانت منطقة عبور ومرور، منطقة مسدودة[28].

لقد استعادت المدينة نشاطها إبان إنشاء الطريق القطري عابر الصحرا بين دير الزور ودمشق مروراً بتدمر الذي عاد وربطها بـالدوائر الإقليمي الكبرى لا سيما باتجاه دول الخليج.

3. تحديات الحداثة

لقد أخرج طريق الصحراء في عام 1980، المدينة من عزلتـها ومـ تقوقعها. لقد سهل وصول الآلات وسمح بالبدء بعملية تحديث متأخرة. وهكـ سنجد تجمعاً سكانياً صغيراً في حالة توسع، في زخم مرحلـة الانتقـال. إ شرايين الطرق الجديدة التي رسمت بحسب المخطط العمراني[29] قـد قطعـ

---

27 انظر ن. لويس N. Lewis، 1991.
إن الدراسة الوضعية التي قام بها بوشمان Boucheman تعطينا في عام 1939 صورة عن قعـ الموجة، نتيجة للتدهور الذي أدت إليه اضطرابات العقدين السابقين: إقامة نظام سياسي جديـ ووضع حدود البادية، ونهاية الاقتصاد القوافلي، وتحول الطرق التجاريـة، وجفـاف متكـرر وأزمة تربية الماشية. وظرف دولي يتميز بأزمة عام 1939 الاقتصادية.
لقد حالفنا الحظ في الثمانينات بالتعرف على المدينة في ظرف مريح: انتهاء الطريـق القطـ العابر للصحراء، طريق دير الزور ــ تدمر ــ دمشق في عام 1980، وامتداداتـه نحـو دو الخليج والعربية السعودية، افتتاح ورشات النفط ألخ. نستطيع اليوم ذكر الأحداث التي مـيزت الفترة الوسيطة 1930 ــ 1980: الهجرة الكبيرة في الستينات باتجاه الفرات حيث بدأت أعمـ إنشائية كبيرة، وتشكيل مستوطنة جديدة في الرقة، إنشاء الناحية في عام 1969 التـي منحـ المدينة وظائف إدارية جديدة، الهجرة إلى دول الخليج في السبعينات، الذي رافـق الانتعـا الذي ولدته الدولة في تلك الفترة، وتحول في تربية الماشية، وأخيراً تعميم استعمال الشـاحنا الذي يشكل مرحلة جديدة لتاريخ على شكل أسنان المنشـار. لدينـا إذن اسـتمرارية وعمـ تاريخي يسمح لنا بإدراك آليات عودة التاريخ، وحركة الأكورديون التي قـامت بيـن المدينـ وأقاليمها العمرانية، (ف. مترال F. Metral، 1999).
28 باستثناء تدمر التي يؤمن لها مجد ماضيها مستقبلاً جديداً.
29 في عام 1974 أمر مدير الناحية بإنشاء الاختراق الأول لشارع مستقيم فـي نسـيج المدينـ العمراني القديم وذلك من أجل السوق.

قلب الأزقة الترابية، وجاور الإسمنت المسلح الخرائب، والورشـــات تحفـر الشوارع ولكن تتأخر بالإنجاز. ومع وصول الكـــهرباء، تجـهزت المنـازل بوسائل الرفاهية الجديدة، وتضاعفت عمليات ضخ المياه من الآبار المنزليــة وأدت إلى انخفاض مستوى النبع. فجفت شبكة الري وهجرت وذبلت بســاتين الواحة. وفي نهاية السبعينات ومطلع الثمانينات ظهرت الحافلات (الباصــات) والشاحنات والمضخات العاملة على البنزين التي ميزت الديناميـــة الجديـدة للمدينة ووصول حديث لكن متواضع إلى الحداثة. ولم يعد للتجمــع الســكاني العامر بالنشاط شيئاً من المظهر الظريف والمريح، والذي ينعش القــادم مـن الصحراء، الذي كان للبلدة في الثلاثينات والذي ذكــره برنــار فيرنييــه .B Verniee فالشوارع تشققها الشاحنات وأعمال المجــارير وتنتظـر الإســفلت وتنشر رائحة المياه السوداء والكبريتية الكريهة وفضاء التجمع السكاني الــذي هو في مرحلة التطوير ذو مظهر فوضوي.

لكن مع ذلك وأياً كانت التساؤلات عن طبيعة المكان الـــذي يمكــن أن يعطي للوهلة الأولى مظهراً خارجياً مشكوكا بهً بما فيه الكفايـــة وفوضويــاً للتجمع السكاني، فنحن فعلاً في حضور مدينة. فلقد ذكر بوشمان من قبل فــي عام 1930 أننا نجد فيها خصائص المدينة الإسلامية: سوقاً، حماماً موصـــولاً بالينابيع الساخنة (حالياً مهجورة للعابرين من البدو)، جامعاً، خانـــاً (اختفــى حالياً)، مزاراً (يهجر) والقلعة (خرائب). وينضم اليوم إلى خصائص المركــز التقليدي[30] مع اتساع النشاطات التجارية[31] والخدمات والمرافق الحديثة التـــي كنا قد تحدثنا عنها من قبل، تنضم الأبنية العامة: مركز الناحيـــة، المدرســة الابتدائية، المدرسة الإعدادية والثانوية، المســـتوصف الصحــي، مســتودع

---

[30] وظيفة الوساطة الخاصة بالمدن التي يصر عليها تييري بيانكي في مقالتــه (Th. Bianquis, 2000, p. 859): «تعبر كل المدن في الأقاليم الإسلامية عــن بعــض الخصــائص المشــتركة المرتبطة بوظيفتها كوسيطة». ويشدد الكاتب أيضاً في الصفحة 862 على «أهمية شبكة التبـادل كعامل مساعد للعمران [الذي] يفسر أن المدينة العربية كانت منشأة بشكل عام عند تقاطع طـرق قديم مدمج في عهد ما ضمن سور».

[31] إن عدد المحلات التجارية الذي كان 21 محلاً في الثلاثينات (2000 نسمة) قد انتقل إلــى 50 محل في عام 1978 و 106 في عام 1982 و 161 في عام 1986 بحسب تدرج يرافق زيــادة السكان.

الأعلاف، البلدية الجديدة ومقر الحزب، وقريباً مركز البريد، إلخ. وكلها علامات عن دخول دولة عصرية ومركزية ووظائف إدارية جديدة لمدينتنا الصغيرة.

إنها بالتأكيد مركز إداري وتجاري، ومدينة صغيرة لكن هل يكفي هذا لكي يجعل من سكانها حضراً (مدنيين)، بمعنى «تجاوز التعصب» الذي تم توضيحه لنا في محردة، المدينة الصغيرة ذات الحجم المماثل والواقعة على نهر العاصي؟ ما هو دور البنية العمرانية الاجتماعية والمجالية؟ وكيف يدير الناس فضاءهم العمراني؟ ماذا تخبرنا هذه الإدارة عن العلاقات الاجتماعية التي ينميها السكان بين بعضهم البعض، وعن أشكال المدينية الخاصة بمدينة البادية هذه؟

البنية العمرانية: القبيلة في المدينة

تتوسع المدينة الحالية حول مركز قديم حيث تقوم مبادئ تنظيمه بتوجيه التوسعات. تتميز البنية العمرانية بازدواجية مجالية تجسد الازدواجية الاجتماعية والسياسية.

الازدواجية الاجتماعية والسياسية

يتوزع السكان في البلدة القديمة على أربعة أحياء سكنية، وهو إسقاط في الفضاء العمراني لبنيات نسبية محلية وتقدم الآن كقبيلة.

تنقسم المدينة إلى قسمين بحسب التوزع الثنائي للتنظيم السياسي الذي يميز بالتنافس بين سكان الحي الجنوبي (بني مغيبل الذين يجمعون عائلات متحالفة) والقبائل الثلاث الأخرى التي تشكل أحياء النصف الشمالي الثلاثة. وعلى الرغم من محاولات الإمساك بالسلطة من قبل الشمال التي تكررت منذ قرنين (بوشمان) فإن السلطة المحلية تنزع دوماً لأن تتوطد في الجنوب بفضل دعم السلطات الخارجية: سلطة قبيلة بدوية كبيرة في القرن التاسع عشر، سلطة الانتداب الفرنسي بعد ذلك ثم سلطة الحكومة السورية والحزب حالياً.

إن التقسيم شمالاً و جنوباً الذي يقسم الفضاء السكني يميز أيضاً الفضاء التجاري. حتى شارع السوق الذي يعبر المدينة، فضاء يمكن ارتياده ومفتوحاً للغرباء، أي للبدو في الصباح، يخضع لهذا التفرع الثنائي. إن سكان الشمال يملكون متاجر في الجزء الشمالي من الشارع وسكان الجنوب في الجزء الجنوبي. وبعد الظهر وعندما تصبح المحلات التجارية أمكنة للعلاقات الاجتماعية، وللزيارة وللاجتماعات غير الرسمية فكل واحد يظل متقوقعاً في منطقته. حتى الأطفال لا يجازفون بعبور الحدود. ويبدو أن الفضاء الديني وفضاء الينابيع هما فقط الفضاءان اللذان لا ينطبق عليهما هذا التوزع الثنائي. وينفصل الجزء الشمالي عن الجزء الجنوبي بواسطة الجامع الواقع في «الوسط» عند تقاطع الأحياء. واستقرت خلف المسجد عائلة الخطيب، التي تشكل الوظائف الدينية، الإمام، معلم المدرسة القرآنية، إلخ. وهي تدعي أنها من أصل عراقي يعود إلى الأخوية الكبيرة لعبد القادر الجيلاني، ولا ينطبق النظام القبلي أو ثنائية التوزع على هذه العائلة. ويتكون الفضاء المشترك الآخر من «ساحة الينابيع» حيث كان يوجد قديماً الخان وحل من حوله اليوم مركز الناحية، والجامع الجديد الضخم ومحطات انطلاق السيارات (الكراجات). إن هذا الفضاء الواقع جنوب شارع السوق، بين المركز القديم والبساتين، عند نهاية شارعين جديدين، شرقي وجنوبي تربط المدينة بالطريق الرئيسية، وتلعب دور شبه «بوابة المدينة». إنه يستعمل كموقف لشاحنات البدو القادمين إلى السوق. ونساؤهم يذهبن إلى النبع لغسل الثياب وأطفالهم يستحمون فيه. إن فضاء الأموات ينتج فضاء الأحياء. ففي المقبرة القديمة المجاورة للساحة، هناك لكل قبيلة حيها. لكن آل الخطيب يدفنون لوحدهم، بالقرب من الجامع (الشكل 2، مخطط بوشمان).

إن التوسعات الحديثة للمدينة المرتبطة بوظائفها الإدارية الجديدة وبالنهضة الاقتصادية والديموغرافية في الثمانينات لم تبدل آلية النسبة العمرانية بعمق (الشكل 3). فيبدو أن الانتماء القبلي والمكانة التي يمنحها لكل فرد قد حافظا على كل قيمهما. فالبنية التقليدية ترسم الخطوط العامة للتوسع العمراني. كما أن التوزيع المكاني للنشاطات الجديدة مثلما الأمر بالنسبة للأبنية العامة التي تشيدها الحكومة السورية ينزع إلى تأكيد ثنائية الاستقطاب

وزيادة حدة الخصوصيات لكلا الفريقين. فالمؤسسات الإدارية المؤمّنة لمناصب العمل الوظيفي وأماكن ممارسة السلطة البلدية، تقع في الجهة الجنوبية، في حين أن المناطق التجارية الجديدة وساحة المعرض قد تأسست في الجانب الشمالي. إن المبادرات المحلية، والبلدية والحكومية كلها تخضع إلى التفرع الثنائي. وسنعطي ثلاثة أمثلة عنها:

- ففي السبعينات، وقبل أن تصل إلى القرية الشبكة الكهربائية الحكومية التي تغذيها محطة الفرات، كان السكان قد أنشؤوا شركتين وأقاموا شبكتين كهربائيتين خاصتين، إحداهما للشمال والأخرى للجنوب، واللتان ارتبط بهما المركز الكهربائي الجديد والشبكة العامة.
- لقد بنيت أول مدرسة ابتدائية في الجنوب، ومن أجل تأمين التعليم لأطفال أحياء القسم الشمالي من المدينة، فقد اضطرت الدولة إلى بناء مدرسة في كل حي من أحياء المدينة الأربعة، وهكذا فالمدينة تملك اليوم أربع مدارس ابتدائية لكن أكبرها، تلك التي تسمح بسبب عدد التلاميذ الكبير بفصل الإناث عن الذكور كما يرى السكان المعادين للاختلاط، تقع في القسم الجنوبي من المدينة.
- تملك المدينة بلدية ورئيس بلدية منتخب منذ عام 1982 باعتبار أنها بلدة. أن رؤساء البلدية الثلاثة الأوائل كانوا من الجنوب لكن تمت تسمية مختارين، مختار للشمال، وآخر للجنوب.

على الرغم من المحافظة الشديدة على ثنائية التوزيع الموجودة من قبل والقائمة على التناقضات القبلية، فإن توسع المدينة يصحبه تعقيد في البنية بسبب تشكل قطب ثالث، إنه قطب «الوسط» الذي يكون هويته المكانية، فالوسط يشكل حيه ومركزه التجاري في توسعه باتجاه الطرق الترابية في الغرب، بين المسجد القديم وقبر الولي، حول المستوصف والثانوية، هذه الخدمات التي تعتمد عليها كل المدينة. والعائلات التي تقيم في هذا الحي والتي تدعي هذا الانتماء ترفض، أياً كان حجم النسب، بأن توصف «بالعشيرة»[32] مؤكدة في الوقت نفسه نيتها بأن تبقى على هامش التناقض

---

[32] يطلق على هذه العائلات اسم حموله.

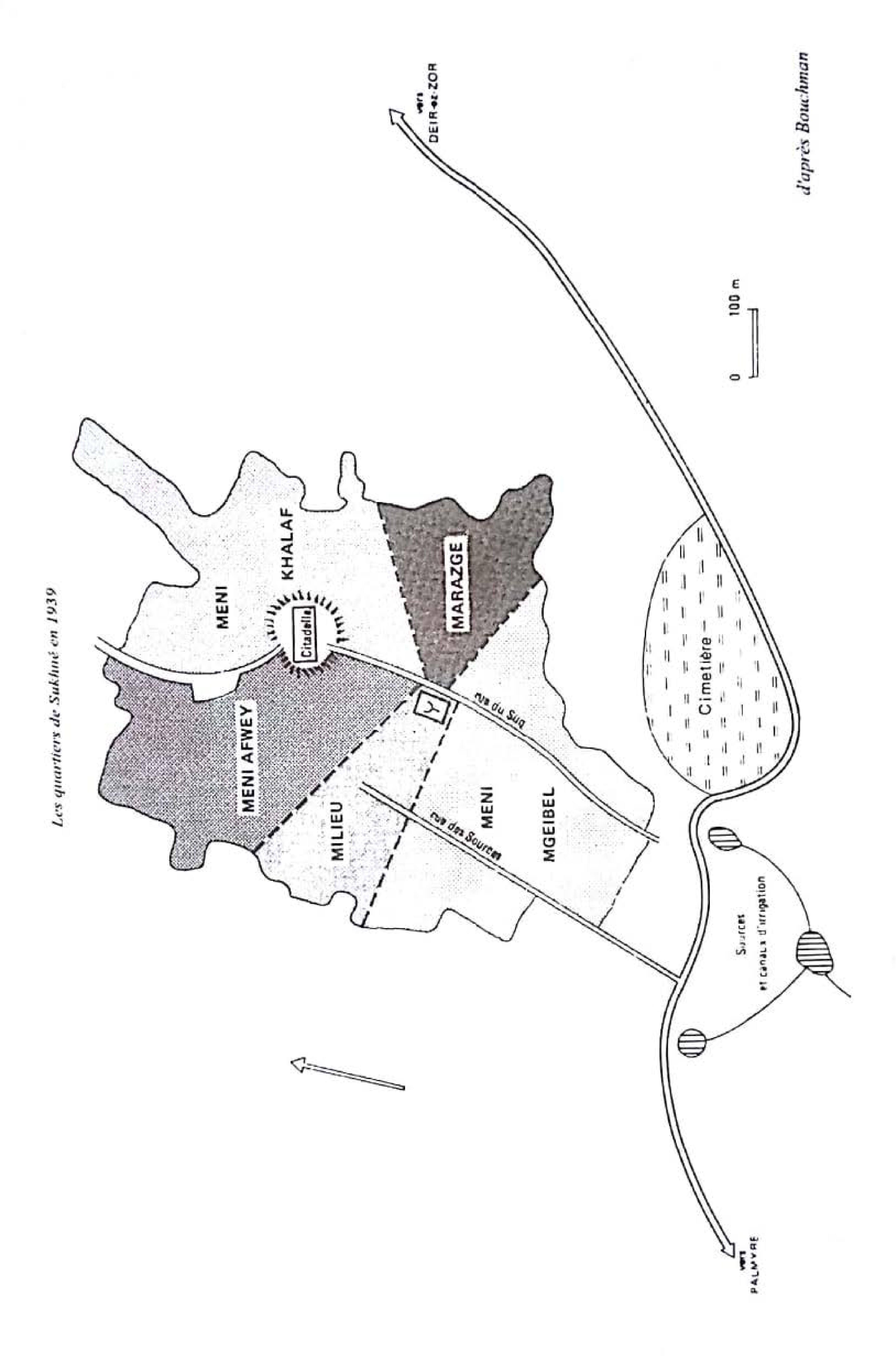
القبلي بين الشمال والجنوب، مثل آل الخطيب، الذين تنافسهم إحداهـــا علـــى أهلية إدارة الأخوية. ومن جهة أخرى، يجمع أهل الوسط الوظائف المرتبطـــة بالمعارف الحديثة، كوظائف التعليـــم، وإدارة المدرســـة الابتدائيـــة، ومديـــر الثانوية، وممرض المستوصف، ومدير السجل المدني، ومهندس وفني شـــركة الكهرباء، إلخ. وهكذا فإن توزيع إضافي للوظائف يعطي إلى كل قطب مـــن هذه الأقطاب تخصصاً وصورة ثقافية تضاف إلى هوية الحي.

فضاء عشائري، فضاء عام؟

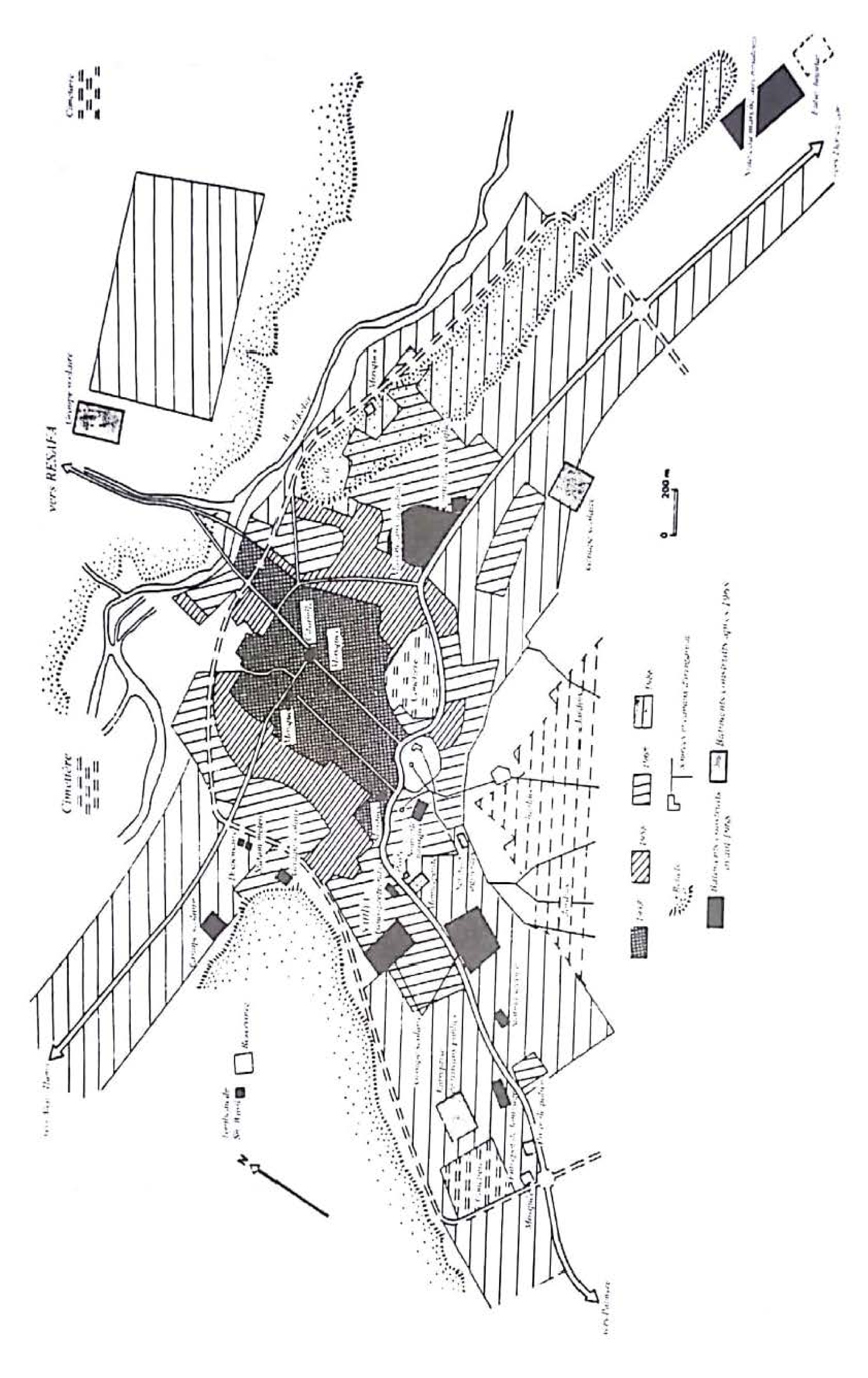
يفرض منطق الانتماءات تعاملاً مختلفاً مع المكـــان داخـــل الأحيـــاء. فالفضاء السكني مقسم بحسب نظام تجزيئي خاص بالبنية القبلية المتكون مـــن تراكب مجموعات من الدرجة الأولى ومجموعات من الدرجة الثانية تتوافـــق روابطهم والإقامة مع شجرة نسب أبوية. إن الحي الذي هو موطن العشـــيرة مقسم بين الفروع أو الأفخاذ وهو أيضاً مقسم إلى فروع أصغر يحمـــل كـــل منها اسم جد من مستوى أخفض وهو بدوره يتكون من سلالة أو حموله تضم أحفاد جد يعود إلى الجيل الخامس. إن موطن هذه الحمـــولات مكـــون مـــن مجموعة من المنازل ومن فناءات مسورة تتصل مع بعضها بعضاً مما يســـمح بحرية الحركة للنساء. تضم الدار عائلة، آخر مستوى من التقسيم، تضم مـــن حول الفناء أجيالاً عديدة، وعادة من 20 إلى 30 فرداً، وتغطي مساحة تـتراوح بين 500 و 1000 م2 الذي يعاد تنظيمه وتقطيعه عند كل زيجة بحسب تطـــور الدورة العائلية، إن أهم الحمولات، حمولات زعماء السلالة، تلك التي تدعـــى الانتماء إلى رتبة معينة، تملك غرفة للضيوف مخصصة للرجـــال (مـــنزول، مضافة) حيث تعقد الاجتماعات والتي تستمد نمط فرشها وديكورها وســـماتها من النموذج البدوي[33].

---

[33] يصفه جان هانوييه J. Hannoyer في مقالته التي كتبها في عام 1987. إنه يبين لنا لعبة السلطة في أماكن الضيافة هذه، والحظوة المرتبطة بالبيوت التي تقدم القهوة، ولكن ليست تماماً «مقاه»، حيث تصان وتتجلى العصبية أثناء الاجتماعات اليومية للمجموعة ذات النسب الواحد، وحيـــث تسوى النزاعات. إن الضيافة الكريمة، التي يقدمها وعدد ونوعية الضيوف الذين يستقبلهم هـــي رموز للمساحة الاجتماعية التي يملكها رب العائلة ولقوة جماعته، وهي تبين وتؤكد مدى نفوذه.



الشكل 2: أحياء السخنة في عام 1939، بحسب بوشمان



الشكل 3: توسع السخنة العمراني

وهكذا نجد أن الفضاء العمراني في المدينة القديمة قد أصبح عشائرياً وما عدا المسجد والساحة والينابيع لا تملك المدينة فضاءً عاماً، بما في ذلك الفضاء السياسي أو القضائي، لا يقع في أرض عشيرة ما، ولا مكاناً للاجتماع إلا ويشكل جزءاً متمماً من وحدة سكنية. الغريب يستطيع دخول السوق في النهار، ولكن إن أراد المبيت في المدينة، عليه أن يكون ضيفاً لبيت ما أو بشكل أدق لرب البيت. فليس باستطاعته الإقامة في المدينة إلا «كدخيل» عند هذا الفريق أو ذاك، الذي يجب أن يعبر عن تضامنه معه. إن دخول المدينة الخاضع إلى النظام القبلي لا يمكن أن يحصل إلا من خلال الاندماج أو التمثيل بالبنية القبلية. وفي غياب المقاهي في المدينة، فالمتاجر هي الأماكن الوحيدة التي يمكن أن تنشأ فيها علاقات اجتماعية أخرى غير القرابة أو العلاقات القبلية، وذلك في ظل علاقات تجارية بعيداً عن مراقبة السلالات القديمة وعن السمة التي تدير جلسات المضافات.

وفي الأثناء يبرز نمط آخر من المضافات، يشبه «صالونات المثقفين» أكثر مما يشبه المضافة، والذي دشنه الطبيب الأول من أبناء المكان. فخارج ساعات السهرات العائلية، ولا سيما في أيام العطل، يجتمع عنده في «ديكور» يفضله جيل من الشباب المتعلم والموظفين المقيمين في المدينة أن يكون حضرياً أكثر، لا سيما في الرقة أثناء زيارتهم لعائلاتهم. فباسم نوعية الناس المتعلمين والخبرة الحضرية المتقاسمة، وباسم طموح للتخلص من الانقسامات القبلية ومن هيمنة التقاليد والقدماء، تدور هنا أيضاً في فلك الخاص، علاقات اجتماعية اعتراضية بالنسبة للانتماءات العائلية أو العشائرية.

استمراريات النظام القبلي

إن التعلق المطالب به صراحة ــ والمخالف كلياً للغة الرسمية لسورية الحالية ــ بالروح وبالنظام وبقانون العشيرة، يتجلى في ميادين مختلفة كالزواج وعادة زواج الأقارب، والقانون وحل النزاعات، والقضايا العقارية وأخيراً في المشاريع العمرانية.

زواج الأقارب

يتجلى النظام القبلي، كما هو الحال لدى البدو، أولاً في رفض الخلط، والانشغال بالمحافظة على صفاء الدم، وذلك من خلال تفضيل حصري للزواج بين الأقارب أو ضمن القبيلة. إن هذا النظام للتحالف الذي يسمى «الزواج العربي»، يوثق العرى العائلية التي تنتمي لجد واحد وذلك بتوحيد ولدي أخوين، أو إبني عم بعيدين أو قريبين: إن ذلك يحدد بهذا الشكل حقل زواج بنات السلالة الواحدة بالأسرة أو بالقبيلة، أي بالنسيب من جهة الأب[34]. إنه يختلف عن نظام التحالفات المعقدة الذي يميز العائلات الحضرية الكبيرة (والذي لاحظناه في مدينة محردة الصغيرة) التي توجد لديها عادة زواج ضمن عائلة الأب، لكنها غير حصرية ولا يمكن فهمها إلا كمظهر لتفضيل عام لزواج مع الأقارب (بحسب نموذج «زواج الأقارب»)، أي في قربى تضم القرابة من جهة النساء. ويتجلى هذا الزواج الحضري (المديني) من خلال تبادل النساء ومن تحالفات تقاطع بين القرابات لعدد من «العائلات» ذات الأصول المتنوعة. وفي الوسط المدروس. نجد أن التقيد الصارم للزواج بين الأقارب أو ضمن العشيرة يضمن المحافظة على النسب بالرغم من التشتت الذي تولده الهجرة. إنه يحافظ ويجدد الروابط بين الفروع المختلفة في الشتات المقيم في المدن. إنه يترجم من خلال حركية مكانية للنساء اللواتي ينتقلن بين الأماكن المختلفة للتوطن العائلي. وهو يفترض مراقبة حازمة للتحالفات من قبل كبار العائلة، نساء ورجال. ويتوافق في الوقت نفسه مع «حق ابن العم» وفي بعض القبائل ذات الخصائص البلدية الواضحة بشكل أكثر. مع عادة تخشاها الفتيات وهي الزواج بالتبادل، «البدل»[35]. والعائلة الوحيدة التي تؤكد اختلافها وخصوصيات وظيفتها،

---

[34] «عندنا، لا نعطي البنات إلى «الغرباء»». هذا ما قالوه لنا بافتخار.

[35] إن هذا الزواج محدد من قبل العرف البدوي، وليس الإسلامي، ينتج عن اتفاق بين رجلين يتبادلان شقيقتاهما أو ابنتيهما. إنهما يتحاشيان بهذا الشكل المهر أو تعويض الزواج الذي يدفعه الرجل لوالد زوجته، ولكنه يفرض في حالة طلاق أو وفاة إحدى المرأتين الشابتين، أي أحد عناصر التبادل، الإنهاء الآلي لزواج الثانية.

على الطريقة الحضرية، هي عائلة آل الخطيب الدينية، وهي الوحيدة التي تزوج بناتها إلى «الغرباء»[36] وتحاول أن تبدي اهتمامها بالمحافظة على علاقات التحالف مع مختلف القبائل[37].

العرف البدوي ومعنى الشرف

إن الميدان الآخر الذي يتجلى فيه النظام العشائري هو التعلق بالعرف. فالعصبية تتطلب معنى دقيقاً للشرف. شرف العائلة، شرف القبيلة، المتعلق باسم الجد هو رأسمال رمزي لا يتجزأ. وهذا يعني أن كل أزمة. حتى الناتجة عن أفعال فردية، يمكن أن تضع على المحك شرف المجموعة، وبالتالي فالأعضاء كلهم متضامنون ومسؤولون بشكل جماعي. كذلك، إن كان في النزاعات التجارية أو في المسائل الجزائية، فإن الحل الوحيد الذي يبدو مقبولاً لدى أهل المدينة هو ذاك الذي يلقى قبول الطرفين، بعد التحكيم والتفاوض على تعويض (دية) يُقدر بحسب مبادئ العرف البدوي[38]. يبدو الفرد، في هذا العرف الذي يقبل المسؤولية الجماعية، دوماً كعضو من مجموعة وهدف الحل هو إقامة التوازن بين المجموعات. ويتدخل قضاء الدولة (القانون المدني الذي ينطبق على المواطنين ويعمل على نظام المسؤولية الفردية) بالتأكيد في حالة الجريمة والجنحة عندما يكون مطلعاً على القضية، لكن عقوباته (غرامة، سجن) لا تطفئ الصراعات (لا تخرس البنادق)، ولا تحل النزاعات إن لم تحل من الأعلى أو على التوازي بالاتفاق مع رجال القبيلة وبحسب العرف. الذين يحترمون قواعد الشرف.

---

[36] لكن الغريبات القليلات اللواتي يدخلن هكذا إلى القبيلة يبقين على هامش العلاقات الاجتماعية النسوية والهامة جداً، فهن لا يستطعن استقبال أهلهن المقيمين في «الخارج»، حتى على بعد شارعين، وبما أنهن لا يملكن «بنات عم» في إطار العائلة فلا تزورهن نساء عائلة أزواجهن. «غريبات» يعني أيضاً «معزولات». إنه مصير قلة من النساء.

[37] إنهم إذاً «الأخوال» المتحالفون من خلال النساء المنتميات لمجموعات قبلية مختلفة.

[38] انظر حول العرف البدوي دراسة أ. جوسين A. Jauseen، (1908) 1948.

المسألة العقارية

إن المجال الآخر الذي يتواجه فيه النظام القبلي مع قوانين الدولة هو المجال العقاري. ففي فترات التوسع والتي تصبح المسألة العقارية قضية هامة. وعلى خلاف الفضاء العمراني للمركز القديم والبساتين المملوكة، فإن أراضي البادية تعود لأملاك الدولة. ويعتبر محيط القرية كأرض للبلدية ومحفوظة لاستعمال سكانها. وهناك إجراءات قيد التنفيذ من أجل الخروج من المشاع وفرز مناطق البناء وتوزيع الأراضي. والسكان راغبون بأن يتم هذا التقسيم وأن يسمح لهم بالحصول على سندات الملكية، ولكنهم يرفضون توزيعاً لا يتم بحسب مبادئ القانون القبلي، ويطالبون بتحول يحافظ على العلاقة بين البنية القبلية والبنية المكانية. وهذا يفترض تقسيماً بين المجموعات والعائلات والسلالات، تقسيماً يحترم النسب، وانتقال حصري بين الأنساب من جهة الأب، مخالف للشرع الإسلامي الذي يحسبه للبنات الحق بنصف حصة الذكر، أو للقانون المدني الذي يساوي بين الجنسين. إن هذا القلق المتعلق بالمحافظة على علاقة وثيقة بين البنية الاجتماعية والتوزيع المكاني يهدف إلى المحافظة على استقلالية الفضاءات القبلية في المدينة وإلى عدم تغيير العلاقة بين الجنسين[39].

المشروع العمراني

أخيراً تتجلى الروح القبلية في المعوقات التي تعترض كل مشروع عمراني تقترحه البلدية. إن حجر عثرة العشائرية والازدواجية في إدارة المدينة هي في الواقع إنجاز المشاريع التي تهم كامل المدينة، كالارتباط بالطريق العام أو شبكة الصرف الصحي وتفترض بالتالي موافقة الطرفين المتنافسين فكل مشروع يبادر به طرف (أو شخص ينتمي لأحد الطرفين) يرفض من الطرف الأخر وكأنه سيقوي خصمه وبالتالي إنهاء مبدأ

---

[39] وهكذا تعليم الفتيات مرفوضاً كلياً لزمن طويل، وفقط بعد التهديد الفعلي بغرامات كبيرة خضع الآباء لقاعدة التعليم الإلزامي لبناتهم اللواتي يتمإخراجهن من المدرسة عند أقل فرصة بمجرد ما أن يعرفن القراءة والكتابة.

المساواة[40]. إن رئيس البلدية المطلوب منه إنجاز المشاريع التنظيمية الموضوعة من قبل الحكومة (المخططات العمرانية موضوعة من قبل مهندسي وزارة الإدارة المحلية) لا يملك الشرعية التي يمنحها له موقف حيادي. فهو مشتبه به دوماً خطأ أو (وغالباً) صواباً بأنه يستغل علاقاته مع الدولة من أجل مصلحته أو لمصلحة جماعته.

يبدو أن التنافس على الشرف بين القبائل. وبين نصفي المدينة، غير متوافق مع مفهومي «المصلحة العامة» و«الملكية العامة» (والحالة هذه مصلحة المدينة)[41]. اللذين يمكن أن يتجاوزا المصالح الطائفية.

إن التوسع والتنظيم العمراني، في هذه المدينة الصغيرة، بعيد وبشكل متناقض عن أن يقود إلى حل القبيلة، وعلى العكس من ذلك فهو يحمي بلا توقف المسألة القبلية.

مدينة البادية، العشيرة في المدينة: المدينة والعشائرية

إذن كيف يمكن هنا حل المفارقة بين المدينية (التحضر) والقبلية أو بشكل أكثر دقة، أي بشكل تأخذه المدينية الخاصة بهذا النمط من المدن؟ أين المدينة، وأين الدولة؟

المدينة؟ إجابة البدوي

«إنهم ليسوا من أصل واحد». بهذه الجملة القاطعة لخص لنا شيخ بدوي نظرته إلى السخاخنة وإلى ما يميز البلدة والمدينة، موضحاً الاختلاف عن

---

[40] نستند هنا إلى قواعد «لعبة الشرف» كما قدمها ب. بورديو B. Bourdieu، 1973.

[41] شرح لنا المهندسون العاملين في الشركة التي تبني الطريق، بأنه لهذا السبب يمر الطريق العريض على بعد يزيد على 1 كم عن التجمع السكاني، في حين أنها اقترحت في عام 1980 أن تنفذ الوصلة مجاناً، وفي عام 1988 لم تكن عملية تحجير وتعبيد الفرعين الواصلين بالطريق العام قد أنجزت بعد، وقد تحولت أرضيات الطريق إلى حفر وأخاديد بسبب الشاحنات. وقد أوقفت المعارضة نفسها وحتى منعت لعدة سنوات إنجاز شبكة الصرف الصحي، فلم يكن أي حي يوافق على أن تبدأ الأعمال في حي آخر.

قرى المستقرين من البدو. إن المدينة هي مكـــان المــزج أو علـــى الأقــل التعايش، ففي المكان الذي يولد فيه الأحفاد تولد قبائل هؤلاء المستقرين وليس العكس. وخلافاً لواحات أخرى في الجزيرة العربية، تل هيل[42]، المعروفة لنـــا جيداً والتي يقوم بوشمان بإجراء مقارنات متكررة معها، لا تعتـــبر الســخنة إقطاعة لقبيلة واحدة. وهي أيضاً ليست المدينة الصحراوية التقليديـــة حيــث يدافع المستقرون عن مياههم وأملاكهم من خلف أسوار متينة أو قلعة. إنـــها تبدو كمدينة مفتوحة بلا أبواب وبلا أسوار. وتحكى أسطورة تأسيس المدينة[43] عن صراع دموي بين المستقرين، أصحاب النبع، الذين تحصنوا في القلعـــة، والرعاة الرحل القادمين من الخارج والمطالبين بحريـــة الوصــول للميـــاه. وكانت نتيجة الصراع هزيمة المستقرين وتقسيم المياه، واستقرار الرحل فـــي المكان وأخيراً تعايش المجموعتين، الموافق عليه والممهور بالتحالف. وقــــد فتح تهديم القلعة التي كانت تأوي المستوطنين القدمـــاء، الطريـــق للآخريـــن للوصول إلى الموارد وإلى الأرض والذي أسس الحق بالمدينة. إن الشـــوخ ــ المتوافق مع ثنائية الأصل، رحل ومستقرين، المعـــبر عنـــه بالأســـطورة أو بالتقسيم القديم للقبائل بين قيس ويمن، قبائل الشمال وقبـــائل الجنـــوب، التـــي كانت الحدود بين أراضيهم تقع شمال المدينة[44] ــ مازال مستمراً كما يبـــدو. إنه يترجم في ثنائية التنظيم السياسي.

وجهة نظر مدير الناحية

«لدينا عمل قليل وقليل جداً من الجنح لأن التعصب يسود هنا»

مع شيء من المزاح والتجرد، يعبر الضابط المسؤول، باســـم الدولـــة، عن المحافظة على النظام والإدارة في مديريته (مدير الناحية)، بهذا الشـــكل عن مختلف مظاهر «التعصب»: تنافس، صراع طائفي ونظام قبلي. إنه يشدد

---

[42] حول واحة هيل، انظر من بيـــن أخـــرى، دراســـات ر. مونتـــايني R. Montagne، 1932 ونصوص الرحالة التي جمعها ب. وارد P. Ward، 1983.

[43] تشبه حكاية نسمعها في واحات مختلفة في جنوب الجزيرة العربية.

[44] S.Calley. 1985. «Le passé d' el-Kowm-Taibé aux XVI. XVIII siècles d'après les obsérvations des voyageurs européens». *Cahiers de l'Euphrate n 4*, p. 213-223.

على قوة وفعالية السيطرة الاجتماعية التي تفرضها القبيلة، وقوة الردع التي يمثلها تهديد النزاعات القبلية المفتوحة. وهو يشير أخيراً إلى المسافة التي تبقى عليها الدولة. لقد رأينا كيف أن أسطورة التأسيس التي تبرز ثنائية الأصول، تعبّر من جانب آخر عن مبدأ التعايش. وهذا يفترض في داخل المكان المقسم الاتفاق على أشكال من الكياسة والتهذيب، والموافقة على نظام وأسس للسلوك، تنظيم العلاقات بين السكان. إننا في البادية، وتوجد الإيديولوجية «البدوية» في الحاضرة، كلها مثل «الروح القبلية». إن العرف قانون البدو، النمط البدوي للعلاقات، هو الذي يعتمد كمرجع ويتلقى موافقة مختلف الجماعات لأنه مطابق لفكرة الشرف.

وهكذا فإن النظام في المدينة مؤمن بفضل الرقابة التي تمارسها كل مجموعة عائلية، ونسبية، وقبلية على أعضائها، ذلك لأن العصبية والتضامن القبلي والمسؤولية الجماعية التي تملكها، تضم في داخلها قوة رادعة بسبب النتائج والأبعاد التي يمكن أن تأخذها الصراعات التي تؤدي إليها الأعمال الفردية، عندما تكون النزاعات أو الصراعات متعلقة بأشخاص ينتمون إلى مجموعات قبلية مختلفة، يتم اللجوء إلى تحكيم ثلاثة من العارفين «الوسطاء» (المصلحين) من المدينة. هؤلاء العارفون ليسوا شيوخ قبائل أو زعماء دينيين، إنهم شخصيات رزينة ينتمون بالتأكيد إلى أقطاب المدينة الثلاثة، الأول في الشمال والثاني في الجنوب والثالث في الوسط، ولكن ليس بالضرورة إلى عائلات مسيطرة، والمعترف بهم والمختارين بسبب أخلاقهم الفضيلة، ولكفاءتهم بالعرف ومهارتهم في فن المصالحة. إن هؤلاء الوسطاء هم أيضاً المفاوضون غالباً، وممثلو العدالة المدنية لدى أهلهم.

الدولة حاضرة بالتأكيد، من خلال شرطتها، ومدير ناحيتها وقضائها، وقاضي المحكمة الذي يأتي من تدمر مرتين في الأسبوع. وتتطابق أو تتجاور عدالته مع عدالة القبائل. وتترجم بالتسجيل الرسمي للقراءات ولتسويات القضايا التي تمت معالجتها، في الأعلى عبر التحكيم العرفي.

تقيم الدولة الحد (الجرائم من اختصاصها)، وتمارس عقوباتها الخاصة ولكنها لا تتخلى عن التسويات العرفية. فالمواطنون الذين مارسوا العدالة

محلياً يعرفون أو تعلموا في عملهم احترام الآلية المحلية لتسيير الشؤون، طالما أنها عملية وفعالة للمحافظة على النظام ولا تتناقض مع القواعد العامة للقانون المدني. وهكذا يتم عملياً تمفصل بل حتى تناغم بين عدالتين وبين قانونين. فالنظام في المدينة يعتمد جزئياً على التحكيم وعلى احترام الذين يفوزون بنجاحهم في تسوية القضايا وقدرتهم على تأدية دورهم.

ومن خلال العرافين الثلاثة يتأكد على هذا النحو فكرة منفردة عن المدينة، القادرة على أن تنظم بنفسها نوعاً من التعايش ونوعاً من استقلالية المجموعات القبلية، شكل خاص للعيش المشترك.

بوشمان: «مستقرون ورعون»

يتوازى الاهتمام بالتجارة مع قوة الشعور الديني لدى سكان المدينة الصغيرة. فالهوية والتضامن القبليان لا يبدوان متناقضين مع الانتماء الأخوي الذي يقدم فضاء مستعرضاً ويبدو أنه قد عرف تجدداً في حيويته، لقد رأينا كيف تتضح وظيفة الوساطة، حيث تمارس عائلات أو تطالب بدور ديني، ويضعون أنفسهم في موضع الحياد بالنسبة للتنافس القبلي[45]. لقد رأينا أن هذه الوظيفة قد تنوعت مع تحديث المدينة وتطوير الخدمات التي تستدعي كفاءات فكرية أو تقنية. لا تمارس هذه الوظيفة في المدينة فقط، وإنما تمارس أيضاً في الأحياء العمرانية المختلفة في الرقة وحلب وحماه وقديماً في دمشق والتي جمعت المهاجرين بحسب المدينة التي ينتسبون إليها. ذلك لأنه في كل حي من هذه الأحياء تأسس جامع أو زاوية للأخوية التي يديرها فرع مهاجر من العائلة نفسها. إن أماكن الاختلاط الاجتماعي هذه والضيافة تقدم لرجال الأعمال المتنقلين المعلومات وإمكانية الاقتراض، والدعم بالثقة التي يحتاجونها. وهم أيضاً الحوامل لشبكة أخوية تتقاطع مع الشبكات العائلية أو تضاعفها. لقد رأينا العقبات التي تعرقل إنجاز المشاريع العمرانية العامة[46]

---

[45] لقد حاولت الدولة في لحظة ما أن تأسس هذا الموقف الحيادي لكي تزرع حزب البعث وذلك بتسمية إمام الجامع رئيساً لشعبة الحزب الذي كان أيضاً مدير المدرسة القرآنية والمعلم الأول.

[46] تحليل يعتمد على مناقشات تمت خلال عامي 1988 و 1987 مع المهندسين العاملين في الشركة المسؤولة عن الأشغال وفي البلدية.

والتي تفسر العثرات ومدة هذه الفترة الانتقالية. فليس تحت غطاء البلدية، ولكن تحت المظهر الخيري الذي يديره الدين، استطاعت المدينة كما يبدو تكوين مشروعٍ للمصلحة العامة. فبحسب المفردات الدينية وباستعارة نماذج مؤسسة الوقف الخيرية، المميزة للأدوات التقليدية للعمران في المدن الشرقية (الإسلامية). استطاع أعيان، من بينهم شخصيات مثل العرافين الثلاثة، في عام 1988 أن يوجهوا الفائض المتولد عن سنة خيرة استثنائية وأن يطلقوا مشروع المشفى والمركز التجاري وبعض المتاجر بالقرب من المسجد. يبدو أنه لا يمكن للمصلحة العامة أن يعترف بها إلا عندما يتكون المشروع المندرج في المدينة باسم نظام سامٍ[47]، ذي انتماء عام للأمة.

وفي الختام، وخلافاً مع وادي العاصي حيث تتكون المدينة انطلاقاً من قرية فلاحين والمدينية بتجاوز التعصب، لدينا هنا مدينة تجارية صغيرة تعيش من الحركات في البادية، ومن وظائف الوساطة بين الرعاة الرحل ومدن الداخل. وسكانها الذين تدفعهم الموارد غير المستقرة إلى الحركة الدائمة، يمارسون نشاطات تقودهم إلى خارج ديارهم. ويبدو التنظيم العمراني بنظرهم أقل أهمية من تشكيل وتقوية شبكات اجتماعية تعتبر في الخارج، الحامل لنشاطاتهم المتعددة وكضمان لتقلبات ظروف المعيشة في البادية.

يبدو أن الهويات القبلية والعصبيات والتنافسات على المجد التي تثيرها، قد أدت في هذه المدينة إلى «نسيان المدينة»[48]. ومع ذلك فإن سكانها يحملون في الخارج هوية حضرية، نسبة خاصة ومعلنة بقوة يربطونها بمدينتهم الأصلية. وتذكر هذه الهوية بمدينية تدمج في ممارستهم للتجارة ونمط عيشهم المشترك، تدمج علامة البادية والقيم البدوية (التضامن، الإباء، الكرم) بالقيم والممارسات الدينية الأكثر مدينية.

---

[47] نجد ثانية هنا العلاقة بين النظام التجزيئي للقبائل والنظام الديني، القائمة ضمن مدينة الصحراء الصغيرة، والتي يصفها الأنتروبولوجيين الذين قاموا بدراساتهم في المغرب في منطقة الأطلس (إ. جلنر E. Gellner، 1983) وفي منطقة الريف المغربي (ر. جاموس R. Jamous، 1981).

[48] J. Dakhliya, 1990.

BIBLIOGRAPHIE المراجع

BIANQUIS (TH.)

2000 «Mégapoles et réseaux dans le monde musulman médiéval», dir. Nicolet, Mégapoles méditerranéennes, p. 855-885.

BOUCHEMAN (A. DE)

1939 Une petite cité caravanière : Sukhné, I.F.D., Damas.

BOUHDIBA (A.)

1973 «Bédouinisme et beldisme», A la recherche des normes perdues, Maison tunisienne de l'édition, Tunis

BOURDIEU (P.)

1973 «Le sens de l'honneur», Esquisse pour une théorie de la pratique. Trois essais d'ethnologie kabyle. Droz.

DAKHLIYA (J.)

1990 L'oubli de la cité. La mémoire collective à l'épreuve du lignage dans le Jerid tunisien, La Découverte.

CALLEY (S.)

1985 «La passe d'el-Kowm-taïbé aux XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles d'après les observations des voyageurs européens», Cahiers de l ' Euphrate n° 4, éd. Rrcherche sur les Civilisations, Paris, p. 213-223.

GELLNER (E.)

1983 «Saints of thé Atlas», Muslim society.

HANNOYER (J.)

1989 «L'hospitalité, économie de la violence», Maghreb-Machrek. Espaces et sociétés dumonde arabe, 123, p. 226-240.

IBN KHALDOUN

1968 Discours sur l'histoire universelle ; al-Mitqaddima, traduction de V. Monteil, Sindbad

JAMOUS (R.)

1981 Honneur et Baraka, les structures sociales traditionnelles dans le Rifmarocain, Maison des Sciences de l'Homme.

JAUSSEN (A.)

(1908) 1948 Coutumes des Arabes au pays de Moab, Maisonneuve et Larose, Paris.

LEWIS (N.)

1991 «Taïbé and El-Kowm, 1600-1980», Cahier de l'Euphrate, n° 5-6, éd. Rrcherche sur les Civilisations, paris.

MÉTRAL (F.)

1993 «élevage et agriculture dans la Palmyrène : gestion des risques par les commerçants-entrepreneurs, l'oasis de Sukhné», Bocco R., Jaubert R., Métral F., Steppes d'Arables. états, pasteurs, agriculteurs et commerçants : le devenir des zones sèches, PUF, p. 195-223.

1996 «Du commerce itinérant à l'import-export : le commerce des produits pastoraux au Proche-Orient», Métral(F.) et Yon (M.) éd., Chypre hier et aujourd'hui entre Orient et Occident. échanges et interrelations en Méditerranée orientale, T.M.O. n° 25, Maison de l'Orient, Lyon, p. 75-91.

1999 «Echelles et temporalités dans la recomposition des territoires d'une petite ville de la steppe syrienne », L'Astrolabe, n° 2.

MÉTRAL (F.) ET MÉTRAL (J.)

1986 «Du village à la ville, urbanisation et citadinité en Syrie centrale», Petites villes et villes moyennes dans le Monde arabe, URBAMA, Tours, 17, p. 451-470.

MÉTRAL (J.)

1993 «Dans les steppes de la Palmyrène, nomadisme et mobilités au Proche-Orient», in «Mobilités», Annales de la recherche urbaine, 59-60, p. 90-99.

1995 «L'émergence des petites villes dans la moyenne vallée de l'Oronte, Syrie centrale», Citadins, villes, urbanisation dans le monde arabe aujourd'hui, URBAMA, Tours, hors série, p. 115-125.

MONTAGNE (R.)

1932 La civilisation du désert, Hachette, Paris.

TRABOULSI (M.)

1991 «La variabilité des précipitations dans le désert syrien», Méditerranée 4, p. 47-54.

WARD (P.)

1983 Hail, oasis city ofSaudi Arabia, Oleander Press, Cambridge.

حضور الماضي: تكوين التراث المدني

جان كلود دافيد Jean-Claude David

بيت المشرق المتوسطي

المدينة كيان استثنائي لإنتاج ولتراكم الفضلات: إنها تتجدد بلا توقف وعمليات التهديم والبناء قائمة دوماً فيها. فحتى عهد قريب، كانت مخلفات التهديم ومختلف النفايات تبقى في مكانها أو ترحل إلى مسافات قريبة: فالتلال الناتجة عن تراكم الأنقاض والقمامة التي كانت تنتصب عند أبواب القاهرة مثال على هذه الظاهرة العامة، وينطبق الأمر نفسه على التلال التي تدل على المواقع الأثرية في الشرق الأوسط. والمفارقة هي أن الأثريين سيكتشفون أن الفضلات المتراكمة هي بمثابة عملية تطورية استثنائية لحفظ المؤشرات والعلامات.

يستدعي رمي البقايا الخيارات: ففي المجتمعات ما قبل الصناعية كان التهديم والحفظ مترافقين بشكل عام. فعمليات الحفظ أو الاستعادة القائمة معقدة ومبررة حسب تنوعها: فإعادة الاستخدام المعمارية هي من بين العمليات المألوفة كثيراً. فالحاجة لإزالة ما هو موجود لكي يقام مكانه شيء آخر، يحمل معاني أخرى، يترافق غالباً مع إرادة الاستعادة أو الحفاظ على العناصر القديمة المنتقاة بحسب أهليتها لدعم وإغناء المدلولات الحاضرة.

ويمكن أن نقول بأن عملية إعادة الاستخدام، هي بكل بساطة استعمال للمواد المتوفرة بتكاليف ضئيلة.

إن الماضي بلا شك قيمة مرجعية عالمية، لكن إنشاء علاقة معه ليس ممارسة موحدة، فالماضي لا يفرض نفسه، فقد اختير تبعاً للأهداف الحالية أو المستقبلية، وهكذا فإن التراث بالمعنى الحديث للمصطلح هو نتاج إعداد

منهجي وواع. فالمؤرخون وعلماء الآثار هم من بين الفاعلين الكثر في عملية بعث الماضي في الحاضر. إن التفكير الأبستيمولوجي حول منهج عالم الآثار أو المؤرخ هو تفكير بالحاضر أكثر منه بالماضي.

يتجلى الماضي عبر تدخل حوامل عديدة من الميادين: التاريخ، الأساطير والمواضيع الأدبية الشفهية أو المكتوبة والأنساب. أو بكل بساطة عُبرذكريات أعيد توضيبها بشكل أو بآخر: المناطق والعمارة، والأشياء، والوظائف والسلوك، والخبرة المهنية والممارسة العملية... ففي مدن الشرق الأوسط الحالية وفي ظرف خاص من التغير العميق، الروحي، الثقافي، التقني والاجتماعي نجد أن الماضي في طور التحول: يمكن للماضي أن يأخذ قيمة كبيرة خصوصاً بسبب رفضه أكثر ما هو بسبب الاعتراف به، فالعلاقات المختلفة مع الماضي قد تمت بفضل تنوع الموروثات مثلما بفضل الأنماط الحالية للإدراك.

ويمكن أن يكون من المفيد إجراء دراسة تاريخية للعلاقات مع الماضي، أو على الأقل تفحص الميزات الحالية وأثناء القرن الأخير من العصر العثماني. إن الحدث الذي يشكل المفصل بين هاتين الفترتين هو بلا ريب تبني المفهوم العصري للتراث، ذي الأصل الغربي. نأمل أن نتمكن من عرض ملاحظتنا عن نظرة سكان المدن الحاليين في بلاد الشام إلى مختلف تجليات الماضي.

العلاقة مع الماضي قبل تدخل مفهوم «التراث»

1 ـ التقليد العربي ـ الإسلامي: الإرث الموصوف، المجرود كحامل لأنساب المدن

هل هناك في التقاليد الشرقية، العربية أو المسلمة، علاقة خاصة بالماضي وبالموروث قبل إدخال المفهوم الحديث للتراث؟

تملك المجتمعات المدينية في الشرق الأوسط بالتأكيد وعياً وانشغالاً بالماضي، فحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت الحياة اليومية والفضاءات

العمرانية والمعمارية تتكون أحياناً من تراكم عناصر قديمة جداً. ففي كل عهود الإسلام، يمكن لهذا الإرث أن يكون موضع المعرفة والتفسير لأدب متخصص، فالمؤرخون والجغرافيون العرب يهتمون بالماضي وبمعالمه.

لقد قدم المقريزي، المؤرخ وكاتب الأخبار (الحوليات) المصري الذي كتب في ظرف الأزمة في نهاية القرن الرابع عشر، كتابه على النحو التالي: «لقد أردت أن استخلص تاريخ كل ما تضمنته مصر من آثار ما زالت قائمة والتي جاءت من أمم مضت ومن أجيال بائدة، وكل ما تزال تقدمه مدينة الفسطاط–مصر من آثار أدى طول الزمن إلى تخريبها كلياً أو شبه كلي». (دونوا، 1992، ص 13). يمكن ذكر العديد من هؤلاء المؤلفين مثل ابن عساكر في القرن الثاني عشر فيما يخص دمشق أو ابن شداد بالنسبة لحلب ولكل بلاد الشام[1]. لقد نشروا بشكل عام كتب السيرة لشخصيات معروفة، من مواليد المدينة المذكورة أو أقاموا فيها. ويُعرِّف تييري بيانكي[2] هذه الكتب على أنها بمثابة «معاجم للسيرة لكل مدينة». بالإضافة إلى ذلك، فإن هؤلاء الكتاب قد نشروا أخباراً ووصفاً إراثياً دقيقاً جداً أحياناً للمدن ولآثارها. وهي في الواقع فنون أدبية مألوفة لا تستدعي بالضرورة ظرفاً عصيباً أو تهديداً للإرث. ويبدو أن المؤلفين قد كانوا مدفوعين بالواجب، أكثر من حنينهم إلى الماضي، لتسجيل التغيرات الإيجابية أو السلبية ولا سيما كل ما يملك الاستمرارية. ويربط تييري بيانكي أهمية السير الذاتية بواجب التحقق من صحة الحديث من خلال سلسلة دقيقة وموثوقة عن المسؤولين عن النقل. ألا تملك المذكرات التاريخية والمعمارية والوضعية هذه الوظيفة كسلسلة حقائق أو لا يمكن اعتبارها «سيراً حقيقية للمدن»؟

---

[1] لقد نشر جان سوفاجيه J. Sauvaget نصوص اثنين من هؤلاء المؤرخين الحلبيين: «اللآلئ المختارة» لابن الشهنة. مواد تفيد في تاريخ مدينة حلب. بيروت، 1933. (المعهد الفرنسي بدمشق). و «كنوز الذهب» للمؤلف سبط بن العجمي. مواد تفيد في تاريخ مدينة حلب الجزء الثاني، بيروت 1950 (المعهد الفرنسي في دمشق). وتحدثت كتب عربية عديدة عن إبن شداد، وكان أحدثها كتاب سامي الدهان، الجزء الثاني، دمشق 1956 ـ 1963، ولقد ترجمه بأكمله إلى الفرنسية أ. م. إده بالنسبة للجزء المتعلق بمنطقة حلب (المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق).

[2] تييري بيانكي. «مدن وأقاليم ومقاطعات في تاريخ سورية الوسيطية»، ضمن هذا الكتاب ص 207.

إن هذه المؤلفات ولا سيما تلك التي تتعرض إلى الوصف العمراني ووصف الآثار تندرج ضمن سلسلة من المؤلفين، المذكورين والمُعلق عليهم والذين نُقحت كتاباتهم بناء على معطيات أحدث[3]. فعرضهم منهجي نوعاً ما والمضمون متقارب بين بعضهم بعضاً بالرغم من الاختلاف في ترتيب المواضيع: فبعد معطيات تاريخية تعود بشكل عام إلى الأصول الخيالية للمدينة، والتسلسل الزمني للأحداث الاستثنائية، تعرض الآثار الهامة وتوصف بشكل سريع نوعاً ما. وبالنسبة للمدارس، فإن المؤلفين يذكرون بعناية فائقة المدرسين الذين قاموا بالتدريس فيها. وكانت التعليقات تتناول المواصفات المعمارية غالباً. وتكون بعض التقديرات إيجابية جداً وأحياناً سلبية أو لا مبالية. فعلى سبيل المثال، نجد أن مذكرات ابن العجمي التاريخية بخصوص إحدى أكبر المدارس الأيوبية في حلب غنية بالمديح: «إنها مدرسة على قدر كبير من الأهمية [...] إنها جميلة وجيدة، عالية، ذات بناء جميل وصناعة حسنة وبوابتها فريدة من نوعها، وإيوانها لا مثيل له. ومحرابها رائع، وبلاطها متين، وبركة الوضوء فيها هي من إحدى عجائب الدنيا [...]. ولقد سقط فيها ناس كثر لكن دون أن يغرقوا [...]. وقد ألقى المغول فيها مدير المدرسة[4]». وهناك بعض المعلومات المعمارية والتقنية التي يمكن أن تكون دقيقة جداً.

يذكر هؤلاء المؤلفون المسلمون مدينة الإسلام بشكل أساسي[5]: فالآثار السابقة للإسلام يمكن أن تذكر في فصل خاص، في بداية الكتاب تحت عنوان «الطلاسم والأماكن العجيبة». أما تلك الموجودة في الفضاء العمراني فهي تذكر خارج النص بشكل عام ، معزولة وغريبة أحياناً. وغالباً ما تترجم النصوص الإغريقية والعبرية وغيرها مع فهم سيء لها أحياناً. وهي تشكل

---

[3] إنها مذكورة غالباً في الهامش ومكملة دوماً بأسماء أصحابها المتتابعين، الذين هم من العلماء غالباً.

[4] Sauvaget. 1950. p. 74.

[5] إن تحليل العلاقة بين الانتماءات الطائفية وتعريف المدينة يمكن أن يعمق من خلال التعرض لدراسة النصوص كتاب الحوليات المسيحيين أو اليهود، إن وجدت. إن المدينة ككيان لا يمكن اعتبارها إسلامية مادام أن غير المسلمين كانوا يهتمون، قبل القرن التاسع عشر، بشكل عام بطائفتهم الخاصة وبفضاءاتهم العمرانية الطائفية المحصورة ضمن الحي أي في البيت، وسلالاتهم، متجاهلين الفضاء العام والإدراك الشمولي للمدينة.

جزءاً من المصادر التي تسمح بذكر العمق التاريخي الأسطوري إلى حد ما، والعودة بها أحياناً إلى العهد الذي تأسست فيه المدينة.

هل الآثار والأشياء القديمة الأخرى المتفق على جمالها أو الجليلة، تتلقى عناية خاصة، وتحمى أو تحفظ بسبب خصائصها الجمالية والتاريخية والرمزية أو المتعلقة بالهوية؟ ويمكن أن يعبر المؤلفون عن الأسف بشأن اختفاء أثر هام، وعن تمنياتهم بالترميم أو إعادة البناء، لكن الدوافع ترتبط غالباً بالخاصية النفعية والدينية أو الخيرية للأثر أكثر مما هي الحال بالنسبة للقيمة الجمالية للمبنى. ويذكر المؤرخون القدماء وكذلك الرواية أشياء أو آثاراً، خصوصاً المحاريب أو المنابر الـ «جميلة جداً» التي احترمتها جيوش الغزاة كالمغول على سبيل المثال. وغالباً ما كانت تنقل إطارات مصاريع الأبواب، والرخام، من موقع إلى آخر، وأحياناً إلى أماكن بعيدة لكي يعاد استخدامها[6]. إن كانت أشياء كهذه قد حُفظت فالقِدَم، مع بعض الاستثناء، ليس عاملاً مميزاً وحاسماً، وإنما هي نوعية العمل، والقيمة الجمالية، وكذلك الأصل وكذلك طالب الشيء...

يتجلى الإسلام في طرق البناء، وفي تنظيم ومراقبة الفضاء العمراني. فالأوقاف عبارة عن مؤسسة من أهدافها إدارة الأعمال والحفاظ على الأبنية والأشياء الأخرى، وغالباً ما تكون بيوت الآجار قد جاءت من هبات دينية: فنادراً ما تكون المحافظة على البناء مدفوعة بنوع من الاحترام لإنجازات الماضي كشاهد ثقافي، وإنما لأسباب عملية واقتصادية: فعلى بيوت الآجار أن تنتج المال لصيانتها ولتحسين أداء الأعمال الخيرية والدينية. هذا الإجراء يساهم في حفظ المظاهر المعمارية والأشكال العمرانية ويشجع على نوع من الثبات في الملكية العقارية، ولكن لا يمكن اعتباره كحماية للتراث، في المعنى الذي نفهمه حالياً.

---

[6] يمكن أن نذكر من بين أشياء أخرى كثيرة محفوظة وأعيد استخدامها، وسيكون من المفيد القيام بجرد أكثر فهي: مصراعي باب قلعة الرحبة ــ الميادين الضخم، صيوان المدرسة الصفهية في حلب في القرن الخامس عشر، المستخدم من بناء أقدم منهار (سوفاجيه، اللآلــئ، ص. 174)، والتيجان التي ربما تكون من أصل قديم، ومحراب جامع أصلان داوا في حلب، الذي جيء به من المدرسة الأيوبية الواقعة خارج الأسوار.

ففي الواقع، يبدو أن التراث، في مدن الشرق الأوسط الإسلامية قبل القرن التاسع عشر، مكون بشكل خاص من حوادث وأفعال أشخاص أو جماعات، تعبر عنها العمارة والأشكال العمرانية المحفوظة أو المذكورة لدى المؤرخين وكتّاب الأخبار. إن العمارة والفضاء العمراني ليسا بالضرورة مدروسين بشكل عميق، وهما شاهدان على لحظة من سير الأحداث أو ربما الديمومة. وخصائصهما الجمالية عبارة عن معنى إضافي مكرس لهذه الشهادة. يبدو إذن أن المنهج الأساسي هو أيضاً تكوين لسلسلة مستمرة من الدلائل المادية العائدة لإقليم لاعتماد نسب المدينة.

إن النسب صفة للعلاقة التي يمكن أن تعبر عن الأصل ويرتبط غالباً باسم المدينة. إن أهمية النسب للمدينة في تكوين أسماء الأشخاص يعبر عن الرغبة بتثبيت الهوية المدينية أكثر من تأكيده على الانتماء القبلي أو العائلي[7]. وهذا يعني بالنسبة للفرد التأكيد أنه حضري، ويعني بالنسبة للمدينة، التأكيد بواسطة النسب لقدمها الثابت. إن ذكر الآثار الموروثة هو إحدى الوسائل لتأسيس هذا القِدَمْ وهذه الاستمرارية[8].

إن الدوافع التراثية بالمعنى الحديث للكلمة لم تكن إذن جزءاً من التقاليد العمرانية الشرقية، وكذلك الأمر في المدن الأوربية قبل نهاية القرن الثامن عشر، أو في أماكن ثقافية أخرى. كما أن مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الشاهدة، والمحفوظة بعناية، المنسوخة والتي اكملتها الأجيال اللاحقة، ونقلها سلسلة من المؤلفين، ألا تشكل تراثاً أيضاً أكثر من غيرها من الأشياء المادية المذكورة؟

---

[7] نلاحظ أنه إن كان من المهم التعبير عن مرجع للمدينة ذات الأصل، فإن هذا المرجع يفتح الإمكانيات لأن يكون المرء مدينياً (حضريا) في كل مكان: الأعيان الحلبيون في القرن السابع عشر على سبيل المثال، يطالبون بشكل عام بأصل بعيد أجنبي في الموصل، بغداد، البصرة، ماردين، القدس أو دمشق وأن يصبح مدينياً في حلب عندما يستقر فيها، طالما أنه مديني في كل المدن.

[8] يمكن العودة إلى هذه النقطة حول أهمية أساطير التأسيس المذكورة لدى جان شارل بالتي، في بحثه عن المدن الهلنستية الجديدة: «لم يعد يهمل اليوم، وإنما على العكس من ذلك، القيمة الانتمائية لهذه الحكايات التي كانت وظيفتها الأساسية هي إزالة البربرية عن المدن الجديدة، وتأكيد ولادتها الطيبة...».

2 ـ إعادة الاستخدام: من الهدم التخريبي إلى إعادة الاستعمال الهادفة

جبهات مثلثة وأعمدة أثرية تبرز في السماء عبر فتحات غطاء أسـواق دمشق المقبية، وقطع أعمدة وتيجان تستخدم كمقـاعد أو كقواعـد لأصـص الورد، مساكن أنشئت في جدران منازل تعـود للقـرن الخـامس والسـادس الميلادي، أعمدة وتيجان كورنثية أعيد استعمالها في قاعة الصلاة في جـامع الأمويين في دمشق: كيف يمكن ألا نطرح السـؤال عـن أصولـها وعـن الإحساس تجاه هذه الآثار العظيمة الحاضرة في المشـهد العمرانـي أو فـي الريف[9]، في كل مكان تقريباً من الشرق الأوسط؟

فمنذ بدايات الظاهرة العمرانية، هجرت العديد من المواقع لفترات طويلة أحياناً وذلك قبل أن تعود إليها الحياة من جديد: يمكن أن نذكر هنا إعادة البناء التي تمت في القرن التاسع عشر لمدن بصرى، سلمية، خناصر، الرقة ومواقع عديدة أخرى، وذلك لتستقبل هجرات الدروز والشركس، أو اسـتقرار البـدو الرحل أو بكل بساطة لتلبية حاجات الضغط السكاني المتزايد[10].

وفي المقابل، فإن دمشق وحلب ومدناً كبيرة أخرى بالتأكيد، قد سـكنت باستمرار تقريباً طوال أربعة أو خمسة آلاف سنة، هذا إذا اسـتثنينا بعـض الفترات القصيرة من هجرة المدينة إثر أزمات حادة، أو دمار بسبب الـزلازل، واحتلال مع نهب وحرائق ومذابح للسكان. ولقد حصلت عمليات خاصة فـي عهود مختلفة للتخلي عن المدينة جزئياً ولإعادة الاستعمال التدريجي للأبنيـة مع تشكل مناطق عمرانية خالية في تلك المواقع المشـغولة دومـاً. وتتجلـى التغيرات من هذا النمط بشكل خاص في الفترة المحصورة بين نهاية الوثنيـة الرومانية وتأسيس الإسلام (بين القرنين الرابع والسابع الميلاديـين). تتمـيز هذه الفترة الطويلة مـن التحـولات بتـلازم الاضطرابـات العميقـة مـع استمراريات متينة وأشكال من التطور البطيء: ازدهار الاقتصـاد، ديناميـة

---

[9] إن تكرار اسم خراب في أسماء التجمعات السكانية هو تعبير عـن كـثرة المواقـع القديمـة المهجورة والشعور بأنها تمثل مرتبة خاصة مختلفة قليلاً.

[10] هناك بعض المواقع التي سكنها بشكل مستمر، ولكن بكثافة مختلفة، أنصاف الرحل وذلك فـي الهضبة البازلتية الجنوبية في اللجا وحوران وفي مواقع عديدة من منطقة هامش البادية.

ديموغرافية قوية ونمو شبه عام للمدن، التي بإمكانها أن تخفي عمق هذه الاضطرابات في الحياة اليومية. مع التخلي عن المعابد ثم المسارح والحمامات الضخمة، عادت فضاءات عمرانية مهدمة جزئياً إلى الاستخدام بسرعة وظلت حاضرة بكل ثقلها[11]: يمكن أن نميِّز هذه الفترة بالعجز عن محو الماضي المعماري المربك جداً وبتقليص متوسط حجم المواد والفضاءات العمرانية[12].

إن الأشكال وأسباب إعادة استخدام المواد القديمة تكون متنوعة بحسب الظروف: إن وعي ماضي هذه المواد، ومعرفته والاعتراف به كمرجع هي أمور متغيرة. فدوافع اختيار العناصر المحفوظة يمكن أن تكون ذات طبيعة تقنية ووظيفية فقط. هل يدخل في هذه الخيارات شيء من الإعجاب والمتعة، وإدراك الخصائص الجمالية، واعتراف فردي أو جماعي بعلامات الإنتماء أو برموز القوة؟ إن هذه الأشكال الخاصة للعلاقة مع الماضي يجب أن تذكر هنا كتجليات للعلاقات مع الإرث بإمكانها أن تستوعب جزءاً من الوعي التراثي. إن النظرة على الآثار المعمارية والفضاءات العمرانية القديمة التي ما زالت تشاهد وربما العلاقة التقنية والوظيفية بين البقايا المعمارية والاستخدام الجديد للفضاء العمراني، يمكن أن تكون معبرة عن الاستمرارية أو الانقطاع.

وهكذا يمكن أن نصنف إعادة الاستخدام إلى مستويات من الاندماج، في الاستخدامات الصغيرة، وحتى إعادة الاستخدام الكاملة في مشروع متكامل. ففي بعض الحالات، تستعمل المواد كعناصر جديدة ويكون البناء القديم بمثابة مقلع: فواجهة الحجارة المنقوشة تختفي داخل الجدران، ويعاد تشذيب الوجه المرئي ليتلاءم مع الوظيفة الجديدة. ويمكن أن تكون إعادة الاستخدام مباشرة نسبياً وتبقى القطع المزخرفة، المنقولة أو غير المنقولة، مرئية وبوضعية تزيد من قيمتها مستعيدة الوظيفة أو الوضعية الأصلية: وهذا ما يحصل غالباً

---

[11] انظر بشكل خاص نصوص دانتزر، وبالتي، وكينيدي، وتشوشوفسكا، وفرايبيرغر في الكتاب الحالي.

[12] حصلت عودة كبيرة إلى الإنشاءات الضخمة في عهد جوستنيان. من جهة أخرى من الواضح أن التسلسلات الزمنية للتطورات ليست هي نفسها في كل المدن، ويشدد هـ. كينيدي في مقالته (ص 273 في الدراسة الحالية) كل هذه الاختلافات في إيقاع التبدلات وعن أسبابها.

في بصرى أو منطقتها وفي المدن الميتة في سورية الشمالية[13]. كما يمكن أن يعاد ترتيب التزيينات بقلبها رأساً على عقب، أو يمكن أن تستعمل العناصر لأغراض مختلفة: ساكف في وضعية العضادة، قطع أعمدة استخدمت كحجارة عريضة لدعم الجدران لا سيما الأسوار. يمكن مضاعفة الأمثلة لتوضيح تنوع الإمكانيات.

يعتبر المسجد الأموي الكبير في دمشق إحدى الحالات النموذجية عن إعادة الاستعمال لإنشاء صرح جديد في موقع أثري قديم، دون أن يكون هناك تقليص للقديم، وإنما تطابق للفضاءات وللمواد. فالكاتدرائية البيزنطية قد استعملت بلا ريب الفضاءات المعدلة قليلاً لمعبد جوبيتر. بينما على العكس نجد أن الجامع عبارة عن تهديم شبه كامل للأبنية الدينية السابقة، وإعادة استعمال استخدمت فيها المواد نفسها، وبنيت بحسب برنامج معماري جديد، ولكنه متين وضخم أيضاً. وعلى العكس من ذلك، فمن المحتمل أن الفضاءات المحيطة بالمعبد والممرات ومدخل المعبد، قد فقدت جزءاً كبيراً من وظائفها ومهابتها في العصر البيزنطي، وذلك بتحويل الشوارع الهامة، ببوابات أو دونها، إلى أسواق، ولم يخف القادة الأمويون رغبتهم بالتعبير عن استمرارية ثقافية وسياسية، على التوازي مع نشر تدريجي للديانة الإسلامية وللغة العربية. لقد تمت استعادة إرث الماضي وتم قبوله وتقديره بالتأكيد، لكنه حُوّل وتبدل إلى معنى جديد. وهكذا تقدم لنا العمارة الأموية نماذج عديدة عن التلاؤم مع الأنماط القديمة، التي تم تنفيذها بلا ريب بمشاركة المعماريين والفنانين والحرفيين المسيحيين. إن هذه العملية ليست هي نفسها عملية إحياء للتراث، لكن الرجوع القوي جداً إلى إرث قريب زمنياً، يظل مُعبراً عن الارتباط بالنمط الموروث.

تندرج العمارة الأموية بالتأكيد في إطار الاستمرارية. ويمكن أن نلاحظ

---

[13] اهتم العديد من الباحثين بهذه الظواهر مثل ج. ـ ك مونسل بالنسبة لبصرى وذلك في أطروحة الدراسات المعمقة DEA تحت عنوان: السكن الحديث في بصرى القديمة. جامعة ليون، أيار 1998، (تحت إشراف أوليفييه أورانش)، ص. 46: «كل هذه الحجارة المنحوتة أياً كان تاريخها وشكلها قد أعيد استعمالها، إما لأنها مشذبة بشكل جيد وتتوافق مع حاجة معينة [...] أو بسبب قيمتها الجمالية التي يمنحها لها الأهالي».

من جهة أخرى مستوى قوياً من اعتماد الإسناد إلى الماضي، وذلك من خلال تقليد النماذج القديمة التي اختفت منذ قرون عديدة. فبعض الأبنية التي شيدها نور الدين الزنكي في حلب في القرن الثاني عشر تـأخذ أشـكالاً وعناصر تزيينية منسوخة مباشرة أو مستوحاة بحرية من النماذج القديمة. فالبناء الذي يدعى المدرسة الشعيبية (أو جامع التوتي)، قد شيد قبالة باب أنطاكية (يعود تاريخه إلى عام 545 هـ / 1150 م) وهو متميز بـهذا الخصوص بشكل واضح ويستحق دراسة معمقة[14]. فالجدران وعناصر الهيكل لها طابع العمارة الحلبية والعربية ـ الإسلامية في ذلك العهد، لكن تتويج الواجهات الخارجية عبارة عن سطح معمَّد كورنثي مع بروز واضح شبيه جداً بالماضي، يمكن أن يبدو معزولاً كلياً في هذا المحيط. إن هذا السطح المعمَّد على الرغم من أنه يضم نقشاً كتابياً كوفياً مميزاً، فقد اعتبر أحياناً كأثر قديم وفي مكانه الطبيعي أو كإعادة استخدام متوافقة بذكاء مع البناء الجديد. وقد افترض سوفاجيه أصل البناء على النحو التالي: «بحسب رواية ما، فإن أقدم جامع في المدينة قد شيد قبالة الباب الغربي للسور، وقد حاولوا أن يفسروا هذا الموقع بأسطورة تقدم لنا إشارة ثمينة. فهذا الجامع لم يكن سوى القوس الضخم المنتصب في رأس الشارع العريض ذي الأعمدة الذي حوله العرب بعد امتلاكه إلى مكان للعبادة بعد أن سدوا فتحاته»[15]. ويمكن أن يكون البناء الحالي ناتجاً عن إعادة بناء طلبها نور الدين الزنكي، الذي كان يرغب أن يستثمر سلطته عبر مرجعية واضحة إلى «روما»، باستعمال بعض خصائص قوس النصر الأصلية[16]. وتقدم المدرسة الشدهكية التي بنيت في نهاية القرن الثاني عشر خصوصيات نمطية وصريحة تجعل منها صرحاً متميزاً جداً ومشبعاً جداً بالتأثيرات القديمة، ولكن في حالة هذه المدرسة، نجد أن

---

[14] قد تكون بعض حفر الاختبار ضرورية لتحديد الأحجام بدقة أفضل. لا شك أنه محروم من ضلع قبة كان يمتد إلى الشمال. ويمكن أن يكون بالأصل عبارة عن بوابة ذات ثلاث فتحات.

[15] J.Sauvaget, *Alep Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIX siècle*, Paris, 1941, p. 74-75.

[16] إن هذا الإسناد إلى الماضي يخلط بشكل متناقض بين القبول والرفض فأحد النقوش الكوفية وهي استشهاد من القرآن، نشره إ. هيرزفيلد E. Herzfeld وهو مشروح كالتالي: «تقابل الكلمات الأولى بين معبد وثني، لا يجب زيارته، وجامع القبة الذي دشنه الرسول محمد بعد الهجرة ويقع على بعد فرسخين من المدينة المنورة».

سنادات إلى الماضي ليست مقطوعة كلياً عن ما يبدو أنه تقليد حلبي ستمر، وشديد الارتباط بفن المدن الميتة[17] وبنمط العمارة في شمال ورية[18].

إن هذا الإستناد إلى الماضي، الذي يمكن أن يندرج ضمن إطار ستمرارية للماضي أو يمكن أن يظهر أحياناً كعودة إرادية إلى الماضي، لا عبر عن نفسه من خلال «المحافظة» على التراث، على الأقل ليس دوماً، إنما خلال إنجازات جديدة يمكن أن تفسر كتجليات للاعتراف بالمعنى الخاص للعمارة القديمة[19].

صياغة فكرة التراث، من الغرب إلى الشرق

«إن فكرة التراث هي [...] فكرة تعود للمجتمع وللفكر الحديث في الغرب الذي يفصل بين تأمل العمل وملكيته والغاية منه» (بانسون Pinson 1991 :1).

«... إن التراث كمرتبة من الوجود يتجاوز الاستعمال الحاضر» (كاستل، 1985: 267). إن هذين التعريفين الجزئيين عبارة عن نقطة انطلاق جيدة للتفكير بوجود وبطبيعة التراث المعماري بشكل عام وفي المدن السورية بشكل خاص.

إن تاريخ التراث في الغرب قديم، لكن الفترة الأساسية لتكونه كانت الثورة الفرنسية، فقد ولد التراث حينئذ من العلاقة الجدلية بين التهديم والحفظ: فبالنسبة للثوريين، لابد من إزالة شواهد النظام القديم والملكية

[17] نجد في التفسيرات الحلبية في القرن الحادي عشر (مثلاً في محراب مقام ابراهيم أو مئذنة الجامع الكبير، ألخ...) المعاملة الخاصة نفسها، للزخارف أو لأضلع الأعمدة، التي نجدها في النماذج القديمة في المنطقة.

[18] إن حالات العودة إلى الماضي الواضحة نوعاً ما، عديدة في المناطق الواقعة شمال سورية: يمكن أن نستشهد، من بين أمثلة أخرى، بالجامع الكبير في ديار بكر.

[19] هناك حالات أخرى، محلية أكثر، أو لاستعادة تبني أنماط بناء قديمة بالمواد نفسها وبنمط حياة مشابه، قد لوحظت في مواقع مختلفة في الهضاب البازلتية الجنوبية، كما في بصرى. إن هذا التبني أو الاستمرار به يمكن أن يفسر بسبب العوائق المادية ولا سيما من خلال اضطرار جزئي مرتبط بطبيعة المواد المتوفرة: ندرة الخشب ووفرة البازلت، مع طرق تقنية خاصة.

والإقطاع وبالتالي تدمير بعض الأشياء والآثار المعبرة عنها، وبالنسبة للشعب يتعلق الأمر في الوقت نفسه ببناء هوية وطنيـــة ذات مــاض مشــترك. و إحدى الأدوات الجديدة لهذا البناء هي المتحف، حيث يحافظ فيه على شــوا لهذه الهوية. فالأشياء التي كانت تزين الكنائس وأروقة القصور يتغير معناه عندما تصبح في المتاحف[20].

لقد بدأ يتكون في فرنسا وأوربا، أثناء القرن التاسع عشر بشكل خـاص الهيكل التصوري والمادي والإداري للتراث، مع وضع إجراءات المحافظــ عليه والترميمات الأولى المنظمة للآثار. وقد امتلأت المتاحف بتراث جديــ يشكل جزءاً من الغرب مع أنه جاء من مناطق أخرى ومن أماكن أبعد فـأبعد في البداية من إيطاليا من غزوات بونابرت، ثم من اليونان، ومن مصر ومـ الشرق الأوسط ومن منطقة ما بين الرافدين. إن هــذا الــتراث «التوراتــي بشكل أساسي واليوناني ــ الروماني يشكل جزءاً من الإســـتنادات والأسـ الروحية والثقافية للغرب. ففي الإمبراطورية العثمانية توجد معظــم المواقــ الأثرية حيث حصلت الاكتشافات التي ملأت المتاحف[21].

كما أنه في القرن التاسع عشر، وتحت الهيمنة العثمانية، أُدخل المفــهو الحديث للتراث إلى سورية. فالقانون الصادر في عـــام 1884 يكلــف الإدار العامة لمتـــاحف الإمبراطوريـــة بمســؤولية الآثـــار علـــى كـــامل امتـدا الإمبراطورية العثمانية. ففي الولايات أوكلت هذه المهمة إلى مدراء المعـارف العامة. ويتعلق الأمر بإنشاء وبإدارة المتاحف، في العاصمة وفي الولايـــات وبتزويدها بالآثار. فالأشياء والآثار الموجودة أو المكتشـــفة اعتــبرت ملكــ للإمبراطورية: ويدخل ضمن التراث كل الثقافات التي تركت آثارهـــا علــى أرض الإمبراطورية العثمانية. وقد احتفظت الإدارة العثمانية لنفســـها بحــق القيام بعمليات التنقيب: إذن هي المسؤولة عن توكيل علماء الآثـــار الأجـانب بعمليات التنقيب وبالتالي بمنحهم الإذن بالتنقيب أو بأن ترفض إعطاءهم إياه.

---

[20] انظر بشكل خاص: د. بولـــو D. Poulot, *Musée, nation, patrimoine*, 1789-1815, 1997.

[21] لن يزداد الاهتمام بهذه البلدان البعيدة (الشرق الأقصى، أفريقيا، دول المحيط الـــهادي...) إلا فيما بعد وضمن سياق استعماري بشكل عام.

يعتبر تبني هذه القوانين خطوة في «التحديث» مستوحاة من الغرب. وهي أيضاً وسيلة للحماية من الغرب النهّاب. ولقد بدأ يتكون شكل من أشكال «النزعة القومية العثمانية» ، نزعة قومية كتلية، تعني بلا شك جزءاً ضئيلاً من المجتمع لا سيما ذاك الذي «يتعصرن».

فبعد الحرب العالمية الأولى وتفكيك الإمبراطورية العثمانية، استلم الفرنسيون رقابة وإدارة الآثار والصروح التاريخية في سورية ولبنان، مع إصدار المراسيم بهذا الخصوص في عام 1919، التي تنقل المسؤولية عن الآثار إلى السلطة العسكرية الفرنسية. وصدرت لاحقاً قرارات أخرى لتكمل ولتوضح الأولى، لا سيما فيما يتعلق بتعريف الصروح التاريخية والفترات التاريخية المعنية بإجراءات الحماية. فقد صدر تعريف واسع نسبياً يعتبر كل الأشياء والأبنية السابقة لعام 1700 كآثار، وربما لتاريخ أحدث إن كانت فيها مصلحة خاصة للمؤرخ وللشعب. وقد أعيد تنظيم مديريات الآثار ووضع مسرد عام للآثار التاريخية.

ويمكن أن نضع بالنسبة لفترة الانتداب الفرنسي، تاريخاً لاختيار المواقع والعهود بالنسبة لأعمال التنقيب التي قامت بها فرنسا والبعثات الأثرية الأجنبية: تظل الدراسات التوراتية حافزاً هاماً، حتى وإن كانت مموهة باهتمامات أخرى. إن المعهد الفرنسي الذي تأسس عام 1922 والمجمع العربي الذي تأسس عام 1919 هما عنصران هامان من هذا التاريخ للآثار وللتراث[22]. لقد تناول المجمع العربي بلا شك جزءاً من

---

[22] سيلعب المعهد الفرنسي دوراً عملياً ورمزياً هاماً في حماية ودراسة التراث السوري العربي وبناء الاستشراق الفرنسي الحديث (ر. آفيز R. Avez، 1993)، فبالإضافة إلى البحث يهتم المعهد الفرنسي بتكوين وبنقل خبرات الحرفيين والفنانين التقليديين «المهجنين» الذين هم في طور الزوال. إنه يشارك في عمليات الترميم، ويقدم الرأي في ميدان المشكلات العمرانية في الأحياء القديمة. فالمخططات التي تضعها الإدارة السورية يدرسها المعهد. فالمجمع العربي، وهو جمعية معرفية تأسست في عام 1919، من وظائفها المحافظة على اللغة العربية وتطويرها ودراستها، بالإضافة إلى الأبحاث التنقيبية للصروح والآثار القديمة في سورية. ففي مقرها الكائن في المدرسة العادلية، وهي من القرن الثالث عشر، يتطور المتحف الوطني

المفاهيم القديمة للإرث، والتي ذكرتها من قبل: إذ سيلعب دوراً هاماً في تحديث اللغة العربية وفي البحوث الأدبية، الأمر الذي يمكن أن يكون معبراً عن مفهوم للتراث أشد ارتباطاً باللغة وبأشكال الاتصال الأخرى أكثر من ارتباطه بالآثار.

وهكذا بإمكاننا أن نطرح سؤالاً لم يفقد أهميته كلياً: لمن يعود هذا التراث ومن يحس به كتراث؟ يمكن بلا شك أن نبين أنه مزدوج، استعماري وسوري في آن واحد. فالماضي اليوناني والهلنستي والروماني والبيزنطي المشترك بين الشرق والغرب، مُصادر غالباً من هذا الأخير. وهكذا يمكن أن يكون التراث عاملاً في تبرير الحضور الاستعماري. وبشكل متناقض، ليس بالضرورة أن يكون هذا التراث نفسه مرفوضاً لدى ورثة بلاد الشام، ويمكن أن تطالب به، لأسباب مختلفة، مجموعات ترغب بأن تكوّن لنفسها هوية خاصة.

هناك كتابات للمؤرخ جان سوفاجيه تعبر تماماً عن الغموض الذي يكتنف المعنى الممنوح للتراث السوري. فلقد اهتم سوفاجيه بشكل أساسي بالعصور الإسلامية، لاسيما بالتسميات وبالفضاء العمراني وبالعمارة في دمشق وحلب. ففي العديد من منشوراته يجعل العمارة تتحدث كشاهد مميز للتاريخ. ولقد أنجز أيضاً مسرداً للآثار التاريخية في المدينتين وقدم توجيهات لحفظها. فقد عبر عن إعجابه بالعمارة «بصمات البساطة والمليئة بالروحانية». لكنه عبر أيضاً بوضوح عن تفوق الثقافات، المعمارية والعمرانية التقليدية على نتاج الفترة الإسلامية[23]. وهكذا فهو ينتمي بقوة

السوري، الذي نافس في البداية مجموعات المعهد الفرنسي، ثم أصبح رسمياً مكان وضع وعرض الآثار، مستفيدا من نية سلطات الانتداب الفرنسية بمنح أهمية أكثر للمؤسسات السورية ابتداء من عام 1925.

[23] هناك نص مأخوذ من خاتمة سوفاجيه عن حلب يعبر بشكل ممتاز عن هذه الأفكار، والتي هي أيضاً الأفكار التي كانت سائدة في العصر الاستعماري: «إن هذه الأعضاء الأساسية من الحياة العمرانية تحتفظ هنا كما هي الحال في سائر المدن السورية الأخرى [...] الشكل نفسه الذي منحته لهم العصور القديمة. ولم يستبدل فيها الإسلام أي شيء أصيل من إنتاجه الخاص، فلم يعمل سوى على تهيئتها على طريقته أو إعادة إنتاج مظهرها الأول كيفما كان. فهو

وبشكل واضح إلى تيار مهيمن في ذلك الحين.

تبني التراث

إبعاد واستثمار الموروث

إن عملية تبني التراث الجارية حالياً في سورية والبلدان الوريثة لبلاد الشام معقدة بشكل خاص. فهي ظاهرة حديثة بدأت تأخذ شكلها مع القوانين والتنظيمات التي وضعتها الإدارة العثمانية ثم الفرنسية (أو البيزنطية لدى ورثة آخرين من بلاد الشام) حيز التطبيق. لا شك أن هذا التراث الحديث يتضمن جزءاً من الأشكال السابقة، «تقليدية» لها علاقة مع الموروث الذي ذكرته. زد على ذلك، لابد له أن يتشكل ضمن نوع من التناقض مع التعريف الموروث عن الفترة «الاستعمارية»، الذي يمكن أن يعكس مصالح ثقافية وسياسية فرنسية بحتة أو غربية. ففي الواقع، لا يمر هذا الاختيار عبر رفض جزء من التراث، وإنما بلا ريب عبر تفسير واستثمار للمعنى. ولقد أصبحت العملية أكثر تعقيداً أيضاً، بسبب الحياة التي تنشط حالياً، لا سيما في المدن، في العديد من الأبنية أو الآثار المحفوظة كإطار لحياة يومية عادية بشكل أو بآخر. إن صحة هذا الموروث المتعدد القرون أو آلاف السنين يمكن أن تقيم على أنها مطموسة بسبب هذا «التطفل» المعاصر. فأصل هذه العناصر القادمة من الماضي، الذي يلعب حالياً دوراً

يعطيها أوجها جديدة، ينسخها، ولكن لا يعرف شيئاً عن وضعها في مكانها. فالأسواق والقيصرية والخان وسوق الهال للفواكه، ليست سوى تدهور لشارع الأعمدة، وللباسيليكا وللأغورا: الحمام ليس سوى تبسيط للحمامات الرومانية [...] فمن بين الدورات الحضارية الثلاثة الكبرى التي يجد نفسه متقاسما بينها: الحضارات الشرقية العائدة للعهود الكبرى، الحضارة الهلنستية، الحضارة الإسلامية، نجد أن الجزء الأساسي في تكوين المدينة التي نعيشها اليوم يعود بالتأكيد إلى الحضارة الثانية (الهلنستية)» (سوفاجيه Sauvaget 1941، ص. 247). كما أن بيير لوريش يذكر سوفاجيه في طريقة الطرح نفسها، ص. 138 في مقالته المنشورة في هذا الكتاب «... عدد كبير من المراكز التي ستشع منها الحضارة الهلنستية... تشبه جزراً يونانية هزمتها أساطيل بحر همجي». ويعلق على هذه الإيديولوجية المهيمنة ص. 169.

فعالاً، ليس دوماً واضحاً في وعي المستفيدين الحاليين.

إن اقتصرنا على المدن فقط، يمكن التمييز بين وضعين مختلفين عن بعضهما بعضاً كثيراً، لا يمكن للموروث أن يدرك فيهما بشكل مماثل، حتى وإن كانت عملية الاستيعاب التدريجي لمفهوم التراث تميل إلى دمجهما في ذات الإدراك، وهذا يعني التراث الأثري والتراث «الحي». فكثير من المدن الحالية لم تنقب إلا قليلاً وبالتالي فإن صور الماضي السابق للإسلام التي يمكن أن يستند عليها السكان في المدينة، نادراً نسبياً. إنها كثيرة في دمشق واللاذقية وحمص، ولكن قابليتها للإدراك ضعيفة في حلب وحماه. إن أقوى رؤية لهذا الماضي هي بالتأكيد تلك التي تقدمها المواقع الأثرية المهجورة وأشكالها المعمارية المرممة غالباً.

1 ـ التراث والآثار

إن سورية من أغنى البلدان بالمواقع الأثرية المنقبة: فكل الفترات من تاريخها قد أخذت بعين الاعتبار، وبلا ريب مع شيء من تأثيرات الموجة السائدة. إن لمنهج علماء الآثار تاريخاً وجذوراً قديمة في الغرب، فهو يتكون من الكشف عن عناصر من الماضي لبناء معرفة علمية. فمن خلال بحوثهم يعود الماضي ليصبح حاضراً من الناحية المادية[24]. لكن عملية إدخال نتائج البحث الأثري في الحاضر تختلف عن تلك التي تميز الموروثات الحية. فالعلاقات بين المجتمع والآثار المنبوشة هي بشكل عام إعلامية. فيجب أن تمر عبر منهج تربوي، وتعليم على النظر ولا سيما على إنشاء رابطة

[24] في الواقع، إن هذا المنهج هو بلا شك أقدم من تطبيقات علماء الآثار. فالأبحاث حول آثار الماضي من أشياء وصروح قد كانت موجهة من الرغبة بإدخال ماضٍ أعيد تصوره ومتخيل تقريباً أكثر من التفكير بالماضي كوسيلة للمعرفة العلمية. فبالنسبة للمنقبين في إيطاليا في عصر النهضة، أو في فرنسا، وبالنسبة لهواة الآثار، كانت الأبحاث مدفوعة بالكشف عن أشياء جميلة تخصص لإغناء محلات العاديات، ولكن أيضاً لتعزيز جمالية جديدة كانت إيديولوجية أيضاً ولم تكن بلا ريب بعيدة عن السياسة. إن الاستناد إلى الماضي القديم، الروماني واليوناني، كان مرئياً مباشرة في الإنجازات المعمارية أو الغنية (رسم وتصوير)، في معظم البلدان الأوروبية.

للتعارف بين المرجعيات الأثرية والهوية. فبعض المكتشفات الأثرية ليست عظيمة إلا بالنسبة للمختصين، ولا تدخل في التراث إلا من خلال التفسير، لا سيما من قبل وسائل الإعلام، وأكثر فأكثر من قبل التلفزيون أو أيضاً بسبب الزيارات السياحية[25].

فهناك نوع من الاعتراف مؤكد عندما تصبح أسماء المواقع الأثرية، أو الأشخاص أو الآلهة إسنادات يومية كتسميات[26]، ونادراً ما تكون أسماء شوارع، وبشكل مألوف التسميات التجارية والمكاتب، والخدمات، والشوكات، والمؤسسات كذلك «ماركات» الألبسة والمنتجات الغذائية إلخ. ويمكن أن نذكر من بين أكثر الأسماء استعمالاً: أوغاريت، إيبلا، أفاميا، بيبلوس، سومر، أورنينا، أدونيس، عشتار، الأندرين، تدمر[27]،...

2 ـ التراثيات والهويات المدنية

إن أشكال الإسناد التراثي أو التراث المعاش عديدة في مجتمعات الشرق الأوسط وربما أكثر من أي مكان آخر في العالم، كما يمكن أن تكون هناك مستويات عديدة من مطلب الهوية أو الانتماء: الهوية القومية، الانتماء المدني والانتماءات الطائفية والعائلية والقبلية. ويشكل التراث جزءاً هاماً من الإحساس الحالي، الرسمي، الجماعي، العام والماضي. ويمكن أن يكون له علاقة مع تكوين الهوية القومية. ويمكن أن يكون التراث أيضاً وبكل بساطة وعاء للهوية، التي قل إدراكها وتم تمثيلها بشكل ضعيف والمصنوعة من

---

[25] كثير من التفسيرات والشروح الموجهة إلى الزوار الأجانب بقدر ما هي موجهة للسوريين أنفسهم، كتلك الملاحظات المخصصة للأشياء وللمواقع في المتاحف، تلعب دوراً أساسياً في بناء هوية ثقافية سورية وفي عودتها إلى الماضي البعيد البعيد. فالنصوص التي تصف بعض الرقم في أوغاريت ومواقع أثرية أخرى في الساحل على أنها أصل الأبجدية. هي نصوص نموذجية عن هذا التملك القومي لتراث هو بالتأكيد تراث للبشرية.

[26] قديماً أكثر، اختيرت أسماء شخصيات من الماضي القديم، كأسماء علم مسيحية بسبب أهميتها في التاريخ الإقليمي، مثل فيليب (العربي وأمبرطور روماني) أو الاسكندر

[27] لا شك أنه قد اختير في الستينات أسماء من أصل خارجي ترتبط بحضارات أخرى، مثل الكرنك ورمسيس وقصر النيل وسميراميس إلخ. فالأسماء المرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية تهيمن منذ مطلع القرن الماضي.

فضاءات وسلوك وممارسات. إن النزاع بين هذين المفهومين أو التطبيقين للتراث قد كان حاداً غالباً وعنيفاً أحياناً أخرى، وتميز بشكل خاص بتناقضات عميقة بين الهويات والسلطات المدينية من جهة، وبناء أمة ودولة موحدة ومتجانسة من جهة أخرى. إن الدفاع عن الحداثة ضد رجعية المجموعات المدنية القديمة قد استطاع أن يكون في المقدمة لتبرير الاعتداءات على الموروث الذي يعتبر محلياً جداً[28]. يمكن أن نذكر حلب أو حماة، اللتين تأثرتا بقسوة، بهذا النمط من النزاع، في شخصيتهما وفي التعبير التراثي عن هذه الشخصية[29]. إن حالة بيروت نموذجية بشكل خاص للتعبير عن هذه المستويات المختلفة للتراث والانتماء.

ما هو التراث الذي اعترف به في بيروت في بداية السبعينات، في الكتب وفي الوعي الشعبي؟ فجزء كبير من التراث الذي كان يشكل المركز التقليدي للمدينة قد دمرته المعارك التي نشبت بين الميليشيات الطائفية. يتعلق الأمر بشكل أساسي بفضاءات عمرانية تشغلها الأسواق ومواقع أخرى للخدمات القديمة أو المُحدثة التي كانت تعمل كبوابة للمدينة وكفضاء مشترك بين كل الجماعات، مكان «لحرمة الهويات» ولاحترام الانتماءات. لا بد أن هذا الموروث قد كان أغنى بمعانيه الرمزية وبوظائفه العملية مما هو بأبنيته التاريخية غير البارزة كثيراً. وبإزالته حصل إلغاء للعلامات وللروابط الأكثر وضوحاً مع ماضٍ عثماني أو مشترك لبلاد الشام.

---

[28] يمكن أن نتساءل إن لم يكن هناك شيء من هذا التناقض في الإجراءات المتعلقة بمحيط الجامع الأموي في دمشق والتنظيف الدوري لأطراف هذا الصرح القديم من خلال تهديم الأسواق والآثار المختلفة العائدة للعصر الإسلامي (المدارس وغيرها). يبدو أن المصلحة العليا للدولة قد دفعت إلى اكتشاف مشاريع عهد الانتداب الهادفة إلى إبراز قيمة الماضي القديم الكلاسيكي.

[29] بالنسبة لحالة حلب، انظر على وجه الخصوص المقالات التالية لجان كلود دافيد: J-C. David: «Projets d'urbanisme et changements dans les quartiers anciens d'Alep». *Politiques urbaines dans le Monde Arabe. (Dir. Métral J. et Mutin G.) dans Etudes sur le Monde Arabe*, Lyon, 1984, p. 351-365.

«Production et occupation de l'éspace urbain à Alep». *Les Annales de la Recherche Urbaine, Plans et Projets*. 37. 1988. p. 85-93.

«Politique et urbanisme à Alep, le projet de Bab al-Faradj», *dans Etats, villes et mouvements sociaux au Maghreb et au Moyen-Orient*. L'Harmattan Paris 1989, p. 317-324.

«Ingénieurs, urbanisme et pouvoirs locaux à Alep». *Batisseurs et bureaucrates. Ingénieurs et société au Maghreb et au Moyen-Orient*. Etudes sur le Monde Arabe 4. Lyon 1990. p. 281-289.

ومع البدء بإعادة بناء مركز المدينة والمشكلات التي نعرفها حول الخيارات المعمارية، والمضمون والوظيفة، فإن المشكلات مع المالكين الذين صودرت أملاكهم، عادت وطرحت من جديد مسألة التراث وبطريقة أكثر حدة. فبالنسبة للبعض، يجب الحفاظ على الأماكن المرتبطة بالذاكرة، التي تذكر بالفضاء العمراني للمركز القديم والتي يمكن أن تشكل نواة لانطلاق إعادة البناء. وبالنسبة لآخرين، يكفي الحفاظ على بعض الآثار المعبرة، سبعة مساجد وسبع كنائس. فقد نسف جزء كبير من الأبنية التي لم تهدمها الحرب لتترك المكان للمشروع وللحداثة، ولم تعد تطرح مسألة الحفاظ على النسيج القديم وأماكن الذاكرة. وعلى إثر ذلك، سمحت لعبة سحرية بتعويض التراث: فقد انطلق برنامج أثري واسع، مُمول بشكل أساسي مباشرة أو بشكل غير مباشر من المقاول، للكشف عن المطمور الذي سيأخذ مكان التراث الحي القديم المهدم.

سيكون من المفيد معرفة ما الذي تغطيه الآن فكرة التراث بالنسبة لسكان بيروت، القدماء والجدد، الشبان والشيوخ: ذكريات وحنين لفضاءات عمرانية قديمة، ولأنماط حياة قديمة اختفت مؤخراً، صور ماضٍ مجيد ومتعدد الأوجه للمدينة التي تذكرها الآثار المكشوفة، المفسرة والمعلق عليها، تراث مفاجئ حيث بإمكان كل امرئ أن يجد نفسه وأن يطرح مثله المتعلقة بالهوية.

إن التراث الحي، في المدن السورية الكبيرة، محفوظ بشكل عام ويبقى مدموجاً في الحياة. ولقد خمدت الآن التهديدات بالتهديم التي تعرض لها في عهود مختلفة. ومع ذلك فهناك تهديد ما زال قائماً، تهديد أكثر غدراً ومكراً وربما لا يمكن تحاشيه: إن حركات الابتعاد عن الماضي وتأمله، التي تتحكم بعملية تبني التراث نتيجة للممارسات الحالية ، تجازف بقلب العلاقة مع هذا الموروث ومع أماكن الحياة هذه[30]. إن ازدواجية هذه الفضاءات، ووضعيتها المزدوجة، يمكن أن يكشف عن غموض عميق وأساسي: كيف نشغل يومياً

[30] إن السياحة المزدهرة حالياً تلعب بشكل طبيعي دوراً هاماً في تحويل الإحساسات التراثية.

فضاءً موروثاً أصبح «تراثاً»؟ وماذا يعني الاحترام والحماية والأصالة في هذا الظرف، وفي فضاءات في وضعية التأقلم الدائم والتي عليها، الاستجابة لتطور الحاجات بدلاً من أن تخضع إلى قانون يفرض عليها الجمود في حالة من الأصالة المثالية.

إن عملية تصنيف الأحياء، أكثر من أي أشياء معمارية أخرى (كالأسواق والأبنية العامة الأخرى)، ضمن التراث، ولا سيما التراث العالمي، تطرح مشكلة تشبه التدخل، وتحريك للحدود بين العام والخاص. حدود هامة جداً في هذا السياق الشرقي. يجب التفكير بمسألة المنازل والأحياء التي تم تناولها ككل في المدينة القديمة، حيث الشوارع بالذات تشكل من الناحية التقليدية جزءاً من المجال الخاص أو الجماعي وليس العام بالمعنى القانوني والعقاري والعادات. إن تعريف الحدود بين التراث العام والتراث الخاص والتراث الجماعي أو المشترك والتراث الفردي والإدراك الشخصي والإدراك الجماعي هي مسألة جوهرية.

الخاتمة

إن الممارسات الشعبية والإحساسات بالموروث المعماري لا تتوافق بشكل عام مع تعريفات التراث، لا سيما مع أفكار النظر من الخارج والتأمل. ويمكن أن نوجز بالقول بأن هذه الفضاءات الحية ليست تراثاً إلا للأجانب، وللسواح الذين يزداد عددهم أكثر فأكثر، وبالنسبة لأقلية ضئيلة من النخبة المثقفة، وهي ليست كذلك بالنسبة لأغلبية السكان المدنيين في حلب. علماً أن الإطار المعماري ليس لا مبالياً ولا يلاحظ كحيادي أو عادي. هناك بشكل عام معادلة أساسية بين الفضاء العمراني القديم والوظائف والنشاطات التي تدور حالياً: أليست هذه الأماكن، في الواقع، مزدوجة تراثياً ليس فقط من حيث استمرارية الحجوم والأشكال والعمارة وإنما أيضاً لأن الممارسات والعادات الخاصة بالمجتمع في هذه الفضاءات قد انتقلت أيضاً، إنها حية وتتطور؟ أليس هذا الموروث أكثر غنى من خلال تأقلمه وتحوله دون أن يتدمر، وذلك مع تطور الحاجات والعادات؟ إن أسواق وخانات مدينة حلب

القديمة، بالإضافة إلى كونها حاضناً للتقاليد، ونموذجاً مثالي أو أنموذجاً، تظل أحد الميادين المركزية الحالية للنشاط التجاري والخدمات، وقد تطاولت، أكثر مما تضاعفت، بالفضاءات الجديدة للمركز الحديث، نتاج عمارة عادية، تنشطها مع ذلك الممارسات والعادات نفسها أو المشابهة.

في هذا الظرف، يبدو أن التراث يتواجد في الممارسات والعقليات ونمط الحياة مثلما يتواجد في العمارة والأشياء. إنه موجود بشكل خاص في العلاقة التبادلية فضاء/عادات. وفي ظروف كهذه، يجب أن يعاد تعريف إجراءات التصنيف والحماية، مادام أن جوهر هذا التراث هو خاصيته الحية والدينامية، وقدرته على التطور والتأقلم: هذا يعني العثور على الوسط المناسب بين عمليات الحماية ونوع من حرية التصرف الممنوحة للمبادرة الفردية، عندما تقوم هذه المبادرة بتعديل وملائمة الفضاء دون أن تهدمه[31].

ويذكر ماسينيون هذا التراث الحي المصنوع من الكلام، والممارسات والحركات أكثر مما هو مصنوع من فن معماري، وذلك في مدينة يمكن أن تبدو لنا أنها تعود إلى الماضي الحديث، إلى زمن ماسينيون، ولكنها انتقلت بلا شك إلى المدينة الحالية: «إن المدينة الإسلامية [...] هي قبل كل شيء مكان للتجمع، ليس من خلال القدر الكبير من الآثار التي تشكل متحفاً أثرياً، وإنما عقدات من الشوارع حيث تسير شهادات شفوية للشهود، إما عبارات يصرخ بها دلال يبيع في الأسواق، أو «تهكمات» مألوفة ضد الكنسيين في

---

[31] يصر جان ماري دانتزر على سلوك مختلف لدى سكان بصرى الذين يبدو أنهم يرغبون بمغادرة البيوت القديمة المبنية بشكل خاص في القرن التاسع عشر ضمن الآثار القديمة، لكي يذهبوا ويقيموا في البيوت الحديثة في الأحياء الجديدة: يبدو أن التطور المعنوي لم يقد إلى تأقلم الفضاءات وإنما إلى الهروب، على العكس مما يحصل في المدن الكبيرة، لا سيما في حلب ودمشق حيث السلوك مختلف أكثر. يعتبر السكن التقليدي في بصرى كسكن غير متوافق مع الحياة العصرية وغير مريح بشكل مطلق. في هذا الظرف، فإن بعض المشاريع كذلك الذي يطرح الحفاظ على الأحياء القديمة حية ومسكونة. كشاهد، تبدو غير قابلة للتنفيذ، إن الحل الممكن هو بلا شك المحافظة على بعض البيوت مفروشة ومزينة، ولكن غير مسكونة، واعتبارها «كمتحف للفن والتقاليد الشعبية». (انظر أطروحة DEA لجان كريستوف مونسل، المذكورة سابقا).

الجوامع والمدارس والمنابر، وأمثلة شعبية يحبها الفلاحون والعاملون في القوافل، والفكاهات وأغنيات «صوت المدينة» التي تطلق في صالونات الاستقبال والحمامات...»[32].

يمكن التشديد إذن على تعايش مستويات عديدة من التراث، لا سيما مستوى التراث الوطني والتراثات المدنية، والمشتركة، والشخصية. يمكن أن نشدد أيضاً بلا شك على غنى وحيوية التراثات المدنية، بل أيضاً على نوع من الحضور الشعبي، حضور حي لتراث أثري وطني. لكن الإدراكات المتنوعة لهذا التراث من قبل المجتمع تستحق أبحاثاً معمقة.

[32] L. Massignon, «La cité des morts au Caire», *Bulletin de l'Institut Francais d'Archéologie Orientale*, t. LVII, 1985, p. 28, cit par D. Chevallier, *Villes et travail en Syrie du XIXe au XXe siècle*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1982, p. 136.

التطور العمراني لحلب في مواجهة التأثيرات الأوربية

فاتنة كردي

جامعة حلب ـ كلية الهندسة المعمارية ـ قسم تخطيط المدن والبيئة

من الصعب أن نجد مدينة زاخرة بمختلف جوانب الحياة الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية وعلى فترة زمنية تمتد لأكثر من ثلاثة آلاف سنة مثل حلب، حيث تعاقبت على المدينة حضارات عدة تاركة بصمات واضحة في التاريخ العمراني مما جعلها سجلاً تاريخياً موثقاً لأحداث تاريخية هامة مرت على تلك المنطقة. كانت حلب وما زالت منفتحة على العالم الخارجي تأثرت به وأثرت فيه وذلك بحكم الموقع الجغرافي المتميز لها وبقدرة سكانها على التواصل والتعامل مع الجنسيات المختلفة وهذا ليس بالغريب على مدينة سكنتها وفي وقت واحد قوميات مختلفة تنتمي إلى الأديان الثلاثة عاشت جنباً إلى جنب كحلبيين هدفهم تطوير مدينتهم وتحسين ظروف حياتهم وكانوا دائماً مخلصين لهذا الهدف.

مر التاريخ العمراني للمدينة بمراحل مختلفة عكست دائماً المعطيات المتغيرة في المدينة. وسيتم في هذا البحث تقسيم التاريخ العمراني للمدينة حسب تأثره بالنظريات العمرانية الأوربية إلى مراحل خمس تختلف من حيث طول الفترة الزمنية ومن حيث النتائج التي انعكست على بنية المدينة العمرانية. حيث تميزت كل مرحلة بصفات معينة عكست المؤثرات الداخلية الاجتماعية والاقتصادية والخارجية وبخاصة الأوربية بأهدافها الخاصة وبنظرياتها العمرانية السائدة في ذلك الوقت في أوربا. ولكن من الجدير بالذكر أن التأثير الأوربي في العمارة والعمران لم يكن دائماً مباشراً من خلال المخططات التنظيمية المعدّة من الأوربيين أو من خلال التواجد المباشر للأوربيين في المدينة كما في مرحلة الانتداب، وإنما كان هذا التأثير

غير مباشر من خلال مشاركة الأساتذة الأوربيين بشكل كبير وخاصة الفرنسيين منهم ولفترات طويلة في التدريس في كليات الهندسة منذ تأسيسها في بداية الخمسينيات وحتى وقت طويل قارب بداية الثمانينات، إضافة إلى أن معظم المعماريين أو مخططي المدن على قلتهم كانوا قد تلقوا علومهم الهندسية في الدول الأوربية.

سيتم من خلال هذا البحث استعراض مراحل التاريخ العمراني للمدينة في محاولة لتركيز الضوء على التأثيرات المختلفة للأفكار العمرانية الأوربية على بنية المدينة التخطيطية وذلك من خلال استعراض وتحليل وتقييم المراحل الخمس التي تمثل التاريخ العمراني للمدينة على مدى عدة قرون من الزمن بدءاً من القرن السادس عشر وحتى الآن.

المرحلة الأولى: الاحتكاك مع أوربا من خلال الدور التجاري المتميز لحلب

تعتبر العلاقات التجارية بين الدول والانفتاح على العالم الخارجي عاملاً هاماً من عوامل التطور، مما ينعكس دائماً على طبيعة سكان تلك المدن التي تمتاز بموقع جغرافي معين كما تنعكس على شكل المدينة وعلى بنيتها الاجتماعية والعمرانية والمعمارية. وتعتبر حلب واحدة من أهم المدن الإسلامية التي واجهت التأثيرات الأوربية المختلفة من خلال الدور الاقتصادي العام الذي لعبته على مدى قرون عدة والذي جعل منها مدينة عالمية استطاعت بتجارتها أن تغزو أسواق الأناضول بل وتوسع نشاط المدينة التجاري ليصل إلى أوربا ولتلعب حلب دوراً هاماً على طريق الحرير وذلك كنقطة وصل هامة بين الدول المنتجة له في شمال إيران والدول المستهلكة له في الدول الأوربية وعلى رأسها إيطاليا وبخاصة مدينة البندقية.

استمر دور المدينة التجاري في التطور بشكل ملحوظ ويدل على ذلك القنصليات الأوربية المختلفة والتي بدأ تواجدها في المدينة مع منتصف القرن السادس عشر وكان أولها قنصلية البندقية عام 1548 وتبعها الفرنسية عام 1562 ومن ثم الإنكليزية عام 1583 والهولندية عام 1613.

كما شهدت المدينة في تلك الفترة ظهور الكثير من المباني التجارية والصناعية والتي بدأ إنشاؤها منذ القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر والثامن عشر لتصبح حلب واحدة من أهم المراكز التجارية في شرق البحر الأبيض المتوسط. ويذكر الغزي[1] نقلاً عن ابن الشحنة أن ما كان يجلب إلى حلب من البضائع ويباع فيها في يوم واحد كان يستغرق بيعه في القاهرة أم الدنيا في تلك الفترة عشرة أيام.

ولم يقف دور المدينة على التبادل الاقتصادي وإنما قامت ومن خلال هذا الدور في التأثير في الدول المجاورة وأوربا وذلك في جميع المجالات الفكرية والمعمارية. ويذكر فيرت[2] في كتابه «حلب» أن مدينة حلب كانت مركز إشعاع ثقافي في آسيا فإضافة إلى البضائع والتجار كانت حلب تصدر الأفكار والنظريات المعمارية حيث نجد عمارة الأسواق والخانات في أورفة وديار بكر أو حتى الموصل متأثرة بشكل كبير بعمارة الأسواق في مدينة حلب، كما نجد هذا التأثير واضحاً في المباني التجارية في كل من دمشق وتبريز وبغداد.

إن تأثير طراز عمارة الأسواق التجارية في حلب كما كان في فترة القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر لم يقتصر فقط على الدول العربية أو على دول الجوار وإنما انتقل أيضاً إلى أوربة ويبدو ذلك واضحاً في البندقية. كما يلاحظ في جنوب ألمانيا وفي المدن والمناطق التي كانت واقعة على خطوط التجارة بعض الأمثلة المعمارية التي تعكس التأثير الخارجي، فمع البضائع التجارية الخارجة من حلب كانت تخرج أيضاً الأفكار العمرانية والمعمارية إلى ما وراء الألب، ولم تكن البندقية تمارس دور مركز إشعاع ثقافي فقط وإنما كانت أيضاً مركز تلقي للتأثيرات الثقافية الخارجية، وكثيراً ما نجد في عمارة تلك المدينة أفكاراً وعناصر معمارية من الشرق، وكذلك الحال كانت مدينة حلب المدينة التجارية المنفتحة على

---

[1] الغزيّ، كامل بن حسين بن مصطفى بالي، نهر الذهب في تاريخ حلب- الجزء الأول، ص 146.

[2] H. Gaube und E. Wirth *Aleppo*, p.17

العالم والمرتبطة بالعالم مدينة لم تتأثر فقط بالمدن الآسيوية وإنما تأثرت أيضاً بالمدن الخارجية (الأوربية).

المرحلة الثانية: العصر العثماني المتأخر وحتى بداية الانتداب الفرنسي

كان للزلزال المدمر الذي أصاب حلب في عام 1822 وقع غير مباشر على تغيير البنية التخطيطية لمدينة حلب حيث انتقل على أثر ذلك الكثير من التجار الأوربيين الذين كانوا يسكنون في الخانات في المدينة التقليدية من المباني المدمرة نتيجة الزلزال إلى بيوت مؤقتة على الطراز الأوربي قاموا بإنشائها خارج المدينة القديمة وفي المنطقة الخضراء المجاورة لحوض نهر قويق لتصبح فيما بعد بيوتاً لقضاء العطلة ولكن لتبقى الخانات المكان الرئيسي لسكن هؤلاء الأوربيين تاركين الحي الجديد «الكتاب» غير مأهول في فصل الشتاء[3].

أما التأثير المباشر للنظريات الأوربية في التخطيط فكان من خلال المخطط التنظيمي الذي أعده الألماني يونغ بناءاً على تكليف من الوالي العثماني في عام 1882 والذي اعتمد فيه النظريات الأوربية في التخطيط في ذلك الوقت وهو «التخطيط الشطرنجي» المنتظم الذي اقترحه للأحياء الجديدة في شمال وغرب المدينة، كما اعتمد في العمارة الطراز الغربي فاختفى الفراغ الداخلي من المباني ليحل محله الحديقة المحيطة بالمبنى ولتنفتح واجهاته نحو الفراغ الخارجي أي نحو الشارع ولتظهر الشرفات عنصراً جديداً في العمارة الحلبية. كما ظهر نتيجة لتطور عناصر الإنشاء واستعمال الجوائز المعدنية والطوابق المتعددة في المباني.

بناءً على ذلك المخطط شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر إقامة العديد من الأحياء الجديدة والتي تركزت في الشمال والغرب من المدينة التاريخية مثل العزيزية، السليمانية، الجميلية والإسماعيلية وكان سكان تلك الأحياء في الغالب من الأجانب الفرنسيين أو بعض الشرائح السكانية ذات نمط الحياة الأوربي.

---

[3] المصدر السابق، ص 45.

قامت الحكومة العثمانية بردم الخندق الشمالي للمدينة التاريخية ليحل محله شارع بعرض 14 متر هو شارع الخندق يؤمن وصول وسائل المواصلات الحديثة إلى قلب المدينة القديمة لتخديم المركز التجاري التقليدي. كما تم إقامة مبان طابقية على طرفي هذا الشارع لتحتوي الوظائف التجارية الجديدة في الطابق الأرضي بينما خصصت الطوابق العلوية للمكاتب التجارية والسكن. ويمكن اعتبار الطراز المعماري لمباني هذا الشارع مزيجاً جميلاً للعمارة الأوربية والعمارة التقليدية ويشكل شارع الخندق حالياً أحد الأمثلة المعمارية المميزة لتلك المرحلة.

اقتصر التغيير في طراز البناء على المباني السكنية. في حين بقيت الخانات في المدينة التقليدية المكان الرئيسي للوظيفة الاقتصادية باستثناء التغيير الذي حصل في وظيفة الطابق العلوي في هذه الخانات حيث احتلت المستودعات والمكاتب مكان الوظيفة السكنية التي انتقلت بدورها إلى الأحياء السكنية الجديدة التي تم إنشاؤها خارج المدينة التاريخية.

أما صلة الوصل بين مكان السكن ومكان الفعاليات الاقتصادية فكان من خلال باب الفرج الواقع في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة التقليدية وبشوارع تواجد على أطرافها البنوك والمكاتب التجارية إضافة إلى المحلات التجارية.

كما ساعد إنشاء محطتي القطار على سرعة وصول البضائع والتكنولوجيا الحديثة إلى حلب وهذا كان له أثر كبير في زيادة الاحتكاك مع أوربا وبالتالي التأثر بها والتأثير فيها.

مما سبق نجد أن النظريات الأوربية في التخطيط والبناء انعكست بشكل واضح في هذه المرحلة على بنية المدينة، إلا أن هذا التأثير جاء مراعياً بل ومحترماً للمدينة التاريخية وليشكل استمراراً وتطوراً طبيعياً لها، معبراً عن الاحتياجات الجديدة للسكان سواء أكانوا محليين أم أجانب، ولم تعانِ المدينة في تلك المرحلة من ازدواجية بين الجزأين الحديث والتقليدي.

المرحلة الثالثة: مرحلة الانتداب الفرنسي 1919-1945

يشكل الانتداب الفرنسي (1919-1945) مرحلة الاحتكاك المباشر والأكثر تأثيراً على تخطيط المدينة وعلى طراز العمارة فيها، حيث تركت تلك المرحلة بصمات واضحة على شكل المدينة وعلى بنيتها الهيكلية الحالية وهذا لم يكن حال حلب فقط وإنما حال العديد من المدن التي وقعت تحت الانتداب الفرنسي.

أما على المستوى التخطيطي فقد كانت سياسة الفرنسيين العمرانية في جميع مستعمراتهم تعتمد على الابتعاد عن المراكز العمرانية القديمة «Medina» بدون تدخل والقيام بإنشاء مناطق عمرانية حديثة مبنية على أسس أوربية «Novellas villas». وغالباً ما يتم فصل المدينة القديمة عن المدينة الحديثة عن طريق مساحة فارغة تسمى بالحزام الصحي.

لم يختلف الفرنسيون في حلب في ممارستهم العمرانية عن بقية المستعمرات الفرنسية إلا أنهم لم يقوموا بإنشاء تلك المناطق الجديدة وإنما قاموا بتوسيع وتطوير المناطق العمرانية الموجودة مسبقاً والتي تم إنشائها وفق الطراز الأوربي في العصر العثماني في القرن التاسع عشر والتي لم تكن تبتعد كثيراً عن المدينة القديمة وإنما تقع مباشرة على حدود المدينة التقليدية وعلى الجهة الأخرى لنهر قويق. ساعد ذلك على تكامل الجزأين القديم والحديث من خلال نمو كل منهما باتجاه الآخر. لم تكن هذه هي الحال في المدن العربية الأخرى، والتي وقعت تحت الانتداب حيث كان هناك مدينتان منفصلتان ومختلفتان في كل شيء، قام الفرنسيون وقتها بإنشاء وتطوير الجزء الحديث وإهمال الجزء التقليدي القديم كما هي الحال في فاس مثلاً.

تم في فترة الانتداب إصدار مخططين تنظيميين للمدينة يشتركان في العديد من الصفات، حيث تم التركيز على اتجاه النمو المستقبلي للمدينة وذلك في المناطق الشمالية والغربية في محاولة للابتعاد عن المراكز التاريخية القديمة. قام دانجيه بإعداد المخطط التنظيمي الأول:

«Plan d'embellissement et éxtension d'Alep» في عام 1932، حدد هذا المخطط اتجاهات التطور المستقبلي والمحاور الرئيسية لنمو المدينة والذي ابتعد فيه عن المدينة التقليدية وركز على الجهة الغربية والشمالية من المدينة القديمة. لم يتم تطبيق هذا المخطط وإنما تبعه المخطط التنظيمي الثاني الذي تم في فترة الانتداب والذي قام به إيكوشار عام 1938 «projet d'urbanisme» تم تحضير هذا المخطط بالتعاون مع مدير دائرة التخطيط في البلدية نشأت شحادة. تابع هذا المخطط اتجاهات مخطط دانجيه في التوسع والتطور في الجهة الغربية من المدينة القديمة وتم تكريس حوض نهر قويق كمنطقة خضراء صحية تفصل المدينة القديمة عن المدينة الحديثة وتم اعتماد وجائب فارغة حول كل بناء وذلك وفق النظام الأوربي. لم يؤثر المشروع على المدينة القديمة إلا بشكل غير مباشر حيث أن الطبيعة العمرانية لمناطق النمو الحديثة والتي جعلت منها مكاناً مرتفع الثمن منعت الطبقات الوسطى من السكن في تلك المناطق ولجأت هذه الطبقة إلى الانتقال لمناطق السكن المتصل وبعضهم بقي في المدينة القديمة. بينما استطاع السكان الأغنياء السكن في المدينة الحديثة. ومن وقتها بدأ الفصل الاقتصادي بالإضافة إلى الفصل المعماري لمدينة حلب إلى مدينتين قديمة وحديثة.

وشهدت الفترة ما بين عام 1930 وعام 1945 إنشاء العديد من المرافق العامة على محيط المدينة القديمة والتي جاءت جديدة في نوعها وشكل عمارتها بل وبتأثرها بشكل كبير بالعمارة الأوربية. من أهم تلك المنشآت مبان ذات غاية عسكرية مثل الثكنات والمستودعات ومحطات الوقود، إضافة إلى ذلك فإن تطوراً كبيراً حصل في مجال الأبنية الصحية حيث تم إنشاء العديد من المستشفيات العامة والخاصة كما تم إقامة العديد من المرافق العامة للتزويد بالمياه والكهرباء والعديد من المدارس والمعاهد العلمية.

وبرغم أن الوظائف العسكرية والإدارية والصحية والتعليمية والتي كانت بيد الفرنسيين كانت خارج المدينة القديمة إلا أن عملية التطور لم تقتصر فقط على الأحياء الجديدة وإنما انتقلت أيضاً وبشكل كبير إلى المدينة التقليدية لكونها بقيت تلعب الدور الأساسي في الحياة الاقتصادية الاجتماعية والدينية وبهذا حافظت المدينة القديمة على أهميتها الكبيرة مما استدعى

اهتمام الفرنسيين أنفسهم حيث تم إقامة مبنى السرايا الجديد جنوب القلعة ومجموعة من البنوك شمال الجامع الكبير وذلك وفق نظام عمراني مختلف عن الطراز المعماري للمدينة التقليدية وذلك من حيث ارتفاع عدد الطوابق ودراسة الواجهات ودراسة الفراغ الداخلي لتلك المباني حيث كان مغطى وضخماً ويحتوي على الدرج الداخلي الكبير كصلة وصل بين الطوابق المتعددة. عكست تلك المباني الفخامة والقوة كما عبرت عن الوظيفة الجديدة.

ساعد على استمرارية الحياة الاقتصادية بين الأحياء الحديثة وقلب المدينة القديمة مجموعة الشوارع التي تم إنشاؤها في العصر العثماني والتي تم التركيز عليها وتطويرها في عصر الانتداب، إضافةً إلى مد خط الترام من الشرق إلى الغرب ليخدم المدينة القديمة إضافة إلى تخديمه للأحياء الحديثة. ويذكر فيرت [4] في كتابه «حلب» أن طول شبكة الترام في مدينة حلب في عام تشغيله عام 1929 بلغ 6 كم وازداد ليصل إلى 10.4كم عام 1944 ولتنقل 12مليون راكب سنوياً بواسطة 19 عربة رأس و6 عربات ملحقة.

لم تؤثر النظريات الأوربية في العمارة والتخطيط في فترة الانتداب على مدينة حلب بشكل مباشر وذلك لأن سياسة الفرنسيين العمرانية في هذه المدينة قامت على الاستفادة مما كان موجوداً سواء أكان في المدينة القديمة أم في الأحياء الحديثة الواقعة شمال وغرب المدينة التقليدية وتطويره على عكس سياسة الفرنسيين العمرانية في مستعمراتهم حيث كانوا يبتعدون عن المدن التقليدية ويقومون بإنشاء مدنٍ حديثة وفق النظام الأوربي مفصولةً عن المدن التقليدية بمساحة فارغة تسمى الحزام الصحي كما هي الحال مثلاً في فاس حيث ما تزال هناك مدينتان قديمة وحديثة.

المرحلة الرابعة: حلب بعد انتهاء الانتداب الفرنسي

مع انتهاء فترة الانتداب الفرنسي لسورية، شهدت البلاد تطوراً كبيراً في مجال الصناعة والتجارة وانعكس ذلك على تطور وتوسع المدن بشكل

---

[4] المصدر السابق.

أساسي. ففي حلب أدى هذا التطور إلى انتقال العديد من الفعاليات التجارية والإدارية والمؤسسات المالية الكبيرة إلى خارج حدود المدينة القديمة لتشكل المراكز التجارية الجديدة لشريحة من سكان المدينة ذات التوجه الأوربي وذات الدخل المرتفع، ولتبقى المدينة القديمة ومركزها التجاري مكاناً للشريحة التقليدية وذات الدخل المنخفض، إضافة إلى أن إنشاء الحديقة العامة (1948–1950) أدى إلى ازدياد جاذبية وأهمية الأجزاء الحديثة من المدينة. ولكن برغم ذلك فقد تابعت المدينة القديمة ومركزها التجاري تطورها ولم تقف مغلقة باتجاه حركة التطور والتغير الحديثة وذلك للارتباط التجاري وعلاقات التبادل الكبيرة بأسواق التجارة العالمية وتجلى ذلك بشكل كبير في مجال صناعة وتجارة النسيج.

ويذكر الغزي[5] في الجزء الأول من كتابه «نهر الذهب في تاريخ حلب»، أن عدد تجار حلب في تلك الفترة تضاعف ثلاث مرات وقد عمل في التجارة الكثير وبخاصة من العاملين في الصناعات والمهن اليدوية. وقد أدت زيادة عدد العاملين في التجارة وتضخم الثروة إلى زيادة الطلب على المنازل والدكاكين وارتفع ثمنها وأجرتها إلى أربعة أضعاف ما كانتا عليه قبل ذلك برغم حركة البناء الكبيرة التي تمت لتأمين تلك الحاجة وقد ساهم في ارتفاع أسعار المنازل والدكاكين الأعداد الكبيرة لمهاجرين الأرمن من الممالك التركية حيث لم يقل عددهم عن الستين ألف نسمة.

بدأت نظريات تخطيط المدن في أوربا تأخذ منحى جديداً وذلك بسبب ظروف البناء في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وضرورة إعادة بناء المدن بشكل سريع وهذا تطلب سياسات عمرانية جديدة هدفها الأول تحديث تلك المدن وتأمين سهولة دخول وسائل المواصلات الجديدة إلى مراكز المدن عموماً بما فيها المراكز التقليدية ليخدم الفعاليات الاقتصادية المختلفة الموجودة هناك دون احترام خصوصية تلك الأجزاء من المدن. انتقلت تلك الأفكار بسرعة كبيرة إلى المدن العربية الإسلامية ومنها مدينة حلب.

---

[5] كامل بن حسين بن مصطفى بالي الشهير بالغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، الجزء الأول، ص 149.

تحت شعار التحديث والتجديد تم إعداد المخطط التنظيمي الذي قام بوضعه المعماري الفرنسي كوتون والذي شكل بداية التحول الجذري في تخطيط مدينة حلب وفي بنية مدينتها التاريخية القديمة.

ففي عام 1935 كلفت بلدية حلب المعمار أندريه كوتون بدراسة الوضع الراهن للمدينة وتقديم الاقتراحات اللازمة للمخطط التنظيمي لحلب بقسميها القديم والحديث ليتم من خلال ذلك ضبط النمو العشوائي للمدينة.

تقدم كوتون في عام 1954 بمخططه التنظيمي المقترح لتنظيم المدينة وتطوراتها حتى عام 1975 وقد قامت البلدية بدراسة هذا المخطط وتقديم التفاصيل الخاصة لجميع المناطق المدروسة إضافة إلى تقديم «ضابطة البناء» التي تحدد القواعد التنظيمية للمناطق المختلفة وأصول ترخيص الأبنية على أنواعها وقد جاءت تلك الدراسات والتفاصيل بما فيها ضابطة البناء متأثرة بشكل كبير بالقواعد الأوربية في العمارة والعمران كعدد الطوابق ونظام الوجائب ودراسة الواجهات وعلاقتها المباشرة مع الشارع الرئيسي. واعتمد كوتون في دراسته للمخطط التنظيمي على اقتراح حلقتين: الأولى تحيط بالمدينة القديمة موازية للأسوار وتتجه إليها جميع الشوارع المتجهة من المحيط نحو المركز لتأكيد مركزيته، والثانية محيطية على بعد أربعة كيلومترات من الأولى تستخدم للحركة الخارجية وحركة الترانزيت، يربط بين الحلقتين محوران أساسيان: الأول يتجه من الغرب نحو الشرق ليخترق المدينة القديمة ويشطرها إلى شطرين ليصل بين الطريق القادم من جنوب وغرب سوريا مع الطريق المتجه نحو الشرق (ربط البحر بالصحراء)؛ والثاني شمالي جنوبي يتعامد مع المحور الأول ويخترق المدينة القديمة أيضا ليصب أمام مدخل الجامع الكبير بعد أن يخترق الأحياء السكنية للمدينة القديمة خارج الأسوار. أدى التنفيذ الجزئي لمخطط كوتون إلى هدم عشر المدينة القديمة داخل الأسوار مع العديد من الأبنية الأثرية الهامة، وانقسمت المدينة القديمة داخل وخارج الأسوار إلى مجموعة من الجزر ويفصل بينها شوارع رئيسية تم بناء أطرافها وفق نظام عمراني يختلف بشكل كبير عن نظام بناء المدينة القديمة.

تابعت الأفكار التخطيطية الحديثة التي بدأها كوتون في مخططه التنظيمي تأثيرها على تخطيط مدينة حلب. ففي عام (1972-1974) قام المعمار الياباني بانشويا والجغرافي الفرنسي جان كلود دافيد بالتعاون مع مكتب التخطيط في البلدية بوضع مخطط تنظيمي جديد يتعامل بحذر واحترام أكبر مع المدينة القديمة ويهدف إلى حماية منطقة السوق التقليدي وبعض أحياء المدينة القديمة داخل الأسوار من عمليات التدخل والإزالة، حيث تم استبدال شوارع الاختراق المقترحة في مخطط كوتون باقتراح شوارع تخديمية مغلقة النهاية تتجه من المحيط إلى المركز واقتراح مواقف للسيارات التي تخدم الأحياء السكنية والتجارية في حلب القديمة. وبرغم أن اختيار هذه الشوارع ومواقف السيارات قد تمت بحذر ودقة مع المحافظة على الصلة التقليدية بين المركز التجاري القديم وبين أبواب المدينة إلا أنه أدى إلى هدم أجزاء ومبان هامة من المدينة التقليدية داخل الأسوار. كما تم في هذا المخطط تأكيد استمرار محور المدينة غرب-شرق لتنفيذ ما تبقى منه ابتداء من السجن القديم مروراً بالبياضة وحتى الكروم الشرقية ليتابع مسيرته نحو المطار ليقسم المدينة القديمة شمال الأسوار إلى قسمين شمالي وجنوبي، كما تم لتأكيد ضرورة الاستمرار في تنفيذ المحور القادم من مدخل الجامع الأموي شمالاً باتجاه شارع عبد المنعم رياض حتى حي الجديدة ليرتبط بمحور أقيول وتقسيم المدينة القديمة شمال الأسوار إلى قسمين وإلى إزالة العديد من الأبنية الأثرية الهامة. إضافةً إلى ذلك فقد اقترح هذا المخطط هدم المنطقة الشمالية الغربية داخل الأسوار في منطقة باب الفرج (بحسيتا) والذي تم تنفيذه بين عامي 1979 و1980 برغم المعارضات المحلية الكبيرة لذلك.

إن المعارضة الشعبية الكبيرة وخاصة من قبل الفنيين والمثقفين التي قامت وتمت تجاه مخطط 1974، أدى إلى مبادرة المديرية العامة للآثار عام 1976-1985 بتسجيل أجزاء المدينة القديمة تباعا كمناطق أثرية يمنع الهدم والبناء فيها إلا بموافقة السلطات الأثرية، كما كان للندوة العالمية التي تم تنظيمها حول مدينة حلب في عام 1983دور كبير في إيقاف العمل بمشروع المخطط التنظيمي لعام 1974، إضافة إلى الجهود التي تم بذلها في هذا الإطار وأدت إلى تسجيل المدينة في لوائح اليونسكو للتراث الإنساني العالمي.

عند تقييم تأثير الأفكار الأوربية في العمران على بنية مدينة حلب في هذه المرحلة نجد أن نتائجها كانت سلبية جداً على تخطيط المدينة وهذا لا يعود فقط إلى الأفكار والنظريات التخطيطية الأوربية وإلى عدم ملاءمتها للبنية التخطيطية للمدينة العربية، وإنما إلى قصور في القرار الفني للقائمين على العمل في الهيئات والمؤسسات المحلية المعنية والمتمثل في الفهم الخاطئ لعملية التطوير والتحديث وذلك من خلال ربطها بالمفهوم الأوربي لتلك العملية، إضافة إلى ذلك فإن الرؤية الفردية القاصرة والاجتهادات الشخصية لأصحاب القرار الفني مدعومة برغبة المستثمرين وأصحاب الأموال وفي الوقت نفسه مراكز القوى المؤثرة على نوعية القرارات التخطيطية في المدينة وفي مركزها عموماً ومركزها التاريخي خصوصاً كان له الدور الكبير في تبني هذه الأفكار وفي تشجيعها لما تحققه من استثمارات جديدة في مراكز المدن.

كما أدت طريقة التعامل الخاطئة مع تلك المخططات ومع الدراسات التفصيلية العمرانية التي تبعتها إلى نتائج سلبية أهمها استصدار القرارات التي ارتبطت بتحقيق أهداف التخطيط ومازال بعضها ساري المفعول برغم إلغاء المخطط التنظيمي نفسه مثل قرارات الاستملاك والتجميل وبعض الأنظمة العمرانية الأخرى التي رافقت تلك المخططات وأدت في النهاية إلى تقسيم المركز التاريخي إلى مجموعة من الجزر تفصل بينها شوارع ذات حركة سيارات كثيفة وتظهر على أطرافها المباني العالية التي خربت خصوصية المدينة القديمة وكانت غريبة عن النسيج العمراني التقليدي.

المرحلة الخامسة: التعاون المشترك بين الجهات الأوربية في عملية التخطيط

بقي التأثير الأوربي على المدينة وعلى تخطيطها وطرق حل مشاكلها مستمراً حتى اليوم، ولكن لتحتل المدينة القديمة في حلب حالياً اهتمام الأوربيين الأكبر حيث قاموا بإعداد الكثير من الدراسات النظرية والميدانية حول هذه المدينة والمشاكل التي تعاني منها وطرق حلها، منها ما تم بشكل شخصي ومنها ما كان في إطار البعثات الدولية مثل اليونسكو، وذلك بناءً

ى طلب من الهيئات المحلية في المدينة. ولقد أخذ التأثير الأوربي على
طور العمراني للمدينة في وقتنا الحالي طرقاً وأشكالاً جديدة من حيث
شكل والمضمون وليظهر من خلال مشاريع مشتركة تساهم فيها الخبرات
أوربية والخبرات المحلية في المدينة جنباً إلى جنب لحل المشاكل العمرانية
المعمارية المختلفة في المدينة في محاولة لفهم تلك المشاكل من وجهة نظر
كانها المحليين ومن خلال رؤية الفنيين المحليين لها والاستفادة ما أمكن من
جربة الأوربيين التي سبقت في حل مثل تلك المشاكل. وبرغم الحذر الكبير
ن قبل الأوربيين في التدخل في السياسات العمرانية للمدينة إلا أن معارضة
كبيرة قامت ونمت حول ذلك التدخل من قبل السكان العاديين كما من قبل
المثقفين في المدينة وما هذا إلا ردة فعل طبيعية ودليل وعي عند سكان هذه
المدينة لأخطار مثل هذا التدخل وذلك نتيجة للممارسات التخطيطية التي تمت
من قبل الأوربيين في فترة الخمسينات وحتى السبعينات وما تركه ذلك من
نتائج سلبية ما زالت المدينة تعاني منها حتى اليوم. وربما كان أكبر مشروع
مشترك بين الجهات المحلية والخبرات الأوربية اليوم في المدينة هو مشروع
إحياء حلب القديمة، المشروع المشترك بين بلدية حلب والمؤسسة الألمانية
للتعاون التقني. تم وضع استراتيجية عمل مشروع إحياء حلب القديمة بحذر
كبير بهدف تطوير المدينة القديمة وتشجيع سكانها المحليين على البقاء فيها
إلا أن ذلك لا يخلو من بعض النتائج السلبية والتي يمكن تحديد ملامحها
لاحقاً بشكل أكبر.

مما تقدم نجد أن حلب لم تقف يوماً عاجزة عن استيعاب المؤثرات
الأوربية بل واجهتها، تفاعلت معها وعالجتها بطرق مختلفة، نجحت أحياناً
وأخفقت أحياناً أخرى. ولكن برغم ذلك فقد كونت المدينة بجزأيها التقليدي
القديم والأوربي الحديث الذي أقيم وفق الأسس التخطيطية الأوربية مدينة
متكاملة تربط بين جزأيها علاقات اقتصادية اجتماعية إضافة إلى العلاقات
التخطيطية المعمارية. ولكن في الوقت الذي كانت فيه تلك العلاقات
التخطيطية في انسجام كامل وذلك حتى الستينات نجد أنها قد تغيرت فيما بعد
لتصبح علاقة تنافر وعدم انسجام سواء كان هذا التنافر وظيفياً أو تخطيطياً
معمارياً حيث نجد وفي كثير من الواقع العمارة الحديثة (العالمية) وقد

اقتحمت النسيج التقليدي للمدينة القديمة مشوهة في ذلك الخصوصية والاستمرارية في التكوين التخطيطي والوظيفي.

ولكن لم يقتصر تأثير العمارة الأوربية أو فيما بعد «العمارة العالمية» في التأثير على مركز المدينة أو المدينة التاريخية فحسب وإنما انتقل طراز التخطيط والبناء هذا إلى الأحياء الحديثة في مختلف جهات المدينة ولتصبح تلك الدراسة العمرانية المعمارية نمطاً سائداً في المدينة برغم عدم ملاءمتها للظروف والمعطيات البيئية والاجتماعية ولتصبح تلك النظريات في تخطيط العمارة إحدى المشاكل المطروحة حالياً على المستوى الهندسي.

إن عملية التأثر والتأثير على مستوى بناء المدن كانت ومازالت إحدى مقومات تطور المدن وازدهارها ولكن يبقى أن نقول أن عملية التأثر في حلب كانت في بعض مراحلها إيجابية حين احترمت ما هو موجود وحين عبرت عن احتياجات السكان واحترمت طريقة حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وكانت سلبية عندما كان ذلك استيراداً للأفكار والنظريات دون مراعاة ملاءمتها للواقع المحلي بجميع جوانبه.

تبقى المهمة المستقبلية للفنيين وأصحاب القرار كبيرة في الاستفادة من التجارب السابقة وذلك حين وضع السياسات العمرانية المستقبلية للمدينة أو حين محاولة حل مشاكلها.

المراجع

المراجع العربية

ـ المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، شاكر مصطفى [أشرق لبن]، دمشق دار طلاس، الطبعة الثانية، 1997،

ـ بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم 11مجلد، تحقيق سهيل زكار، دار البعث، دمشق 1988.

ـ مجموعة مقالات ومحاضرات، الدكتورة فاتنة كردي.

ـ موسوعة حلب المقارنة، الأسدي م خير الدين، 7 مجلدات، جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1981.

ـ نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين بن مصطفى بالي بالغزي، المطبعة المارونية بحلب 1342 هجرية، الجزء الأول.

المراجع باللغة الأجنبية

Gaube (H.) et Wirth (E.)

1984 *Aleppo*, Ludwig Reichert, Wiesbaden.

Saliba (R.)

1998 *Beirut* 1920- 1940 , Domestic Architecture between tradition and modernity, Beirut.

1998 Development Plan, The Rehabilitation of the Old City of Aleppo, the City of Aleppo, Syria.

1998 Environmental Design, European Houses in the Islamic Countries, IEDRC, Roma.

تطورات بصرى في القرنين التاسع عشر والعشرين

جان كريستوف مونسل Jean-Christophe Moncel

مهندس معماري

من خلال دراسة الوثائق المكتوبة والمرسومة التي تركها لنا رحالة القرن التاسع عشر، وبفضل سلسلة من الصور الجوية التي تغطي فترة تمتد من عام 1916 أو 1918 وحتى عام 1957، وبفضل التحقيقات التي أنجزت ميدانياً في عامي 1996 و 1997، تم تحديد مرحلتين رئيسيتين في عملية تطور بصرى، يفصلهما عن بعضهما البعض برنامج لتحسين الموقع: مشروع روبرت آمي Robert Amy.

المرحلة الأولى: إشغال الفضاء «المسور»

الطور الأول: استقرار حديث أم استمرارية لاستيطان قديم؟

كانت بصرى تضم في عام 1596 ما يقارب الـ 500 نسمة (80 % مسلمون و 20 % مسيحيون)[1]. وأثناء القيام بهذه الدراسة التي نقدمها هنا، لم نتمكن من جمع المعلومات التي تغطي الفترة الممتدة من مطلع القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، والمتعلقة باستقرار السكان أو تواجدهم في بصرى.

ماذا كان هناك في القرن التاسع عشر في منطقة حوران الواقعة تحت سيطرة القبائل البدوية؟ هل يمكن أن يكون موقع كبير مثل بصرى مهجوراً

[1] X. D. Hütteroth, et K. Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16 th Century*, Etude de l'Institut de Geographie d'Erlangen, 1977, vol. 5, carte 1 / Settlements and population 1005 H. / 1596 A. D.

كلياً؟ فإن كانت المصادر غير وافية للإجابة على هذين السؤالين، يمكن بالرغم من ذلك الاستناد إلى الدراسات التي تمت حول نشوء وتطور قرى الشرق الأوسط، في سورية والأردن في القرنين التاسع عشر والعشرين، وطرح فرضية مسبقة يمكن بموجبها أن يكون موقع بصرى مسكوناً في تلك الفترة.

لقد كشفت تلك الدراسات عن وجود العديد من الثوابت في اختيار الموقع وفي سيرورة الاستقرار.

ففي دراسة عن تطور ثلاث قرى في جنوب الأردن[2]، يبين بيورز Biewers أن هناك أربعة معايير حاسمة في اختيار الموقع لإطلاق عملية الاستقرار، وهي بحسب الأولوية:

- القرب من مصدر مائي.
- إمكانية الدفاع عن النفس أو الهروب من العدو.
- وجود أراضٍ زراعية ومراعٍ.
- إمكانية العثور بالقرب من الموقع على مواد البناء الضرورية لإقامة الأبنية.

إن المواقع المدروسة قد سكنت من جديد من قبل فرع أو أكثر من القبائل البدوية الرحل الباحثة عن الاستقرار لكي تستطيع ممارسة الزراعة والرعي في آن واحد معاً. ففي بداية عملية الاستقرار، نجد أن نمطي السكن (الخيمة والمنزل) قد كانا يتعايشان متجاورين الواحد جانب الآخر[3]. وكانت المنازل الأولى متباعدة وهي إعادة إنتاج لمضرب الخيم عند البدو، كما أن موقع الاستقرار لا يُسكن سوى جزءاً من السنة[4].

---

[2] M. Biewers, *Les villages de 'Aima, Dana et Khiirbet Nawafleh, l'habitat traditionnel du sud de la Jordanie*. Ambassade de France et Ministère du Tourisme de Jordanie. 1993. p. 5.

[3] P. Desfarges, *Formation et transformation de l'éspace domestique en Syrie centrale*. E. A. Lyon, 1983. Travail personnel de Troisième Cycle. Ministere de l'urbanisme et du logement.

[4] O. Aurenche, «pour une éthnoarchéologie des cycles d'évolution dans l'habitat du Proche-Orient». in *Studies in Historiy and Achaeology of Jordan*. V. Amman. 1995. p. 307-319.

ويستجيب موقع بصرى لمعايير الاختيار المذكورة من قبل، بهدف إطلاق عملية الاستقرار. فهناك نبع دائم للمياه الصالحة للشرب وعدد كبير من خزانات الماء المفتوحة تتسع لما يكفي من الماء لسقاية قطعان الماشية على مدار السنة. والقلعة هي ملاذ حصين، مبنية فوق هضبة زراعية خصبة حيث يمكن ري الأراضي المجاورة بسهولة من الوديان التي تمر من الشمال ومن الجنوب. هناك حقل واسع من الخرائب يمتد عند أسفل القلعة. والآثار المحفوظة جيداً يمكن أن تحوّل بسرعة إلى زريبة أو مأوى، والأخرى تسهل عملية بناء المنازل بالاعتماد على جدران ما تزال قائمة أو على الأساسات الأولى للجدران الموجودة، في حين أن الأنقاض تشكل مقلعاً مكشوفاً سهل الاستغلال.

وإذا ما وثقنا بروايات الرحالة الغربيين الذين عبروا حوران في القرن التاسع عشر، يمكن أن نحدد أن الموقع قد سكن في عام 1812، وهو التاريخ الذي مر فيه بيركهاردت Burckhardet بالعاصمة القديمة لمقاطعة شبه الجزيرة العربية الرومانية. وهو يصفه بقوله : «إنه الآن آخر موقع مسكون في أقصى الجنوب الشرقي من حوران». وفقط «الأحياء الجنوبية والجنوبية الشرقية مغطاة بخرائب من المنازل الخاصة، وكثير منها ما زال يحافظ على جدرانه، في حين أن معظم الأسقف قد انهارت»[5].

ولا يذكر الكاتب وجود خيم ترتبط بالمنازل. على كل حال، تبقى هذه المعلومات غير كافية لمعرفة إن كان الموقع مسكوناً بشكل دائم أو مؤقتاً، ولا يمكن أيضاً تحديد نوعية السكان الذين أقاموا هنا: مستقرين أم نصف رحل.

وإذا قابلنا المعطيات التي قدمها بيركهاردت مع تلك التي يقدمها لنا مؤلفون معاصرون، تم ذكرهم من قبل، يمكن أن نضع ثلاث فرضيات:

الفرضية الأولىالتي يمكن أن تطرح منذ الآن هي أن كانت بصرى مسكونة من قبل فرع أو عدة فروع من القبائل الرحل، والتي عاد الجزء الأساسي من أفرادها إلى نمط حياة الترحال بعد أن أقاموا في الموقع بضعة أشهر أو عدة سنوات. وربما يكون بيركهاردت قد مر أثناء غيابهم ولم يلتق

[5] J.-L. Burckhardet, *Travel in the Holy Land*, London, 1822, p. 226.

سوى بعض الأفراد المكلفين بحراسة الموقع.

أما الفرضية الثانية فهي تقدم على مسرح الأحداث سكاناً من المزارعين – الرعاة.

ويجب الإشارة هنا إلى أن بيركهاردت لا يتحدث عن وجود خيم أو خيم مرتبطة بالمنازل. ويعود هذا إلى خصوصية حالة بصرى التي توصف على أنها عبارة عن حقل واسع من الخرائب. فإن كان نمطا السكن قد تعايشا جنباً إلى جنب، فلا بد أن الخيم قد نُصبت بعيداً عن المنازل، فتجمع الحجارة كان كبيراً لدرجة لايمكن معها نصب خيمة دون القيام بعمل ضخم لإزالة الحجارة. ولا بد أن المسافة بين الخيم والمنازل كانت بعيدة وتبلغ عدة مئات من الأمتار، الأمر الذي يطرح مشكلة ألا وهي مراقبة وإدارة السكن، فإن كانت الحالة هكذا، فعلى الأغلب أن عملية هجر الخيمة كانت سريعة.

أما الفرضية الثالثة فهي تعتبر أن السكان المقيمين في بصرى عبارة عن جماعة صغيرة من الفلاحين المستقرين، أصلهم من الموقع أو من المنطقة أو أنهم هاجروا إليها.

أياً كانت طبيعة السكان المستقرين في بصرى، فبإمكاننا أن نؤكد أن السكان كانوا في البداية متجمعين في الجزء الشرقي من الموقع، حيث الخرائب محفوظة بشكل أفضل من أي مكان آخر. فاستخدام الموقع مرتبط بحالة الخرائب التي لا تمنع من إعادة إنتاج التقسيم الموجود في مضرب البدو، وذلك عندما يكون السكان من البدو الرحل.

الطور الثاني: تكثيف السكن

إن مخطط بصرى الذي وضعه راي Rey في عام 1827 (الشكل 1) يظهر نسيجاً قروياً كثيفاً بما فيه الكفاية لكي تظهر شبكة الطرق بشكل واضح فوق مخططه. يمكن أن نحصي 13 مقسماً، متجمعين في الجزء الشرقي من الموقع، ويسكنها ما بين 30 و 40 عائلة[6].

---

[6] E.-G. Rey. *Voyage dans le Haouran et aux abords de la mer Morte, éxecute pendant les années 1857 et 1858*. A. Bertrand Libraire Editeur. Paris.

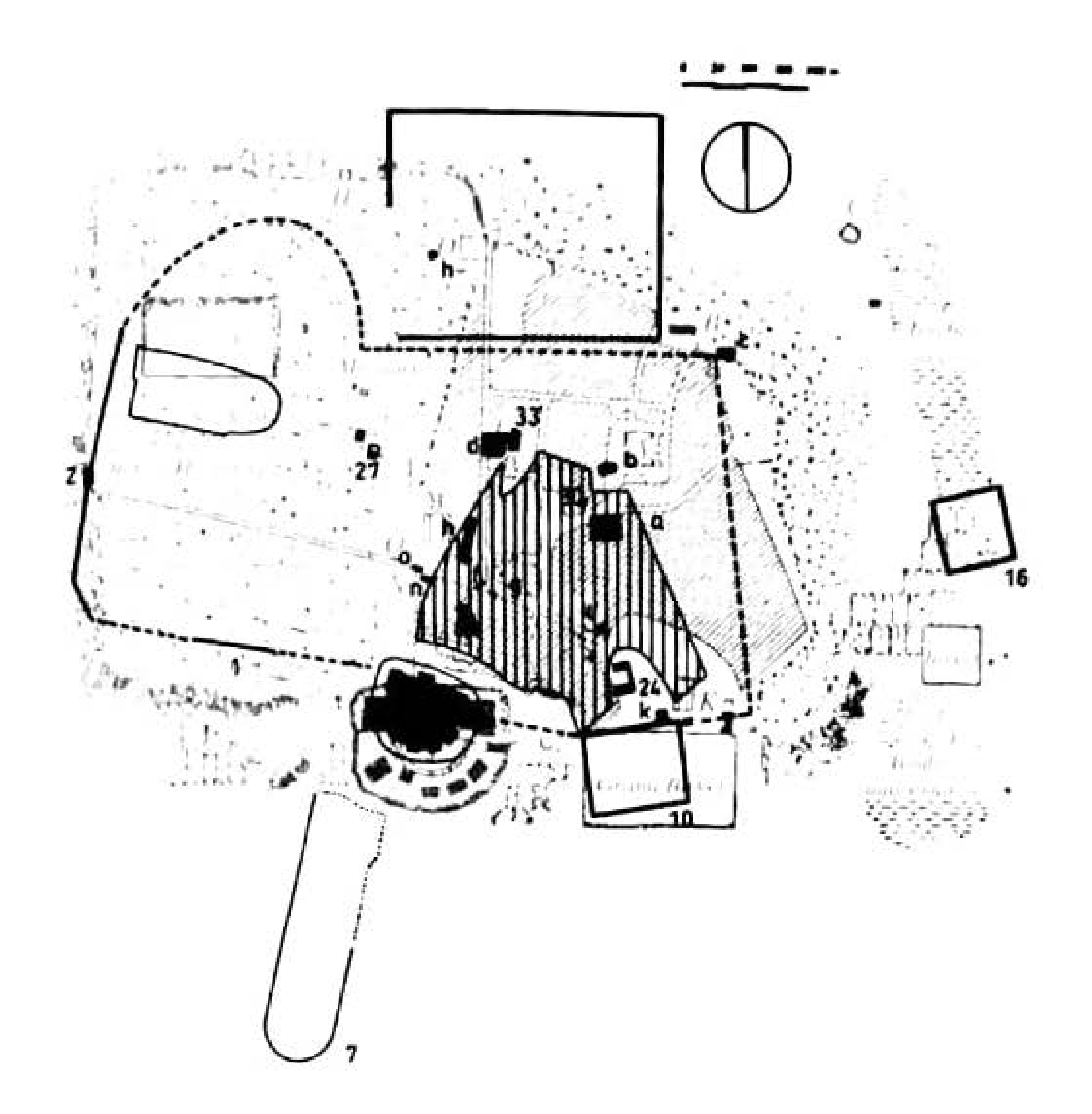
وبحسب المعلومات التي يقدمها مخطط راي والمنقولة إلى المخطط الحالي للحي القديم، بإمكاننا أن نقترح تقديراً أكثر دقة للمساحة ولشكل الفضاء الذي تشغله القرية (الشكل 1). إن الحدود الجنوبية والغربية والشمالية المحددة بواسطة الأبنية الأثرية المفهرسة (القصر المسمى بـ «تراجان» (24)، مجمع الحمام في الجنوب (11)، الجامع العمري (د) كنيسة بُحيرة (ب))، قد درست بدقة، وفي المقابل فإن النقطة التي تحدد ميدانياً الزاوية الجنوبية الشرقية، لم تقرن بأي بناء أثري، ومن الصعب تحديد موضعها. فقد حدد موقعها من خلال رسم خط مستقيم مواز للحدود التي أعطاها راي، انطلاقاً من أبنية معروفة: مدرسة الدباغة وكنيسة بحيرا. إن تقاطع الخطين المستقيمين يعطينا موقع الزاوية المفقودة.

وبحسب هذا التقدير، فإن القرية قد تأسست في الجزء الجنوبي الشرقي من الموقع وكانت تشغل مساحة قدرها 12 هكتاراً، أي 20 % من مساحة المدينة المسورة: ومقارنة بالوضع في عام 1812، فإن الفضاءات العمرانية غير المبنية ولكن المزدحمة بالخرائب والتي كان عليها أن تفصل بين الأبنية الأولى قد تم تكثيف البناء فيها.

ويؤكد بتلر Butler في مطلع القرن العشرين بأن القرية تحتل الجزء الجنوبي الشرقي من الموقع، مما يدعم الفرضية المتعلقة بتأسيس القرية التي ذكرناها سابقاً بحسب وثيقة راي. أما بالنسبة لمساحتها فهو يقدر بأنها تحتل 1/6 مساحة الفضاء العمراني المسور[7]. وإن اعتبرنا أن هذا الأخير يتوافق مع ذلك المشار إليه على المخطط (الشكل 1)، أي 58 هكتاراً، فإن مساحة القرية سوف تكون 9.6 هكتاراً وهو رقم أقل من ذاك المأخوذ من تقدير وضع القرية في عام 1857. وفي المقابل، إن أضفنا المعسكر الروماني إلى هذا الفضاء العمراني المسور، فإننا نحصل على مساحة تبلغ 74 هكتاراً، وفي هذه الحالة تكون مساحة القرية 12 هكتاراً، ومشابهة إلى تقدير 1857.

---

[7] H.-C. Buthler, *Publications of Princeton University Archaeological Expeditions to Syria*, in 1904-05 and 1909, Leyden, 1907-1949, p. 222.



الشكل 1: بصرى، وضعية المساحة التي تشغلها القرية في عام 1857 بحسب مخطط لراي (وثيقة رسمت بحسب مخطط أنجزه جان ماري دانزر)

مخطط بصرى: راي. أ. ج Rey. E. G: رحلة في حوران وعلى أطراف البحر الميت، تمت في عامي 1857 و 1858، منشورات A. Bertrand، باريس.

الحد المفترض ....

للمدينة المسورة

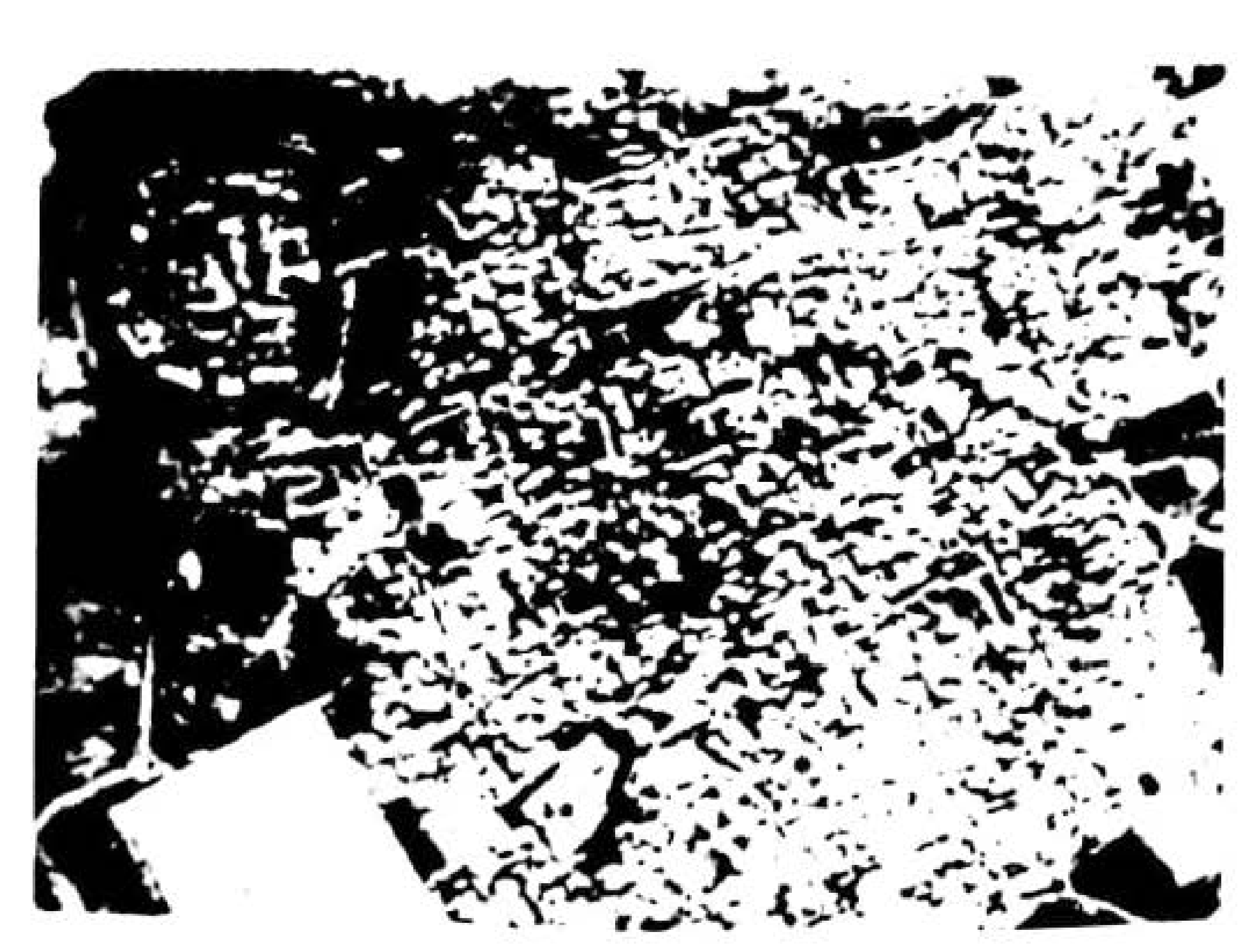
1 ــ السور
2 ــ باب الهوى
7 ــ ميدان الخيل
10 ــ خزان الماء الجنوبي
11 ــ الحمام الجنوبي
16 ــ خزان الماء الشرقي
24 ــ القصر المسمى «تراجان»
27 ــ جامع الخضر
30 ــ جامع الفاطمة
32 ــ قبر ياقوت
33 ــ حمام منجق

A/a الكنيسة الكبرى
B/b دير بحيرة
C/c جامع المبرك
D/d جامع عمر بن الخطاب
E البازار العربي القديم
F/f أعمدة أثرية
G/g بوابة
H/h حمام
K/k جامع متهدم
L/l قصر متهدم؟
M باب النصر
N/n قوس النصر
O/o قواعد الأعمدة

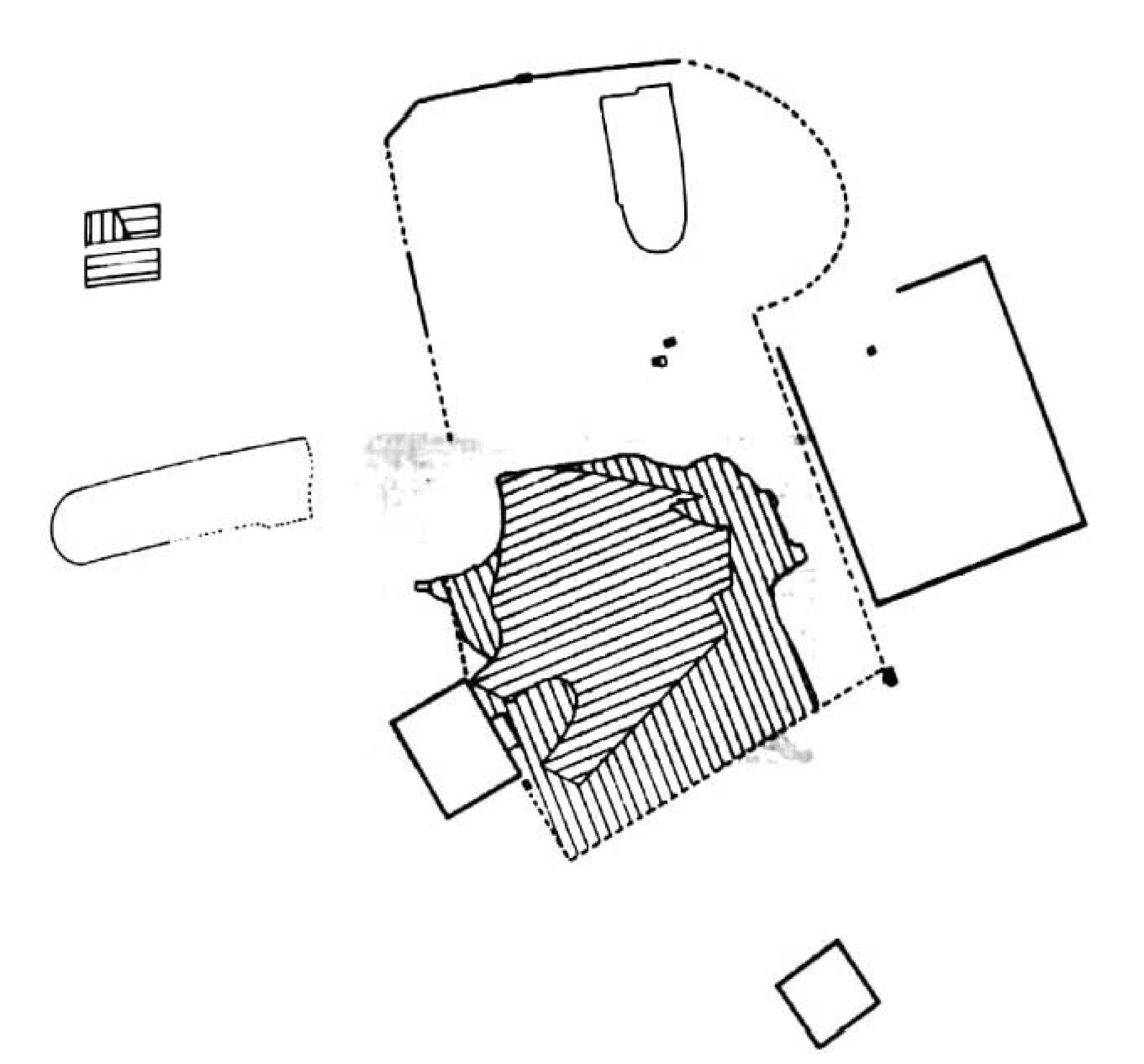
يجب ألا ننسى أنها عبارة عن تقديرات. حتى وإن لم تكن تتقاطع تماماً، فيمكن أن نفترض أن مساحة القرية لم تتغير كثيراً في الفترة الواقعة بين مرور هذين الرحالتين. كما أن مرحلة تكثيف السكن لم تكتمل بعد.

الطور الثالث: انتقال السكن نحو الشرق

لا تغطي الصورة الجوية التي التقطها الجيش الألماني في عام 1916 أو 1918 كامل المساحة التي تشغلها القرية (الشكل 2)، فتركيزها الضيق لا يظهر الزاوية الجنوبية الشرقية. ومع ذلك فمن الممكن اقتراح تقدير جدي لامتداد القرية، (الشكل 3)، التي تحتل مساحة تبلغ 23 هكتاراً، أي 43 % من مساحة المدينة المسورة. فخلال 60 عاماً تضاعفت المساحة التي تشغلها القرية. إن طور القرن التاسع عشر والذي امتد إلى مطلع القرن العشرين قد انتهى. وبما أن الفضاء الذي سيبنى قد اكتمل، كان لا بد من احتلال مناطق أخرى. لقد بنيت القرية الموجودة بطريقة «مفصلية» وظلت وحدة سكنية جديدة مندمجة مع النسيج العمراني القائم. لقد تم التوسع بشكل رئيسي نحو الشرق، حيث تصل البيوت إلى المكان المفترض للسور دون أن تتجاوزه. كما استمر التوسع نحو الشمال والجنوب ولكن بحجم أقل، وهو غائب تقريباً في الغرب.



الشكل 2: صورة جوية التقطها الجيش الألماني عام 1916 أو 1918



الشكل 3: بصرى، وضع القرية في عام 1916 أو 1918، (وثيقة تم إنجازها بالاعتم
على مخطط جان ماري دنزر)
الوضع عام 1857
المساحة التي تشغلها القرية

يتوسع الفضاء المبني فوق خرائب بصرى القروسطية غير الصالح
للزراعة. أما الاحتياطي من الأراضي الزراعية الواقع في الجزء الغربي من
الموقع وخارج فضاء المدينة المسورة فهو لم يمس بعد.

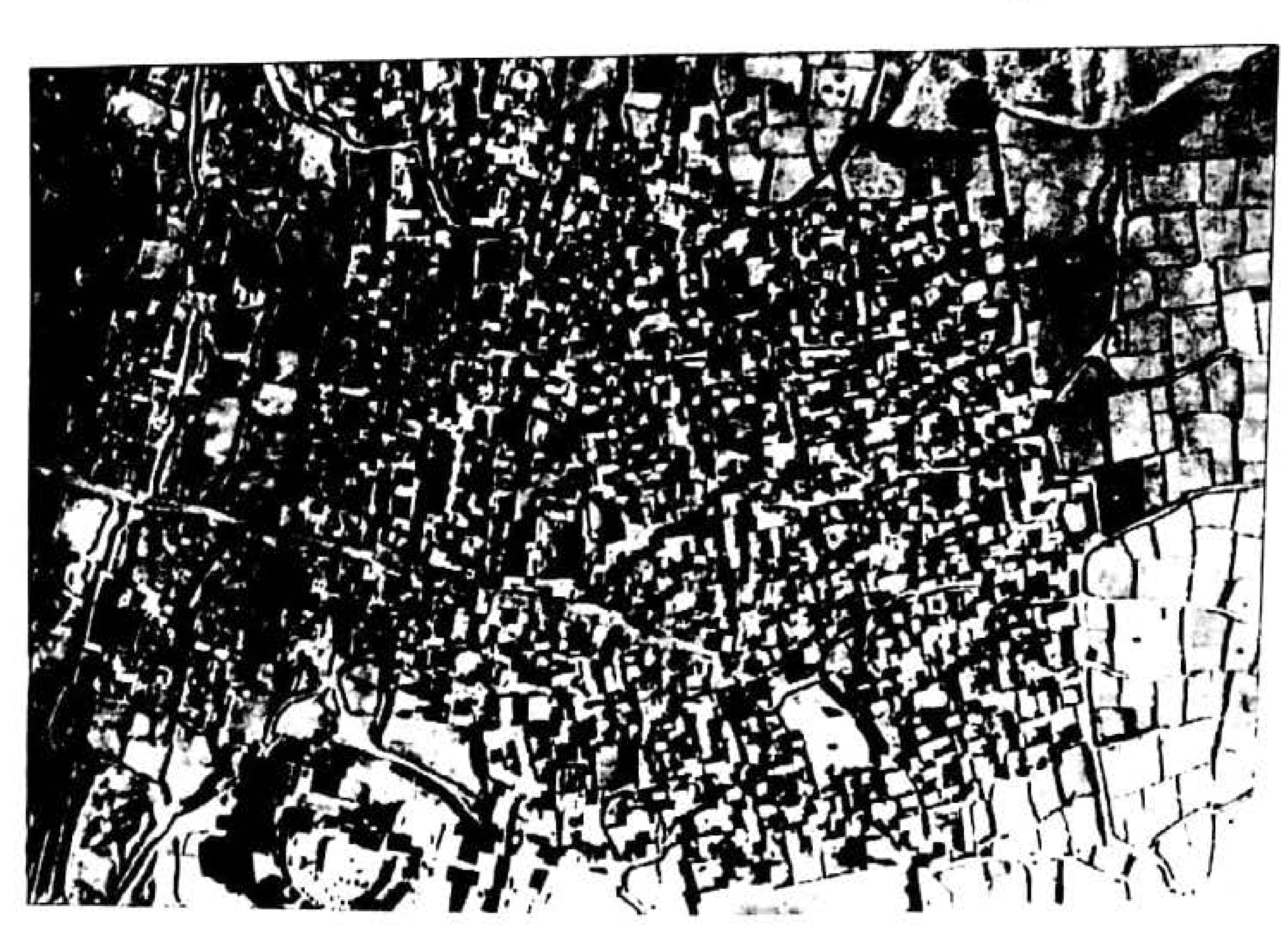
تتكون القرية حالياً من عنصرين: نواة أصلية كثيفة ومحيط أقل كثافة
ولا يشكل العنصران وحدة واحدة: إن شبكة الشوارع واحدة في كل القرية
فالشوارع والأزقة ذات الشكل المتعرج ترسم مقاسم ذات محيط معقد
وترفدها من الأطراف الشوارع المغلقة، فالشارع الذي يربط بين باب الهوى
والقوس النبطي لا يختلف كثيراً عن الشوارع الأخرى، طالما أن خط سير
قليل الوضوح. فهو يغير اتجاهه أربع مرات بدءاً من الأبنية الأولى الواقعة
في الغرب وصولاً إلى القوس.

وعلى غرار عدد كبير من الشوارع الأخرى، فإن هذا الشارع العريض أحياناً يضيق في بعض الأماكن، وهو يخضع للنمو البرعمي لبعض المقاسم، الذي يستبعد أي خط سير منتظم للشارع.

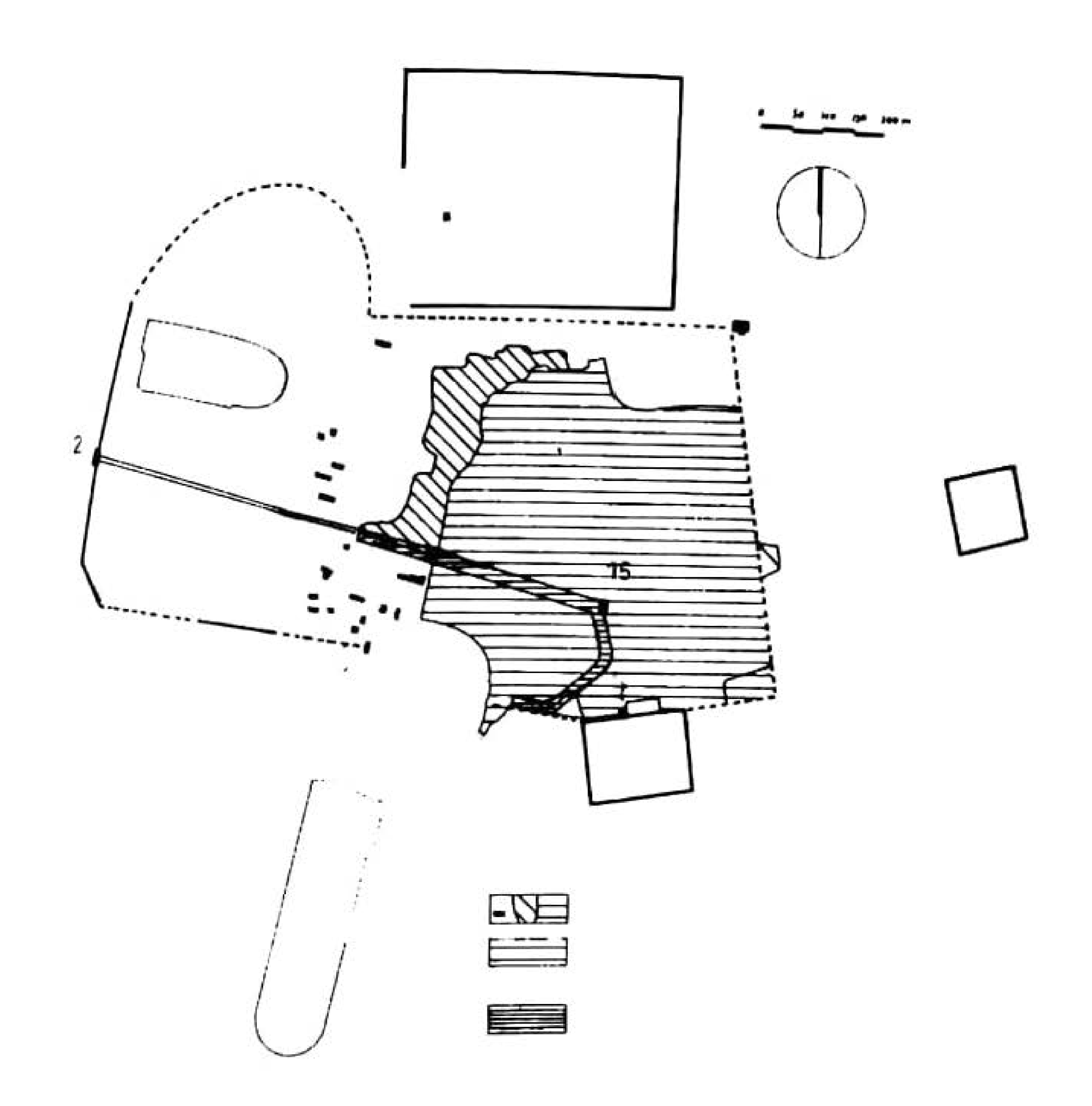
وعلى كامل مساحة القرية، نجد أن كل المنازل مبنية من حول فناء أو أكثر بحسب طرق بناء متشابهة.

الطور الرابع: تكثيف عمراني جديد

لا تغطي الصورة الجوية المأخوذة من قبل الجيش الفرنسي للمشرق في عام 1929، كامل الموقع، ومع ذلك فهي تبين كل المساحة التي تشغلها القرية (الشكل 4)، والتي توسعت قليلاً مقارنة بالوضع في عام 1916 (أو 1918)، لكي تنتقل من 23 هكتاراً إلى 26 هكتاراً أي زيادة بنسبة 14 %، وهكذا فهي تمثل نسبة 44 % من المساحة المسورة (الشكل 5). كما نلاحظ تكثيفاً عمرانياً في الأطراف.



الشكل 4: صورة جوية لبصرى ــ الجيش الفرنسي في المشرق



الشكل 5: بصرى: وضع القرية في عام 1927 (أنجزت هذه الوثيقة بالاعتماد على مخططات جان ماري دانزر)

وفي عام 1929 جرت أعمال تنظيمية في بصرى على مستوى البلدة. ففي قسمها الشرقي، اعتمد الشارع، الذي يربط بين باب الهوى (2) والقوس النبطي (15)، في مركز القرية، خط سير مستقيماً جزئياً، فالواجهة الشمالية للمقاسم التي تحده من الجنوب قد عدلت لتعطيه شكلاً منتظماً، في حين أن واجهته الجنوبية ما زالت تحتفظ بخط متعرج. وهكذا فقد صار هذا الشارع يتميز عن الشوارع الأخرى باتساعه وشكله المنتظم: فقد أصبح المحور الرئيسي الذي يؤدي إلى طريق درعا. وبهذا الخصوص، نعتقد أنه يلعب دوراً هاماً في توسع القرية، الذي سيتوقف من جهة الشرق. ففي عام 1929،

لم تبن سوى قطعة أرض واحدة وراء جدار السور الشـــرقي. ومنــذ ذلــك الحين، بدأ توسع القرية يتجه نحو الغرب، يجذبه الشارع المستقيم الذي يـؤدي إلى درعا. وتحترم الأبنية استقامة هذا الشارع على كامل امتداده. إننا نشـــهد انقلاباً كبيراً في نمط تشكل المدينة: فشبكة الطرق لم تعـــد نتيجـــة لنمـــو أو لتشكيل المقاسم، وإنما تهيكل وتنظم هذا النمو.

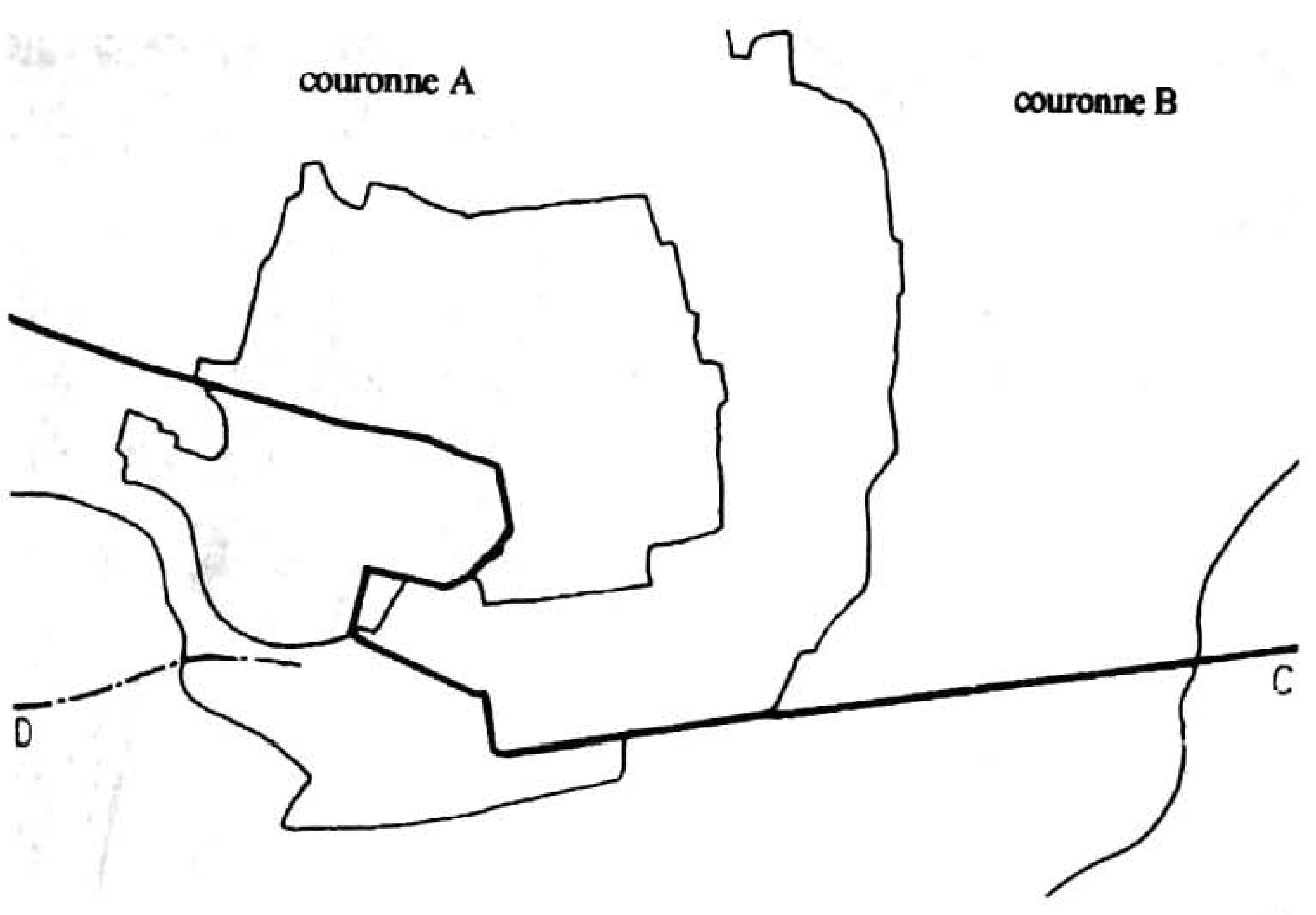
الطور الخامس: انطلاق التوسع نحو الغرب

لا يسمح تحليل مشترك للصور الفضائية لعامي 1916 و 1929، بـــالقول إن كان تكثيف السكن في الأطراف قد سبق التوسع نحو الغـــرب. ولكـــن إذا استندنا إلى الوضع في عامي 1812 و 1857، يمكن التفكير بشكل منطقـــي أن الأول قد سبق الثاني. وقد تجلت ظاهرة جديدة في الجزء الغربي دوماً: فقـــد أنشئت أبنية منعزلة فوق أراضٍ زراعية قديمة على بعد مئة متر من القريـــة تقريباً. وهي تحتل مساحة تبلغ 7 هكتارات، مما يرفع المساحة الكلية إلـــى 33 هكتاراً، أي 56.9 % من المساحة الواقعة داخل الأسوار (الشكل 5). ويظـــل القسم الغربي من الموقع، المجزأ إلى قطع عديدة مزروعة بالتأكيد، والمســـور بالجدران والمخدَّم بالطرق، قليل البناء.

يمكن أيضاً تفسير تغيير الاتجاه الذي عرفـــه توســـع القريـــة بطبيعـــة الأرض الواقعة عند أطرافها. فالجزء الغربي من الموقع الـــذي بنـــي منـــذ العصر النبطي، يقدم على الأغلب مردوداً زراعياً أضعـــف مـــن الأراضـــي الواقعة فيما وراء الفضاء المحصور داخل الأسوار.

إن تركيز الصورة الجوية (الشكل 6) الذي يظهر القرية مـــع محيطـــها المباشر يقدم معلومات لم تعطها الصورة المأخوذة من قبل الجيش الألمـــاني. فالقرية محاطة من الشمال والشرق والجنوب بدائرة من القطع الزراعية يبلـــغ متوسط عرضها 200 م (الشكل 7). وداخل هذا الحزام (A)، تبلـــغ المســـاحة المتوسطة للقطع الزراعية، المسورة بجدرانٍ حجرية، 1800 م^2 تقريباً. ويلـــي هذا الحزام الأول حزام ثانٍ (B) أكثر اتساعاً، عرضه بحدود 400 م، ويضـــم أيضاً حقول تحيط بها جدرانٌ حجرية. وبسبب تركيز الصـــورة فمـــن غـــير الممكن معرفة إن كان هذا الهيكل يستمر إلى غرب الموقع.

الشكل 6: صورة جوية للقرية



الشكل 7: وضعية القرية وريفها في عام 1929

C: سكة حديدية، D: طريق إقليمية.

نلاحظ في جنوب الموقع بنيتين ثخينتين: سكة حديدية تنتهي في الموقع (C) بالإضافة إلى طريق قادم من الغرب ويذهب شرقاً باتجاه صلخد.

وعلى التوازي مع تطور بصرى، نذكّر بأن قوات الأمير فيصل قد احتلت حوران قرابة عامين، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي تموز من عام 1920، هبت المنطقة ضد دخول القوات الفرنسية إلى دمشق، لكن سرعان ما عاد الهدوء. وقد عرفت منطقة حوران طوال فترة الانتداب فترة من الأمن والهدوء النسبي، بالرغم من الصدامات التي استمرت بين الحوارنة والدروز[8]. وقد تمت السيطرة على القبائل البدوية ولم يعد الفلاحون يعيشون في ظل هيمنتهم[9]. وبعد مضي بضع سنوات، وفي عام 1933 وصل عدد سكان حوران إلى 83000 نسمة منهم 77000 من المستقرين المقيمين في 110 قرية. وهناك بعض التجمعات السكنية كالظاهرية ونوى وإزرع وبصرى التي يمكن اعتبارها مدناً صغيرةً[10].

الطور السادس: التوسع باتجاه الغرب في الفضاء العمراني المسور.

بدأت الحكومة السورية في عام 1947 برفع الأنقاض من المسرح الروماني. ونشاهد في الصورة الجوية (الشكل 8) كومة من الأنقاض بين البرج الواقع في أقصى الجنوب والبرج المجاور إلى الشرق، بينما لم يتم الكشف بعد عن المسرح. يبدو إذن أن تاريخ هذه الصورة يعود إلى الأربعينات، أي بعد فترة قصيرة من أعمال إزالة الأنقاض.

كانت مساحة القرية في ذلك التاريخ قد تطورت أيضاً من 33 هكتاراً إلى 48 هكتاراً، أي بزيادة قدرها 48 %. وهي تحتل الآن 82 % من الفضاء العمراني المسور (الشكل 9). ويتم هذا التوسع بشكل رئيسي نحو الغرب، ولا تتوسع الحدود الشرقية والجنوبية للقرية : ففي الشمال لايوجد سوى بضع قطع مبنية من الأرض ، ولكنها لا تمثل سوى 10 % من مجموع المساحة

---

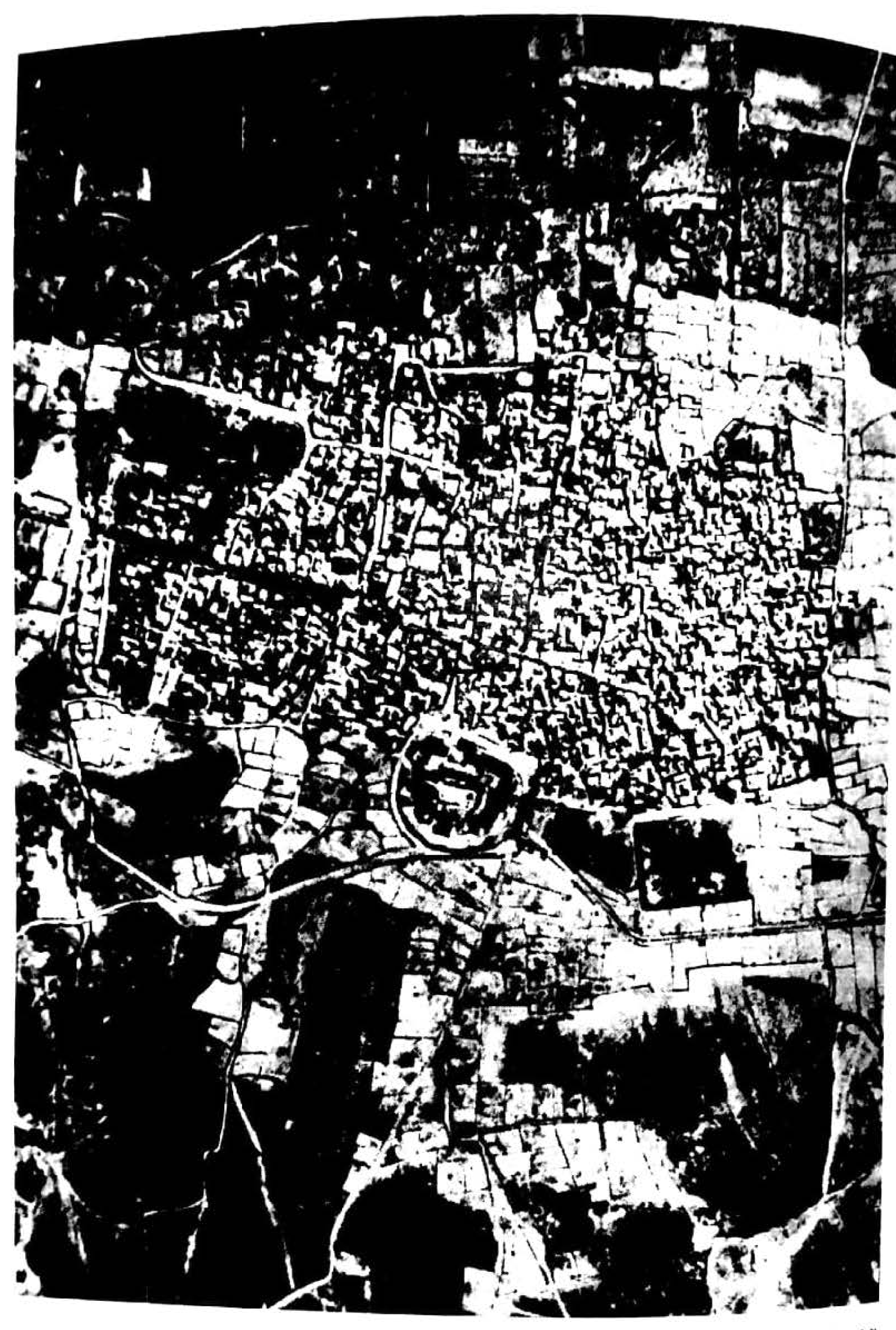
8 D. Sourdel. «Hawran». in *EI2*. V. III. p. 302.

9 J.-P. Pascual. «La Syrie a l'époque ottomane». in *A. Raymond (éd.) La Syrie d'aujourd'hui*. Editions du CNRS 1981. p. 44.

10 D. Sourdel. «Hawran». in EI2. V. III. p. 302.

الكلية للتوسع العمراني. وتتواجد الأبنية الأخرى في الغرب، وقد تم تكثيف البناء في العشرينات في الأراضي العمرانية التي ظلت خاوية بين المنازل، وأنشأت الأبنية حتى أطراف السور في الجزء الجنوبي الغربي من الموقع. إن هذه الزيادة في المساحة المبنية تتوافق مع عدد السكان الذي وصل إلى 3641 نسمة في عام 1945[11].

[11] سورية، سرد أبجدي لأسماء الأماكن المسكونة، وضعته ونشرته مصلحة الجغرافية في جيش المشرق الفرنسي، آب 1945، الطبعة الثالثة، ص. 32.



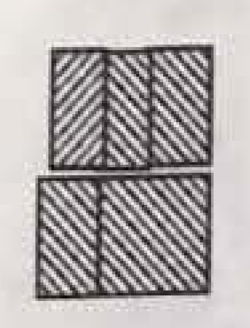
الشكل 8: صورة جوية مأخوذة في نهاية الأربعينات

كانت القرية، في نهاية الأربعينات من القرن الماضي، ما تزال محصورة ضمن الفضاء العمراني المسور، حتى وإن كانت بعض الأبنية قد

أنشئت فيما وراء هذا الحد: مدرسة (a) مبينة إلى الغرب من باب الهوى، على طول الطريق المؤدية إلى درعا، وهناك بناء آخر متطاول (b) وليس له فناء مبني بالقرب من الطرف الشرقي للسكة الحديدية، وفي جنوب الموقع هناك بعض كتل الأبنية المشيدة داخل المعسكر الروماني القديم: على كل حال، تظل هذه الأبنية ملاصقة لفضاء القرية المبني.



الشكل 9: بصرى وضعية القرية في نهاية الأربعينات



المساحة التي تشغلها القرية

الوضع في عام 1929

A منطقة انتقالية

ـ. ـ. ـ. طريق إقليمية

ـــــــ طريق ثانوية مخططة

ـ،ـ،ـ، السكة الحديدية

لقد اتبعت القرية أثناء فترة الانتداب نمطاً آخر من التكون يختلف عن ذاك الذي سارت عليه حتى الآن. إن هذه الظاهرة، المعروفة مسبقاً في عام 1929، والتي ذكرناها من قبل، قد استمرت فيما بعد. والآن صارت شبكة الطرق تفرض شكل وحجم المقاسم. وقد تهيكل التوسع نحو الغرب حول

الشارع الرئيسي المحوري شرق-غرب (C). وعلى مستوى رباعي الأعمدة، يوجد شارع (D) ذو اتجاه شمالي جنوبي ذو مسار واضح يقطع الشارع (C) ويقسم الفضاء المبني حديثاً إلى قسمين. ونجد أن شبكة الطرق في كامل الجزء الشرقي، الواقع بين الشارع (D) والحد الغربي للقرية في عام 1929، تشبه تلك التي التقينا بها في الشرق. مع ذلك، هناك شارعان ذو مسار هندسي (E) و (F) يتجهان غرب-شرق يربطان الشارع (D) بشبكة الطرق القديمة، إنه فضاء انتقالي حيث يتجاور نمطا إنتاج المجال العمراني للقرية ـ فهنا يسيطر الزقاق والشارع المسدود على الشارع ذي المسار الهندسي. وفي جنوب الشارع (d)، يتغير الوضع ، فالشارع هو الذي يسيطر على الزقاق والشارع المسدود وهناك قطيعة مع الحي الشرقي المبني في القرن الماضي ، فالفضاء المسور الواقع إلى الجنوب الغربي من الشارع المستقيم (C)، يبدو وكأنه كان ضمن مخطط متعلق بشبكة الطرق. وقد تطابق هذا المخطط مع الشارع (C) وهندسته مستوحاة مباشرة منه، إن الشارع (G) الموازي للشارع (C) يقسم الفضاء العمراني إلى قسمين سيتجزءان من جديد إلى سلسلة متتالية من الشوارع المتعامدة بشكل أو بآخر مع الشارع (G).

إن قطع الأرض الواقعة إلى جنوب الشارع المستقيم وعلى جانبي المنخفض الطبيعي ما زالت خاوية من أي بناء. وأبعد إلى الشرق، يربط الشارع (E) ذو المسار الهندسي الشارع المتجه شرقاً (D) إلى المنخفض الطبيعي ويمتد على طول واجهته الشمالية لكي يلتقي بدرب خارج السور.

لم تَنشأ أية بنية تحتية، فالشارع السمتقيم المؤدي إلى درعا يكفي لوحده لجذب الأبنية الجديدة باتجاه الغرب. ومن خلال التوسع بهذا الاتجاه، يمكن استنتاج الجذب الذي تقوم به مدن كدرعا لأريافها. فبعد بداية الهجرة الريفية والاستقرار في المدينة ستستورد نماذج أخرى للسكن، وسيتم التخلي تدريجياً عن المنازل ذات الفناء في نفس الوقت الذي ستظهر فيه مواد بناء جديدة كالإسمنت المسلح ولبن الخفان الإسمنتي، كما سيتبدل تنظيم البيت، ففي الغرب وفي الجزء المسور نجد أن البيوت مبنية في وسط قطعة الأرض، والفناء اختفى وتحول إلى حديقة، والغرف مفتوحة على بعضها وصار لها وظيفة محددة.

لقد كانت القرية تحتل في نهاية الستينات كامل الفضاء المسور ثم بـدأت تعبر حدودها التاريخية. ويمكن تمييز حيين في داخلـــها ، يقـع الأول إلـى الشرق وقد بدأ بالتكون في بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية العشـــرينات من القرن الماضي. وكل المساكن تنتمي إلى نموذج واحد، نموذج البيـــت ذو الفناء، وكلها مبنية بالمواد نفسها. فوحدة السكن هي التي تنتج الفضاء العـام. ويقع الحي الثاني في الجزء الغربي. وقد بدأ يتكون في نهاية العشرينات مـن القرن الماضي وظل يتوسع حتى عام 1969.

ففي المنطقة A من هذا الحي، الذي عُمِّر في أقل من نصف قرنٍ، يتجـاور نمطين من شبكة الطرق ونمطين من السكن. إنهم يمثلون فضـــاء انتقاليـاً فـي المكان والزمان، سيظهر في أثنائه نمط جديد مع استمرار بقاء القديم.

فإذا قمنا بتلخيص هذه المعطيات، يمكن بكل وضوح إعادة رسم مجمـل الفضاء العمراني المسور: استخدام متخلخل للأرض فـــي الجـزء الجنوبـي الشرقي من الموقف يتبعه تكثيفٍ وانتقال طولي للسكن نحو الشرق متبوع هـو أيضاً بتكثيف للجزء المشيد حديثاً، ثم انتقال طولي ثانٍ للسكن، هذه المرة نحو الغرب، يتبعه بدوره ظاهرة تكثيف للمساكن.

تتطور القرية على مراحل متتابعة ومتماثلة ثنائياً، كاشفة عـــن توسـع دوري للقرية. فكل دورة تضم مرحلتين: احتلال الأراضـــي التـي ستبنى، يتبعها تكثيف الأبنية في الفضاء المشغول. ولا يمكن القيــام ميدانيـاً بتحديـد المجال الجغرافي الذي يتوافق مع كل مرحلة. وذلك بسبب التجانس في الحـي الشرقي، إن كان في نمط البناء أو في مورفولوجيته وطريقة بنائه. ســيكون من الصعب تحديد منطقتين دون الاعتماد على المخططات والصور الفضائيـة الموضوعة والمأخوذة في لحظات مختلفة.

وكما رأينا سابقاً، نلاحظ أن اختيار موقع بصرى لتكون تجمعاً ســكنياً دائماً أو موعوداً كما هو، بالإضافة إلى تسلسل مراحل التوسع العمراني لـم تتم بالصدفة وإنما دوماً مع الأخذ بالحسبان الوضع القائم. فوجـــود الأطـلال كان في البداية أحد النقاط الحاسمة. فقد استعملت الخرائب كبنـــاء أو كجـزء من بناء أو بالأحرى كمقلع. وبعد ذلك حددت طبيعة الأرض مكـــان توسـع

نسيج القرية العمراني. فبقعة الخرائب الواقعة إلى الغرب من الجزء المحفوظ جيداً هي أول ما بني من القرية.

إن التداخل بين بصرى القديمة (النبطية والرومانية والبيزنطية والقروسطية) وبصرى ماقبل الحالية، ولا يتوقف تأثير القديمة على الجديدة عند هذا الحد، فهو يستمر على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين. ويتواجد هذا التداخل إن كان على مستوى القرية بكاملها عبر اتجاهات شبكة الطرق والمقاسم، أو على مستوى الوحدة السكنية عبر تقنيات البناء وإعادة الاستخدام المتنوعة للمواد القديمة.

ففي الجزء الشرقي من الموقع، يكشف النسيج العمراني للقرية عن ستة اتجاهات واضحة، في حين أن تكوُّن هذا النسيج لم يتم بتأثير من سلطة «مركزية». فبعض أبنية المقاسم في الحي الشرقي ذات اتجاه مشترك، ويبدو أنها مطابقة للصرح الديني العائد للعهد البيزنطي الذي يدعى الكاتدرائية الجديدة. فنتيجة للانشغال بالاقتصاد في البناء، فإن النسيج العمراني القروي المبني في القرن التاسع عشر قد قام، عندما كان ذلك ممكناً، على بقايا الأبنية الموجودة من قبل، وربما البيزنطية، وبالتالي اعتمدت الاتجاه نفسه. وفي المقابل، فقد ضاع معنى هذا الاتجاه كلياً. لا بد من ذكر أن الكاتدرائية قد بنيت فوق أطلال معبد روماني كان قد بني في مكان معبد نبطي. ويبدو أن اتجاه الكاتدرائية يأخذ اتجاه بقايا المعبد الروماني الذي أملاه عليه المعبد النبطي. ويختلف الاتجاه البيزنطي بضع درجات عن الاتجاه النبطي، غير أنه من الممكن أن يكون الاتجاه البيزنطي، الذي اعتمده النسيج العمراني الريفي المبني في القرن التاسع عشر، ذا أصول نبطية[12]. إن استعمال تقنيات بناء لم تتغير أو تتطور منذ الماضي القديم من خلال استعمال القوس كعنصر أساسي للسقف فارضاً بشكل طبيعي بناء جسد البناء المستطيل قد استمرت بإنتاج أبنية تندمج جيداً داخل مخطط شطرنجي موجود من قبل. وهذا ما يفسر سبب التعرف باستمرار على هذا المخطط في النسيج العمراني القروي السابق.

---

[12] J.-M. Dentzer, «Les sondages de l'arc nabatéen et l'urbanisme de Bosra», in *Comptes rendus des séances de l'année 1986, janvier-mars, Académie des Sciences et des Letters*, Paris, diffusion De Boccard, 1986, p. 75.

وعلى مستوى الغرفة، نجد أن التداخل بين القديـــم والجديـد مـا زال حاضراً مع وجود العديد من عمليات إعادة الاستخدام. إنهما مـــن نمطيـن، فالأول يجمع عناصر البناء التي حوفظ على وظيفتها الأساسـية فـي البنـاء الجديد. وهي تندمج مباشرة في البناء عندما يسمح حجمـــها بذلـك ودون أن تشذب من جديد، والحجارة الجديدة تشذب لكي تتوافق مع الحجارة الملتقطـة من الموقع. وكثير من الحجارة التي تحتاج عناية خاصة في النحت والتثبيـت هي حجارة أعيد استخدامها مثل حجارة العتبات، وقواعد الفتحات والركـــائز والساكفات ومفاتيح العقد (في الأقواس) والأطناف والعوارض.

ويجمع النمط الثاني من إعادة الاستخدام الحجارة القديمة التي أعطيـت وظيفة جديدة في البناء الجاري. فهناك تحويل للوظيفة الأولى. وهكـــذا فـإن أجزاء من الأعمدة والتيجان يمكن أن تستخدم كقواعـــد لعـــوارض القـوس. وأطناف يمكن أن توضع أسفل نافذة لكي تخفف مـــن تـــأثير سـيلان المـاء وحمايتها بشكل أفضل. وفي إحدى الحظائر المهجورة حالياً وضع تاج نبطـي في أساس عادي، ويظهر منه «قرنان» متجهان نحو الداخل، وقد ثقب أحدهما لكي يعلق به مقود. كما أن العديد من التيجان وأجزاء الأعمدة قــد أدرجـت ضمن المقاعد المبنية في الفناء أو عند المدخل من جهة الشارع. والتحويــل مزدوج هنا: تغيير الوظيفة وامتلاك قيمة جمالية. وهناك حجـــارة أخـرى أو أجزاء من حجارة أدرجت بكل بساطة في البناء الجديد كعناصر تزيينية حتـى وإن فقدت معناها الأصلي. إنها من بين حالات أخرى، حالة الحجـارة التـي تحمل نقشاً كتابياً والتي نجدها أحياناً فوق ساكفات الأبواب، أو ربمـــا أيضـا أجزاء من الحجارة المنحوتة بعناية والموضوعة في الأساس لتكوين القواعد.

كل هذه الحجارة المنحوتة، أياً كـــان حجمـــها أو شـــكلها، قـد أعيـد استخدامها، إما لأنها منحوتة بشكل جيد وتتوافق مع حاجة ما، ممـــا يسـمح باقتصاد في المواد، وإما بسبب قيمتها الجمالية التي يمنحها لها الأهالي. هـل يجب اعتبار عملية إعادة استخدام المواد، عملية مرتبطة باقتصاد ضعيف، أو بالأحرى تعبيراً عن الاستمرارية؟ هل هناك في عملية إعادة الاسـتخدام إرادة بالارتباط بالذاكرة أو حاجة لإدراج التاريخ الخاص في حضارات مجيـدة أو على الأقل تقديمها كما هي؟

مشروع روبرت آمي: انقطاع في تاريخ بصرى الحديث

الأعمال الأولى لاستثمار التراث المعماري

أصبحت بصرى منذ نهاية الأربعينات من القرن الماضي محط الاهتمام من أجل إبراز تراثها المعماري، فقد بدأت أعمال كشف المسرح الروماني في عام 1947 وكذلك ترميم القلعة القروسطية التي تحيط به.

كان المسرح مطموراً من الداخل في العصر الأيوبي:

«لقد حولت منصة المسرح والأوركسترا إلى خزان ماء مقبب ليؤمن الماء في حالة الحصار وليتمكن من توفيره للحمام، المشيد في الشرق خارج المسرح. وعلى مقاعد المدرج بنيت على التسلسل، أولاً الثكنات ثم المساجد وفي الأعلى، مستودع الأسلحة، وهو عبارة عن قاعة مقببة رائعة، وخلف هذه الأبنية كان هناك أروقة لتأمين التنقل. لقد كانت التقنية المعتمدة هي القبة ذات القمة البارزة المستندة على أعمدة هائلة من البازلت»[13].

كل هذه الإنشاءات سوف تزال كي يكشف داخل المسرح. فلقد أعطيت الأفضلية للعهد الروماني على حساب العهد القروسطي. إن أعمال الكشف هذه تجسد مسبقاً مشروع روبرت آمي، أي إعطاء القيمة من خلال الفراغ. وبالتجربة، يبدو أن كشف المسرح كان بمثابة تدريب أولي، على مستوى صغير، على أعمال كشف كامل الموقع التي اقترحها آمي.

إن إبراز هذا التراث المعماري لبصرى سوف يتواصل في عام 1951، من خلال الحملة التي انطلقت لكشف القوس النبطي. ويجب انتظار عام 1969، وهو التاريخ الذي صادقت به السلطات السورية المختصة على المشروع المقترح من قبل روبرت آمي، المهندس المعماري في اليونسكو، وذلك كي تأخذ أعمال الكشف بعداً آخر ولتغطي كامل المدينة التاريخية. وبدءاً من هذا التاريخ، تعرض الحي القديم إلى تبدلات كبيرة. فلقد غير من وظيفته ليتحول من قرية مسكونة إلى موقع أثري وسياحي.

---

[13] S. Ory, «Bosra, cité islamique», in *Archéologia n 148*, 1980, p. 32.

مشروع روبرت آمي لإبراز الموقع

لقد تقرر في اجتماع اللجنة الذي عقد في 18 أيلول 1968، تحت رئاسة المدير العام للمتاحف والآثار في سورية، تنقيب كامل الموقع، مما سيؤدي إلى هدم كل المساكن الحديثة.

وتم تقسيم المشروع إلى مراحل (الشكل 10): المفروض أن تبدأ أعمال التنقيب بكشف المحور الشرقي الغربي، من باب الهوى (2) وحتى الباب النبطي (15) على عرض 40 م. ثم ستتواصل أعمال الكشف بالطريقة نفسها في الشوارع المتجهة شمال ــ جنوب. وفي الوقت المحدد، يجب أن يكون كامل الموقع مكشوفاً. وستنتقل الأنقاض إلى المنطقة الجنوبية الغربية خارج القرية بفضل نظام السكة الحديدية والعربات.

لقد أعطيت الأفضلية لكشف الشوارع المحورية السابقة للعهد المسيحي. «يمكن إذاً القيام بتضحيات كتلك التي قدمت، لحسن الحظ، من أجل كشف المسرح»[14]. ولن يشمل الهدم بعض الأبنية الأثرية كالجامع العمري والكاتدرائية. وكما هو الحال في عام 1947، فإن صورة بصرى القديمة هي المفضلة، أما العهود اللاحقة فسوف تختصر إلى بناء واحد أو بنائين يعبران عن ظرفهما التاريخي أو العمراني، أي كالمؤشرات.

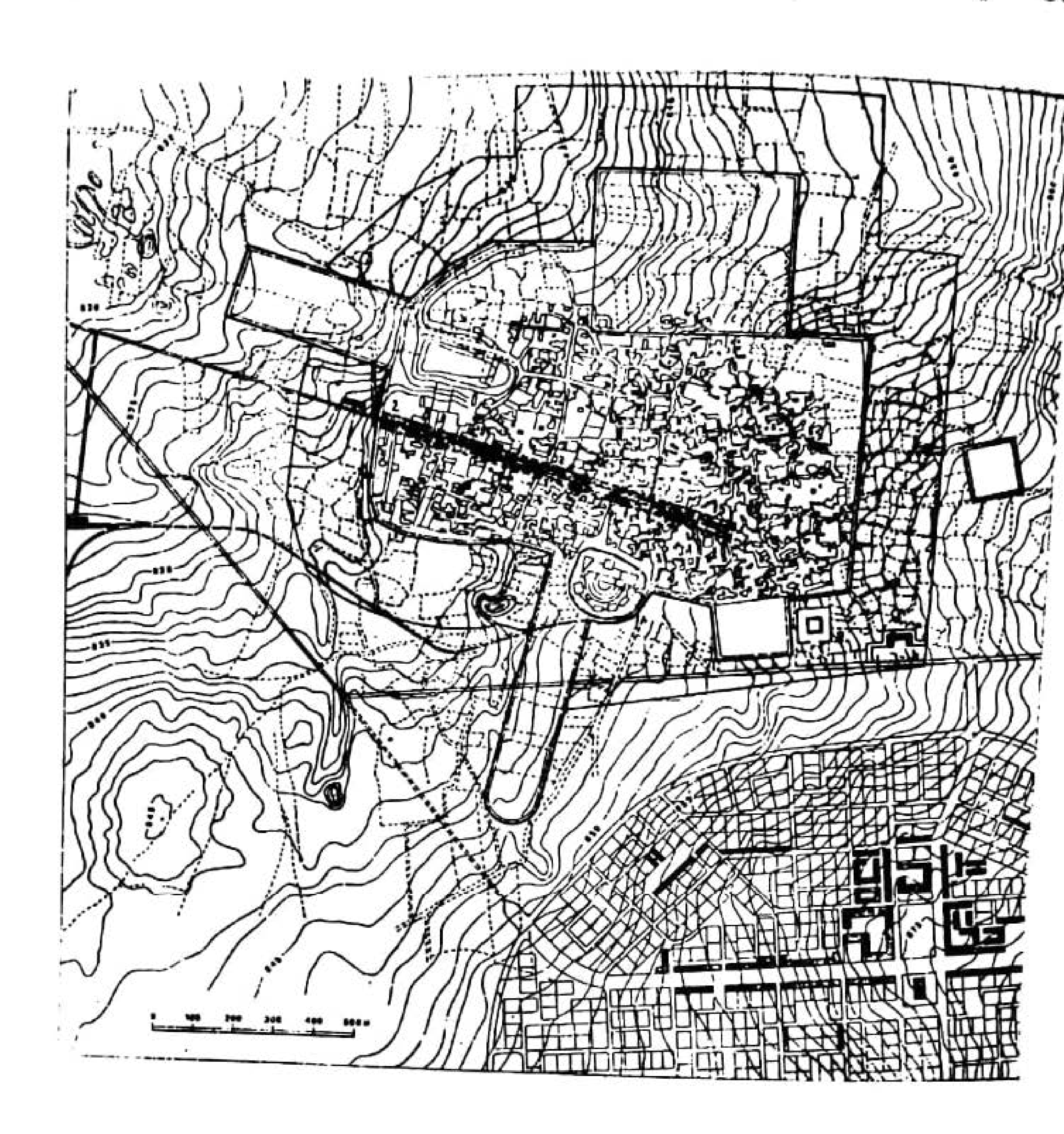
وقد شدد آمي على ضرورة إنجاز دراسة مفصلة للسكن أيضاً، فيجب أن تجرى لكل بناء دراسة دقيقة مرفقة بالمخططات والصور الفوتوغرافية. وبعد الكشف سيتم ترتيب محيط كل الأبنية الأثرية التي تقرر الحفاظ عليها.

وينص المشروع أيضاً على إنشاء منطقة خالية من البناء تحيط بالموقع يبلغ عرضها 200 م، بالإضافة إلى تأسيس مدينة جديدة تقع إلى الجنوب الشرقي من القديمة، ومنظمة بحسب مخطط هندسي صارم. إنها مدينة مؤسسة بحسب النموذج الغربي وبعيدة كلياً عن المدينة العربية. ولقد فرضت طبيعة الأرض والطبوغرافيا اختيار موقعها، فالمنطقة عبارة عن

---

[14] R. Amy, *Mise en valeur de Bosra-Cham*: October 1968, *rapport n° 1228/BMS, RD/CLT*, Paris (UNESCO), 1969, p. 28.

ع قديمة تكثر فيها المنخفضات الطبيعية: وهكذا يمكن رمي الأنقاض
هولة في هذا المكان.



الشكل 10: مشروع روبرت آمي لإبراز الموقع وتحسينه
(Amy, R., 1969, Mise en valeur de Bosra-Cham, October 1968, rapport n°
1228/BMS, RD/CLT, Paris UNESCO.

وقد ذهب آمي في اقتراحاته إلى اقتراح نمط للبيت الجديد. وهو يعتمد في تفكيره على ملاحظة بسيطة: كل السكان فلاحين. ويذكر أيضاً أن هذه العملية ستكون مفيدة لهم، إذ أن معظمهم يعيش في ظروف بائسة. فبرأيه يجب أن تضم المنازل الجديدة «*فناء أول تطل عليه المضافة التقليدية*[15] *ومستودعات المؤن، والتبن*[16] *والبذار، ومن الجهة الأخرى الاسطبلات، ثم فناء خلفي للمطبخ وللحطب ولقن الدجاج. ويمكن أن تكون غرف السكن في الطابق العلوي فوق جناح الفناء الأول. وبالنسبة لعائلة عادية تضم ثلاثة أجيال، يجب أن تكون المساحة الكلية 30 × 40 م. إنني أحذر من البيوت المبنية بالإسمنت المسلح التي تكون جدرانها رقيقة جداً بالنسبة لهذه المنطقة، فمن الأفضل التمسك بالبناء التقليدي الحجري. إن هدم المنازل الحالية وجمع البقايا فقط، المكدسة في كل مكان، كافيان لوحدهما لتموين الورشات الجديدة بمواد البناء. وعلى العكس من ذلك، سيكون من الضروري تحديث التنظيم الداخلي وإحلال عوارض إسمنتية مكان الأقواس الحجرية التي يصعب رفعها*»[17].

هنا أيضاً يحاول آمي أن يجسد اقتراحه في الواقع وذلك بنقل المنطقة السكنية مع الأخذ بالحسبان الطبوغرافيا والشروط المناخية، لكنه لا يذهب إلى نهاية منهجه، لأنه لا يجعل الأهالي يشاركون في إعداد مشروع المدينة الجديدة ومنازلها.

المرحلة الثانية: نمو قرية ثانية خارج حدود المدينة المسورة ومغادرة الحي التاريخي.

دورة جديدة من التوسع

إن الصورة الجوية المأخوذة في 8 حزيران 1975 والمكونة من صور

---

[15] المضافة: غرفة الاستقبال.

[16] التبن: عيدان الشعير أو القمح المحصود.

[17] R. Amy. *Mise en valeur de Bosra-Cham*: October 1968, *rapport n° 1228 BMS, RD/CLT*. Paris (UNESCO). 1969. p. 23-24.

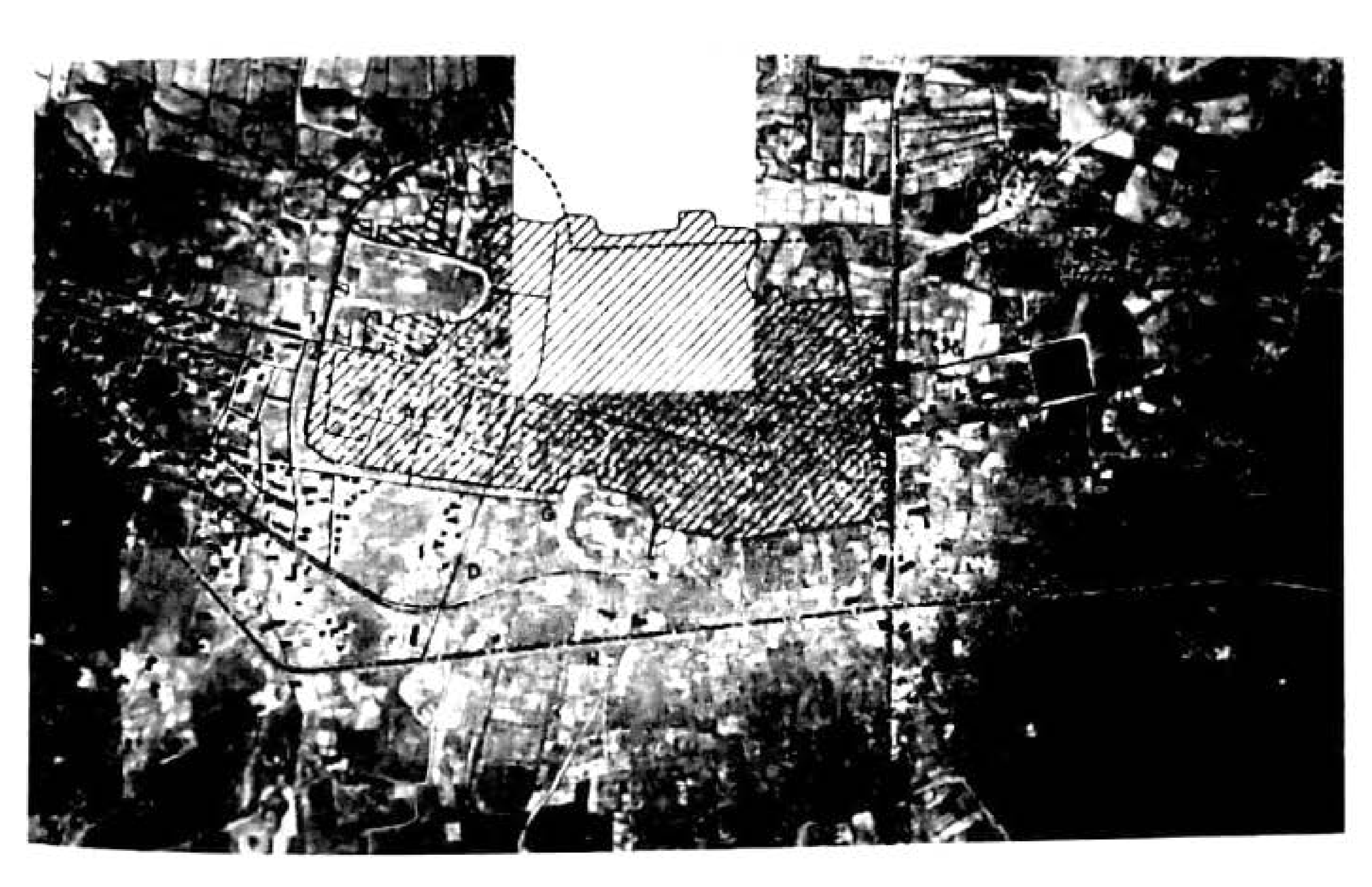
جمعت مع بعضها البعض، غير كاملة، فهي تفتقد للصورة التي تمثل الجـــزء الأوسط الشمالي من الحي القديم (الشكل 11). ومع ذلك فهي تبين أن مشروع تطوير بصرى الذي يقترحه آمي المصدق من قبل السلطات السورية، قد بـــدأ مسبقاً، لكنه لا يسير وفق الخطة التي وضعت منذ سبع ســـنوات، حتـــى وإن كانت النتائج الأولية لسياسة الكشف واضحة: فالشارع المستقيم المتجه شـــرقاً وغرباً قد كشف جزئياً، والشارع الذي يؤدي من باب القنديـــل إلـــى القلعـــة مكشوف كلياً، والمنازل المبنية إلى الشرق من القلعة قـــد هدمـــت، والقـــوس النبطي والكنسية المكرسة للقديسين ســـيرج وبـــاخوس وليونـــس يخضعـــان لعمليات الكشف.

وفي المقابل نجد في تدمر أن برنامج التطوير، الذي وضعه آمي أيضـــاً والمتشابه مع بصرى (هدم الأبنية الحديثة ثم كشف الآثار وشـــبكة الطـــرق وبناء مدينة جديدة بعيدة عن الموقع) قد تم إنجازه طبقاً للمشروع.

إن المنطقة غير المبنية التي كان يجب أن تحيط بالموقع لم تنجز، كمـــا هو الحال بالنسبة للمدينة الجديدة. فقد ظهرت أبنية في المحيط المباشر للمدينة التاريخية (الشكل 12). وتمتد مساحة الحي الواقع خارج الأسوار 125 هكتـــاراً تقريباً، أي أكثر من ضعف مساحة المدينة التاريخية. وقد تضاعفت المســـاحة التي تحتلها المدينة ثلاث مرات خلال 25 عاماً. فبعض المنازل تقـــع علـــى مسافة تبعد أكثر من 700 م عن بقايا السور، كما أن صيـــرورة التوســـع نحـــو الغرب، التي بدأت في نهاية العشـــرينات، قـــد تواصلـــت فـــي الخمســـينات والستينات، وزادت ابتداء من عام 1970، وشيدت ثلاثة أرباع الأبنية الجديـــدة غرب وجنوب غرب الموقع.

لقد أنشئت الأبنية الأخرى في الشرق والجنوب الشرقي، لكن لم يُشـــيّد أي بناء شمال الموقع. فالأراضي الواقعة في هذه المنطقة (الجنوب الشـــرقي والشرق والشمال) كانت تشكل، كما تبين الصورة الجوية المأخوذة في عـــام 1929 حلقة من قطع الأراضي المسورة ذات المردود الزراعي الكبـــير جـــداً على الأغلب. وفي الأراضي المبنية مجدداً، ما تزال كثافة البناء ضعيفة ولـــم تبدأ بعد مرحلة التكثيف.

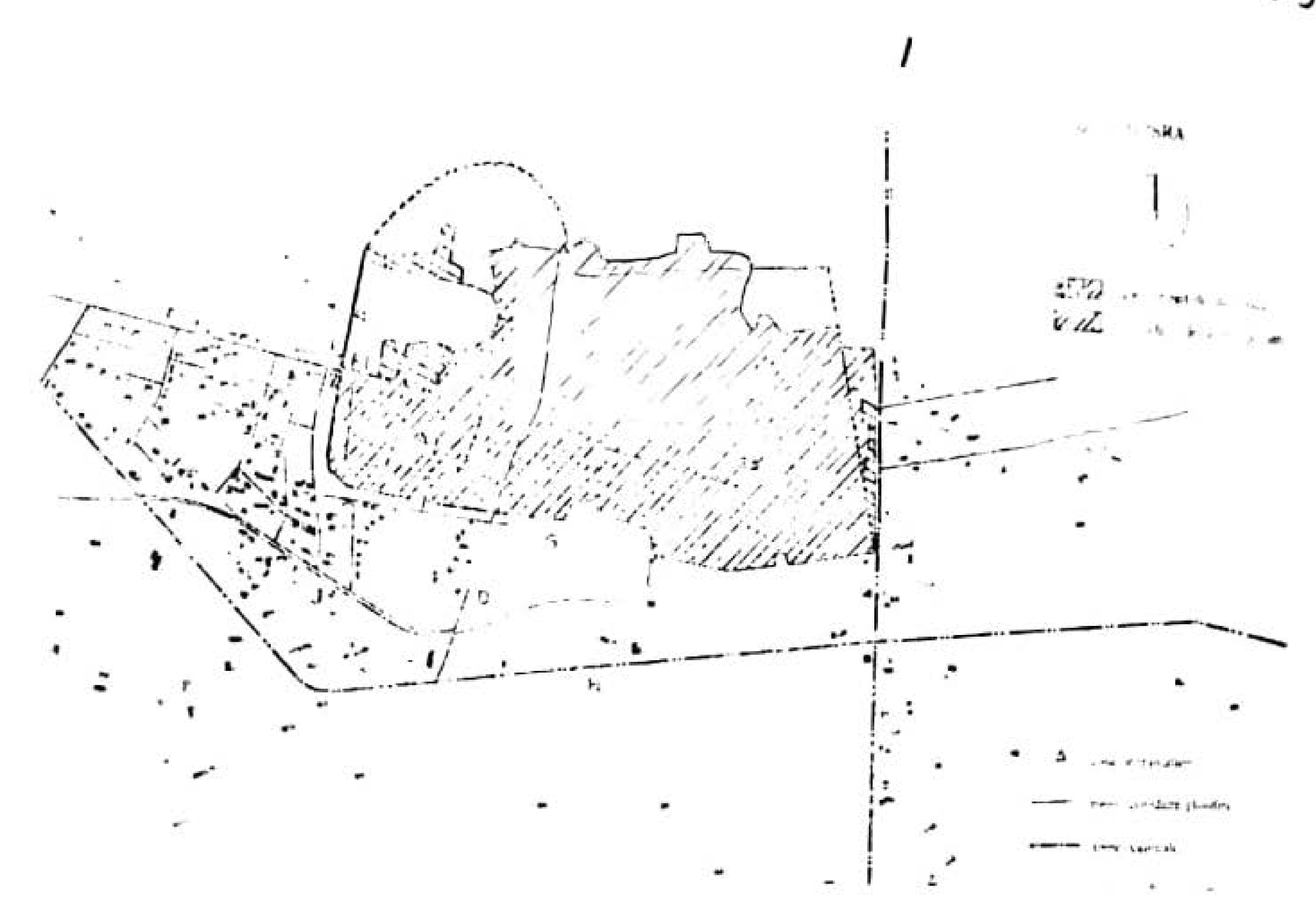
بالرغم من أن مشروع المدينة الجديدة والمنطقة المحمية غير المبنية التي اقترحها آمي لم يطبق ، فإن عمران الفضاءات الجديدة المخصصة للبناء يلبي إرادة التنظيم. فشبكة الطرق المنتظمة (A)، والمخططة في القسم الجنوبي الغربي من المدينة التاريخية، تمتد حاليا إلى الجانب الآخر من السور. إن هذين المسارين المتطابقين في هندستهما (مجموعة من الشوارع المتوازية والمتعامدة مع بعضها البعض) يتصلان ببعضهما بفضل الطريق القادمة من درعا والتي تمتد لتصل إلى القوس النبطي وإلى الشارع (D) الذي يستمر مساره إلى ما بعد السكة الجديدة. إن الشارع (G) الذي يحاذي السور في الزاوية الجنوبية الغربية من الموقع قد تمت هندسته وتوسيعه، ويمكن اعتبار القطاع الجنوبي الغربي المسور كنقطة ارتكاز ينطلق منها توسع الحي الغربي في القرية الجديدة.



الشكل 11: بصرى في عام 1975

تتجمع المنازل كلها في الجنوب والشرق على طول هذين الطريقين المحوريين. كما أن البركة تجذب بدورها بعض الأبنية. ولم تتبع النصائح التي قدمها آمي والمتعلقة بالخاصية غير المتوافقة مع الإسمنت المسلح. فقد هجر كلياً نظام البناء التقليدي المبني بالحجر كما تم التخلي عن مخطط البيت

ذوي الفناء، وذلك لصالح نماذج المدن المستوردة. إن هذه التجديدات التقنية والبنائية قد بدأت تُطبق في الخمسينات وذلك في الجزء الغربي من الموقع.



الشكل 12: بصرى، المساحات التي كانت تشغلها القرية في 8 حزيران من عام 1975

كانت بصرى تملك وجهين في عام 1975: وجه المدينة التقليدية التي تحولت تدريجياً إلى مدينة أثرية، والتي تستند إليها قرية ثانية بدأت تأخذ شيئاً فشيئاً هيئة المدينة. فالأحياء الجديدة لا تملك أي قاسم مشترك مع الحي المسوَّر. وأصبح القسم الجنوبي الغربي، تماماً مثلما هو الحال بالنسبة للجزء المركزي من الموقع، فضاءً انتقالياً. فهو يضم خصائص الحداثة مسبقاً بمخطط شوارعه المنتظمة التي سبقت البناء بالإضافة إلى منازل من النمط الحضري، لكنه ظل سجين حدود المدينة التاريخية.

لقد كانت القرية مسكونة باستمرار منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى عام 1970، وكان كل توسع فيها ناتج عن عدم قدرة القرية على استيعاب مساكن جديدة بسبب النمو الديموغرافي، فابتداءً من عام 1970، كانت المرحلة الجديدة دوماً نتيجة إشباع القرية سكانياً ، لكنه ترافق مع مرحلة هجر الحي المسوَّر الشرقي.

إن هجر هذا الحي قد شجعته أعمال إزالة الأنقاض الذي كانت تـــهدف إلى كشف مستويات بصرى الأثرية. إن تبدل وضع القرية داخل السور، التـي غدت موقعاً أثرياً، قد زاد من حدة عمليات هجرها لكنه لم يحرضه، فالسكان يغادرون القرية التاريخية لأنهم يفضلون المساكن الإسمنتية الجديدة التي تمثـل التقدم بالنسبة لهم. فهي تعتبر أمتع للسكن والعيش من المنازل الحجرية. كمـا أن السكن في حي جديد يعني أيضاً التعبير عن النجاح الاجتماعي.

إن دورة «استيطان الأراضي الصالحـــة للعمـــران / إشـــباع الفضـــاء العمراني» التي تكررت ثلاث مرات داخل حدود القرية التايخية، تستمر لكـــن خارج القرية التاريخية هذه المرة.

انطلاق دورة توسع خامسة

لم تنشر أية صورة جوية لبصرى يعود تاريخها إلى التسعينات، ومـــع ذلك فبحسب الملاحظات التي جمعت في الأحياء المسورة في الفـترة 1996 ـ 1997، نجد أن المساحة التي كانت تحتلها المساكن في عام 1975 قد تكثفـــت لكنها لم تُشبع. وإن كان الفضاء غير مشبع، فمساحة الأحيـــاء الجديـــدة قـــد ازدادت بشكل ملحوظ. وللأسف لا يمكن تقديم أي رقم عن المساحة، فـــالنمو باتجاه الغرب متواصل. فبعض المنازل تتواجد الآن على بعد عدة كيلومـترات غرب باب الهوى. كما أن الحيين الجنوبي والشمالي ينموان، ولكـــن بحجـم أضعف. وباستثناء المنازل المبنية على طول الطريق المؤدية إلى الســـويداء، فإن الأراضي الواقعة في الشمال ما زالت خاويـــة تقريبـــاً مـــن أي بنـــاء، والأراضي التي تمتد شمال المدينة التاريخية ما تزال تشكل احتياطياً زراعيـاً. يجب ألا ننسى أن هذه الأراضي يمكن أن تُروى من وادي زيدي، والنظـــام الذي كان يسمح بنقل الماء ما زال واضحاً.

يجب أن تقرن زيادة مساحة بصرى من جديد بالزيـــادة الديموغرافيـــة، ففي عام 1982 أعطى الإحصاء الرسمي للسكان عدداً يبلغ 14300 نســـمة[18].

[18] Chiffre cité par Gh. Azar. G. Chiminti. H. Haddad et H. Seeden. «Busra: Housing in transition». *in Berytus XXXIII*. p. 104.

أصبح في عام 1994 /21015/ نسمة[19]، أي بزيادة قدرها 50 % خــلال 12 عاماً. ونمت شبكة الشوارع، ولم تخترق أية طريق مربض الخيــل ، لكنــها حانيه على واجهتيه الغربية والجنوبية. ولقد عرفت الشوارع، التــي كــانت موجودة من قبل في عام 1975، تبدلاً في شكلها. فبعضها قد أصبـــح اليــوم تكون من أربع حارات مع جزيرة فــي وســطه، وكلــها منــورة بكثافــة، الشوارع الموجودة مباشرة عند أقدام أسوار المدينة القديمة تشــكل ســوراً حديثاً ثانياً من حول السور القديم. وتعتبرالأراضي المجاورة لهذه الشــوارع ولى المناطق التي كُثف فيها البناء، فالمنازل المكونة مــن طــابق أو إثنيــن وأحياناً ثلاثة، تعطي جبهة مبنية على شارع يضم في معظم الأحيان متــاجر في الطابق الأرضي.

وفي الوقت نفسه، تتفرغ الأحياء المركزية الشرقية من المدينة التاريخية باستمرار من سكانها، في حين أن عمليات الكشف الأثري مستمرة. فقد توقف تهديم المنازل البازلتية منذ 5 أعوام وتسعى مديرية الآثار حالياً إلــى وضــع برنامج جديد لتحسين الحي القديم الذي يجمع في آن واحد معــاً، الاســتثمار الأثري والمحافظة على جزء من المساكن. ففي هذا البرنامج الجديــد يجــب الكشف عن كل الحضارات التي تعبر عن تاريخ بصرى. فإن كــان برنــامج الكشف الأثري يميل إلى تبني اتجاه آخر، فإن الهدف يبقى نفســه: يجــب أن تصبح بصرى موقعاً أثرياً وسياحياً أساسياً في سورية.

بالرغم من هذا التغير في السياسة، فإن بعض العائلات ولم تكن لتنتظــو أن تستملك بيوتها لمغادرة الأحياء القديمة. فالأهــالي يغــادرون مــن تلقــاء أنفسهم، لأنهم يعتبرون أن مساكنهم متدهورة جداً ويطمحون إلى الحداثــة، أو يبنون منازل جديدة في الأراضي الزراعية التي يملكونها، أو أنهم يــهجرون بصرى ليقيموا في مراكز عمرانية حيث فرص العمل أكثر توفراً. إن جــزءاً كبيراً من سكان المدينة التاريخية يعبر عن رغبته بالرحيل. ويظــل ضعــف الإمكانيات المالية العامل الرئيسي الذي يُكره الأكثر فقراً على البقاء هنا. فــإن كان الحي القديم لم يعد يتوافق مع متطلبات السكان، فهو مــع ذلــك يجــذب

---

[19] بحسب الإحصاء الرسمي في عام 1994.

العائلات الفقيرة. ويأمل القادمون الجدد ألا تكون إقامتهم دائمة. ودون أن نتمكن من تأكيد ذلك بثقة، يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء السكان الجدد القادمون من آفاق مختلفة لن يقوموا باستعمال وتحويل المدينة التاريخية كما حصل ابتداءً من مطلع القرن التاسع عشر، إنهم لا يحولون النسيج العمراني القروي مادياً وإنما ينقلون إليه أنماطاً جديدة من الحياة لم يتهيأ لها هذا النمط من السكن. وينتج عن ذلك تحول عميق في نمط استخدام الفضاء العمراني العام والخاص، إن كان على مستوى الحي أو البيت.

الخلاصة

إن تطور بصرى الملاحظ على مدى قرنين تقريباً، يمثل ترتيباً رائعاً. فأثناء هذه الفترة استطعنا أن نؤكد الخاصية الدورية والثابتة لتطور بصرى. إن دورة «استيطان الأراضي للعمران / إشباع الفضاء» قد تكررت أربع مرات وبدأت دورة خامسة في الوقت الذي زاد فيه عدد السكان من بضعة آلاف إلى أكثر من 20000 نسمة.

ويبقى نمط توسع القرية هو نفسه داخل أو خارج القرية التاريخية. ولا يمثل سكن الأراضي خارج الأسوار أي انقطاع، إنه الاستمرار بعينه. ومع ذلك فإننا نلاحظ عبره عدة تبدلات:

- تغيير صيرورة تكون فضاء القرية العمراني. فابتداءً من العشرينات لم تعد القرية تنمو بحسب طريقة البرعمة من خلال إضافة المنازل المتلاصقة لبعضها بعضاً، وإنما من خلال اتباع شبكة الطرق التي تُهيكل الفضاء العمراني. يبدو أن إنتاج النسيج العمراني قد وضع بشكل آخر: إذ يظهر أن الفضاء العام، فضاء التمثيلات. قد تجاوز على الفضاء الخاص، فضاء الوحدة السكنية.

- ظهور مواد جديدة كالعوارض الإسمنتية المسلحة، بدءاً من العشرينات. ففي البداية لم يؤد ذلك إلى تغيير أو تعديل في نمط السكن. فقد ظلت المنازل تنتظم حول فناء وحافظت على نمط توزعها الداخلي.

- إدخال نمط جديد للبيت اعتباراً من الخمسينات. فقد تم التخلي عن نموذج البيت ذي الفناء لصالح نماذج عمرانية مستوردة. وأصبحت المنازل تنفصل عن بعضها بعضاً، وتحول الفناء إلى حديقة.

إن التعرف على هذه العناصر يسمح بتحديد مناطق انتقالية داخل المدينة، حيث يتجاور النموذج القديم مع الجديد. وهكذا فقد أمكن تحديد منطقتين انتقاليتين على التتابع داخل المدينة التاريخية.

يبين هذا التحليل، على مدى قرن من الزمان، أن بصرى لا تنمو في مكانها وإنما من خلال التنقل. إن مفهوم المدينة في النصف الثاني من القرن العشرين مختلف كلياً عن مفهومها في القرن التاسع عشر، بحيث أن الفضاء العمراني الحديث لا يمكن أن ينمو على فضاء القرن التاسع عشر إلا إذا أزاله مسبقاً. وبالتالي فإن البناء بجواره اقتصادي أكثر. وعندما يُحكم على المدينة الجديدة أنها قد وصلت إلى أقصى توسع لها، ربما يمكن عندها الشعور بالحاجة إلى هدم القديمة لكي يبنى من جديد فوق أساساتها. إن ظاهرة طمس حي قديم تتطلب ربما مقياساً زمنياً يتجاوز القرن الواحد، أو ديمومة نمط عمراني اجتماعي وخلاّق.

إن الزيادة السكانية كبيرة لدرجة يتوجب معها على المدينة أن تغزو فضاءات جديدة كي تأوي كل سكانها، ذلك لأنه قبل ظهور طرق البناء الحديثة في الخمسينات كان من الصعب على السكن أن ينمو شاقولياً، وهكذا فقد نمت بصرى أفقياً، وعلى مدى قرنين تقريباً اتبع النمو دوماً الدورة ذاتها، بالرغم من زيادة السكان الكبيرة، الذين تطور عددهم من بضع مئات من الأفراد في مطلع القرن التاسع عشر إلى أكثر من 21000 نسمة في عام 1994. وتبدأ اليوم في الأحياء الواقعة في الأطراف عملية تكثيف عمراني من خلال البناء الطابقي. ولا تزال هذه الظاهرة محدودة. هل يكفي وقف تزايد مساحة المدينة والبحث عن نمط آخر من التوسع؟

BIBLIOGRAPHIE المراجع

AALUND (F.), MEINEKE (M.), ETMUQDAD (R.)

1990 Islamic Bosra. German Archaeological Institute. Damascus produced by Al Kulta Publishere. Amman.

ABDERRAHMAN (A.)

1982 «Habitations en milieu rural au nord-ouest de la Jordanie», BEO, T. XXXI-XXXII, années 1980-1981, Institut Français de Damas, p. 7-19.

ABEL (A.)

1960 «Bosra »,£•/', p. 1314-1316.

ADAM (J.-P.)

1984 La construction romaine. Grands Manuels Picard. Paris

AMMAR (K.)

1986 Notes on village architecture in Jordan, University Art Muséum, University of Southwestern Louisiana, Lafayette, Louisiana.

AMY (R.)

1969 Mise en valeur de Bosra-Cham : octobre 1968, rapport n°1228/BMS, RD/CLT. Paris (UNESCO).

AURENCHE (O.)

1996 « Famille, fortune et architecture domestique dans les villages du Proche-Orient », Houses and Households in ancient Mésopotamia. Neederland Historisch-Archaeoloisch Institut, Klaas R. Weenhofed., Istanbul

AURENCHE (O.)

1995 « Pour une ethnoarchéologie des cycles d'évolution dans l'habitat du Proche-Orient ». Studies in thé History and Archaeologiy of Jordan, V, Amman, p. 37-319

AURENCHE (O.) ED.

1984 Nomades et sédentaires, perspectives ethnoarchéologiques, Editions Recherche sur les Civilisations, mémoire 40, Paris.

AURENCHE (O.)

1981 La maison orientale, l'architecture du Proche-Orient ancien des origines au milieu du quatrième millénaire, 3 tomes, BAH, CIX, Paris.

AURENCHE (O.), BAZIN (M.), ET SADLER (S.)

1997 Villages engloutis, enquête ethnoarchéologique à CaferHôyùk, ravaux de la aison de l'Orient Méditerranéen n° 26, Diffusion de Boccard, Paris

AURENCHE (O.) ET DESFARGES (P.)

1985 «Enquête ethnoarchitecturale à Smakyeh (Jordanie)», Rapp réliminaire, tudies in thé History and Arcaeology ofJordan epartment of Antiquities, mman, p. 331-345.

AURENCHE (O.) ET DESFARGES (P.)

1983 «Travaux d'ethnoarchéologie en Syrie et en Jordanie : rapp réliminaire», yriaLXJasc. I-2, p.147-185.

1982 «Utilisation et transformation de l'espace architectural à Kowm Palmyre, Syrie)», Cahiers de l'Euphrate, 3, p. 99-113.

AYOUB (A.)

1980-81 «Habitations en milieu rural au Nord-Ouest de la Jordanie BEO, XXXII-XXXIII, Damas, p. 7-20.

AZAR (GH.), CHIMINTI (G.), HADDAD (H.) ET SEEDEN (H.)

1985 «Busra : Housing in transition», Berytus XXXIII, p. 103-142.

BæEKER (K.)

1893 Palestine et Syrie, Karl Baedeker éd, 2e édition.

BLEWERS (M.)

1997 Qarya 'Ayma, muhâfaza al-Tafila, dirâsa hâla qarya fi ganûb al-Urdun, Université de Mu'ta

1993 Les villages de 'Aima, Dana et Khiirbet Nawafleh. L'habitat traditionnel du sud de la Jordanie, Ambassade de France et Ministère du tourisme de Jordanie.

BERTHIER (S.)

1985 « Sondage dans le secteur des Thermes sud de Bosra », Berytus XXXIII, p. 5-49.

BRUNNOW (R. E.) ET VON DOMASZEWSKI (A.)

1904-1909 Die Provincia Arabia, 3 vol., Strassburg.

BURCKHARDT (J. L.)

1822 Travels in Syria and thé Holy Land, London.

CANAAN (T.)

1932 « The Palestinian Arab House : Ils Architecture and Folklore », JPOS XII, p. 223-247, PI. 9-13

1933 « The Palestinian Arab House : Its Architecture and Folklore », JPOS XIII, p. 1-83

CHOISY (A.)

1991 Histoire de l'architecture, Inter Livre, Poitier

DELBET (M. E.)

1877 « Paysans en communauté et en polygamie de Bousrah (Esky Cham) dans le pays de Haouran (Syrie, Empire Ottoman) », in Les ouvriers de l'Orient et leurs essaims de la Méditerranée, Leplay F., éd., t.2, Tours. Les Ouvriers Européens.

DENTZER (J.-M.)

1986 « Les sondages de l'arc nabatéen et l'urbanisme de Bosra », Académie des Inscriptions et Lettres, Comptes rendus des séances de l'année 1986 Janvier-Mars, Paris diffusion De Boccard.

DENTZER (J.-M.) ET BLANC (P.-M.)

1995 « Monuments nabatéens de Bostra : matériaux et techniques de construction et de revêtement », Studies in thé History and Archaeology of Jor dan V , Amman, p. 223-230.

DENTZER (J.-M.)

1997 « Les recherches archéologiques françaises dans la perspective de l ' exploration - de la Syrie du sud basaltique », in les Annales Archéologiques Arabes Syriennes, Vol. XLI, Damas, p. 87-94

DESFARGES (P.)

1983 Formation et transformation de l'espace domestique en Syrie centrale, E.A. Lyon, Travail personnel de troisième cycle, Ministère de l'urbanisme et du logement.

DODINET (M.), LEBLANC (J.), ET VALLAT (J. P.)

1997 « Etude morphologique des paysages antiques de Syrie », Structures rurales et antiques, Edition P.-N. Doukelles et L.-G. Mendoni, p. 425-442.

DUCELLIER (A.), KAPLAN (M.) ET MARTIN (B.)

1990 Le Moyen-Age en Orient, Hachette supérieur.

DUFOURG (J.-P.)

1951 « La maison rurale au Djebel Druze », Revue de Géographie de Lyon, n°26, p. 415-422.

HELMS(S. W.)

1977 « Jawa Excavation 1975, Third preliminary report », Levant, vol. IX.

HOTTEROTH (W. D.) ET ABDULFATTAH (K.)

1977 Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in thé late 16th Century, Etudes de l'Institut de géographie d'Erlangen, vol. 5.

D'HONT (O.)

1994 Vie quotidienne des 'Agedat, Institut Français de Damas, Damas.

JAUSSEN (P. A.)

1948 Coutumes des Arabes au Pays de Moab, Adrien-Maisonneuve éd, Paris.-

AL-JUNDI (G.)

1984 « Etablissements humains et environnement socioculturel » L'architecture traditionnelle en Syrie, UNESCO, p. 63/74.

KADOUR (M.) ET SEEDEN (H.)

1983 « Bursa 1980 : Reports of an Archaeological and nthropographi ampain », amaszenerMitteilungenl,p.77-\00.

KHAMMAS (H.)

1986 Notes on village architecture in Jordan, University Art Muséum niversity of Southwestern Louisiana, Lafayette, Louisiana.

AL-MUGDAD (R.) ET DENTZER (J.-M.)

1996 «Bosra», Exposition Syro-Européenne d'archéologie, Miroir d'un partenariat, Ministère de la Culture D.G.A.M., Damas, p. 123-129.

MUGDAD (S.)

Bosra Historical and Archeological Guide.

MUGDAD (S.)

1974 Bosra guide historique et archéologique, Publication de la Direction Générale des Antiquités et des Musées de la République Arabe Syrienne, Damas.

NOCA(L.)

1985 Smakieh, un village de Jordanie, E.A. Lyon Travail Personnel de troisième cycle, Ministère de l'urbanisme du logement et des transports.

ORY (S.)

1980 « Bosra, Cité islamique », Archéologia 148, p. 22-32.

PASCUAL (J.-P.)

1981 « La Syrie à l'époque ottomane », A. Raymond éd., La Syrie d'aujourd'hui, Edition du CNRS, p. 31/53.

1990 « La Montagne du Hawran du XVe siècle à nos jours », Le jebel Al-Arab. Histoire et patrimoine au Musée de Suweida ', CNRS, Paris, pp. 101-108.

PASSERON (R.)

1982 Création et répétition, par le groupe de recherche esthétique du CNRS, Clancier-Guenaud, Paris

PINSON (D.)

1992 Modèles d'habitat et contre types domestiques au Maroc, Centre d'Etudes et de recherches URBAMA, Fascicule de recherche n°23, Tours.

PORTER (J.L.)

1855-1870 Five Years in Damascus, 2 vol., London, John Murray.

1855-1862 The Giant Cities ofBashan, London, T. Nelson and Sons.

PPUAES

« Syria, 1907-1949 », Publications of thé Princeton University Archaeological Expéditions to Syria in 1904-5 and 1909, Leyde.

BUTLER (H. C.), NORRIS (F. A.) ET STROEVER (E. R.)

1930 Geography and Itinerary.

REY (E.G.)

Sans date Voyage dans le Haouran et aux abords de la mer Morte, exécuté pendant les années 1857 et 1858, A. Bertrand libraire éditeur, Paris.

RIEGL (A.)

1984 Le culte moderne des monuments, Espacements, collection dirigée par Françoise Choay, Editions du Seuil, Paris.

SARTRE (M.)

1985 Bostra. Des origines à l'Islam, BAH CXVII, Paris.

1991 « La Syrie du Sud à l'époque gréco-romaine », pp. 29-34, Le Djebel al- 'Arab,Histoire et patrimoine au Musée de Souweida ', Guides archéologique del'IFAPO l,. J. M. Dentzer et J. Dentzer-Feydy éd, Paris ERC.

1997 « Transhumance économique et société de montagne en Syrie du Sud », Les Annales Archéologiques Arabes Syriennes, Vol. XLI, Damas, p. 75-86

SHAMI (S.)

1987 « Umm-Qeis, a northern Jordanian Village in Context », Studies in thé History and Archaeology of Jordan, III, A. Hadidi éd., Amman, p. 311-233

1989 « Seulement and resettlement in Umm Qeis », Dwellings, Settlements and tradition : Cross-culture. Perspectives, Lanham, New York : University Press of America.

SEEDEN (H.)

1993 « Villages vivants et villages morts dans le nord-est syrien », BEO TXLI-XLII années 1989/90, Damas.

SEEDEN (H.) ET WILSON (J.)

1984 « Busra in thé Hawran : AUB's ethnoarchaeological project, 1980-1985 », Berytus XXXII, pp. 19-34.

SEEDEN (H.)

1997 « Busra in thé Hauran ; A Bronze âge village, an ummayyad périodc farmhouse and archaeology today », Les Annales Archéologiques Arabes Syriennes, Vol. XLI, Damas, p. 117-130

SOURDEL (D.)

1971 « Hawran », EI3, p. 301-302.

THOUMIN (R.)

1932 La maison syrienne, dans la plaine hauranaise, le bassin du Barada et sur les plateaux de Qalamud, Documents d'Etudes Orientales II, Paris.

VIOLET LE DUC

Encyclopédie Médiévale, Inter Livre, Poitier

المدن السورية: انقطاعات أم استمرارية؟

ليفيه أورانش Olivier Aurenche

ت الشرق المتوسطي، GREMMO ـ المركز الوطني للبحـــوث العلميـــة،
رنسا

بناءً على طلب من منظمي هذا الملتقى، أسمح لنفسي بأن أقـــدم بعـــض لملاحظات الختامية التي يبدو لي أنها تندرج ضمن إطار الموضوع المختار، وبما أنني لم أحضر الجلسات، ولا المناقشات بالطبع، فإنني سأعتمد إذن علـــى قراءتي للنصوص التي قدمت لي.

وأول ما ألحظه هو تهنئتي للذين أطلقا هذه المبادرة، كلاهما جغرافيـــان، واللذان أدخلا في هذا النقاش عمقاً تاريخياً وحتى ما قبل التاريخي، وهو كمـــا سنلاحظ فيما بعد أنه لم يفرض نفسه فرضاً، إن هذه المساهمة للتاريخ أساسية لمن يبحث عن إدراك مورفولوجية المدن السورية، بمـــا فـــي ذلـــك شـــكلها الحالي.

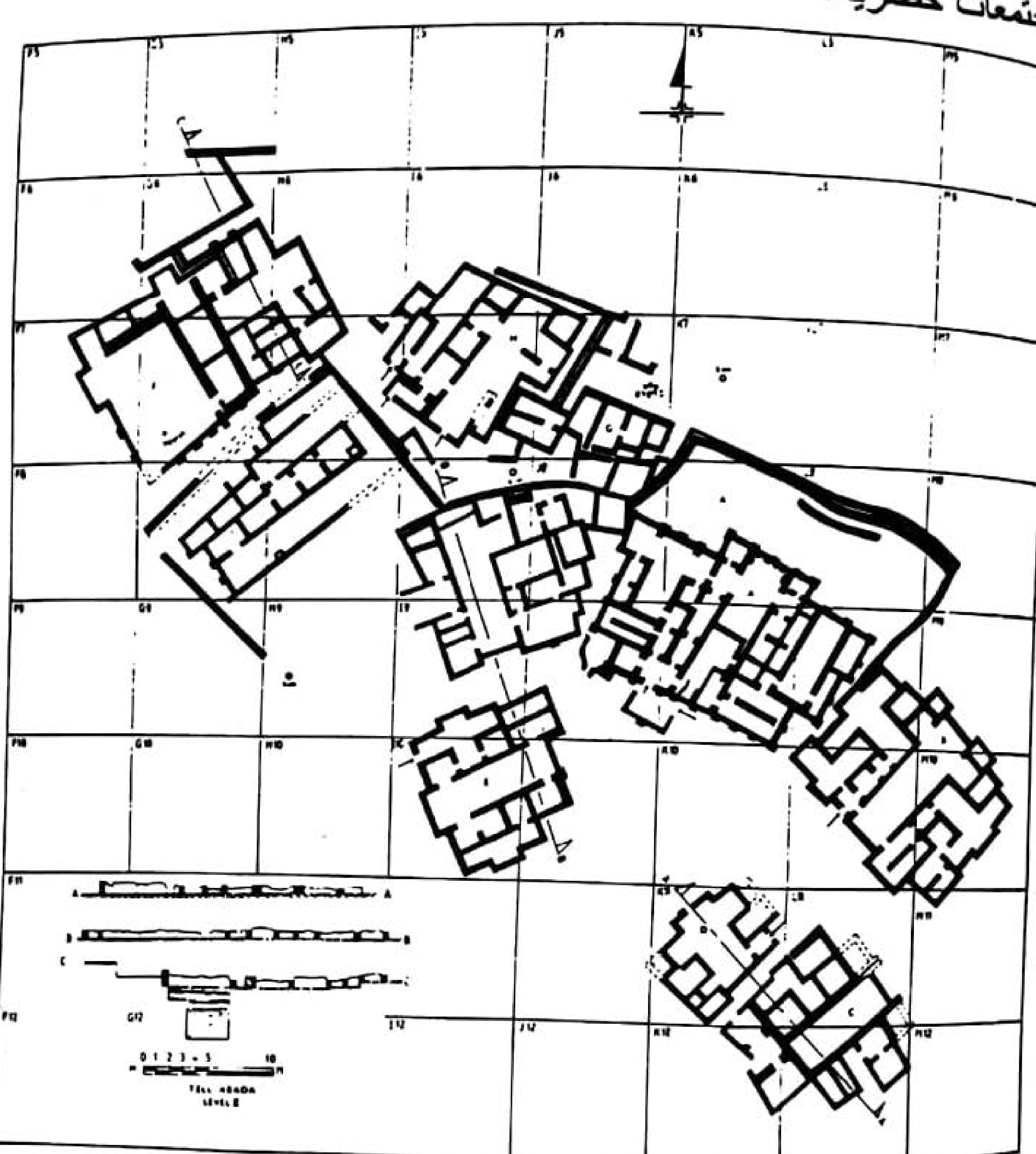
لنسوِّ أولاً مسألة ما قبل التاريخ. لقد لعبت سورية بالتأكيد دوراً أساســـياً في تكوين أولى الجماعات القروية. وتذكر دانييل ستورور بذلك بشكل رائـــع، لكن ليس لهذه القرى الأولى إلا علاقة ضعيفة جداً مع الظـــاهرة العمرانيـــة: فتنظيم الفضاء المبني بما في ذلك الترتيب والأبنية الجماعية لا يكفي لإعطـــاء شكل المدينة، فليس هناك فضاءات أكثر تنظيماً وترتيباً حول أبنيـــة جماعيـــة أكثر من قرية باميليك في أفريقية الاستوائية. وقرية بـــورورو فـــي أمريكـــا اللاتينية أو جزر تروبرياند في غوايانا الجديدة (انظر من أجـــل التوضيـــح، فرازر Fraser 1979). ومع ذلك فلا أحد يجازف بأن يـــرى فـــي ذلـــك أي علاقة مع الظاهرة العمرانية. فالخطر في ذلك هو عودة جدل قديـــم وزائـــف كان يهز علماء الآثار في الستينات من القرن العشرين (هييـــو Huot، 1970)

وما زال بالإمكان رؤية آثاره في الكتب التي تسمى «كتب الجمهور الواسع» غير المراقبة جيداً. فأريحا في فلسطين وشاتال هويوك في الأناضول، اللتان كانتا مسكونتين في العصر الحجري الحديث (النيوليتيك 8000-9000 قبل الميلاد بالنسبة للأولى، و 7000-6000 قبل الميلاد بالنسبة للثانية)، قد اعتبرتا كل بدورها أنهما أقدم مدينتين في العالم، وبعد قراءة دانييل ستوردر، نقبل طوعاً بأن لا نقع في هذه المغالطة، لكن المجازفة تكمن في أن يلحظ القارئ غير الحذر ذلك الخلط في المواقع التي تذكرها.

لم تأت المدن الأولى مباشرة من الجماعات النيوليتية الأولى في الهلال الخصيب وإنما من حضارة لاحقة يوجد مركزها في منطقة ما بين الرافدين وعلى الأغلب في جنوبها وقد تطورت بالتأكيد انطلاقاً من أساس نيوليتي، ولكن فيما بعد، في الفترة 6000-4500 ق.م. وهي معروفة باسم حضارة عُبيد. وفي حالة واحدة على الأقل في موقع عبادة (جاسم Jasim ,1989) نلاحظ براعم المعالم الحقيقية لتسلسل اجتماعي محتمل (وبلا ريب، اقتصادي أيضاً، وربما ديني). على شاكلة «بناء مهيب» (الشكل 1) يتميز بشكل واضح عن المنازل «العادية» (أورانش Aurenche، 1982). فبأي شيء يمثل هذا المبنى ـ وهذه الثقافة ـ الظاهرة العمرانية؟ الجواب في مقالة جان كلود ماروغرون الذي يشير إلى أن مجموع الوثائق المتوفرة حالياً يسمح بإعادة اختراع المدينة إلى حضارة أخرى من حضارات جنوب ما بين الرافدين، وهي حضارة أوروك في الألف الرابع. لكن هناك نقطة. لا يركز عليها بما فيه الكفاية، كما نعتقد لعلاقة مباشرة بين الثقافات النيوليتية الأولى وأولى الحضارات العمرانية (أوروك) بوساطة «حلقة مفقودة» (ثقافة عبيد) التي شكلت ممراً إجبارياً، سيكون من الخطأ إغفاله.

فالمشكلة، إن أردنا البقاء ضمن إطار الملتقى، هي أن الانتقال لم يتم في الأراضي السورية، ولكن في منطقة ما بين الرافدين. وبتعبير آخر، إن كانت سورية، وعلى الأخص منطقة الفرات، بالإضافة إلى جنوب الأناضول، مرشحة لأن تكون مواطن نيوليتيه مبكرة (أي تحققت في وسط آخر السكان

المعتمدين على الصيد والالتقاط)، فليس بإمكانها المطالبة بصفة مهد العمران المبكر أي تحول السكان النيوليتيين في عين المكان من سكان قرويين إلى مجتمعات حضرية.



الشكل 1: مخطط قرية عبادة في العراق (حضارة عبيد، الألف الخامس قبل الميلاد). نلاحظ«المبنى المهيب» الأوسع من الأبنية الأخرى «العادية» والمتشارك مع سور حظيرة.

وبشكل متناقض، لم تترك حضارة أوروك في جنوب ما بين الرافدين، حيث يبدو أنها ظهرت، سوى القليل من الآثار التي يمكن أن تؤكد تطور الحركة العمرانية، هناك يقين واحد، وجان مارغرون يؤكده وهو محق في ذلك وهو أن ولادة المدن الأولى (المحتملة) يتوافق مع ظهور أول أشكال

الكتابة. إن هذه النقطة تستحق اهتماماً أكبر مما يعطى لها عادةً. فالتحولات المعمارية ـ لا تعرف أي مثيل لذلك في الأبنية «الضخمة» أو في تنظيم الفضاء لدى حضارات سابقة ـ واختراع الكتابة هما أكثر الإشارات «تأكيداً» بالنسبة لعالم الآثار، بذات مستوى الزراعة وعلى سبيل المثال، أو تدجين الحيوانات بالنسبة لعالم ما قبل التاريخ، عن التحول الذي قاد بعض المجتمعات النيوليتية ـ لكن ليس كلها، وليس في كل مكان، وليس في الوقت نفسه ـ في الشرق الأوسط، إلى تحول عميق في بنياتها الداخلية في عملية تطورية غير قابلة للانعكاس، عملية تعتبر نتائجها مهمة بالنسبة لتاريخ البشرية بقدر أهمية الثورة النيوليتية.

ومع ذلك، فحتى لو أن «الثورة العمرانية» لم تقم في سورية، فعلى أرضها يمكن ملاحظة أقدم التجليات التي لا يمكن دحضها، وذلك بفضل الكشف الذي قامت به إيفا سترومنجر لأحد أوائل مخططات المدن ـ لقد احتاج الأمر إلى شيء من الجسارة في السنوات 1970–1980 من أجل التجرؤ بالكشف بالجرافة عن مساحة واسعة جداً، حتى في موقع يحتاج للإنقاذ. إن هذه المدينة لم تتطور في مكانها، فلقد تمرست، إن تجرأنا على قول ذلك، بشكل جاهز على الضفة اليمنى للفرات، ولا يسعنا إلا القول، والأمر يستحق التشديد، بأن موقع حبوبة كبيرة يقدم في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد المخطط العمراني الأول لمدينة حقيقية، وأيضاً لقرون عديدة، إن لم يكن لعدة آلاف من السنين، المخطط الأول الوحيد. وهكذا فإن حبوبة كبيرة تشكل، في إطار المعارف الحالية، ليس فقط النموذج المثالي للمدينة الشرقية ـ سنعود إلى هذا المفهوم فيما بعد ـ وإنما أيضاً للمدينة ذاتها.

ما هي العناصر المُهيكلة لهذه المدينة «الأولى» ؟

سنأخذ منها إثنين يظلان متواترين، بشكل أو بآخر، عبر كل العصور القادمة: هناك أولاً وجود نوعين من الصروح المتميزة عن السكن البسيط، إن كان بأهميتها المعمارية أو بموتها الطبوغرافي، نوعان «يشيران» إليها بشكل مزدوج في الفضاء العمراني. ففي حبوبة كبيرة (التي ينطبق عليها هذا الاسم...) لا يلاحظ جيداً سوى النمط الأول: إنه قطاع المعابد فوق

«الأكروبول الجنوبي». أظل من جهتي مقتنعاً بأن النمط الثاني من الصروح، القصر الذي لا يمثل السلطة الدينية وإنما السياسية (أو العسكرية كي لا نقول الاقتصادية لأنه يمكن تقاسم هذه الأخيرة) يقع على الأكروبول «الأخر» في مركز الموقع، الذي كان من الصعب تنقيبه بسبب وجود مقبرة في قمته تعود للقرية المجاورة. يُرمز لفصل السلطات في هذه المجتمعات الحضرية الأولى، في آن واحد معاً، بواسطة «المعابد» (أو على الأقل البعض منها والتي تعود على الأغلب إلى الجماعة المهيمنة في المدينة) وكذلك بواسطة «القصر» الوحيد دوماً.

إن العنصر الثاني المتواتر يتكون مما سندعوه، بسبب غياب مصطلح أفضل، بـ«النسيج العمراني» وذلك يعني بنية كثيفة من الأبنية «الجماعية» أو «العادية» تلتصق غالباً ببعضها بعضاً وتخدّمها شبكة من شوارع متسلسلة الأهمية بشكل واضح، وذلك في حالة حيوية كبيرة، ولكن بحسب مخطط عمراني غير منتظم، حتى وإن كان معداً مسبقاً. إن الوظيفة الأساسية لهذه الأبنية هي السكن، ولكنها غير مستبعدة من نشاطات أخرى (تجارة، حرف).

إن وجود الأسوار، المنتظمة نوعاً ما في هذه المدن الشرقية القديمة يبدو بالنسبة لي عنصراً ثانوياً مقارنة بالاثنين السابقين.

لكن المدينة لا تنحصر فقط بأبنيتها داخل الأسوار، وقد كان منظمو الملتقى محقين بالتشديد على مفهوم الإقليم الذي تديره المدن. فالمدينة لا يمكن أن توجد إلا كمركز أو كعقدة لشبكة متعددة ومتنوعة النوع (في هذه الحالة، من شبكة من قرى المزارعين) أو من مجموعات من مربي الماشية الرُحل.

إن نموذج أوغاريت في الألف الثاني قبل الميلاد، والذي قدمه إيف كالفيه، واضح بامتياز في هذا الخصوص، وهنا يأخذ مفهوم المدينة الدولة معناه الكلي ـ أي عبارة عن وحدة تتمتع بموارد مستقلة كافية لها لتدّعي هوية سياسية إن لم يكن عسكرية لا تستبعد المشاركة على مستوى آخر، في مدارات تربطها بعلاقات مع المدن الدول المجاورة. تملك أوغاريت قصراً في القسم الغربي من المدينة بالإضافة إلى معبدين اعتبرا هامين كغاية لكي يُشيّدا على أكروبول في شمال المدينة. إن مظهرهما الخاص كمعابد برجية

يجعلهما متميزين بشكل خاص، ليس فقط بالنسبة للسكان وإنما أيضاً بالنسبة للزوار القادمين من بعيد. إن النسيج العمراني ليس كثيفا فحسب، ولكنه متسلسل على شكل أحياء ترتبط ببعضها بوساطة شبكة مرور غير منتظمة حيث يبدو أن بعض المحاور تتقارب باتجاه الأكروبول على سبيل المثال، مفضلة عن غيرها. ويمكن أن نذكر، في سورية بالذات، نماذج أخرى لمدن معاصرة لأوغاريت، حيث التنظيم الفضائي وأقليمها محددان بوضوح، كايمار (معبد رئيسي وقصر فوق نقطتين مرتفعتين، نسيج عمراني على شاكلة مصاطب اصطناعية)، أو مدينة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد وكلتاهما تقعان على الفرات. وفي هذا الخصوص تعتبر مقالة جان كلود دافيد عن إقليم حلب في الفترة المعاصرة مفيدة بشكل خاص. وتبين النصوص المكتشفة في ماري أن هذه المدينة كانت تسيطر في الألف الثاني قبل الميلاد على أقليم متقاسم بين مزارعين مستقرين ورعاة رحّل لم تكن العلاقات بينهم ودية دوماً. وهكذا كان بالإمكان، ولا يزال بالإمكان دوماً، مدن في البادية (إيبلا وماري البارحة، واليوم حلب وحماة وحمص) ومن مدن الساحلية (البارحة أوغاريت واللاذقية، واليوم طرطوس اليوم) التي كان تنظيمها ـ وعمرانها ـ متشابهاً، بالرغم من أن محيطها الجغرافي والاقتصادي وشبكات علاقاتها مع المدن المجاورة تختلف بشكل ملموس.

إن هذا النموذج للمدينة الشرقية، الذي رأينا كيف أنه كان يشكل منذ البداية نموذج المدينة بامتياز قد استمر دون تبدل عبر الزمن بما فيه الزمن الحاضر. والمراحل الوسيطة واضحة، لا سيما بالنسبة للفترة الإسلامية ـ سنعود فيما بعد إلى «المعترضة اليونانية ـ الرومانية» إن استمرارية مفهوم المدينة-الدولة يبدو بالفعل واضحاً في مداخلات تييري بيانكي وبريجيت مارينو وألكسندرين غيران وجان كلود دافيد الذين يشددون جميعا على التنظيم الإقليمي والشبكات التي بدونها سيكون مفهوم المدينة بالذات عديم الفائدة.

هناك نقطة تستحق الاهتمام في هذه الاستمرارية التاريخية: لم يتغير حجم هذه المدن-الدول مع الوقت أبداً. حتى وإن كانت الوثائق الدقيقة مفقودة غالبا ، فإننا نلاحظ أن اتساع الإقليم الذي تديره هذه المدن كماري أو أوغاريت في الألف الثاني قبل الميلاد يشبه نوعاً ما اتساع مجال نفوذ المدن

سورية الحالية كحمص وحماه.

فمنذ أن بدأت الظاهرة العمرانية، لم يتبدل التنظيم الإقليمي في ســـورية، الذي تتقاسمه مدن دول عديدة ذات أهمية متساوية إلى حــد مــا، حتــى وإن كانت إحداها تحاول السيطرة على الكل أحياناً ، ولكن دون نجاح دائم.

أما بالنسبة للتنظيم الداخلي «للمدنية العربية»، فليس هنـــاك مجـال للدهشة إن كانت تختلف قليلاً عن ذاك الـــذي تعرفـــه المدينـــة الشـــرقية البدائية. ويكفي من أجل الاقتناع بذلك ملاحظة مخطط مدينة الرحبة فـــي مقالة ماري أوديل روسيه، ودوماً الواقعة على الفرات. نجد فيها دون جهد أن السلطة السياسية والعسكرية ممثلة بالقلعة وأكروبولها والسلطة الدينيـــة في «الجامع الكبير»، والنسيج العمراني يظهر كثيفاً بالرغم مـــن ضيــق حفرات الاختبار.

إن الانقطاع الحقيقي الوحيد في تاريخ سورية العمراني يتمثــل فـــي الفترة اليونانية ــ الرومانية، ومجازفاً بإثـــارة زملائـــي العـــاملين علـــى العصور الكلاسيكية، وبالتأكيد باستثناء جان ماري دانزر، فلا يبدو لــي أن هناك مبالغة في التأكيد أن استيراد النموذج الغربي في ميدان العمـــــران، والنموذج اليوناني الذي نشره أحفاد الاسكندر واستمر دون تبدل كبير فـــي العصر الروماني، لا يشكل إلا ظاهرة عارضة لبضع قرون طـــوال مـــدة تزيد عن ستة آلاف سنة. لا شك أن النموذج مختلف كفاية، إن كان فـــي فلسفته أو في إنجازه المعماري وذلك لكي يلاحظ في الحال. وكمـــا يبيـــن بيير لوريش، بأن الأمر يتعلق بإنشاءات جديدة كلياً دفعة واحدة أو علــــى مراحل أو تدخلات قاسية إلى حد ما في مدن متكونـــة مســبقاً، والنتيجـــة واحدة في كلتا الحالتين. إن العناصر الأساسية «للنموذج الغربي» تختصر أيضاً باثنين: تنظيم النسيج العمراني على شكل مقاسم نموذجية متماثلة في كل نماذج البناء، والتجمعات في مركز مدينة الصروح «العامة». إن هـــذا النموذج ذا الأصل اليوناني يتعارض مع النموذج السابق لا ســـيما فيمـــا يتعلق بإدخال الحياة العامة ومقرات السلطة في وسط المدينة، في حيــن أن

المدينة الشرقية تعزلها (لكي تحميها؟) مع الزيادة عند الحاجة في العوائق الطبوغرافية، أو في خلقها فعلاً.

من الناحية التقليدية، يرتبط هذا النموذج العمراني اليوناني بنظام سياسي خاص، وجديد في مسيرة التاريخ، وهو الديمقراطية. وبالطريقة نفسها التي ربطنا فيها تطور الظاهرة العمرانية باختراع الكتابة، فقد أقمنا علاقة بين تطور الديمقراطية مع مرحلة هامة من تاريخ الكتابة، وهي استعمال الأبجدية. فإن كان اليونانيون لم «يخترعوا» الأبجدية ــ من المعروف أنها اختراع سوري، وبالتحديد أوغاريتي! ــ فقد استعملوها كفاية ونشروها، في الوقت نفسه مع النمط الجديد لتنظيمهم للمدن، هذا كي لا تكون هذه المقاربة سيئة الاستخدام. ولا يغير شيئاً من الموضوع إن كان النموذج اليوناني، وبشكل أوسع الحضارة اليونانية، قد انتشر في المشرق بوساطة عائلات حاكمة مهلنسة.

بعد هذه الفترة، التي طبعت خلالها الحضارة اليونانية الغربية علاقة قوية نوعاً ما في الإقليم السوري، لكي تترك معالم مازالت مرئية حتى الآن، فإننا سنميل إلى القول بأن «الطبيعة» الشرقية قد استعادت خطوطها بسرعة عندما أنتجت المدينة الإسلامية، كما رأينا في النموذج المثالي للمدن الأولية. لقد استعاد النسيج العمراني الشرقي شكله بسرعة في معظم المدن السورية التي تحول نمطها ليصبح نموذجاً عربياً، ضربات المبضع التي قام بها العمرانيون اليونانيون، وجان ماري دنزر محق بذكره لاستمرارية هذا النموذج «الشرقي» الذي ظل قائماً على الأغلب في مدن لم يدخلها العمرانيون اليونان دون أن يكون هناك ضرورة، كما يقترح E. Wirth أوغان فيرت، لذكر نموذج إيراني شرقي «جديد». فالواقع أنه في سورية بالذات وعلى الأرض التي تجلت فيها للمرة الأولى، قد استمرت المدينة الشرقية عبر العصور.

وبشكل متناقض ــ لكن التناقض ظاهري فقط ــ فدراسة فرانسواز مترال عن آلية إنشاء مدينة صغيرة حالية في سورية الوسطى هي التي

سمحت بإغلاق الحلقة بالعودة إلى أصول المدينة بالذات. فبحسب التحقيق الميداني الذي قامت به فإن هذه المدينة، التي تشكلت انطلاقاً من نواة قروية، لم تتمكن من التطور إلا لأن عدداً معيناً من الشيوخ عرفوا كيف يضعون حداً للنزاعات العائلية والقبلية، مما سمح عندها وعندها فقط، بالبدء بتنفيذ مشاريع جماعية تُدار بشكل مشترك بفضل نوع من الصلح الاجتماعي تم الحصول عليه وصيانته بفضل رضى متبادل. إن المشاريع الكبيرة، المستحيلة التنفيذ عندما «تبطل» النزاعات القديمة أي أفق للتنمية والتطور، لتصبح حقيقة بمجرد أن تلتقي القوى الموجودة حول الهدف نفسه. وخوفاً من أن نتهم بالمفارقة التاريخية ـ وهذه ليست المرة الأولى ولا الأخيرة ! ـ سأحاول أن أصف القرويين في حضارة عُبيد في الألف الخامس وأوائل المدنيين فيها في الألف الرابع، بإحدى هذه الاندفاعات السيكولوجية الجماعية حيث تختفي المصلحة الشخصية (أو العائلية، أو القبلية) لصالح المصلحة الجماعية التي وضعت في خدمة جماعة من نمط جديد. وأن نرى فيها أحد مفاتيح العبور من القرية إلى المدينة.

وبشكل جدّي أكثر، سندرك من خلال هذا النموذج أن الانتقال من القرية إلى المدينة لا يتطلب في العلاقات البشرية تبدلاً في الطبيعة ولكن بالدرجة. ويسير هذا التغير على التوازي بالطبع مع ظهور بعد جديد في ممارسة ـ وبالتالي تجلي ـ السلطة (أو السلطات؟) . ودون أن نعود إلى الجدل القديم المكون من التساؤل إن كانت المجتمعات النيوليتية متساوية أم لا، سيكون من الساذج التخيل أن ولادة المدنية هي نتاج شكل من «الديمقراطية البدائية»، كما ادُعي سابقاً. إن النقطة الوحيدة المؤكدة تقريباً، ذلك لأن قراءتها ممكنة في الآثار، هو أن وجود المدينة مترافق مع ممارسة سلطة (جديدة؟) لا يكون امتدادها ـ بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ـ بالمقياس نفسه إلا في مجتمع قروي. وهكذا سنفهم بشكل أفضل لماذا تطورت المدن الأولى في ما بين الرافدين وليس في مكان آخر. فهذه المنطقة كانت الوحيدة في الشرق الأوسط التي أعطت إقليماً واسعاً بما فيه الكفاية، من حيث الإمكانيات الاقتصادية والاجتماعية، لكي يسمح بهذا

التغيير للمقياس. فمن أجل أن تولد المدينة يجب أن تكون السلطة التي تضعها معتمدة على «مخزون ثروة» (أيا كان أصلها أو طبيعتها) كاف لذلك. وبمعنى آخر، لكي تتجاوز قرية ما العتبة التي تقودها إلى المدينة، فهي بحاجة لأن تكون قادرة على السيطرة على شبكة كافية وهامة من قرى أخرى، «تقبل» بشكل أو بآخر أن تظل قرى. إن أنماط هذه السيطرة غير متوفرة لدينا. حتى وإن كانت الكتابة إحدى أدوات هذا الشكل الجديد من السلطة، كما رأينا قبل. ومن المحتمل أن تبدو الأشكال «القديمة» للاتصال غير مناسبة وأنه صار من الضروري، من أجل هيكلة و«إمساك» هذه الشبكات ذات الحجم الذي لم تبلغه أبداً من قبل، اختراع وامتلاك تقنيات جديدة. إذاً من الأفضل تخيل أن ولادة المدن عبارة عن انبعاث بطيء في ظرف جغرافي واقتصادي وثقافي دقيق، لأنماط جديدة من العلاقات البشرية غير المعروفة حتى ذلك الحين، أكثر من أن تكون بمثابة خلق من العدم قام به خالق مُلهم.

BIBLIOGRAPHIE المراجع

AURENCHE (O.)

1982 «A l'origine du temple et du palais dans les civilisations de la Mésopotamie ancienne», Ktema 7, p. 14-25.

FRASER (D.)

1979 Village Planning in thé Primitive World, Londres, Studio vista.

HUOT (J.-L.)

1970 «Des villes existaient-elles en Orient dès l'époque néolithique?», Annales, p. 1091-1101.

JASIM (S. A.)

1989 «Structure and Function in an 'Ubaid Village», in Henrickson E. F. et Thuesen I. éd., Upon this Foundation. The 'Ubaid reconsidered, Univ. of Copenhagen, The Carsten Niebuhr Institute, p. 79-90.

خاتمة: المدن السورية

جان ميترال Jean Métral

جامعة ليون الثانية، فرنسا

كيف نقدم خلاصة لأعمال هذه الأيام الثلاثة المخصصة للمدينة في سورية، الموروث والتحولات، منذ ما قبل التاريخ حتى أيامنا هذه؟ إن أهمية الموضوع وكثافة المداخلات الأربع والعشرين، وغنى المناقشات، وتنوع الاتجاهات العلمية للمقاربات، كل ذلك يجعل مهمتي مستحيلة. لذلك سأكتفي ببعض الأفكار التي يمكن أن يصوغها أنتروبولوجي يهتم بالمدن السورية (بالمدن الصغيرة أكثر مما هو بالكبيرة) وبالشرق الأوسط، والذي يهتم أيضاً بمدن بلاده، في فرنسا، في الغرب. وليس لهذه الأفكار مشروعية أخرى سوى إلزام كل واحد منا بالقيام بالمثل في إطار اختصاصه العلمي ومصالحه، إنها إذن بعض الأفكار الهادفة لتكوين أخرى، ضرورية أيضاً ومشروعة.

أرغب في بادئ الأمر بوضع بعض الملاحظات حول الإطار، والإشكاليات التي اقترحها علينا منظما الملتقى والمؤسسات العلمية التي دعمته. فجان كلود دافيد ومحمد الدبيات استندا على أبحاث المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق والمعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى ومجموعة البحوث والدراسات عن المتوسط والشرق الأوسط التابعة لبيت المشرق المتوسطي وقاما برهان مزدوج: رهان الحقبة الطويلة من الزمن ورهان تعدد الاختصاصات العلمية. ففي فضاء سوري معرَّف «كفضاء معبور»، ما هي المدن في هذا الفضاء؟ إن هذا الرهان الذي يمكن أن نحكم عليه بأنه خطر، وطموح جداً، قد كان خصباً، لقد ألزمنا جميعاً بقراءة المدينة من الأسفل بحسب زمانيات وإيقاعات مضاعفة، ومستويات مجالية وإقليمية مختلفة، بقراءة المدينة من خلال الحركة، بقراءة العمليات التطورية أكثر من

البنية، التشكل أكثر من «النموذج». ومن أجل استعادة صيغة شائعة: إنه «تبدل النموذج» الذي ساهم في جعل حواراتنا ممتعة جداً طوال هذه الأيام الثلاثة، مع الدعوة التي وجهت إلينا جميعاً، أياً كان اختصاصنا أومقاربتنا، للحديث عن المدينة من ورشاتنا، من مواقعنا ومن ميادينا.

يجب ألا ننسى أيضاً أن كل ذلك متناغم مع الدراسات التي تتم في مكان آخر وأن ذلك يندرج هنا في المعهد الفرنسي للدراسات العربية في الامتداد المباشر للملتقى الذي عقد في العام المنصرم تكريماً لأندريه ريموند الذي شق، بعد جان سوفاجيه، طرقاً جديدة للبحث العمراني.

سأعرض أفكاري حول المضمون مرتبة بحسب المواضيع أكثر من ترتيبها بحسب التسلسل الزمني، مستعيداً المواضيع التي اقترحها المنظمان:

- ولادة وتطور المدن الأولى.
- الأقاليم في المدن.
- أقاليم المدينة.

وفي نهاية هذه الأيام الثلاثة من العمل والحوارات الغنية والخصبة، اعتقد أنه علي أن أوجز، مع المجازفة بأن أبدو جزئياً ومتحيزاً.

ولادة المدن: المدينة كتطور والمدينة كمشروع

يتوجه هذا السؤال أولاً إلى زملائنا علماء ما قبل التاريخ وعلماء الآثار الذين اقترحوا علينا سيناريوهات مختلفة بحسب الفترات الزمنية والمناطق.

لقد ظهرت بشكل تدريجي، بين الألف العاشر والألف السابع، في قرى سورية الشمالية عناصر جديدة في العمارة المنزلية وفي تنظيم الفضاء المسكون: تشييد أبنية جماعية، تكثيف وتنويع الفضاء المبني، ظهور فضاءات مفتوحة، جدران داعمة، أسوار، إلخ. كل ذلك يمكن أن يفسر بالطبع كعلاقات عمرانية، مؤشرات عن عمران بطيء ومحلي. نمو ديموغرافي، الوصول إلى موارد جديدة، أنماط حياة متنوعة ... صاحب كل ذلك تحول القرى التي انبعثت فيها فيما بعد المدينة: من القرية إلى المدينة، أو أن المدينة

تطور تندرج ضمن استمرارية على مدى آلاف السنين.

وبعد مضي زمن طويل، وابتداءً من الألف الرابع وفي وادي الفرات الأوسط، نجد سيناريو آخر. فبعد المدينة المتطورة، المدينة المشروع. وبعد الاستمرارية، الانقطاع: إن حبوبة كبيرة في الألف الرابع، وماري في الألف الثالث كلتاهما مدينتان مؤسستان.

وربما يتعارض السيناريوهان بشكل أقل انطلاقاً من عمران المناطق ضمن المدينة. ومع ذلك، فبدءاً من الألف الرابع سمحت الضخامة المهيبة للمعبد وللقصر و«مركزيتهما» بالحديث عن «عمران إرادوي». لدي انطباع أن الاختلاف يظهر خصوصاً في الأهمية التي تمنح لدراسة «أقاليم المدينة» وإلى اتساع الفضاءات الخارجية التي تمارس عليها المدينة نفوذها وسيطرتها، والتي تستمد منها جزءاً من الموارد. والتي معها تستقطب المبادلات. عندها تبدو المدينة كعقدة داخل نظام شبكي، عقدة حركات جاذبة للمركز ونابذة عن المركز. حركة واتصالات تكون فيها الإشارات العمرانية كالمخزن، وساحة السوق والميناء... الخ. أقل ضخامة واستعراضاً من المعبد والقصر.

لدينا هنا قراءة أخرى: الشبكة هي من يصنع المدينة، حيث يتركز ويتمفصل ويتسلسل المعبد والقصر والسوق، الديني، والسياسي، وتبادل الخبرات، والمواد وغير المادي.؟ هل هو اختراع الكتابة ما جعل ظهور هذه «المدينة الأخرى» ممكناً؟ لقد طرحتم أنتم أيضاً هذا السؤال. أرغب بدوري طرح سؤال آخر. مادام أنه كان لدينا الكتابة في زمن المدن المؤسسة، فهل لدينا، تحت شكل أو آخر «روايات تأسيس» تخبرنا ماهية هذه المدن بالنسبة للناس الذين يعيشونها والذين يصنعوها؟ هل يمكن ربط حكايات التأسيس هذه بالمعطيات المادية والموضوعية لعلم الآثار، وتحديد التباعد واللقاء؟ حتى وإن كان هذا السؤال أنتروبولوجياً جداً، فإنه سؤال أطرحه أيضاً على زملائنا المؤرخين والمتعودين على النصوص. إذ أن مسألة «المدن المؤسسة» قد طرحت طوال الأيام الثلاثة، وبالطبع مع مسألة «المدن الموروثة». إن كان في العصر الكلاسيكي أو العصر البيزنطي، وفي العصر العربي الإسلامي

وكذلك في الوقت الحاضر، ومثلما تُطرح اليوم، على الجغرافيين وعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيين، مسألة المدينة المتطورة. إن النمو الديموغرافي ومشاريع التنمية الزراعية تفرض الآن أيضاً تحليل عمليات الانتقال من القرية إلى المدينة، بينما سورية، تلك الدولة الوطنية التي تتكون بحدودها وبسلطاتها، هي اليوم أضعف من أن تكون «فضاء معبوراً» أو إن ما زالت كذلك فالأمر مختلف الآن. على كل حال يتساءل الأنتروبولوجي عن تكرار هذه المواضيع على المدى الطويل.

إن الفضاء السوري المُختبر على المدى الطويل هو توضيح نموذجي لما دعاه المنظمون «فضاءاً معبوراً» (باستثناء فترات قصيرة وقليلة. كالفترة الأموية على سبيل المثال) بواسطة قوى خارجية جاءت من جميع الجهات.

ألاحظ أننا تحدثنا عن القوى القادمة من حوض المتوسط (اليونان، روما، بيزنطة) ومن الجزيرة العربية أكثر مما تحدثنا عن الغزوات القادمة من الشرق. أقصد الغزوات الفارسية ربما اعتقدنا أن الهجمات الفارسية نحو المتوسط كانت عبارة عن (غارات) أكثر من أن تكون احتلالاً استيطانياً، وأنه بعد موت الاسكندر، أصبح الفرات بسرعة ليس فقط حدوداً محمية عسكرياً وإنما حاجزاً ثقافياً كتيماً، لكننا لم نناقش حقاً هذا الموضوع.

الأقاليم ضمن المدينة: العمران والتخطيط العمراني

إن هذا الموضوع الذي يركز اهتمامنا على البنيات العمرانية، وعلى تشكل وتوزيع الأقاليم ضمن المدينة، قد تم تقديمه بشكل رائع في الفترات المختلفة من قبل المؤرخين والأثريين الذين ميزوا جيداً في تحليلاتهم العمرانية بين المدينة كما تبنى مادياً والتخطيط العمراني، والمدينة كما تم تصورها من قبل أصحاب المؤهلات والسلطة لصنعها. كيف يتمفصل هذان الوجهان؟ وأي تباعد يمكن أن نلحظه بينهما ولماذا، وكل ذلك انطلاقاً من «مدن مؤسسة» أو من «مدن موروثة»؟ فلم يلحظ فقط الانقطاع والاستمرار، الموروث والمتحول، ولكن أيضاً التعايش في المدينة نفسها بين «نماذج» مختلفة: شرقية ـ هلنستية ـ بيزنطية ـ عربية ـ إسلامية، وتجارها في

مميزة، تمفصلها ــ تجاورها ــ تغييرها ــ فــي حــي واحــد، شــكل
ي واحد. من وجهة النظر هذه، نجد أن سورية عبارة عــن «مختــبر»
ي للدراسات العمرانية. أفاميا، دورا أوربوس، بصــرى، تدمــر كلــها
رائعة. لقد فتح جان سوفاجيه الطريق باكراً بدراسته لحلــب، وبــالطبع
أخطاء تم تصحيحها اليوم.

بالنسبة لي، هناك درسان يمكن استخلاصهما من أعمالنــا حــول هــذا
ضوع:

نوع عمليات التطور العمرانية خلال الفترة نفسها.

تنوع النماذج العمرانية التي لا يجب أن يعتبر ظهورها الميداني، كتطــور
طي وحيد الاتجاه، إن تعقيد تداخلاتها وتراكباتها، في الموقع نفسه، وفــي
لحظة نفسها، لا يندرج فقط ضمن إطار الاستمرارية والانقطاع، فهو أيضاً
نبعاث، وعودة، واسترداد.

لقد اهتممنا أيضاً بتعريف المجــالات الخاصـــة ولا ســيما الفضـــاءات
عامة، ففي كل العصور كان المنزل، والمسكن، والفضاءات المنزلية عبــارة
ن فضاءات خاصة، حتى عندما نلاحظ وجود الغرف والفنـــاءات الداخليــة
تي يمكن ولوجها جزئياً من قبل الضيوف والزوار والأجانب، لكنها إمكانيــة
لوج تحت مراقبة أفراد الوحدة المنزلية وخصوصاً من زعيمها. تكمن هنـــا
ظاهرة استقرار كبير لوحظت على المدى الطويـــل. ولا يبــدو أن تعريــف
لفضاء العام يملك هذه الديمومة. فإن كان بالإمكان اعتبار شــبكة الشــوارع
على أنها فضاء عام، فيمكن أن تكون كذلك بشكل قسري إلى حد ما، وذلــك
إن أخذنا بعين الاعتبار التطاولات الخاصة التي وقعت في بعــض الفــترات.
فالساحات، والفضاءات التي تخلو من الأبنية ليست دومــاً ســهلة التعريــف:
فضاءات متبقية، فضاءات شاغرة، فضاءات عامة؟ يمكن ملاحظة اختفائـــها
أيضاً. هل يجب الحديث إذن عن زوال الفضاءات العامة؟ لكن هـــل يمكــن
تصور مدينة بلا فضاءات عامة؟ لقد طُرحت هذه الأسئلة ولكنها لــم تعــالج
بعمق. لا شك أنه من أجل ذلك، سيكون من المستحسن تخصيص المزيد مــن
الوقت لمسألة أخرى أخذت القليل القليل من اهتمامنا: إنها مسألة السلطة فــي

المدينة، سلطة القيميين عليها والمكلفين بإدارة هذه الفضاءات والخدمات العمرانية الأخرى. ربما كان علينا قراءة المدينة أكثر قليلاً من الأعلى.

أسف آخر: ألم تكن قراءاتنا للأقاليم ضمن المدينة مركزة كثيراً على المنازل والأبنية والصروح، والأشكال العمرانية المعرفة بحسب وظيفتها: دينية، سياسية، حرفية، تجارية، أم سكنية؟ لا شك أن التوزيع الوظيفي للفضاءات العمرانية ضرورة أولى. لكن ألا يجب إتمامها ومقاطعتها مع قراءات تأخذ بالحسبان معايير أخرى، كالأصل الجغرافي للسكان على سبيل المثال، وانتماءاتهم العرقية والدينية؟ إن توزع الأقاليم ضمن المدينة ليس وظيفياً فقط، فهو يتحدث عن كيفية تنظيم الحياة المشتركة للجماعات المختلفة، وكيف تدار قوانين وقواعد «العيش معاً».

أقاليم المدينة: مقاييس وزمانيات

تتدرج مدن الفضاء المفتوح السوري في مظهر ذي أنظمة بيئية ثلاثة:

- السواحل الجبلية المتوسطية.
- الأراضي الزراعية في الهلال الخصيب.
- البوادي الجافة.

إن كانت هذه الأنظمة البيئية الثلاث تخضع إلى آلات وظيفية خاصة بها، فإنها مع ذلك لا يمكن أن تدرك بشكل مستقل عن بعضها بعضاً. فما من أحد قادر على العيش منغلقاً على نفسه. فإن كانت الثورة النيوليتية قد انطلقت في الهلال الخصيب، وإن كانت المدن قد ظهرت هنا أبكر من أي مكان آخر، فذلك ربما لأنه كان يوجد في هذا الفضاء الضيق نوعاً ما ضرورة لتنظيم أنظمة من علاقات التبادل المتكاملة بين تلك الأنظمة البيئية الثلاثة، فتأسيس المدن في هذا الفضاء المعبور في مختلف الفترات من تاريخه هو غالباً انعكاس لهذا الوضع البيئوي والاقتصادي: مدن تقاطع خطوط المواصلات (برية، نهرية وبحرية) وقاعدة للمبادلات الاقتصادية.

وتستجيب عملية تشكيل الأقاليم والشبكات عادة إلى منطق مماثل أيضاً،

وهو منطق الحلقات البيئية المركزية الثلاثة: تلك القريبة جداً من البساتين الحضرية، تلك الأبعد أكثر المرتبطة بالمبادلات مع الريف المزروع، وتلك الأبعد المرتبطة بشبكة الاتصالات، والقوافل «البحرية» أو قوافل البادية. وانطلاقاً من هذه التصورات فإن دراساتكم حول موضوع الأقاليم والشبكات قد أظهرت منظومتين للتحليل، تبدوان لي على قدر كبير من الأهمية:

- الوظائف والمقاييس.

- إعادة توزيع الوظائف.

المدينة هي المكان الذي يتركز فيه عدد معين من الوظائف الاقتصادية والسياسية والدينية، الخ. لكل منها مبانيها وأبنيتها، وصروحها، وأقاليمها ضمن المدينة. وفي كل إقليم من هذه الأقاليم تعبر عن نفسها عادات وممارسات منفردة، ووظائف لها آليتها الخاصة. كل هذا أخذناه بالحسبان لتحليل تشكل أقاليم المدينة المتعلقة بهذه الوظائف، بحسب المقاييس. فأقاليم الوظيفة السياسية تعرّف بحسب مقاييس لا تتطابق مع مقاييس الوظيفة الدينية التي يمكن أن تكون أيضاً مختلفة عن أقاليم الوظيفة الاقتصادية.

كيف تتشكل هذه المقاييس الإقليمية، وتتمفصل وتتطابق مع مختلف الفترات التاريخية؟ كيف يمكن التعرف على الاستمرار أو الانقطاع، على الموروثات والتحولات؟ فبتحليلنا للأقاليم ولشبكات المدن بحسب الوظائف والمقاييس، فقد بيّنا أن تاريخها مكون من أزمنة وإيقاعات مختلفة. فأزمنة وإيقاعات السياسي ليست هي نفسها بالنسبة للديني.

إن كانت المدينة عبارة عن تركز للوظائف، فهي ليست كذلك بطريقة متساوية، فالمدن التي أسسها السلوقيون على نهر الفرات أو في سورية بعد عدة قرون تعبر عن ذلك بشكل جيد. فالمدينة القلعة، والمدينة الحامية العسكرية، والمدينة المعسكر، تيترابول (رباعي الأقطاب) سورية الشمالية تدفعنا للقيام بقراءة أخرى للأقاليم. ففي هذه الأمثلة الإقليم هو الذي يصنع المدينة، إقليم للحماية، للدفاع، لإعادة التنظيم، هل نقوم بمفارقة تاريخية إن قلنا «إقليم للتنظيم» كما يقال اليوم. إن تجزئة الوظائف وتوزيعها في مدن مختلفة هو برنامج سياسي. إذاً يجب قراءة المدينة من الأعلى. كيف يندرج

المشروع والبرنامج السياسي في المدن-المشروع التي يجب أن تُحلل ضمن إطار التكامل بين وظائفها؟ فلا يمكن فهم المدينة خارج إطار الهيكل والشبكات العمرانية التي تتدرج فيها. تحدث البعض منا أثناء المناقشات عن «المدن الأرخبيلية» أو عن أرخبيل المدن.إن هذا المصطلح لطيف. إنه يذكر جيداً أنه يجب البحث عن «النموذج» في توضع الأرخبيل وليس في المدينة. ونحن مدعوون هنا أيضاً إلى تغيير المثال والمقياس: من النسيج العمراني إلى نسيج المدن، من المدينة إلى المدن الأرخبيلية، هل تسمح حالة معارفنا بالقيام بذلك؟ ربما تكون الطريق مفتوحة، مادام السؤال قد طرح الآن.

خلاصة: المدينة والحاضرة

أرغب بتقديم بعض الاقتراحات كملخص لهذه الخاتمة العامة جداً، والتي لا تستعيد كل الغنى الذي ميز أعمالنا، أعرف ذلك، وأطلب منكم العذر.

لقد انطلقنا من الأقاليم من أجل التفكير بالمدن السورية، تفكير متعدد الاختصاصات العلمية ويشمل حقبة طويلة من الزمن. إننا نرتاد جميعاً هذا البلد منذ زمن طويل، ونعرف جميعاً بعضنا بعضاً. فكم من مرة تلاقينا فيها في المعهد الفرنسي للدراسات العربية، والمعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى، وفي المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، والتقينا في مواقعنا وورشاتنا العلمية. لكنني أعتقد تماماً أنها المرة الأولى التي نعمل بها جميعاً مع بعضنا بعضاً، علماء ما قبل التاريخ، علماء آثار، مؤرخين، جغرافيين، علماء اجتماع وأنتروبولوجيين... شكراً للمنظمين، آمل أن نلتقي جميعاً من جديد بعد سنتين أو ثلاث. أليس بإمكاننا عندها دخول مدننا مع السكان المستقرين بها، الذين يهجرونها ...الخ. الدخول مع المدينيين؟

أما عن أهل المدينة، ففي الحقيقة لم نتحدث سوى قليلاً. ومع ذلك فهم المدينة وهم من يصنعها، حتى وإن كانت قد أسست بواسطة آخرين جاؤوا من أماكن أخرى، كما أنهم يمنحونها المعنى. إن السكان الحضر كثيرو العدد إلى حد ما، ومن أصول متنوعة، وذوو انتماءات شتى، وذوي وضع

اجتماعي متسلسل، ومن ثقافات مختلفة، إلخ. ولكن التساؤل عن السكان الحضر لا يعني فقط التساؤل عن الساكنٍ، عن الضيف، عن الأجنبي، عن الغازي، أو اللاجئ ونشاطاتهم. إنه أيضاً التساؤل عن الطريقة التي يعيشون بها معاً. أود أن أستعيد هنا الأسئلة التي طرحها علينا مدير المعهد الفرنسي للدراسات العربية دومنيك ماليه، أثناء جلسة الافتتاح. ذاكراً. كيف يرفض ابن رشد، في «موجزه» عن الجمهورية، من بين أطروحات أفلاطونية أخرى، الطبيعة التعاقدية للمجتمع وشرعية حروب الفتح، مبيناً أيضاً كي يجب أن يفي بالوعد بـ«إيضاح» نص معروف ـ الجمهورية ـ على ضوء نص آخر غير معروف ـ سياسة أرسطو ـ إنه يشرح كيف ينعكس في الفكر، بواسطة هذه الضربة الفلسفية، تطور الجمعية القروية إلى المدينة الدولة. وإن حكمنا على ما سبق من خلال مقالة أوليفيه أورانش، فإن التأكيد القسري للجوهر السياسي للإنسان أقل بكثير ضد الجمهورية مما هو مسموح بذكره. يمكن أيضاً وكصدى أن يعني أن «المدينة الفاضلة» الخاصة بالفلاسفة الإسلاميين المتأثرين بالفلسفة اليونانية، تفضل إدراج (الخاص بالوضع الضعيف والمؤقت للتخطيط العمراني اليوناني ـ الروماني في المشرق) السياسي والعسكري داخل المدينة، وتهميش الأحياء السكنية بالطبع. إن دخول المدينة مع أهلها الحضر سيقودنا أيضاً إلى التفكير بالحاضرة.

ملاحظة أخيرة: المدينة صيغة جمع في كل فترة من تاريخها. وإن توقفت عن أن تكون كذلك، فإنها تموت، لقد كانت سورية طوال تاريخها فضاء «للمدنِ الموروثة». هي أيضاً فضاء «للمدن الميتة» وحول هذه المسألة أيضاً يجب أن يُسأل أهل المدينة. إن حوادث التاريخ، والزلازل، والكوارث الطبيعية ليست بتفسيرات كافية. فإرادة وإبداع المدينيين يجب أن تدرسا عبر حقبة طويلة من الزمن.

الخلاصات

(بالعربية والفرنسية والإنكليزية)

La ville en Syrie et ses territoires: héritages et mutations

coordonné par Jean-Claude David et Mohamed al-Dbiyat

Résumé

Cette publication réunit les communications sur « la ville en Syrie », présentées lors de la Table ronde organisée à Damas, en janvier 1999, par l'IFEAD, l'IFAPO et le GREMMO. La plupart des participants, appartenant à des disciplines très diverses et travaillant sur des époques allant de la préhistoire à la période contemporaine, souhaitaient développer des comparaisons, situer les villes dans un temps long, mieux les localiser dans des systèmes d'organisation de l'espace d'un terrain particulier, le *bilad al-Cham*. *Jean-Claude David* et *Mohamed al-Dbiyat* exposent en introduction les modalités par lesquelles la ville produit du territoire et réciproquement. Ils questionnent l'organisation des espaces centraux, étroitement tributaires du jeu des pouvoirs, développés pour assurer les contacts avec l'extérieur.

Les contributions sont regroupées autour de cinq thèmes qui ordonnent l'ouvrage et qui étudient la ville depuis les premières cités antiques jusqu'à aujourd'hui. Dès l'origine, les sites des villes et les raisons de leur naissance et de leur existence sont très divers.

Dans l'appréciation de l'apport des cultures néolithiques en Syrie, *Danielle Stordeur* construit sa réflexion à partir d'un questionnement précis : quels sont les caractères architecturaux, techniques, structuraux, acquis en près de huit millénaires, qui seront convoqués lors de l'édification des premières villes ? L'auteur montre, en outre, qu'il n'y a pas nécessairement d'évolution continue du village à la ville et que des villages fondés, organisés suivant un

plan réfléchi, ont existé bien avant les villes.

Jean-Claude Margueron décrypte les ressorts de la naissance d'une ville à partir des deux exemples du début de l'ère urbaine, Habuba et Mari, dans le contexte de l'Euphrate du début du III^e millénaire. La ville naît ici d'une situation de tête de réseau ou de carrefour des voies de communication, en l'occurrence les voies navigables et plus particulièrement les

canaux. L'auteur pose en conclusion la question de l'acte fondateur comme procédure naturelle de création urbaine. La transformation d'un village, sur les modes quantitatif et qualitatif, suffit-elle à donner naissance à une ville ?

A d'autres moments et ailleurs, la ville est le fruit d'autres conjonctures. Ainsi, le cas de Moumassakhin, site sédentaire en zone semi-aride, étudié par *Michel al-Maqdissi* permet d'évoquer les fondations ou refondations plus récentes de villes neuves en Syrie centrale au Bronze moyen (2000-1600 av. J.-C.). Dans ce cas précis, la « création urbaine » constituerait une étape dans la sédentarisation de tribus. Elle met en cause une nouvelle organisation politique et militaire de la région, avec une nouvelle conception de l'urbanisme et de l'organisation de l'espace.

Yves Calvet, pour sa part, étudie la constitution progressive d'une ville côtière à l'âge du bronze, Ougarit, sur un site plus ancien. La ville, comme capitale d'un royaume, est née avec la nécessité d'une organisation sociale autour du pouvoir central. Elle a prospéré grâce au commerce jusqu'à son abandon au début du XII^e siècle avant notre ère. L'auteur décrit parfaitement deux niveaux des espaces de la ville : d'une part, le petit royaume d'Ougarit et d'autre part, le réseau des échanges commerciaux qui atteint l'Egypte et la Mésopotamie.

Les nouveaux modèles urbains et spatiaux des « fondations » hellénistiques et romaines font l'objet de plusieurs contributions .

Se fondant sur des observations principalement relevées à Doura-Europos, *Pierre Leriche* montre notamment que si chaque création urbaine de la Syrie hellénistique est un site particulier, si elle développe une forme évolutive, elle s'insère également dans un ensemble régional, dans un héritage commun, mis au point dès les origines au moment de la colonisation.

Bachir Zouhdi, dans l'analyse des divers aspects de l'urbanisme en Syrie à l'époque hellénistique, exprime, comme Pierre Leriche, la complexité des formes d'organisation territoriale répondant à un projet politique.

Les deux contributions suivantes du second thème de l'ouvrage illustrent ces questions à partir d'études de cas :

Hassan Hatoum décrit, depuis les époques du Bronze moyen jusqu'au XII^e^ siècle de notre ère, le développement de Chahba-Philippopolis qui connut son apogée politique et économique à l'époque romaine.

Klaus Stefan Freyberger, analysant les résultats de fouilles à Qanawat, contribue à retracer le développement de l'antique Kanatha du I^er^ siècle avant notre ère. Ici comme ailleurs, extensions, restructurations architecturales et remplois caractérisent les formes du développement urbain.

Cinq auteurs s'interrogent ensuite, à propos du passage de la ville classique à la ville byzantine puis arabe, sur les fonctions des villes syriennes, lieux privilégiés d'échange et de rencontre notamment entre le monde nomade et le monde sédentaire.

Jean-Marie Dentzer éclaire, à partir de l'exemple de Bosra, la profondeur des changements liés à cette « occidentalisation » et il constate la résurgence à l'époque byzantine, et surtout musulmane, de formes spatiales plus anciennes, « orientales » ou indigènes.

Pour Jean-Charles Balty, la colonisation grecque en Syrie du Nord favorisa la création, par décision politique, de villes neuves complémentaires (la *Tétrapolis*), sur des sites existants. Elles reprennent les fonctions séculaires de centres plus anciens et promeuvent, dans un cadre hellénistique, des pratiques traditionnelles « locales ».

Marta Zuchowska centre, quant à elle, ses remarques sur la Grande Colonnade de Palmyre, étudiée au cours de deux saisons de fouilles (1996-1997), pour réfuter les opinions reçues tant sur la nature et la chronologie que sur le mode de construction de cette rue.

Adnan Bounni s'attache à démontrer que la fonction commerciale (activité caravanière) de Palmyre, au début de notre ère, était doublée d'une fonction religieuse (pèlerinage).

Hugh Kennedy compare l'évolution de deux villes voisines, Gérasa/Jérash et Scythopolis/Baysan, édifiées dans le même esprit classique grec mais rendues différentes par les fonctions que le pouvoir public dans un cas et religieux dans l'autre leur attribue.

L'approche des villes de l'Islam, quatrième thème de cette publication, est centrée sur l'organisation des territoires, dans un système ouvert d'archipel urbain, à l'échelle du *bilad al-Cham* et sur les modalités de contrôle par la ville de son « terroir » à l'échelle locale.

En effet, *Thierry Bianquis* montre bien la multiplicité des villes moyennes, aux réalités diverses, aux personnalités affirmées dans des contextes de concurrence et de confrontation politiques, économiques et régionales.

Avec l'étude *d'Alexandrine Guérin* sur le territoire de Damas à l'époque médiévale, les relations entre les tribus arabes et la ville sont analysées à partir de *lafitna* de la fin du VIII^{e} siècle. Pour Damas, l'enjeu que représente le contrôle de son territoire et sa propre stabilité politique passe par la Ghouta, lieu de la rencontre frontale avec l'ordre tribal.

Marie-Odile Rousset, quant à elle, s'intéresse au développement de Rahba-Mayadin et de sa région du IX^{e} au XIV^{e} siècle. Ici, le destin de la ville est lié à la mise en valeur d'un terroir agricole et à des échanges commerciaux dépendants des contextes politiques toujours influents dans des zones frontières comme celle de l'Euphrate.

Dans l'Empire ottoman et dans la Syrie contemporaine, la question se pose de savoir ce que sont les régions et dans quelle mesure les centres urbains contrôlent et organisent le territoire :

Brigitte Marina évoque l'évolution de certaines villes en pôles d'attraction régionale et le déplacement des territoires commerciaux d'est en ouest entre le XVI^{e} et le XVIII^{e} siècle.

Jean-Claude David démontre, avec le cas d'Alep, comment l'aménagement territorial d'une ville peut rééquilibrer les relations entre des territoires régionaux concurrents désormais enfermés dans le cadre étroit des frontières nationales, issues des traités consécutifs à la première guerre mondiale. Cette réorganisation de la Syrie intérieure notamment s'effectue aussi par rapport au pôle centralisé constitué par Damas.

Ainsi, les régions, au sens moderne, seraient seulement en cours

d'émergence et de lente maturation à l'intérieur d'un dispositif nouveau celui de l'État-nation, qui semble être en rupture profonde avec le passé.

Mohamed al-Dbiyat défend l'idée que l'émergence des petites villes en Syrie centrale, ne se comprend que par référence au passé urbain syrien. Il existe, de façon évidente dans les zones de marge, des processus de disparition, de re-création (ou de réinvestissement contemporain de villes historiques) et de continuité des villes comme en témoignent la toponymie et les recours à la mémoire historique (mythe de fondation de la ville).

Le principe de la continuité des villes s'inscrit donc dans la continuité des références à l'histoire et dans l'importance de la mémoire qui fonde les identités urbaines et locales. Ce sont les perceptions et la conscience actuelle du passé qui font du patrimoine un héritage vivant. Et c'est là l'ultime volet de cette étude collective.

France Métrai, à partir de l'étude de Sukhné, une petite ville de la steppe syrienne d'aujourd'hui, évoque l'articulation complexe entre les réseaux sociaux et identitaires de l'ordre tribal et une citadinité incontestable, reposant sur les échanges commerciaux entre pasteurs et villes de l'intérieur et agrégeant deux systèmes de valeurs : celui de la steppe et celui de la ville.

Jean-Claude David analyse les conditions historiques de l'apparition du concept de patrimoine et il souligne les différents niveaux du patrimoine : national, citadin, communautaire, etc.

Patina Kurdi observe les conséquences, depuis le XVI^e^ siècle jusqu'à aujourd'hui, des relations commerciales d'Alep avec l'Europe. Leurs effets sur l'urbanisme alépin ont connu une première apogée, à l'époque du Mandat français, suivie d'une seconde dans les années soixante et soixante-dix, sous l'influence des théories européennes en matière d'urbanisme et d'architecture. L'auteur relève l'adaptation par la ville, avec plus ou moins de succès, des formes urbanistiques importées.

Jean-Christophe Moncel, en étudiant Bosra, met en évidence les sens différents de la notion de ville entre le XIX^e^ et le XX^e^ siècle. La ville peut alors se développer non pas par une réorganisation de l'espace de la ville historique mais bien plutôt par déplacement en conquérant de nouveaux espaces.

En conclusion de l'ouvrage, *Olivier Aurenche* et *Jean Métrai* proposent, chacun à une extrémité de l'échelle temporelle en cause, le point de vue de l'ethnoarchéologue et celui de l'anthropologue.

Olivier Aurenche apprécie la profondeur historique donnée dans la publication au débat sur la ville. Si le passage à la culture urbaine a lieu en Mésopotamie, à l'époque d'Uruk, c'est en Syrie, à Habuba Kabira, que l'on peut observer les témoins archéologiques les plus évidents de l'archétype de la ville orientale et de la ville tout court. L'exemple d'Ougarit (IIe millénaire), ville dotée d'une organisation spatiale et d'un territoire définis, est particulièrement révélateur de la notion de cité-État. Le modèle de la ville orientale, comme la notion de cité-État, sont opératoires, dans leurs échelles mêmes, pour la période islamique. Une rupture dans cette continuité est représentée par la phase gréco-romaine. Dans tous les cas, la ville est le fruit de la lente émergence, dans des contextes précis, d'une nouvelle dimension dans l'exercice du pouvoir.

Jean Métrai organise sa synthèse autour des trois grands axes du colloque : la naissance et le développement des premières cités, les territoires dans la ville et les territoires de la ville. Les héritages et les mutations, dans l'espace « traversé » qu'a longtemps constitué la Syrie, ont été repérés. La diversité des processus d'urbanisation comme la diversité des modèles urbanistiques, bien souvent coexistant dans une même ville, doivent être soulignés. La formation des territoires et des réseaux est le résultat de la situation écologique et économique de la ville.

Jean Métral suggère toutefois qu'il reste à « entrer dans la ville avec les citadins » en s'interrogeant sur la manière dont ils vivent ensemble.

The Syrian City and its territories: Legacies and Transformations

Coordinated by Jean-Claude David

And

Mohamed al-Dbiyat

Summary

This volume sees the publication of papers from the conferenc on "The Syrian City", organised jointly by the IFEAD, IFAPO and th GREMMO, in Damascus, January 1999. The conference was intende to develop new interdisciplinary approaches to urban studies in th Middle-East, expanding the chronological framework while at th same time focusing specifically on the *Bilad al-Sham.* The conferenc accordingly assembled scholars from different disciplines, specialisin in periods from prehistory to the present day. In the introduction *Jear Claude David and Mohamed al-Dbiyat discuss* the mutual dependenc of a city and its territories, the city centre as spatially organise according to its international and political function.

This volume is composed by six parts, each focusing upon particular theme, dealing with different aspects of the city fror prehistory to the present day. Each case study varies in the way tha the city was founded and how it developed.

Danielle Stordeur evaluates the 8000 years of influence that th Neolytic period has had on architecture, technology and structure c the foundation of the first Syrian cities. She then argues that th development of a village often follows a well defined path whic existed long before the creation of cities. This argument leads her t the conclusion that a city does not necessarily develop from th

normal expansion of a village.

In his study of Habuba and Mari *Jean-Claude Margueron* investigates the reasons for their foundation as urban centres. Located in the Euphrates region, these cities were at the crossroads or head of a network of water channels and date from the beginning of the IIIrd millennium. He discusses the foundation of a city as a part of the process of urbanism and questions whether the growth in infrastructure and size of a village equates to the rise of a city.

Michel Maqdissi examines the founding or refounding of Middle Bronze Age cities in the semi-arid zone of central Syria (2000-1600 B.C.) in his study of Moumassakhin. The urban development of Moumassakhin is a part of the process of sedentarisation of nomadic tribes, resulting in a new political and military organization of the region, and a new urban structure.

Yves Calvet discusses Bronze Age Ugarit, a royal capital which evolved with a well defined social structure focused on a centralised power, while at the same time being a prosperous commercial centre which flourished until its abandonment at the beginning of the XIIth century B.C. He states that the city exists on two levels, as a small kingdom in its own right and as a part of an international network reaching as far as Egypt and Mesopotamia.

The new urban spatial pattern raising from the foundation of Hellenistic and roman cities are the subject of the second part of the volume.

Using Dura-Europos as his basis, *Pierre Leriche* argues that whilst the foundation of each Hellenistic city in Syria is an individual case, it also fits into a common model that was established during this period of colonisation.

Bachir Zouhdi examines different aspects of Syrian urbanism in the Hellenistic period, describing complex territorial organisation in relation to political strategies.

Hassan Hatoum discusses the development of Chahba-Philippolis from the Middle Bronze Age to the Roman period, its political and economic high point.

Klaus Stefan Freyberger contributes an archeological analysis of Qanawat, examining the development of the antique city of Kanatha from the Ist century B.C on. Here the urban development is characterized by expansion, reconstruction and the reuse of architectural elements.

In the third part five scholars examine the transition of the city through the Classical, Byzantine and Islamic periods. They investigate the specific characteristics of Syrian cities, places of exchange between the nomadic and the sedentarised cultures.

Jean-Marie Dentzeruses with the example of Bosra to explain how far the urban change tied to this transformation could go. Stressing the reappearance of ancient oriental spatial forms in the Byzantine city which continue to a greater extent in the Islamic period.

Jean-Charles Baity sees the creation of new cities during the period of Greek colonisation of northern Syria (the Tetrapolis) as a counterpart to preexisting sites, with the secular functions of the ancient city-centres being maintained, and traditional, "local" practices encouraged.

Marta Zuchovska bases her argument on information gathered during her excavation of the Great Colonnade of Palmyra (1996-1997). She focuses on the nature, chronology and the method of construction of this street, challenging traditional interpretations of this subject.

Adnan Bounni explains the coexistence of commercial and religious (pilgrimage) functions in Palmyra in the beginning of our era.

Hugh Kennedy compares the evolution of two nearby cities, Gerasa/Jerash and Scythopolis/Baysan. Based respectively on secular and religious power these cities differ from each other despite both being erected in the same Greek classical spirit.

The fourth part of this volume focuses on the duality of the

organisation of an open urban system in the Islamic cities of the *Bilad al-Sham* as a counterpart to the local control of the hinterland.

Thierry Bianquis looks at multiple functional aspect of medium sized cities, strongly characterized, discussing the political, economic and regional competitions and confrontations that they may generate.

Alexandrine Guerin describes the relationship between nomadic tribes and the city analysing the *fitna* that was ended with a clash between the tribes in the Ghouta of Damascus at the end of the VIIIth century. This was a conflict about the control of the Damascus region and its political stability.

Marie-Odile Rousset, discusses the development of Rahba-Mayadin and the agrarian zone on which it depended from the 9th to the 14th centuries. The commercial exchanges this involved relied on political stability, always of major importance in border zones such as the Euphrates.

The Ottoman and modern day Syria provide the last aspect of the fourth theme. The focus is on determining the significane of territories and to what extent the urban centres control and organise their own regions:

Brigitte Marino discusses the role of certain cities as regional centres, describing the east-west movement of trade between the 16th and the 18th centuries.

Jean-Claude David, through his empirical study of Aleppo, shows how the territorial organisation of a city can normalise the relations between competing regions, now within national borders defined by treaty after the First World War. This reorganisation also established Damascus as the regional centre of primary importance in Syria.

This new territorial and political organisation of Syria as a nation-state, has resulted in the development of the modern regions.

Mohamed al-Dbiyat stresses that the emergence of small cities in

central Syria is solely in relation to their Syrian urban past. In marginal zones some cities disappear while others may undergo a contemporary revival based on their historical significance. Continuity can be demonstrated through toponym or collective historical memory (eg. Foundation legends).

The fifth and the final approach of the city to be treated in this work is the survival of the city in relation to historical circumstance and to the common heritage on which local urban identities are founded.

France Metral examines the case of Sukhne, a small city in the Syrian steppe, that includes pastoral and urban value systems based on the commercial exchange between the

two social groups. This dual system highlights the complex relationship between the tribal social network and the individuality of urban life.

Jean-Claude Da vid analyses the origin of the concept of cultural heritage from a historical viewpoint and emphasises its different conceptual levels (eg. National, urban, local).

Fatina Kurdi investigates the commercial relations between Aleppo end Europe from the 16th century onward. The influence of European urbanism and architectural theory on Aleppo peaked during the Mandate period and again in the 1960's and the 1970's. The author describes primarily successful ways in which the city adapted to these imported urban models.

Jean-Christophe Moncel describes the change in significance of the city from the 19th to the 20th centuries in his study of Bosra. He demonstrates that the city develops by expanding into new areas instead of by alteration of the historical town plan.

In an ethno-archaeological and anthropological conclusion, *Olivier Aurenche and Jean Metral*, put forward chronologically opposed arguments.

Olivier Aurenche discusses the urban importance of Syria from an historical viewpoint, emphasising that even though the urban

process begins in Mesopotamia during the Uruk-period, it is in Habuba Kabira, in modern Syria, that the most important archeological evidence of the oriental city and of the city in general is found. Ugarit from the 2nd millennium, clearly exhibits all the characteristics of the city-state. The notion of the oriental city is revived in the Byzantine and Islamic periods after a rupture during the Greeco-Roman period. The author claims that in each case the urban process is the product of the slow rise of a new type of power.

Jean Metral discusses the main themes of this conference ; the rise of the first cities, and the constitution of "territories" within and outside the cities. He underlines the transmission of cultural heritage and the transformations that have occurred in the Syrian "passed through" space; the pluralism of urban processes as well as the diversity of urban models that coexist in one city ; the formation of territories and of networks from the ecological and economical factors in a city's make up.

Jean Metral finally suggests in a brief outline the possibility of future research on intraurban relations.

ملخّص

المدينة وأقاليمها في سورية: الموروثات والمتحولات

تنسيق

جان كلود دافيد

و

محمد الدبيات

يضم هذا الكتاب المداخلات التي تناولت موضوع «المدينة في سورية» خلال الندوة التي عقدت في دمشق في كانون الثاني 1999 وقد شارك في تنظيمها: المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق IFEAD، والمعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأوسط IFAPO ومجموعة الدراسات والبحوث على المتوسط والشرق الأوسط GREMMO من بيت المشرق في جامعة ليون الثانية. وينتمي معظم الباحثين إلى ميادين علمية مختلفة جداً إذ يدرسون عهوداً تاريخية عديدة، بدءاً مما قبل التاريخ، وصولاً إلى الفترة المعاصرة. لذا كان دأبهم من خلال بحوثهم إقامة المقارنات بين المدن ودراساتها خلال حقبة طويلة من الزمن، بل ومحاولة وضعها ضمن أنظمة متنوعة للتنظيم الإقليمي في منطقة خاصة ألا وهي بلاد الشام.

يعرض جان كلود دافيد ومحمد الدبيات في المقدمة الأنماط التي اعتمدتها المدينة في تكوين إقليمها أو العكس. فهما يستجوبان تنظيم الأقاليم المركزية، المرتبطة بشكل وثيق بمصالح السلطات التي عملت على تنميتها سعياً منها لتوثيق الاتصال بالخارج.

تنضوي المداخلات تحت خمسة مواضيع رئيسية تشكل هيكل هذا الكتاب والتي تتناول المدينة منذ المدن الأولى القديمة وحتى أيامنا هذه. فلقد تنوعت منذ الأصول أسباب نشوء المدن ووجودها.

تحاول دانييل ستوردور Daniele Strodeur أن تبني، من خلال تقييمها لما قدمت الثقافة النيوليتية في سورية، تحليلها العلمي انطلاقاً من تساؤل دقيق: ماهي الخصائص المعمارية والفنية والبنيوية المكتسبة خلال ما يقارب ثمانية آلاف سنة، والتي يجب أن تؤخذ بالحسبان لدى الحديث عن المدن الأولى؟ وتبين الكاتبة من جهة أخرى أنه ليس من الضروري أن يكون هناك تطور مسبق للانتقال من القرية إلى المدينة فقد وجد قبل المدن بزمن طويل قرى تأسست ونظمت تبعاً لمخطط مدروس مسبقاً.

أما جان كلود مارغرون Jean-Claude Margueron فهو يقدم اقتراحاً لفك لغز الدوافع التي تولد المدينة، من خلال مثالين من بداية العهد العمراني في وادي الفرات، بداية الألف الثالث قبل الميلاد، وهما مدينتا حبوبة وماري. فالمدينة ولدت هنا في رأس شبكة طرق أو عند تقاطع خطوط مواصلات، وهي في حالة المدينتين، خطوط الملاحة النهرية وبخاصة الأقنية. ويطرح المؤلف في الخاتمة سؤالاً حول أهمية الفعل التأسيسي كسيرورة طبيعية لإنشاء مدينة. فهل يكفي تحول القرية كمّاً ونوعاً لكي تولد مدينة؟

وفي فترات وأماكن أخرى، تكون المدينة ثمرة ظروف أخرى. إنها حالة سمخين، ذلك الموقع الحضري الموجود في منطقة شبه جافة والتي درسها ميشيل المقدسي Miche al-Maqdissi. إن مثال هذا الموقع الحضري يسمح بالتعرض لتأسيس أو لإعادة تأسيس أحدث للمدن الجديدة في سورية الوسطى في عهد البرونز الوسيط (2000 – 1600 ق.م). وفي هذا المثال بالذات، يشكل «التكوين العمراني» مرحلة سيرورة استقرار قبائل ما. وهو يعيد النظر إلى التنظيم السياسي والعسكري في المنطقة، من خلال مفهوم جديد للعمران والتنظيم الإقليمي.

أما إيف كالفيه Yves Calvet فهو يدرس التكوين التدريجي لمدينة ساحلية في عهد البرونز فوق موقع سابق. إنها حالة مدينة أوغاريت. لقد

ولدت هذه المدينة بوصفها عاصمة لمملكة وتلبية للحاجة إلى تنظيم اجتماعي يدور في فلك سلطة مركزية. ولقد ازدهرت بفضل النشاط التجاري إلى حين التخلي عنها في بداية القرن الثاني عشر من عصرنا، ويصف الكاتب بشكل واضح مستويين من المكان في المدينة: فهناك مملكة أوغاريت الصغيرة من جهة، وشبكة التبادل التجاري الواسعة التي تصل حتى مصر وما بين الرافدين من جهة أخرى.

وتتناول عدة مداخلات الأنماط العمرانية والإقليمية الجديدة «للإنشاءات» الهلنستية والرومانية.

ويبين بيير لوريش Pierre Leriche تبعاً للملاحظات التي جمعها في دورا–أوربوس (الصالحية) أن كل خلقٍ عمراني في سورية الهلنستية هو عبارة عن موقع متميز، فإن كون نمطاً قابلاً للتطور فهو يندمج، بالإضافة إلى ذلك، في مجموعة إقليمية ضمن إرث مشترك تحددت معالمه منذ العهد البدائي في زمن التوطن.

وفي تحليله لأشكال العمران المختلفة في سورية في العهد الهلنستي، يعبر بشير زهدي وعلى غرار بيير لوريش، عن تعقيد أشكال التنظيم الإقليمي استجابة لمشروع سياسي.

أما المداخلات الثلاث التالية المتعلقة بالموضوع الثاني من هذا الكتاب فتعرض نماذج أخرى من شأنها تثبيت هذه الرؤى:

فحسن حاطوم يصف نمو مدينة شهبا Philipoplis منذ عهد البرونز الوسيط وحتى القرن الثاني عشر من عصرنا، وكيف بلغ هذا النمو أوجه السياسي والاقتصادي في العهد الروماني.

ويحلل كلاوس ستيفان فرايبرغر Klaus Stefan Freyberger نتائج التنقيبات التي قام بها في قنوات. وهو يساهم في تحليله هذا بإعادة رسم تطور ونمو قاناتا القديمة في القرن الأول قبل الميلاد. فهنا كما في أماكن أخرى نلاحظ وجود التوسع وإعادة الهيكلة المعمارية وإعادة استخدام مواد البناء التي تميز أشكال النمو العمراني.

ثم يتساءل أربعة مؤلفين عملوا على العهد البيزنطي عن وظائف المدن، ذات المواقع المثالية للتبادل والاحتكاك لا سيما بين عالم البداوة عالم الاستقرار.

فجان ماري دنزر Jean-Marie Dentzer يوضح من خلال مثال بصرى الشام عمق التبدلات المرتبطة بهذا «التغريب أو محاكاة الغرب. ويلاحظ من دراسته للعهد البيزنطي ولا سيما الإسلامي أنواعاً من الفضاءات أكثر قدماً،» شرقية» أو محلية.

فالنسبة لجان شارل بالتي Jean-Charles Balty شجع الاستعمار اليوناني لسورية الشمالية على خلق مدن جديدة إضافية (تيترابوليس) حول مواقع معروفة مسبقاً وذلك نتيجة لقرار سياسي بهذا الخصوص. فهذه المدن تستعيد الوظائف الأزلية لمراكز سابقة وترتقي، ضمن إطار هلنستي، بالممارسات التقليدية «المحلية».

وتتركز ملاحظات مارتا تسوكوفسكا Martq Zuchowska عن شارع الأعمدة الكبيرة في تدمر الذي درسته في موسمين للتنقيب الأثري (1996-1997) كي تفند الآراء المعروفة إن كان فيما يتعلق بطبيعة هذا الشارع وتسلسل مراحله أو بنمط إنشائه.

أما عدنان البني فهو مهتم بإثبات أن الوظيفة التجارية (نشاط القوافل التجارية) لتدمر قد دعمتها في بداية العهد الحالي وظيفة دينية، وهي وظيفة الحج.

ويقارن هيوغ كينيدي Hugh Kennedy بين تطور مدينتين مجاورتين وهما جرش Gerasa وسكيتوبوليس / بيسان اللتان أنشئتا بالروح اليونانية الكلاسيكية نفسها، ولكنهما أصبحتا مختلفتين تبعاً للوظائف التي فرضتها السلطة الدينية على الثانية.

أما مقارنة الموضوع الرابع لهذا الكتاب وهو موضوع المدن الإسلامية فهي تتركز حول تنظيم الأقاليم ضمن نظام مفتوح لأرخبيل عمراني على مدى بلاد الشام وحول أنماط مراقبة المدينة لـ «إقليمها» على المستوى المحلي.

وهكذا فإن تييري بيانكي Thierry Bianquis يوضح تعدد المدن المتوسطة ذات الخصائص المتنوعة وذات الشخصيات الواضحة في ظروف من التنافس والمواجهة السياسية والاقتصادية والإقليمية.

وتحلل ألكسندرين غيران Alexandrine Guerine في دراستنا وضع إقليم دمشق في القرون الوسطى والمدينة نفسها والعلاقتين القبائل العربية معتمدة الفتنة التي عرفتها دمشق في نهاية القرن الثامن. فمدينة دمشق إذ تعطي أهمية كبيرة للسيطرة على إقليمها، فإن أمنها واستقرارها السياسي يتم عبر الغوطة، مكان التلاقي والمجابهة مع النظام القبلي.

أما ماري أوديل روسيه Marie-Odile Rouseet فهي تهتم بنمو رحبة الميادين وإقليمها من> القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر . فهنا يرتبط مستقبل مدينة باستثمار منطقة زراعية بالتبادل التجاري المعتمد على ظروف سياسية مؤثرة دوماً في مناطق حدودية كمنطقة الفرات .

والسؤال الذي يطرح نفسه في الإمبراطورية العثمانية كما في سورية المعاصرة هو المتعلق بطبيعة المناطق وكيف تسيطر المراكز العمرانية على الإقليم وتنظمه .

وهكذا تتعرض بريجيت مارينو Brigitte Marino إلى تطور بعض المدن وتحولها إلى أقطاب جذب إقليمية وإلى ارتحال الأقاليم التجارة من الشرق إلى الغرب , بين القرنين السادس عشر والثاني عشر .

و يكشف جان كلود دافيد Jean-Claude David معتمداً مثال حلب كيف أن التنظيم الإقليمي للمدينة يمكن أن يعيد التوازن للعلاقات بين الأقاليم المحلية المتنافسة والتي انغلقت على نفسها ضمن الاطار الضيق للحدود القومية المنبثقة عن المعاهدات التي تلت الحرب العلمية الأولى . ويقوم هذا التنظيم الجديد لسورية الداخلية بالاعتماد على القطب المركزي الذي كونته دمشق .

وهكذا فإن الأقاليم بالمعنى الحديث للكلمة إنما هي في طور النشوء والنضوج البطيء ضمن نظام جديد وهو الدولة الوطن الذي يبدو وكأنه

منقطع بعمق عن الماضي.

ويدافع محمد الدبيات Mohamed al-Ddbiyat عن فكـــرة أن ظـــهور المدن الصغيرة في سورية الوسطى لا يمكن فهمه إلا من خلال العودة إلـــى التاريخ العمراني السوري. فهناك بكل تأكيد، في المناطق الهامشية تحـــولات تتم عن الاختفاء أو عن عودة الحياة (أو إعـــادة اســـتثمار معـــاصرة لمـــدن تاريخية) واستمرار للمدن كما يشهد على ذلك أسماء المـــدن والعـــودة إلـــى الذاكرة التاريخية (أسطورة إنشاء المدينة).

ويندرج مبدأ استمرار المدن إذن في استمرار العودة إلى التاريخ وفـــي أهمية الذاكرة التي تؤسس الهوية العمرانيـــة والمحليـــة. إن إدراك المـــاضي واستيعابه هما اللذان يصنعان من التراث إرثاً حياً.

وبهذا تختم هذه الدراسة الجماعية.

وأخيراً تتناول فرانس ميترال France Metral انطلاقاً مـــن متابعتـــها لمدينة السخنة الحالية في البادية السورية، إلى الترابط المعقد بيـــن الشـــبكات الاجتماعية ذات الهوية القبلية والمدنية الثابتة، هذا الترابط الذي يعتمد علـــى التبادل التجاري بين مربي الأغنام ومدن الداخل الســـوري والـــذي يتكـــامل بفصل منظومتين من القيم: قيم البادية وقيم المدينة.

ويحلل جان كلود دافيد Jean- Claude David الظـــروف التاريخيـــة لظهور سيرورة معقدة للتعامل مع التراث في ســـورية وهـــو يشـــدد على مستويات التراث المختلفة: القومي، المديني والجمعي، الخ...

وتلاحظ فاتنة كردي Fatina Kurdi نتائج العلاقات التجاريـــة لمدينـــة حلب مع أوربا منذ القرن السادس عشر وحتى الآن. وتبيـــن أن تـــأثير هـــذه العلاقات على التنظيم العمراني لمدينة حلب قد بلغ ذروة أولـــى فـــي عـــهد الانتداب الفرنسي، ثم ذروة ثانية في الستينات والسبعينات، نتيجة لتأثر المدينة بالنظريات الأوربية في مجال العمران والعمارة. تفحص الكاتبة مدى نجـــاح المدينة في اقتباس الأشكال العمرانية المستوردة.

ويوضح جان كريستوف مُنسل Jean - Christophe Moncel في دراسته لبصرى الشام المعاني المختلفة لمفهوم المدينة بين القرنين التاسع عشر والعشرين. فالمدينة تنمو ليس فقط بإعادة تنظيم الرقعة المكانية التاريخية وإنما بالأحرى بالانتقال إذ هي تغزو مساحات جديدة.

وكخاتمة للكاتب يقترح أوليفييه أورانش Olivier Aurenche وجان ميترال Jean Metral وجهة نظر عالم الآثار الأنتوغرافي ووجهة نظر العالم الأنتروبولوجي. إذ يتعرض كل منهما إلى طرف من طرفي الحقبة الزمنية المعنية.

فأوليفييه أورانش يهتم بشكل خاص بالعمق التاريخي المعطى في المناقشات، حول المدينة. فإن كان الانتقال إلى الثقافة العمرانية قد حصل فيما بين الرافدين في عهد أوروك، فالذي برز إلى الوجود في سورية من خلال (حبوبة كبيرة)، النموذج المثالي للمدينة الشرقية. وأن مفهوم المدينة الدولة قد أخذ كيانه النهائي مع مدينة أوغاريت (الالفية الثانية قبل الميلاد)، تلك المدينة التي تملك تنظيماً لفضاءها العمراني وإقليماً محدداً. إن نمط المدينة الشرقية ومفهوم المدينة الدولة قد أثبتا نجاحهما وفي مقياسهما نفسه، في الفترة الإسلامية، أما الإنقطاع في هذا الاستمرار نجده في المرحلة اليونانية الرومانية. وفي جميع الأحوال تظل المدينة ثمرة انبثاق بطيء في ظروف محددة، لاتجاه جديد في ممارسة السلطة.

أما جان ميترال فينظم رؤياه الشاملة حول ثلاثة محاور ورئيسية للملتقى: ولادة ونمو المدن الأولى، الأقاليم في المدينة وأقاليم المدينة. أما الموروثات والتحولات في مكان العبور الذي تمثل في سورية دوماً فقد تحددت معالمها. وهو ينوه إلى ضرورة التشديد على تنوع سيرورات العمران وتنوع الأنماط العمرانية التي توجد غالباً معاً في المدينة الواحدة. وأما تكون الأقاليم وشبكات العلاقات فهو نتيجة البيئة والاقتصاد.

ويبقى علينا، حسب رأي جان ميترال، أن «ندخل في المدينة مع أهلها» لنتساءل كيف يعيشون بعضهم مع بعض.

إن سورية كيان حديث وقديم في آن واحد: لقد نشأت الدولة الوطنية السورية بين نهاية القرن السابع عشر وأيامنا هذه مع انهيار الإمبراطورية العثمانية. تعتبر سورية التاريخية بنظر الأثريين والمؤرخين المتخصصين بالفترات الرومانية والهلنستية والبيزنطية فضاءً معبراً وبالغ الأهمية نسبياً من الناحية التاريخية والثقافية والسياسية. فقد كانت سورية في العصر الأموي مركزاً لأرض شاسعة، تتجاوز بلاد الشام بكثير. وتقطعت المنطقة في عصور أخرى وتفتت إلى أقاليم تتبع أقاليم محيطة.

لا شك أن الهدف الأساسي لهذا الكتاب هو ليس إعطاء تعريف لسورية الوطنية أو التاريخية، أو أن نعرض المطالب المحتملة لهذا أو ذاك من الأقاليم المفقودة، أو أيضاً التفكير بنمط للمدينة، يمكن أن يكون «المدينة السورية»، استطاع أن يحافظ عبر القرون وآلاف السنين على خصوصيات هذا الكيان. لكن من المفيد المحاولة بتعيين كل ما استمر ودام والذي بمقدوره المشاركة بتكوين هوية عمرانية في سورية. إن الأشكال الفضائية الهلنستية أو الرومانية أو أحياناً الأقدم قد تركت بعض المعالم التي ما زالت مرئية في المدن الميتة أو التي ما زالت «حية» (حلب، دمشق، اللاذقية، أنطاكية إلخ). لقد شاركت في تكوين أشكال عمرانية لاحقة كانت مراحل لتكوين مدينة الحاضر. لكن هل لهذه الأشكال حالياً معنى آخر غير أثري أو تراثي؟ ومن جهة أخرى فإن الأشكال التي تعتبر نموذجية بالنسبة للمدينة العربية أو الإسلامية قد عُرِّفت غالباً ضمن إطار متناقض أساسي مع الماضي اليوناني - الروماني بإزالتها لأي أثر لهذا الموروث. ففي أي مجال انطبعت بالماضي الأشكال العمرانية السورية الحديثة وتوضعها الوظيفي والعادات الاجتماعية؟ سنحصل بالتأكيد على بعض المؤشرات عن ما هو أو عن ليس هو بلاد الشام وعن هوية تقريبية للمدن في سورية.